

تفسير
مفاتيح اللد

مجلد
الحلج نيرسي على الطائفة الدراني
المعروف في التفسير

مجلد
مجلد
مجلد
مجلد

2273

948

v.9-10

2273.948

v.9-10

al-Tihrānī

Muqtanayāt al-durar

DATE

ISSUED TO

2273.948

v.9-10

al-Tihrānī

Muqtanayāt al-durar

DATE

ISSUED TO

DATE ISSUED

DATE DUE

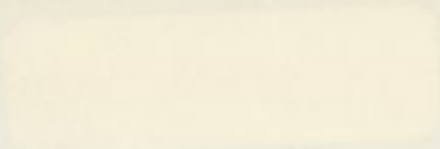
DATE ISSUED

DATE DUE

Princeton University Library



32101 072714049



al-Tihirānī, 'Alī ibn Husayn

Muḡtanayāt al-durar

الجزء التاسع

مِنْ كِتَابِ الْفَيْسِيَّةِ

الْمُسَمَّى بِمَقْنِيَّاتِ الدَّرَرِ

تأليف

الحاج ميرسيد علي الحارثي الطهراني

عَنْ اللَّهِ تَعَالَى

الْمَعْرِفُ فَبِالْفَيْسِيَّةِ

الناشر

الشيخ محمد الآخوندي
مدير

دار الكتب الإسلامية

بازار سلطاني - طهران

مطبعة الجيد بن بطهران

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزل القرآن نوراً وسراجاً وقمراً منيراً . و الصلاة والسلام على رسوله الذي انزل عليه الكتاب بياناً للناس و هدى و موعظة للمتقين ، وعلى آله الطيبين ثانی الثقلين . ولعنة الله على أعدائهم أجمعين . و بعد فقد بذل علماء الاسلام قديماً و حديثاً جهدهم في تفسير علوم القرآن و تبیین لغاته و مشكلاته ، ففريق فسر وألفاظه و بینوا حقائقه من مجازيه ، و جمع جمعوا أحكامه و بینوا حلاله و حرامه ، و طائفة كشفوا عن تأويلاته قناعه ؛ و كيفما كان ما وصلوا الا الى مبلغ علمهم و منتهى همهم ، و أنى لهم الوصول الى حقائق التنزيل و دقائق التأويل ، لان القرآن هو النور الذي أنزل الله على قلب حبيبه محمد صلى الله عليه و آله . الا أن المتمسكين بولاء أهل بيت الوحي المستضيئين بنور علمهم المأمورين بالتمسك بهم في حديث الثقلين قد اغترفوا من بحار علوم أهل بيت النبي غراً و غاصوا فيها و افتنوا منها درراً .

وهاهي المقتنيات الدرر ، قد اقتناها علم من الاعلام ثمرة الشجرة الطيبة و النخبة من السلالة الطاهرة : « الحاج الميرسيد علي الحائري » تغمده الله بغفرانه ، و اوتي كتابه هذا يمينه . قد اقتنى من الدرر أغلاها و من الغرر أسناها فحقيق أن يتنافس المتنافسون في الاستفادة منها .

و قد وفق الله تلميذه المستضيء بنور علمه المقتفى أثره : الحاج ميرزا عبدالحسين المعروف بمحسنين لبذل الجهد باحياء هذا السفر الجليل القيم . هذا و من الله سبحانه على عبده الزاكي صاحب الهمة القعساء و ارومة الفضل : الحاج محمود الكاشاني ؛ فأنعم عليه و شرفه باعطاء نفقة طبع الكتاب خدمة للدين و اتحافاً للطيفة والده السعيد الحاج محمد حسين الكاشاني طيب الله رمسه ، و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

و نشكر جميل مساعي الشاب الفاضل الاريب السيد الكاظم الموسوي المياموي حيث بذل جل أوقاته لمقابلة اجزاء الكتاب مع نسخة الاصل و تخريج الايات المنشورة في ثناياه و اسناد ما يهيم من رواياته و بعض الاصلاح فيه . و نسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتمامه بمحمد و آله .

لجنة التحقيق والتصحيح لدار الكتب الاسلاميه

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم

سورة سبأ

(مكية)

أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال : من قرأ سورة سبأ لم يبق نبي ولا رسول إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومسافحاً .

وروى ابن أذينة عن الصادق عليه السلام قال : من قرأ الحمدتين جميعاً : سبأ و فاطر في ليلة لم يزل ليلته في حفظ الله و كلامه ومن قرأهما في نهاره لم يصبه في نهاره مكروه وأعطى من خير الدنيا وخير الآخرة ما لم يخطر على قلبه ولم يبلغ منتهاه .
التفسير : لما ختم الله سورة الأحزاب ببيان الغرض في التكليف وأنه يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته افتتح هذه السورة بالحمد له على نعمته وكمال قدرته :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير (١) يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور (٢) وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين (٣) ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة ورزق كريم (٤) والذين سعوا في آياتنا معاجزين اولئك لهم عذاب من رجز اليم (٥) .

الحمد هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم ونقيضه الذم وهو الوصف بالقبيح على جهة التحقير ثم ينقسم فمنه ما هو أعلى ومنه ما هو أدنى والأعلى ما يقع على وجه العبادة ولا يستحقها إلا الله لأن إحصان الله لا يوازيه إحسان أحد من المخلوقين ويستحق سبحانه الحمد على الإحسان والإنعام والسور المفتحة بالحمد خمس سور : الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر .

ومن المعلوم أن نعم الله مع كثرتها غير مقدور على الإحصاء لكنّها واضحة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء قلنا : في هاتين النعمتين حالتان الابتداء والإعادة وفي كل من الحالتين له علينا منّة و يقتضي أن نقوم بشكرها وحمده فأشار سبحانه بنعمة الإيجاد بقوله : [الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض] وبنعمة الإبقاء والإعادة بقوله : [وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير] الحكيم الفاعل الذي فعله على وفق العلم والمصلحة والخير هو الذي يعلم عواقب الأمور وبدوها .

[يعلم ما يلج في الأرض] أي ما يدخل في الأرض من مطر أو ميتة أو كنز أو حبة [وما يخرج منها] من الأشجار والسنابل [وما ينزل من السماء] من أنواع

رحمته ومنها المطر والملائكة والوحي والقرآن [وما يعرج فيها] منها الكلم الطيب لقوله : « إليه يصعد الكلم الطيب ^(١) » ومنها الأرواح ومنها الأعمال الصالحة لقوله : « والعمل الصالح يرفعه » وقدّم ما يلج في الأرض على غيره لأنّ الجنة تبذر ثمّ تسقى وهو تعالى يدبّر كلّ هذه الأمور بعلمه وحكمته [وهو الرحيم الغفور] أي هو الرحيم بعباده مع علمه بالمعاصي منهم فلا يجادلهم بالعقوبة ويمهلهم للتوبة و غفور و سائر عليهم ذنوبهم في الدنيا و متجاوز عنها في العقبى [وقال الذين كفروا] أي منكمروا البعث [لآئتنا الساعة] يعني يوم القيامة فردّ سبحانه عليهم بقوله : [قل بلى وربّي لتأتينكم] وأكّد إتيانها باليمين .

قلو قيل : كيف يتأكّد باليمين مع أنّهم مشركون والمسألة الأصوليّة

لا تثبت باليمين ؟

فالجواب أنّه سبحانه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله : « ليجزي الذين آمنوا » وبيان كونه دليلاً هو أنّ المسيء قد يبقى في الدنيا مدّة مديدة في اللذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قديم في دار الدنيا في الآلام الشديدة مدّة مديدة ويموت عليها فلولا دار يكون الجزاء فيها لكان الأمر في نهاية الظلم وعلى خلاف الحكمة والدين .

هو [عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين] أي في اللوح المحفوظ يقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة وقوله : « في السماوات » إشارة إلى علمه بالأرواح « وفي الأرض » إشارة إلى علمه في الأجسام والإنسان روح وجسم ولا يستبعد معاده والإعادة للجزاء .

فقال : [ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات] أي ليكافئهم بما يستحقّونه من الثواب على صالح أعمالهم [أولئك لهم مغفرة ورزق كريم] ستر لذنوبهم ولهم مع ذلك رزق هيسى لا تنقيص فيه ولا تكدير ، و قيل : معنى الرزق الكريم الجنة . والرزق الكريم ما يأتي من غير طلب .

وعن محمد بن إسماعيل البخاري أنه قال : قال رسول الله ﷺ : يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من الإيمان . ووصف الرزق بقوله : « كريم » ولم يصف المغفرة لأن المغفرة واحدة وهي للمؤمنين والرزق منه شجرة الرزقوم والحميم ومنه الفواكه والشراب الطهور فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها .

ثم قال سبحانه : [والذين سعوا في آياتنا معاجزين] أي الذين سعوا في إبطال حججنا وفي تهديد الناس عن قبولها مقدّرين إعجاز ربهم بزعمهم وظانّين أنّهم يفوتونه و يسعون في ترويح كذبيهم و باطلهم [لهم] في مقابلة الرزق الكريم [عذاب] من جنس سوء العذاب شديد الإيلام و الزجر سوء العذاب كأنه قال : عذاب مولم من أسوء العذاب .

قوله تعالى : ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق و يهدي الى صراط العزيز الحميد (٦) و قال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق جديد (٧) افترى على الله كذباً ام به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد (٨) افلم يروا الى ما بين ايديهم و ما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض او نسقط عليهم كسفا من السماء ان في ذلك لآية لكل عبد منيب (٩) .

قوله : [ويرى الذين] يجوز أن يكون منصوباً عطفاً على « ليجزي » و يجوز أن يكون مرفوعاً على الاستئناف أي و يعلم الذين أعطوا العلم و المعرفة بوحداية الله و هم أصحاب محمد ﷺ عن قتادة وقيل : و هم المؤمنون من أهل الكتاب عن الضحاك . وقيل : هم كل من أوتي العلم بالدين و هذا أولى لعمومه .

[الذي أنزل إليك من ربك هو الحق] يعني القرآن لأنهم يتدبرون و يتفكرون فيه فيعلمون أنه ليس من قبل البشر وهو أي القرآن [يهدي إلى صراط العزيز الحميد] أي دين الله القادر الذي لا يغالب وهو المحمود في جميع أفعاله وفي الآية دلالة على فضل العلم وفضيلة العلماء .

ثم عاد سبحانه إلى الحكاية عن الكفار وقال : [الذين كفروا] بعضهم لبعض أو القادة للأتباع على وجه الاستبعاد والتعجب [هل ندلكم على رجل] يعنون عبداً ^{والمؤمنين} [ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق أنكم لفي خلق جديد] أي يزعم أنكم تبعثون بعد أن تكونوا عظاماً ورفاتاً وتراباً أي إذا تفرقت أو صالكم وقطعتم كل تقطيع وأكلتكم الأرض أو السباع والطيور ، و المراد بالجديد المستأنف المعاد أي كيف يتجدد خلقكم بأن تنشروا وتبعثوا [أفترى على الله كذباً] أي هل كذب على الله متممداً حين زعم أننا نبعث بعد الموت وهو استفهام تعجب منهم وإنكار [أم به جنّة] أي أو به جنون فهو يتكلم بما لا يعلم .

ثم ردّ سبحانه عليهم قولهم : فقال : ليس الأمر على ما قالوا من الافتراء والجنون [بل الذين لا يؤمنون بالآخرة] أي هؤلاء المنكرون للبعث والجزاء [في العذاب والضلال البعيد] من الحق .

ثم وعظهم سبحانه فقال : [أفلم يروا إلى ما بين أيديهم] أي أفلم ينظر هؤلاء الكفار إلى ما بين أيديهم [وما خلفهم من السماء والأرض] كيف أحاطت بهم وذلك لأنّ الإنسان حين نظر رأى السماء والأرض قدّامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ولا يقدر على الخروج منها فيستدلّ بهما على قدرة الله ويعرفون أننا قادرون على إهلاكهم .

فقال : [إن نشأ نخسف بهم الأرض] كما خسفنا بقوام و كما خسفنا بقارون [أو نسقط عليهم كسفاً من السماء] أي قطعة من السماء نوقعها عليهم ونغطيهم ونهلكهم [إن في ذلك] أي فيما ترون من السماء والأرض والقدرة [لآية لكل عبد منيب] لدلالة لكل عبد رجع عن معصيته إلى طاعته فلم لا يرددعون هؤلاء من التكذيب والكفر ؟

قوله تعالى : و لقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال اوبى معه و الطير و أننا له الحديد (١٠) ان اعمل سابقات و قدر في الردوا عملوا صالحاً انى بما تعملون بصير (١١) و لسليمان الريح غدوها شهر و رواحها شهر و أرسلنا له عين القطر و من الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه و من يزغ منهم عن امرنا نذقه من عذاب السعير (١٢) يعملون له ما يشاء من محاريب و تماثيل

و جفان كالجواب و قدور راسيات اعملوا آل داود شكراً و قليل من عبادى الشكور (١٣) فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الارض تاكل منسأته فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين (١٤) .

لما تقدم ذكر عباد الله المنيبين إليه ذكر منهم من أناب و أصاب فقال سبحانه : [و لقد آتينا داود منافعاً] أي أعطينا داود منافعاً و إحساناً و فضلناه على غيره بما أعطيناه من النبوة و الكتاب و فصل الخطاب .

ثم فصل سبحانه ما أعطاه فقال : [يا جبال أوّبي معه و الطير] أي قلنا للجبال : يا جبال سبّحي معه إذا سبّح ، و أمر الله الجبال أن تسبّح معه إذا سبّح فسبّحت معه ، و تأويله : ارجعي معه التسبيح من آب يؤوب ، و يجوز أن يكون سبحانه فعل في الجبال ما يأتي به منها التسبيح معجزاً له و أمّا الطير فيجوز أن يسبّح و يحصل له من التمييز ما يتأتى منه ذلك بأن يزيد الله في فطنته فيفهم ذلك . و قيل : المعنى : يا جبال سيري معه فكانت الجبال و الطير تسير معه أينما سار و كان ذلك معجزاً له و التأويل السير بالنهار . و قيل : معناه ارجعي إلى مراد داود فيما يريد من استنباط عين و استخراج معدن و وضع طريق .

القمي قال : كان داود إذا مرّ بالبراري يقرأ الزبور تسبّح الجبال و الطير و الوحوش معه و ألان الله الحديد بيده كالشمع حتى كان يتخذ منه ما أراد و قال : أعطى داود و سليمان ما لم يعط أحداً من الأنبياء من الآيات علّمهما منطق الطير و ألان لهما الحديد و الصفر من غير نار و مطرقة و جعلت الجبال أن يسبّحن مع داود .

[أن اعمل سابقات] أي قلنا له : أن اعمل من الحديد دروعاً تامّات . و إنما ألان الله الحديد لداود لأنّه أحبّ أن يأكل من كسب يده فالان له الحديد و أمره بصناعة الدرع و كان أوّل من اتخذها و كان يبيعها و يأكل من ثمنها و يطعم عياله و يتصدق منه . قال الصادق عليه السلام : و ذلك لأنّ الله أوحى إليه يا داود نعم العبد أنت إلا أنّك تأكل من بيت المال فبكى داود أربعين صباحاً فالان الله له الحديد فكان يعمل في كلّ يوم درعاً

و يبيعها بألف درهم فاستغنى عن بيت المال .

قوله : [وقدّر في السرد] أي عدّل في نسج الدروع و منه قيل لصانعيها : سرّاد و زرّاد ، المعنى : لا تجعل الحلق دقاقاً فتكسر الحلق ولا غلاظاً فتثقل . و قيل : معناه اجعله و اصنعه بقدر الحاجة .

حكى أن لقمان حضر داود عند أوّل درع عملها فجعل يتفكّر فيها و لا يدري ما يريد أن يصنع داود و لكن لم يسأله حتّى فرغ داود منها ثمّ قام فلبسها و قال : نعم جنة الحرب هذه فقال لقمان عند ذلك : الصمت حكمة و قليل فاعله .

[و اعملوا صالحاً] أي وقلنا : اعمل أنت و أهلّك الصالحات و هي الطاعات شكراً لله على عظيم نعمه [إني بما تعملون بصير] أي أنا عالم بما تفعلونه لا يخفى عليّ شيء ممّا تفعلونه من أفعالكم .

ثمّ ذكر سبحانه ما آتى سليمان و أعطاه من الفضل و الكرامة فقال : [و لسليمان الريح] أي و سخّرنا لسليمان الريح [غدّوها شهر و رواحها شهر] أي مسير الريح في النهار إلى الظهر مسيرة شهر و من الظهر إلى العشاء مسيرة شهر فكانت تسير في تمام اليوم مسيرة شهرين للراكب . قيل : كان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر فارس و بينهما مسيرة شهر للمسرع و يروح من اصطخر و يبيت بكابل و بينهما مسيرة شهر تحمله الريح مع جنوده أعطاه الله الريح بدلاً من الصافنات الجياد .

[و أسلّنا له عين القطر] أي أذبناله عين النحاس و أظهرناها له قالوا : أٌجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهنّ جعلها الله له كالماء .

[و من الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربّه] أي و سخّرنا له من الجنّ من يعمل له بحضرة و أمام عينهما يأمرهم به من الأعمال كما يعمل الآدميّ بين يدي الآدميّ بإذن الله و كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يكلّفهم الأعمال مثل عمل الطين . قال ابن عباس : سخّرهم الله لسليمان و أمرهم بطاعته فيما يأمرهم به و في الآية دلالة على أنّه قد كان من الجنّ من هو غير مسخّر له .

قوله : [و من يرغ منهم عن أمرنا] منهم من المسخّرين [نذقه من عذاب السعير] أي

و من يعدل من هؤلاء الجنّ المسخرين نذقه عذاب النار في الآخرة و في الآية دلالة على أنهم قد كانوا مكلفين . و قيل : معناه نذقه عذاب النار في الدنيا وأن الله سبحانه و كل بهم ملكاً بيده سوط من نار فمن زاغ منهم عن طاعة سليمان ضربه ضربة أحرقتة .

قوله : [يعملون له ما يشاء من محارب] و هي بيوت العبادة أو البيوت الشريفة العالية و كان مما عملوه بيت المقدس و قد كان الله عزّ وجلّ سلط على بني إسرائيل الطاعون فهلك خلق كثير في يوم واحد فأمرهم داود أن يغتسلوا و يبرزوا إلى الصعيد بالذراريّ و الأهلين و يتضرّعوا إلى الله لعلّه يرحمهم و ذلك صعيد بيت المقدس قبل بناء المسجد و ارتفع داود فوق الصخرة فخرّ ساجداً يبتهل إلى الله و سجدوا معه فلم يرفعوا رؤوسهم حتّى كشف الله عنهم الطاعون .

فلما أن شفّع الله داود في بني إسرائيل جمعهم داود بعد ثلاث و قال لهم : إن الله قدمنّ عليكم و رحمكم فجددوا له شكراً بأن تتخذوا من هذا الصعيد الذي رحمكم الله فيه مسجداً ففعلوا و أخذوا في بناء بيت المقدس و كان داود ينقل الحجارة لهم على عاتقه و كذلك خيار بني إسرائيل حتّى رفعوه قامة ولد داود يومئذ سبع وعشرون و مائة سنة فأوحى الله إلى داود أن تمام بنائه تكون على يدي ابنه سليمان .

فلما صار داود ابن أربعين و مائة سنة توفاه الله و استخلف سليمان فأحبّ إتمام بيت المقدس فجمع الجنّ و الشياطين و قسم عليهم الأعمال يخصّ كل طائفة منهم بعمل فأرسل الجنّ و الشياطين في تحصيل الرخام والمها^(١) الأبيض الصافي من معادنه و أمر ببناء المدينة من الرخام و الصفائح و جعلها اثني عشر ربضاً وأنزل كل ربض منها سبطاً من الأسباط .

ولما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في تميم المسجد فوجه الشياطين فرقة يستخرجون الذهب و اليواقيت من معادنها و فرقة يقلعون الجواهر و الأحجار من أماكنها و فرقة يأتون بالمسك و العنبر و سائر الطيب و فرقة يأتونه بالدرّ من البحار فأوتي بشيء من

(١) الرخام : المرمر و المها جمع المهاة مثل لها جمع لهات : البلور ، و الصفائح جمع الصفحية : الحجر العريض ، و الربض : مسكن القوم أو ما حول المدينة من بيوت و مساكن أو هو سور المدينة .

ذلك لا يحصيه إلا الله ثم أحضر الصنّاع و أمرهم بنحت تلك الأحجار حتى صيروها ألواحاً و معالجة تلك الجواهر و اللاّكي قال : و بنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض و الأصفر و الأخضر و عمدته بأساطين الملبأ الصافي و سقفه بألواح الجواهر و فضض سقفه و حيطانه باللاّكي و اليواقيت و الجواهر و بسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن في الأرض بيت أبهى و لا أنور من ذلك المسجد كان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر . فلمّا فرغ منه جمع إليه أخبار بني إسرائيل فأعلمهم أنّه بناء لله فاتخذوا ذلك اليوم عيداً .

فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزا بخت نصر بني إسرائيل و خرب المدينة و هدمها و نقض المسجد و أخذ ما في سقفه و حيطانه من الذهب و الفضة و الدرّ و الجواهر فحملها إلى دار مملكته من أرض العراق .

قال سعيد بن المسيّب : لمّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس تغلّقت أبوابه فعالجها سليمان فلم تنفتح حتى قال في دعائه : بصلوات أبي داود إلّا فتحت الأبواب فتحت ففرغ له سليمان عشرة آلاف من قرأء بني إسرائيل خمسة آلاف بالليل و خمسة آلاف بالنهار فلا يأتي ساعة من ليل و لا نهار إلّا و يعبد الله فيها فهذا معنى قوله : « يعملون له ما يشاء من محارب و تمائيل » إشارة إلى الأبنية الرفيعة و « التمايل » ما يكون فيها من النقوش أي صوراً من نحاس و شبه (١) و رخام و زجاج كانت الجنّ تعملها ثم اختلفوا فقال بعضهم : كانت صوراً للحيوانات و قال آخرون : كانوا يعملون صور السباع و البهائم على كرسيه ليكون أهيب له فذكروا أنّهم صوروا أسدين أسفل كرسيه و تسرين فوق عمودي كرسيه فكان إذا أراد أن يصعد الكرسيّ بسط الأسدان ذراعيهما وإذا علا على الكرسيّ نشر النسران أجنحتهما فظلالاه . و يقال : إنّ ذلك كان ممّا لا يعرفه أحد من الناس فلمّا حاول بخت نصر صعود الكرسيّ بعد سليمان حين غلب على بني إسرائيل لم يعرف كيف كان يصعد سليمان فرفع الأسد ذراعيه فضرب ساقه فقدّها فخرّ مغشياً عليه فما جسر أحد بعده أن يصعد ذلك الكرسيّ .

(١) الشبه : النحاس الأصفر .

و قالوا : و لم تكن ذلك اليوم التصاوير محرمة و هي محظورة في شريعة نبينا
فإنه عليه السلام قال : لعن الله المصورين و يمكن أن يكره ذلك في زمن دون زمن كما أن
المسيح كان يصور بأمر الله من الطين كهيئة الطير . و قال ابن عباس : كانوا يعملون صور
الأنبياء و العباد في المساجد ليقنّدى بهم و روي عن الصادق عليه السلام أنه قال : و الله ما هي
تماثيل النساء و الرجال ولكنها الشجر و ما أشبهه و التماثيل واحدها تمثال و أصلها
من المثول و هو القيام كأنه نصب قائماً . و منه الحديث : من سرّه أن يمثل له الناس
فليتبوّء مقعده من النار .

قوله تعالى : [وجفان كالجواب] أي يعملون له صحافاً في الكبر كالجابية و هي
الحياض التي يجمع و يجبي فيها الماء و كان سليمان يطعم جنده و يصلح طعام جيشه
في مثل هذه الجفان فإنه لم يمكنه أن يطعمهم في مثل قصاع الناس لكثرتهم و كان
يجمع على كل جفته ألف رجل يأكلون بين يديه [و قدور راسيات] أي مراحل ثابتات
لا يزلن عن أمكنتهن لعظمتهم و كانت باليمن . و قيل : كانت كالجبال عظيمة يحملونها
مع أنفسهم .

ثم خاطب سبحانه آل داود و أمرهم بالشكر فقال : [اعملوا آل داود شكراً] أي
اعملوا بطاعة الله شكراً له و فيه دلالة على وجوب شكر النعمة وأن الشكر طاعة تعظيم
للمنعم و خص الأمر بآل داود فإن لقراءة الأنبياء أثراً في القرب . قوله [و قليل من
عبادي الشكور] و الشكور من تكرر منه الشكر لأنه المبالغة في الشاكر و في هذا
دلالة على أن المؤمن الشاكر يقل في كل عصر .

قوله : [فلمّا قضينا عليه الموت] فلمّا حكمنا على سليمان بالموت [ما دلّم على
موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته] أي مطرده ، آلة الطرد ، من نسأت البعير إذا طردته .
أي ما دلّ على موته إلا الأرض و لم يعلموا بموته حتّى أكلت عصاه فسقط فعلموا أنه
ميت و ذلك لأن سليمان كان يعتكف في مسجد بيت المقدس الشهر و الشهرين و السنة
و السنتين و اليوم و اليومين يقف للعبادة منتصباً و إذا عجز عن القيام في العبادة يتكئ
على عصاه و يتعبّد ولا يخرج من معبده و يدخل فيه طعامه و شرابه .

و كان آصف يدبر أمره في الملك فلما كان في المرة التي مات فيها ولم يكن يصبح يوماً إلا و تنبت شجرة كان يسأله سليمان فتخبره عن اسمها و نفعها و ضررها فرأى يوماً نبثاً فقال : ما اسمك ؟ قال : الخرنوب قال : لأي شيء أنت ؟ قال : للخراب فعلم أنه سيموت فقال : اللهم عم^(١) على الجن موتي ليعلم الإنس أنهم لا يعلمون الغيب و كان قد بقي من بنائه سنة و قال لأهله : لا تخبروا الجن موتي حتى يفرغوا من بنائه و دخل محرابه و قام و اتكأ على عصاه فمات و بقي سنة و تم البناء ثم سلط الله على منسأته الأروسة حتى أكلتها فخر ميتاً فعرف الجن موته و كانوا يحسبونه حياً لما كانوا يشاهدون طول قيامه قبل ذلك .

و كان في إمامته قائماً و بقائه كذلك أغراض : منها إتمام البناء ، و منها أن يعلم الإنس أن الجن لا يعلم الغيب و أنهم في ادعاء ذلك كاذبون و منها أن يعلم أن من حضر أجله فلا يتأخر إذ لم يؤخر سليمان مع جلالة شأنه .

و روي أنه أطلعه الله على حضور وفاته فاغتسل و تحنط و تكفن و الجن في عملهم . و روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن سليمان أمر الشياطين فعملوا له قبة من قوارير فبينما هو قائم متسكى على عصاه في القبة ينظر إلى الجن كيف يعملون و هم ينظرون إليه و لا يصلون إليه إذا رجل معه في القبة فقال : من أنت فقال : أنا الذي لا أقبل الرشى ولا أهاب الملوك فقبضه و هو قائم متسكى على عصاه في القبة قال : فمكثوا سنة يعملون له حتى بعث الله الأروسة فأكلت منسأته و قد تم البناء .

[فلما خر] سليمان ميتاً [تبيئت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين] تبيئت الشيء إذا علمته بعد التباسه عليك أي علمت الجن علماً يبيناً بعد التباس الأمر عليهم أن لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته و لم يلبثوا بعده حولاً في تسخيره .

و في قوله : « تبيئت الجن » أقوال : قيل : ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فحينئذ قوله : « أن لو كانوا يعلمون » بدلا شتمال من الجن و قرئ « تبيئت الجن » على البناء

(١) امر من عمى بمعنى تعمية .

للمفعول^(١) على أن المتبيين في الحقيقة هو «أن» وما في حيزها لأنه بدل والتقدير قال أبو علي :
فلما خسر تبين أمر الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب فالتبين حصل للإنس
أن الجن لا يعلمون الغيب وانكشف هذا الأمر للإنس وذلك لأن الجن ما أدعوا علم الغيب
ولكن الإنس اعتقدت فيهم أنهم يعلمون الغيب فأبطل الله عقيدتهم وهذا المعنى يؤيد قراءة ابن
عباس والضحاك حيث أنهما قرءا « تبينت الإنس » وهو قراءة علي بن الحسين وأبي
عبد الله عليه السلام وهكذا هو في قراءة عبد الله بن مسعود ومصحفه فقراءة يعقوب على البناء
للمجهول يؤول إلى قراءة علي بن الحسين والصادق عليه السلام .

و ذكر أهل التاريخ أن عمر سليمان عليه السلام كان ثلاثاً وخمسين سنة مدة ملكه
منها أربعون سنة ، و ملك يوم ملك و هو ابن ثلاث عشر سنة و ابتداء في بناء بيت المقدس
لأربع سنين مضي من ملكه .

و أما الوجه في عمل الجن تلك الأعمال العظيمة فهو أن الله تعالى زاد في
أجسامهم و قوتهم و غير خلقهم عن خلق الجن الذين لا يرون للطافتهم ورقة أجسامهم
على سبيل الإعجاز الدال على نبوة سليمان فكانوا بمنزلة الأسراء في يده فلما مات
عليه السلام جعل الله خلقهم على ما كانوا عليه فلا يتغيروا لهم في هذا الزمان شيء من ذلك .

و في العلل والعيون عن الرضا عليه السلام عن آبائه أن سليمان قال ذات يوم لأصحابه :
إن الله وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي سخر لي الريح و الإنس و الجن و الطير
و الوحوش و علمني منطق الطير و آتاني من كل شيء و مع جميع ما أئيت ما تم لي
سرور يوم إلى الليل و قد أحببت أن أدخل قصري في غد فأصعد أعلاه و أنظر إلى ممالك
ولا تأذونوا لأحد علي لئلا يرد علي ما ينغض علي يومي قالوا : نعم فلما كان من الغد أخذ عصاه
بيده و صعد إلى أعلى موضع من قصره و وقف متكئاً على عصاه ينظر إلى مملكه مسروراً
مما أوتي فرحاً بما أعطي إذ نظر إلى شاب حسن الوجه و اللباس قد خرج عليه من
بعض زوايا قصره فلما بصره سليمان قال له : من أدخلك إلى هذا القصر و قد أردت أن

(١) أي على قراءة يعقوب و هو ضم التاء و الباء و كسر الياء من تبينت و لا فرق

فان لفظ تبين ههنا لازم غير متعد . انظر مجمع البيان ج ٤ ص ٣٨١ .

أخلو فيه هذا اليوم فباذن من دخلت؟ قال الشاب: أدخلني هذا القصر ربّه و بإذنه دخلت فقال: ربّه أحقّ به منّي فمن أنت؟ قال: أنا ملك الموت قال: و فيما جئت؟ قال: جئت لأقبض روحك قال: امض لما أمرت به فهذا يوم سروري و أرى الله عزّ وجلّ أن يكون لي سروري دون لقائه فقبض ملك الموت روحه و هو متّكئ على عصاه.

فبقي سليمان متّكئاً على عصاه وهو ميت ما شاء الله والناس ينظرون إليه وهم يقدرون أنّه حيّ فافتتنوا فيه واختلفوا فمنهم من قال: قد بقي سليمان متّكئاً على عصاه هذه الأيّام الكثيرة ولم يتعب ولم ينم ولم يأكل ولم يشرب إنّ ربنا الذي يجب علينا أن نعبدّه، وقال قوم: إنّ سليمان ساحر يريدنا أنّه واقف متّكئ على عصاه سحر أعيننا وليس كذلك وقال المؤمنون: إنّ سليمان هو عبد الله ونبيّه يدبّر الله أمره بما يشاء. فلمّا اختلفوا بعث الله الأرضة فدبت في عصاه فلمّا أكلت انكسرت العصا وخرّ سليمان من قصره على وجهه فشكرت الجنّ الأرضة صنعها فلاجل ذلك لا يوجد في مكان إلّا و عندها ماء وطين.

وفي الإكمال عن النبي ﷺ: عاش سليمان بن داود سبعمائة واثني عشر سنة.

قوله تعالى: لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور (١٥) فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خبط وائل وشيء من سدر قليل (١٦) ذلك جزيناهم بما كفروا و هل نجازي الا الكفور (١٧) وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي و اياماً آمنين (١٨) فقالوا ربنا باعدين اسفارنا وظلموا انفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور (١٩).

[لقد كان لسبأ] ثمّ يسنّ عن قصّة سبأ بما دلّ على حسن عاقبة الشكور مثل داود وسوء عاقبة الكفور مثل سبأ، وسبأ أبو عرب اليمن كلّها وقد سمّي به القبيلة وفي الحديث عن فروة بن مسيك أنّه قال: سألت رسول الله ﷺ عن سبأ أُرجل هو أم امرأة؟

فقال : هو رجل من العرب ولد عشرة تيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة فأما الذين تيامنوا فالأزدو كندة ومذحج والأشعرون وأنمار وخير فقال رجل من القوم : ما أنمار قال : الذين منهم خشعم وبجيلة وأما الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسان فالمراد بسبأ ههنا القبيلة الذين هم أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود وأظن أن سبأ لقب واسمه عبد شمس وإنما لقب بهذا اللقب لأنه أول من سبى وغار .

[في مسكنهم] وقرئ « في مساكنهم » وفقاً للمعنى و « في مسكنهم » على المصدرية والتقدير : في مواضع سكنهم فلما جعل المسكن كالسكنى والسكون أفرد كما يفرد المصادر [آية] أي علامة وحجة على معرفة الله وقدرته .

ثم فسر الآية فقال : [جنتان عن يمين وشمال] أي بستانان عن يمين البلد وشماله لمن أتى البلدة والمراد جماعتان من البساطين والجماعتان في تقاربهما وتضامتهما كأنهما جنة واحدة ولم يرد جنتين اثنتين والمعنى أنها متصلة بعضها ببعض وكان من كثرة النعم أن المرأة كانت تمشي والمكتل على رأسها فيمتلئ بالفواكه من غير أن تمس وتقطف بيدها شيئاً ولم يكن في قريتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وكان الغريب إذا دخل بلدهم وفي ثيابه قمل ودواب ماتت والمراد بالآية قيل : هذه الأمور وقيل : الآية كانت ثلاث عشرة قرية في كل قرية نبي يدعوهم إلى الله .

[كلوا من رزق ربكم] أي كان الأنبياء يقولون لهم : كلوا من هذه النعم [واشكروا له] يزدكم من نعمه واستغفروه يغفر لكم [بلدة طيبة] أي كل نبي قرية يقول لأهلها : هذه بلدة مخضبة نزهة عذبة وليست بسبخة ، طاهرة عن المؤذيات حتى الوباء والأمراض وما كان فيها حر يؤذي في القيظ ولا يبرد يؤذي في الشتاء [ورب غفور] كثير المغفرة للذنوب [فأعرضوا] عن الحق ولم يشكروا ولم يقبلوا ممن دعاهم إلى الله من أنبيائه [فأرسلنا عليهم سيل العرم] وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبأ من أودية اليمن وكان هناك جبالان يجتمع ماء المطر والسيول بينهما فسدوا بين الجبلين فإذا احتاجوا إلى الماء نقبوا السد بقدر الحاجة ويسقون زروعهم وبساتينهم فلما كذبوا رسلهم وتركوا

أمر الله فبعث الله في الردم جرذاً نقت ذك الردم وفاض الماء عليهم فأنرقهم . قال ابن الأعرابي : « العرم » السيل الذي لا يطاق وقصة كهانة طريقه الكاهنة وعمرو بن عامر المزريقاء معروفة لاحاجة لذكرها (١) .

[وبدلناهم جنتهم] اللتين فيهما أنواع الفواكه [جنتين] أخرأوين ، سماهما جنتين لآزدواج الكلام كما قال : « ومكروا ومكر الله » (٢) و « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه » (٣) [ذواتي أكل خمط و أثل] أي صاحبتني أكل وهو اسم للثمر من كل شجر قال ابن عباس : « الخمط » الأراك وثمر الخمط البربر . وقيل : الخمط شجر الغضا . وقيل : هو كل شجر له شوك و « الأثل » الطرفاء . وقيل : هو السمر [وشي من سدر قليل] يعني إن الأثل والخمط كانا أكثر فيهما من سدر وهو النبق وكان شجرهم خير شجر فصيره الله شر شجر بسوء أعمالهم .

[ذلك جزيناهم بما كفروا] أي ذلك الذي فعلنا بهم بسبب كفرهم [وهل نجازي] بهذا الجزاء [إلا الكفور] الذي يكفر نعم الله .

وقد استدلل الخوارج بهذا على أن مرتكب الكبيرة كافر وهذا الاستدلال غير شديد من حيث إنه سبحانه إنما يسن بذلك أنه لا يجازي بهذا النوع من العذاب الذي هو الاستيصال إلا الكافر ويجوز أن يعذب الفاسق بغير ذلك العذاب .

وقيل : معنى الآية هل نجازي بجميع سيئاته إلا الكافر لأن المؤمن قد يكفر عنه بعض سيئاته . وقيل : معنى الآية أن المجازاة من التجازي ، وهو التقاضي أي لا يقتضي ولا يرتجع ما أعطي إلا الكافر وأنهم لما كفروا ارتجع منهم النعمة .

قوله : [وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة] أي إننا جعلنا بينهم وبين القرى الشام التي باركنا فيها بالماء والشجر قرى مواصلة قرية متصلة بقرية وكان متجرهم من أرض اليمن إلى الشام وكانوا يبيتون بقرية ويقولون بأخرى حتى

(١) بل سيجي ذكرها عن قريب .

(٢) آل عمران : ٥٤ .

(٣) البقرة : ١٩٤ .

يرجعوا وكانوا لايحتاجون إلى زاد في طريقهم من وادي سبأ إلى الشام ومعنى الظاهرة أن الثانية كانت ترى من الأولى لقربها منها .

[وقد رنا فيها السير] أي وجعلنا السير من القرية إلى القرية مقداراً واحداً وهو نصف يوم وقلنا لهم : [سيروا فيها ليالي وأياماً] أي ليلاً شتتم المسير بلا خوف أو نهار [آمنين] من الجوع والعطش والسباع والسارق وكل المخاوف والمراد بيان تكامل النعمة عليهم سفرأ وحضراً .

ثم أخبر سبحانه أنهم بطروا وبغوا [فقالوا ربنا باعدين أسفارنا] أي اجعل بيننا وبين الشام فلولاً ومفاوز لنركب إليها الرواحل ونقطع المنازل وهذا كما قالت بنو إسرائيل : لما ملأوا النعمة حيث قالوا : اخرج لنا مما تنبت الأرض من قلعها بدلاً من المن والسوى . [وظلموا أنفسهم] بارتكاب المعاصي والكفر [فجعلناهم أحاديث] لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم ويضربون بهم المثل فيقولون : تفرقوا أيادي سبأ إذا تشتتوا أعظم التشتت [ومزقناهم كل ممزق] أي فرقناهم في البلاد كل تفرق [إن في ذلك لآيات] أي دلالات [لكل صبار] على الشدائد [شكور] على النعماء أو صبور عن المعاصي شكور للنعم بالطاعات .

ومختصر قصة طريفة الكاهنة أنها ألفت^(١) إلى عمرو بن العامر الذي يقال له مزينة ابن ماء السماء وكانت رأت في كهانتها أن سد مأرب سيخرب وإته سيأتي سيل العرم فيخرب الجنيتين فباع عمرو أمواله وسار هو وقومه إلى مكة فأقاموا بها وما حولها فأصابهم الحمى وكانوا ببلد لا يعرفون فيه الحمى فدعوا طريفة وشكوا إليها الذي أصابهم فقالت لهم : قد أصابني الذي أصابكم وهو مفرق بيننا قالوا : فما ذات أمرين قالت : من كان منكم ذاهم بعيد وجمل شديد و مزاد جديد فيلحق بقصر عمتان المشيد وكانت أزد عمتان ثم قالت : من كان منكم ذا جلد وصبر على أزمت الدهر فعليه بالأراك من بطن مر أن وكانت خزاعة ثم قالت : من كان منكم يريد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل فيلحق يثرب ذات النخل وكانت الأوس والخزرج ثم قالت : من كان منكم يريد الخمر والخمير والملك

(١) أي ابلغت الرؤيا التي رأتها .

والتأجير وما لبس الديباج والحريز فليلحق ببصرى وغوير - وهما من أرض الشام - وكان الذين سكنوها آل جفنة بن غسان ثم قالت : من كان منكم يريد الثياب الرقاق والخيل العتاق وكنوز الأرزاق والدم المهرق فليلحق بأرض العراق وكان الذين سكنوها آل جذيمة الأبرش ومن كان بالحيرة وآل محرق .

قوله تعالى : و لقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين (٢٠) و ما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالاخرة ممن هو منها في شك و ربك على كل شيء حفيظ (٢١) قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات و لا في الارض و ما لهم فيهما من شرك و ما له منهم من ظهير (٢٢) و لا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ما ذا قال ربكم قالوا الحق و هو العلى الكبير (٢٣) قل من يرزقكم من السموات و الارض قل الله وانا او اياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين (٢٤) قل لا تسألون عما اجر معنا و لا نسال عما تعلمون (٢٥) .

الضمير قيل : في «عليهم» راجع إلى أهل سبأ وقيل : إلى الناس كلهم إلا من أطاع الله . و المعنى أن إبليس كان قال : « لا غوينتهم و لا ضلتهم » و ما كان ذلك عن علم و تحقيق و إنما قاله ظناً فلما تابعه أهل الزينج و الشرك صدق ظنه و حققه [فاتبعوه] فيما دعا هم إليه [إلا فريقاً من المؤمنين] يعني المؤمنين كلهم و « من » هنا للتبيين أي و علموا قبح متابعة إبليس فلم يتبعوه و اتبعوا أمراً الله .

[و ما كان له عليهم من سلطان] أي لم يكن لإبليس عليهم من سلطنة و لا ولاية يتمكن بها من إجبارهم على الضلال و إنما كان يمكنه الوسوسة فقط كما قال : « و ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي » .

[إلا لنعلم من يؤمن بالاخرة ممن هو منها في شك] أي إنما لم نمكنه من إغوائهم و وسوستهم إلا لتمييز بين من يقبل منه و من يمتنع متابعته فنعدب من يتابعه و نثيب من خالفه فعبّر عن التمييز بين الفريقين بالعلم ، و هذا التمييز متجدد لأنه

لا يكون إلا بعد وقوع ما يستحقون به ذلك و أمّا العلم فبخلاف ذلك فإنه سبحانه كان عالماً بأحوالهم و بما يكون منهم في الأزل و قيل : معناه لنعلم طاعتهم . ووجوده أو معاصيهم إن عصوا فنجازيهم بحسبها لأنه سبحانه لا يجازي أحداً على ما يعلم من حاله إلا بعد أن يقع ذلك منه [و ربك على كل شيء حفيظ] أي عالم لا يفوته علم شيء من أحوالهم .

و ههنا تحقيق و هو أن علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم و علمه عين ذاته لا يتغير و هو في كونه سبحانه عالماً لا يتغير ولكن يتغير متعلق علمه فإن العلم يظهر به كل ما في نفس الأمر فعلم الله في الأزل أن العالم سيوجد فإذا وجد علمه موجوداً بذلك العلم و إذا عدم يعلمه معدوماً بذلك العلم مثاله أن المرأة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها ثم إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته و المرأة لم تتغير في ذاتها و لا تبدلت في صفاتها إنما التغير في الخارجات التي قابلت فكذلك ههنا فتقوله : « إلا لنعلم من يؤمن » أي ليقع في العلم صدور الإيمان من المؤمن و الكفر من الكافر و كان قبله في علمه أنه سيكفر زيد و يؤمن عمرو .

قولي تعالى : [قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله] قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة و أنهم شركاء لله تعالى و أنهم شفعاؤكم هل يستجيبونكم إلى ما تسألونهم و هذا نوع توبيخ ليعلموا أن أوثانهم لا تنفعهم ولا تضرهم لأنهم لا يتمكّنون من أن يجيبوهم .

ثم قال سبحانه : [لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض] أي لا يقدرّون زنة ذرة من خير و شر و نفع و ضرر فيهما [و ما لهم فيهما من شرك] و ليس لهم في خلق السماوات و الأرض من نصيب و مدخلية [و ما لهم منهم من ظهير] أي ليس له معاون على خلقهما .

[و لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له] أي لا تنفع الشفاعة عند الله إلا لمن رضىه الله و ارتضاء و أذن له الشفاعة مثل الأنبياء و الملائكة و الأولياء و إلا لمن يأذن له في الشفاعة ، و إنما قال سبحانه ذلك لأن الكفار و المشركين كانوا يقولون : نعبدهم

ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى فحكم الله ببطلان عقائدهم .

[حتّى إذا فرّغ عن قلوبهم] أي كشف الفزع عن قلوبهم ، و اختلف في الضمير في

قوله : « عن قلوبهم » على قولين :

الأول أن الضمير راجع إلى المشرّكين الذين تقدّم ذكرهم فيكون المعنى حتّى إذا أخرج عن قلوبهم الفزع وقت الفزع ليسمعوا كلام الملائكة [قالوا] إذا قالت الملائكة لهم : [ما ذا قال ربّكم قالوا الحق] أي قال هؤلاء المشرّكون مجيبين للملائكة إنّ ما جاء به الرسل كان حقاً و يعترفون حينئذ بالحق .

و القول الثاني أن الضمير راجع إلى الملائكة ثمّ اختلف في معناه على وجوه : أحدها أن الملائكة إذا صعدوا بأعمال العباد ولهم زجل و صوت عظيم فتحسب الملائكة أنّها الساعة فيخرون سجّداً و يفزعون فإذا علموا أنّه ليس ذلك قالوا : « ما ذا قال ربّكم قالوا الحق » .

و ثانيها أن الفترة لما كانت بين عيسى و عمّه عليه السلام و بعث الله عمّاه أنزل الله سبحانه جبرئيل بالوحي فلمّا نزل ظنّت الملائكة أنّه نزل بشيء من أمر الساعة فصعقوا لذلك فجعل جبرئيل يمرّ بكلّ سماء و يكشف عنهم الفزع فرفعوا رؤوسهم وقالت الملائكة بعضهم لبعض : « ما ذا قال ربّكم قالوا الحق » يعني الوحي و القرآن .

و القول الثالث أن الله إذا أوحى إلى بعض الملائكة لحق الملائكة غشى عند سماع الوحي و يخرون و يصعقون سجّداً للآية العظيمة فإذا فرّغ عن قلوبهم سألت الملائكة ذلك الملك الذي أوحى إليه ما ذا قال ربّك ، و يسأل بعضهم بعضاً فيعلمون أن الأمر في غيرهم ، عن ابن مسعود واختاره الجبائي .

[و هو العليّ الكبير] السيّد القادر العليّ في صفاته الكبير في قدرته .

القمي : قال الصادق عليه السلام : لا يشفع أحد من أنبيائه و رسله يوم القيامة حتّى يأذن الله في الشفاعة إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّ الله قد أذن له في الشفاعة قبل يوم القيامة والشفاعة له في أمّته و لنا الشفاعة في شيعتنا و لشيعتنا الشفاعة في أهاليهم ثمّ قال : إنّ المؤمن ليشفع في مثل ربيعة و مضر و إنّ المؤمن ليشفع حتّى لخدمه يقول :

يا ربّ خدمني و كان يقيني الحرّ و البرد .

و عن الباقر عليه السلام قال : ما من أحد من الأولين و الآخرين إلّا و هو محتاج إلى شفاعة رسول الله ثمّ قال : إنّ لرسول الله الشفاعة وقرى «حتّى إذا فرّغ» بالراء المهملة و الغين المعجمة بمعنى فراغ القلوب وخلوها عن الوجمل من فرغ الزاد إذا لم يبق منه شيء . قال العلامة أبو السعود صاحب التفسير العلامة المعروف في بيان الآية في قوله : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذن له حتّى إذا فرّغ عن قلوبهم » قال : (أي لا تقع الشفاعة في حال من الأحوال الكائنة لمن أذن له في الشفاعة من النبيين و الملائكة و نحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة فتبيّن حرمان الكفرة من الشفاعة بالكلية أمّا من جهة أصنامهم فلظهور انتفاء الإذن لها ضرورة استحالة الإذن في الشفاعة لجماذ لا يعقل و لا ينطق و أمّا من جهة من يعبدونه من ملائكة فلأنّ إذنه مقصور على الشفاعة للمستحقين لها لقوله تعالى : « لا يتكلّمون إلّا من أذن له الرحمن و قال صواباً » ^(١) و من المعلوم أنّ الشفاعة للكفرة بمعزل من الصواب فعلى هذا ثبت حرمانهم عن الشفاعة و هي غير صادرة عن الشفعاء إذ لم يؤذن لهم و قوله : « حتّى إذا فرّغ » و التفريع إزالة الفرع أي زال الفرع عن قلوب الشفعاء و المشفوع لهم من المؤمنين و كلمة « حتّى » غاية لما ينبغي عنه قبل الكلام من الإشعار بوقوع الإذن لمن أذن له لأنّه سأل كيف يؤذن لهم ؟ ف قيل : يتربصون الشفعاء من موقف الاستيذان والاستدعاء على وجل و خوف وفرع مليّاً حتّى أزيل الفرع عن قلوبهم بعد اللتيّا و اللتي وظهرت لهم تأثير الإجابة .

« قالوا أي المشفوع لهم و المحتاجون : « ماذا قال ربّكم » في شأن الإذن « قالوا أي الشفعاء لأنّهم المتباشرون للاستيذان المتوسّطون بين المذنبين و المحتاجين إلى الشفاعة و بينه عزّ وجلّ « الحق » أي قال ربّنا قول الحق » وهو الأذن في الشفاعة للمستحقين وقرى « الحق » مرفوعاً أي ما قاله الحق .

« وهو العلمي الكبير » وهو من تمام كلام الشفعاء قالوه اعترافاً لغاية عظمة ربّهم) انتهى كلام أبي السعود .

قوله تعالى : [قل من يرزقكم من السماء والأرض] فإِنَّهُمْ لَا يَمْكُنُهُمْ أَنْ يَقُولُوا :
 تَرْزُقُنَا آلِهَتُنَا الَّتِي نَعْبُدُهَا ثُمَّ عِنْدَ ذَلِكَ [قل الله] الَّذِي يَرْزُقُكُمْ [وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى
 هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ] إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ النِّصْفَةِ فِي الْحِجَّةِ دُونَ الشُّكِّ كَمَا
 يَقُولُ الْقَائِلُ : أَحَدُنَا كَاذِبٌ وَإِنْ كَانَ هُوَ عَالِمًا بِالْكَذِبِ وَهَذَا الْعِنَاوَانُ مِنَ الْكَلَامِ شَائِعٌ بِأَنْ
 يَجْمَعُ الْمُتَكَلِّمُ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ وَيَفُوضُ التَّمْيِيزَ إِلَى الْعُقُولِ فَيَكُونُ الْكَلَامُ مَعْنَاهُ : إِنَّا
 عَلَى هُدًى وَأَنْتُمْ عَلَى ضَلَالٍ وَإِنَّمَا يَقَالُ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ عَلَى وَجْهِ الْاسْتِعْطَافِ وَالْمَدَارَاةِ
 لَتَنْبِيهِهِ الْمَخَاطِبَ وَلَا يَنْسَبُ الْمَحَقُّ نَفْسَهُ إِلَى الْهَدْيِ وَخَصَمَهُ إِلَى الضَّلَالِ بَلْ يَحْشُهُ عَلَى
 التَّأَمُّلِ وَالنَّظَرِ .

قوله : [قل لا تسألون عما أجرنا ولا تسأل عما تعملون] قل يا عَمَّ : إِذَا لَمْ يَنْقَادُوا
 لِلْحِجَّةِ لَا تَسْأَلُونَ أَيُّهَا الْكَفَّارُ عَنْ مَا اقْتَرَفْنَا وَاکْتَسَبْنَا مِنَ الْمَعَاصِي وَلَا تَسْأَلُ نَحْنُ عَمَّا
 تَعْمَلُونَهُ أَنْتُمْ بَلْ كُلُّ إِنْسَانٍ يَسْأَلُ عَمَّا يَعْمَلُ وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَحَدًا لَا يَجُوزُ أَنْ
 يَتَّخِذَ بِذَنْبِ غَيْرِهِ وَأَضَافَ الْإِجْرَامَ إِلَى النَّفْسِ وَقَالَ فِي حَقِّهِمْ : « وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا
 تَعْمَلُونَ » ذَكَرَ بِلَفْظِ الْعَمَلِ لَنَلَّا يَحْصُلُ الْإِغْضَابُ الْمَانِعُ مِنَ الْفَهْمِ .

قوله تعالى : قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح
 العليم (٢٦) قل أرؤني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز
 الحكيم (٢٧) وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس
 لا يعلمون (٢٨) ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (٢٩) قل لكم
 ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون (٣٠) .

ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يحاكمهم ويكلمهم إلى الله لإعراضهم عن
 الحجّة فقال :

[قل] يا عَمَّ : [يجمع بيننا ربنا] يوم القيامة [ثم يفتح بيننا] أي يحكم
 بالحقّ و هو الفتاح العليم [الحاكم العالم بالحكم] لا يخفى عليه شيء من الحكم
 [قل أرؤني الذين ألحقتم به شركاء] أي أرؤني الذين زعمتم أنهم شركاء لله تعبدونهم
 معه فوبّخهم الله فيما اعتقدوه من الأشرار مع الله [كلا] أي ليس كما تزعمون أي ارتدعوا

عن هذا المقال [بل هو الله العزيز الحكيم] الغالب الحكيم في أفعاله فكيف يكون له شريك ؟

ثم بيّن سبحانه نبوة نبيه فقال : [وما أرسلناك إلا كافة للناس] أي أنت رسول إلى عامة البشر كلهم كالعرب والعجم وسائر الأمم ، روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : أعطيت خمساً ولا أقول فخراً : بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً وأحل لي الغنم ولم يحل لأحد قبلي ونصرت بالرعب فهو يسير أمامي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة فأدخرتها لأمتي يوم القيامة . وقيل : « كافاً للناس » أي مانعاً لهم عما هم عليه من الكفر والمعاصي بالأمر النهي والهاء للمبالغة ، عن أبي مسلم .

[بشيراً] لهم بالجنة [ونذيراً] بالنار [ولكن أكثر الناس لا يعلمون] رسالتك لإعراضهم عن النظر في معجزتك ولا يعلمون ما لهم في الآخرة في اتباعك من الثواب والنعيم وما عليهم في مخالفتك من العذاب الأليم .

ثم حكى سبحانه عن الكفار فقال : [ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين] فيما يقولونه يامعشر المؤمنين ثم أمر نبيه بجوابهم [قل] يا محمد : [لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون] أي لا تتأخرون عن ذلك اليوم ولا تتقدمون عليه بأن يزداد في آجالكم أو ينقص منها .

و في قوله : « لكم ميعاد يوم » قراءات : رفعهما مع التنوين و على هذا « يوم » بدل والثانية نصب « يوم » ورفع « ميعاد » والتنوين فيهما ووجه النصب بفعل محذوف أي أعني يوماً أو على الظرفية كأنه يقول : لكم ميعاد تعلمون يوماً كقول القائل : « إنك مقتول يوماً » والثالثة الإضافة أي لكم ميعاد يوم .

وقوله تعالى : وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه و لو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين (٣١) قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين (٣٢) وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا

بل مكر الليل و النهار اذ تامروننا ان نكفر بالله و نجعل له أندادا و اسروا
الندامة لما رأوا العذاب و جعلنا الاغلال في اعناق الذين كفروا هل يجزون
الا ما كانوا يعملون (٢٣) و ما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا
بما ارسلتم به كافرون (٢٤) و قالوا نحن أكثر أموالا و اولادا و ما نحن
بمعذيين (٢٥) .

ثم بين سبحانه حالهم في القيامة : [وقال الذين كفروا] قيل : اليهود ، و قيل :
هم مشركو العرب ، و هو الأصح [لن يؤمن بهذا القرآن] و لا نصدق بأنه من الله تعالى
[ولا بالذي بين يديه] من أمر الآخرة أو أحكام القرآن ، و قيل : المراد « بالذي بين يديه »
يعنون به التوراة و الإنجيل و ذلك لأنه لما قال مؤمنو أهل الكتاب : إن صفة محمد في كتابنا
كذا و هو نبي مبعوث ، كفر المشركون بكتابهم .

ثم قال : [و لو ترى] يا محمد [إذ الظالمون موقوفون عند ربهم] أي محبوسون
للمحاسب يوم القيامة [يرجع بعضهم إلى بعض القول] أي يرد بعضهم إلى بعض القول
في الجدل .

[يقول الذين استضعفوا] و هم الأتباع [للذين استكبروا] و هم الأشراف و
الفائدة [لو لا أنتم لكننا مؤمنين] مصدقين بآيات الله أي أنتم منعتمونا من الإيمان ولولا
دعائكم إيانا إلى الكفر لآمنّا بالله في الدنيا و جواب « لو ترى » محذوف و تقديره :
لرأيت عجباً .

قوله : [قال الذين استكبروا للذين استضعفوا] أي قال المتبوعون للتابعين على
سبيل الإنكار : [أنحن صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم] أي لم نصدكم نحن عن قبول
الهدى [بل كنتم مجرمين] أنتم كفرتم و لم نحملكم على الكفر قهراً فكل واحد من
الفريقين ورك^(١) الذنب على صاحبه و اتهمه و لم يصف واحد منهم الذنب إلى الله .

[و قال الذين استضعفوا للذين استكبروا] يعني الأتباع للمتبعين [بل مكر
الليل و النهار] أي بل صدقناكم بنا في الليل و النهار ، فحذف المضاف إليه و أقيم
مقامه الطرف اتساعاً و قرئ « بل مكر الليل و النهار » بالتنوين عوض عن المضاف إليه

(١) ورك الذنب عليه : حمله .

وقرىء * بل مكر^(١) الليل و النهار * بالرفع والنصب أي تكرون الإغواء مكرآ
دائماً فالرفع على الفاعلية أي صدنا مكر كم في الليل والنهار والنصب على المصدرية
أي تكرون مكر الليل و النهار أي مكرآ دائماً .

[إذ تأمرؤننا أن نكفر بالله و نجعل له أنداداً] حين أمرتمونا بجحد وحدانية الله
و دعوتهمونا إلى أن نجعل له شركاء في العبادة .

[وأسروا الندامة] فيه وجهان : أحدهما : أضمر الفريقان الندامة وأخفاها كل منها
عن الآخر مخافة التعيير و الثاني أظهرها فإته من الأضداد وهو المناسب لحالهم ، كما
فسر بيت امرئ القيس على الوجهين حيث يقول :

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً * علي حراساً لو يسرون مقتلي
[لما رأوا العذاب] أي حين رأوا نزول العذاب بهم [وجعلنا الأغلال في أعناق
الذين كفروا] أي غلّوا بها في النيران [هل يجزون إلا ما كانوا يعملون] أي لا يجزون
إلا بأعمالهم التي عملوها على قدر استحقاقهم .

[و ما أرسلنا في قرية من نذير] أي من نبي مخوف بالله [إلا قال مترفوها]
جباروها وأغنياؤها المتنعمون فيها [إننا بما أرسلتم به كافرون] و في الآية بيان للنبي
أن أهل قريته عليه السلام نهجوا على مناهج الأولين و أن إبداء الأنبياء من جانب الكفار
ليس بدعاً بل ذلك عادة جرت من قبل .

ثم بيّن علّة كفرهم [وقالوا نحن أكثر أموالاً و أولاداً] أي فاستدلّوا على
كونهم مصيدين بكثرة المال والولد ظناً منهم بأن الله إنما خوف لهم المال والولد كرامة
لهم عنده وقالوا : إذا رزقنا و حرمتهم فنحن أكرم منكم و أفضل عند الله .

[و مانحن بمعذبين] ولم يعلموا أن الأموال و الأولاد ليس للإكرام والتفضل
وتستوجب الشكر لا الكفر و إنما قالوا ذلك إمّا لئلا ينكر منهم للعذاب رأساً أو اعتقاد الحسن
حالهم في الآخرة قياساً بالدنيا .

فبيّن الله خطاءهم بقوله :

(١) مصدر ميمي من كر ، يكر ، كرورا : بمعنى رجع .

قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويمتدر و لكن أكثر الناس لا يعلمون
 (٣٦) و ما أموالكم و لا أولادكم بالتى تقر بكم عندنا زلفى الا من آمن و
 عمل صالحا فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا و هم فى الغرفات آمنون
 (٣٧) و الذين يسهون فى آياتنا معاجزين اولئك فى العذاب محضرون (٣٨)
 قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له و ما انفقتهم من شيء
 فهو يخلفه و هو خير الرازقين (٣٩) و يوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة
 أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون (٤٠).

[قل] يا محمد [إن ربي] الذى خلقني [يبسط الرزق لمن يشاء] عن ما يعلم من
 المصلحة للمرزق أو لغيره [و يقدر] أي و يضيق أيضاً على حسب المصلحة و المراد من
 « البسط » الزيادة على قدر الكفاية « و القدر » تضيقه عن قدر الكفاية فالسعة و الضيق
 لا تدل على حال المحقق و المبطل فكم من مؤسر شقي و معسر تقي [ولكن] أكثر الناس
 لا يعلمون [حكمته و صلاحه سبحانه] .

ثم كشف سبحانه عن هذا المعنى بقوله : [و ما أموالكم و لا أولادكم بالتى
 تقر بكم عندنا] فإن المال لا يقرب إلى الله و لا اعتبار بالتعزز به حيث يقولون : « نحن
 أكثر أموالاً » و إنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان بل إن المال و الولد في الغالب
 يشغل عن الله و يبعد العبد عنه فكيف يقرب به [زلفى] أي قربي و زلفى اسم المصدر
 أي يقرب بكم قرابة أو تقريباً .

[إلا من آمن و عمل صالحاً] أي و ما الأموال و الأولاد تقرّب أحداً إلا المؤمن
 الصالح الذى أنفق ماله في سبيل الله و علّم أولاده الخير و الصلاح فحينئذ الاستثناء متصل
 و يجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً مفرغاً أي لكن من آمن بالله و صدّق نبيّه و أطاعه
 فيما أمره .

[فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا] و جزاء الضعف الحسنه فإن الضعف
 لا يكون إلا في الحسنه و في السيئة لا يكون إلا المثل أي يضاعف الله حسناتهم فيجزى
 بالحسنه الواحدة عشرأ إلى ما زاد و الضعف اسم جنس يدل على الكثير و القليل [و هم]

في الغرفات آمنون] أي في غرف الجنة وهي البيوت المرتفعة فوق الأبنية مأمونين غير خائفين .

[و الذين يسعون في آياتنا معاجزين] و يجتهدون في إبطال آياتنا وتكذيبها معاجزين لأنبيائنا أوزاعمين أنهم يفوتوننا أو مثبتطين غيرهم عن أفعال الخير [أولئك في العذاب محضرون] أي ثابتون ودائمون .

[قل إن ربّي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له] مرّ تفسيره و إنما كرّره سبحانه لاختلاف فالاً و ل توبيخ للكافرين والثاني وعظ للمؤمنين وإشارة إلى معنى و هو أن نعيم الآخرة قد يكون لا ينافي نعيم الدنيا بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم مع حصول النعم لهم في العقبى كما قال ﷺ : « و قد يجمعها الله لأقوام ، كأنه قال : إن وجود الرزق لا يبدل على عدم الشرف ولا يبدل على الشرف .

قوله : [و ما أنفقتم من شيء فهو يخلفه] أي و ما أخرجتم من أموالكم في وجوه البرّ فإنّه سبحانه يعطيكم خلفه و عوضه إمّا في الدنيا بزيادة النعم و إمّا في الآخرة بثواب الجنة .

[و هو خير الرازقين] لأنّه يعطي المنافع للدفع ضرر أو جرّ نفع لاستحالة المنافع و المضارّ عليه ، و روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : قال الله عزّ وجلّ لي : أنفق أنفق عليك . و عن جابر عن النبي ﷺ قال : كلّ معروف صدقة و ما أوتي به الرجل عوضه فهو صدقة و ما أنفق المؤمن من نفقة فعلى الله خلفها ضامناً إلا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية .

وخيرية الرازق في أمور : أحدها أن لا يؤخّر عن وقت الحاجة إذا عرف الصلاح لأنّه عالم و لا ينقص عن قدر الحاجة و لا ينكده بالحساب لأنّه غنيّ و لا يكدره بطلب الثواب لأنّه كريم و قد ذكر سبحانه بقوله : « يرزق من يشاء بغير حساب ^(١) » أن هبة الأعلى للأدنى لا يقتضي ثواباً و بقوله تعالى : « و ما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » أنه قد حصل الضمان و الوعد و الخلف لا يقع منه تعالى فإذا إمساكك عن البذل والإقراض

إمّا سوء ظنّ بالربّ أو من قلّة العقل مع أنّ المال في يد العبد على سبيل العارية .
 فلو قيل : « خير الرازقين » ينبىء أن يكون رازق غيره ولا رازق إلا الله فالمراد :
 الله خير الرازقين الذين تظنّونهم رازقين مثل قوله : « أحسن الخالقين » .
 و تحقيق المسألة هو أنّ الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة ومنها ما يقال
 لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز و منها يقال لله بطريق الحقيقة و لا يقال للعبد
 لا بطريق الحقيقة و لا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة ؛ مثال الأوّل
 العلم بكون النار حارّة فإنّ الله يعلم و العبد يعلم غاية ما في الباب أنّ علمه قديم وعلمنا
 حادث ، مثال الثاني الرازق و الخالق فإنّ العبد إذا أعطى غيره شيئاً فإنّ الله هو المعطي
 ولكن لأجل صورة العطاء منه سمّي معطياً كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط :
 إنسان و فرس ، مثال الثالث الأزليّ و الإله فإنّه له لا لغيره سبحانه و قد يقال في أشياء
 في الإطلاق و التعبير على العبد حقيقة و على الله مجازاً كالاستواء و المعية و يدالله و جنب
 الله ، انتهى .

و قوله وَالَّذِينَ آمَنُوا : و ما أنفق المؤمن من نفقه فعلى الله خلفها بشرط أن لا يبلغ إلى
 حدّ السرف كما في الحديث بروى أبو أمامة قال : إنكم تؤوّلون في هذه الآية غير تأويلها
 « و ما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » و قد سمعت رسول الله ﷺ و إلا فصمتا يقول :
 إيتاكم و السرف في المال و النفقة و عليكم بالافتقار ، فما افتقر قوم فطأ افتصدوا .
 قوله : [و يوم نحشرهم جميعاً] أي يوم القيامة نجتمع العابدون لغير الله و المعبودين
 من الملائكة للحساب .

[ثمّ نقول للملائكة أهؤلاء] الكفّار [إيتاكم كانوا يعبدون] و يتصدون
 بالعبادة و هذا الخطاب و الاستشهاد للملائكة على اعتقاد الكفّار حتّى تبرأ الملائكة
 منهم و من عبادتهم كما يقال لعيسى عليه السلام : « أنت قلت للناس اتخذوني و أممي إلهين
 من دون الله ^(١) » فينكر عيسى و يقول : « إن كنت قلته فقد علمته ^(٢) » .
 و النظم في الآية بما قبلها أنّهم قالوا : « نحن أكثر أموالاً » يتّسبّحانه أنّ

دعواهم مردودة وأنهم معذّبون .

قوله تعالى : قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون (٤١) فالיום لا يملك بعضهم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون (٤٢) وإذا تنلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين (٤٣) وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير (٤٤) وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلنا فكيف كان تكذيبهم (٤٥) .

المعنى : [قالوا] أي الملائكة : [سبحانك] أي تنزيهاً لك من أن نعبد سواك و نتخذ معبوداً غيرك [أنت] يا الله [ولينا] و ناصرنا وأولى بنا [من دونهم] من دون هؤلاء الكفار و كل واحد وما كنا نرضى بعبادتهم إيماناً مع علمنا بأنك ربنا وربهم .
[بل كانوا يعبدون الجن] بطاعتهم إيماناً فيما دعوهم إليه من عبادة الملائكة و قيل : المراد بالجن ، إبليس و ذريته و أعوانه [أكثرهم بهم مؤمنون] أي مصدقون بالشیاطين مطيعون لهم وقيل : إن الشياطين يتمثلون لهم ويخيلون لهم أنهم الملائكة فيعبدونهم وقيل : يدخلون أجواف الأصنام إذا عبدت و الضمير في « أكثرهم » للإس والمشرکين و الضمير في « بهم » للجن و الأكثر بمعنى الكل .

ثم يقول الله : [فاليوم] يعني في الآخرة [لا يملك بعضهم لبعض] يعني العابدين و المعبودين [نفعا] بالشفاعة [ولا ضراً] بالتعذيب والفناء لترتيب بيان عدم النفع و الضر من الملائكة للعبدة والعبدة للملائكة .

[ونقول للذين ظلموا] بأن عبدوا غير الله [ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون] ولا تعترفون بها و تجحدونها لأن بعضهم كانوا جاحدين وقوع العذاب رأساً و بعضهم يدفعونها بشفاعة أصنامهم و بعضهم ينكرون العذاب الدائم و يقولون : « لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة »^(١) فيقال لهم : ذوقوا عذاب الدائم .

ثم بيّن سبحانه حال الكفار في الدنيا فقال : [و إذا تتلى عليهم آياتنا بينات] أي متى ما قرء عليهم حججنا البينة الواضحة من القرآن الذي أنزلناه على نبيّنا [قائلوا] عند ذلك : [ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم] و يمنعكم [عما كان يعبد آباؤكم] و يقول بعضهم لبعض هذا القول و فرغوا إلى تقليد الآباء لما أفحمتهم الحجة .
[وقالوا ما هذا] القرآن [إلا إفك] أي كذب مفترى تخترعه و افتراه هذا النبي [وقال الذين كفروا للحق] أي للقرآن [لما جاءهم إن هذا] أي ما هذا [إلا سحر مبين] ظاهر .

ثم أخبر سبحانه أنهم لم يقولوا ذلك عن بينة فقال : [وما آتيناهم من كتب يدرسونها] أي و ما أعطينا مشركي قريش كتاباً قط يعلمون درسه حتى يعلموا أن ما جئت به حق أو باطل وإنما يكذبونك بهوى أنفسهم لاعن علم أي إن الآيات البينات لا تعارض إلا بالبراهين العقلية أو بالنقلات الصحيحة وهم ما كان عندهم من كتاب ولا رسول غيرك والمعتبر كتاب الله أو خبر الرسول .

[وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير] أي ما بعثنا رسولا أمرهم بتكذيبك وأخبرهم ببطالان قولك يعني إنهم لا يرجعون في تكذيبك إلا إلى الجهل والعناد .

ثم أخبر سبحانه عن عاقبة من كذب الرسل تخويفاً لهم فقال : [و كذب الذين من قبلهم] بمن بعث إليهم من الرسل وما آتاهم الله من الكتب [وما بلغوا معشار ما آتيناهم] أي و ما بلغ قومك يا محمد معشار ما أعطينا من قبلهم من القوة والعمر والمال فأهلكهم الله . [فكذبوا رسلي فكيف كان نكير] أي عقوبتي انظر في آثارهم كيف كان إنكاري عليهم بالهلاك وما بلغ هؤلاء الضعفاء من قومك معشار أولئك الذين وقع عليهم أخذي و عقوبتي مع كثرة أموالهم وأعمارهم مثل عاد وثمود ويمكن أن يكون المعنى : إن أولئك المنتقمين الذين وقع عليهم العذاب ما آتيناهم عشر ما آتينا قومك من البينات والحجج ومع ذلك كيف كان إنكاري لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك وذلك لأن كتاب محمد أكمل من سائر الكتب وأوضح ولذلك محمد صلى الله عليه وسلم أفضل وأصح وبرهانه وبيانه أشفى .

قل إنما اعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تفكروا ما

بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد (٤٦) قل ما سالتكم من أجر فهو لكم ان أجرى الا على الله وهو على كل شيء شهيد (٤٧) قل ان ربي يقذف بالحق علام الغيوب (٤٨) قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد (٤٩) قل ان ضللت فانما أضل على نفسي وان اهتديت فبما يوحي الي ربي انه سميع قريب (٥٠) .

المعنى : أشار سبحانه في هذه الآية بالأصول الثلاثة فتقوله : « أن تقوموا لله » إشارة إلى التوحيد وقوله : « ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم » إشارة إلى الرسالة وقوله : « بين يدي عذاب شديد » إشارة إلى اليوم الآخر .

فخاطب نبيه ﷺ فقال : [قل] يا محمد : لهم [إنما أعظكم بواحدة] أي آمركم بخصلة واحدة أو بكلمة واحدة وهي كلمة التوحيد أوطاعة الله فمن قال بالأول : فسر الواحدة بما بعده فقال : [أن تقوموا لله مثنى وفردى] أي اثنين اثنين وواحدًا واحدًا [ثم تنفكروا ما بصاحبكم من جنة] معناه أن يقوم الرجل منكم وحده أو مع غيره ثم تتساءلون وتتباحثون هل جرت بنا على عهد كذب أو هل رأينا به جنة ففي ذلك بطلان قولكم فيما تقولون : إنه لمجنون وساحر ومعنى القيام في الآية ليس القيام على الأرجل بل المراد به القصد للنظر والفهم والتعقل لتبين الحق .

فلوقيل : إن قوله : « إنما أعظكم بواحدة » أن يتم الأمر بالتوحيد والحالة أن الإيمان لا يتم إلا بالاعتراف بالرسالة والحشر وأمر آخر فكيف يصح الحصر المذكور بقوله : « إنما أعظكم بواحدة » .

فالجواب أن الأمور الباقية والأركان الأخر غير منفكة عن هذه الواحدة ولازمة لها لأن من وحد الله حق التوحيد لابد وأن يؤمن بكتابه ووحيه فلا إيمان بالكل يلزمه ثم إن النبي ﷺ ما قال : إني لا آمركم في جميع عمري إلا بشيء واحد بل قال : إني أعظكم أولاً بالتوحيد ولا آمركم في أول الأمر بغيره لأنه سابق على الكل كما قال ﷺ في أول الأمر قولوا : لا إله إلا الله فلاحوا وهو الأصل الأصيل .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث : إن الله تعالى أنزل عزائم

الشرائع وآيات الفرائض في أوقات مختلفة كما خلق السماوات والأرض في ستة أيام و لو شاء أن يخلقهما في أقل من لمح البصر لخلق و لكنّه جعل الأناة و المداراة مثلاً لأمنائه و تعليماً لخلقّه في أمورهم فكان أوّل ما قيّمهم به الإقرار بالوحدانيّة والربوبيّة فلما أقرّوا بذلك تلا بالإقرار لنبيّه والشهادة له بالرسالة فلمّا انقادوا لذلك فرض عليهم الصلاة ثم الصوم ثم الحج ثم الجهاد ثم الزكاة ثم الصدقات وما يجري مجراها من الأحكام من الفيء وغيرها فقال المنافقون : هل بقي لربك علينا بعد الذي فرض علينا شيء آخر فتذكره ليسكن أنفسنا إلى أنّه لم يبق غيره فأنزل الله في ذلك « قل إنّما أعظكم بواحدة » يعني الولاية وإذا نظر الإنسان بعين التأمل والدقة يعرف أنّ من اتّمسك بالولاية لعليّ بن أبي طالب فقد اتّمسك بجميع الأصول الخمسة والملازمة بينهما ثابتة بل ملازمة الفروع ثابتة لأن الجحود والإطاعة نقيضان كما أنّ الولاية والقبول متلازمان .

قوله تعالى : [إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد] ولما قال سبحانه : قبيل هذا « ما بصاحبكم من جنة » أي أنتم ما رأيتم من منشئه إلى مبعثه وصمة تنافي النبوة من كذب أو ضعف في العقل أو اختلاف في القول والعمل نسبهم سبحانه عن طريقة النظر بأن مثل هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة لا يتصدى لأدعائه إلا مجنون لا يبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان ، أو مؤيد من عنده مرشح للنبوة واثق بحجته وقد عرفتم ذلك منه وقد انضم إلى ذلك معجزات تخرّجها الجبال ويظهر منه أشياء لا تكون مقدوراً للبشر مثل القرآن وآيات ومعجزات أخر فالصادرة منه بواسطة الملك وقدره الله وثبت النبوة ولزمتهم الحجة فقال : ما هو ^{الذي} إلا رسول منذركم ونحو فكّم من مخالفته ومن معاصي الله « بين يدي عذاب شديد » أي عذاب القيامة .

ثم قال سبحانه : [قل يا عمّ لهم :] ما سألتكم من أجر فهو لكم [أي لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئاً من عرض الدنيا وما طلبته منكم من أجر أداء الرسالة وبيان الشريعة ، فهو لكم و « ما » في قوله : « وما سألتكم » يجوز أنها موصولة ويجوز أن تكون شرطية [إن أجري إلا على الله] وليس ثواب عملي إلا على الله [وهو على كلّ

شيء شهيد [لم يغب عنه شيء ويعلم ما يلحقني من أذاكم .

[قل] يا محمد : [إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب] أي يلقيه ويرمي الحق وهو الوحي إلى أنبيائه والقرآن أو يتكلم بالقرآن وهو الحق وينزله على من يجتبيه من عباده أو يرمي بالحق على الباطل فيدفعه أو المعنى أنه سبحانه يقذف بالقرآن في أقطار الآفاق لإظهار الدين وإعلاء كلمته وهو الذي علم جميع الخفيات .

[قل] يا محمد : [جاء الحق] وهو أمر الله تعالى بالإسلام والتوحيد وقيل : هو الجهاد بالسيف عن أبي مسعود ولما ذكر الله أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال ذكر سبحانه أن ذلك الحق قد جاء ، وفي الحق وجوه وذكرنا الوجهين الثالث : أن المراد المعجزات الدالة على نبوة محمد ﷺ ويمكن أن يكون المراد من قوله : « جاء الحق » يعني ظهر الحق لأن كل ما جاء فقد ظهر .

وقوله : [وما يبدى الباطل وما يعيد] أي ما يبدى الباطل لأهله خيراً في الدنيا ولا يعيد خيراً في الآخرة وقيل : إن « ما » استفهامية على معنى « وأي شيء يبدى الباطل وأي شيء يعيده » وقيل : معنى الآية : ذهب الباطل إذهاباً لم يبق منه إبداء ولا إدبار لأن الحق إذا جاء لا يبقى للباطل بقية .

قال ابن مسعود : دخل رسول الله مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنهم بعود في يده الشريفة ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد » .

قوله تعالى : [قل إن ضللت فإني أضل نفسي وإن اهتديت] أي إن ضللت عن الحق كما تدعون وتزعمون فإني أضل نفسي وبالضاللي علي لا أني مأخوذ به دون غيري وإن اهتديت إلى الحق [فيما يوحى إلي] أي بتفضل ربي حيث أوحى إلي وليس اهتدائي بالنظر والاستدلال كاهتدائكم وإنما هو بالوحي [إنه سميع] لأقوالنا [قريب] بالإحاطة لا يخفى عليه المحق والمبطل .

قوله : ولو ترى اذ فرعوا فلا فوات واخذوا من مكان قريب (٥١) وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد (٥٢) وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد (٥٣) وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما

فعل بأشياعهم من قبل انهم كانوا في شك مريب (٥٤).

جواب لو محذوف وتقديره : ارأيت عجباً .

المعنى : لما قال سبحانه : « إنه سميع قريب » فإنه إن لم يعذب عاجلاً أولايعيين صاحب الحق في الحال فيوم الفرع آت لافوت فيه وإنما يستعجل العقوبة من يخاف الفوت [وأخذوا من مكان قريب] يعني القبور وحيث ماكانوا فهم من الله قريب وقيل : المراد من قوله : « إذ فرعوا » في الدنيا حين رأوا بأس الله عند معاينة الملائكة لقبض أرواحهم .

القمي عن الباقر عليه السلام قال : إذا فرعوا من الصوت و ذلك الصوت من السماء . « وأخذوا من مكان قريب » قال عليه السلام : من تحت أقدامهم خسف بهم و عنه عليه السلام لكأنني أنظر إلى القائم وقد أسند ظهره إلى الحجر وساق الحديث إلى أن قال : فإذا جاء إلى البداء يخرج إليه جيش السفيناني فيأمر الله عز وجل للأرض فتأخذ بأقدامهم وهو قوله تعالى : « ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب » .

[وقالوا آمنا به] قال : يعني بالقائم من آل محمد عليه السلام أو بمحمد وآله عليه السلام [وأني لهم التناوش من مكان بعيد] أي التناول يعني تناول الإيمان بعد زمان التكليف قال : إنهم طلبوا الهدى من حيث لا ينال وقد كان لهم مبدولاً من حيث ينال .

[وقد كفروا به من قبل] في أوان التكليف ولما جعل الله الفعل مأخوذاً كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال : « من مكان بعيد » والضمير في قوله : « وقد كفروا به » راجع إلى القائم بموجب الرواية أو بمحمد أو بالقرآن . وعن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب قال : فبيناهم كذلك يخرج عليهم السفيناني من الوادي اليابس حتى ينزل دمشق فيبعث جيشين جيشاً إلى المشرق وآخر إلى المدينة حتى ينزلوا بأرض بابل من المدينة الملعونة يعني بغداد فيقتلون أكثر من ثلاثمائة ألف و يقتضحون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بها ثلاثمائة كبش من بني العباس ثم ينحدرون إلى الكوفة فيخربون ما بها ثم يخرجون متوجهين إلى الشام فيخرج راية هدى من الكوفة فيلحق ذلك

الجيش فيقتلونهم لا يفلت منهم مخبرو يستنقذون ما في أيديهم من السبي والغنائم ويحلّ الجيش الثاني بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام بلياليها ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء يبعث الله جبرئيل فيقول : اذهب يا جبرئيل فأبدهم فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم عندها ولا يفلت منهم إلا رجالان من جهينة فلذلك جاء القول «وعند جهينة الخبر اليقين» فلذلك قوله تعالى : «ولو ترى إذ فرعوا» أورده الثعلبي في تفسيره وروى أصحابنا مثله عن الباقر والصادق عليهما السلام انتهى .

قوله تعالى : [ويقذفون بالغيب من مكان بعيد] أي يرجعون بالظن كالشيء الذي يرمى في موضع بعيد فيقولون : لاجنة ولا نار ولا بعث وقيل : معناه يرمون غداً والله المستقر بالظنون من غير يقين وذلك قولهم : هو ساحر وهو شاعر وهو مجنون وبعثون أمر الآخرة فيقولون لا تباعهم : «هيهات هيهات لما توعدون» . وقيل : معناه أنهم في الآخرة يقولون : «ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً» ^(١) وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا .

ثم قال : [و حيل بينهم وبين ما يشتهون] من العود إلى الدنيا أو حيل بينهم وبين لذات الدنيا بالموت ومنعوا من كل مشتهى فيلحق الله النفار فيهم فلا يدركون شيئاً إلا ويتألمون به .

[كما فعل] مثل ذلك [بأشباعهم من قبل] أي بأمثالهم من الكفار وأهل

دينهم من الأمم الماضية حين لم يقبل منهم التوبة وقت رؤية البأس والعذاب

قال الضحاك : أراد بذلك أصحاب الفيل حين أرادوا خراب الكعبة

[إنهم كانوا في شك] من البعث والنشور وفي وقوع

العذاب بهم [مريب] أي مشكك ومعنى «شك

مريب» مثل قولك : عجب عجب وهو مبالغة

في بيان الشك .

تمت السورة

سورة الملائكة

✽ (مكية) ✽

إِلَّا آيَتَيْنِ : الْأُولَى : « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ » الْآيَةُ (١) وَالثَّانِيَةُ « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ » الْآيَةُ (٢) .

فَضَلَّهَا قَالَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمَلَائِكَةِ دَعَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَبْوَابٍ مِنَ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ أَيِّهَا شِئَتْ .

(١) الْآيَةُ : ١٩ .

(٢) الْآيَةُ : ٣١ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله فاطر السموات و الارض جاعل الملائكة رسلا اولي اجنحة
مثنى و ثلاث و رباع يزيد في الخلق ما يشاء ان الله على كل شيء قدير (١)
ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده
و هو العزيز الحكيم (٢) يا ايها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من
خالق غير الله يرزقكم من السماء و الارض لا اله الا هو فاني توفكون (٣)
و ان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك والى الله ترجع الامور (٤) يا
ايها الناس ان وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا و لا يفرنكم بالله
الفرور (٥) .

المعنى : حمد سبحانه نفسه ليعلمنا كيف نحمده و ليبين لنا أن الحمد كله له
فقال : [الحمد لله فاطر السماوات و الأرض] أي حقيقة الحمد لمن خلقهما مبتدئاً على
غير مثال ومبدعها أو المعنى شافهما النزول الأرواح من السماء و خروج الأجساد من الأرض .
[جاعل الملائكة رسلاً] إلى الأنبياء بالرسالة و الوحي [أولي أجنحة مثنى و
ثلاث و رباع] و كلمة مثنى و ثلاث و رباع ، معدولة عن اثنين اثنين و ثلاثة ثلاثة و أربعة
أربعة و إنما جعلهم سبحانه أولي أجنحة ليتمكنوا بهامن العروج إلى السماء ومن النزول
إلى الأرض فمنهم من له جناحان و منهم من له ثلاثة أجنحة و منهم من له أربعة أجنحة
و يزيد فيها ما يشاء و هو قوله : [يزيد في الخلق ما يشاء] قال ابن عباس : رأى رسول
الله جبرئيل ليلة المعراج و له ست مائة جناح و قيل : معنى قوله : « و يزيد في الخلق ما
يشاء » أراد حسن الصورة و الصوت والملاحة والشعر والحسن .

[إن الله على كل شيء قدير] ولا شيء إلا و هو قادر عليه .

ثم بين إحسانه فقال : [ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها] «ما» شرطية

أي مهما يأتيهم و يفتح الله للناس من خير و مطر و عافية أو أيّ نعمة شاء فإنّ أحداً لا يقدر على إمساكه [و ما يمسك] من ذلك [فلا مرسل له من بعده] أي إنّ أحداً لا يقدر على إرساله .

و قيل : معنى الآية : ما يرسل الله من رسول إلى عباده في وقت دون وقت فلا مانع له لأنّ إرسال الرسول رحمة من الله ولولا ناموس الشريعة في الناس لانجرّ الأمر في الخلق إلى النفاق و الهلاك .

أقول : و قد وجدت في بعض كلمات أفلاطون الحكيم أنّ إرسال الرسل و بيان الناموس للخلق من أعظم النعم و إنّه من موجبات البقاء و لولاه لآل أمورهم إلى الفناء و الاضمحلال .

[و هو العزيز الحكيم] الغالب في أمره لا يعجز الحكيم في أفعاله إن أمسك أو أنعم بما يقتضيه حكمته .

ثمّ خاطب المؤمنين فقال : [يا أيّها الناس اذكروا نعمة الله عليكم] الظاهرة و الباطنة التي من جعلتها أنّه خلقكم و أوجدكم و أقدركم و خلق لكم أنواع الملائكة و المنافع و النعم مع كثرتها منحصرة في قسمين : نعمة الإيجاد و نعمة الإبقاء فقال : [هل من خالق غير الله] إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء وقال : [يرزقكم من السماء و الأرض] إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء و هذا الكلام استفهام تفريريّ و معناه النفي ليقرّوا بأنّه لا خالق إلا الله و لا رازق للعباد غيره مثل أن يرزق من السماء بالمطرو و من الأرض بالنبات .

[لا إله إلا هو] وليس معبود يستحقّ العباد سواء [فأنسى توفّكون] أي كيف تصرفون عن طريق الحقّ إلى الضلال و تقلّبون الأمر و تعكسون هذه الأدلة مع وضوحها ؟ ثمّ سلّى نبيّه عن تكذيب قومه إيّاه فقال : [وإن يكذبوك فقد كذّبت رسل من قبلك و إلى الله ترجع الأمور] فيجازي من كذب رسله و ينصر من صدّقهم .

ثمّ خاطب الخلق فقال : [يا أيّها الناس إنّ وعد الله] من الجنة و النار و البعث و النشور و الجزاء و الحساب [حقّ] و صدق كائن لا محالة [فلا تغرّبكم الحياة الدنيا]

فلا تغترّوا بملاذّها و نعيمها و لا يخذ عنكم حبّ الجاه والرياسة و طول البقاء فإنّ ذلك نافذ بائد و يبقى الوزر و لما كان الإنسان بعضهم سخيّف الرأى قليل العقل فيغترّ بأدنى شيء و قد يكون فوق ذلك و لا يغترّ به و لكن إذا جاءه غارّ و شيطان كامل و زين له ذلك الشيء و هوّن عليه مفسده و بيّن له ملاذّ و منافع يغترّ به و يوقع نفسه في المعصية فقال الله : « لا تغرّ نكم الحياة الدنيا » إشارة إلى الدرجة الأولى و قال : [و لا يغرّ نكم بالله الغرور] إشارة إلى الطبقة الثانية و الغرور الذي عادته أن يغرّ غيره و الشيطان و الدنيا و زينتها بهذه الصفة و إنّ الخلق يغترّون بها و قيل : المراد من الغرور إبليس . ثمّ أشار إلى الطبقة الثالثة و هي الطبقة العليا الذين لم يكونوا من عبيد الدنيا و من حزب الشيطان و قال سبحانه :

ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوّا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (٦) الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير (٧) أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون (٨) والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور (٩) من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر اولئك هو يبور (١٠) .

المعنى : لما حذّرهم سبحانه عن الانغمار في الدنيا ومتابعة الشيطان فصرّح [إنّ الشيطان لكم عدو] يدعوكم إلى مافيه الهلاك والخسر و صرفكم عن أفعال الخير والبرّ و يدعوكم إلى الشرّ [فاتخذوه عدوّا] وعادوه ولا تتبعوه بأن تعملوا على وفق مراده .

[إنّما يدعو حزبه] أي أتباعه وأصحابه [ليكونوا من أصحاب السعير] أي النار المسعرة والمعنى أنّه لا سلطان له على المؤمنين و لكنّه يدعو أتباعه إلى ما يستحقّون به

النار ثم يبين حال من اتبعه وحال من خالفه والعاقلة إذا علم أنه عدو لا مهرب له منه وجزم بذلك فإنه يقف على قبالة حتى يهزمه فهزيمة الشيطان بعزيمة الإنسان على الثبات في طاعة الله والإعمال على العبادة .

ثم يبين سبحانه حال حزب الشيطان وحال حزب الله فقال : [الذين كفروا لهم عذاب شديد] جزاء على كفرهم [والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة] من الله لذنوبهم [وأجر كبير] أي ثواب عظيم .

ثم قال سبحانه على سبيل الإنكار مقررًا لهم [أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا] يعني الكفار زينوا لهم نفوسهم ومشتبهاتهم أعمالهم السيئة فتصوروها حسنة أوزينها الشيطان لهم بأن أعمالهم إلى الشبه المضلة وتركوا النظر في الأدلة وأغواهم حتى تشاغلوا بما فيه عاجل اللذة وجواب الاستفهام محذوف أي أهو كمن علم الحسن والقبح ولم يزين له سوء عمله وقيل : تقديره : كمن هداه الله وزين له صالح عمله والآية تقرير لبيان التباين بين حال الفريقين .

قوله : [فإن الله يضل من يشاء] لاستحسانهم واستحبابهم الضلالة على الهدى وبسوء اختياره افقضى العذاب فردّه إلى أسفل السافلين [ويهدي من يشاء] بصرف اختيارهم إلى الهداية فيرفعه إلى أعلى عليين .

قوله : [فلا تذهب نفسك عليهم حسرات] أي لا تهلك نفسك يا محمد عليهم حسرة ولا يغمك حالهم إذا كفروا واستحقوا العذاب وهو كقوله : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » والحسرة شدة الحزن على ما فات من الأمر [إن الله عليم بما يصنعون] فيجازيهم على صنيعهم .

قوله : [والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابًا] ثم عاد سبحانه إلى ذكر أدلة التوحيد وشواهد القدرة وذلك أن هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار لأن الهواء قد يسكن وقد يتحرك ويتموج وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين وإلى اليسار وفي حركته المختلفة قد ينشئ السحاب وقد لا ينشئ وهذه الاختلافات من طبيعة واحدة دليل على مسخر ومدبر حيث تختلف آثارها وأتى الإرسال بلفظ الماضي والإشارة بلفظ

المستقبل لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله : « كن » لوجوب وقوعه وسرعة كونه كما أنه كان فموسى سبحانه قد رال إرسال في الأوقات المعلومه إلى المواضع الميعنة والتقدير وقع فهو كالإرسال وأما الإثارة لما أسنده إلى الريح وهو يؤلف في زمان فأتى بلفظ المستقبل على هيئتها التدريجي .

قوله : [فسقناه إلى بلد ميت] أي أرض مجدبة فيمطر على ذلك البلد [فأحيينا به] أي بالمطر الماء [الأرض بعد موتها] بأن أنبتنا فيها الزرع والكلاء بعد أن لم يكن [كذلك النشور] أي كما نعل بهذه الأرض المجدبة الميتة من إحيائها بالزرع والنبات ينشر الخلائق بعد موتهم ويحشرهم للجزاء من الثواب والعقاب ووجه التشبيه معلوم أي كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك تجتمع أجزاء الأعضاء وأعضاء الأشياء وأيضاً كما نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت لأحيائه كذلك نسوق الروح والحياة إلى البدن ثانياً وأيضاً كما أن الأرض الميتة قبلت الحياة اللائقة بها كذلك أعضاء الإنسان قبل الحياة .

قوله تعالى : [من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً] اختلف في معناه فقيل : المعنى : من كان يريد علم العزة وهي القدرة على القهر والغلبة لمن هي فإنها لله جميعاً وقيل : معناه من أراد العزة فليتعزّز بطاعة الله فإن الله يعزّه كما يقال : من أراد المال فالمال لفلان فليطلب من عنده ويؤيد هذا المعنى ما رواه أنس عن النبي ﷺ أنه قال : إن ربكم يقول كل يوم : أنا العزيز فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز .

ولعل المراد في الآية منع الكفار عن العزة التي كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا في طاعة أحد ولم يكن من يأمرهم وينهاهم فكانوا ينحتون الأصنام ويقولون : إن هذه آلهتنا ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وكانوا يطلبون العزة لأنفسهم وهي عدم التذلل للرسول وترك الاتباع فقال سبحانه : إن كنتم تطالبون بهذا الكفر العزة فهي كلها لله ومن يتذلل له فهو العزيز ومن يتعزّز عليه فهو الذليل كما قال سبحانه : في آية أخرى « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »^(١) فله العزة بالذات ولرسوله بواسطة

القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قريهم للرسول .

قوله تعالى : [إليه يصعد الكلم الطيب] تقرير لبيان العزة وذلك أن الكفار كانوا يقولون : نحن لا نعبد من لانراه ولا نحضر عنده فقال تعالى : إن كنتم لاتصلون إليه فهو يسمع كلامكم و يقبل الطيب من القول والكلم جمع « الكلمة » يقال : هذا كلم وهذه كلم فيذكر ويؤث و كل جمع ليس بينه وبين واحد إلا الهاء يجوز فيه التذكير والتأنيث ومعنى الصعود ههنا القبول من صاحبه والإثابة عليه وكل ما يتقبله الله من الطاعات يوصف بالرفع والصعود لأن الملائكة يكتبون أعمال بني آدم ويرفعونها إلى حيث شاء الله وهذا كقوله : « إن كتاب الأبرار لفي عليين ^(١) » ويمكن أن يكون المعنى يصعد إلى سمائه فجعل صعود العمل إلى سمائه صعوداً إليه والمراد من « الكلم الطيب » الكلمات الحسنة من التعظيم والتفديس وأحسن الكلم « لا إله إلا الله » .

قوله : [والعمل الصالح يرفعه] قيل فيه وجوه : أحدها أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب إلى الله فإلهاء من يرفعه يعود إلى الكلم . والثاني على القلب من الأول أي الكلم الطيب يرفع العمل الصالح إلى الله حيث لا ينفع العمل الصالح إلا إذا صدر عن التوحيد . والثالث أن العمل الصالح يقبله الله ويرفعه وعلى هذا يكون الكلام ابتداءً إخباراً لا يتعلق بما قبله .

قوله تعالى : [والذين يمكرون السيئات] أي الذين مكروا برسول الله في دار الندوة وتبانيهم في إحدى ثلاث : حبسه أو قتله ^{وَاللَّهُ يَكْفُرُ} أو إجلاله ويشمل مكرات أصحاب السقيفة وقيل : يمكرون أي يعملون السيئات ولذا عداً بالسيئات وإلا فهو لازم أو المعنى يمكرون المكرات السيئات ويشركون بالله [لهم عذاب شديد] في الآخرة ثم أخبر سبحانه أن مكروهم يبطل ويفسد فقال : [ومكراً أولئك] الماكرين [هويبور] ويفنى .

قال الفيض في قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » القمي قال : هو كلمة الإخلاص والإقرار بما جاء به النبي من عنده من الفرائض والولاية ترفع العمل الصالح إلى الله وعن الصادق ^{عليه السلام} الكلم الطيب قول المؤمن : لا إله إلا الله

عنه رسول الله عليّ وليّ الله وخليفة رسول الله قال: والعمل الصالح الاعتقاد بالقلب بأنّ هذا لهو الحق من عند الله.

وعن الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله: إنّ لكلّ قول مصدّقاً من عمل يصدّقه أو يكذّبه فإذا قال ابن آدم وصدّق قوله عمله، رفع قوله بعمله إلى الله وإذا خالف عمله قوله ردّ قوله على عمله الخبيث وهوي به في النار.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: ولا يتناهل البيت وأوماً بيده إلى صدره فمن لم يتولّنا لم يرفع الله له عملاً.

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام: من قال: لا إله إلا الله مخلصاً طمست ذنوبه كما ينطمس الحرف الأسود من الرقّ الأبيض فإذا قال ثانية: لا إله إلا الله مخلصاً خرقت أبواب السماء وصفوف الملائكة حتّى يقول الملائكة بعضها البعض: اخشعوا لعظمة أمر الله فإذا قال الثالثة مخلصاً: لا إله إلا الله لم تنته دون العرش فيقول الجليل: اسكنني فوعزّتي وجلالي لا أغفرن لقائلك بما كان فيه ثم تلا هذه الآية: إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، يعني إذا كان علمه صالحاً ارتفع قوله وكلامه انتهى.

قوله تعالى: والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ان ذلك على الله يسير (١١) وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ماج اجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتسخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١٢) يوبخ في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (١٣) ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم و يوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير (١٤) يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد (١٥) ان يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد (١٦) وما ذلك على الله بعزيز (١٧).

اعلم أن الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها في عدد محصور منحصرة في قسمين :
دلائل الآفاق ودلائل الأنفس فلما ذكر سبحانه شطراً من دلائل الآفاق من السماوات
وما يرسل منها من الملائكة والأرض وما يرسل فيها من الرياح ذكر في هذه الآية
من دلائل الأنفس فقال :

[والله خلقكم من تراب] أي خالق آباءكم وأصلكم من تراب [ثم من نقطة]
أي ماء قليل وهي من الأضداد وقوله : « من نقطة » إشارة إلى أولاده أو المراد أن أصل
النطفة من التراب أيضاً . وقوله : [ثم جعلكم أزواجاً] أي ذكوراً وإناثاً وقيل :
ضروباً وأصنافاً .

[وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه] إشارة إلى كمال العلم فإن ما في
الأرحام قبل الانخلاق بل بعده مادام في البطن لا يعلم حاله أحد كيف والام الحامل
لا تعلم منه شيئاً ؟

[وما يعمر من معمر] معناه وما يمد في عمر معمر ولا يطول عمر أحد [ولا
ينقص من عمره] أي من عمر ذلك المعمر بانقضاء الأوقات عليه ولا يذهب بعض
عمره بمضي الليل والنهار أو يكون المعنى : إن فلاناً لو أطاع لبقى إلى وقت كذا وإذا
عصا نقص عمره .

[إلا في كتاب] أي إلا وذلك مثبت في الكتاب وهو الكتاب المحفوظ فأثبت الله
في أم الكتاب عمر فلان كذا سنة ثم يكتب أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان وذهب
ثلاثة أيام حتى يأتي على آخر عمره فيبين سبحانه أنه هو القادر على مثل هذا
الخلق والعالم بهذه الجزئيات والأصنام التي تعبدونها لافتره ولا علم لها فكيف
تستحق العبادة ؟

[إن ذلك على الله يسير] أي الخلق والتعمير والنقصان على الله سهل يسير .
ثم قال : [وما يستوي البحران] يعني العذب والمالح ثم ذكر الفرق فقال :
[هذا عذب فرات] أي طيب بارد [سائغ شرا به] جائز في الحلق هنيء . [وهذا ملح
أجاج] فيه الملوحة والمرورة . قال أهل اللغة : لا يقال في ماء البحر إذا كان فيه ملوحة :

مالح وإِنَّمَا يُقَالُ لَهُ : مَلَحَ كَمَا أَنَّ الْمَاءَ الْعَذْبَ إِذَا أُلْقِيَ فِيهِ مَلَحَ حَتَّى مَلَحَ لَا يُقَالُ لَهُ إِلَّا مَالَحَ وَإِنَّمَا يُقَالُ لِلْمَاءِ الَّذِي أَصْلُ خَلْقَتِهِ مَمْلُوحَةٌ : مَلَحَ لِأَنَّ الْمَالِحَ شَيْءٌ فِيهِ مَلَحٌ وَمَاءُ الْبَحْرِ لَيْسَ مَاءً وَمَلَحَ بِخِلَافِ الطَّعَامِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الْمَلَحُ فَيُقَالُ لِهَذَا : مَالِحٌ وَلِذَلِكَ : مَاءٌ مَلَحٌ وَلَوْ أَنَّ مَاءَ الْبَحْرِ اكْتَسَبَ الْمَلُوحَةَ مِنْ أَجْزَاءِ سَبْخَةٍ أَرْضِيَّةٍ وَمَاؤُهُ بِسَبَبِ الْمَجَاوِرَةِ اكْتَسَبَ الْمَلُوحَةَ لَكِنْ لَمَّا مَلَحَ بِسَبَبِ الْمَجَاوِرَةِ كَأَنَّهُمْ جَعَلُوا مَلُوحَتَهُ أَصْلًا وَخَلَقَهُ وَفَرَّقُوا بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ بِهَذَا السَّبَبِ .

وبالجملة قال المفسرون : إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ ضَرْبُ الْمَثَلِ فِي حَقِّ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ أَوْ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ قَالُوا : إِنَّ الْكُفْرَ وَالْإِيمَانَ لَا يَتَسَاوِيَانِ كَمَا لَا يَتَسَاوَى الْمَاءُ الْمَلَحُ وَالْمَاءُ الْعَذْبُ .

وقوله تعالى : [وَمَنْ كَلَّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ] أَي مَوَاحِرَ وَشَاقِقَاتِ الْبَحْرِ بِالْجَرِيِّ بَيَانٌ بِأَنَّ حَالَ الْكَافِرِ دُونَ حَالِ الْبَحْرَيْنِ لِأَنَّ الْأُجَاجَ يَشَارِكُ الْفُرَاتَ فِي الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ إِذِ اللَّحْمُ الطَّرِيُّ يَوْجَدُ فِيهِمَا وَالْحُلِيَّةُ تَوْجَدُ مِنْهُمَا وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِيهِمَا وَلَا نَفْعَ فِي الْكُفْرِ وَالْكَافِرِ وَهَذَا الْكَلَامُ عَلَى نَسْقِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لِمَا يُتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلْأَنْهَارُ » (١) .

وَفِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ وَهُوَ الدَّلِيلُ عَلَى كِمَالِ الْقُدْرَةِ وَبَيَانُهُ أَنَّ الْبَحْرَيْنِ يَسْتَوِيَانِ فِي الصُّورَةِ وَيَخْتَلِفَانِ فِي الْمَاءِ فَإِنَّ أَحَدَهُمَا « عَذْبُ فُرَاتٍ » وَالْآخَرُ « مَلَحُ أُجَاجٍ » وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ بَاطِلًا لَمَا اخْتَلَفَ الْمَتَسَاوِيَانِ ثُمَّ إِنَّهُمَا بَعْدَ اخْتِلَافِهِمَا يَوْجَدُ فِيهِمَا أُمُورٌ مُتَشَابِهَةٌ فَإِنَّ اللَّحْمَ الطَّرِيَّ يَوْجَدُ مِنْهُمَا وَمَنْ يَوْجَدُ فِي الْمَتَشَابِهَيْنِ اخْتِلَافًا وَمَنْ الْمَخْتَلَفَيْنِ أَشْبَاهًا لَا يَكُونُ إِلَّا قَادِرًا مُخْتَارًا وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى كِمَالِ قُدْرَتِهِ وَنَفُوذِ إِرَادَتِهِ .

[لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] وَهَذِهِ النِّعَمُ لِمَعَاشِكُمْ وَلَا تَنْ تَعْرِفُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَتَشْكُرُوهُ وَتَعْرِفُونَ خَالِقَكُمْ .

قوله تعالى : [يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ]

مرّياته مراراً وأما بيان قوله : « وسخر الشمس والقمر » جواب لسؤال مقدّر المشر كون وهو أنّهم قالوا : اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسي الواقعة فوق الأرض وتحتها فإنّ في الصيف تمرّ الشمس على سمت الرؤوس في بعض البلاد المائلة في الآفاق وحرّكة الشمس هناك حمائية فيقع تحت الأرض أقلّ من نصف دائرة الزمان مكثها تحت الأرض فيقصر الليل وفي الشتاء بالصدّ فيقصر النهار فقال الله سبحانه « وسخر الشمس والقمر » يعني سبب الاختلاف وإن كان ما ذكرتم لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله وقدرته وهو الذي فعل ذلك .

ثمّ قال : [ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير] أي ذلك الذي فعل هذه الأمور « له الملك » فلا معبود إلّا هو وإذا كان الملك له كلّ فله العبادة كلّها ثمّ بيّن ما ينسب في صفة الإلهية وهو قوله : « والذين تدعون من دونه ما يملكون » من لفافة النواة فكيف تعبدونها ؟ وذلك البيان لأجل أنّهم كانوا يقولون : إنّ الله فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التي هذه الأصنام على صورتها وطوالها فقال : « لا يملكون قطميراً » .

قوله تعالى : [إن تدعوهم] لكشف ضرّ [لا يسمعون دعاءكم] لأنّها جماد لا تنفع ولا تضرّ [ولو سمعوا] على زعمكم أو أن يخلق الله لها سمعاً [ما استجابوا لكم] .

ثمّ بيّن سبحانه على أنّ النفع لا يحصل لكم منها في الدنيا يحصل لكم منها الضرر في الآخرة بقوله : [ويوم القيامة يكفرون] بإشراككم بالله شيئاً فينطقهم الله يوم القيامة لتوبيخ عابديها ويجوز أن يكون المراد بهم الملائكة وعيسى فعلى هذا المعنى يكون معني « لا يسمعون دعاءكم » أي لا يلتفتون إليكم وهم مشغولون عنكم والظاهر المراد بالأصنام المعبودة .

قوله : [ولا ينبتك مثل خبير] أي لا يخبرك بالأمر مخبر مثل خبير أخبرك به وهو الحق سبحانه فإنّه الخبير بكنه الأمور وهو يخبرك بما هو الصلاح والفساد والمنافع والمضار .

قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ] المحتاجون [إِلَى اللَّهِ وَهُوَ الْغَنِيُّ]
عن عبادتكم لا يحتاج إلى شيء [الْحَمِيدُ] المستحق للحمد على جميع أفعاله فلا يفعل إلا
ما يستحق به حمداً ولما بالغ الرسول في الدعوة قال الكفار : لعل الله يحتاج إلى عبادتنا
حتى يأمرنا بها أمراً بالغاً ويهددنا على تركها مبالغاً فقال تعالى : « أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ
وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ » ولا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لا شفاقة عليكم . واعلم
أن التعريف في الخبر قليل والأكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وذلك لأن
المخبر لا يخبر في الأكثر إلا بأمر لا يكون عند المخبر به علم أو في ظن المتكلم أن
السامع لا علم له به والمبتدأ لابد من أن يكون معلوماً عند السامع حتى يقول له :
أيها السامع الأمر الذي تعرفه أنت فيه المعنى القلاني كقول القائل : زيد قائم فإن
كان الخبر معلوماً عند السامع والمبتدأ كذلك يقع الخبر تنبيهاً لا تفهيماً ويحسن تعريف
الخبر كقول القائل : الله ربنا ونعم نبينا حيث عرف كون الله رباً وكون محمد نبياً
فيحتمل أن يكون قوله : « أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ » من هذا القبيل .

قوله تعالى : [إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ] بيان لغناء في العبارة بلاغة
كاملة أي ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته بخلاف الشيء المحتاج إليه فإن المحتاج
لا يقول فيه إن يَشَأْ فلان هدم داره وأعدم عقاره وإنما يقول : لولا حاجة السكني إلى
الدار لبعثتها ولو لا الافتقار إلى العقار لتركتها .

ثم زاد في بيان الاستغناء بقوله : « وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ » أي إن كان يتوهم متوهم
أن هذا الملك له عظمة وكمال فلو أذهب لزال ملكه وعظمته فيبين سبحانه أنه قادر
بأن يخلق خلقاً جديداً أحسن وأتم وأكمل .

[وما ذلك على الله بعزيز] أي الإذهاب والابتيان غير معصور عليه ولا يغلب العجز
عليه و « العزيز » في اللغة الغالب من قوله : « ومن عزّ بَزٌّ » أي من غلب سلب فالله عزيز
أي غالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال : هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله :
« وما ذلك على الله بعزيز » أي لا يغلب الله ذلك الفعل ولا يعجزه بل هو هين على الله .

قوله تعالى : ولا تزر وازرة أخرى وان تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل

منه شيء ولو كان ذا قربي إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير (١٨) وما يستوى الأعمى والبصير (١٩) ولا الظلمات ولا النور (٢٠) ولا الظل ولا الجرور (٢١) وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور (٢٢) إن أنت إلا نذير (٢٣) أنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير (٢٤) وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير (٢٥) ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير (٢٦) .

المعنى : ثم أخبر سبحانه عن عدله في حكمه و أجاب الرؤساء والمتبوعون بما كانوا يقولون للتابعين : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم فقال :

[ولا تزر وازرة [الآية أي لا تحمل نفس حاملة حمل نفس [أخرى] ولا يؤخذ أحد بذنب غيره وإنما يؤخذ كل بما يقترفه من الآثام .

[وإن تدع] نفس [مثقلة] بالآثام والمعاصي [إلى حملها] إلى أن يتحمل عنها شيئاً من إثمها وفي قوله : « مثقلة » زيادة بيان لأن المثقل قديعان [لا يحمل منه شيء] أي لا يحمل غيرها شيئاً من ذلك الحمل [ولو كان ذا قربي] أي ولو كان المدعو إلى التحمل ذا قرابة منها وأقرب الناس إليها ما حمل عنها فكل نفس بما كسبت رهينة قال ابن عباس : يقول الأب والأم : يا بني احمل عني فيقول : حسبي ما علي .

[إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب] وهذا كقوله : (١) « إنما أنت منذر من يخشاها » أي إن إنذارك لا ينفع إلا الذين يخشون ربهم في خلواتهم وغيباتهم عن الخلق أو المعنى : هم غائبون عن أهوال الآخرة ومعتقدون بها .

[و أقاموا الصلاة] أي أداموها وقاموا بشرائطها وإنما عطف الماضي على المستقبل إشعاراً باختلاف المعنى لأن الخشية لازمة في كل وقت والصلاة لها أوقات مخصوصة .

[ومن تزكى] أي فعل الطاعات وقام بما يجب عليه من الزكاة وغيرها من الواجبات وقيل : أي تطهر من المعاصي [فإتقوا أنفسكم] لأن جزاء ذلك يصل إليه دون غيره [وإلى الله المصير] أي مرجع الخلق إليه فيجازي كلًا على عمله .
[وما يستوي الأعمى والبصير] أي لا يتساوى الأعمى عن طريق الحق والذي اهتدى إليه أو المشرك والمؤمن [ولا الظلمات] أي ظلمات الشرك والضلال [ولا النور] أي نور الإيمان والهداية وتكرار كلمة «لا» في قوله : [ولا النور] زائدة مؤكدة للنفي [ولا الظل ولا الحرور] يعني الجنة والنار وقيل : الظل الليل والحرور سموم النهار الحارة [وما يستوي الأحياء ولا الأموات] يعني المؤمنين والكافرين وقيل : يعني العلماء والجهال وبالجمله كما لا يستوي هذه الأشياء ولا يتماثل ولا يتشاكل فكذلك عبادة الله لا تشبه عبادة غيره ولا يستوي المؤمن والكافر والحق والباطل .

[إن الله يسمع من يشاء] أي ينفع بالأسماع من يشاء أن يلطف له ولم يردبه نفي حقيقة السماع لأنهم كانوا يسمعون آيات الله [وما أنت بمسمع من في القبور] أي إنك لا تقدر على أن تنفع الكفار بأسماعك إيتاهم إذ لم يقبلوا كما لا تسمع من في القبور من الأموات [إن أنت إلا نذير] أي ما أنت إلا مخوف لهم بالله .
[إنا أرسلناك بالحق] أي بالدين الصحيح [بشيراً ونذيراً] أي مبشراً للمؤمنين ونذيراً للمكافرين [وإن من أمة إلا خلا فيها نذير] خلا أي مضى أي كما أنت مبشّر ومنذر لقومك كذلك قبلك كان الرسل يخوفونهم وينذرونهم وأقاموا الحجّة على قومهم .

[وإن يكذبوك] يا محمد ولم يصدقوك [فقد كذب الذين من قبلهم] من الكفار أنبياء أرسلهم الله إليهم [جاءتهم رسلهم بالبينات] أي بالمعجزات الباهرات [وبالزبور] أي وبالكتب [وبالكتاب المنير] ولعل المراد بالزبور «صحف إبراهيم و» بالكتاب المنير «كالتوراة والإنجيل وإتّما كرر ذكر الكتاب وعطفه على الزبور لاختلاف الصفتين فإن الزبور أثبت في الكتاب من الكتاب لأنه يكون منقراً منقشاً فيه كالنقر في الحجر .

[ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير] فلما كذبوا رسلهم ولم يعترفوا بنبوتهم أخذتهم بالعذاب وأهلكتهم ودمرت عليهم فكيف كان تغييري وإنكاري عليهم وإنزالي العقاب بهم؟

قوله تعالى : ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود (٢٧) ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ألما يخشى الله من عباده العلماء أن الله عزيز غفور (٢٨) أن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلوة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور (٢٩) ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله أنه غفور شكور (٣٠) .

أي [ألم] تعلم [أن] الله أنزل من السماء [غيثاً ومطراً] فأخرجنا [أخبر عن نفسه بنون الكبرياء والعظمة [به] أي بذلك الماء [ثمرات] جمع «ثمرة» وهي ما يجتنى من الشجرة [مختلفاً ألوانها] وطعومها وروائحها ، اقتصر على ذكر الألوان لأنها أظهر في التنوع ولدلالة الكلام على الطعوم والروائح وقوله تعالى : « ألم تر » استفهام تقريرى والاستفهام التقريرى لا يقال إلا في الشيء الظاهر جداً كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جداً فقال له غير : أين هو فإنه يقول له : في الموضع الفلاني فإن لم يره يقول له : الحق معك إنه خفي وأنت معذور وإذا كان بارزاً يقول له : أمانرى هذا هو ظاهر و لمّا كانت الشواهد ظاهرة فكأنه سبحانه قال له : أنت صرت بصيراً ولم يبق ما يوجب الخفاء أمانرى هذه الآية ؟

ثم إنه سبحانه لمّا ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت إلى غيرهم كما أن السيد إذا نصح بعض العبيد وأرشدهم وما نفعهم الإرشاد يقول لغيره : اسمع ولا تكن مثل هذا ويكرّمه ما ذكره مع الأول ويكون فيه إشعار بأن الأول فيه نصيحة لا يستأهل الخطاب وبعض الخطابات في القرآن للنبي من هذا العنوان .

وفي الآية بيان آخر بقوله : « أخرجنا » لأن الجاهل قديكون يتصور في ذهنه

أنّ نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له : فالإخراج لا يمكنك أن تقول فيه : إنّه بالطبع فهو بإرادة الله فلمّا كان ذلك أسنده إلى المتكلّم مع أنّ قبله بصيغة الغائب .

قوله تعالى : [ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود] أي ومما خلقنا من الجبال جدد بيض وحمر وفي الآية دلالة على القدرة ورادة على من ينكر الإرادة في اختلاف الألوان والطعوم كأنّ قائلاً يقول : اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع الأتري أنّ بعض النباتات لا تنبت ببعض البلاد كالزعفران والدارچين فردّ سبحانه زعمهم الباطل بأنّ بعض الجبال بل جبل واحد فيه مواضع حمر والجدد جمع جدّة وهي الخطّة والطريقة فطريقة حمراء متصلة بخطّ أسود .

[مختلف ألوانها] الظاهر أنّ الاختلاف راجع إلى كلّ لون أي بيض مختلف ألوانها وحمر مختلف ألوانها لأنّ الأبيض قديكون على لون الجبس وقديكون على لون التراب الأبيض وكذلك الأحمر ولو كان المراد أنّ البيض والحمر مختلف الألوان لكان مجرد تأكيد ومعنى الأول آكد وأولى وقوله : « وغرايب سود » ، « وغرايب » تأكيد « للسود » أي سود غرايب كالفاقع للأصفر .

فان قيل : إنّ التأكيد لا يجيء إلا متأخراً فكيف جاء « غرايب سود » ؟ قال الزمخشري : « غرايب » تأكيد لذي لون مقدّر في الكلام وتقديره سود غرايب ثمّ أعاد السود مرّة أخرى فحينئذ فيه زيادة التأكيد لكونه ذكره مضمرّاً ومظهرّاً وقيل : هو على التقديم والتأخير ويجوز أن يكون « سود » عطف بيان يبيّن غرايب .

قوله : [ومن الناس والدواب والأنعام] وكذلك خلق سبحانه من الناس والدواب التي تدبّ على وجه الأرض والأنعام كالإبل والغنم والإبل كذلك مختلف اللون كاختلاف الثمرات والجبال وكما أنّها في أنفسها دلائل كذلك في اختلافها دلائل .

ثمّ تمّ الكلام وقال : [إنّما يخشى الله من عباده العلماء] الخشية بقدر المعرفة فالعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه وإنّ أكرمكم عند الله أتقاكم فبيّن أنّ الكرامة بقدر التقوى ثمّ قال : [إنّ الله عزيز غفور] ذكر سبحانه ما يوجب الخوف والرجاء فكونه عزيزاً ذا انتقام يوجب الخوف التام وكونه غفوراً يوجب الرجاء البالغ وقراءة من قرأ

بنصب العلماء ورفع الله فالمعنى أنه سبحانه يبجل ويعظم .
وحاصل المعنى أنه ليس يخاف الله حق خوفه ولا يحذر معاصيه خوفاً من نعمته
إلا العلماء . وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال : يعني بالعلماء من صدق قوله فعله ومن
لم يصدق فعله قوله فليس بعالم وفي الحديث : أعلمكم بالله أخوفكم لله قال مسروق : كفى
بالمرء علماً أن يخشى الله وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه وإنما خص العلماء بالخشية
لأن العالم أحذر لعقاب الله من الجاهل حيث يختص بمعرفة التوحيد والعدل ويصدق
بالبعث والحساب والجنة والنار .

ثم وصف سبحانه العلماء فقال : [إن الذين يتلون كتاب الله] أي يقرؤون القرآن
في الصلاة وغيرها فأثنى عليهم بقراءة القرآن [وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم] أي
ملكناهم التصرف فيه [سرّاً وعلانية] في حال السر والعلن أي أنفقوا في حال كونهم
مسرّين ومعلنين وعن عبد الله بن عمر الليثي قال : قام رجل إلى رسول الله ﷺ
فقال : يا رسول الله مالي لأحبّ الموت ؟ قال ﷺ : ألك مال ؟ قال : نعم قال : فقدّمه
قال : لا أستطيع قال : فإنّ قلب الرجل مع ماله إن قدّمه أحبّ أن يلحق به وإن
أخّره أحبّ أن يتأخّر معه .

[يرجون تجارة لن تبور] أي راجين بذلك تجارة لن تكسد ولن تفسد ولن تهلك
إشارة إلى الإخلاص وينفقون لوجهه لأن يقال له : إنه كريم .
[ليوفّيهم أجورهم] أي أنفقوا لأن يوفّيهم الله أجورهم بالشواب [ويزيدهم من
فضله] إنه غفور [لذنوبهم] لشكور [لحسناتهم] وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال
في قوله : « ويزيدهم من فضله » هو الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليه معروفاً في
الدنيا وقيل : معنى « شكور » أنه يقبل اليسير ويثيب عليه الكثير تقول : أشكر من بردفة و
هي شجرة عارية من الورق تغيم السماء فوقها فتخضر وتورق من غير مطر .

قوله تعالى : والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصداقاً لما بين
يديه ان الله بعباده لخبير بصير (٣١) ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من
عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك

هو الفضل الكبير (٣٣) جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من اساور من ذهب و لؤلؤا و لباسهم فيها حرير (٣٣) وقالوا الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور (٣٤) الذي احلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها الغوب (٣٥).

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال :

[والذي أوحينا إليك] يا محمد وأنزلنا [من الكتاب] وهو القرآن [هو الحق] الصحيح الذي لا يشوبه فساد والصدق الذي لا يمازجه كذب و هو يدعو إلى الحق ويصرف عن الباطل [مصداقاً لما بين يديه] « مصداقاً ، حال مؤكدة لكونه حقاً و مصداقاً لما قبله من الكتب مثل التوراة والإنجيل لأنه جاء موافقاً لما بشرت به تلك الكتب و يحتمل أن يكون معنى قوله : « أوحينا إليك من الكتاب » أي من الكتاب الكبير وهو اللوح المحفوظ. [إن الله بعباده لخبير بصير] و هذا جواب لما كانوا يقولونه : إنه لم ينزل هذا القرآن على رجل عظيم فقال : « إن الله بعباده لخبير ، يعلم صلاحهم و بواطنهم و بصير » يرى ظواهرهم و هذا مثل قوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته »^(١) ، فاختر محمد ﷺ ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل .

ثم قال : [ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا] و معنى الإرث انتهاء الأمر و الحكم إليهم والميراث انتقال الشيء من قوم إلى قوم و اختلف في الذين اصطفاهم الله من عباده في الآية فقيل : هم الأنبياء اختارهم الله برسالته و كتبه عن الجبائي وقيل : هم المصطفون الداخلون في قوله : « إن الله اصطفى آدم و نوحاً ، إلى قوله : « و آل إبراهيم و آل عمران »^(٢) ، وقيل : هم أمة محمد ﷺ أورثهم الله كل كتاب أنزله عن ابن عباس وقيل : هم علماء أمة محمد ﷺ لما ورد في الحديث : العلماء ورثة الأنبياء و المروي عن الباقر و الصادق عليه السلام أنهما قالا : هي لنا خاصة و إيماننا غنى و هو الأقرب من الأقوال و الأصح لأنهم أحق الناس بوصف الاصطفاء و الاجتباء واستيراث علم الأنبياء إذ هم

(١) الانعام : ١٢٦ .

(٢) آل عمران : ٣٢ .

المتعبدون بحفظ الوحي والقرآن و بيان حقائقه ودرقائقه .

قوله : [فمَنهم ظالم لنفسه و منهم مقتصد و منهم سابق بالخيرات] اختلف في أن الضمير في « منهم » إلى من يعود على قولين : أحدهما أنه يعود إلى العباد وتقدير الكلام : فمن العباد ظالم لنفسه و روي نحو ذلك عن ابن عباس والحسن وقتادة و اختاره المرتضى من أصحابنا قال : و الوجه أنه لما علق توريث الكتاب بمن اصطفاه من عباده بين عقبه أنه إنما علق وراثته الكتاب ببعض العباد دون بعض لأن في العباد من هو ظالم لنفسه و من هو مقتصد و من هو سابق بالخيرات و القول الثاني أن الضمير يعود إلى المصطفين من العباد عن أكثر المفسرين .

ثم اختلف في أحوال الفرق الثلاث على قولين : أحدهما أن جميعهم ناج و يؤيد ذلك ما ورد في الحديث عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله يقول في الآية : أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب و أما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً و أما الظالم لنفسه فيحبس في المقام ثم يدخل الجنة فهم الذين قالوا : « الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » و عن عائشة أنها قالت : كلهم في الجنة أما السابق فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ بالجنة و أما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق بهم و أما الظالم فمثلي ومثلكم و روي عنها أنها قالت : السابق الذي أسلم قبل الجهرة و المقتصد الذي أسلم بعد الجهرة و الظالم نحن . و روي عن عمر بن الخطاب أنه قال : سابقنا سابق و مقتصد ناج و ظالمنا مغفور له . و قيل : إن الظالم من كان ظاهره خيراً من باطنه و المقتصد الذي استوى ظاهره و باطنه و السابق الذي باطنه خير من ظاهره . و قيل : « منهم ظالم لنفسه » بالصغائر « و منهم مقتصد » بالطاعات في الدرجة الوسطى و « منهم سابق بالخيرات » في الدرجة العليا عن جعفر ابن حرب .

و روى أصحابنا عن الصادق عليه السلام أنه قال : الظالم لنفسه منّا من لا يعرف حق الإمام و المقتصد منّا العارف بحق الإمام و السابق بالخيرات هو الإمام و هؤلاء كلهم مغفور لهم .

و عن زياد بن المنذر عن أبي جعفر عليه السلام قال : أما الظالم لنفسه منّا من عمل

صالحاً وآخر سيئاً وأما المقتصد المتعبد المجتهد وأما السابق بالخيرات فعلياً والحسن
والحسين ومن قتل من آل محمد شهيداً .

و القول الآخر أن الفرقة الظالمة لنفسها غير ناجية قال قتادة : الظالم لنفسه أصحاب
المشأمة و المقتصد أصحاب الميمنة و السابق بالخيرات هم السابقون المقرّبون من الناس
كلّهم كما قال سبحانه : « و كنتم أزواجاً ثلاثة ^(١) » ، وقال عكرمة عن ابن عباس : إن
الظالم هو المنافق و المقتصد و السابق من جميع الناس وقال الحسن : السابقون هم الصحابة
و المقتصدون هم التابعون و الظالمون هم المنافقون و في الصافي نقلاً عن بصائر الدرجات
عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب ، الآية » هي في ولد فاطمة عليها السلام .
و عن الصادق عليه السلام أنه قيل له : إنها في الفاطميين فقال : ليس حيث تذهب
ليس يدخل في هذا من سل سيفه و دعا الناس إلى الضلال ف قيل : من الظالم لنفسه قال :
الجالس في بيته لا يعرف حق الإمام و المقتصد العارف بحق الإمام و السابق الإمام
و عن الكاظم أنه تلا هذه الآية وقال : نحن الذين اصطفانا الله عز وجل وأورثنا هذا الكتاب
فيه تبيان كل شيء .

و في العيون عن الرضا عليه السلام أنه قال : أراد الله بذلك العترة الطاهرة و لو
أراد الأئمة لكانت بأجمعها في الجنة لقول الله : « فمنهم ظالم لنفسه ، الآية » ، ثم جمعهم
كلّهم في الجنة فقال : « جنّات عدن يدخلونها ، الآية » ، فصارت الوراثة للعترة الطاهرة
لا لغيرهم .

و عن الصادق عليه السلام أن فاطمة لعظمها على الله حرّم الله ذرّتها على النار وفيهم
نزلت « ثم أورثنا الكتاب ، الآية » و في الاحتجاج عن الصادق أنه سئل عنها و قيل له :
إنه لولد فاطمة خاصة فقال : أمّا من سل سيفه و دعا الناس إلى الضلال إلى الضلال من
ولد فاطمة فليس بداخل في هذه الآية قيل له : من يدخل فيها ؟ قال : الظالم لنفسه الذي
لا يدعو الناس إلى ضلال ولا هدى و المقتصد منّا أهل البيت العارف بحق الإمام و
السابق الإمام .

و في المعاني عنه عليه السلام أنه سئل عنها فقال : نزلت فينا أهل البيت فقيل له : فمن الظالم لنفسه ؟ قال : الذي استوت حسناته و سيئاته منّا أهل البيت فهو الظالم لنفسه فقيل : من المقتصد منكم قال : العابد لله في الحالين حتّى يأتيه اليقين فقيل : فمن السابق منكم بالخيرات ؟ قال : من دعا والله إلى سبيل ربه و أمر بالمعروف و نهى عن المنكر ولم يكن للمضلين عضداً ولا للخائفين خصيماً ولم يمرض بحكم الفاسقين إلا من خاف على نفسه ودينه ولم يجد أعواناً انتهى .

قوله تعالى : [يا ذن الله ذلك هو الفضل الكبير] المعنى : إن إراث الكتاب و اصطفاء الله إياهم يا ذن الله وأمره و هو الفضل العظيم .

فإن قيل : لم قدّم الظالم وأخّر السابق وإنّما يقدّم الأفضل ؟
فالجواب أنه قد يقدّم الأدنى في الذكر على الأفضل قال سبحانه : « يواج الليل في النهار ^(١) » و قال : « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ^(٢) » و قال : « خلق الموت و الحياة ^(٣) » و قال : « فمنكم كافر و منكم مؤمن ^(٤) » و يمكن أن يقال : إنّما قدّم الأدنى على الأفضل لثلاث يس الظالم من رحمته و أخّر السابق لثلاث يعجب بعمله أو رتب هذا الترتيب على مقامات الناس لأنّ أحوال الناس ثلاثة معصية ثمّ التوبة ثمّ القربة فإذا عصا فهو ظالم وإذا تاب فهو مقتصد وإنّ تمحض في عبادة الله اتصل بالله وعدّ من السابقين .

قوله : [جنّات عدن يدخلونها] هذا تفسير للفضل كأنّه قيل : ما ذلك الفضل الكبير ؟ فقال : هي جنّات أي جزاء جنّات أو دخول جنّات و يجوز أن يكون بدلاً من الفضل أي ذلك الفضل دخول جنّات .

[يحلّون فيها من أساور] جمع « أسورة » و هي جمع « سوار » و هي حلية اليد من ذهب و لؤلؤ أي و يحلّون فيها أساور من لؤلؤ أو من ذهب صفائه صفاء اللؤلؤ أو

(١) الحج : ٦١ .

(٢) الشورى : ٤٩ .

(٣) الملك : ٢ .

(٤) التغابن : ٢ .

مرصع باللؤلؤ من حليت المرأة فهي حالية و متحلية و التحلي بالأساور كاشف عن الفراغ من السعي و البطش و يدل على الغناء والراحة و زوال كل مكروه [ولباسهم فيها حرير] وهو الأبرسم المحض .

[وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور] فأخبر سبحانه عن حال الداخلين بأنهم إذا دخلوا الجنة يقولون : الحمد لله ، اعترافاً منهم بنعمته لا على وجه التكليف بل شكراً على هذه النعمة من الفرح ويعنون من الحزن ، الحزن الذي أصابهم قبل دخول الجنة لأنهم كانوا يخافون دخول النار ، إن ربنا لغفور ، لذنوب عباده و قبيح أفعالهم ، وشكور ، يقبل اليسير من محاسن أعمالهم و شكر الله هو مكافاته على شكرهم وقبول يسير طاعتهم وإن كان حقيقه الشكر لا يجوز عليه ولا يصح أن يكون سبحانه منعماً عليه لأن تمام النعم منه فهو المنعم لا المنعم .

قوله [الذي أحلنا دار المقامة] هذا من كلامهم أي أنزلنا دار الخلود يقيمون فيها أبداً لا يموتون و لا يتحولون عنها من فضله [لا يمستنا فيها نصب و لا يمستنا فيها لغوب] أي لا يمستنا في الجنة عناء و مشقة و لا يمستنا و لا يصيبنا فيها أعياء و تعب أي ليس في الجنة كالدنيا مظان المتاع و قيل : النصب التعب الممرض و اللغوب هو ما يلغب منه و ما يحصل من ذلك المرض فكأنه قال : لا يمستنا مرض ولادون ذلك .

قوله تعالى : والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور (٣٦) و هم يضطربون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير (٣٧) ان الله عالم غيب السموات و الارض انه عليم بذات الصدور (٣٨) هو الذي جعلكم خلائف في الارض فمن كفر فعليه كفره و لا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتاً و لا يزيد الكافرين كفرهم الا خساراً (٣٩) قل ارايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ارونى ماذا خلقوا من الارض ام لهم شرك في السموات ام آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا (٤٠) .

المعنى : لما قدم سبحانه ذكر ما أعدّه لأهل الجنة من أنواع الثواب عقبه بذكر ما أعدّه للكفار من أليم العقاب فقال :

[والذين كفروا] بوحداية الله ووجدوا نبوة نبيه [لهم نار جهنم] جزاء على كفرهم [لا يقضى عليهم] بالموت [فيموتوا] أو يستريحوا [ولا يخفف عنهم من عذابها] ولا يسهّل عليهم عذاب النار [كذلك] أي و مثل هذا العذاب و نظيره [نجزي كلّ كفور] جاحد كثير الكفران مكذب لأنباء الله .

[وهم يصطرخون] و يتصايحون [فيها] في النار بالاستغاثة يقولون [ربنا أخرجنا] من عذاب النار [نعمل صالحاً] ونؤمن بدل الكفر و نطع بدل المعصية وردنا إلى الدنيا لنعمل بالطاعات التي تأمرنا بها [غير الذي كنّا نعمل] من المعاصي .

فوبّخهم الله تعالى فقال : [أو لم نعمركم ما يتذكّر فيه من تذكّر] أي ألم نعطكم من العمر مقدار ما يمكن أن يتفكّر و يعتبر و ينظر في أمور دينه و عواقب حاله من يريد أن يتذكّر و يختلف في هذا المقدار فقل : هو ستون سنة و هو المروي عن أمير المؤمنين قال عليه السلام : العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة و هو إحدى الروايتين عن ابن عباس و روي عن النبي أيضاً مرفوعاً أنه قال : من عمّره الله ستين سنة فقد أعذره الله و قيل : هو أربعون سنة عن ابن عباس و مسروق و قيل : هو تويخ لابن ثمانين عشر سنة ، عن وهب و قتادة و روي ذلك عن الصادق عليه السلام .

قوله : [و جاءكم النذير] أي المخوف من عذاب الله وهو عذاب عليه السلام عن ابن زيد و جماعة و قيل : النذير القرآن و قيل : الشيب والبياض في الشعر عن عكرمة و جماعة ومنه قول الشاعر :

رأينا الشيب من نذر المنايا * لصاحبه و حسبك من نذير
وقال عدي بن زيد :

و يبيض السواد من نذر المو * ت و هل بعده يجيء نذير
وقيل : «النذير» موت الأهل والأقارب وقيل : كمال العقل .

[فذوقوا] العذاب وحسرة الندم [فما للظالمين من نصير] يدفع العذاب عنهم .

قوله تعالى : [إن الله عالم غيب السماوات والأرض] تقرير لدوامهم في العذاب وبيان لأمر آخر وهو أنه سبحانه لما قال : « جزاء سيئة سيئة مثلها » ^(١) ، ولا يزداد عليها فلو قال قائل : الكافر ما كفر بالله إلا أيتاماً معدودة فكان ينبغي أن لا يعذب إلا مثل تلك الأيتام فأجاب الله تعالى أن الله لا يخفى عليه غيب السماوات والأرض ولا يخفى عليه ما في الصدور و كان يعلم من الكافر أن في قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده وبالجمل لا يخفى عليه شيء مما يغيب عن الخلق علمه فلا تضمروا في أنفسكم ما يكره .

[هو الذي جعلكم خلائف في الأرض] أي جعلكم معاشر الكفار أئمة بعد أئمة و خلائف القرون الماضية وأحدثكم بعدهم وأورثكم ما كان لهم [فمن كفر فعليه] ضرر [كفره] وعقاب كفره [ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً] أي شدة البغض [ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً] أي خسرانا وهلاكاً والكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد إلا المقت ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يفيدهم إلا الخسار أفان العمر كرأس المال من اشترى به رضا الله ربح ومن اشترى به سخطه خسر .

قوله تعالى : [قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله] قل لهم يا محمد : أخبروني أيها المشركون عن الأوثان الذين أشر كتموه مع الله في العبادة [أرؤني ماذا خلقوا من الأرض] و بأي شيء أو جبتهم لها العبادة و أي شيء خلقوه من الأرض ؟ فإن قيل : كيف يفسر قوله : « أرأيتم » في معنى أخبروني ؟ لأن الاستفهام يستدعي جواباً مثاله يقول القائل : أرأيت ما ذا فعل فلان فيقول السامع : باع أو اشترى ولو لا تضمنه معنى أخبروني لما كان الجواب إلا قوله لا أو نعم فحينئذ يستخير المستفهم الخير و يطلبه فيصح معنى أخبروني .

قوله : [أم لهم شرك في السماوات] أي ألهم شرك في خلقها [أم آتيناهم كتاباً] وأنزلنا عليهم كتاباً و أمراً يصدق دعواهم فيما هم عليه من الشرك [فهم على بينة]

فيكونون على حجة واضحة لعبادتهم إياها من ذلك الكتاب و الضمير في قوله « أم آتيناهم » يمكن أن يعود إلى الشركاء أي هل آتيناهم شركاء كتاباً فتصح العبادة ويمكن أن يعود الضمير إلي المشر كين .

و حاصل المعنى أن هذه العبادة الباطلة لاعقلية بسبب أنها مخلوقة عاجزة ولا عقل لمن يعبد من لم يخلق من الأرض جزء من الأجزاء ولا شيئاً في السماء ولا عقلية لأننا ما آتيناهم كتاباً فيه يكون أمراً بجواز العبادة لها فهذه العبادة لاعقلية ولا عقلية بل صرف التقليد فوعد بعضهم بعضاً في فائدة عبادة الأصنام من الشفاعة أو الرزق ليس إلا غروراً لا حقيقة له و طمع في مالا يطمع فيه .

النظم في قوله : « إن الله يعلم غيب السماوات » متصل بقوله : « نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل » فالمراد أنه تعالى يعلم أنه لوردكم إلى الدنيا لعدتم إلى كفركم .
قوله تعالى : ان الله يمسك السموات و الارض ان تزولا و لئن زالتا ان أمسكها من احد من بعده انه كان حليماً غفوراً (٤١) و اقساموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا (٤٢) استكباراً في الارض و مكر السيئ و لا يحيق المكر السيئ الا باهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً (٤٣) اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم و كانوا أشد منهم قوة و ما كان الله ليعجزه من شيء في السموات و لا في الارض انه كان عليماً قديراً (٤٤) ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة و لكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيراً (٤٥) .

المعنى : لما بين الله شرك المشر كين قال : مقتضى شر كهم زوال السماوات والأرض و كانتا جديرتين بأن تهدأاً كما قال عز وجل : « تكاد السماوات يتفطرن وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأً ^(١) » و بين أنه تعالى يمسسكهما لئلا تزولا أو المعنى

(١) مريم : ٩٠ و بعده « ان دعوا للرحمن ولدا » فشر كهم كدعواهم للرحمن ولدا يقتضى زوال السماوات و الارض لكنه يصفح عنهم حلماً .

أنه يمسكهما من غير علاقة فوقها ولا دعامة تحتها .

[ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده] أي: إن قدر أن تزولا عن مراكزهما ما أمسكهما أحدهما لا يقدر على إمساكهما أحد من بعده أي: من بعد الله أو من بعد زوالهما [إنه كان حلماً غفوراً] وما ترك تعذيبهم إلا حلماً منه تعالى وإلا كانوا يستحقون إسقاط السماء وانطباق الأرض عليهم ولم يعجل في إهلاكهم بعد إصرارهم على الشرك وهو لمن تاب ويرحمه بعد التوبة وإن استحق العقاب .

في الكافي عن أمير المؤمنين أنه سئل عن الله عز وجل يحمل العرش أم العرش يحمله فقال عليه السلام : الله عز وجل حامل العرش والسموات والأرض وما بينهما وذلك قول الله تعالى : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا » الآية .

وفي الإكمال عن الرضا عليه السلام في حديث بنيامسك الله السماوات والأرض أن تزولا .
وعنه عليه السلام : لولا ما في الأرض منّا لساخت بأهلها .

ثم حكى سبحانه عن الكفار فقال [وأقسموا بالله جهد أيمانهم] أي إنهم بعد أن أشركوا والمراد كفار مكة حلفوا بالله بأيمان غليظة قبل أن يأتيهم محمد ﷺ [لنن جاءهم نذير] أي رسول مخوف من جهة الله [ليكونن أهدى] إلى قبول قوله واتباعه [من إحدى الأمم] الماضية يعني اليهود والنصارى وذلك أن قريشاً لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا : لعن الله اليهود والنصارى لو أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم .

[فلمّا جاءهم نذير] أي محمد ﷺ وصحّ مجيئه بالبينة والظهور [ما زادهم إلا نفورا] فأتهم قبل البعثة كانوا كافرين بالله وبعدها كفروا برسوله وتابعدوا عن الحق .

[استكباراً في الأرض] أي عتوا على الله وأنفه من أن يكونوا تبعاً لغيرهم وكانوا على حالة الاستكبار في الأرض [ومكر السيئ] إضافة الجنس إلى نوعه كما يقال : علم الفقه وحرقة الحدادة وضيء المصدر إلى صفة المصدر فالتقدير : ومكروا المكر السيئ والمراد المكر برسول الله وبالمؤمنين ومكر السيئ كل مكر أصله الخدعة والكذب وكان تأسيسه على فساد لأن من المكر ما هو حسن وهو مكر المؤمنين بالكافرين إذا

حاربوهم من الوجه الذي يحسن أن يمكروا بهم .
قوله : [ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله] أي لا ينزل جزاء المكر السيئ إلا
بمن فعله .

[فهل ينظرون إلا سنة الأولين] أي فهل ينتظرون إلا عادة الله في الأمم الماضية
أن يهلكهم إذا كذبوا رسله و ينزل بهم العذاب جزاءً على كفرهم فإن كانوا ينتظرون
ذلك [فلن تجد لسنة الله تبديلاً] أي لا يغير الله عادته من عقوبة الكافر ولا يبدلها وهذا
أمر واقع لا محالة ليس له من دافع [ولن تجد لسنة الله تحويلاً] بأن ينقله من المكذبين
إلى غيرهم .

فإن قيل : التبديل تحويل فما وجه التكرار ؟
فالجواب أن قوله : « فلن تجد لسنة الله تبديلاً » أي العذاب للكافر لا يتبدل
بغيره و بقوله : « ولن تجد لسنة الله تحويلاً » أي لا يتحول العذاب عن مستحقه إلى غيره
فتبين الفرق بين التبديل و التحويل لأن التبديل تغيير الشيء مكان الشيء و تعويضه
و لكن التحويل تصيير الشيء في غير المكان الذي كان فيه فحينئذ ليس تكراراً ولو فرضنا
التكرار فليتم تهديد المسيء و لعل المراد من « سنة الله » أن عادة الله جرت بأن إذا كان
في القوم من يؤمن أو يكون في أصلاب الكافرين من يؤمن فلا يعذب بهم بعذاب الاستئصال
فلذلك أمهلهم و ليس لهذه العادة من تحويل و تغيير .

قوله تعالى : [أو لم يسيروا في الأرض] أي ألم يسه هؤلاء الكفار الذين أنكروا
هلاك الأمم الماضية في الأرض و الآية استشهاد على ما قبله من جريان سنته على تعذيب
المكذبين بما يشاهدونه في أسفارهم إلى الشام و العراق و اليمن من آثار ديار الأمم
العامية و الهمة للإنكار و النفي و الواو للعطف على مقدر يليق بالمقام .

و تقدير الكلام : أقعدوا ولم يسيروا في الأرض حتى [ينظروا كيف كان عاقبة
الذين من قبلهم] مثل قوم لوط و عاد و ثمود [و كانوا أشد منهم قوة] و أطول أعماراً
و ما أغنى عنهم طول المدى و شدة القوى و الحالة أن أولئك كانوا أشد من هؤلاء قوة .
[و ما كان الله ليعجزه من شيء] أي لم يكن الله يفوته شيء [في السماوات و لافي

الأرض إنّه كان عليماً [بجميع الأشياء] قديراً [على مالا نهاية له و في قوله : « وما كان الله ، الآية » قطع لأطماع الجبهال بأن لو قال قائل : هب أن الأولين كانوا أشد قوة و أطول أعماراً لكننا نستخرج بذلكنا ما يزيد على قواهم و نستعين بأُمور أرضية لها خواص أو كواكب سماوية لها آثار مخصوصة فقال تعالى : « وما كان الله ليعجزه » إلى قوله « عليماً » بأفعالهم قديراً على إهلاكهم .

ثم قال سبحانه : [و لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا] لما هدّد الله الملكذ بين يمن مضى و كانوا يستعجلون العذاب من شدّة عنادهم و فساد عقائدهم و يقولون : عجل لنا عذابنا فقال الله تعالى في هذه الآية : للعذاب أجل و الله لا يؤاخذ الناس سرّياً بنفس الظلم فإنّ الإنسان ظلوم جهول و إنمّا يؤاخذ بالإصرار و حصول يأس الناس عن إيمانهم و وجود الإيمان ممّن كتب الله إيمانه فإذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك الملكذ بين و لو أخذهم بنفس الظلم لكان كلّ يوم إهلاك فقال سبحانه : و لو يؤاخذ الله جميعاً بما كسبوا من السيئات كما فعل بأولئك ما ترك على ظهر الأرض من نسمّة تدبّ عليهما من بني آدم و قيل : من غيرهم أيضاً من شؤم معاصيهم و هو المروري عن ابن مسعود و أنس . و يعضد القول الأول قوله تعالى : « ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّى » وهو يوم القيامة و الضمير في قوله : « ظهرها » عائذ إلى الأرض و لم يجر لها ذكر لدلالة الكلام على ذلك و العلم الحاصل به ممّا تقدّم في الآية و ما تأخّر أمّا ما تقدّم فقوله : « و ما كان الله ليعجزه من شيء » في السماوات و لا في الأرض « فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء إليها و أمّا ما تأخّر فقوله : « من دابة » لأنّ الدوابّ على ظهر الأرض .

فلو قيل : إذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدوابّ يهلكون ؟

فالجواب أنّ خلق الدوابّ نعمة فإذا كفر الناس يزيل الله النعم و الدوابّ أقرب النعم خصوصاً للإنسان و أعلى درجات المخلوقات في النفع من عالم العناصر للإنسان الدوابّ فيزيل الله هذه النعمة و إزالة هذه النعمة ليست عقوبة للدوابّ بل عقوبة للإنسان والدوابّ المخلوقة تبعاً و نفعاً للإنسان فإذا كان الهلاك عامّاً للإنسان فلا يبقى من الإنسان من يعمر فلا تبقى الدوابّ .

ثم من أعظم نعم الله المطر لأن به يحصل نعمة البقاء فإذا لم يستحقوا قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الأرض وتموت الدواب الأرضية و أمّا حيوانات البحرية فتعيش بماء البحر و هو سبحانه قال : [ما ترك على ظهرها من دابة] .
فإن قيل : كيف يقال لما عليها : ظهر الأرض ؛ لأن الأرض كالدابة الحاملة للأثقال والحمل يكون على الظهر و وجه الأرض ظهرها على أن الظهر في مقابلة البطن و الظهر و الظاهر من باب واحد والبطن و الباطن من باب واحد فوجه الأرض ظهر لأنّه هو الظاهر و غيره منها باطن و بطن .

[ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً]

فإذا جاء وقت الهلاك فالله بالعباد بصير إمّا ينجيهم و يكون

توفيهم تقريباً من الله لا تعذيباً في حق المؤمنين

و تعذيباً للكافرين كما قال سبحانه :

و اتقوا فتنة لا تصيبن

الذين ظلموا منكم

خاصة (١) .

تمت السورة

سورة يس

✽ (مكية) ✽

إِلَّا آيَةٌ مِنْهَا وَهِيَ قَوْلُهُ : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، الْآيَةُ (١) نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ .
فَضْلُهَا أَبِي بَكْرٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يَسَ يَرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ
 عَزَّ وَجَلَّ غُفِرَ اللَّهُ لَهُ وَ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ كَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ اثْنِي عَشْرَةَ مَرَّةً وَ أَيُّمَا
 مَرِيضٍ قُرِئَتْ عَنْدهُ سُورَةُ يَسَ نَزَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ حَرْفٌ مِنْهَا عَشْرَةٌ أَمْلاكٌ يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ
 صَفُوفًا صَفُوفًا يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَشْهَدُونَ قَبْضَهُ وَيَتَّبِعُونَ جَنَازَتَهُ وَيَصَلُّونَ عَلَيْهِ وَيَشْهَدُونَ دَفْنَهُ
 وَ أَيُّمَا مَرِيضٍ قُرِئَتْ قُرْآنُهَا وَ هُوَ فِي سَكْرَاتِ الْمَوْتِ أَوْ قُرِئَتْ عَنْدهُ أَنَامَ رِضْوَانُ خَازِنِ الْجَنَّةِ
 بِشَرِبَةٍ مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ فَسَقَاهُ إِيَّاهَا وَ هُوَ عَلَى فِرَاشِهِ فَيَشْرَبُ فَيَمُوتُ رِثَانًا وَيَبْعَثُ رِثَانًا
 وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى حَوْضٍ مِنْ حِيَاضِ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَ هُوَ رِثَانٌ .

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : سُورَةُ يَسَ تَدْعِي فِي التَّوْرَةِ الْمُنْعَمَةَ فَقِيلَ :
 وَ مَا الْمُنْعَمَةُ ؟ تَعَمُّ صَاحِبَهَا خَيْرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ تَكَابِدُ عَنْهُ بِلَوَى الدُّنْيَا وَ تَدْفَعُ عَنْهُ
 أَهْوَايِلَ الْآخِرَةِ وَ تَدْعِي الْمُدَافَعَةَ الْقَاضِيَةَ تَدْفَعُ عَنْ صَاحِبِهَا كُلَّ شَرٍّ وَ تَقْضِي لَهُ كُلَّ حَاجَةٍ
 وَ مِنْ قُرْآنِهَا عَدِلَتْ لَهُ عِشْرِينَ حِجَّةً وَ مِنْ سَمْعِهَا عَدِلَتْ لَهُ أَلْفُ دِينَارٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ مِنْ
 كِتَابِهَا ثَمَرٌ شَرِبَهَا أُدْخِلَتْ جَوْفَهُ أَلْفُ دَوَاءٍ وَ أَلْفُ نَوْرٍ وَ أَلْفُ يَقِينٍ وَ أَلْفُ بَرَكَةٍ وَ أَلْفُ رَحْمَةٍ
 وَ نَزَعَتْ عَنْهُ كُلَّ دَاءٍ وَ غُلٍّ .

وَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : إِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا وَ قَلْبُ الْقُرْآنِ يَسَ .
 وَ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : مَنْ دَخَلَ الْمَقَابِرَ فَقَرَأَ سُورَةَ يَسَ خَفَّفَ عَنْهُمْ يَوْمَئِذٍ
 وَ كَانَ لَهُ بَعْدُ مِنْ فِيهَا حَسَنَاتٌ .

وَ دَوِيُّ أَبُو بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : إِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا وَ قَلْبُ الْقُرْآنِ
 يَسَ فَمَنْ قَرَأَهَا فِي نَهَارِهِ قَبْلَ أَنْ يَمْسِيَ كَانَ فِي نَهَارِهِ مِنَ الْمُحْفُوظِينَ وَ الْمَرْزُوقِينَ حَتَّى يَمْسِيَ

و من قرأها في ليلة قبل أن ينام و كل به ألف ملك يحفظونه من كل شيطان رجيم ومن كل آفة و إن مات في نومه أدخله الله الجنة و حضر غسله ثلاثون ألف ملك كلهم يستغفرون له و يشيعونه إلى قبره بالاستغفار له فإذا أدخل لحدّه كانوا في جوف قبره يعبدون الله و ثواب عبادتهم له و فسح في قبره مدّ بصره و أمن من ضغطة القبر ولم يزل له في قبره نور ساطع إلى عنان السماء إلى أن يخرجّه الله من قبره فإذا أخرجه لم تزل الملائكة معه يحدّثونه ويضحكون في وجهه و يبشرونه بكل خير حتى يجوزوا به الصراط و الميزان و يوقفوه من الله موقفاً لا يكون عند الله خلق أقرب منه إلا ملائكة الله المقرّبون و أنبياءه المرسلون و هو مع النبيّين واقف بين يدي الله لا يحزن مع من يحزن و لا يهتمّ مع من يهتمّ و لا يجزع مع من يجزع ثمّ يقول له الربّ تعالى : اشفع عبدي اشفعك في جميع ما تشفع و سلني عبدي أعطك جميع ما تسأل فيسأل فيعطى و يشفع فيشفع و لا يحاسب فيمن يحاسب و لا يذلّ مع من يذلّ و لا يبكت بخطيئته و لا بشيء من سوء عمله و يعطى كتاباً منشوراً فيقول الناس بأجمعهم : سبحان الله ما كان لهذا العبد خطيئة واحدة و يكون من رفقاء محمد صلى الله عليه و آله و سلم .

و روى محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام قال : إنّ لرسول الله اثني عشر اسماً خمسة منها في القرآن : محمد و أحمد و عبد الله و يس و نون .

بسم الله الرحمن الرحيم

يس (١) و القرآن الحكيم (٢) انك لمن المرسلين (٣) على صراط مستقيم (٤) تنزيل العزيز الرحيم (٥) لتنذر قومًا ما انذر آباؤهم فهم غافلون (٦) لقد حق القول على اكثرهم فهم لا يؤمنون (٧) انا جعلنا في اعناقهم اغلالًا فهي الى الاذقان فهم مممحون (٨) و جعلنا من بين ايديهم سدا و من خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون (٩) و سواء عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون (١٠) .

المعنى : قد تكرر الكلام في الحروف المقطعة عند مفتتح السور في أول البقرة و قيل : [يس] معناه يا انسان و تصغير الانسان انيسين حذف الصدر منه و بقي العجز فيحتمل أن يكون الخطاب إلى الانسان الكامل ابتداءً و هو محمد ﷺ و قيل : معناه : يا محمد و هو اسم النبي ﷺ عن علي بن أبي طالب و أبي جعفر عليه السلام و قد ذكرنا الرواية فيه قبيل هذا و قيل : معناه يا سيد الأولين و الآخرين و قيل : معناه يا رجل بلغة .

[و القرآن الحكيم] أقسم سبحانه بالقرآن المحكم من الباطل أو سمّاه حكيمًا لما فيه من الحكمة فكانه المظهر للحكمة الناطق بها .

و يختلف إعراب كلمة « يس » باختلاف معانيها ؛ فمن قرأ بالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هذه يس و أمّا بالضم على النداء المفرد و اكتفى من الاسم بحرف واحد و هو السين و الياء حرف نداء و نظير حذف بعض الاسم قول النبي ﷺ : « كفى بالسيف شأ » أي شاهداً فحذف العين واللام من شاهد فكذلك حذف من « انسان » الفاء والعين و جعل ما بقي منه اسماً قائماً برأسه و هو السين فقيل : « ياسين » و هو شبيه بقول الشاعر حيث قال : « قلنا لها فقي لنا قالت ق » أي وقفت أو تكون الكلمة مبنية على الضم كحيث

وأما بالنصب فتقديره: أثبت يس أو يكون مبنية بالفتح كآين وكيف وقرىء بالكسر مثل جبر لا سكان الباء وكسرة ما قبلها ولا يجوز أن يقال بالكسر لأن إضمار الجار غير جائز وليس فيه حرف جرّ وقسم .

[إنك لمن المرسلين] هذه الجملة مقسم عليه .

فإن قيل : إن المطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة في الإقسام في القرآن ؟ فيه وجوه :

الاول : أن العرب كانوا يتوقنون الأيمان الكاذبة و كانوا يقولون و يعتقدون أن اليمين الكاذبة توجب خراب العالم وصحح النبي ﷺ ذلك بقوله : اليمين الكاذبة تدع الديار بالاف ، ثم إنهم كانوا يقولون : إن النبي ﷺ يصيبه من آلهتهم عذاب و هي الكواكب و كان النبي ﷺ يحلف بأمر الله وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أمتع مكاناً و أرفع شأنأ فكان القسم يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب و ما يراد من الدليل إلا إثبات المدعى و حصول المطلوب .

الوجه الثاني : أن المناظر إذا أقام برهانه و لم يقبل طرفه بقوة جدله و كابر لا يجوز أن يأتي المناظر بدليل آخر لأن المكابر يقول في الدليل الآخر مثل ما قاله في الدليل الأول و لا يقبل فلا يجد المناظر بداً لإثبات مراده إلا اليمين فكذلك النبي ﷺ لما أقام البراهين و قالت العرب : و ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم و قالوا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين^(١) ، تعيّن التمسك بالأيمان لعدم فائدة الدليل .

الثالث : هو أن هذا ليس مجرد الحلف و إنما هو دليل خرج في صورة اليمين لأن القرآن معجزة و دليل كونه ﷺ رسلاً هو المعجزة و القرآن كذلك .

قوله : [على صراط مستقيم] خبر بعد خبر أي إنك ثابت على صراط مستقيم و المستقيم أقرب الطرق إلى المقصد و الدين كذلك فإنه توجه إلى الله و المقصود أن نخلصاً على الصراط المستقيم الذي يكون عليه المرسلون و فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول المباينة الذين يقولون : المكلف بصير و اصلاً إلى الحق فلا يبقى عليه تكليف و ذلك

• أَنَّ اللَّهَ يَسِّرُ أَنَّ الْمُرْسَلِينَ مَا دَامُوا فِي الدُّنْيَا فَهُمْ سَالِكُونَ وَ مُنتَهَجُونَ إِلَى السَّبِيلِ الْمُسْتَقِيمِ
فَكَيْفَ ذَلِكَ الْجَاهِلُ الْعَاجِزُ ؟

[تنزيل العزيز الرحيم] أي هذا القرآن تنزيل الغالب في ملكه الرحيم بخلقه
قرئ بالجر على أنه بدل من القرآن كأنه قال : والقرآن الحكيم تنزيل العزيز الرحيم
وقرئ بالنصب وفيه وجهان : أحدهما مصدر فعله منوي أي نزل تنزيل العزيز الرحيم
والثاني أنه مفعول فعل معنوي كأنه قال : والقرآن الحكيم أعني تنزيل العزيز
الرحيم لكن الزمخشري اختار الرفع على الخبرية للمبتدأ وهو هذا .

[لتتذرع قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون] لتخوف به من معاصي الله قوماً لم ينذر
آباؤهم قبلهم لأنهم كانوا في زمان الفترة بين عيسى و محمد ﷺ وقيل : المعنى لم يأتهم
نذير من أنفسهم وقومهم وإن جاءهم من غيرهم وقيل : معناه لم يأتهم من أنذرهم
بالكتاب حسب ما أتيت وهذا على قول من قال : كان في العرب قبل نبينا من هو نبي
كخالد بن سنان و قس بن ساعدة الأيادي وغيرهما وقيل : معناه لتتذرع قوماً كما أنذر
آباؤهم فمعنى قوله « لتتذرع قوماً ما أنذر آباؤهم » أي ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق
الرسول المتقدم « فهم غافلون » عما تضمنه القرآن وعما أنذر الله به من نزول العذاب
و الغفلة مثل السهو وهو ذهاب المعنى عن النفس .

ثم أقسم سبحانه فقال : [لقد حق القول على أكثرهم] أي وجب الوعيد واستحقاق
العقاب عليهم [فهم لا يؤمنون] و يموتون على كفرهم وقد سبق ذلك في علم الله وقيل :
معناه لقد سبق القول على أكثرهم أنهم لا يؤمنون وذلك أنه سبحانه أخبر ملائكته أنهم
لا يؤمنون فحق قوله عليهم لأنه قد سبق في علمه أن هذا يؤمن وأن هذا لا يؤمن
فقال في حقهم : إنهم لا يؤمنون وقوله تعالى : « حق القول » جواب القسم وتقدير
الكلام والله يحقق عدم إيمان أكثرهم لكن لا بطريق الجبر بل بسبب إصرارهم
الاختياري على الكفر والإنكار وعدم تأثرهم من الإنذار بحيث لا يثنى بهم عاطف .

قوله : [إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان] قيل : إن هذه الآية
نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين كان حلف أبو جهل لئن رأى عبداً يصلي ليرضخن

رأسه فأتاه وهو صلى الله عليه وسلم يصليّ ومعه حجر ليدهمغه فلمّا رفعه انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده فلمّا عاد إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الحجر من يده فقال صاحبه المخزومي: أنا أقتله بهذا الحجر فأتاه وهو يصليّ ليرميه بالحجر فأغشى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه فرجع إلى أصحابه فلم يروه حتى نادوه: ما صنعت فقال: ما رأيته ولقد سمعت صوته وحال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه لو دنوت منه لأكلني .

وروى أبو حمزة الثماليّ عن عمار بن عاصم عن شقيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود أن قريشاً اجتمعوا بباب النبي صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فطرح التراب على رؤوسهم وهم لا يبصرونه قال عبد الله بن مسعود: هم الذين سجبوا في القلب قلب بدر .

وروى أبو حمزة الثماليّ عن مجاهد أن قريشاً اجتمعوا بباب النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: لئن دخل محمد لنفقوا من إله قيام رجل واحد فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فجعل الله من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فلم يبصروه وصلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم أتاهم فجعل النبي صلى الله عليه وسلم ينشر على رؤوسهم التراب وهم لا يرونه فلمّا خلى عنهم رأوا التراب وقالوا: هذا ما سحركم ابن أبي كبشة .

رجعنا إلى تفسير قوله « إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان » وروى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرآ « إنا جعلنا في أيمانهم » وقرأ بعضهم في أيديهم وقال بعضهم على القراءة المشهورة واستعاروا الأغناق بالكناية عن الأيدي فالمعنى واحد في الجميع لأن الغل لا يكون في العنق دون اليد ولا في اليد دون العنق ومثله في التنزيل « وجعل لكم سراويل تفيكم الحر »^(١) ولم يقل: والبرد لأن المعنى اللازم أن ما بقي من الحر بقي من البرد .

و اختلف في معنى الآية على وجوه :

أحدها أنه سبحانه بسوء اختيارهم واستحقاقهم جعلهم مسكين لا ينفقون في سبيل الله ولا يبسطون أيديهم إلى الخير والزكاة وإنما ذكره ضرباً للمثل وتقديره: إن هؤلاء في إعراضهم عما تدعوهم إليه كمثّل رجل غلّت يده إلى عنقه لا يمكنه أن يبسطهما وطامح

برأسه لا يمكنه من أن يطأطئ رأسه لأن المغلول تكون يده مجموعة في الغل إلى عنقه و المغلول الذي بلغ الغل ذقنه بقي مقمحا رافع الرأس لا يبصر طريق قدميه وهو كناية عن عدم هدايته إلى الطريق الحق فهذا الذي يهديه النبي إلى الصراط المستقيم وهو يعاند ويمتنع عن قبول قوله جعل ممنوعاً كالمغلول .

وثانيها أن المعنى كان هذا القرآن أغلالاً في أعناقهم يمنعه عن الخضوع لتدبيره و استماعه لاستئصالهم أحكامه و أنهم لما استكبروا عنه و أنفوا من اتباعه و كان المستكبر رافعاً رأسه ولا يربأ عنقه شامخاً بأنفه لا ينظر إلى الأرض صاروا كأنما غلت أيديهم إلى أعناقهم و هذا المعنى قريب في الجملة إلى الوجه الأول .

وثالثها أن المعنى على سبيل الحقيقة وذلك أن ناساً من قريش هموا بقتل النبي ﷺ فجعلت أيديهم إلى أعناقهم فلم يستطيعوا أن يبسطوا إليه ﷺ كما بيننا في نزول الآية هذا المعنى .

و رابعها أن المراد به وصف حالهم يوم القيامة فهو مثل قوله : « إذ الأغلال في أعناقهم » و إنما ذكره بلفظ الماضي للتحقيق وقوله : « فهم مقمحون » أي متأبسون قهراً أن يطأطئون رؤوسهم بسبب الغل يقال : بعير قامح إذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب والإيمان كاملاً الزلال الذي به الحياة و هذا الكافر يمتنع عن قبول الإيمان فيهلك كما يهلك البعير القامح .

قوله تعالى : [وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون] و في الآية بيان معبر عن خذلان الله إياهم لما كفروا أي تركناهم مخذولين فصار خذلانهم سدّاً بين أيديهم و من خلفهم و إذا فسر الآية بأنها وصف حال المشركين في الآخرة على بيان الوجه الرابع من الوجوه المذكورة الأربعة فالكلام على حقيقته ويكون عبارة عن ضيق المكان في النار بحيث لا يجدون متقدماً ولا متأخراً إذ سدّ عليهم جوانبهم و إذا حملناه على صفة القوم الذين هموا بقتل النبي ﷺ فالمراد جعلنا بين أيدي أولئك الكفار منعاً ومن خلفهم منعاً حتى لم يبصروا النبي ﷺ فأغشيناهم أبصارهم فهم لا يبصرون النبي ﷺ وقرئ بالعين المهملة والمعنى مناسباً خوذ من العشواء و قيل : فأغشيناهم

العذاب فهم لا يبصرون النار .

و يمكن أن يكون في الآية إشعار بنكته لطيفة و هي أن الإنسان له هداية فطرية و الكافر تركها و هداية نظرية و الكافر بسبب عناده ما أدركها فكأنه تعالى قال : جعلنا من بين أيديهم سدّاً فلا يسلكون طريقة الاهتداء التي هي نظرية و جعلنا من خلفهم سدّاً فلا يرجعون إلى الهداية الجبلية الفطرية .

[و سواء عليهم ء أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون] أي الإ نذار و عدمه سيان بالنسبة إلى الإيمان منهم .

فإن قيل : إذا كان الإ نذار و عدمه سواء فلما ذا الإ نذار ؟
فالجواب أنه تعالى قال : « سواء عليهم » ولم يقل : « سواء عليك » فلا نذار بالنسبة إلى النبي واجب و خروج عن العهدة و سبب في زيادة سيادته عاجلاً و سعادته آجلاً ولكن بالنسبة إليهم على السواء و انتفاء الفائدة في الإ نذار قد صدر منهم .
ثم قال تعالى :

انما تنذر من اتبع الذكر و خشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة و اجر كريم (١١) انا نحن نحي الموتى و نكتب ما قدموا و آثارهم و كل شيء احصيناه في امام مبين (١٢) و اضرب لهم مثلاً اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون (١٣) اذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون (١٤) قالوا ما انتم الا بشر مثلنا و ما انزل الرحمن من شيء ان انتم الا تكذبون (١٥) قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون (١٦) و ما علينا الا البلاغ المبين (١٧) قالوا انا تطيرنا بكم ءئن لم تنتهوا ل نرجمنكم و ليمسنكم منا عذاب اليم (١٨) قالوا طائر كم معكم ا ان ذكرتم بل انتم قوم مسرفون (١٩) و جاء من اقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين (٢٠) .

المعنى : لما بين سبحانه أن الكفار لا يؤمنون أكثرهم بسبب إنكارهم النبوة و القرآن عقبه بذكر من ينتفع بالإ نذار فقال :

[إنما] ينتفع بتخويفك و إنذارك [من اتبع الذكر] و المراد القرآن [و خشي

الرحمن بالغيب [أي في حال غيبته عن الناس بخلاف المنافق وقيل : معناه وخشي الرحمن فيما غاب عنه من أمر الآخرة [فبشّره] يا محمد من هذه صفته [بمغفرة و أجر كريم] أي ثواب خالص من الشوائب و الغفران جزاء الايمان فكل مؤمن مغفور و الأجر الكريم جزاء العمل .

و ههنا بيان لطيفة و هي أن بعض العلماء قالوا : الله و الرحمن اسمان علمان كما قال سبحانه : « قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن » فالله اسم ينسب عن الهيبة و الجلالة و الرحمن ينسب عن الرحمن و العاطفية و قال : في موضع « يرجو الله » و قال ههنا : « و خشي الرحمن » يعني مع كونه تعالى ذاهية لا تقطعوا رجاءكم عنه و مع كونه ذا رحمة لا تأمنوه . قوله : [إنا نحن نحيي الموتى و نكتب ما قدموا] لما ذكر أصلاً من الأصول و هو النبوة ذكر أصلاً آخر في هذه الآية بقوله : « إنا نحن » الآية و في قوله : « إنا نحن » يحتمل وجهين :

أحدهما أن يكون مبتدأ و خبراً كقول القائل : « أنا أبو النجم و شعري شعري » و مثل هذا الكلام يقال عند الشهرة العظيمة و ذلك لأن من لا يعرف يقال له : من أنت فيقول : أنا ابن فلان فيعرف و من كان معروفاً إذا قيل له : من أنت يقول : أنا أنا أي لا معرف لي أظهر من نفسي فقال سبحانه « إنا نحن » .

و ثانيهما أن يكون الخبر « نحيي » كأنه قال : « إنا نحيي الموتى » و نحن نكون تأكيداً قارين كمال القدرة و نحيي الموتى و نكتب ما قدموا أي نحصي ما قدموا و أسلفوا من الأعمال الصالحة و الفاسدة و ما أخرروا و قصرروا و اكتفى بذكر أحدهما عن الآخر مثل قوله : « سرايل تفيكم الحر » و المراد البرد و قيل : نكتب ما قدموه من عمل ليس له أثر .

[و آثارهم] أي ما يكون أثر و قيل : المراد بآثارهم أعمالهم التي صارت بعدهم سنة يقتدى فيها بهم حسنة كانت أم قبيحة و قيل : المراد خطاهم إلى المسجد و سبب ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري أن بني سلمة كانوا في ناحية من المدينة فشكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد و الصلاة معه فنزلت الآية و في الحديث عن أبي موسى قال :

قال رسول الله ﷺ : إن أعظم الناس في الصلاة ثواباً أبعد ما إليها مشى و لمّا نزلت الآية و كانوا قبل ذلك ناوين النقلة ظلّوا في دورهم ثابتين فقال ﷺ : إن الله يكتب خطوتكم و يثيبكم عليه فالزموا بيوتكم .

[و كل شيء أحصيناه في إمام مبین] أي و أحصينا و عدّنا كل شيء من الحوادث في كتاب مبین ظاهر لا يدرس أثره و هو اللوح المحفوظ و الوجه في إحصاء ذلك اعتبار الملائكة به إذ قابلوا به ما يحدث من الأمور ليكون فيه دلالة على معلومات الله سبحانه على التفصيل و قيل : أراد صحائف الأعمال و عن عليّ عليه السلام قال : أنا و الله الإمام المبین أيسن الحق من الباطل و ورثته من رسول الله .

و في المعاني عن الباقر عليه السلام عن أبيه عن جدّه قال نزلت هذه الآية على النبيّ و كل شيء أحصيناه في إمام مبین ، قام أبو بكر و عمر من مجلسهما و قال : يا رسول الله هو التوراة ؟ قال : لا قال : فهو الإنجيل ؟ قال : لا قال : هو القرآن ؟ قال : لا قال : فما فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام فقال رسول الله : هو هذا إنّه الإمام الذي أحصى الله فيه علم كل شيء . و في الاحتجاج عن النبيّ ﷺ في حديث قال معاشر الناس : ما من علم إلا علّمنيه ربّي و أنا علّمته عليّاً و قد أحصاه الله في و كل علم علّمته فقد أحصيته في إمام المتّقين و ما من علم إلا علّمته عليّاً (١) .

[و اضرب لهم مثلاً أصحاب القرية] هؤلاء أضراب أي هؤلاء أمثال أي و مثل لهم يا عبّاد مثلاً أو اذكر لهم مثلاً أصحاب القرية ، و ترك المثل و أقيم الأمثال مقامه في الإعراب .

[إذ جاءها المرسلون] و هذه البلدة بلدة الأنطاكية و قيل : المعنى مثل قومك بأصحاب القرية الأنطاكية حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا و صبر الرسل على القتل و الإيذاء و هم بعثوا على قرية و أنت بعثت على العالم فتكون تتحمّل إذا هم ومكارهم . [إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما] فكذبوا الرسولين قال ابن عباس : ضربوهما وسجنوهما [فعزّزنا] هما [بثالث] وقوّيناهما برسل ثالث و كان اسم الرسولين شمعون و يوحنا واسم الثالث يونس و قال ابن عباس : اسمهما صادق و صدوق و الثالث اسمه شلوم و قيل :

إنهم رسل عيسى وهم الحواريتون وإنما أضافهم تعالى إلى نفسه لأن عيسى أرسلهم بأمره .
[فقالوا إنا إليكم مرسلون] أي قالوا : يا أهل القرية إن الله أرسلنا إليكم .
[قالوا] يعني أهل القرية : [ما أنتم إلا بشر مثلنا] فلا تصلحون للرسالة كما
لا تصلح نحن لها كما قال قوم نوح هذا الكلام « أنزل عليه الذكر » أي أنتم بشر مثلنا
فكيف صرتم رسل الله ولا يجوز رجحانكم علينا [إن أنتم إلا تكذبون] أي ما أنتم إلا
كاذبون في ادعائكم .

[قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون] إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب
لم يسأموا ولم يتركوها بل أعادوا وكرروا القول عليهم و أكدوه بلام التأكيد واستشهدوا
بعلم الله في رسالتهم و إنما قالوا ذلك بعد ما قامت الحجة منهم بظهور المعجزة
فلم يقبلوها .

قوله [وما علينا إلا البلاغ المبين] أي ليس يلزمنا إلا أداء الرسالة و ليس علينا
أن نحملكم قهراً على الإيمان فإننا لا نقدر .
[قالوا إنا تطيرنا بكم] أي قال هؤلاء الكفار : إنا تشأ منا بكم [لننمتمنهم]
عما تدعونه من الرسالة [لنرجمنكم] بالحجارة و قيل : معناه لنشتتمنكم [وليمسنكم
منا عذاب ألیم] .

[قالوا] يعني الرسل : [طائر كم معكم] أي الشؤم كله معكم بما قامتكم على
الكفر بالله تعالى فأما الدعاء إلى التوحيد و عبادة الله ففيه غاية البركة و الخير و اليمن
و قيل : معنى « طائر كم » أي نصيبكم و حظكم من الخير و الشر معكم [أئن ذكركم]
ثم قال المرسلون جواباً عن قول الكفار حيث قالوا : « لنرجمنكم » يعني أتفعلون بنا
ذلك و إن ذكركم و تبين لكم صدقنا و ظهر الأمر بالمعجزة و البرهان [بل أنتم قوم
مسرفون] و ليس فينا ما يوجب التشأم بنا و لكنكم قوم متجاوزون عن الحد في
التكذيب للرسل ، و الإسراف الإفساد أي أنتم تقصدون إبلام من يجب في حقه الإكرام
و المسرف هو المتجاوز الحد بحيث يبلغ الضد لأن الواجب اتباع الدليل فإن لم يوجد
الاتباع فلا أقل من أن لا يجزم بنقيضه و هم جزموا بالكفر .

[و جاء من أقصى المدينة رجل يسعى] فكان اسمه حبيب النجار عن ابن عباس و جماعة من المفسرين و كان قد آمن بالرسول عند ورودهم القرية و كان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة فلمّا بلغه أنّ قومه قد كذبوا الرسول وهمّوا بقتلهم جاء يعدو .
[قال يا قوم اتبعوا المرسلين] الذين أرسلهم الله إليكم و أقرأوا برسالتهم و إنّما علم هو بنبوّتهم لا تسهم لما دعوه قال : أتأخذون على ذلك أجراً ؟ قالوا : لا و قيل : إنّّه كان به زمانة أو جذام فأبرموه فأمن بهم عن ابن عباس .

و شأن القصة أنّ عيسى عليه السلام بعث رسولين إلى مدينة أنطاكية فلمّا قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار فسَلّما عليه فقال الشيخ لهما : من أنتما ؟ قالوا : رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن . فقال : أمعكما آية ؟ قالوا : نعم نشفي المريض و نبرئ الأكمه و الأبرص بإذن الله ، فقال الشيخ : إنّ لي ابناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين قالوا : فانطلق بنا إلى منزلك نتطّلع حاله فذهب بهما فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً ففشا الخبر في المدينة وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى .

و كان لهم ملك يعبد الأصنام فأنتهى الخبر إليه فدعاهما و قال لهما : من أنتما ؟ قالوا : رسولا عيسى جئنا ندعوك من عبادة الأوثان عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع و يبصر فقال الملك : أولنا إله سوى آلهتنا ؟ قال : نعم من أوجدك و أوجد آلهتك قال : قوما حتّى أنظر في أمركما فأخذهما الناس في السوق و ضربوهما .

و قال وهب بن منبّه : بعث عيسى هذين الرسولين إلى أنطاكية فأتياه و لم يصلا إلى ملكها و طالت مدة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبراً و ذكر الله فغضب الملك و أمر بحبسهما و جلّد كل واحد منهما مائة جلدة فلمّا كذب الرسولان و ضربا بعث عيسى شمعون الصفا رأس الحواريّين على أثرهما لينصرهما فدخل شمعون البلدة متنكراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتّى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه و رضي عشرته و أنس به و أكرمه ثمّ قال له شمعون ذات يوم : أيّها الملك بلغني أنّك حبست رجلين في السجن و ضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل سمعت قولهما ؟ قال الملك : حال الغضب

بينني و بين ذلك قال : فان رأى الملك دعاهما حتى نطلع ما عندهما فدعاهما الملك فقال لهما شمعون : من أرسلكما إلى ههنا ؟ قالا : الله الذي خلق كل شيء لا شريك له قال شمعون لهما : و ما آتاكما ربكما ؟ قالا : ما نتمناه فأمر الملك حتى جاءوا بغلام مطموس العينين و موضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان الله حتى انشق موضع البصر فأخذا بندقيتين من الطين فوضعا حدقتيه فصارا مقلتين يبصر بهما فتعجب الملك فقال شمعون للملك : أرايت لو سألت إلهك حتى يصنع صنيعاً مثل هذا فيكون لك ولا إلهك شرفاً فقال الملك : ليس لي عنك سرّ إن إلهنا الذي نعبد لا يضرك ولا ينفع ثم قال الملك للرسولين : إن قدر إلهكم على إحياء ميتاً آمناً به و بكما قالا : إلهنا قادر على كل شيء فقال الملك : إن ههنا ميتاً مات منذ سبعة أيام لم تدفنه حتى يرجع أبوه وكان غائباً فجاءوا بالميت و قد تغير و أروح فجعلوا يدعوان ربهما علانية و جعل شمعون يدعو ربه سرّاً فقام الميت و قال لهم : إني قدمت منذ سبعة أيام و أدخلت في سبعة أودية من النار و أنا أخطركم ما أنتم فيه فأمنوا بالله فتعجب الملك فلما علم شمعون أن قوله أثر في الملك دعاه إلى الله فأمن و آمن من أهل مملكته قوم و كفر آخرون .

و قد روى مثل ذلك العياشي بإسناده إلى الثماللي و غيره عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليه السلام إلا أن في بعض الروايات : بعث الله الرسولين إلى أهل أنطاكية ثم بعث الثالث و في بعضها أن عيسى أوحى الله إليه أن يبعثهما ثم بعث وصيه شمعون ليخلصهما و أن الميت الذي أحياه الله بدعائهما كان ابن الملك و إنّه خرج من قبره ينفخ التراب عن رأسه فقال له : يا بني ما حالك قال : كنت ميتاً فرأيت رجلين ساجدين يسألان الله تعالى أن يحييني قال : يا بني أفتعرفهما إذا رأيتهما قال : نعم فأخرج الناس إلى الصحراء فكان يمرّ عليه رجل بعد رجل فمرّ أحدهما بعد جمع كثير فقال : هذا أحدهما ثم مرّ الآخر فعرّفهما و أشار بيده إليهما فأمن الملك و أهل مملكته .

و قال ابن اسحاق : بل كفر الملك و أجمع هو و أهل مملكته على قتل الرسل فبلغ ذلك حبیباً و هو على باب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم يذكّرهم و يدعوهم إلى طاعة الرسل .

قوله تعالى : اتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون (٢١) وما لي لا أعبد الذي فطرني و اليه ترجعون (٢٢) ءاتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون (٢٣) انى اذا لقي ضلال مبين (٢٤) انى آمنت بربكم فاسمعون (٢٥) قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون (٢٦) بما غفر لى ربي و جعلنى من المكرمين (٢٧) وما انزلنا على قومه من بعده من جند من السماء و ما كنا منزلين (٢٨) ان كانت الا صيحة واحدة تأخذهم فاذا هم خامدون (٢٩) يا حسرة على العباد ما يأتاهم من رسول الا كانوا به يستهزءون (٣٠) .

ثم ذكر سبحانه تمام الحكاية عن الرجل الذي جاءهم من أقصى المدينة فقال : [اتبعوا من لا يسألكم أجراً] أي أيها الكفار اتبعوا من لا يطلبون الأجر ولا يسألونكم أموالكم على ما جاءوكم به من الهدى [وهم مهتدون] إلى طريق الحق فلما قال هذا الكلام أخذوه ورفعوه إلى الملك فقال له الملك : أفأنت تتببعهم ؟ فقال : [ومالي لا أعبد الذي فطرني] وأي شيء لي لم أعبد خالقي الذي أنشأني و هداني و في الكلام إشعار بأن المانع مفقود والمقتضي موجود وقد وجب شكر المنعم لأنه أنعم عليّ بالاجاد والهداية .

و في قوله : « فطرني » لطيفة و هي أنه معنى فطرني و لو أن معناه أنشأني و لكن مشعر بأنه جعلني عين الفطرة التي فطر الناس عليها فأنا باق عليها والمراد تفريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره كما ينبى عنه قوله : [و إليه ترجعون] و في العدول من التكلم إلى الخطاب معنى لطيف وهو إشارة إلى الخوف والرجاء لأن من يكون إليه المرجع يخاف منه و يرجى و العابد عابد يعبد الله لكونه إلهاً مالكا يستحق العبادة سواء أنعم أو لم ينعم و قسم يعبد الله خوفاً من المخالفة و قسم يعبد الله للنعمة الواصلة إليه فجعل هذا الرسول نفسه من الطبقة الأولى و جعلهم دون ذلك من الطبقة الثانية و الثالثة لأنه علم أنهم ليسوا قابلين أن يكونوا من الطبقة الأولى . و ههنا بيان و هو أنه لم فتح الباء في قوله : « ومالي » و الحال أن الأصل

سكون الياء؟ قال أبو عمرو : لثلاث يكون الابتداء « بلا أعبد » ولكن قرأ في الباقي على الأصل كما في قوله : « مالي لا أرى الهدى »^(١) بسكون الياء .

و بالجملة ثم أنكر عبادة الأصنام فقال : [« أتخذ من دون آلهة » أعبدهم] إن يردن الرحمن بضر [أي إذا أراد الله إهلاكهم والضراري] لا تغن عني شفاعتهم شيئاً [أي لا تدفع ولا تمنع شفاعته الأوثان عني شيئاً أي لا شفاعته لهم فتغني ولا يخلصوني] ولا ينقذون [من ذلك الضرر والإهلاك والمكره] وفي قوله : « أتخذ » إشارة إلى أن غيره ليس بالله لأن المتخذ لا يكون إلهاً لأن المتخذ يجدد أمراً ما كان وإلهية الإله كان ثابتاً في أزل الأزل .

[« إني إذا لفي ضلال مبين » أي إني إن فعلت ذلك وأتخذ إلهاً غير الله وأعد إذن أكون في ضلال واضح] « إني آمنت بربكم فاسمعون » أي آمنت و صدقت بربكم الذي أخرجكم و خلقكم فاسمعوا قولي و اقبلوه .

و اختلف في المخاطبين في الآية قيل : الخطاب إلى الرسولين قال المفسرون : أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين و قال : « إني آمنت بربكم فاسمعوا قولي و اشهدوا لي عند الله » و قيل : المعنى أيها السامعون إني آمنت بربكم . ثم إن القوم لما سمعوا ذلك القول و طؤوه بأرجلهم حتى مات فأدخله الله الجنة و هو حي فيها يرزق [قيل ادخل الجنة] و قيل : رجموه حتى قتلوه و قيل : لما أرادوا أن يقتلوه رفعه الله إليه فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء الدنيا و هلاك الجنة و قيل : إن القوم قتلوه إلا أن الله سبحانه أحياه و أدخله الجنة .

فلما دخلها [قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي] تمنى أن يعلم قومه بما أعطاه الله من جزيل النعمة و الثواب ليرغبوا فيه و ليؤمنوا و لينالوا ذلك و في تفسير الثعلبي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه عن النبي ﷺ قال : سبأ الأُمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين علي أمير المؤمنين و صاحب يس و مؤمن آل فرعون فهم الصدّيقون و أفضلهم علي عليه السلام .

[وجعلني من المكرمين] أي من المدخلين في الجنة والإكرام هو إعطاء المنزلة الرفيعة على وجه التعظيم وفي هذا دلالة على نعيم القبر لأنه إنما قال ذلك وقومه أحياء في الدنيا وإذا جاز نعيم القبر جاز عذاب القبر فإن الخلاف فيهما واحد . وكلمة « ما » في قوله : « بما غفر لي » مصدرية أو أن تكون موصولة أي بالذي غفر لي و يجوز أن يكون المعنى : بأي شيء غفر لي ربي فيكون استفهاماً .

ثم حكى سبحانه ما أنزله بقومه من العذاب والاستئصال فقال : [وما أنزلنا على قومه من بعده] أي من بعد قتله أو من بعد رفعه [من جند من السماء] أي الملائكة أي لم تنتصر منهم لإهلاكهم بعد قتلهم الرسل جنداً كثيراً من الملائكة يقاتلونهم والمراد الإشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً على أسهل وجه وما كان يحتاج الأمر إلى إرسال جند يهلكهم وإنما النازل من العذاب عليهم بصيحة ملك واحد أخدمت نارهم وخربت ديارهم .

ثم بين الله سبحانه فقال : [إن كانت إلا صيحة واحدة] أي ما كانت الواقعة إلا صيحة قال الزمخشري : أصله : إن كان شيء إلا صيحة فكان الأصل أن يذكر لكنه أتت لما بعده من المفسر وهو صيحة واحدة تأكيداً لبيان أن الأمر عندنا هين [فإذاهم خامدون] إشارة إلى سرعة الهلاك فإن خمودهم كان مع الصيحة وفي وقتها وصفهم بالخمود لأنهم لما قتلوا حبیباً النجار غضب الله عليهم فبعث جبرئيل حتى أخذ بعضاً دنا باب المدينة وكانت المدينة عظيمة ثم صاح بهم صيحة فما توا دفعة عن آخرهم لا يسمع لهم حس كالنار إذا طفئت وسكنت أنفاسهم في أسرع وقت كما أن النار والسراج والشعلة تنطفئ دفعة واحدة .

فإن قيل : إذا كانت صيحة واحدة تكفي لقوم وأمة وأهل بلدة عظيمة مثل أنطاكية من ملك واحد فكيف أنزل جنوداً لم تروها من الملائكة يوم بدر مع أنه كان ذلك الملك وهو جبرئيل مع الملائكة ؟ فذلك لجلالة محمد ﷺ وإلا كان تحريك ريشة واحدة من جناح ملك كان كافياً في إهلاك العالم وما كان رسل عيسى في درجة محمد ﷺ . قوله تعالى : [يا حسرة على العباد] أي هذا وقت الحسرة فاحضري والتكبير

للتكثير ، و العباد هم الذين أخذتهم الصيحة فباحسرة و ندامة عليهم و تشمل هذه الحسرة لجميع المكذبين بالرسول و المراد أنه تحققت الندامة عند تحقق العذاب .
و ههنا بيان وهو أنه من المتحسر في الآية وفيه وجوه : الأول أنه لا متحسر أصلاً في الحقيقة والمقصود أن ذلك الوقت وقت الندامة والحسرة لأن الفاعل يرفض إذا كان غير مقصود به أو القائل بقوله : « يا حسرة » هو الله على الاستعارة تعظيماً و تهويلاً للأمر فحينئذ كلاً لفاظ التي وردت في حق الله كالنسيان والاستهزاء و أمثاله .
أو المعنى أنه تعالى مخبر عن وقوع الندامة والحسرة في ذلك الوقت بصورة النداء بصورة الإخبار والمقصود الإخبار . الثالث : المتحسر المسلمون والملائكة كما حكى عن حبيب النجبار أنه لما قتلوه كان يقول : « اللهم اهدقومي » وبعدها قتلوه وأدخل الجنة يتمنى و كان يقول : « يا ليت قومي يعلمون » .

قوله : [ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون] فيبين سبحانه سبب الحسرة و سبب وقوع العذاب فحينئذ هذا الكلام من قول الله : والمعنى أنهم حلّوا محلّ من يتحسر عليه و عذبوا بسبب استهزائهم بالرسول و يحتمل أن يكون من كلام حبيب و يحتمل أن يكون قوله : « يا حسرة » إلى قوله : « يستهزئون » من كلام القوم لمّا عابوا العذاب قالوا : « يا حسرة على العباد » يعني على الرسل حيث لم يؤمن بهم و قتلناهم فندموا حين لم ينفعهم الندامة و معنى الحسرة أن يرتكب الإنسان أمراً ثم يشتدّ ندمه على ذلك الفعل مالا نهاية له حتّى يبقى قلبه حسيراً .

قوله تعالى : ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون (٣١) و ان كل لما جميع لدنيا محضرون (٣٢) و آية لهم الارض الميتة احييناها و اخرجنا منها حبا فمنه يأكلون (٣٣) وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب و فجرتنا فيها من العيون (٣٤) لياكلوا من ثمرة و ما عملته ايديهم أفلا يشكرون (٣٥) .

المعنى : ثم هدّد سبحانه كفّار مكة فقال :

[ألم يروا] و لم يعلموا [كم أهلكنا] قرناً [قبلهم من القرون] مثل قوم عاد

و ثمود و غيرهم [إنهم إليهم لا يرجعون] و لا يعودون في الدنيا أفلا تعتبرون بهم و أنكم ستصيرون إلى مثل حالهم فانظروا ألا تصيروا مثلهم و احذروا أن يأتيكم العذاب والهلاك و أنتم في غفلة و غرة . و يسمى أهل كل عصر قرناً لاقتراانهم في الوجود ^(١) .
ثم يبين أن من أهلكه الله هو غير متروك بل بعده حساب وعقاب و حبس وعذاب ،
و إن ترك من هلك لكان الموت راحة قال الشاعر :

ولو أننا إذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حي
و لكننا إذا متنا بعثنا * ونسأل بعده عن كل شيء .

وقوله : [وإن كل لما جميع لدينا محضرون] وفي « إن » وجهان : أحدهما أنها مخففة من المثقلة واللام في « لما » فارقة بينها وبين النافية و « ما » زائدة مؤكدة للمعنى فالقراءة حينئذ بالتخفيف في « لما » وثانيهما أنها نافية فحينئذ « لما » بمعنى « إلا » و مشددة . وحاصل المعنى أن الأمم يوم القيامة يحضرون فيقفون على ما عملوه في الدنيا من الماضين والباقيين مبعوثون للحساب والجزاء .

ثم قال : [وآية لهم] أي وحجة ودلالة قاطعة لهم على قدرتنا على البعث [الأرض الميئة أحييناها] أي الأرض الفحطة المجذبة التي لا تنبت أحييناها بالنبات [و أخرجنا منها حباً] أي كل حب يتقوّمونه مثل الحنطة والشعير والأرز وغيرها من الحبوب [فممنه يأكلون] ومن ذلك الحب يأكلون وينتفعون .

[و جعلنا فيها جنات] في الأرض بساتين [من نخيل و أعناب] و إنما خصّ النوعين لكثرة منافعهما وأنواعهما [وفجرنا فيها من العيون] أي وفجرنا في تلك الأرض الميئة أو في تلك الجنات عيوناً من الماء ليسقوا بها الكرم والنخيل .

ثم يبين سبحانه أنه إنما فعل ذلك [ليأكلوا من ثمره] من ثمر النخيل ، و عود الضمير إلى أحد المذكورين لحصول العلم بأن الأعناب في حكم النخيل كما قال سبحانه : « ولا ينفقونها في سبيل الله ^(٢) » وترك الذهب حيث الإرجاع في الضمير به و قيل : الضمير

(١) كذا قال الراغب في المفردات ، و قيل فيه وجوه آخر .

(٢) والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله الآية . التوبة : ٣٥ .

عائدٌ إلى الله أي ليأكلوا من ثمر الله لأنَّ سبب وجود الثمار ليس إلاَّ بالله وإرادته ويمكن أن يكون الضمير عائد إلى التفجير أي وفجّرنا فيها من العيون تفجيراً ليأكلوا ثمر ذلك التفجير .

قوله : [وما عملته أيديهم] قيل : إنَّ « ما » نافية أي تلك الثمار ما عملته أيديهم بل نحن الزارعون والله أثمر النخل وأنبت البقل وقيل : « ما » موصولة فإنّه قال : والذي عملته أيديهم من الغراس بعد التفجير ومن السقاية و أمثالها وقيل : « ما » مصدرية أي ليأكلوا من ثمره وعمل أيديهم يعني يغرسون والله ينبتّها ويخلق ثمرها فيأكلون مجموع عمل أيديهم وخلق الله وهذا المعنى على قراءة من قرأ « وما عملت أيديهم » ولا يجوز ذكر الهاء المفعول على هذا المعنى ومع هذه النعم العديدة والقدرة الكاملة [أفلا يشكرون] منعمهم وخالقهم .

قوله تعالى : سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض و من أنفسهم و ممالا يعلمون (٣٦) و آية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون (٣٧) والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم (٣٨) و القمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم (٣٩) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون (٤٠) .

لفظة « سبحانه » علم دالٌّ على التسبيح وتقديره : أسبّح تسبيحاً للذي خلق أصناف الأشياء .

ووجه تعلّق الآية بما قبلها هو أنّه لما قال : « أفلا يشكرون » وهم تركوه وعبدوا غيره فقال :

[سبحانه الذي خلق الأزواج] وغيره لم يخلق شيئاً و قد خلق سبحانه الأصناف والأشكال من الأشياء فالحيوان على مشاكلة الذكر للأنثى و كذلك النخل و الحبوب أشكال فلذلك قال : [ممّا تنبت الأرض] من سائر النبات [ومن أنفسهم] أي وخلق منهم أولاد أزواجاً ذكوراً وإناثاً [وممّا لا يعلمون] ممّا في بطون الأرض وقعر البحار ولم يشاهدوه و لم يتصل خبره بهم .

[وآية لهم] ودلالة أخرى لهم [الليل نسلخ] وننزع من الليل [النهار] ونخرج ضوء الشمس والمراد من النهار الضوء أي نضمحل الضوء ونسلبه فيبقى الهواء مظلماً كما كان لأن الله يضيء الهواء بضيء الشمس فإذا سلخ منه الضياء كشط وأزيل يبقى مظلماً.

وقيل : إنما قال سبحانه «نسلخ منه النهار» لأنه تعالى جعل الليل كالجسم لظلمته وجعل النهار كالجلد والقشر وهو عارض فالنهار كالنكسوة واللييلة أصل فهو كالجسم فإذا تميز وانتزع منه الضوء [فإياهم مظلّمون] أي داخلون في ظلام الليل لأضياء لهم فيه .
[والشمس تجري لمستقرّ لها] أي ودلالة أخرى لهم الشمس أي إنها تجري لانتهاه أمرها عند انقضاء الدنيا فلا تزال تجري حتى تنقضي الدنيا وقرىء «للمستقرّ لها» والمعنى واحد أي لا قرار لها إلى انقضاء الدنيا ويمكن أن يكون اللام للوقت والسبب نحو «لدلوك الشمس» فالجري بسبب حصول الوقت وقيل : معناه أنها تجري لوقت واحد لا تعدوه ولا يختلف . أو المعنى أنها تجري إلى أقصى منازلها في الشتاء والصيف لا يتجاوزها ولها في الارتفاع غاية لا تنقطع دونها وفي الهبوط غاية لا يتجاوزها ولا تقصر عنها فمستقرّها [ذلك تقدير العزيز] القادر الذي لا يعجزه شيء [العليم] الذي لا يخفى عليه .

وهنا بيان وهو أن المكان يدفع شبه الفلاسفة والزمان يدفع شبه المشبهة .
أما بيان الأول وهو أن الفلسفي يقول : لو كان عدم العالم قبل وجوده لكان عند فرض عدم العالم قبل ، وقبل وبعد لا يتحقق إلا بالزمان فقبل العالم زمان والزمان من جملة العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه وهو محال فنقول : إنه قد وافقتمونا على أن الأمكنة متناهية لأن الأبعاد متناهية بالاتفاق فإذن فوق السطح الأعلى من العالم يكون عدماً وهو موصوف بالفوقية وفوق وتحت لا يتحقق إلا بالمكان ففوق العالم مكان والمكان من العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه فإن قالوا : فوق السطح الأعلى لا خلا ولا ملاما فنقول : قبل وجود العالم لا آن ولا زمان موجود .

وأما بيان الثاني فلأن المشبهة يقول : لا يمكن وجود موجود إلا في مكان فالله في

مكان فنقول : فيلزمكم أن تقولوا : الله في زمان لأن الوهم كما لا يمكنه أن يقول : هو موجود ولا مكان لا يمكنه أن يقول : هو كان موجوداً ولا زمان و كل زمان فهو حادث وقد أجمعنا على أن الله قديم .

قوله تعالى : [والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم] أي وقد رنا وعيننا للقمر مجاري ومنازل أي جعلنا القمر ذا منازل حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل كل يوم وليلة منزلاً منها لا يختلف حاله إلى أن يقطع الفلك إلى أن يعود في آخر الشهر دقيقتاً كالعذق اليابس العتيق المعوج المقوس ثم يخفى يومين آخر الشهر .

وشبهه سبحانه بالعذق لأنه إذا مضى على العذق أيام جفّ ويقوس فيكون أشبه الأشياء بالهلال والهلال به والغالب أن العذق يصير كذلك و يتقوس إذا مضى عليه ستة أشهر .

وروى علي بن إبراهيم بإسناده قال : دخل أبو سعيد المكاري - وكان واقفياً - على أبي الحسن الرضا عليه السلام فقال : أبلغ من قدرك أنك تدعي ما ادّعاه أبوك فقال له أبو الحسن : مالك أطفأ الله نورك و أدخل الفقريتك أما علمت أن الله سبحانه أوحى إلى عمران إنني واهب لك ذكراً يبرأ الأكمه والأبرص فوهب له مريم و وهب لمريم عيسى فعيسى من مريم ومريم من عيسى وعيسى ومريم شيء واحد وأنا من أبي وأبي مني فقال له أبو سعيد : فأسألك عن مسألة قال : سل ولا إخالك تقبل مني ولست من غنمي ولكن هلمها قال : ما تقول في رجل قال عند موته : كل مملوك لي قديم فهو حرّ لوجه الله ؟ فقال أبو الحسن عليه السلام : ماملكه لستة أشهر فهو قديم وهو حرّ قال : وكيف صار كذلك ؟ قال : لأن الله يقول : والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، سمّاه الله قديماً ويعود العرجون كذلك لستة أشهر قال : فخرج أبو سعيد من عنده وذهب بصره وكان يسأل على الأبواب حتى مات .

قوله تعالى : [لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر] في سرعة سير القمر لأن الشمس أبطل سيراً من القمر فإن الشمس تقطع منازلها في سنة والقمر يقطعها في شهر فلا يمكن أن يدرك أحدهما الآخر وخلقهما على وفق الحكمة وجعل لكل منهما ومن الكواكب مطالع

ومجاري مخصوصة متعينة فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر وإلا لكان في شهر واحد صيف وشتاء فحينئذ لا تدرك الثمار ولا تنضج .

[ولا الليل سابق النهار] ولا يسبق الليل النهار ولا يجتمع ليلتان ليس بينهما يوم بل يتعاقبان [وكل في فلك يسبحون] أي وكل من الشمس والقمر والنجوم وذكر الشمس والقمر مشعر بالكواكب والنون عوض عن الضمير الذي ذكر الشمس والقمر يشعر بوجود الضمير . في فلك يسرون بانسباط وسهولة وكل ما انبسط في شيء فقد سبج فيه ومنه السباحة في الماء .

وإنما قال : « يسبحون » بالواو والنون لما أضاف إليها فعل مثل الآدميين ووصفها بصفة من يعقل كما قال : « مالكم لا تنطقون » قال ابن عباس : تدور كما تدور الغزل في الفلكة .

ويستنبط من بعض الأخبار كما ورد عن الرضا عليه السلام أن النهار خلق قبل الليل ^(١) .

قوله تعالى : وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون (٤١) وخلقنا لهم من مثله ما يركبون (٤٢) وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون (٤٣) إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين (٤٤) وإذا قيل لهم انفقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون (٤٥) وما تاتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤٦) وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لؤي شاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين (٤٧) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٤٨) ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون (٤٩) فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون (٥٠) .

ثم امتن الله على خلقه بذكر فنون نعمه دالاً بذلك على وحدانيته فقال :

[وآية] وحجة وعلامة لهم على افتدارنا [أننا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون] أي آباءهم وأجدادهم الذين هؤلاء من نسلهم وانتشر منهم خلق كثير وتسمى الآباء

« ذرية » من ذرية الله الخلق لأنّ الأبناء والأولاد خلقوا منهم وسمي الأولاد ذرية لأنهم خلقوا من الآباء وقيل : الذرية هم الصبيان والنساء وخص الذرية بالذكر في السفينة مع أنّ الآباء أيضاً حملوا لضعفهم ولأنّهم لا قوة لهم على السفر كقوة الرجال .

« في الفلك المشحون » أي سفينة نوح المملوءة من الناس وما يحتاج إليه من فيها فسلموا من الغرق و الفلك السفينة لأنّ السفينة تدور في الماء ومنه الفلك لأنّها تدور بالنجوم وفلك ثدي المرأة إذا استدار .

[وخلقناهم من مثله ما ير كبون * وإن نشأ] إذا حملناهم في السفن [نفرقهم] بتبهيج الرياح والأمواج [فلا صريخ] ولا مغيث [لهم ولا هم ينقذون] ولا يخلصون من الغرق .

وهنا بيان لغوي صرفي وهو أنّه جعل الفلك تارة جمعاً مثل قوله : « وترى الفلك مواخر ^(١) » وأخرى فرداً مثل قوله : « في الفلك المشحون » وهذا ليس من قبيل لفظ المشترك الذي وضعت بحركة واحدة لمعنيين بل الحركة الأصلية في المعنيين مختلفة ولكن في الصورة متحدة مثلها قولك : سجد يسجد سجوداً للمصدر وهم قوم سجود في جمع ساجد نظراً أنّها كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك بل السجود عند كونه مصدرًا حركة أصلية وحركة السجود عند كونه للجمع حركة متغيرة حيث إنّ الجمع يشقّ من الواحد وهو ساجد ولا بدّ أن يلحق المشتقّ تغيير في الحركة أو في الحروف أو في مجموعها فساجد لما أردنا أن نشقّ منه لفظ جمع غيرناه وجئنا بلفظ السجود إذا عرفت هذا فالفلك عند كونه واحداً مثل « قفل » وعند كونها جمعاً مثل « خشب » فإذا استعملت الكلمة بمعنى الجمع فيكون واحداً فلغة انتهى .

[وخلقنا لهم من مثله ما ير كبون] أي وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح سفناً ير كبون فيها هؤلاء كما ركب أولئك والمراد السفن التي عملت بعد سفينة نوح على صورتها وشكلها وحاصل المعنى أنّ خلقنا هؤلاء مثل ما خلقنا للمتقين منهم و « من » في قوله : « من مثله » قيل : صلة زائدة مثل ما جاءني من أحد لكن سيبيويه يقول « من » لاتقع

صلة إلا بعد النفي لكن هي مبيّنة وقيل : المراد وخلقنا ممّا يماثل الفلك ما ير كيون من الإبل فإنّها سفائن البرّ وقيل : ممّا يماثل السفينة المراد الحمولة من الدوابّ كالإبل والبقر والحمير وإنّما جعلها مخلوقة لله مع كونها من مصنوعات العباد ليس لمجرد كون صنعهم بإقدار الله وإلهامه بل لمزيد اختصاص أصلها بحكمته وقدرته كما يعرب عن هذا المعنى قوله : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ^(١) » .

قوله تعالى : « وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون »* إلا رحمة منّا ومتاعاً إلى حين « أي لا يغاثون ولا ينقذون » إلا رحمة منّا « فيمن علم الله منه أنّه مؤمن أو سيؤمن أو ننقذهم للتمتع زماناً قليلاً في الدنيا ونستعنه إلى حين قدّره لنا لنقضي آجالهم .
[وإذا قيل لهم] أي للمشرّكين [اتقوا ما بين أيديكم] من أمر الآخرة واعملوا لها [وما خلفكم] من أمر الدنيا واحذروها ولا تغترون بها أو اتقوا ما مضى من الذنوب وما تأتى من الذنوب بالتوبة للماضي والاجتناب للمستقبل وقيل : معناه : اتقوا العذاب المنزل على الأمم الماضية وما خلفكم من العذاب الآخرة وجواب « إذا قيل لهم » محذوف أي إذا قيل لهم اتقوا لعلكم تُرحمون لا يتقون و يعرضون ويدلّ على هذا المحذوف قوله تعالى : [وما تأتئهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين] أي أعرضوا عن التفكّر في الحجج والمعجزات و « من » في قوله : « من آية » هي التي تزداد بعد النفي للتأكيد والاستغراق ومن الثانية للتبعيض أي ليس تأتئهم آية إلا أعرضوا عنها وذلك سبيل من ضلّ الهدى وخسر الآخرة .

[وإذا قيل لهم] أيضاً [أنفقوا ممّا رزقكم الله] في طاعته وأخرجوا من أموالكم ما أوجب الله عليكم [قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لويشاء الله أطعمه] أي احتجّوا في منع الإنفاق والحقوق بأن قالوا : كيف نطعم من يقدر الله على إطعامه ولو شاء الله إطعامه أطعمه فإذا لم يطعم دلّ على أنّه لم يشأ إطعامه .

واختلف في هؤلاء القائلين : فقيل : هم اليهود حين أمروا بإطعام الفقراء وقيل : هم مشركو قريش قال لهم أصحاب الرسول ﷺ : أطعمونا من أموالكم ما

زعمتم أنه الله وذلك قوله : « هذا الله بزعمهم » ^(١) ، وقيل : هم الزنادقة من الناس الذين أنكروا الصانع تعلّقوا بقوله : « رزقكم الله » فقالوا : إن كان هو الرزاق فلا فائدة في التماس الرزق منا وقد رزقنا وحرّمكم فلم تأمرونا بإعطاء من حرّمه الله ؟

[إن أنتم إلا في ضلال مبين] هذا من بقیة قول الکفار لمن أمرهم بالإطعام .

وقيل : إنه من قول الله حين ردّوا هذا الجواب .

[و يقولون متى هذا الوعد] الذي تعدنا به نزول العذاب بنا [إن كنتم صادقين]

أنت وأصحابك وهذا استهزاء منهم بخبر النبي وخبر المؤمنين .

فقال تعالى في جوابهم : [ما ينظرون إلا صيحة واحدة] أي ما ينتظرون إلا صيحة

واحدة يريد النفخة الأولى عن ابن عباس ، أي إن القيامة تأتيهم بغتة [تأخذهم] الصيحة

[وهم يختصمون] أي يختصمون و يتناظرون في الأسواق وفي الحديث : تقوم الساعة

والرجال قد نشروا ثوبهم يتبايعانه فما بطويانه حتى تقوم الساعة والرجل يرفع أكلته

إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم الساعة والرجل يلبط حوضه ليسقي إبله وما شيته

فما يسقيها حتى تقوم وقيل : وهم يختصمون هل ينزل بهم العذاب أم لا ؟

فإن قيل : إنهم ما كانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها .

فالجواب أن الانتظار فعلي لا نهم كانوا يفعلون ما يستحقون به البوار وتقريب

الساعة والعذاب . والتذكير في الصيحة لبيان عظمتها و هولها كقولك : إن فلان مالا

أي كثير عظيم وقوله : « واحدة » للتأكيد والمبالغة في شدة الصيحة أي لا يحتاج معها

إلى ثانية وتأخذهم وتعمّمهم بالأخذ وتصل إلى من في المشارق والمغارب .

[فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون] فبيّن الله سبحانه شدة الأخذ

بحيث لا يمكنهم إلى أن لا يتمكنوا من التوصية ، والتوصية بالقول والقول يوجد أسرع

مما يوجد الفعل كأنه قال سبحانه : لا يستطيعون كلمة فكيف فعلاً يحتاج إليه زمان

معتد به من أداء الواجبات وردّ المظالم ؟

ولفظ التوصية ذكر في الآية لبيان أنه لا قدرة له على أهم الأمور فإن وقت الموت

الحاجة إلى الوصية أقدم من كل الأمور والتذكير في التوصية للتعمم ولأن التوصية قد يحصل بالإشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها والحاصل أن الساعة إذا أخذتهم بغتة لم يقدرُوا على الإيصاء بشيء ولا يقدرُونَ إلى الرجوع إلى أهلهم .
ثم يبين سبحانه ما بعد الصيحة فقال :

ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون (٥١)
قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن و صدق
المرسلون (٥٢) ان كانت الاصيحة واحدة فاذا هم جميع لدينامحضرون (٥٣)
فاليوم لانظلم نفس شيئاً ولا تجزون الا ما كنتم تعملون (٥٤) ان
اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون (٥٥) هم وازواجهم في ظلال
على الارائك متكئون (٥٦) لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون (٥٧)
سلام قولاً من رب رحيم (٥٨) وامتازوا اليوم أيها المجرمون (٥٩)
ألم أعهد اليكم يا بني آدم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو
مبين (٦٠) .

أخبر الله عن النفخة الثانية وما يلقونه فيها إذا بُعثوا بعد الموت فقال :
[و نفخ في الصور] فإن قيل : إن في هذا الموضع يقول : [فاذا هم من الاجداث
إلى ربهم ينسلون] وفي موضع آخر «ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون»^(١) ،
والقيام غير النسلان وقوله : في الموضعين «إذا هم» يقتضي أن يكونا معاً فالجواب أن
القيام لا ينافي المشي السريع ولا ينافي النظر والمشي قائم أو أن الموضع كثيرة أو
أن لسرعة الأمور كان الكل في زمان واحد كقول امرئ القيس : «مكر مفتر مقبل
مدبر معاً» .

وبالجملة فصارت النفختان مؤثرتين في أمرين متضادين الإحياء والإماتة
والصوت الهائل يزلزل الأجسام فعند الحياة لما كانت الأجزاء مجتمعة فزلزلها فحصل
فيها تفريق وأما حالة الموت كانت الأجزاء متفرقة فزلزلها فحصل فيها اجتماع فعند

الاجتماع تتفرق وعند الافتراق تجتمع .

فائدة : إعلم أن « إذا » التي المفاجأة هي « إذا » التي للظرف لكن الشيء قد يكون ظرفاً للشيء معلوماً كونه ظرفاً فعند الكلام يعلم كونه ظرفاً وعند المشاهدة لا يتجدد علم كقول الفائل : إذا طلعت الشمس أضاء الجو وإذا رأى إضاءة الجو عند الطلوع لم يتجدد علم زائد وأما إذا قلت : خرجت فإذا أسدُ بالباب كان ذلك الوقت ظرف كون الأسد بالباب لكنّه لم يكن معلوماً فإذا رآه علمه فحصل العلم بكونه ظرفاً مفاجأة عند الإحساس فقيل : « إذا » للمفاجأة .

مسألة فلو قيل : أين يكون ذلك الوقت أحداث وقد زلزلت الصيحة الجبال ؟ وذلك بأن يجمع الله الأجزاء كلّ واحد في الموضع الذي قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدته . وفي الآية إشعار بكمال القدرة حيث إنّه في زمان واحد يجتمعون وينسلون إلى الموضع الذي يحكم الله فيه ولا حكم لغيره سراعاً فلمّا رأوا أهوال القيامة [قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا] أي يقولون : « ياويلنا » وقرئ « ياويلتنا » أي كلّ واحد منهم يقول : ياويل احضر فهذا أو ان حضورك وقرئ من أهبّتنا من هبّ من نومه إذا انتبه وإنّما يقولون : « من مرقدنا » مع أنّهم كانوا معدّين في القبر فكيف قالوا « من مرقدنا » ؟

قيل : إنّ للكفار هجعة بين النفختين ويرفع الله العذاب عنهم بين النفختين فيرقدون ويجدون فيها طعم النوم فإذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا أهوال القيامة دعوا بالويل والثبور وقالوا ذلك أو أنّهم لكثرة ما يشاهدون من الأهوال يختلط عقولهم يظنون أنّهم كانوا نياماً وقيل : إذا عاينوا جهنّم وما فيها من أنواع العذاب يصير عندهم عذاب القبر في جنبها مثل النوم فيقولون ذلك .

وقرئ « من بعثنا » بمن الجارة والمصدر . و« المرقد » إمّا مصدر أي رقادنا أو اسم مكان أريد به الجنس أي المراقد والقبور .

ثمّ يقولون : [« هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون »] فيما أخبرونا عن هذا المقام وهذا البعث قال قتادة : أوّل الآية من قول الكافرين وآخرها للمسلمين : قال الكافرون :

« يا ويلتنا من بعثنا من مرقدنا » وقال المسلمون : « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » .
ثم أخبر سبحانه عن سرعة بعثهم فقال : [إن كانت إلا صيحة واحدة] أي لم تكن
المدة والنفخة إلا مدة صيحة واحدة [فإذاهم جميع لدينا محضرون] أي فإذا الأولون
والآخرون مجموعون في عرصات القيامة محضرون في موقف الحساب وقوله : « محضرون »
يدل على أن كونهم ينسلون إجباري لا اختياري .

ثم بين سبحانه ما يكون في ذلك اليوم بقوله : [فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا
تجزون إلا ما كنتم تعملون] فقوله : « لا تظلم نفس » ليأمن المؤمن « ولا تجزون إلا
ما كنتم تعملون » ليأس الكافر والمعنى أنه لا ينقص من له حق شيئاً من حقه من الثواب
والعوض بل الأمور جارية على مقتضى العدل .

ثم ذكر سبحانه حال أوليائه فقال : [إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون]
شغلهم النعيم عن أهوال القيامة وغمرهم سرورهم عمافيهم أهل النار من العذاب وأن أهل
العذاب أقاربهم قال ابن عباس : شغلوا باقتضاض العذاري وهو المروي عن الصادق عليه السلام
قال : وحواجبهن كالأهلة وأشعار أعينهن كفوائد النور^(١) وقيل : باستماع
الألحان مشغولون .

وقيل : شغلهم في الجنة سبعة أنواع من الثواب لسبعة أعضاء فثواب الرجل
بقوله : « أدخلوها بسلام آمنين »^(٢) و ثواب اليد « يتنازعون فيها كأساً لا لغو
فيها »^(٣) و ثواب الفرج « و حور عين »^(٤) و ثواب البطن « كلوا واشربوا هنيئاً » الآية ،
و ثواب الأذن « لا يسمعون فيها لغواً »^(٥) يسمعون أصوات المطربة و ثواب العين « وتلذذ
العين »^(٥) فاكهون فرحون والفكه الطيب النفس الضحوك فظهور البشر في الوجه

(١) القوائد : الريشات التي في مقدم الجناح وهي كبارها والنور جمع نسر :

الطائر المعروف .

(٢) الحجر : ٤٦ .

(٣) الطور : ٢٣ - ١٩ .

(٤) الواقعة : ٢٢ - ٦٢ .

(٥) الزخرف : ٨١ .

والجبهة يقال : رجل فكه وفاكه ولم يسمع لهذا فعل في الثلاثي أو مأخوذ من الفكاهة فهو كناية عن الأحاديث الطيبة وقيل : « فاكهون » أي ذوو فكاهة كما يقال : لآحم وشاحم أي ذولحم وشحم .

قوله : [هم وأنزواجهم في ظلال] هم و حلائلهم في الدنيا تمتن وافقهم على إيمانهم في أستارهم من الظلال التي لا حر فيها ولا برد وقيل : المراد من الأزواج اللاتي زوجهم الله من الحور العين في ظلال أشجار الجنة أي في ظلال تسترهم من نظر العين إليهم [على الأرائك] وهي السرر و عليها الحجال وقيل : هي الوسائد [متكئون] عليها و جالسون جلوس الملوك إذ ليس عليهم من الأعمال شيء ، وكلما اتكأ عليه فهو أريكة و الجمع « أرائك » .

[لهم فيها] أي في الجنة [فاكهة و لهم ما يدعون] أي ما يتمنون و يشتهون و « ما » موصولة أو موصوفة و يدعون يقتعلون من الدعاء عبث بها عن مدعو عظيم الشأن أي كل ما يدعونه حاصل لهم قال أبو عبيدة : يقول العرب : ادع علي ما شئت أي تمن علي .

ثم بين سبحانه ما يشتهون فقال : [سلام] أي لهم سلام و منى أهل الجنة أن يسلم الله عليهم [قولاً من رب رحيم] و سلام بدل من « ما يدعون » كأنه لما قال : « لهم ما يدعون » بينه بيده فقال : « لهم سلام » فيكون في المعنى « سلام » كالمبتدأ الذي خبره « لهم » كما يقال : لزيد مال أو سلام خبر لمبتدأ محذوف والمعنى ما يدعونه لهم وهو سلام يقال لهم .

[قولاً] كأننا من واسطته تعالى و من جهة لطفه و إكرامه إماماً بواسطة الملك أو بدونها مبالغة في تكرمهم قال ابن عباس : و الملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب رحيم .

ثم ذكر سبحانه أهل النار فقال : [و امتازوا اليوم أيها المجرمون] أي يقال لهم : انفصلوا و اعتزلوا معاشر العصاة و الكفرة من جملة المؤمنين و كونوا على حدة قيل : إن لكل كافر بيتاً في النار يدخل فيه فيردم و يسد باباً لا يرى و لا يرى .

ثم خصّهم بالتوبيخ فقال : [ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان]
 ألم أنهاكم على السنة الأنبياء والرسل في الكتب المنزلة أن لا تطيعوا الشيطان فيما
 يأمركم به و قلت لكم : [إنه عدو مبين] ظاهر العداوة عليكم .

و في هذه الآية دلالة على أنه سبحانه لا يخلق عبادة الشيطان لأنه حذر عباده عن
 عبادته و وبّخ عليه و لا يجوز أن يوبّخ ما خلقه .

قوله تعالى : و ان اعبدوني هذا صراط مستقيم (٦١) و لقد أضل منكم
 جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون (٦٢) هذه جهنم التي كنتم توعدون (٦٣)
 اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون (٦٤) اليوم نختم على أفواههم و تكلمنا
 أيديهم و تشهد أرجلهم بما كانوا يسمعون (٦٥) .

ثم بيّن سبحانه ما يقوله للكفار يوم القيامة [و أن اعبدوني] فوصف عبادته
 بأنه طريق مستقيم من حيث كان طريقاً إلى الجنة و ذكر عداوة الشيطان لبني آدم فقال :
 [و لقد أضل منكم جبلاً كثيراً] أي أضل الشيطان خلقاً كثيراً منكم بأن دعاهم و
 أغواهم و حملهم على الضلال [أفلم تكونوا تعقلون] أنه يغويكم و يصدكم عن الحق
 فتنبّهون و صورة الكلام صورة الاستفهام و معناه الإنكار عليهم و التبكيت لهم .

و في هذا بطلان مذهب أهل الجبر في أن الله لم يرد إضلالهم لأنه سبحانه أنكر
 إضلال الشيطان إياهم و وبّخهم على متابعتهم إياه .

و ههنا بيان : هو أنه إن دعيتك نفسك إلى فعل فانظر أهو مأذون فيه أو ممنوع
 عنه و النظر في هذا الأمر لابدّ و أن يكون من جهة الشرع و من بيان الشارع فإن
 لم تكن مأذوناً فيه فنفسك هي الشيطان أو معها الشيطان يدعوك فإن اتبعته فقد عبدته
 ثم إن الشيطان يأمر أو لا بمخالفة الله ظاهراً فمن أطاعه فقد عبده و من لم يطعه
 فلا يرجع عنه بل يقول له : اعبد الله كي تكون عزيزاً عند الناس و ليرتفع شأنك عندهم
 و ينتفع بك إخوانك و أعوانك و ذلك لأن غرضه اللعين أن يفسد عملك و ينتزعه عن
 القربة و يدخله في الشرك و يجعله هباءً منثوراً و أنت بزعمك أنك عبدت الله فهذا نوع
 من عبادة الشيطان و إطاعته و نوع آخر أن يحملك على المعاصي و ذلك أيضاً على تفاوت

فمن المعاصي ما يقع والعامل فيه موافق جنائنه ولسانه وأركانه ومنها ما يقع والجنان واللسان مخالف للجوارح و يرتكب جريمة كارهاً بقلبه لما يقترب من ذنبه مستغفر الربّه يعترف بسوء ما يقترب فهو أيضاً عبادة الشيطان بالأعضاء الظاهرة ومتى كان العاصي منزجراً مستكراً بالقلب فهو مصداق الحديث النبوي " حيث قال قال الله : لو لم تذنبوا لخلقنا أقواماً يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم .

إذا عرفت هذا فالطاعة التي تقع بالأعضاء الظاهرة للشيطان إذا كانت البواطن طاهرة فمكفرة بالأسقام والآلام كما ورد في الأخبار ومن ذلك قوله ﷺ : الحمى من فيح جهنم وقوله ﷺ : السيف محاء للذنوب أي مثل هذه الذنوب ويدلّ عليه ما قال ﷺ في الحدود أنها كفارات وما يكون بالقلوب فلا خلاص عنه إلا بالتوبة والندم وإقبال القلب على الرب فالقلب أمير واللسان خاصته والأعضاء خدمه فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنوب لأنه أعرض عن الله وأقبل على محبة غير الله فهو المستعقب للعقاب الأليم والعمدة في سبب عداوة إبليس لآدم تكملة آدم فحسده وشقاوة إبليس بسبب ترك السجود لآدم فإذا كان الشيطان للإنسان عدواً مديناً فما بال الإنسان يميل إلى مرضيه من الشراب والزنا ويكره مساخطه من العبادة والمجاهدة والسبب أن اللعين يستولي على الإنسان بمعونة من نفس الإنسان وترك الإنسان الاستعانة بالله فيستعين الشيطان بشهوة التي خلقها تعالى فيه لجواز التكليف ولمصالح بقائه وبقاء نوعه والجاهل يجعلها سبباً لفساد حاله وتتقوى الشيطان بالدعوة بها إلى مسالك المهالك كما أن اللعين يستعين بغضبه الذي خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه فيجعله سبباً لوباله وفساد أحواله ويميل الإنسان إلى المعاصي كميل المريض إلى المضار فتري المحموم يريد الماء البارد وهو يزيد في مرضه وصحيح المزاج والعاقلة لا يشتهي إلا ما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبي لا يستغني الإنسان عن الاستنشاق وهو المفسد لمزاجه ولا طريق له في الاستخلاص إلا الاستصلاح بالهواء الطيب والروائح العطرة والرش بالخلّ والماء ورد فكذلك طريقة الإصلاح في الدنيا ترك استنشاق الهواء الوبي الذي هو الشيطان ، وترك هوى النفس الذي يعين عدو الله وتحريف الهوى بالتذكّر والذكر الطيب الذي هو بمنزلة الخلّ والعطر لفساد

الهواء ، فإذا صحّ مزاجه فحينئذ لا يميل إلا إلى الحق ويحصل له مع العبادة ألفة فهناك يعترف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان ولا يكون من حزب الضالين بل من المفلحين .

مسألة : في الجبل ستة لغات : كسر الجيم والباء مع تشديد اللام وضمهما مع التشديد و كسرهما مع التخفيف و ضمهما مع التخفيف وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضمّ الجيم ومع كسره وفي معنى الجبل الجيم والباء واللام لا يخلو عن معنى الاجتماع والجبل فيه اجتماع الأجسام الكثيرة فالمراد من الجبلّة الجمع العظيم انتهى .

قوله تعالى : [هذه جهنّم التي كنتم توعدون] بين سبحانه مآل أهل الضلال يخاطبون بعد التوبيخ ويقال لهم : « هذه جهنّم التي كنتم توعدون » وذلك عند إشرافهم على شفير جهنّم أي كنتم توعدونها على السنة الرسل بمقابلة عبادة الشيطان .

[إصلوها اليوم] أمر إهانة وتنكيل كقوله : « ذق إنك أنت العزيز الكريم »^(١) ، أي ادخلوها و قاسوا فنون عذابها و أصل الصلاة اللزوم ومنه المصلي الذي يجيء في أثر السابق للزومه أثره و قيل : معناه : صيروا صلاها أي وقودها بما كنتم تكفرون جزاءً على كفركم بالله و تكذيبكم أنبياء الله .

[اليوم نختم على أفواههم] والمراد الختم حقيقة يوضع على أفواه الكفار يوم القيامة فلا يقدرّون على النطق [وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم] أي تستنطق الأعضاء التي لا تنطق في الدنيا تشهد عليهم .

واختلف في كيفية الشهادة من الجوارح على وجوه : أحدها أن الله يجعلها خلفه يمكن أن تتكلّم وتعترف بذنوبها . وثانيها أن الله يجعل فيها كلاماً وإنما نسب الكلام إليها لأنّه لا يظهر إلا من جهتها . وثالثها أن الله يجعل فيها آيات دالة على أن أصحابها عصوا المعاصي فسمي ذلك شهادة منها كما يقال : عيناك تشهدان كذا .

قوله : [بما كانوا يكسبون] أي تنطق الأعضاء بما كسبوا في الدنيا من الذنوب فجعل الله الشاهد عليهم منهم .

قوله تعالى : و لو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى

يبصرون (٦٦) ولونشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون (٦٧) و من نعمه ننكسه في الخلق أفلا يعقلون (٦٨) و ما علمناه الشعروما ينبغي له ان هو الاذكروقرآن مبين (٦٨) لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين (٧٠).

أخبر سبحانه عن قدرته على إهلاكهم وبيان استحقاق هؤلاء الكفار الذين جحدوا وحدانيته فقال :

[لونشاء] عقوبتهم بما ذكروا من الطمس والمسخ . والطمس محو الشيء حتى يذهب أثره ولا يدرك منه شيء . ولو أردنا أن نفعل بهم ما يوجب جنائياتهم المستدعية لها لطمسنا على أعينهم [فاستبقوا الصراط] يعني فأرادوا أن يستبقوا إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكه [فأتى يبصرون] الطريق وكيف يتوجهون حينئذ جهة السلوك وكيف يترددون إلى منازلهم لأنه إذا طمس أعينهم لم يهتدوا إليها و قيل : المعنى « لونشاء لطمسنا » أي لأعميناهم عن الهدى « فاستبقوا الصراط » أي فطلبوا طريق الحق وقد عموا عنه فكيف يبصرون ؟ عن ابن عباس .

[ولونشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون] كأن قائل يقول : الأعمى قد يهتدي بالأمارات العقلية أو الحسية غير الحس البصر كالأصوات واللمس فقال : ولو نشاء لمسخناهم وسلبنا قوتهم وغيّرنا صورهم وعذبناهم بنوع آخر من العذاب فأقعدناهم في منازلهم ممسوخين قردة وخنازير كما فعلنا بغيرهم أو جعلناهم حجارة في منازلهم ليس فيهم أرواحهم فلم يقدرُوا على ذهاب ولا مجيء ولا رجوعاً إلى الخلق الأولى بعد المسخ وهذا تهديد من الله لهم والمكان والمكانة واحد .

ثم قال سبحانه : [ومن نعمه ننكسه في الخلق] أي من نطوّل عمره نصيّره بعد القوة إلى الضعف و بعد زيادة الجسم إلى النقصان و بعد الجدة والطراوة إلى البلى والخلوقة فكأنه نكس خلقه وردّه إلى حال الهرم التي تشبه حال الصبي في ضعف القوة وغروب الغلم . [أفلا يعقلون] و يتدبرون في أن الله يقدر على الإعادة كما قدر على ذلك و قرىء « أفلا يعقلون » بصيغة الغائب .

ثم أخبر عن نبىه وصفه توكيداً لقوله : « إنك لمن المرسلين » فقال : [وما علمناه الشعر] أي ما علمناه صناعة الشعر وإنشائه [وما ينبغي له] أن يقول الشعر عن عند نفسه وما يتسهل له الشعر وما كان ^{والله} يتزين له بيت شعر حتى أنه ^{والله} تمثل بيت شعر جرى على لسانه : « كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً » فقال بعض الأصحاب : يا رسول الله إنما قال الشاعر : « كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً » أشهد أنك لرسول الله وما علمك الشعر وما ينبغي لك وعن عائشة أنها قالت : كان رسول الله يتمثل ببيت أخي بني قيس :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً * ويأتيك بالأخبار من لم تزود
فجعل ^{والله} يقول : « وتأتيك من لم تزود بالأخبار » فيقول أبو بكر : ليس هكذا يا رسول الله فيقول : إنني لست بشاعر وما ينبغي لي فأما قوله : « أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب » فقد قال قوم : إن هذا ليس بشعر وقال آخرون : إنما هو اتفاق منه وليس بقصد منه إلى قول الشعر.

وقيل : إن معنى الآية « وما علمناه الشعر » بتعليم القرآن وما ينبغي للقرآن أن يكون شعراً فإن نظمها ليس بنظم الشعر على معنى أن القرآن ليس بشعر فإن الشعر كلام متكلف موضوع منسوج على منوال الوزن والقافية مبني على خيالات وأهية ومثل هذا لا يصلح للنبي ولا يتأتى له لو طلبه فرضاً كما جعلناه أمياً لا يهتدي للخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وقد صح أنه كان يسمع الشعر ويحث عليه لكن شعر الحكمة وقال لحسان بن ثابت : لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك .

[إن هو] أي ما الذي أنزلناه عليه [إلا ذكر وقرآن مبين] من عند رب العالمين ليس بشعر ولا رجز ولا خطبة والمراد بالذكر أنه يتضمن ذكر الحلال والحرام والدلالات وأخبار الأمم الماضية للاعتبار فجمع سبحانه بينها لاختلاف فائدتها [لتنذر من كان حياً] أي من كان مؤمناً لأن الكافر كالميت بل أقل من الميت لأن الميت وإن كان لا ينتفع ولا يتضرر لكن الكافر لا ينتفع بدينه ويتضرر بربه وقيل : المراد من الحي العاقل روي ذلك عن علي ^{عليه السلام} .

[ويحق القول على الكافرين] ويجب الوعيد والعذاب على الكافرين بكفرهم وكلمة « القول » كما قال تعالى : « ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ^(١) » وقوله : « حقت كلمة العذاب ^(٢) » لأنه قال : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ^(٣) » فلمّا وجد منهم التكذيب جاء التعذيب .
ثمّ إنّّه أعاد دلائل الوحداية فقال :

اولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما فهم لها مالكون (٧١)
وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون (٧٢) ولهم فيها منافع ومشارب
افلا يشكرون (٧٣) واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون (٧٤) لا يستطيعون
نصرهم وهم لهم جند محضون فلا يحزك قولهم انا نعلم ما يسرون وما
يعلمون (٧٥) اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين (٧٦) و
ضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم (٧٨) قل يحييها
الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (٧٩) الذى جعل لكم من الشجر
الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون (٨٠) اولى الذى خلق السموات والارض
بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم (٨١) انما امره اذا أراد
شيئا أن يقول له كن فيكون (٨٢) فمبجان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه
ترجعون (٨٣) .

أي ألم يعلموا علماً يقينياً متأخماً للمعانيّة [أنا] لأجلهم [خلقنا ممّا] تولينا إحداثه
بالذات من غيروليّ وناصر وذكر « الأيدي » استعارة يفيد المبالغة في التفرد والاختصاص
و « اليد » في اللغة تطلق على الجارحة والقوة والنعمة [أنعاماً] يعني الإبل والبقر والغنم
[فهم لها مالكون] ولولم نخلقها لما ملكوها ولما انتفعوا بها وبألبانها وركوب ظهورها و
لحومها وقيل : المراد « هم لها » ضابطون لم نخلقها وحشية لا يقدرّون على ضبطها .
[وذللناها لهم] وسخرناها لتصرفهم حتّى صارت منقادة غير نافرة [فمنها ركوبهم]

(١) الم السجدة : ١٣

(٢) الزمر : ٧١

(٣) اسرى : ١٥

على تقدير حذف المضاف أي ذور كوبهم وذوالر كوب هو المر كوب ويجوز أن يكون المعنى:
فمن منافعهار كوبهم وأمار كوبتهم فهي المر كوبة كالحلوبة و الجروزة لما يحلب و يجرز
[ومنها يأكلون] قسم الأ نعام وجعل منها ماير كب ومنها ما يذبح .

[و لهم فيها منافع و مشارب] فمن منافعها لبس أصوافها و أوبارها و أشعارها و
أكل لحومها و ر كوب ظهورها [أفلا يشكرون] الله على هذه النعم .

ثم ذكر سبحانه جهلهم فقال : [واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون] يعبدون
تلك الآلهة لكي ينصروهم ويدفعوا عنهم عذاب الله [لا يستطيعون نصرهم] يعني هذه الآلهة
التي عبدوها لا يقدر على نصرهم والدفع عنهم [وهم لهم جند محضرون] أي الكفار جند
للأصنام يغضبون لهم ويحضرونهم في الدنيا كالجند وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم
شراً وقيل : المعنى أن هذه الآلهة معهم في النار محضرون لأن كل حزب مع ما عبدته
من الأوثان في النار كما قال سبحانه « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم »^(١)
[فلا يحزنك قولهم] في تكذيبك [إنا نعلم ما يسرون] في ضمائرهم [وما
يعلنون] بالسنتهم فنجازيهم على ذلك أي نعلم عقائدهم الفاسدة وما يعلنون من الأفعال
القيحية .

[أو لم ير الإنسان] ويعلم [أنا خلقناه من نطفة] والتقدير ثم نقلناه من النطفة
إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة ومن المضغة إلى العظم ومن العظم إلى أن جعلناه خلقاً
سويّاً ثم جعلنا فيه الروح وأخرجناه من بطن أمه ونقلناه من حال إلى حال إلى أن
كامل عقله وصار متكلماً خصيماً جديلاً وذلك قوله : [خصيم مبين] أي ذوبيان ونطق .

وإنما ذكر « الخصيم » مكان الناطق لأنه أعلى أحوال الناطق لأن الناطق مع
نفسه لا يمين كلامه والمتكلم مع غيره أظهر في النطق وأبين فمن قدر على جميع ذلك فكيف لا يقدر
على الإعادة وهي أسهل من الإبداع والإبداع ولا يجوز أن يكون خلق الإنسان واقعاً
بالطبيعة لأن الطبيعة ليست بقادرة ولا حساسة وفي حكم الموات فكيف يصلح منها
الفعل ولا يجوز أن يكون الوقوع بسبب الاتفاق لأن المحدث لا بد له من محدث

قادر قبل زمان الحدوث .

و في الآية دلالة على صحة استعمال النظري الدين لأنه سبحانه أقام الحجة على قيام النشأة الثانية بوجود النشأة الأولى وألزم من أقر بالأولى أن يقرّ بالثانية .
ثم أكد سبحانه هذا البيان بقوله : [وضرب لنا مثلاً] أي ضرب المثل في إنكار البعث بالعظم البالي وفتته بيده ويتعجب ممن يقول : إن الله يحييه [ونسي خلقه] أي وترك النظر والتدبر في خلق نفسه إذ خلق من نطفة .

ثم بيّن سبحانه قول المنكر للحشر و المتمثل [قال من يحيي العظام وهي رميم] أي البالية المتفتة واختلف في القائل لذلك قيل : هو أبي بن خلف وهو المراد بالإنسان في الآية عن الصادق عليه السلام وقيل : هو العاص بن وائل السهمي وقيل : أمية بن خلف .
ثم ردّ سبحانه عليه بقوله : [قل] لهذا المنكر من الإعادة يا محمد : [يحييها الذي أنشأها أول مرة] لأن من قدر على الاختراع فهو قادر على الإعادة [وهو بكل خلق عليم] من الابتداء والإعادة فكما خلقه ولم يكن كذلك شيئاً يعيده وإن لم يبق منه شيئاً مذكوراً .
ثم زاد في بيان القدرة وأخبر من صنعه سبحانه بما هو عجيب الشأن فقال : [الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون] والمراد أنكم إذا تستبعدون الإعادة بسبب فناء وحياة سارية في الإنسان فلا تستبعدوا الإعادة لهذا السبب فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تشاهدون حيث منه توقدون و جعل لكم من الشجر الرطب المطفئ للنار ناراً محرقة يعني بذلك الشجر المرخ والعفارو هما شجرتان يتخذ الأعراب نارا منها فمن قدر على أن يخرج من الشجر الذي هو في غاية الرطوبة ناراً حارة مع مضادة النار للرطوبة ويخرج الضد من الضد فيقدر على إعادةكم قال الكلبي : كل شجر ينقدح منه النار إلا العناب لكن العرب استمجد المرخ والعفار لكثرة هذه المادة فيهما .

ثم ذكر سبحانه من خلقه ما هو أعظم من الإنسان وهو خلق السماوات والأرض فقال : [أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم] مع عظمهما وكثرة أجزائهما فيقدر على إعادة البشر .

ثم أجاب فقال: [بلى] أي هو قادر على ذلك [وهو الخلاق العليم] يخلق خلقاً بعد خلق العالم بجميع ما خلق .

وذكر قدرته على إيجاد الأشياء فقال: [إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون] فعبّر عن هذا المعنى بكلمة « كن » لأنه أبلغ في القدرة وليس هنا قول وإنما المراد إخبار بحدوث ما يريد تعالى وقيل: [إنما هو في التحويلات نحو قوله: « كونوا قردة خاسئين » ^(١) وكونوا حجارة أوحديداً ^(٢) وما أشبه ذلك .

ولفظ الأمر على عشر أوجه: أحدها: الأمر لمن هو دونك ، والثاني: التنب كقوله: « وكتبوهم إن علمتم فيهم خيراً » ^(٣) ، وثالثها: الإباحة نحو قوله: « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا » ^(٤) وإذا حللتم فاصطادوا ^(٥) والرابع: الدعاء نحو « ربنا آتنا من لدنك رحمة » ^(٦) الخامس: الترفية كقوله: ارفق بنفسك ، السادس: الشفاعة نحو قولك: شفّعني فيه ، السابع: التحويل نحو « كونوا قردة » الثامن: التهديد نحو « عملوا ما شئتم » ^(٧) التاسع: الاختراع والإحداث والوقوع نحو قوله: « كن فيكون » العاشر: التعجب نحو « وأبصر بهم وأسمع ^(٨) » .

وبالجملة حاصل المعنى أنه سبحانه إذا أراد فعل شيء بمنزلة ما يقول للشيء: « كن » فيكون في الحال كقول الشاعر:

فقال له العينان سمعاً وطاعة * وحدّثنا كالدّر لما يشقّب

(١) البقرة: ٦٥ .

(٢) اسرى: ٥٠ .

(٣) النور: ٣٣ .

(٤) الجمعة: ١٠ .

(٥) المائدة: ٣ .

(٦) الكهف: ١٠ .

(٧) حم السجدة: ٤٠ .

(٨) مريم: ٨٣ .

وإنما أخبر الشاعر عن سرعة دمه دون أن يكون ذلك قولاً على الحقيقة .

قوله : [فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء] أي تنزيهاً عن

نفي القدرة على الإعادة و غير ذلك مما لا يليق بصفاته

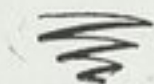
الذي بيده أي بقدرته ملك كل شيء [وإليه

ترجعون] يوم القيامة إلى

حيث لا يملك الأمر و

النهى أحد سواه .

تمت السورة بحمد الله



سورة الصافات

✽ (مكية) ✽

فضلها : قال أبي بن كعب : قال رسول الله ﷺ : ومن قرأ سورة الصافات أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل جنّي وشيطان وتباعدت عنه مردة الشيطان و برأ من الشرك وشهد له حافظاء يوم القيامة إنه كان مؤمناً بالمرسلين .

وروى الحسين بن أبي العلاء عن الصادق عليه السلام قال : من قرأ سورة الصافات في كل يوم جمعة لم يزل محفوظاً من كل آفة مدفوعاً عنه كل بليّة في حياته الدنيا مرزوقاً في الدنيا بأوسع ما يكون من الرزق ولم يصبه الله في ماله ولا في ولده ولا بدنه بسوء من شيطان رجيم ولا من جبار عنيد و إن مات في يومه أو ليلته بعثه الله شهيداً و أماته شهيداً و أدخله الجنة مع الشهداء في درجة من الجنة .

التفسير : افتتح الله هذه السورة بمثل ما اختتم به سورة يس من ذكر التوحيد

والبعث فقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصافات صفاً (١) فالزاجرات زجراً (٢) فالتاليات ذكراً (٣) ان الهكم لواحد (٤) رب السموات و الارض و ما بينهما ورب المشارق (٥) اننا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (٦) وحفظا من كل شيطان مارد (٧) لا يسمعون الى الملاء الاعلى و يقذفون من كل جانب (٨) دحورا ولهم عذاب واصلب (٩) الامن خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب (١٠) .

قريء [و الصافات صفاً] بإدغام التاء في الصاد و كذلك بإدغام التاء في الزاي في «الزاجرات» و كذلك بإدغام التاء في «التاليات» قالوا : إدغام هذه الحروف الثلاثة فيما يليها حسن لمقاربة الحرفين في الثلاثة .

و اعلم أن هذه الأشياء الثلاثة المقسم بها يحتمل أن يكون صفات للملائكة أي واقفين صفوفاً إما في السماوات للعبادة كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا : «وإننا لنحن الصافون»^(١) و قيل : إنهم يصفون أجنتهم في الهواء منتظرين لأمر الله أو أن لكل واحد منهم درجة و مرتبة معينة في الذات و الشرف وذلك يشبه الصفوف أو صف الغزاة المجاهدين في سبيل الله .

و أما قوله : [فالزاجرات زجراً] يقال : زجرت البعير إذا أحشته ليمضي وزجرت فلاناً عن سوء أي نهيته ففي وصف الملائكة بالزجر قيل : المراد الملائكة الذين و كلوا بالسحاب يزجرونها من موضع إلى موضع و قيل : المراد منه أن الملائكة لهم تأثيرات في قلوب بني آدم على سبيل الإلهام فيزجرونهم عن المعاصي زجراً أو يزجرون الشياطين عن التعرض لبني آدم بالشر و الإيذاء و إلقاء الهداية في قلوب البشرية في مقابلة إغواء الشياطين و إضلالهم للبشر فقوله : «فالزاجرات» إشارة إلى تأثير الجواهر الملكية في

تنوير الأرواح القدسية البشرية كما قال سبحانه : « فالملقىات ذكراً » وذلك إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إزاله ما لا ينبغي عن الأرواح البشرية وحاصل المعنى أن الله سبحانه يوصل مفهوم زجر الملائكة إلى قلوب العباد كما يوصل مفهوم إغواء الشيطان إلى قلوبهم ليصح التكليف . وقيل : المراد رفع المؤمنين أصواتهم عند قراءة القرآن لأن الزجرة الصيحة .

قوله تعالى : [فالتاليات ذكراً] اختلف فيها أيضاً أحدها أنها الملائكة تقرأ كتب الله تعالى والذكر الذي ينزل على الموحى إليه أو الكتب التي كتب الله لملائكته وفيه ذكر الحوادث فتترداد يقيناً بوجود المخبر على وقوع الخبر والثالث ذكر جماعة قرء القرآن من المؤمنين يتلونه في الصلوات إن شاء الله تعالى : « تلوأ » كما قال : « زجراً » لأن التالي قد يكون بمعنى التابع ومنه قوله : « والقمر إذا تلاها »^(١) ، فلمّا كان اللفظ مشتركاً بينه بلفظ ينزل الإبهام .

وكل هذه الأمور أقسم الله تعالى بها أنه واحد ليس له شريك فقال في جواب الأقسام [إن إلهكم لواحد] واختلف في مثل هذه الأقسام فقيل : أقسام بالله كلها على تقدير ورب الصافات ورب الزاجرات ورب التين ورب الزيتون . فإن قيل : ذكر القسم أمّا للمؤمن فهو مقرّ بالتوحيد وأمّا للكافر فهو منكراً والحلف لا يكون دليلاً فما الفائدة .

فالجواب أن القرآن نزل بلغة العرب وعندهم إثبات الأمر بالحلف واليمين طريقة مألوفة ولو أنه ليس بدليل لكنّه سبحانه ما اقتصر على ذكر الدليل بالحلف بل أمّن بالدليل اليقيني في كون الإله واحداً لأنه عقّب اليمين بالدليل بقوله : [رب السماوات والأرض وما بينهما] والنظر في انتظام العالم وخلقه دليل يقيني فالقسم للتأكيد ولذلك قال سبحانه : « رب السماوات والأرض وما بينهما » أي خالقهما [و رب المشارق] وهي مشارق الشمس ومطالعها بعدد أيام السنة ثلاثمائة وستون مشرقاً والمغرب كذلك يطلع كل يوم من مشرق ويغرب في مغرب والشروق قبل الغروب

ولذلك قدّم في الذكر .

و يحتمل أن يكون المراد من المشارق والمغارب مشارق الكواكب و مغاربها فإن لكل كوكب مشرقاً ومغرباً و ذكر المشارق يغني عن ذكر المغارب كقوله «سرايل تقيمكم الحر»^(١)، على أن الشروق أكثر نفعاً من الغروب .

[إننا زيننا السماء الدنيا] التي هي أقرب السماوات إلينا وإنما خصّها بالذكر لاختصاصها بالمشاهدة [بزينة الكواكب] قرئ «زينة» منوثة «الكواكب» بالجرّ وهو ردّ معرفة على نكرة مثل «بالنّاصية ناصية» و الكواكب بدل من الزينة مثل قولك : مررت بأبي عبد الله زيد و قرأ عاصم بالتثوين في الزينة و نصب الكواكب يريد زيننا الكواكب قال الزجاج : يجوز أن تكون «الكواكب» في النصب بدلاً من قوله : «بزينة» لأن «بزينة» في موضع النصب و قرأ الباقون «بزينة الكواكب» بالجرّ على الإضافة من غير تنوين «الزينة» .

و الحاصل أنه سبحانه بيّن أنه زين سماء الدنيا لمنفعتين إحداهما للزينة و الثانية للحفظ من الشيطان المارد و بيان زينة السماء بالكواكب أي بنور الكواكب وضوئها و النور والضوء أحسن الصفات في الزينة ثم إن أشكالها متزيّنة و مختلفة كشكل الجوزاء و بنات نعش و الثريا و أمثالها و كيفية طلوعها و غروبها و إن الإنسان إذا نظر في الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متألّثة على ذلك السطح الأزرق يرى أمراً عجيباً مزيّناً .

قوله : [و حفظاً من كلّ شيطان مارد] قال المبرد : إذا ذكرت فعلاً ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لأنّه قد دلّ على فعله مثل قولك افعل و كرامة لأنّه لما قال : افعل علم أن الأسماء لا تعطف على الأفعال فالمعنى افعل ذلك و أكرمك كرامة وكذلك قوله : «و حفظاً» أي حفظناها من كلّ شيطان خبيث متمرد أن لا يدنو منها فإنّهم كانوا يسترقون السمع و يستمعون إلى كلام الملائكة و يلقون ما يستمعون و يوسوسونها في قلوب الكهنة و يوهمونهم أنّهم يعرفون الغيب فمنعهم الله تعالى عن ذلك بهذه الشهيرة يرميهم بها .

قوله تعالى : [لا يسمعون إلى الملائكة إلا على] أي لكيلا يتسمعوننا إلى الكتبة من الملائكة في السماء والمراد من «الملائكة الأعلى» الملائكة لأنهم أهل الملائكة الأعلى .

[و يُقذفون من كل جانب * دحوراً] أي يرمون بالشهب من كل جانب من جوانب السماء إذا أرادوا الصعود طردوا دفعاً لهم بالعنف [و لهم عذاب واصل] أي ولهم مع ذلك أيضاً عذاب دائم يوم القيامة لكفرهم وتمردهم .

[إلا من خطف الخطفة] استثناء من الاستماع والتقدير لا يسمعون إلى الملائكة إلا من وثب الوثبة إلى قريب من السماء فاختلس خلسة و استلب استلاباً بسرعة [فأتبعه شهاب ثاقب] فلحقه وأصابه نار مضيئة محرقة و «الثاقب» النير المضيء فان قيل : إن الجن من النار فكيف يحترقون ؟ نعم نار القوية تؤثر في النار الضعيفة كالسراج ينطفئ بالنار القوية^(١) .

قوله فاستفتهم أهم أشد خلقاً من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب (١١) بل عجبنا ويسخرون (١٢) و إذا ذكروا لا يذكرون (١٣) و إذا رأوا آية يستسخرون (١٤) و قالوا ان هذا الا سحر مبين (١٥) أءذا متنا و كنا ترابا و عظاما أئنا لمبعوثون (١٦) أو آباءنا الاولون (١٧) قل نعم و انتم داخرون (١٨) فانما هي زجرة واحدة فاذا هم ينظرون (١٩) و قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين (٢٠) .

المعنى : في الآية استدلال على وقوع الحشر وإمكانه فقال : استفت يا محمد واسأل من هؤلاء المنكرين [أهم أشد خلقاً أم من خلقنا] من خلق السماوات والأرض والملائكة و ما بينهما و لاشك أنهم يعترفون بأن خلق هذا القسم أشد من خلقهم فحينئذ بالحري أن يكون قادر أعلى إعادة الحياة في هذه الأجساد و لاشك أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الإنسان .

قوله : [إنا خلقناهم من طين لازب] أي لاصق لازم أي إن هذه الأجسام قابلة للحياة إذ لو لم تكن قابلة للحياة لما صارت حية في المرة الأولى و لولا كونه تعالى قادراً

(١) كذا في تفسير الامام ولكن النار القوي انما تطفئ بلبهيبها لا بذاتها بل الجواب ان البشر من الطين فكيف يوجعه و يزجره المواد الطينية اذا ضرب بها مع انه قال عز و جل «فأتبعه شهاب ثاقب» ولم يقل يحرقه ويفنيه .

على إحيائهم لما حصلت الحياة في المرة الأولى ولا شك أن القابلية باقية وأن قدرته تعالى باقية لأن هذه القابلية والقدرية من الصفات الذاتية فامتنع زوالها .

وقيل : المعنى : أسألهم يا محمد صلى الله عليك أهم أحكم صنعاً وأشد قوة أم من خلقنا قبلهم من الأمم الماضية والقرون السالفة والمراد أنكم لستم بأحكم خلقاً من غيركم من الأمم وقد أهلكناهم بالعذاب فإن قالوا : نحن أشد قوة فأعلمهم أن الله خلق أصلهم من طين لاصق لازم وأن هؤلاء من نسله وذريته فكانهم خلقوا منه .

[بل عجب] يا محمد من هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث [و] هم [يسخرون] من تعجبك و تقريرك للبعث و قرىء بضم التاء على تقدير قل يا محمد : بل عجب أو أن العجب نسبه إلى ذاته تعالى على معنى الاستعظام اللازم للعجب أي ينبغي أن يقع العجب فرضاً والعجب من الله خلاف عجب الآدميين كما قال : « ويمكرون ويمكر الله ^(١) » ، وقال : « سخر الله منهم ^(٢) » وقال تعالى : « وهو خادعهم ^(٣) » والمكر والخداع والسخرية من الله بخلاف هذه الأحوال من العباد وقد دل القرآن والخبر على جواز إضافة العجب إلى الله أمّا القرآن فقوله : « فإن تعجب فعجب قولهم ^(٤) » والمعنى وإن تعجب يا محمد من قولهم فهو أيضاً عجب عندي و أمّا الخبر فقوله ^(٥) : عجب ربكم من شاب ليس له صبوة وعجب ربكم من ذلكم و قنوطكم و أنكر شريح فقال : إن الله لا يعجب إنما يعجب من لا يعلم قال الأعمش : فذكرت إنكار الشريح عند إبراهيم الخوَّاس فقال : إن شريحاً معجب برأيه إن عبد الله قرأ بضم التاء وهو أعلم من شريح .

قوله : [وإذا ذكروا لا يذكرون] و لما بين سبحانه تباعد الكفار عن حالة النبي ^(٦) غاية التباعد بأن النبي ^(٧) يتعجب من إنكارهم المعاد مع هذه الأدلة وهم يسخرون منه في إصراره على إثبات المعاد حتى أنهم إذا رأوا آية من آيات الله ومعجزة مثل انشقاق القمر وغيرها أوخَوْفوا بالله و وعظوا بالقرآن لا يتذكرون ولا يقبلون

(١) الانفال : ٣٠ .

(٢) التوبة : ٨٠ .

(٣) النساء : ١٤١ .

(٤) الرعد : ٥ .

ويستسخرون ويستهنئون ويحملونه على السحر .

[و قالوا إن هذا إلا سحر مبين] و قالوا : لتلك الآية : ما هذا إلا سحر وتمويه
[أنذا متنا وكنا تراباً وعظماً ، إنا لمبعوثون] بعد ذلك وكيف نبعث بعد ما صرنا تراباً .
[أو آباؤنا الأولون] يبعثون الذين اتصفوا بصفة الترابية والعظامية والمراد
منهم الإنكار من البعث « أو آباؤنا » مبتدأ وخبره مخذوف تقديره مبعوثون أي ليس الأمر
كذلك هذا إذا كان الواو ساكنة ومن فتح الواو جعلها واو العطف دخل عليها همزة
الاستفهام كقوله : « أو أمن أهل القرى » .

ثم قال لنبيه : [قل] لهم [نعم] تبعثون وأنتم صاغرون ذليلون أشد الذلة .
ثم ذكر أن بعثهم بزجرة وصيحة واحدة فقال : [فإني نسا هي] أي قصة البعث
صيحة [واحدة] من إسرأيل والزجرة الصرفة عن الشيء بالمخافة فكأنهم زجروا عن
الحال التي هم فيها إلى المحشر [فإذ هم ينظرون] إلى الأمر الذي كذبوا به أو المعنى
أحياء ينتظرون ما ينزل بهم من عذاب الله .

[و قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين] فيعترفون بالعصيان ويقولون : « يا ويلنا »
من العذاب وهو كلمة يقولها القائل عند الوقوع في الهلكة كقوله « يا حسرتنا » ويقولون :
هذا يوم الجزاء .

قوله : هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون (٢١) احشروا الذين
ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون (٢٢) من دون الله فاهدوهم إلى صراط
البحيم (٢٣) وقفوهم إنهم مسئولون (٢٤) ما لكم لا تناصرون (٢٥) بل هم
اليوم مستسلمون (٢٦) و أقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٢٧) قالوا اتكم
تأتوننا عن اليمين (٢٨) قالوا بل لم تكونوا مؤمنين (٢٩) وما كان لنا عليكم
من سلطان بل كنتم قوماً طاغين (٣٠) .

قوله تعالى : [هذا يوم الفصل] قيل : من بقية قول الكفار يقولون بعضهم لبعض
بعد قولهم : « هذا يوم الدين » وقيل : تم كلام الكفار بعد قولهم : « هذا يوم الدين »
وقوله : « هذا يوم الفصل » من كلام الملائكة لهم وهو أليق بالعبارة لأن قوله : « احشروا
الذين ظلموا » كلام غير الكفار و سوق على قوله : « هذا يوم الفصل » .

قوله تعالى: [احشروا الذين ظلموا و أزواجهم] فحكى سبحانه ما يأمر الملائكة به بأن يأمرهم « احشروا الذين ظلموا » أنفسهم بارتكاب المعاصي أي اجمعوهم من كل جهة وقيل : ظلموا أنفسهم بمخالفتهم أمر الله و بتكذيبهم الرسل وقيل : ظلموا الناس و أزواجهم أي و أشباههم و الزوج بمعنى الشبه و الشكل نحو قوله : « و كنتم أزواجاً ثلاثة » أي أشباهاً و أشكالا ثلاثة فيكون المعنى إن صاحب الزنا يحشر مع أصحاب الزنا و صاحب الخمر مع أصحاب الخمر و كذلك اليهودي مع اليهودي و قيل : المراد وأشياعهم من الكفار و قيل : المراد و أزواجهم المشركات فكأنه سبحانه قال : احشروا المشركين والمشركات .

قوله : [و ما كانوا يعبدون من دون الله] من الأصنام زيادة في تخسيرهم وتخجيلهم [فاهدوهم إلى صراط الجحيم] أي خذوهم إلى ذلك الطريق و دلّوهم عليه . فإن قيل : ما معنى « احشروا » مع أنهم قد حشروا و حضروا من قبل في الموقف لأنهم قالوا : « هذا يوم الدين » فالمراد احشروهم واجمعوهم إلى دار الجزاء وهي جهنم ولذلك قال : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » .

فلو قيل : كيف يصح ذلك وقد قال : بعده « وقفوهم إنهم مسئولون » و معلوم أن حشرهم إلى الجحيم إنما يكون بعد المسألة ؟
فالجواب أنه ليس في العطف بحرف الواو ترتيب .

و لعل المراد من الظالم المطلق في الآية مصروف إلى الكفار و يؤكد هذا قوله تعالى : « و الكافرون هم الظالمون » ويمكن بل الأولى أن يكون المراد « بالذين ظلموا » الرؤساء لأنك لو جعلت « الذين ظلموا » عاماً في كل من أشرك لم يكن للأزواج معنى وقيل : في معنى « الأزواج » القرناء من الشياطين و المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان و الأصنام و نظيره « فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة » (١) .
فإن قيل : إن تلك الأحجار جمادات فما الفائدة في حشرها إلى جهنم ؟ أجاب القاضي بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيى لتحصيل المبالغة في توبيخ الكفار و تخجيلهم

وهذا القول بعيد لأنه لم يصدر عنها ذنب فكيف تعذيبها ولكن يقون على الجمادية ولكن للتخجيل يحشرون مع عابديهم .

قوله : [وقفوهم إنهم مسئولون] أي إذا انتهوا إلى الصراط قيل للملائكة : «قفوهم إنهم مسئولون» عن أعمالهم ويسألهم الخزنة «ألم يأتكم رسل منكم بالبينات قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين» (١) .

وقيل لهم على سبيل التوبيخ : [مالك لا تنصرون] أي لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا وذلك أن أبا جهل كان يقول يوم بدر : نحن جميع منتصر ف قيل لهم يوم القيامة : مالك غير متناصرين وما لشركائكم أيها الكفار لا يمنعونكم من العذاب . [بل هم اليوم مستسلمون] يقال : استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع له أي صاروا منقادين لا حيلة لهم يتخاصمون لهم في دفع تلك المضار لا العابد ولا المعبود .

[فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون] أي الرؤساء و الأتباع يسأل بعضهم بعضاً وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم يقولون : غررتمونا ويقول أولئك : لم قبلتم منا . [قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين] فشرح سبحانه ذلك التساؤل فيقول الكفار لغواتهم : «إنكم كنتم تأتوننا» من جهة النصيحة واليمن والبركة وقيل : معناه كنتم تأتوننا من قبل القوة فتخدعونا بأقوى الوجوه أو المراد من «اليمين» الدين والحق أي تنبئون لنا ما فضل به وعلى المعنى الأول لا استعارة اليمين للأعمال الخيرية لأن مباشرة الأعمال الخيرية غالباً باليمين مثل مصافحة الأختار والأكل وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى ويتمنون بالجانب الأيمن ويسمونه بالبارح أو المراد بأن أئمة الكفار كانوا يحلفون للأتباع : أن ما يدعونهم إليه هو الحق فوثقوا بأيمانهم وتمسكوا بعهودهم أي آتيتمونا من ناحية الموائيق والأيمان التي قد متموها لنا .

فأجاب الرؤساء لهم [قالوا بل لم تكونوا مؤمنين] مصدقين بالله وموصوفين بالإيمان حتى يقال : إننا أزلناكم عنه .

ثم قالوا : [وما كان لنا عليكم من سلطان] أي ما كان لنا قدرة عليكم حتى

تَهْرِكُمْ [بل كنتم قوماً طاغين] ضالّين غالين في معصية الله و باغين و متجاوزين إلى أفحش الظلم وأعظم المعاصي .

قوله تعالى : فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون (٣١) فاغويناكم إنا كنا غاوين (٣٢) فانهم في العذاب مشتركون (٣٣) إنا كذلك نفعل بالمجرمين (٣٤) انهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون (٣٥) ويقولون أنا لناركونا آلهتنا لشاعر مجنون (٣٦) بل جاء بالحق و صدق المرسلين (٣٧) انكم لذائقون العذاب الاليم (٣٨) و ما تجزون إلا ما كنتم تعملون (٣٩) إلا عباد الله المخلصين (٤٠) .

هذا تمام الحكاية عن قول الكفار الذين قالوا : « و ما كان لنا عليكم من سلطان » ثم قالوا : [فحق علينا قول ربنا] إشارة إلى قول الله لا بليس « لا ملأنا جهنم منك و ممن تبعك منهم أجمعين »^(١) أي إذا لا تؤمن و نموت على الكفر فقد أوجب العذاب الذي نسحقه على الكفر و الإغواء [إنا لذائقون] العذاب ندركه كما ندرك الطعام بالذوق .

ثم يعترفون المغوين بأن [أغويناكم] عن الحق و أضللناكم و دعوناكم إلى الغي [إنا كنا غاوين] و داخلين في الضلالة و خيبناكم و خيبنا [فأنهم] يومئذ في ذلك اليوم [في العذاب مشتركون] واشتراكمهم و اجتماعهم [إنا كذلك نفعل بالمجرمين] الذين جعلوا الله شركاء و قيل : معنى الآية إنا مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بجميع المجرمين . ثم يبين سبحانه أنه إنما فعل ذلك بهم من أجل [أنهم كانوا] إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون [عن قبول ذلك] ويقولون أننا لتاركونا آلهتنا لشاعر مجنون [أي يأنفون من هذه المقالة] ويقولون : لاندع آلهتنا و عبادة أصنامنا لقول شاعر مجنون يعنون النبي ﷺ .

فردّ الله عليهم و كذبهم بأن قال : [بل جاء بالحق] ليس بشاعر ولا مجنون و لكنّه أتى بما يقبله العقول من الدين الحق أو الكتاب الحق [رصدق المرسلين] و حقق ما أتى به المرسلون من بشاراتهم بمقدمه الشريف أو صدقهم بأن أتى بمثل ما أتوا به من

الدعوة إلى التوحيد .

ثم خاطب الكفار فقال سبحانه : [إنكم] أيها المشركون [لذائقوا العذاب الأليم] على كفركم و نسبتكم إيتاء إلى الشعر والجنون لأن مقالاته ليست إلا وحي و هو أعقل الخلق [وما تجزون إلا ما كنتم تعملون] على قدر أعمالكم ثم استثنى فقال : [إلا عباد الله المخلصين] وهذا الاستثناء منقطع أي لكن عباد الله المخلصين الذين أخلصوا العبادة لله وأطاعوه في كل ما أمرهم به فإنتهم لا يذوقون العذاب وإنما ينالون الثواب .
قوله تعالى : أولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢) في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لافيها غول ولا هم عنها ينزفون (٤٧) و عندهم قاصرات الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون (٤٩) فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) .

يسن سبحانه ما أعدّه لعباده المخلصين من أنواع النعم فقال :

[أولئك لهم رزق معلوم] جعل لهم التصرف فيه و حكم لهم به في الأوقات ثم فسر ذلك الرزق بأن قال : [فواكه] جمع فاكهة يقع على الرطب واليابس من الثمار كلها يتفكّهون بها ويتنعمون بالتصرف فيها [وهم مكرمون] مع ذلك معظّمون قيل : المراد من الرزق المعلوم معلوم الوقت وهو مقدار غدوة و عشية وإن لم يكن هناك بكرة و عشية و قيل : معناه إن ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصاً بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة ولذة و حسن منظره أو يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذي لا يعلم متى يحصل ومتى ينقطع والتعبير بالفاكهة لأن الفاكهة عبارة عما يؤكل لأجل التلذذ لا لأجل الحاجة وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات فإنتهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ ولما كانت الفاكهة حاضرة أبداً كان غيرها أولى بالحضور .

ولما ذكر ما كولهم وصف مساكنهم فقال : [في جنات النعيم على سرر متقابلين] ومعناه أنه لا كلفة عليهم في التلاقي للتخاطب والانس وفي بعض الأخبار أنهم إذا أرادوا

القرب سار السرير تحتهم ولا يجوز أن يكونوا متقابلين إلا مع حصول الخواطر والميل إلى القرب .

ولما شرح الله صفة المأكول والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال : [يطاق عليهم بكأس من معين] يقال للزجاجة التي فيها الخمر : « كأساً » وتسمى الخمر نفسها كأساً قال الشاعر :

وكأس شربت على لذة * وأخرى تداويت منها بها
وعن الأخفش كل « كأس » في القرآن فهي الخمر .

قوله : « من معين » أي من شراب أو من نهر « معين » مأخوذ من عين الماء أي يخرج من العيون كما يخرج الماء وتسمى « معيناً » لظهوره ويجوز أن يكون فعلاً من المعين وهو الماء الشديد الجري ومنه أمعن في السير إذا اشتد فيه .

[يضاء لذة للشاربين] صفة للخمر أشدّ يياضاً من اللبن وقوله : « لذة » وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال : فلان جودود كرم إذا أرادوا المبالغة أو المعنى ذات لذة بحذف المضاف .

[لافيها غول] والغول أن يقتال عقولهم قال مطيع بن أبياس :
وما زالت الكأس تغتالهم * وتذهب بالأول فلا أول
وقال الليث : « الغول » الصداع أي ليس فيها صداع كما في خمر الدنيا قال الواحدي :
و حقيقته الإهلاك يقال : غاله إذا أهلكه وتسمى الصداع « غولاً » لأنه يؤدي إلى الهلاك .

[ولاهم عنها ينزفون] وقرئ بكسر الزاي يقال : أنزف الرجل إذا نفدت خمرته
و أنزف إذا ذهب عقله من السكر والمعنى على الفتح : لا يذهب عقولهم ولا يسكرون وليس فيها نوع فساد من صداع أو خمار أو سكر .

ولما ذكر سبحانه مشربهم عقوبت بذكر منكوهم فقال : [وعندهم قاصرات الطرت عين] ومعنى القصر الحبس أي إنهن يحبسن نظرهن ولا ينظرن إلى غير أزواجهن « عين » جمع عيناء أي نجلاء كبار الأعين حسانها [كأنهن بيض مكنون] شبهن ببيض النعام

المكنونة عن الغبار والكدورة المصونة من كل شيء ومعنى هذا التشبيه أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة فإن ذلك من أحسن ألوان البدن .

ثم قال : [فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون] عطف على قوله : « يطاف عليهم » والمعنى يشربون ويتحدثون على الشراب قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا * محادثة الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم فيخبر كل صاحبه بما نعام الله عليه .

قوله تعالى : قال قائل منهم انى كان لى قرين (٥١) يقول أءنك لمن المصدقين (٥٢) أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل انتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه فى سواء الجحيم (٥٥) قال تالله ان كدت لتردين (٥٦) ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) الاموتنا الاولى وما نحن بمعدين (٥٩) ان هذا هو الفوز العظيم (٦٠) . هذا تمام الحكاية عن أحوال أهل الجنة وإقبال بعضهم على بعض فى المسألة عن الأحوال .

[قال قائل] من أهل الجنة [إننى كان لى قرين] فى دار الدنيا و صاحب يختص بي إما من الإنس على قول ابن عباس : وإما من الشيطان [يقول أئنك لمن المصدقين] أي كان يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة ويقول إنكاراً وتعجباً : [أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون] ومحاسبون ومجازون أي ذلك القرين كان يقول على وجه الاستنكار : أن إذا متنا نحشرونبعث بعد أن صرنا تراباً أي هذا لا يكون أبداً وهذا أبلغ فى النفي .

[قال هل أنتم مطلعون] أي ثم هذا المؤمن قال لإخوانه فى الجنة بعد ما حكي لجلسائه مقالة قرينه فى الدنيا : « هل أنتم مطلعون » أي إلى أهل النار و هل فى الجنة موضع يرى منه هذا القرين فى النار و هل تحبسون أن تطلعوا على أهل النار لأرىكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم قيل : إن فى الجنة كوى ينظر منها أهلها إلى أهل النار .

[فاطلع فرآه في سواء الجحيم] فاطلع هذا المؤمن فرأى قرينه في وسط النار قيل : القائل في قوله « قال هل أنتم مطلقون » هو الله أو بعض الملائكة و قرىء « فاطلع » على لفظ المضارع المنصوب و على لفظ الماضي و إذا كان بلفظ المضارع يكون المعنى : هل أنتم مطلقون فاطلع أنا أيضاً و إذا كان بصيغة الماضي يكون المعنى عرض عليهم الاطلاع فقبلوا ما عرضه .

فاطلع هو بعد ذلك [قال تالله إن كدت لتردين] أي قال القائل : بعد ما اطلع إلى حال قرينه مخاطباً له : تالله قد كان قريباً أن تهلكني بالإغواء و تجعل حالي كالك و « إن » هي المخففة من المثقلة بدلالة مصاحبتة لام الابتداء لها أي إنك كدت تهلكني بما دعوتني إليه في الدنيا بقولك : لا نبعث و لا نعذب فقد ظهر الأمر خلاف ذلك .

[و لو لانهمة ربّي لكنت من المحضرين] أي و لو لا لطفه تعالى و عصمته و هدايته حتى آمنت لكنت أنا معك في النار و لا يستعمل « أحضر » إلا في الشر . قوله تعالى : [أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى و ما نحن بمعذبين] المعنى : أن هذا المؤمن يقول لهذا القربى السوء الذي في النار يخاطبه و يقول له على وجه التوبيخ و التقرّيع : أليس كنت تقول : « ما نحن بميتين » و قرىء بمائتين و لانموت إلا الموتة التي تكون في الدنيا و لا عذاب و لا رجوع أفرايتم أن الأمر ظهر بخلاف ما زعمتم و قيل : إن هذا الكلام من مكالمات أهل الجنة بعضهم لبعض على وجه إظهار السرور بدوام نعيم الجنة ولهذا عقبه بقوله :

[إن هذا لهو الفوز العظيم] فحينئذ يكون معنى الآية : ما نحن بميتين في هذه الجنة إلا موتتنا التي كانت في الدنيا و ما نحن بمعذبين كما وعدنا الله و يريدون به التحقيق لا الشك و إنما قالوا هذا القول لأن لهم في ذلك سروراً مجدداً و فرحاً مضاعفاً و إن كانوا قد عرفوا أنهم سيخلدون في الجنة وهذا كما أن الرجل يعطي المال الكثير فيقول : أكل هذا الملك لي وهذا كقوله :

أبطحاء مكة هذا الذي * أراه عياناً و هذا أنا

قوله تعالى : لمثل هذا فيعمل العاملون (٦١) أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم (٦٢) إنا جعلناها فتنة للظالمين (٦٣) إنا شجرة تخرج في أصل الجحيم (٦٤) طلعتها كأنه رءوس الشياطين (٦٥) فإنهم لا كلون منها فما تون منها البطون (٦٦) ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم (٦٧) ثم إن مرجعهم لالى الجحيم (٦٨) إنهم ألفوا اباءهم ضالين (٦٩) فهم على آثارهم يهرعون (٧٠) .

ثم قال سبحانه تمام الحكاية عن قول أهل الجنة : [لمثل هذا] الثواب و الفوز و الفلاح [فليعمل العاملون] في دار التكليف و قيل : إن هذا من قول الله أي لمثل هذا النعيم الذي ذكرناه « فليعمل العاملون » و المذكور من قوله : « لهم رزق معلوم » إلى قوله : « يرض مكنون » والمراد الترفيب في طلب الثواب بالطاعة .

قوله تعالى : [أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم] أي أذلك الذي ذكرناه من قرى أهل الجنة و ما أعد لهم خير من حيث النزل و « النزل » ما يصلح أن ينزلوا عليه من الغداء و التشريفات و ما يتقوت به أم نزل أهل النار وهو الزقوم مع أنه لاخير فيه وإنما قال : « خير » على وجه المقابلة مثل قوله : « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً و أحسن مقيلاً »^(١) ، أو جاء بلفظ « خير » مع أن في الزقوم ليس إلا الألم و الغم فهو على سبيل السخرية بهم و سوء اختيارهم قال العلامة أبو السعود في تفسيره : « الزقوم » شجرة صغيرة الورق زفرة كريهة الرائحة مرّة تكون في تهامة سميت به الشجرة الموصوفة .

قوله : [إنا جعلناها فتنة للظالمين] وهذه الشجرة يقاتها أهل النار وإنما صارت هذه الشجرة فتنة للظالمين لأن الكفار لما سمعوا هذه الآية أنكروا و قالوا : كيف يعقل أن تنبت الشجرة في جهنم مع أن النار تحرق الشجرة ولهذا الجهة صارت فتنة لهم والحالة أن خالق النار قادر على أن يمنع النار من إحراق الشجر كما أن الله يقدر أن يخلق الزقوم من جوهر و من مادة لا تأكله النار ولا تحرقه كما أنها لا تحرق السلاسل

والأغلال فيها وكما أنه لا تحرق حياتها وعقاربها وكذلك الضريع وما أشبه ذلك فمعنى كونها « فتنة لهم » وقعت هذه الشبهة الركيكة في قلوبهم وصارت سبباً لا نكارهم . والقول الثاني في تفسير الآية في كون الشجرة فتنة لهم في النار لأنهم كلفوا بتناولها وشق ذلك عليهم فحينئذ يصير ذلك فتنة في حقهم أي شدة عذاب لهم من قوله : « يوم هم على النار يفتنون^(١) » أي يعدّون .

قوله : [إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم] أي إن الزقوم شجرة تنبت في قعر جهنم وأغصانها ترفع إلى دركانها [طلعا كأنه رؤوس الشياطين] « الطلع » للنخلة غلاف الثمرة وسمي بالطلع لطلوعه كل سنة في النخل فاستعير لشجرة الزقوم لفظية وهذا التشبيه حيث إن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسيرة واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والتشويه في الصورة فحسن التشبيه في القبح برؤوس الشياطين وهذا من باب التشبيه بالمتخيل لا بالمحسوس قال امرؤ القيس :

أقتلني والمشرقي مضاجعي * ومسنونة رزق كانياب أغوال

مع أن الغول لم يره أحد . وقيل : إن رؤوس الشياطين ثمرة يقال لها : الأستن تشبه بني آدم وقيل : إن الشيطان نوع من الحيات .

[فإنهم لا كلون منها] أي أهل النار يأكلون من ثمرة تلك الشجرة فيملؤون بطونهم منها من شدة ألم الجوع وقد روي أن الله تعالى يجوعهم حتى أنسوا عذاب النار من شدة الجوع فيصرخون إلى مالك فيحملهم إلى تلك الشجرة ومنهم أبوجهل فإكلون منها فيغلي بطونهم كغلي الحميم فإذا شبعوا من أكل الزقوم يشتد عطشهم فيحتاجون إلى الشراب .

فعند هذه وصف الله شرايبهم فقال : [ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم] و « الشوب » كل ما خلط بغيره فالمعنى إذا غلبهم العطش الشديد سقوا من ذلك المشوب من غساق أو صديد جهنم حار مغبور الذي بلغ نهاية في الحرارة حتى إذا قربوها من وجوههم ليشربوا شوت وجوههم كما قال : « يشوي الوجوه^(١) » فإذا وصلت إلى بطونهم صهر

ما في بطونهم والجلود فذلك شرابهم وطعامهم و قوله : « ثم إن لهم » على شجرة الزقوم زيادة لشوباً وخليطاً بهذا الشراب المذكور ويكرهون على هذا الأكل الشراب و ثم يرجعون بعد الأكل والشرب و يردون إلى الجحيم وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه وهو خارج عن الجحيم كما يورد الإبل الماء و « الجحيم » النار الموقدة التي منازلهم فيها فينقلبون بعد الأكل والشرب إلى منقلبهم .

قوله : [إنهم ألفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون] المعنى إنه سبحانه علل الاستحقاق والوقوع في تلك الشدائد كلها بترك الإيمان و تقليد الآباء من غير دليل وافتقائهم بأبائهم وتسرعهم إلى اتباعهم ومعنى الإهرع الإسراع .

قوله تعالى : ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين (٧١) ولقد أرسلنا فيهم منذرين (٧٢) فانظر كيف كان عاقبة المنذرين (٧٣) إلا عباد الله المخلصين (٧٤) ولقد نادينا نوح فلنعم المجيبون (٧٥) ونجيناه واهله من الكرب العظيم (٧٦) وجعلنا ذريته هم الباقين (٧٧) وتركنا عليه في الآخرين (٧٨) سلام على نوح في العالمين (٧٩) أنا كذلك نجزي المحسنين (٨٠) انه من عبادنا المؤمنين (٨١) ثم اغرقنا الآخرين (٨٢) .

ذكر سبحانه ما يوجب التسلية لنبيه فقال :

[ولقد ضل قبلهم] اللام هي التي تدخل في جواب القسم المحذوف و « قد » للتأكيد أي قبل هؤلاء الذين في عصره و كذبوا ضل أكثر الأمم الماضية .

[ولقد أرسلنا قبلهم منذرين] من الأنبياء والمرسلين يخوفونهم من عذاب الله وحاصل المعنى أن إرساله تعالى الرسل وتمكيد الأمم الرسل قد سلف و يجب لك - صلى الله عليه وسلم - أسوة بهم وتصبر كما صبروا وفي الآية دلالة على أن أهل الحق في كل زمان كانوا أقل من أهل الباطل .

[فانظر كيف كان عاقبة المنذرين] أي من المكذبين المعاندين الحق كيف أهلكهم وما ذا حل بهم من العذاب ؟

ثم استثنى من المنذرين فقال : [إلا عباد الله المخلصين] الذين أنذرهم الأنبياء

وقبلوا منهم وأخلصوا عبادتهم لله تعالى فإن الله خلصهم من ذلك العذاب و وعدهم بجزيل الثواب .

[ولقد نادانا نوح أي دعانا نوح بعد أن يؤس من إيمان قومه لننصره على على قومه و ذلك قوله ﷺ : « إني مغلوب فانتصر » [فلنعم المجيبون] نحن لدعائه وأجبناه إلى ما سأل بإهلاك قومه وقيل : المعنى هو على العموم لمن دعانا .
[ونجيناه وأهله من الكرب العظيم] أي من المكروه الذي كان ينزل به من قومه و « الكرب » كل غم يصل حره إلى الصدر وأصل النجاة من النجوة فهي المرتفع فهي الرفع من الهلاك وأهله هم الذين في السفينة معه .
[وجعلنا ذريته هم الباقين] بعد الغرق فالناس كلهم بعد نوح عن ولد نوح قال الكلبي : لما خرج نوح من السفينة مات من كان معه من الرجال والنساء إلا ولده ونسأهم .

[وتركنا عليه في الآخرين] أي تركنا عليه ذكراً جميلاً وأثينا عليه في أمة محمد وسلم عليه إلى يوم القيامة فكأنه قال : وتركنا على نوح التسليم والصلوات إلى يوم القيامة بقوله : [سلام على نوح في العالمين] و معنى تركنا أثينا يقال : ما ترك فلان أي ما أبقي والمراد من « العالمين » من الملائكة والثقلين .

[إننا كذلك] أي مثل ما جزينا نوحاً [نجزي المحسنين] فمن أحسن بأفعال الطاعات وتجنب المعاصي فكافيه بإحسانهم [إنّه من عبادنا المؤمنين] أي إن نوحاً من عبادنا المؤمنين ، والآية تتضمن مدح المؤمنين حيث أن نوحاً منهم .
[ثم أغرقنا الآخرين] أي من لم يؤمن به و المقصود من الآيات تحذير القوم عن سلوك مثل طريقهم لئلا يعاقبوا بمثل عقوبتهم .

قوله تعالى : و ان من شيعته لابراهيم (٨٣) اذ جاء ربه بقلب سليم (٨٤)
اذ قال لايه و قومه ماذا تعبدون (٨٥) افكنا آلهة دون الله تريدون (٦)
فما ظنكم برب العالمين (٨٧) فنظر نظرة في النجوم (٨٨) فقال انى سقيم (٨٩)
فتولوا عنه مدبرين (٩٠) فراغ الى آلهتهم فقال الا تاكلون (٩١) ما لكم

لا تنطقون (٩٤) فراغ عليهم ضربا باليمين (٩٤) فاقبلوا اليه يزفون (٩٤)
قال اتعبدون ما ننحتون (٩٥) و الله خلقكم وما تعملون (٩٦) قالوا ابنوا له
بنيانا فالقوه في الجحيم (٩٧) فارادوا به كيذا فجعلنا هم الاسفلين (٩٨)
و قال اني ذاهب الى ربي سيهدين (٩٩) رب هب لي من الصالحين (١٠٠)

المعنى : [وإن من] شيعة نوح إبراهيم يعني : إنه على منهاجه في التوحيد
والعدل و اتباع الحق و ما كان بين نوح و إبراهيم إلا نبيان هود و صالح و ألفان
و ستمائة و أربعون سنة و قيل : المعنى : وإن من شيعة نوح إبراهيم و معنى الشيعة الجماعة
التابعة لرئيس لهم .

قوله : [إذ جاء ربه بقلب سليم] حين صدق الله و آمن به بقلب خالص من الشرك
بريء من المعاصي على ذلك عاش و عليه مات و قيل : بقلب سليم من كل ما سوى الله
لم يتعلق بشيء غيره عن أبي عبد الله عليه السلام .

قوله : [إذ قال لأبيه و قومه] حين رآهم يعبدون الأصنام من دون الله على وجه
التهجين لفعالهم و التقرب لهم [ما ذا تعبدون] أي أي شيء تعبدون [ءإفكاً آلهة
دون الله تريدون] ءإفك ، أشنع الكذب و أصله قلب الشيء عن جهته التي هي له
أي تريدون عبادة آلهة دون عبادة الرحمن [فما ظنكم رب العالمين] أن يصنع بكم
مع عبادتكم غيره و قيل : المعنى كيف تظنون بربكم أنه على أي صفة و من أي جنس
من أجناس الأشياء حين شبهتم به هذه الأصنام ؟

قوله : [فنظر نظرة في النجوم و قال إني سقيم] عن ابن عباس : إنهم كانوا
يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم و ذلك أنه عليه السلام أراد أن يكايدهم في
أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة و كان لهم من الغديوم عيد يخرجون إليه
فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خالياً في بيت الأصنام فيقدر على كسرها .

و ههنا بحث و هو أن النظر في علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم ،
ثم إنه عليه السلام ما كان سقيماً فلما قال : « إني سقيم » كان ذلك كذباً ؟

وفي الجواب عنهما وجوه كثيرة :

الأول أنه نظر نظرة في النجوم وكانت يأتيه سقامة كالحمى في بعض أوقات الليل والنهار فنظر ليعرف هل هي في تلك الساعة وقال : «إني سقيم» فجعله عنراً في تخلفه عن الذهاب معهم عن العيد الذي لهم وكان صادقاً فيما قال . لأن السقم كان يأتيه في ذلك الوقت وإنما تخلف لأجل مقصوده . ذلك تكسير الأصنام وأما قوله : «إني سقيم» أي سأسقم في هذا الوقت كقوله : «إنك ميت» وإنهم ميتون ، أي إنك ستموت ووجه آخر وهو أننا لا نسلّم أن النظر في علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام لأن من اعتقد أن الله خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة و خاصية لأجلها يظهر منه أثر مخصوص فهذا العلم على هذا الوجه ليس بحرام و باطل و يجوز أن يكون الله أعلمه بالوحي أنه سيسقمه في وقت مستقبل و جعل العلامة على ذلك إما طلوع نجم و اتصاله بآخر على وجه مخصوص .

فلما رأى إبراهيم تلك الإشارة فقال «إني سقيم» تصديقاً بما أخبره الله تعالى ويمكن أن يكون مراده بقوله : «إني سقيم» أي سقيم القلب حزناً على إصرارهم على عبادة الأوثان وهي لا تسمع ولا تبصر و نظره في النجوم فكرته في أنها مخلوقة محدثة مدبرة فكيف هؤلاء يعبدونها ؟

وما رواه العياشي بإسناده عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالا : و الله ما كذب إبراهيم و ما كان سقيماً محمول على هذه الوجوه المذكورة و ما روي أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات قوله : «إني سقيم» وقوله . «بل فعله كبيرهم» ^(١) وقوله في سارة : «إنها أختي» فيمكن أن يتأول مثلاً مثل قوله «إني سقيم» أي سأسقم ، و سارة أختي أي في الدين «و فعله كبيرهم» على ما ذكرناه في موضعه .

وبالجملة لما قال إبراهيم : «إني سقيم» وكان قد غلب الأسقام عليهم من باب الطاعون و كانوا يخافون العدوى ففارقوه و هربوا منه إلى معبدهم في البرية و تركوه و ذلك قوله : [فتولوا عنه مُدبرين] أي هاربين مخافة العدوى .

[فراغ إلى آلهتهم] أي ذهب إليهم في خفية و أصل «الروغ» الميل بحيلة ومنه

روغان الثعلب [فقال] للأصنام استهزاء [ألا تأكلون] أي هلاً تأكلون من الطعام الذي كانوا يضعونها عند الأصنام لتبرك عليه كما كان عادتهم ذلك للاستشفاء والاستبراك واليمن [مالكم لا تنطقون] أي لم لا تتجأوبوني . [فراغ عليهم ضرباً باليمين] فمال إبراهيم مستعلياً عليهم ضرباً مؤكداً شديداً و « ضرباً » مصدر مؤكّد « لراغ » أي ضربهم ضرباً شديداً وذلك لأنّ اليمين أقوى الجارحتين وقوة الآلة تقتضي قوة الفعل وفيه قول آخر : وهو أن المراد من « اليمين » الحلف أي أتمى الضرب بسبب الحلف وهو قوله تعالى عنه : « وتالله لأكيدن أصنامكم » .

ثم قال : [فأقبلوا إليه يزفون] أي أقبلوا بعد الفراغ من عيدهم إلى إبراهيم يسرعون و « الزفيف » حالة بين المشي والعدو من زفيف النعام لأنهم اطلعوا على صنع إبراهيم بأصنامهم فقصدوه مسرعين وحملوه إلى بيت أصنامهم وبعد ما أتوا به جرى بينهم وبينه من المحاورات ما نطق به قوله تعالى في غير هذه السورة : « أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم ^(١) » فأجابهم على وجه الحجاج :

[أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون] أي تعبدون منحوتكم وما عملتم من الأصنام فكيف تعبدون معمولكم ؟ وهذا كما يقال : فلان يعمل الحصير والمراد أن الله خلق أصل الحجارة التي تعملون منها الأصنام .

واحتج أهل الجبر بأن فعل العبد مخلوق لله وقالوا : إن لفظ « ما » مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله : « وما تعملون » معناه : و عملكم وعلى هذا التقدير صار معنى الآية : والله خلقكم وخلق عملكم .

والجواب أن هذه الآية حجة عليهم لاحتجاجهم لأن الله تعالى قال : « أتعبدون ما تنحتون » وأضاف العبادة والنحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل ولو كان ذلك واقعاً بتخليق الله لاستحال كونه فعلاً للعبد .

والجواب الثاني أنه سبحانه إن شاء ذكر هذه الآية توبيخاً لهم على عبادة الأصنام ولو لم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها بقبیح فعلهم وعبادتهم ولو كان

معناه والله خلقكم وخلق عبادتكم لكأن الآية على أن يكون عذراً لهم أقرب وأولى من أن يكون لوماً وتهجيناً ولكن لهم أن يقولوا : ولم توبّخنا على عبادتها والله هو الفاعل لذلك فيكون الحجّة لهم لا عليهم ولأنّه قد أضاف الفعل والعمل إليهم بقوله : « تعملون » فكيف يكون مضافاً إلى الله وهذا تناقض ؟

و أمّا قولهم : لفظة « ما » مع ما بعدها في تقدير المصدر ممنوع و بيانه أن سيئويه والأخفش اختلفا في أنّه هل يجوز أن يقال : أعجبني ما قمت أي قيامك فجوّزه سيئويه ومنعه الأخفش و جماعة وقالوا : إنّ هذا لا يجوز إلّا في فعل المتعدي ولو سلمنا لكنته أيضاً قد يكون بمعنى المفعول لأنّ المراد من قوله : « أتعبدون ما تنحوتون » أتعبدون المنحوت لا النحت لأنّهم ما عبدوا النحت وإنّما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله : « ما تعملون » المعمول لا العمل فحينئذ لفظة « ما » مع ما بعدها كما يجيء بمعنى المصدر فقد يجيء بمعنى المفعول فكان حمل الآية هنا على المفعول أولى لأنّ الآية بيان تزيف مذهبهم في عبادة الأصنام .

وبالجملة لما أورد إبراهيم عليهم هذه الحجّة القويّة وعجزوا عن الجواب عدلوا إلى طريق الإيذاء [فقالوا ابنوا له بنياناً] وكيفيّة ذلك البنيان لا يدلّ عليها لفظ القرآن قال ابن عباس : بنوا حائطاً من حجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً و عرضه عشرون ذراعاً وملؤه ناراً فطرحوه فيها فذلك قوله تعالى : [فآلقوه في الجحيم] أي جحيم ذلك البنيان والجحيم النار العظيمة والألف واللام في « الجحيم » يدلّ على النهاية .

[فأرادوا به كيداً] و حيلة و تدبيراً في إهلاكه وإحراقه بالنار [فجعلناهم الأسفلين] بأن أهلكناهم وسلمنا إبراهيم ورددنا كيدهم عنه ولما أشرفوا عليه بعد إيقاعه في النار رأوه سالمين و علموا أنّهم مغلوبون فلمّا انقضت هذه الواقعة [قال] إبراهيم : [إنّي ذاهب إلى ربّي سيّدين] أي مهاجرو أهجر ديار الكفار و أذهب إلى حيث أمرني الله بالذهاب إليه وهي الأرض المقدّسة أي يهديني ربّي .

فإن قيل : إنّ إبراهيم جزم في هذه الآية بأنّه تعالى سيّديه ، وإن موسى لم يجزم

به بل قال : « عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل » .

قلنا : العبد إذا تجلّى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود و إذا تجلّى له مقامات كونه غنياً عن العالمين فحينئذ يستحق نفسه فلا يجزم بل لا يظهر إلا الرجاء و الطمع قال بعض أهل التفسير : و هو أوّل من هاجر و معه لوط و سارة إلى الشام و إنهما قال « سيهدين » ترغيباً لمن هاجر معه في الهجرة .

فلما قدم الأرض المقدسة سأل إبراهيم ربّه الولد فقال : [ربّ هب لي من الصالحين] أي أعطني بعض الصالحين يريد الولد لأنّ لفظ الهبة غلب في الولد و إن كان قد جاء في الأخ في قوله : « و هبناله من رحمته أخاه هارون نبياً^(١) » و قال تعالى : « و هبناله إسحاق و يعقوب^(٢) » و « هبنالديحي^(٣) » و في الآية دلالة على أنّ الصلاح أشرف مقامات العباد .

قوله تعالى : فبشرناه بغلام حليم (١٠١) فلما بلغ معه السعي قال يا بنى انى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ما ذا ترى قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين (١٠٢) فلما اسلما و تله للجبین (١٠٣) و نادينه ان يا ابراهيم (١٠٤) قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين (١٠٥) ان هذا لهو البلاء المبين (١٠٦) و فدیناه بذبح عظیم (١٠٧) و تركنا عليه فى الاخرين (١٠٨) سلام على ابراهيم (١٠٩) كذلك نجزي المحسنين (١١٠) انه من عبادنا المؤمنين (١١١) و بشرناه باسحق نبيا من الصالحين (١١٢) و باركنا عليه و على اسحق و من ذريتهما محسن و ظالم لنفسه مبين (١١٣) .

المعنى : أخبر سبحانه أنّه استجاب لإبراهيم بقوله : [فبشرناه] بابت و قور ، و الحليم الذي لا يعجل الأمر قبل وقته مع القدرة عليه أو الذي لا يعجل بالعقوبة . [فلما] أدرك و [بلغ] الحد الذي يقدر فيه على السعي أي شبّ و بلغ الابن إلى أن يتصرف و يمشي معه و يعينه و كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة و قيل : المراد من السعي العمل لله و العبادة و النسك و الفاء في قوله : « فلما بلغ » فصيحة معربة

(١) مريم : ٥٣ .

(٢-٣) الانبياء : ٧٢ ، ٩٠ .

عن مقدّر حذف لعدم الحاجة إلى التصريح به لاستحالة التخلف بعد البشارة [قال يا بني
إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى] ومعنى «رأى» في الكلام على خمسة
أوجه : أحدها أبصر ، والثاني علم ؛ نحو رأيت زيدا فاضلاً و الثالث : بمعنى ظنّ كقوله :
«إنهم يرونه بعيداً و نراه قريباً» . و الرابع : اعتقد نحو قوله :

وإنّا لقوم معانرى القتل سبّة * إذا مارأته عامر وسلول

والخامس بمعنى الرأي نحو رأيت هذا الرأي وأما رأيت في المنام فمن رؤية البصر .
فمعنى الآية إنّ إبراهيم قال لابنه : إني أبصرت في المنام رؤياً تأويلها الأمر
بذبحك فانظر ما الذي تراه وأي شيء ترى من الرأي ولا يجوز أن يكون ترى ههنا
بمعنى تبصر لأنّه لم يشر إلى شيء يبصر بالعين ولا يجوز أن يكون بمعنى علم أو
ظنّ أو اعتقد لأنّ هذه الأشياء تتعدّى إلى مفعولين وليس هنا إلّا مفعول واحد مع
استحالة المعنى فلم يبق إلّا أن يكون من الرأي .

وقيل : إنّ الله تعالى أوحى إلى إبراهيم في حال اليقظة بأن يمضي ما يأمره به
في حال نومه من حيث إنّ منامات الأنبياء لا تكون إلّا صحيحة ولو لم يأمر بذلك في حال
اليقظة لما كان يجوز أن يعمل على ما يراه في المنام . وقال سعيد بن جبیر عن ابن عباس :
منامات الأنبياء وحي وقال قتادة : رؤيا الأنبياء حقّ إذا رأوا شيئاً فعلوه .

وقال أبو مسلم : رؤيا الأنبياء مع أنّ جميعها صحيحة ضربان أحدهما أن يأتي
الشيء كما رأوه ومنه قوله : ولقد صدّق الله رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخلن المسجد
الحرام^(١) الآية ، والآخر أن يكون عبارة عن خلاف الظاهر ممّا رأوه في المنام وذلك كرؤيا
يوسف الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين وكان رؤيا إبراهيم من هذا القبيل
لكنّه لم يأمن أن يكون ما رآه ممّا يلزم العمل به على الحقيقة .

وروي أنّه ﷺ رأى ليلة التروية في منامه كأنّ قائلاً يقول له إنّ الله يأمرك
بذبح ابنك . وقيل : إنّ إبراهيم حين بشر بغلام حلیم قال : هو إذاً لله ذبيح فقيل :

لا إبراهيم قد نذرت نذراً فف بنذرك فلماً أصبح قال إبراهيم : « يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ » .

و بالجمله بعد أن رأى ليلة التروية ذلك المنام وأصبح تروى في ذلك المنام عن الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أمن الشيطان ؟ فمن ثم سمي « يوم التروية » فلماً أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله فسمي « عرفة » ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم نحره فسمي « يوم النحر » .

فإن قيل : إيمان يقال : إنه ثبت بالدليل عند الأنبياء أن كل ما رآه في المنام فهو حق حجة أولم يثبت ذلك بالدليل عندهم فإن كان الأول فلم راجع الولد في هذه الواقعة بل كان عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور وأن لا يراجع الولد فيه وأن لا يقول له : « فانظر ماذا ترى » وأن لا يوقف العمل إلى أن يقوله له الولد : « افعل ما تؤمر »^(١) ، ثم إذا ثبت له ما رأى في المنام حجة لم يكن إلى هذه التروية والتفكير حاجة وإن كان الثاني وهو عدم الثبوت فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الولد بمجرد رؤيائه يدل الدليل على كونها حجة ؟

ويمكن الجواب أنه لا يبعد أنه كان عند الرؤيا متردداً فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحي الصريح .

واختلفوا في أن هذا الذبيح من هو فقيل : إنه إسحاق وهذا قول علي عليه السلام وعمر بن الخطاب بن عبدالمطلب وابن مسعود وكعب الأحمار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهري والسدي ومقاتل^(٢) وقيل إنه إسماعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والكلبي .

و احتج القائلون بأنه إسماعيل أن رسول الله ﷺ قال : أنا ابن الذبيحين فقال له أعرابي : يا ابن الذبيحين فتبسّم فسئل عن ذلك فقال : إن عبدالمطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله ثلثين سهلاً الله لها أمرها ليذبحن أحد ولده فخرج السهم على عبد الله فمنعه

(١) الوالد إنما يكون ولياً على ولده لا مالكا لدمه وروحه والقربان يكون من ماله لا من مال غيره إلا إذا أجاز له الولد ذلك لوالده والا فهو قتل نفس محرم لأقربان .

(٢) كذا في تفسير الامام الرازي .

أخواله و قالوا له : افد ابنك بمائة من الإبل ففداء بمائة من الإبل و الذبيح الثاني إسماعيل .

الحجة الثانية عن الأصمعي أنه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعي أين عقلك ومتى كان إسحاق بمكة وإتما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحصر بمكة .

الحجة الثالثة أن الله وصف إسماعيل بالصبر دون إسحاق في قوله : « وإسماعيل واليسع وذالكفل كل من الصابرين » وهو صبره على الذبيح ووصفه أيضاً بصدق الوعد في قوله : « إنه كان صادق الوعد ^(١) » لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبيح فوفى به .
الحجة الرابعة الأخبار الكثيرة في تعليق قرن الكبش بالكعبة فكان الذبيح بمكة ولو كان الذبيح إسحاق لكان الذبيح بالشام ^(٢) .

واحتج من قال : إن ذلك الذبيح إسحاق بوجهين : الوجه الأول أن أول الآية وآخرها يدل على ذلك أما أولها فإنه تعالى حكى عن إبراهيم قبل هذه الآية أن إبراهيم قال : « إني ذاهب إلى ربي سيهدين » أجمعوا على أن المراد منها مهاجرته إلى الشام ثم قال : « فبشرناه بغلام حليم » فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا هو إسحاق ثم قال بعده : فلما بلغ معه السعي و ذلك يقتضي أن يكون المراد من هذه الغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام .

الوجه الثاني ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف : من يعقوب إسرائيل نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله .

و بالجملة فالذين قالوا : الذبيح إسماعيل كان الذبيح بمنى والذين قالوا : إسحاق قالوا : هو بيت المقدس .

(١) مريم : ٥٤ و انما يصح هذا اذا كان المراد بإسماعيل في الآية إسماعيل بن

إبراهيم فراجع .

(٢) و قد استدلل على ذلك بوجهين آخرين : الأول انه قال رب هب لي من الصالحين و انما يصلح ذلك ممن لا ولد له ابدا فاذا هو إسماعيل لانه اول اولاده و الثاني انه تعالى بشره بإسحق و من وراء إسحق يعقوب فكيف بأمرة بذبح إسحق ولم يولد بعد يعقوب ؟

واعلم أن الله لا يأمر إلا بما يكون حسناً في ذاته ولا ينهى إلا عما يكون قبيحاً في ذاته وقد يكون الأمر بالشيء تارة يحسن لكون المأمور به حسناً وتارة لأجل أن ذلك الأمر يفيد صحة مصلحة من المصالح وإن لم يكن المأمور به في ذاته حسناً ألا ترى أن السيد إذا أراد أن يروض عبده فإنه يقول له : إذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلاني ويكون ذلك من الأفعال الشاقة ويكون مقصود السيد من ذلك الأمر ليس أن يأتي ذلك العبد بذلك الفعل لأن ذلك الفعل قد يكون المولى لا يرضى بوقوعه بل الغرض من الأمر الشاق أن يوطن العبد نفسه على الانقياد والطاعة فإذا أطاع وفعل مقدمات التكليف رفع عنه عند ذلك التكليف .

قال الرازي : واحتجوا بهذه الآية على أن الله قديماً بما لا يريد وقوعه والدليل عليه أنه سبحانه أمر بالذبح وما أراد وقوعه أمّا أنه أمر بالذبح فلما تقدم في تفسير الآية وحيث لم يقع لأن الله نهى عن ذلك الذبح والنهي عن الشيء يدل على أن الناهي لا يريد وقوعه فثبت أنه تعالى أمر بالذبح و ثبت أنه ما أراده وذلك يدل على أن الأمر قد يوجد بدون الإرادة انتهى .

قوله تعالى : [قال] ابنه : [ياأبت أفعل ما تؤمر] أي ما أمرت به [ستجدني إن شاء الله من الصابرين] أي ستصادقني بحسن توفيقه ممن يصبر على الشدائد في جنب الله و يسلم لأمره .

[فلما أسلما] أي استسلما الأمر وأطاعاه [و تله للجبين] أي صرعه على جبينه وقيل : كبته على جبينه وهذا خطأ لأن الجبين غير الجبهة و للوجه جبينان و الجبهة بينهما وإنما وضع جبينه على الأرض لئلا يرى وجهه فيلحقه رقّة الآباء^(١) . و روي أن إسماعيل قال : اذبحني و أنا ساجد لئلا تنظر إلى وجهي فعسى أن ترحمني فلا تذبحني .

(١) هذا غير صحيح و ان نقل عن ابن عباس ورضي به كثيرون لانه قد يقال الجبين للجبهة ايضاً ولان القربان يصلح ان يكون وجهه و جبهته الى الكعبة فيصير مصروعاً على جبينه الايسر ولذلك قال : وتله للجبين .

[و نادينا أن يا إبراهيم] الواو زائدة .

قال المفسرون : لما أضجعه للذبح نودي من الجبل [يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا] فسعد إبراهيم سعادة عظيمة و تبيين إطاعتها و استحقا الأجر العظيم ونبوة ولده .
حكى في قصة الذبيح أن إبراهيم لما أراد ذبحه قال : يا بني خذ الجبل و المدينة و انطلق بنا إلى الشعب نحتطب فلما توسط شعب بئر (بتقديم الثاء المثلثة) أخبره بما أمر به فقال : يا أبت اشد رباطي كي لأضطرب واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فتراها أمي فتحزن و اشتد شغرتك وأسرع إمرارها على حلقي ليكون أهون فإن الموت شديد و افرء على أمي سلامي و إن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه قد يكون أسهل لها و أسلى فقال إبراهيم : نعم العون أنت بني على أمر الله ثم أقبل عليه يقتله و قد ربط وهما يبيكان ثم وضع السكين على حلقه فقال حينئذ : كبني على وجهي أخاف أن تدر كك رقة تحول بينك و بين أمر الله ففعل إبراهيم ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين و نودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا أي فعلت ما أمرت به في الرؤيا .

[إننا كذلك نجزي المحسنين] أي إننا كما جزينا إبراهيم بالعفو عن ذبح ابنه نجزي من سلك طريقتهما في الإحسان و الانقياد لأمر الله .

[إن هذا لهو البلاء المبين] أي إن هذا لهو الامتحان الظاهر و الاختبار الشديد و اختلف العلماء في الكبش الذي جعله الله فداءً عن إسماعيل فقيل : إنه الكبش الذي تقرب به هابيل إلى الله قبله و كان يرعى في الجنة حتى فدى الله به إسماعيل و قال آخرون : أرسل الله كبشاً من الجنة قد رعى أربعين خريفاً و قال السدي : نودي إبراهيم فالتفت فإذا هو كبش أو وعل أملح انحط من الجبل فقام عند إبراهيم فأخذه فذبحه و خلى ابنه ثم اعتنق ابنه وقال : يا بني اليوم وهبت لي .

[و فديناه بذبح عظيم] بما يذبح بدله وهو الكبش العظيم الجنة أو القدر لأنه فدى الله به نبياً ابن نبي وأي نبي الذي من نسله سيد المرسلين واحتج القائلون بجواز النسخ قبل العمل بالمأمور به بهذه الآية .

[و تر كنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم] مضي تفسيره [و بار كنا عليه وعلى

ج ٩ (الجزء الثالث والعشرون - سورة الصافات ٣٧ - آية ١١٤ - ١٢٢) - ١٣١ -

إسحاق و من ذرّيتهما محسن و ظالم لنفسه مبين [أي جعلنا لإبراهيم و إسحاق من الخير و البركة و يجوز أن يكون المراد كثرة ولدتهما و بقائهم قرناً بعد قرن إلى أن تقوم الساعة .

[ومن ذرّيتهما] أي من أولاد إبراهيم وإسحاق محسن بالإيمان و الطاعة وبعضهم ظالم لنفسه بالكفر والمعاصي يسن الظلم وفي الآية دلالة على أن فضائل الآباء لا يستلزم فضيلة الأبناء ولا تصير هذه الشبهة سبباً لمفاخرة اليهود .

قوله تعالى : و لقد مننا على موسى و هرون (١١٤) و نجيناهما و قومهما من الكرب العظيم (١١٥) و نصرناهم فكانوا هم الغالبين (١١٦) و آتيناهما الكتاب المستبين (١١٧) و هديناهما الصراط المستقيم (١١٨) و تركنا عليهما في الآخرين (١١٩) سلام على موسى و هرون (١٢٠) انا كذلك نجزي المحسنين (١٢١) انهما من عبادنا المؤمنين (١٢٢) .

ثم عطف سبحانه على ما تقدّم بذكر موسى و هارون فقال : [ولقد منّنا] أي و لقد أنعمنا عليهما نعماً جليّة .

و اعلم أن وجوه الأنعام كثيرة إلا أنّها محصورة في نوعين : إيصال المنافع إليه و دفع المضار عنه ، و ذكر سبحانه القسمين : فقوله : «ولقد منّنا على موسى و هارون» إشارة إلى إيصال المنافع إليهما و قوله : « و نجّيناهما و قومهما من الكرب العظيم » إشارة إلى دفع المضار عنهما . و المنافع على قسمين منافع الدنيا و منافع الدين أمّا منافع الدنيا فالوجود و العقل و الصحة و الكمال في ذات كلّ واحد منهما و أمّا منافع الدين فالعلم و الطاعة و أعلى درجاتها النبوة و المعجزات و قد أدّينا كلّ هذه الأمور و أمّا القسم الثاني و هو دفع الضرر و هو المراد بقوله : [و نجّيناهما و قومهما من الكرب العظيم] و المراد من « الكرب العظيم » إيذاء فرعون يني إسرائيل و نجاتهم منه بالفرق .

[و نصرناهم و كانوا هم الغالبين] أي نصرنا موسى و هارون و قومهما و هم بنو إسرائيل و غلبوا آل فرعون بظهور الحجّة و في آخر الأمر بالدولة و الرفعة و استيراثهم ملك فرعون .

[و آتينا هما الكتاب المستبين] و المراد منه التوراة و هو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التي يحتاجون إليها في مصالح الدين و الدنيا [و هديناهما الصراط المستقيم] أي دللناهما على طريق الحق .

[و تركنا عليهما في الآخرين] و هم أمة محمد ﷺ خلفنا لهما الثناء الحسن و الذكر الجميل أي أبقينا فيما بين الأمم الآخرين هذا الثناء و هو قولهم : سلام على موسى و هارون و يذكرونهما بهذا الثناء الجميل و يجوز أن يكون قوله : « سلام على موسى و هارون » هو كلام الله و ثناؤه سبحانه عليهما بأن قلنا : « سلام على موسى و هارون » . [إنا كذلك نجزي المحسنين] و مثل ذلك نفعل بالمعطين [إنهما من عبادنا المؤمنين] المصدقين بجميع ما أوجبه الله عليهم العاملين بذلك .

قوله تعالى : و ان الياس لمن المرسلين (١٢٣) اذ قال لقومه الا تتقون (١٢٤) اتدعون بعلا و تذرون احسن الخالقين (١٢٥) الله ربكم و رب آبائكم الاولين (١٢٦) فكذبوه فانهم لمحضرون (١٢٧) الا عباد الله المخلصين (١٢٨) و تركنا عليه في الآخرين (١٢٩) سلام على الياسين (١٣٠) انا كذلك نجزي المحسنين (١٣١) انه من عبادنا المؤمنين (١٣٢) .

قرأ ابن عامر «وإن إلياس» بغير همزة على وصف الألف والباءون بالهمزة وقطع الألف . و اختلف في إلياس فقيل : هو إدريس و قيل : هو إلياس بن ياسين من سبط هارون أخي موسى بعث بعده و قيل : إدريس لأنه قرى مكانه إدريس و إدراش و قرى إيليس . و عن ابن عباس و محمد بن إسحاق وغيرهما قالوا : إنه بعث بعد حزقيل لما عظمت الأحداث في بني إسرائيل وكان يوشع لما فتح الشام بوأها بني إسرائيل و قسمها بينهم فأحل سبط منهم بعلبك و هم سبط إلياس بعث فيهم نبياً فأجابه الملك ثم إن امرأته حملته على أن ارتد من دينه و خالف إلياس و طلبه الملك ليقتله فهرب إلى الجبال و البراري و كان الملك اسمه حب كان مؤمناً فأغوته امرأته فصار يعبد الأصنام و كان لامرأته سبعون ولداً منه و من غيره و كان بجانب دارها بستان لعابد فطمعت فيه فقتلت العابد و تملكت البستان فأخبرها إلياس بهلاكها و هلاك زوجها فأهلكهما الله .

و قيل : إنه استخلف اليسع على بني إسرائيل ورفع الله من بين أظهرهم و قطع عنه لذة الطعام و الشراب و كساه الريش فصار إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً وسلطه الله على الملك و قومه عدواً لهم فقتل الملك و امرأته و بعث الله اليسع رسولاً فآمنت به بنو إسرائيل و عظموه .

و قيل : إن إلياس صاحب البراري و الخضر صاحب الجزائر و يجتمعان في كل يوم عرفة بعرفات .

و بالجملة ثم قال سبحانه حكاية عنه : [إن قال لقومه ألا تتقون] أي ألا تخافون الله و تعبدون غيره و تعصونه ثم ذكر القبيح الذي لأجله خوفهم فقال : [أمدعون بعلاً و تذرون أحسن الخالقين] و بعل اسم صنم كان لهم مثل « مناة و هبل » و كان من ذهب طوله عشرون ذراعاً و له أربعة أوجه و فتنوا به و عظموه حتى عيّنوا له أربع مائة سادن و جعلوهم أنبياء .

و قيل : كان الشيطان يدخل في جوف بعل و يتكلم بشريعة الضلالة و السدنة يحفظونها و يعلمونها الناس و به سميت مدينتهم لكن هذا القول و هو دخول الشيطان في جوف الصنم و تكلمه بالضلال قول غير مقبول لأنه إن صح هذه القدرة من الشيطان يرتفع الأمان عن المعجزات حينئذ .

[و تذرون] و تتركون عبادة [أحسن الخالقين] فرضاً بزعمكم ولما عابهم على عبادة غير الله صرح بنفي الشركاء فقال : [الله ربكم و رب آبائكم الأولين] و قرئ « الله ربكم و رب آبائكم » كلها بالنصب على البدل من قوله : « أحسن الخالقين » .

[فكذبوه] أي كذبوا قوله قومه : [فإني أنهم لمحضرون] النار غداً ثم استثنى سبحانه منهم بقوله : [إلا عباد الله المخلصين] وذلك لأنهم ما كذبوه بكليتهم بل كان فيهم من كان يعبد الله مخلصاً فإنيهم لا يحضرون .

ثم قال : [و تركنا عليه في الآخرين سلام على آل ياسين] أي أبقينا له الذكر الحسن و « سلام » في هذه الآية كلها مبتدأ و الجار والمجرور بعده خبره و الجملة من المبتدأ و الخبر في موضع المفعول لقوله « و تركنا » و لو أعمل « تركنا » لفظاً لقال :

١٣٤- (الجزء الثالث والعشرون - سورة الصافات ٣٧ - آية ١٣٣ - ١٤٨) ج ٩

«سلاماً» بالنصب و يجوز أن يكون التقدير «و تركنا عليه في الآخرين» الباقين بعده
الثناء فحذف «الثناء» و هو المفعول ثم ابتداء فقال : «سلام» .

و بالجملة في كلمة «آل ياسين» أقوال قال ابن عباس : آل ياسين آل محمد عليه السلام
و ياسين من أسمائه و من قرأ «إلياسين» بالوصل أراد «إلياس» و من تبعه من مؤمن
قومه و قيل : ياسين اسم السورة فكأنه قال : سلام على من آمن بكتاب الله و القرآن
الذي هو يس قال أبو علي : من قرأ «آل يس» فحجته أنها في المصحف مفصلة من
«يس» و في فصلها دلالة على أن آل هو الذي تصغيره أهيل .

قوله تعالى : وان لو طالمن المرسلين (١٣٣) اذ نجيناه و أهله اجمعين
(١٣٤) الاعجوزا في الغابرين (١٣٥) ثم دمرنا الآخرين (١٣٦) و انكم لتمرون
عليهم مصبحين (١٣٧) و بالليل أفلا تعقلون (١٣٨) و ان يونس لمن المرسلين
(١٣٩) اذ أبق الى الفلك المشحون (١٤٠) فساهم فكان من المدحضين (١٤١)
فالتقمه الحوت و هو مليم (١٤٢) فلولاً أنه كان من المصبحين (١٤٣) للبث
في بطنه الى يوم يبعثون (١٤٤) فنبذناه بالعراء و هو سقيم (١٤٥) و انبتنا
عليه شجرة من يقطين (١٤٦) و ارسلناه الى مائة ألف أو يزيدون (١٤٧) فآمنوا
فمتعناهم الى حين (١٤٨) .

ثم عطف على ما تقدم أي إن لوطاً رسول من جملة المرسلين الذين أرسلهم الله إلى
خلقه داعياً لهم على طاعة الله [إذ نجينا و أهله أجمعين] و الظرف متعلق بمحذوف
تقديره : اذ كر يا محمد إذ نجينا لوطاً و نجيناه من آمن معه من قومه من عذاب الاستئصال
[إلا عجوزاً في الغابرين] أي في الباقين الذين أهلكوا استثنى من أهله و قومه الناجين
امراته فأتى بها من الهالكين و «الغابر» في اللغة الباقي قليلاً بعد ما مضى منه و منه الغبار
لأنه يبقى بعد ذهاب التراب قليلاً .

[ثم دمرنا الآخرين] أي أهلكناهم .

[و إنكم لتمرون عليهم مصبحين و بالليل] هذا خطاب لمشركي العرب أي
تمرون في ذهابكم و مجيئكم إلى الشام على منازلهم و قراهم بالنهار و بالليل و ذلك لأن
القوم كانوا يسافرون إلى الشام و المسافر في أكثر الأسفار إنما يمشي في الليل و في

أول النهار فلهذا السبب عيّن هذين الوقتين .

ثم قال : [أفلا تعقلون] حتى تتعقلون و تعتبرون مما نزل بهم فتجتنبوا ما كانوا يفعلونه من الكفر و الضلالة و الوجه في تكرار قصص الأنبياء التشويق إلى ما كانوا عليه من مكارم الأخلاق و صرف الخلق عما كان عليه أهل المعصية و مقاييح الأفعال .

قوله تعالى : [وإن يونس لمن المرسلين] واذكروه [إذ أبق إلى الفلك المشحون] أي فرّ من قومه إلى السفينة المملوءة من الناس و الأحمال و كان فراره خوفاً من أن ينزل العذاب بهم و هو مقيم فيهم و ذلك لأنه أحسّ أنزال الإهلاك و العذاب بقومه الذين كذبوه فظنّ أنه نازل لا محالة فلا جل هذا الظنّ لم يصبر على دعائهم فكان الأولى عليه أن يبقى مع قومه و يستمرّ على دعائهم و أنه أقدم على أمر ظهرت إمارته و إن كان الأولى في مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظنّ ثم انكشف ليونس من بعد أنه أخطأ في ذلك الظنّ لأنّه ظهر الإيمان من قومه .

و ذكروا وجهاً آخر و هو أن يونس كان وعد قومه بالعذاب . فلمّا تأخّر عنهم العذاب بسبب توبتهم خرج كالمستور عنهم و الخجلان منهم بقصد البحر و ركب السفينة فذلك قوله : « إذ أبق إلى الفلك » و تمام الكلام في مشكلات هذه الآية مرّ في قوله : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً » الآية ^(١) في تفسير سورة يونس فليراجع هناك و أصل الهرب من السيد لكن لما كان هرب يونس من قومه بغير إذن ربه طناً منه أن الهرب أمرٌ حسن ، حسن إطلاقه عليه .

قال ابن عباس في قصّة يونس : إنّه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم الملك وسبى منهم تسعة أسباط و نصفاً و بقي سبطان و نصف و كان الله أوحى إلى بني إسرائيل إذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعوني أستجب لكم فلمّا نسوا ذلك وأُسرُوا أوحى الله بعد إلى نبيّ من أنبياء بني إسرائيل أن اذهب إلى ملك هؤلاء القوم وقل له : حتى يطلب من الله أن يبعث إلى بني إسرائيل نبيّاً فاختر الملك يونس لقوّته و أمّانته قال يونس : الله أمرك بهذا قال : لا ولكن اُمرت أن أبعث قوياً أميناً و أنت كذلك فقال يونس : و في

بني إسرائيل من هو أقوى مني فلم لا تبعته فألح الملك عليه فغضب يونس منه و خرج حتى أتى البحر أي بحر الروم و وجد سفينة مشحونة فحملوه فيها فلما دخلت السفينة لجة البحر أشرفت على الغرق فقال الملاحون : إن فيكم عاصياً و إلا لم يحصل في السفينة ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر وقال التجار : قد جرّ بنا مثل هذا فإذا رأينا ناه نترع فمن خرج سهمه نعرفه فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فتقارعوا فخرجت القرعة باسم يونس فقال التجار نحن أولى من نبي الله ثم عادوا ثانياً و ثالثاً يقرعون فيخرج سهم يونس فقال يونس : يا هؤلاء أنا الآبق و تلقف في كسائه و رمى بنفسه في البحر فابتلعه السمكة فأوحى الله إلى الحوت إنني ما جعلته رزقاً لك لا تكسر منه عظماً و لا تقطع له وصلاً .

فذلك قوله تعالى : [فساهم فكان من المدحضين] أي من المغلوبيين بالقرعة وأصل « الدحض » المزلق عن مقام الظفر .

[فالتقمة الحوت و هو مليم] أي فابتلعه من « اللقمة » و هو مليم أي داخل في الملامة أو آت بما يلام عليه أو مليم نفسه و قرىء « مليم » بالفتح بناء من ليم مثل مشيب في مشوب و هذا اللوم لوم العتاب لالوم العقاب على خروجه من قومه و عندنا الإمامية أن ذلك وقع من يونس تركاً للمندوب و قد يلام الإنسان على ترك المندوب .
و اختلف في مدة لبثه في بطن الحوت فقيل : ثلاثة أيام وقيل : سبعة أيام و قيل : عشرين يوماً وقيل : أربعين يوماً .

[فلولاً أنه كان المستبحين] أي كان تسيبجه أنه كان يقول : « لا إله إلا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين » وقيل : كان من المصلين في حال الرجاء فنجاه الله عند البلاء وقيل : كان ينزه الله دائماً عما لا يليق به [للبت في بطنه إلى يوم يبعثون] أي كان بطن الحوت قبره إلى يوم القيامة .

[فنبذناه بالعراء و هو سقيم] أي فطر حناه بالمكن العاري عن النبات و الشجر وقذفه الحوت بأمر الله من جوفه على وجه الساحل و هو مريض حين ألقاه الحوت و خرج من بطن الحوت كهيئة فرخ ليس عليه ريش .

[و أنبتنا عليه شجرة من يقطين] وهو القرع و اليقطين يقال لكل نبت ينبسط على وجه الأرض ولا ساق له فكان يونس يستظل بها و يأكل من ثمرها حتى تشدّ دقيل : إن السمكة أخرجته إلى نيل مصر ثم إلى بحر فارس ثم إلى بحر البطائح ثم دخله و رمته بأرض نصيبين ثم إن الأرضة أكلت الشجرة فخرّت من أصلها فحزن يونس لذلك حزناً شديداً فقال : يا رب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس و الريح و آكل من ثمرها و قد سقطت فقيل له : يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة واقتلعت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم انطلق إليهم فانطلق إليهم وذلك قوله : [و أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون] قيل : إن الله أرسله إلى نينوى من أرض الموصل و كانت رسالته هذه بعد ما نبذ الحوت فعلى هذا يجوز أن يكون أرسل إلى قوم بعد قوم أو أن يكون رسالاً إلى الأولين بشريعة فآمنوا بها .

وقيل : في معنى «أو يزيدون» وجوهاً : أحدها أن يكون على طريق الإبهام على المخاطبين كأنه قال : أرسلناه إلى إحدى العديتين و ثانيها أن «أو» للتخيير كأن الرأي خير بين أن يقول : مائة ألف أو يزيدون أي كانوا عدداً لو نظر إليهم الناظر لقال : هم مائة ألف أو يزيدون و ثالثها أن «أو» بمعنى الواو كأنه قال : و يزيدون و قيل : معنى «أو» بل يزيدون واختلف في الزيادة على مائة ألف فقيل : عشرون ألفاً عن ابن عباس وقيل : بضع وثلاثون ألفاً وقيل : سبعون ألفاً .

[فآمنوا فمستعناهم إلى حين] حكى سبحانه عنهم أنهم آمنوا بالله وراجعوا التوبة فكشف عنهم العذاب ومنتعوا بالمنافع واللذات إلى انقضاء آجالهم .

قوله تعالى : فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون (١٤٩) أم خلقنا الملائكة أنا واهم شاهدون (١٥٠) إلا أنهم من افكهم ليقولون (١٥١) ولد الله وانهم لكاذبون (١٥٢) أصطفى البنات على البنين (١٥٣) مالكم كيف تحكمون (١٥٤) أفلا تذكرون (١٥٥) أم لكم سلطان مبين (١٥٦) فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين (١٥٧) وجعلوا بينه وبين الجنة سباً ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون (١٥٨) سبحانه الله عما يصفون (١٥٩) إلا عباد الله المخلصين (١٦٠) .

قرىء « اصطفى » بكسر الهمزة وبفتح الهمزة .

ثم عاد الكلام إلى الرد على مشركي العرب فقال سبحانه :

[فاستفتهم] أي سلمهم واطلب الحكم منهم في هذه القصة [أليبتك البنات ولهم البنون] أي كيف أضفتم البنات إلى الله واخترتم لأنفسكم البنين وذلك لأنهم كانوا يقولون : إن الملائكة بنات الله على وجه الاصطفاء لأعلى وجه الولادة .

[أم خلقنا الملائكة إناثاً] أي بل خلقنا الملائكة إناثاً [وهم شاهدون] أي حاضرون أي كيف جعلوهم إناثاً ولهم يشهدوا خلقهم والغرض من هذا البيان تبكيثهم على كفرهم حيث جعلوا البنات اللاتي هن أوضع الجنسين لله ولهم البنون الذين أرفع الجنسين .

ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا : إن فريشاً وأجناس العرب قالوا : الملائكة بنات الله مع أنهم كانوا يستنكفون من البنت والشيء الذي يستنكف منه المخلوق كيف يشبونه للخالق على أن إثبات الولد لله كفر ثم كيف أضافوا الأنوثة للملائكة مع أن الملائكة من أشرف الخلائق وأبعدهم من صفات الأجسام ورذائل الطباع والأنوثة من أخس صفات الحيوان .

ثم أخبر سبحانه عن كذبهم فقال : [ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله] حين زعموا أن الملائكة بنات الله [وإنهم لكاذبون] في قولهم : « اصطفى البنات على البنين » دخلت همزة الاستفهام على همزة الوصل فسقطت همزة الوصل ومثله قول ذي الرمة :

استحدث الركب عن أشياعهم خبراً * أمراجع القلب من أطرابه طرب
وحاصل المعنى كيف يختار الله سبحانه الأذن على الأعلى مع كونه حكيماً مالكاً .

ثم وبخهم فقال : [مالكم كيف تحكمون] بهذا الحكم [أفلا تدكرون] وتتعظون فتنتهون عن مثل هذا القول السخيف .

[أم لكم سلطان مبين] أي حجة وبينة على ما تقولون وهذا كله إنكار ورد بصورة الاستفهام [فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين] أي فأتوا بحجبتكم على هذا الاعتقاد

والمراد أنه لا دليل لكم على ما تقولونه من جهة العقل ولا من جهة السمع .

قوله تعالى : [وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً] رويناه في تفسير قوله : « و جعلوا لله شركاء الجن »^(١) ، إن قوماً من الزنادقة كانوا يقولون : إن الله وإبليس أخوان فالله الأخ الكريم الخير وإبليس هو الشرير الخسيس فقوله : « و جعلوا بينه وبين الجنة نسباً » المراد منه هذا المذهب وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان و أهريمن هذا أحد الأقوال في تفسير الآية وحاصل هذا المعنى أن الله خالق الخير والنور والحيوان النافع والشیطان خالق الشر والظلمة والحيوان الضار الموزي .

والقول الثاني في معني الآية على قول المشركين من العرب حيث يقولون : إن الملائكة بنات الله وسمي الملائكة جنّة الاستتارهم عن العيون .
والقول الثالث : إن الله صاهر الجن فحدثت الملائكة . تعالى الله عن هذه الأقوال السخيفة .

والقول الرابع أنهم أشركوا الشيطان في عبادة الله فذلك هو النسب الذي جعلوه بينه وبين الجنة .

[ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون] أي علمت الملائكة أن هؤلاء الذين قالوا هذا القول محضرون في العذاب يوم القيامة .

[سبحان الله عما يصفون] نزهة سبحانه نفسه عما لا يليق به وأضافه إليه [إلا عباد الله المخلصين] استثنى عباده المخلصين عن هذه الأقوال القبيحة السخيفة ومن حضور العذاب .

قوله تعالى : فاتكم وما تعبدون (١٦١) ما أنتم عليه بفاتنين (١٦٢) إلا من هو صال الجحيم (١٦٣) وما منا إلا له مقام معلوم (١٦٤) وأنا لنحن الصافون (١٦٥) وأنا لنحن المبيحون (١٦٦) وإن كانوا ليقولون (١٦٧) لو أن عندنا ذكراً من الأولين (١٦٨) لكنا عباد الله المخلصين (١٦٩) فكفروا به فسوف يعلمون (١٧٠) .

ثم خاطب سبحانه الكفار بأن قال لهم : [فاتكم وما تعبدون] أي إنكم يا

معشر الكفار والذي تعبدونه [ما أنتم عليه بفاتنين] والضمير في « عليه » فيه قولان : أحدهما أنه يعود إلي « ما تعبدون » والتقدير أنكم وما تعبدونه ما أنتم على عبادته بفاتنين أحداً إلا من يصلي الجهم ويحترق بها بسوء اختياره وما أنتم بمضلين أحداً ولا تفقدون على إضلال أحد إلا من سبق في علم الله أنه بسوء اختياره سيكفر ويصلي الجهم والقول الآخر في الضمير من « عليه » أنه يعود إلى الله والتقدير ما أنتم على الله وعلى دينه بمضلين أحداً [إلا من هو صال الجهم] باختياره .

قوله : [وما منّا إلا له مقام معلوم] هذا قول جبرئيل للنبي : أو قول الملائكة وصفوا بأنفسهم بالمبالغة في العبادة والعبودية وذكروا أنهم يصطفون للصلاة والتسبيح والغرض من بيان الآية التنبيه على فساد قول من يقول : إنهم أولاد الله فإنهم يعترفون بالعبودية والعبودية تما في الأولادية .

وذكروا أن لكل منهم مرتبة لا يتجاوزها درجة لا يتعدى عنها بقولهم : [وإنّا لنحن الصافون] أي صافون في أداء الطاعات ومنازل الخدمة وأما درجاتهم في المعارف فبقولهم : [وإنّا لنحن المسبحون] .

قوله : [وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرأ من الأولين] المعنى أن مشركي العرب كانوا يقولون : « لو أن عندنا ذكرأ » أي كتاباً من كتب الأولين الذي نزل عليهم مثل التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله و لما كذبنا كما كذب غيرنا ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب المهيم الذي فاق كل الكتب وهو القرآن .

[فكفروا به] وفي الكلام حذف تقديره فلما أتاهم الكتاب كفروا به [فسوف يعلمون] عاقبة كفرهم .

قوله تعالى : ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين (١٧١) أنهم لهم المنصورون (١٧٢) وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣) فتول عنهم حتى حين (١٧٤) وابصرهم فسوف يبصرون (١٧٥) أفبعذابنا يستعجلون (١٧٦)

فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين (١٧٧) وتول عنهم حتى حين (١٧٨) وابصر فسوف يبصرون (١٧٩) سبحانه رب العزة عما يصفون (١٨٠) وسلام على المرسلين (١٨١) والحمد لله رب العالمين (١٨٢).

المعنى لما هدد الكفار بقوله : « فسوف يعلمون » أردفه بما يقوّي قلب الرسول ﷺ بقوله : [ولقد سبقت كلمتنا] أقسم وذكر لام القسم أي تقدّم في علم الله وحكمه أن المرسلين [لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون] فبيّن أنه سبحانه وعدنيّته بنصرته والدليل عليه قوله تعالى : « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي » (١) ، وأيضاً إن الخير مقتضى بالذات الشرّ مقتضى بالعرض وما بالذات أقوى ممّا بالعرض .

وأما النصرة والغلبة فقدرتكون بالحجة وقدرتكون بالاستيلاء والدولة وقدرتكون بالدوام والثبات فالؤمن وإن صار مغلوباً في بعض الأوقات بسبب أحوال الدنيا لكن مع ذلك فالحقّ بما هو حقّ غالب ولا يلزم أن يقال : فقد قتل بعض الأنبياء وقد ضعف وهزم كثير من المؤمنين فهم مع ذلك غالبون بالسعادة وهؤلاء مغلوبون بالشقاوة بسوء العاقبة . ثمّ قال لنبيّه : [فتولّ عنهم] أي أعرض عن هؤلاء الكفار [حتّى حين] تأمرّك فيه بقتالهم أو إلى يوم الموت وانقضاء مدّة الامهال .

[وأبصرهم فسوف يبصرون] أي أنظرهم فسوف يبصرون العذاب [أبعذابنا يستعجلون] لأنّهم كانوا يقولون : متى هذا التهديد والوعيد الذي توعدنا به فأنزل الله أبعذابنا يطلبون العجالة ؟

[فاذا نزل العذاب] بساحتهم [و بأفنية دورهم كما يستعجلون] فساء صباح المنذرين [أي بسّ الصباح صباح من يحذّر ولم يحذّر . ود الساحة ، معناه الدار وفنائها وكانت العرب تفاجئ أعداءها بالغارات صباحاً فخرج الكلام على عادتهم ولأنّ الله أجرى العادة بتعذيب الأئمّ وقت الصباح كما قال : « إنّ موعدهم الصبح ليس الصبح بقریب » .

[وتولّ عنهم حتّى حين وأبصر فسوف يبصرون] مرّ تفسيره وإنّما كرّر

١٤٢- (الجزء الثالث والعشرون - سورة الصافات ٣٧ - آية ١٧١ - ١٨٢) ج ٩

للتأكيد والاهتمام بشأن التهديد وقيل : إن المراد بأحدهما عذاب الدنيا مثل بدر وأشباهه وبالأخر عذاب الآخرة .

ثم نزه سبحانه نفسه عن وصفهم وبهتانهم فقال : [سبحان ربك رب العزة عما يصفون] أي تنزيهاً لربك مالك العزة يعز من يشاء لا يملك أحد إعزاز أحد سواء [وسلام على المرسلين] أي سلامة وأمان للأنبياء من العذاب والسوء [والحمد لله رب العالمين] أي أحمداً لله الذي هو مالك العالمين (وهو خير معناه الأمر) وأخلصوا الثناء والحمد لله ولا تشر كوا به أحداً فإن النعم كلها منه تعالى .

روى الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام وروى أيضاً مرفوعاً إلى النبي

ﷺ قال : من أراد أن يكتب بالملكيات الأوفى من الأجر يوم

القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه : سبحان ربك رب

العزة عما يصفون وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين .

تمت السورة بعون الله

سورة ص

✽ (مكية) ✽

فضلها أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال : من قرأ سورة ص أُعطي من الأجر بوزن كل جبل سخر الله لداود حسنات وعصمه الله أن يصرّ على ذنب صغيراً أو كبيراً .

وروى العياشي عن أبي جعفر عليه السلام قال : من قرأ سورة ص في ليلة الجمعة أُعطي من خير الدنيا والآخرة ما لم يعط أحد من الناس إلا نبي مرسل أو ملك مقرب وأدخله الله الجنة وكل من أحب من أهل بيته حتى خادمه الذي يخدمه وإن كان ليس في حدّ عياله ولا في حدّ من يشفع له وآمنه الله يوم الفزع الأكبر .

بسم الله الرحمن الرحيم

ص والقرآن ذي الذكر (١) بل الذين كفروا في عزة وشقاق (٢)
 كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا وولات حين مناص (٣) وعجبوا أن
 جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب (٤) اجعل الآلهة
 الها واحدا ان هذا لشيء عجاب (٥).

النزول : قال المفسرون : إن أشراف فريش وهم خمسة وعشرون منهم
 الوليد بن مغيرة وهو أكبرهم وأبوجهل وأبي وأمية ابن خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة
 والنضر بن الحارث أتوا أباطال وقالوا : أنت شيخنا وكبيرنا وقد أتيناك لتقضي بيننا
 وبين ابن أخيك فإنه سفه أحلامنا و شتم آلهتنا فدعا أبوطالب رسول الله ﷺ وقال :
 يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك فقال : ماذا يسألونني قالوا : دعنا وآلهتنا ندعك وإلهك
 فقال ﷺ : أعطونني كلمة واحدة تملكون العرب والعجم فقال أبوجهل : لله أبوك
 نعطيك ذلك وعشرة أمهات فقال : قولوا : لا إله إلا الله فقاموا وقالوا : « أجعل الآلهة الها
 واحدا » فنزلت هذه الآيات .

وروي أن النبي ﷺ استعبر ثم قال : يا عم والله لو وضعت الشمس في يميني
 والقمر في شمالي ماترت هذا القول حتى أنفذته أو أقتل دونه فقال له أبوطالب : امض
 لأمرك فوالله لا أخذك أبداً .

قوله تعالى : [ص] اختلفوا في معناه فقيل : هو اسم للسورة وقيل فيه ما قيل في
 فواتح السور وقد شرح بيانه في سورة البقرة مثل أن يكون « ص » اسماً من أسماء الله
 التي أولها صاد ومعناه صادق الوعد وصانع المصنوعات وصمد أو معناه صدق عهده فيما أخبر
 به عن الله أو المعنى صد الكفار عن قبول هذا الدين كما قال : [الذين كفروا

وصدّوا عن سبيل الله^(١)، وقيل: معناه أن القرآن مرّكب من هذه الحروف وأتم قادرون عليها و لستم قادرين على معارضة القرآن فدلّ ذلك على أن القرآن معجز، الخامس من المعاني أن يكون «صاد» بالكسر من الدال من المصادّة وهي المعارضة ومنها الصدى وهو ما يعارض صوتك في الأما كن الخالية الصلبة فحينئذ نضعناه: عارض القرآن و واجهه بعملك فاعمل بأوامره و انته عن نواهيه و إذا كان اسم للسورة فالتقدير: هذه السورة صاد و إذا كان المراد من «ص» صدق فالحصاد هو المقسم عليه و قوله: [و القرآن ذي الذكر] هو القسم فالمعنى و القرآن ذي الذكر أن تجدّاً لصادق فيما يخبر عن ربه .

و المراد من قوله: «ذي الذكر» أي ذي البيان الذي يؤدّي إلى الحقّ و يهدي إلى الرشداً لأنّ فيه ذكر ما يحتاج الإنسان إليه من أمور معاشه و معاده و ذكر الأنبياء و أخبار الأمم و البعث و الأحكام و قيل: المراد من «الذكر» الشرف و يؤيّد قوله: «وإنّه لذكر لك و لقومك»^(٢) أو المراد منه ذكر الله و توحيد و أسمائه الحسنی و صفاته العليا . و اختلف في جواب القسم على وجوه: أحدها أن جوابه محذوف فكأنّه قال: «و القرآن ذي الذكر» لقد جاء الحقّ و ظهر الأمر و حذف الجواب في مثل هذا أبلغ فإنّ ذكر الجواب يقصر المعنى على وجه و الحذف يصرف إلى كلّ وجه فيعمّ . و القول الثاني ما ذكرناه و هو أن جوابه «ص» يعني صدق تجدّاً ^{و لا شكّ} .

قوله: [بل الذين كفروا في عزّة و شقاق] إضراباً عن ذلك كأنّه قيل: لا ريب فيه قطعاً و ليس عدم إذعانهم للقرآن لشائبة ريب فيه بل هم في استكبار و حميّة شديدة و شقاق بعيد لله و لرسوله و لذلك لا يدعون له و منعهم الحسد و التكبر من الانقياد إلى الحقّ . و المراد من العزّة ههنا العظمة و ما يعتقد الإنسان في نفسه من الأحوال التي تمنعه من متابعة الغير كما قال: «وإذا قيل له اتق الله أخذته العزّة بالإثم»^(٣) و المراد من الشقاق إظهار المخالفة على جهة المساوات للمخالف و هو مأخوذ من «الشق» كأنّه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه في شقّ و خصمه في شقّ فيريد أن يكون في شقّ نفسه و

(١) النساء: ١٦٦ .

(٢) الزخرف: ٤٩ .

(٣) البقرة: ٢٠٦ .

لا يجري عليه حكم خصمه .

ثم إنه سبحانه لما وصفهم بالعزّة و الشقاق خوّفهم فقال : [كم أهلكنا قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص] و المعنى أنهم نادوا عند نزول العذاب بسبب تكذيبهم الأنبياء و نادوا عند وقوع الهلاك بهم بالاستغاثة و ليس الوقت حين منجى و لا يفيد في ذلك الوقت الندامة و الرجوع عند معاينة العذاب و هو كقوله : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا^(١) » و كقوله : « الآن وقد عصيت قبل^(٢) » و قوله : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا »^(٣) .

و أمّا تحقيق الكلام في لفظ « لات » قال سيدييه : إن « لات » هي « لا » المشبهة بليس زيدت عليها تاء التانيث كما زيدت على ربّ و ثمّ للتأكيد و بسبب هذه الزيادة حدث لها أحكام : منها أنها لا تدخل إلا على الأحيان و منها أن لا يبرز إلا أحد جزءيها إمّا الاسم و إمّا الخبر و يمتنع برؤسهما جميعاً و قال الأخفش : إنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء و خصت بنفي الأحيان و « حين مناص » منصوب بها كأنك قلت : و لات حين مناص لهم و يرتفع بالابتداء أي و لات حين مناص كائن لهم و المناس المنجى و الفوت يقال : ناصه ينوصه إذا أغاثه و استنص طلب المناس .

قوله تعالى : [و عجبوا أن جاءهم منذر منهم و قال الكافرون هذا ساحر كذاب] و عجب الكافرون أن أتاهم من ينذرهم و يخوّفهم منهم قالوا : إنّ تجّداً مساوياً لنا في الخلقة الظاهرة و الأخلاق الباطنة و النسب و الشكل فكيف يختصّ من بيننا بهذا الأمر و هو من رهطنا و عشيرتنا فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته و الانقياد لتكليفه و ما كان سبب هذا التعجب إلا الحسد .

ثمّ نسبوا إليه السحر و الكذب ثمّ قالوا : [أجعل] هذا الرجل [الآلهة] الكثيرة [إلهاً واحداً] إنّ هذا لشيء عجاب [و قاسوا بسبب تقليد آبائهم الحمقاء

(١) المؤمن : ٨٤ .

(٢) يونس : ٩١ .

(٣) المؤمن : ٨٥ .

وقالوا : لا بدّ في حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفل كل واحد منهم بحفظ نوع و كان قياسهم الباطل أنّ أولئك الأقوام من أسلافنا على كثرتهم وقوّة عقولهم كيف كانوا جاهلين ومبطلين وهذا الإنسان الواحد يكون محققاً صادقاً وهذه التشريفات كانت منشأ عجبهم .

و « العجائب » هو العجيب إلّا أنّه أبلغ كقولهم : طويل وطوال و كبير وكبار و قد يسدّد للمبالغة مثل « ومكرو امكراً كبتاراً » .

قوله : و انطلق الملاء منهم أن امشوا و اصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد (٦) ماسمعنا بهذا في الملة الاخرة ان هذا الا اختلاق (٧) انزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب (٨) ام عند هم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب (٩) ام لهم ملك السموات و الارض و ما بينهما فليرثقوا في الاسباب (١٠) .

المعنى : هذا تمام الحكاية عن الكفار أي انطلق الأشراف منهم و « الانطلاق » الذهاب بسهولة و منه طلاقة الوجه و الخلق و كان يقول بعضهم لبعض : [امشوا و اصبروا على آلهتكم] و اثبتوا على عبادة آلهتكم و اصبروا على دينكم و تحملوا المشاق و قيل : القائل منهم عقبة بن أبي معيط .

قال الزمخشري : « أن امشوا » أن ههنا بمعنى « أي » و هي المفسرة عن القول أي قال بعضهم لبعض : « امشوا و اصبروا على آلهتكم » و اعبدوها متحملين لما تسمعون من القدح .

[إن هذا شيء يراد أي إن هذا الذي شاهدناه من عهد ^{نوح} و من أمر التوحيد و نفي الآلهة و إبطال أمرها شيء يراد من جهته ^{نوح} و لا يمكن أن يلويه صارف و لاعاطف يشنيه فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله من هذا الرأي بواسطة أبي طالب أو غيره و قيل : المعنى إن هذا شيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه و قيل : إن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرياسة و الترفع على العرب و العجم شيء يتمنى ويريد كل أحد قال القفال : هذه كلمة تذكر للتهديد و كان معناها أنّه ليس

غرض محمد من هذا القول تقرير الدين وإثبات غرضه أن يستولي علينا فيحكم في أموالنا و أنفسنا بما يريد .

[ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة] و المراد من « الملة الآخرة » هي ملة النصارى أي هذا التوحيد الذي أتى به محمد ما سمعناه في دين النصارى لأنها آخر الملل قال ابن عباس : لأن النصارى لا يوحدون وأنهم يقولون بقوله : « ثالث ثلاثة » و قيل : المراد من « الملة الآخرة » ملة قريش أي ملة زماننا .

[إن هذا] أي ليس هذا الذي يقوله محمد ﷺ [إلا اختلاق] أي تصنع و كذب و افتعال أي كذب اختلقه و اخترعه .

[« أنزل عليه الذكر من بينا »] هذه شبهة من المشركين أي كيف أنزل على محمد القرآن من بيننا و ليس بأكبر سنًا منّا ولا بأعظم شرفاً وهو مساوٍ لنا في البشرية و الخلقة الظاهرة فكيف اختصّ بهذه الفضيلة ؟ و هذا القياس باطل لأنهم زعموا أن الشرف بالمال و الأعوان فعدوا على هذا القياس الفاسد أمرهم و أفكارهم .

فأجاب سبحانه [بل هم في شك من ذكرى] أي ليس يحملهم على هذا الاستبعاد إلا الشك في هذا القرآن و الوحي الذي أنزلناه إليك و إعراضهم عن النظر و التدبر إلى الأدلة المؤدية إلى العلم بحقيقته [بل لما يذوقوا عذاب] أي إذا أذاقوه تبين لهم حقيقة الحال و في كلمة « لما » دلالة على أن ذوقهم على شرف الوقوع و المعنى أنهم لا يصدقون بالقرآن حتى يمستهم العذاب و لأنهم لم يذوقوا العذاب الموعود و لذلك شكوا .

[أم عندهم خزائن ربك العزيز الوهاب] تتمّة الجواب عن شبهتهم بجهلهم : « أنزل عليه الذكر من بينا » فقال سبحانه : أبأيديهم مفاتيح النبوة و الرسالة فيضعونها حيث يشاءوا من صناديدهم أي أنها ليست بأيديهم و ليس لهم تعيين النبي و الرسول حتى يضعوا النبوة فيمن أرادوه و لكنّها بيد العزيز الغالب في ملكه كثير الهبات و العطايا يختار للنبوة من يشاء من عباده .

[أم لهم ملك السماوات و الأرض و ما بينهما فليرثوها] أي ألهم

سلطة و اختيار في السماوات والأرض فيمنعون الله من مراده ، إن ادعوا ذلك فليصعدوا في المعارج و المناهج و المدارج التي يتوصل بها إلى السماوات و يدبروا أمرها و ينزلوا الوحي إلى من يختارونه و هذا الكلام جواب عن شرط محذوف أي إن كان لهم ما ذكر من الملك « فليرتقوا في الأسباب » .

و لما ذكر سبحانه في الآية الأولى بقوله : « أم عندهم خزائن رحمة ربك » و ذكر الخزائن على عمومها و هي غير متناهية أردفها بذكر ملك السموات و الأرض يعني أن ملك السماوات و الأرض أحد أنواع خزائن الله فإذا كنتم عاجزين عن هذا القسم و كيفية صعودها و تصرفها فبأن تكونوا عاجزين عن كل خزائن الله كان أولى .

قوله تعالى : جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب (١١) كذبت قبلهم قوم نوح و عاد و فرعون ذوالاوتاد (١٢) و ثمود و قوم لوط و اصحاب الايكة اولئك الأحزاب (١٣) ان كل الاكذب الرسل فحق عقاب (١٤) و ما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق (١٥) .

المعنى : أخبر سبحانه عن الكفار الفائلين بهذه الأقوال السخيفة نبيه ﷺ و هو بمكة أنهم سيهزمون و أنت منصور عليهم و هم الذين تحزبوا و حاربوا النبي و « ما » زائدة مؤكدة للتحقير مثل أكلت شيئاً ما و يجوز أن يكون للتعظيم هزواً فيؤول إلى التحقير و قيل : المراد بقوله « هنالك » يوم بدر أو المراد الموضع الذي ذكروا هذه المقالات السخيفة و يمكن أن يكون حمله على يوم فتح مكة .

و وجه النظم في الآية بما قبلها أن المعنى كيف يتقولون بهذه الأقاويل و كيف يرتقون إلى السماء و هم فرق من قبائل شتى مهزومون ؟

قوله : [كذبت قبلهم] أي كذبت قبل هؤلاء الكفار [قوم نوح و عاد و فرعون ذو الأوتاد] أي أقوام الأنبياء قبلك كذلك كذبوا أنبياءهم و هكذا كانوا يكذبون رسلهم ثم بالآخرة نزل العذاب بهم فذكر ستة أصناف منهم : أولهم قوم نوح فأهلكهم الله بالغرق و الطوفان . و الثاني عاد قوم هود لما كذبوه أهلكهم الله بالريح العقيم . و الثالث فرعون لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق . و الرابع ثمود قوم صالح لما كذبوه فأهلكوا

بالصيحة . و الخامس قوم لوط كذبوه فأهلكوا بالخسف . و السادس أصحاب الأيكة و هم قوم شعيب فلمّا كذبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلة .

و إنّما وصف الله فرعون بكونه ذوالأوتاد لوجوه :

الاول : أنّ أصل هذه الكلمة من أصل ثبات البيت المطنّب بأوتاده ثمّ استعير لإثبات العزّ و الملك قال الشاعر :

و لقد غنوا فيها بأنعم عيشة * في ظلّ ملك ثابت الأوتاد
و هذا المعنى أحسن الوجوه .

و الثاني أنّه كان ينصب الخشب في الهواء و كان يمدّ يدي المعذب و رجله إلى تلك الخشب الأربع و يضرب على كلّ واحد من هذه الأعضاء و تدأ و يترّكه معلقاً في الهواء إلى أن يموت .

و الثالث أنّه يمدّ المعذب بين أربعة أوتاد في الأرض و يرسل عليه العقارب و الحيات .

و الرابع قال قتادة : كانت عنده أوتاداً و أرسناً و ملاعب يلعب بها عنده .

و الخامس أنّ عساكره كانوا كثيرين وكانوا كثيري الأبهة عظيمي النعم وكانوا يكثرّون من الأوتاد لأجل الخيام فعرّف بها .

قوله تعالى : [أولئك الأحزاب] مبالغة لوصفهم بالقوّة و الكثرة و المعنى أنّ حال أولئك الأحزاب مع كمال قوتهم لمّا كان عاقبة أمرهم الهلاك و البوار فكيف هؤلاء الضعفاء ؟

و لمّا ذكر حال المكذّبين بيّن أنّ مشركي قريش حزبٌ من هؤلاء الأحزاب و معناه هم الأحزاب حقّاً أي أحزاب الشيطان كما يقال : هم هم و فلان هو الرجل قال الشاعر :

و إنّ الذي حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كلّ القوم يا أمّ خالد
[إن كلّ إلّا كذب الرسل فحقّ عقاب] أي ما كلّ حزب منهم إلّا كذب الرسل فوجب عليهم عقابي بتكذيبهم رسلي [و ما ينظر] أي و ما ينتظر [هؤلاء] يعني كفّار

مكة [إلا صيحة واحدة] وهي النفخة الأولى في الصور [مالها من فواق] أي لا يكون لتلك الصيحة إفاقة بالرجوع إلى الدنيا أو لا يتمكنون من الرجوع مقدار زمان رجوع اللبن إلى الضرع . قال الفراء : إذا ارتضعت البهيمة أمها ثم تركها حتى تنزل فتلك الإفاقة و الفواق ثم قيل لكل إنظار واستراحة وقيل : المعنى مالها من فتور كما يقتر المريض أو مالها مثنوية و ردّ وصرف .

قال الطبرسي : من الآيات الدالة على عدم تعذيب هذه الأمة بعذاب الاستئصال هذه الآية والمراد أن عقوبة أمة محمد ﷺ بعذاب الاستئصال مؤخره إلى يوم القيامة وعقوبة سائر الأمم معجلة في الدنيا كما قال سبحانه : « بل الساعة موعدهم و الساعة أدهى وأمر » (١) .

قوله تعالى : وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب (١٦) اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب (١٧) أنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق (١٨) و الطير محشورة كل له أواب (١٩) و شددنا ملكه و آتيناه الحكمة وفصل الخطاب (٢٠) .

[وقالوا] أي هؤلاء الكفار : [ربنا] أي يا ربنا [عجل لنا قطنا] قدم لنا نصيبنا من العذاب [قبل يوم الحساب] وإنما قالوه على سبيل الاستهزاء بخبر النبي وخبر الله عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وجماعة .

و قيل : لما نزل « وأما من أوتي كتابه بيمينه ، وأما من أوتي كتابه بشماله » (٢) قال قريش : يا محمد زعمت أننا نؤتى كتابنا بشمالنا فعجل لنا كتبنا التي نقرأها في الآخرة وذلك استهزاء منهم بهذا الوعيد وتكذيباً به و « القط » كتب الجوائز والحكم و اشتقاقها من القط وهو القطع لأنها تقطع النصيب والعمل والقط الحساب أيضاً قال الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته * بنعمته يعطي الفطوط و يافق
و بالجملة إن القوم قد كمل كفرهم في الشبهات الثلاثة التي أوردوها : أولها تتعلق

(١) القمر : ٤٦ .

(٢) الحاقة : ١٩ و ٢٥ .

بالإلهيات وهو قوله تعالى حكاية عنهم «أجعل الآلهة إلها واحداً». والثانية تتعلق بالنبوة وهو قوله: «أنزل عليه الذكر من بيننا». والثالثة تتعلق بالمعاد وهو قوله: «وقالوا ربنا عجل لنا قسطنا قبل يوم الحساب».

قوله تعالى: [اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود] سلى نبيه ﷺ بالصبر إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهلة جرأتهم في مثل هذه الأمور اصبر و تحمّل أذاهم كأنه قال: واذكر لهم الأكابر من الأنبياء كيف كانوا يخافون الله مع أنهم معصومون من المعاصي ومنهم داود فإنه بسبب ترك مندوب كيف خاف من ربه كما حكى عنه بكاؤه الدائب وغمه الواصب وندمه الدائم فما الظن بهؤلاء الكفرة الأذلين من كل ذليل المصرين لأكبر الكبائر والغرض من الآية وذكر القصة تهويل لأمر المعصية في أعين الناس وتنبهياً لهم على كمال قبح ما اجترعوا عليه وأيضاً تثبيت للرسول على مقاساة أمر النبوة وصيانة نفسه الشريفة على التحمّل والتصبر على أذيتهم.

[واذكر عبدنا داود ذا الأيد] في التوحيد عن الباقر عليه السلام: اليد في كلام العرب القوة والنعمة وقيل: ذو القوة على العبادة ذكر أنه كان يقوم نصف الليل و يصوم نصف الدهر وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً وذلك أشد الصوم وقيل: المراد بالقوة في البدن روي أنه رمى بحجر من مقلاعه صدر الرجل فأنفذه من ظهره فأصاب آخر فقتله وقيل: معناه ذا التمكين العظيم والنعمة العظيمة وذلك أنه كان يبيت كل ليلة حول محرابه ألوف كثيرة من الرجال.

وإن هذا الوصف الذي وصف داود وهو قوله: «عبدنا» نهاية في التعظيم مقام أعلى وأسنى منهم ألا ترى أنه سبحانه قال: «سبحان الذي أسرى بعبده» (١) وهذا بيان تشريف محمد ﷺ في ليلة المعراج وإثما وصف سبحانه عباده المخلص بالعبودية مشعراً بأنهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة.

[إنه أوآب] أي رجاع كثير الرجوع إلى مرضاة الله و يراجع أموره كلها إلى طاعتي ورضاي ويرجع عن كل ما يكره الله إلى ما كل يحب الله من آب يؤوب

إذا رجع وقيل : معناه أي مسبح وقيل : مطيع قوله تعالى : [إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ] وذكر في تسبيح الجبال وجوه :

الاول : أن الله خلق في جسم الجبل حياة و قدرة و عقلاً و منطقاً و حينئذ صار الجبل مسبحاً لله تعالى و نظيره قوله تعالى : « فلما تجلّى ربّه للجبل ^(١) » فإن معناه أنه تعالى خلق في الجبل عقلاً و فهماً ثم خلق فيه رؤية عظمة الله فكذا ههنا .

الثاني : ما رواه الفصّال المروزي في تأويل التسييح أنه يجوز أن يقال : إن داود قد أوتي من شدة حسن الصوت ما كان له دويّ حسن في الجبال و ما يصغي إليه الطير لحسنه فيكون دويّ الجبال و تصويت الطير و تغريده معه تسييحاً لهم و ذكر محمد بن إسحاق أن الله لم يعط أحداً من خلقه مثل صوت داود حتّى إنّه كان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتّى يأخذ ^(٢) بأعناقهم .

والوجه الثالث من الوجوه أن الله سیر الجبال معه حتّى أنّها كانت تسير إلى حيث يريد و يتبعه و كان ذلك السير تسييحاً لها لأنّه كان يدلّ على كمال قدرة الله و حكمته .

قال صاحب الكشاف : « يسبحن » في معنى مسبحتات فإن صيغة الفعل تدلّ على الحدوث والتجدّد و صيغة الاسم على الدوام فقوله : « يسبحن » يدلّ على التجدد والحدوث في التسييح من الجبال شيئاً بعد شيء و حالاً بعد حال .

قوله : [بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ] أي بالرواح و الصباح يقول : الشمس إذا طلعت أشرقت وصفا شعاعها .

قوله : [و الطير] أي و سخرنا الطير [محشورة] أي مجموعة إليه تسبح لله تعالى معه [كلّ] يعني كلّ الطير و الجبال له [أوّاب] رجّاع إليه مطيع له بالتسييح قال الجبائي : لا يمتنع أن يكون الله خلق في الطيور من المعارف ما تفهم بها أمر داود و نهيه فتطيعه في ما يريد منها وإن لم تكن كاملة العقل مكلفة .

[وشدنا ملكه] أي قوّينا ملكه بالحرص والجنود والهيبة و كثرة العدة و العدد

عن ابن عباس أنه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل وقيل : أربعون ألفاً وكان أشد ملوك الأرض سلطاناً .

و عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً ادعى عند داود على رجل أخذ منه برة فأنكر المدعى عليه فقال داود للمدعى : أقم البيّنة فلم يقمها فرأى داود في منامه أن الله يأمره أن يقتل المدعى عليه فتشبّث داود وقال : هو منام فأثاه الوحي بعد ذلك بأن يقتله فأحضره وأعلمه أن الله يأمره بقتله فقال المدعى عليه : صدق الله إنني كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود فهذه الواقعة شدّت ملكه و أمّا الأسباب الدينيّة الموجبة لهذا الشدّ فهي الصبر والتأمّل التامّ و الاحتياط الكامل فحصل له مقام العبوديّة و التقوى .

قوله : [وآتيناه الحكمة و فصل الخطاب] و المراد بالحكمة النبوة أو العلم بالله و شرائعه و المراد « بفصل الخطاب » هو العلم بالقضاء و الفهم و العالم بالحكمة أن يكون الإنسان يعلم حقائق الأشياء على ما هي عليه بقدر الطاقة البشريّة و العامل بالحكمة أن يكون آتياً بالعمل الأصلح الأصوب بمصالح الدنيا و الآخرة فهذا هو الحكمة . و إنّما سمّي هذا الأمر بالحكمة لأنّ اشتقاق الحكمة من إحكام الأمور و تبعيدها عن أسباب الرخاوة و الضعف فلهذا السبب سمّيت تلك المعارف و هذه الأعمال بالحكمة و المراد من « فصل الخطاب » على ما ذكرنا معرفة أمور التي بها يفصل بين الخصوم حسبما قرره الشارع و بحيث لا يختلط شيء بشيء آخر و ينفصل كل مقام من مقام .

قوله تعالى : و هل أتاك نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب (٢١) اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق و لا تشطط و اهدنا الى سواء الصراط (٢٢) ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة و لى نعجة واحدة فقال اكفلنيها و عزنى فى الخطاب (٢٣) قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه و ان كثير من الخلقاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا و عملوا الصالحات و قليل ما هم و ظن داود انما فتناه فاستغفر ربه و خر راكعاً و اناب (٢٤) فغفرنا له ذلك و ان له عندنا لزلفى و حسن ما ب (٢٥) .

المعنى : فقله تعالى : [و هل أهلك نبأ الخصم] فهو نظير قوله : « هل أهلك حديث موسى » و فائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ليكون داعياً إلى الاعتبار بها .

قال الرازي : و أقول : للناس في هذه القصة ثلاثة أقوال :
أحدها ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عن داود عليه السلام . وثانيها دلالتها على صدور الصغيرة عنه . و ثالثها بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة .
فأمّا القول الأوّل فحاصل كلامهم فيها أنّ داود عشق امرأة أوريا فاحتال بالوجوه الكثيرة حتّى قتل زوجها ثم تزوّج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته و عرضا تلك الواقعة عليه فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً فتنبّه لذلك و اشتغل بالتوبة .

و هذا القول باطل و في نهاية الفساد من وجوه :
الاول أنّ هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس و أشدّهم فجوراً لا ستتكف منها و الرجل الحشويّ الخبيث الذي يقرّر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه و ربّما لعن من ينسبها إليها و إذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبتها إلى المعصوم ؟

الثاني أنّ حاصل القصة يرجع إلى أمرين إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حقّ و إلى الطمع في زوجته أمّا الأول فأمر منكر قال عليه السلام : من سعى في دم مسلم و لو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه « آيس من رحمة الله » و أمّا الثاني فإنّ أوريا على قولكم لم يسلم من داود لا في زوجته و لا في منكوحه و قد قال عليه السلام : المسلم من سلم المسلمون من يده و لسانه .

والوجه الثالث أنّ الله سبحانه وصف داود في الآية السابقة بصفات فائقة جليلة و وصفه أيضاً كثيرة حسنة بعد هذه القصة و كلّ هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفاً بهذا الفعل المنكر و لو قلنا : إنّ داود صدرت منه هذه الكبائر لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر عمداً عليه السلام أفضل الرسل بأن يقتدي بـداود

في الصبر والطاعة وكيف يكون من هو قلبه مشغول بالفجور و القتل و حفظ النفس كثير الرجوع إلى الله في الطاعة و أن يكون « أوّاباً » بصيغة المبالغة و كيف يليق بمثل هذا الانسان أن تكون الجبال و الطيور مسخرة و تابعة له ليتخذهم وسيلة إلى القتل و الفجور ؟ و قد قيل : إنه كان محرّماً عليه صيد شيء من الطير فحينئذ يزعجكم أن الطير آمن منه و لا ينجو منه الرجل المسلم على نفسه و زوجته ؟ و قد قال الله تعالى : في حقّه « و شدّدنا ملكه » و قد وفسّروا تشديد ملكه بما يقوّي الدين و بأسباب السعادة كما يبتنّ في موضعه قبل هذا و من لا يملك نفسه عن امرأة كيف يليق بذلك ؟

ثمّ وصفه تعالى بأنّه مأنّى الحكمة و الحكم كما قال : « و آتينا الحكمة و فصل الخطاب » و كلّ من كان موصوفاً بهذه الصفات و قابلاً لهذه المواهب الجليلة كيف يرضى أن يصدر منه أمور يستنكف منه الشيطان و كلّ هذه المدائح التي مدحه الله تعالى و منحه بها دالة أن براعة ساحته عن تلك الأكاذيب قبل شرح القصّة .

و أمّا الصفات المذكورة بعد القصّة فهي أيضاً ناطقة بعلوّ ساحته عن مثل هذه المقامات مثل قوله : « و إنّ له عندنا لزلفى و حسن مآب » و ذكر مثل هذا الكلام إنّما يناسب في حقّ من هو قويّ في طاعة الله أمّا لو كانت القصّة المتقدّمة دالة على سعيه في القتل و الفجور لم يكن قوله : « و إنّ له عندنا لزلفى » لائقاً به و أمّا قوله تعالى : « يادّود إنّنا جعلناك خليفة في الأرض » يدلّ على كذب هذه المقالات لأنّ الملك العظيم الشأن إذا حكى عن بعض عبيده أنّه قصد دماء الناس و أموالهم و أزواجهم فبعد فراغه من شرح القصّة على ملأ من الناس يفصح منه أن يقول عقبيه : أيتها العبد إنّي فوتت إليك خلافتي و نيابتي فإنّ ذكر تلك القبائح يناسب الزجر و الحجر لا أن يجعله خليفة نفسه و من المعلومة في أصول الفقه أنّ ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب للحكم يدلّ على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف فلمّا حكى الله عنه تلك الواقعة القبيحة ثمّ قال بعده « إنّنا جعلناك خليفة في الأرض » أشعر هذا بأنّ الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة و معلوم أنّ هذا فاسد كيف لا ؟ و ذكر المشق و السعي في القتل من أعظم منافيات الخلافة و باب العيوب .

والعجب أن القائلين بهذه الروايات الفاسدة المجعولة ذكروا أن داود تمنى أن يحصل له في الدين كما حصل للأنبيا الكبار من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء في النار و حصل للذبيح من الذبح و حصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب و الأجر فأوحى الله إليه أنهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لمّا ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود الابتلاء فأوحى الله إليه : إنك ستبتلي يوم كذا فبالغ في الاحتراز ثم وقعت الواقعة وهي أن داود كان يصلي في مجراه إذ تصور له إبليس بصورة طير أحسن ما يكون في الطيور فقطع داود صلاته وقام ليأخذ الطير فخرج الطير إلى الدار فخرج في أثره فطار الطير إلى السطح فصعد داود في طلبه فسقط الطير في دار أوريا بن حيان فاطلع داود في أثر الطير فإذا بامرأة أوريا تغتسل فلما نظر إليها هواها و كان قد أخرج أوريا في بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدم أوريا أمام التابوت فقدّم فظفر بالمشركين فصعب ذلك على داود فكتب داود إلى صاحبه ثانياً أن قدم أوريا أمام التابوت فقدّمه فقتل أوريا وتزوج داود بامرأته وكل هذا باطل.

و في العيون عن الرضا عليه السلام في حديث عصمة الأنبياء قال : لمّا حكى هذه الرواية الفاسدة للرضا عليه السلام ضرب الرضا يده على جبهته و قال عليه السلام : إنا لله و إنا إليه راجعون لقد نسبتهم نبياً من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتى خرج في أثر الطير ثم الفاحشة ثم بالقتل ! فقيل : يا ابن رسول الله فما كان خطيئة داود فقال : و يحك إن داود إنما ظنّ أنه ما خلق الله عز وجل خلقاً هو أعلم منه فبعث الله إليه الملكين فتسوّروا المحراب فقالا له : « خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق » و لا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخى له تسع و تسعون نعمة ولي نعمة واحدة فقال اكفليها و عزّني في الخطاب ، فجعل داود على المدعى عليه فقال : « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، و لم يسأل المدعى البيّنة على ذلك و لم يقبل على المدعى عليه فيقول له ، فكان هذه خطيئته و ليس كما ذهبتم إليه ألا تسمع قول الله تعالى يقول : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق » فقيل : له يا ابن رسول الله عليه السلام فما قصته مع أوريا ؟ قال الرضا : إن المرأة في أيام داود إذا مات بعلمها

أوقتل لا تتزوج بعده أبداً فأول من أباح الله أن يتزوج بامرأة قتل بعلمها داود فتزوج بامرأة أوريا لما انقضت عدتها فذلك الذي شق على الناس .

و يؤيد هذا الحديث الصحيح ما روي في المجمع عن علي عليه السلام وقد نقل هذا الحديث الرازي في المفاتيح عن علي عليه السلام قال : لا أوتي برجل يزعم أن داود تزوج بامرأة أوريا بهذه النسبة الفاسدة إلا جلّده حدّين حدّاً للنبوّة وحدّاً للإسلام .
و روي عنه عليه السلام أيضاً قال : من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاصون جلّده مائة وستين جلدة .

و بالجملة فذكر هذه القصة على ما فسروه الحشوية ومثل قصة يوسف يقتضي إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون مثل هذا الذكر محترماً كقوله تعالى : « إن الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا » ولا شك أن داود من كبار المؤمنين فيجب ردّ هذه الكلمات الواهية وثبت بهذه الوجوه المذكورة أن القصة التي ذكروها فاسدة باطلة .

فإن قيل : إن كثير من المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة فكيف الحال فيها ؟
فالجواب أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من الأخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة سيما إذا تعارض هذا الخبر مع ما روي من الحديثين الصحيحين عن علي عليه السلام وعن الرضا حسبما شرحناه فحينئذ تلك الأقوال أوهن من نسج العنكبوت وأيضاً فالأصل براءة الذمة ثم إنّه لم يتفق أهل التفسير على هذا القول ، بل المحققون رَوَوْا هذا القول وحكموا عليه بالكذب والفساد فهذا تمام الكلام في هذه القصة .

أمّا الاحتمال الثاني وهو صدور الصغيرة عنه كما شرحناه في الوجوه الثلاثة و الذين نسبوا إليه الصغيرة قالوا : إن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثمّ خطبها داود فأثّر أهلها وإنّما نسبوا هذا الأمر إلى داود صغيرة أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه وقيل : مال قلب داود إليها وسأل أوريا أن يطلقها ففعل أوريا

فتتروّجها داود . وهذا القول مدفوع مردوداً لأنه على فرض وقوعه وصحته لم يكن صغيرة لأنّ ذلك كان جائزاً في شريعته معتاداً في أمته غير مخجل بالمرّة حيث كان يسأل بعضهم بعضاً أن يستنزل عن امرأته فيتتروّجها إذا أعجبتة وقد كان الأنصار في صدر الإسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك من غير تكبر خلا أنّه ﷺ لعظم منزلته وعلوّ شأنه نسبته بالتمثيل على أنّه لم يكن ينبغي له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد أمته وأما ما قالوا : إنّ داود وقع بصره عليها فمال قلبه إليها فليس له في هذا ذنب البتّة أمّا وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضاً ذنب لأنّ هذا الميل ليس في وسعه فلا يكون مكلفاً به فمن أين حصلت الصغيرة ؟

و أمّا الاحتمال الثالث وهو ذكر هذه القصة على وجه لا يلزم إلحاق الكبيرة والصغيرة بدادود بل يوجب إلحاق أعظم أنواع المدح والثناء وهو أن تقول : روي أنّ جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشغل بعبادة ربّه فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم « و تسوّروا المحراب » و التسوّر الإتيان من جهة السور أي أتوا من طرف المحراب إليه فلمّا دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً وحرّساً يمنعونهم منعم فخافوا فوضعوا كذباً فقالوا : « خصمان بغى بعضنا على بعض » و باقي القصة سيأتي بعيد هذا في تفسير الآية .

و بالجملة ليس في القرآن ما يمكن أن يحتجّ به في إلحاق الذنب بدادود إلّا ألفاظ أربعة في الجملة ظاهراً أحدها قوله : « و ظنّ داود أنّما فتناه » و ثانيها قوله تعالى : « فاستغفر ربّه » و ثالثها قوله : « و أناب » و رابعها قوله : « فغفر له ذلك » . فنقول : إنّ هذه الألفاظ لا تدلّ على شيء منها على ما ذكره من إثبات الذنب له ﷺ و تقريره من وجوه :

الاول أنّهم لمّا دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق و علم داود ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم إلّا أنّه مال و عدل إلى الصفح و التجاوز عنهم طلباً لمرضاة الله و كانت هذه الواقعة هي الفتنة لأنّها جارية مجرى الابتلاء و الامتحان ثمّ إنّ استغفر

ربه مما هم به من الانتقام منهم وتاب عن ذلك القصد والهم فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم.
و الوجه الثاني أنه وإن غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه إلا أنه ندم على ذلك الظن وقال : لما لم تقم أمانة ولا دلالة على أن الأمر كذلك فبئسما علمت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن الرديء فكان هذا هو المراد من قوله : « وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راکعاً وأتاب، منه وقد يعبر عن السجود بالر كوع قال الشاعر :

فخرّ على وجهه راکعاً و تاب إلى الله من كل ذنب

فغفر الله له ذلك الظن .

الوجه الثالث أن دخولهم عليه كان فتنة لداود إلا أنه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله كما قال سبحانه في حق نوح عليه السلام : « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » فداود استغفر لهم و أناب أي رجع إلى الله في طلب مغفرة ذلك القاصد للقتل وقوله : « فغفرنا له ذلك » أي غفرنا له ذلك الذنب من الداخل القاصد لأجل احترام داود و لتعظيمه كما قال بعض المفسرين في قوله : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك » : إن معناه أن الله يغفر لك ولا أجلك ما تقدم من ذنبك أمّا ذلك **الوجه الرابع** أنه هب أن داود تاب عن ترك أولى صدر منه لكنه ذلك ليست بسبب المرأة بل لوصح وقوعه كان سبب أنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثاني فإنه لما قال : « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه » حكم عليه بكونه ظالماً بمجرّد دعوى الخصم بغير بيّنة فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة إلا أن هذا من باب ترك الأفضل والأولى ولا يلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه وحمل الآية على الوجوه التي ذكرناها أولى مما ذكر هؤلاء الكذبة على أن روايات الأئمة صلوات الله عليهم ناطقة لها مثل رواية عليّ و الرضا عليهما السلام و سوق صدر الآية حيث يخاطب سبحانه نبيّه « واصبر على ما يقولون و اذكر عبدنا داود » و هذا الذكر إنما يحسن إذا كان داود قد صبر على أذاهم وتحمل سفاهتهم و كان حسن الأعمال والسيرة وأمّا إذا حملناها على ما فسروه وذكره صار الكلام متناقضاً فاسداً .

رجعنا في تفسير الآية ، قوله : [وهل أأتاك نبأ الخصم] و المراد بالاستفهام الترغيب في الاستماع كما ذكرنا أي هل أأتاك خبرهم ؟ و يعبر بالخصم عن الواحد و الاثنين و الجماعة بلفظ واحد لأن أصل المصدر يقال : رجل خصم و رجالان خصم و رجال خصم [إذ تسوروا المحراب] أي حين صعودوا إليه المحراب و أتوه من أعلى سورة و هو مصلاه و أتى بلفظ الجمع أراد الفريقين .

[إذ دخلوا على داود ففرغ منهم] لدخولهم عليه في غير الوقت الذي يحضرونه لأنهم دخلوا عليه بغير إذنه [قالوا لا تخف خصمان] أي قالوا لداود : نحن خصمان [بغى بعضنا على بعض] فجئناك لتقضي بيننا و ذلك قوله : [فاحكم بيننا بالحق] و لا تشطط [أي و لا تجر علينا في حكمك و لا تجاوز الحق] فيه بالميل لأحدنا على صاحبه [و اهدنا إلى سواء الصراط] أي دلنا إلى وسط الطريق الذي هو طريق الحق .

[إن هذا أخي له تسع و تسعون نعجة ولي نعجة واحدة] قال الخليل : النعجة الأنثى من الضأن و العرب تكني عن النساء بالنعاج و الشاة فحكى الله سبحانه ما قاله أحد الخصمين بقوله : « إن هذا أخي » صاحب كذا عدد من النعاج « ولي واحدة » وقال : لي ضمها إلي و أعطينها و أعزل لي عنها و هذا معنى : [فقال أكفلنيها و عزني في الخطاب] أي غلبني في مخاطبة الكلام ؛ إن بطشني كان أشد مني و إن دعا كان أكثر مني .

[قال] داود : [لقد ظلمك بسؤال نعجتك] أي إن كان الأمر على ما تدعيه لقد ظلمك بسؤاله إياك بضم نعجتك [إلى نعاجه] .

فإن قيل : كيف جاز لداود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرد قول خصمه ؟ قال عجم بن إسحاق : لما فرغ الخصم الأول من كلامه نظر داود إلى الخصم الذي لم يتكلم و قال : لئن صدق لقد ظلمته و الحاصل أن هذا الكلام كان مشروطاً بشرط كونه صادراً في دعواه . و قال ابن الأنباري : لما ادعى أحد الخصمين اعترف الثاني فحكم داود ولم يذكروا الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه كما تقول : أمرتك بالتجارة فكسبت تريد امتجرت فكسبت كما قال سبحانه : « أن اضرب بعصاك البحر فانقلب » ^(١) أي

فضرب فانفلق . و القول الثالث أن تقدير الكلام : إن الخصم الذي هذا شأنه يكون قد ظلمك .

ثم قال داود : [و إن كثيراً من الخلطاء] و الشركاء الذين خلطوا أموالهم [ليبغي بعضهم على بعض] و يتجاوزون عن حدودهم و يتعدون بعضهم بعضاً [إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات] لأن مخالطة هؤلاء لا تكون إلا لأجل الدين و طلب السعادات الروحانية فلا جرم لا توجب المنازعة و أمّا الذين يكون مخالطتهم لأجل الدنيا لا بدّ و أن يكون مخالطتهم سبباً لمزيد البغي و العدوان و يتبين من هذا الكلام و الاستثناء أن الذين آمنوا و عملوا الصالحات لا يبغي بعضهم على بعض فلو كان داود قد بغى و تعدى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لا يكون هو من الذين آمنوا و معلوم أن ذلك باطل فثبت أن قول من يقول : المراد من واقعة النعجة قصة داود قول باطل .

ثم قال سبحانه : [و قليل ما هم] و معاً زائدة مؤكدة لمعنى القلة و للإيهام و فيه معنى التعجب من قلتهم .

قوله تعالى : [و ظنّ داود أنهما فتناه] قالوا : معناه : و علم داود أنهما فتناه أي امتحنناه و السبب الذي أوجب حمل لفظ الظنّ على العلم ههنا أن داود لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ثمّ صعدا إلى السماء قبل وجهه فعلم داود أن الله ابتلاه بذلك و إنما جاز لفظ الظنّ على العلم لأن العلم الاستدلالي يشبه الظنّ مشابهة عظيمة و المشابهة علّة لجواز المجاز و هذا الكلام يتمّ إذا كان الخصمان ملكين و أمّا إذا لم نقل ذلك لا يلزمنا حمل الظنّ على العلم بل لمّا غلب على ظنه حصول الابتلاء من الله .

[فاستغفر ربّه و خرّ راكعاً] أي ساجداً [و أناب] و استغفر ربّه و سأل الغفران و لا يلزم من الاستغفار كونه عليه السلام مرتكباً لذنوب بل حسنات الأبرار سيئات المفسدين . روي أنه عليه السلام بقي ساجداً أربعين يوماً و ليلة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أولها لا بدّ منه و لا يرقأ له دمه حتّى نبت العشب إلى رأسه و لم يشرب ماء إلا ثلثاء دمع ، و جهد بنفسه راجعاً إلى الله في العفو عنه حتّى كاد أن يهلك و اشتغل بذلك عن الملك حتّى وثب ابن له

يقال له « إيشا » على ملكه ودعا إلى نفسه فاجتمع إليه أهل الزينغ و الباطل من بني إسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه .

قوله تعالى : [وإن له عندنا لزُلفى] أي قربه و كرامة بعد المغفرة [و حسن مأب] أي حسن مرجع في الجنة .

يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق و لا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب (٣٦) و ما خلقنا السماء و الارض و ما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار (٣٧) انا نجعل الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمفسدين في الارض انا نجعل المتقين كالفجار (٣٨) كتاب أنزلناه اليك مبارك ليديره آياته وليتذكر اولوا الالباب (٣٩).

ثم ذكر إتمام نعمه على داود بقوله : [يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض] أي صيرناك تدبّر أمور العباد من قبلنا أو جعلناك خلف من مضى من الأنبياء في الدعاء إلى توحيد الله و بيان شريعته [فاحكم بين الناس بالحق] أي افصل أمورهم وضع كل شيء موضعه .

[و لا تتبع الهوى] أي لا تتبع ما يميل طبعك إليه إذا كان مخالفاً للحق [فيضلك عن سبيل الله] أي إذا اتبعت الهوى عدل بك الهوى عن سبيل الحق [إن الذين يضلون عن سبيل الله] و يعدلون عن العمل بما أمرهم الله [لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب] أي يعدّون عذاباً شديداً بتركهم طاعة الله في الدنيا و بسبب إغراضهم عن ذكر يوم القيامة فيكون « يوم » متعلقاً « بما نسوا » .

[و ما خلقنا السماء و الأرض و ما بينهما باطلاً] لا غرض فيه بل لغرض فيه الحكمة و هو أنواع المنافع الجليلة من هذه الخلقة العظيمة و خلقناها لأن يستفيد العقلاء الثواب العظيم واحتج الجبائي بهذه الآية على أنه تعالى لا يجوز أن يكون خالفاً لأعمال العباد قال : لأنها مشتملة على الكفر و الفسق و كلها أباطيل فلما بين الله أنه ما خلق السماوات و الأرض و ما بينهما باطلاً دل هذا على أنه لم يخلق أعمال العباد خلافاً للمجبرة

فإنّ عندهم أنّه سبحانه خلق الكافر لأجل أن يكفر و الكُفر باطل و قد خلق الباطل .
ثمّ أكّد الله تعالى ذلك بأن قال : [ذلك ظنّ الذين كفروا] أي كلّ من قال
بهذا القول فهو كافر فهذا تصريح بأنّ مذهب المجبّرة عين الكفر [فويل للذين كفروا
من النار] فالويل من النار حاصل للكُفّار .

و اعلم أنّ قوله تعالى : « وما خلقنا السماء » دالّ على صحّة القول بالحشر
والنشر و القيامة والثواب والعقاب لأنّه تعالى خلق الخلق في هذا العالم فإمّا أن يقال : إنّ
خلقهم للإضرار أو للإينافع أو للإلّا نفع و للإلّا ضرار والأوّل باطل لأنّ ذلك لا يليق بالرحيم
الكريم . والثالث أيضاً باطل لأنّ هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين فلم يبق إلّا أن
يقال : إنّهم خلقهم للإينافع فنقول : و ذلك الإينافع إمّا أن يكون في حياة الدنيا أو في
حياة الآخرة والأوّل باطل لأنّ منافع الدنيا قليلة ومضارّها كثيرة و تحمّل المضارّ
الكثيرة للمنفعة القليلة المستهلكة لا يليق بالحكمة و لمّا بطل هذا القسم ثبت القول
بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا و ذلك هو القول بالحشر و القيامة و الثواب
و العقاب فهذا هو المراد من قوله : « ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار »
لأنّ من شكّ أو أنكر الحشر كان شاكّاً في حكمة الله .

و لمّا بيّن هذا البيان فقال : [أم نجعل الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمفسدين
في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار] و تقرير الآية أنّنا نرى في الدنيا من أطاع الله
و احتراز عن معصيته في الفقر و الزمانة وأنواع البلاء و نرى الكفرة و الفسّاق في الراحة
و الغبطة فلولم يكن حشر و نشر و معاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصي
و ذلك لا يليق بحكمة الحكيم العدل الرحيم و إذا كان ذلك قادحاً في الحكمة ثبت أنّ
إنكار الحشر و النشر يوجب إنكار الحكمة من الله أي كيف يمكن أن نجعل الذين
صدّقوا الله ورسله و عملوا الصالحات و الطاعات كالعاملين بالمعاصي في الأرض أو نجعل
الذين اتّقوا المعاصي لله خوفاً من عقابه كالفجّار الذين تركوا الطاعات ؟ إنّ هذا لا
يكون أبداً .

ثمّ خاطب سبحانه نبيّه فقال : [كتابٌ أنزلناه إليك مبارك] أي هذا القرآن

كتاب منزل إليك مبارك كثير نفعه و خيره [ليدبروا آياته] أي ليتفكر الناس فيه و يتعظوا بمواعظه و من هو من أولي العقول .

و قالت المعتزلة - و نعم ما قالت - : دلت الآية على أنه إنما أنزل هذا القرآن لأجل الخير و الرحمة و الهداية فيلزم أن أفعال الله معللة برعاية المصالح و أنه تعالى أراد الإيمان و الخير و الطاعة عن الكل بخلاف قول من يقول : إنه أراد الكفر من الكافر .

و ههنا بيان آخر و هو أن صدر السورة حكاية عن المستهزئين من الكفار بأنهم بالغوا في إنكار البعث و القيامة بحيث قالوا : « ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » فقال الله سبحانه : « اصبر على ما يقولون و اذكر عبدنا داود » و لا تعلق بإثبات القيامة وقصة داود حتى ذكر سبحانه أن القرآن شريف كثير الخير و هذه فصول متباعدة لا تعلق للبعض منها ببعض فكيف النظم ؟ هذا تمام البيان والسؤال .

والجواب أنه من ابتلي بخضم جاهل جدلي متعصب و رآه المخاطب أنه قد خاض في التعصب و الإصرار وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة لأنه كلما كان خوضه في تقريره أكثر كانت نفرتة عن القبول أشد فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة و أن يخوض في كلام آخر أجنبي عن المسألة الأولى بالكليّة و يطنب في الكلام الثاني بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي و نسي الكلام الأول فحينئذ يدرج في أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبي مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الأول فإن ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة فإذا سلمها فحينئذ يتمسك بها في إثبات المطلوب الأول فحينئذ يصير ذلك الخصم منقطعاً مفحماً .

إذا عرفت هذا فنقول : إن الكفار لما بالغوا في إنكار الحشر إلى حيث بلغوا إلى درجة الاستهزاء بقولهم : « ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » فقال الله سبحانه : يا نوح اقطع الكلام معهم في هذه المسألة « واصبر على ما يقولون » و اشرع في كلام أجنبي و هو قصة داود ، و ذكر في آخر القصة خلافة داود وجعله خليفة إلى أن قال له : « واحكم

بين الناس بالحق" وكل من سمع هذا قال : نعم الحكم هذا حيث أمره بحكم الحق" فالله الذي يأمر خليفته بالحق فهو أولى بإتيان الحق لأنه رب العالمين ولا يقضي بالباطل قطعاً فحينئذ لا بد أن يستسلم الخصم أن الله هو الحق فيلزمه القبول بصحة الحشر والقيامة لأن الظالم الغشوم الذي يظلم في مدة خمسين سنة أو أقل أو أكثر فقيراً صعلوكاً وهو معزل عن ذلك الظالم والظالم يتعاقبه ويؤذيه وهو لا يقدر دفعه فلولم يكن دار أخرى فيجازي ذلك الظالم ويثيب ذلك المظلوم فيكون هذا الرب الذي يأمر خليفته بالعدل والتحرز عن الباطل هو غير حاكم بالعدل وعامل بالباطل فهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الإلزام القاطع على منكري الحشر والقيامة ولا يمكنهم الخلاص عن قبوله .

ولما ذكر سبحانه هذه الطريقة الدقيقة في الإلزام في القرآن لاجرم وصف الله القرآن بالكمال والبركة فقال : « كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » ومن لم يتدبر ولم يساعده التوفيق الإلهي لم يقف على مثل هذه الأسرار العجيبة في القرآن و يزعم عدم الترتيب في النظم ، انتهى .

قوله تعالى : و وهبنا لداود سليمان نعم العبد انه اواب (٣٠) اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد (٣١) فقال اني احببت حب الخبر عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب (٣٢) رودها على فطفق مسحاً بالسوق والاعناق (٣٣) و لقد فتننا سليمان و القينا على كرسيه جسداً ثم اناب (٣٤) قال رب اغفر لي و هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي انك انت الوهاب (٣٥) فسخرنا له الريح تجري بامره رخاء حيث اصاب (٣٦) و الشياطين كل بناء و غواص (٣٧) و آخرين مقرنين في الاصفاد (٣٨) هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب (٣٩) و ان له عندنا لزلفى و حسن ماب (٤٠) .

ثم عطف سبحانه على قصة داود حديث سليمان فقال : [و وهبنا لداود سليمان] أي أعطيناه ولدأ [نعم العبد] سليمان إنه رجاء إلى الله في أمور دينه ابتغاء مرضاته .

[إذ عرض عليه] يجوز أن يتعلق « إذ » بنعم العبد أي نعم العبد هو إذ عرض

عليه ، و يجوز أن يتعلّق بأذكر و المخصوص بالمدح في قوله « نعم العبد » محذوف
 فقيل : هو سليمان و قيل : هو داود و الأول أولى لأنّه أقرب المذكورين ولأنّه قال :
 بعده « إنّه أوّاب » ولا يجوز أن يكون المراد هو داود لأنّه وصفه بهذا المعنى قد تقدّم
 في الآية المتقدّمة حيث قال سبحانه : « و اذكر عبدنا داود ذا الأيد إنّّه أوّاب » و في
 الآية دلالة على أنّ من كان كثير الرجوع إلى الله في أكثر الأوقات يكون موصوفاً بمثل
 هذه الصفة [بالعشيّ] و العشيّ هو من حين العصر إلى آخر النهار .

عرض عليه الخيل لينظر إليها و يقف على كيفيّة أحوالها و وصف الخيل بوصفين
 أوّلهما [الصافنات] و الصفون صفة دالة على حسن الفرس و هي التي تقوم على ثلاثة
 قوائم و يرفع إحدى يديها حتّى يكون على طرف الحاف و الصفة الثانية [الجياد]
 و الجياد جمع « جواد » و هو الفرس الشديد الجري كما أنّ الجواد من الإنسان السريع
 البذل و المقصود في الآية وصفها بالفضيلة و الكمال حالتي وقوفها و حرّكتها .

قال مقاتل : إنّ سليمان ورث من أبيه ألف فرس و كان أبوه قد أصاب ذلك من
 العمالة و قيل : إنّ سليمان غزا دمشق و نصيبين فأصاب ألف فرس و قيل : كانت خيلاً
 خرجت من البحر لها أجنحة و كان سليمان قد صلّى الصلاة الأولى و قعد على كرسيّه
 و الخيل يعرض عليه حتّى غابت الشمس .

[فقال إنّني أحببت حبّ الخير عن ذكر ربّي] و المراد بالخير هنا الخيل
 فإنّ العرب يسمي الخيل خيراً وفي الحديث : الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم
 القيامة و قيل : معناه حبّ المال و الخير بمعنى المال الكثير و قيل : إنّ هذه الخيل
 كانت شغلته عن صلاة العصر حتّى فات وقتها و في روايات أصحابنا أنّه فاته أوّل الوقت
 و قال الجبائيّ : لم يفته الفرض وإنّما فاته النفل الذي كان يفعله في آخر النهار لاشتغاله
 بالخيل . و قيل : المعنى : إنّني أحببت حبّ الخيل على كتاب ربّي ، كناية عن كتاب
 الله التوراة و كما أنّ ارتباط الخيل بمدوح في القرآن كذلك في التوراة بمدوح فحينئذ
 معنى « عن ذكر ربّي » أي عن كتاب ربّي وهو التوراة . و « أحببت » فعل يتعدّى بعن ، أي
 أثبت حبّ الخير عن كتاب ربّي . و حاصل المعنى أنّني أحببت حبّي لهذه الخيل عن ذكر ربّي

يعني إن هذه المحبة الشديدة إنما حصلت عن ذكر الله وأمره لا عن الشهوة والهوى .
[حتى توارت] الضمير راجع إلى الشمس لأنه جرى ذكر ماله تعلق بها
وهو «العشي» كما أن ضمير «ردّها» أيضاً قالوا : راجع إلى الشمس ويحتمل أن
يعود الضميران إلى «الصافنات» ويحتمل أن يكون الأول راجعاً إلى «الشمس»
والثاني «بالصافنات» ويحتمل أن يكون بالعكس فهذه وجوه أربعة فالأول أن يكون
الضميران عائدين إلى الشمس كأنه قال : حتى توارت الشمس [بالحجاب] وغابت .

[ردّها عليّ] أي سأل الله أن يردّ الشمس عليه فردّها عليه حتى صلى صلاة
الفائتة فرضاً كانت أو نفلاً وعلى كون الضمير في «ردّها» على أن يكون المراد بالخيّل
أي قال لأصحابه : ردّوا الخيل عليّ وعلى قول من يقول : إن الضمير في «توارت» راجع
إلى الخيل يعني توارت الخيل بالحجاب بمعنى أنها شغلت فكره إلى تلك الحال وهي
غيبوبتها عن بصره وذلك أنه أمر بأجراء الخيل فأجريت حتى غابت الخيل عن بصره فقال
لأصحابه : ردّوا الخيل عليّ .

قوله : [فطفق مسحاً بالسوق والأعناق] قيل فيه وجوه : أحدها أن المسح هنا
القطع والمعنى أنه أقبل لضرب سوقها وأعناقها لأنها كانت سبب فوت صلاته وهذا
القول بعيد عن الصواب جداً وقيل : إنه إنما فعل ذلك لأنها كانت أعزّ ماله فيقرّب
إلى الله بأن ذبحها ليصدّق بلحومها وقيل : المعنى فجعل يمسح أعراف خيله وعراقيبها بيده
حباً لها ، عن ابن عباس .

قال ابن عباس : سألت عليّاً عن هذه الآية فقال عليه السلام : ما بلغك فيها يا ابن عباس
قلت : سمعت كعباً يقول : اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتى فاتته الصلاة فقال ردّها
عليّ ، يعني الأفراس وهي كانت أربعة عشر فأمر بضرب أعناقها وسوقها بالسيف فقتلها
فسلبه الله ملكه أربعة عشر يوماً لأنه ظلم الخيل بقتلها فقال عليّ عليه السلام : كذب كعب
لكن اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم لأنه أراد جهاد العدو حتى توارت الشمس
بالحجاب فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس : ردّها عليّ فردّت فصلّى العصر
في وقتها وإن أنبياء الله لا يظلمون ولا يأمررون بالظلم لأنهم معصومون مطهرون ، انتهى

كلامه عليه السلام .

[ولقد فتنّا سليمان] أي اختبرناه و شدّدنا المحنة عليه [و ألقينا على كرسيّه جسداً] أي وطرحنا على كرسيّه جسداً و ، الجسد الذي لا روح فيه و اختلف العلماء في فتنته و امتحانه و الجسد الذي ألقى على كرسيّه على أقوال :

منها أن سليمان قال يوماً في مجلسه : لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة من نسائي تلد كلّ امرأة منهنّ غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله ولم يقل : إن شاء الله فطاف عليهنّ فلم تحمل منهنّ إلا امرأة واحدة جاءت بشقّ ولد رواه أبو هريرة عن النبيّ قال : ثمّ قال ﷺ : و الذي نفس محمد بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً فالجسد الذي ألقى على كرسيّه كان هذا ثمّ أناب الله و فرغ إلى الصلاة و الدعاء على وجه الانقطاع إلى الله . و هذا لا يقتضي أنّه وقع منه معصية صغيرة ولا كبيرة لأنّه وإن لم يستثن ذكره لفظاً فلا بدّ من أن يكون قد استثناه ضميراً أو اعتقاداً إذ لو كان قاطعاً للقول بذلك لكان مطلقاً لما لا يؤمن من أن يكون كذباً إلا أنه لما لم يذكر لفظة الاستثناء عوتب على ذلك من حيث أنه ترك ما هو مندوبٌ إليه .

ومنها ما روي أنّ الجنّ والشياطين ملّا وُلد لسليمان ابن قال بعضهم لبعض : إن عاش له ولد لنلقين منه ما لقينا من أبيه من الجهد والبلاء فأشفق سليمان منهم عليه فاسترضعه في المزن وهو السحاب فلم يشعر إلا وقد وُضع على كرسيّه ميتاً تنبهاً على أن الحذر لا ينفع عن القدر فما عتّب على خوفه من الشياطين ، عن الشعبيّ وهو المرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام .

ومنها أنّه وُلد له وُلد ميت جسداً بالروح فألقى على سريره .

و منها أنّ الجسد المذكور هو جسد سليمان لمرض امتحنه الله به فحينئذ تقدّر الكلام : و ألقينا منه على كرسيّه جسداً لشدة المرض فيكون جسداً منصوباً على الحال و العرب يقول في الإنسان إذا كان ضعيفاً : هو جسد بالروح ولحم على وضم [ثمّ أناب] أي رجع إلى حال الصحة .

و هذه الوجوه المذكورة ذكرها أهل التحقيق من المفسرين في كيفية افتتان

سليمان في قوله تعالى: «ولقد فتنا سليمان» ولأهل الحشوي هذا الباب أقوال سخيقة على وجوه :
الأول قالوا : إن سليمان بلغه خبر مدينة في البحر فخرج إليها بجنوده بحمله الريح
ففتحها وقتل ملكها وأخذ بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً فاصطفاها لنفسه
وأسلمت فأحبها وكانت تبكي أبدأ على أيها فأمر سليمان الشيطان فمثّل لها صورة أيها فكستها
مثل كسوته التي كان يكسي به حال حياته وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشياً
مع جواربها يسجدون لها فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر سليمان الصورة وعاقب المرأة
ثم خرج وحده إلى فلاة و فرش الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله وكانت لسلمان أم ولد
يقال لها أمينة ، إذا دخل للطهارة أولاً صابئة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه
فوضعه عندها يوماً فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان وقال : يا أمينة هات
خاتمي فتختّم به وجلس على كرسي سليمان فأتمى عليه الطير والجن والإنس وتغيّرت
هيئة سليمان فأتمى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطرده فعرف أن الخطيئة قد أدر كته
فكان يدور في البيوت يتكفّف وإذا قال : أنا سليمان أحنوا عليه التراب وسبوه ثم أخذ
يخدم السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة
أربعين صباحاً عدد ما عبد الوثن في بيته فأنكر آصف وعظما بني إسرائيل حكم
الشيطان وسأل آصف نساء سليمان فقلن : ما يدع امرأة منّا في دمها ولا يغتسل
من جنابة .

وقيل : بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر
فابتلعته سمكة وقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختّم به
ووقع ساجداً لله ورجع إليه ملكه وأخذ ذلك الشيطان وأدخله في صخرة وألقاها في البحر .
والقول الثاني للحشوية أن تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة
افتتن سليمان فكان يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيه فقال له آصف : إنك لمفتون
بذنوبك فتنب إلى الله .

والقول الثالث لهم قالوا : إن سليمان قال لبعض الشياطين ! كيف تفتنون الناس
فقال الشيطان : أرني خاتمك أخبرك فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد

هذا الشيطان على كُرسِيّه ثم ذكر الحكاية إلى آخرها .

و القول الرابع لهم أنه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه و أُلقي على سريرهِ شيطان عقوبة له .

و بالجملة إن أقوال الحشوية بمعزل عن القبول و إن أهل التحقيق أنكروا هذه المقالات من وجوه :

الاول أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه في الصورة و الخلقة بالأنبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع فلعل هؤلاء الذين رأوهم الناس في صورة موسى و عيسى عليهما السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء و الإضلال و معلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية .

الثاني أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذا المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء و الصالحاء و حينئذ وجب أن يقتلهم و أن يمزق تصانيفهم و أحاديثهم و فتاويهم و لما بطل ذلك في حق أحاد العلماء فلا بد أن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى .

الثالث : لو قلنا : إن سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه و إن لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه فرجعت المسألة إلى وجوه ذكرناها أولاً في الآية حيث قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة و لم يقل : إن شاء الله .

فلو قيل : إن ترك الاستثناء لا يوجب الذنب و لولا تقدّم الذنب لما طلب المغفرة . فالجواب بأن هذا الأمر لا ينفك عن ترك الأفضل إليه و حينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المفرّين و لأن الأنبياء و الأولياء دائماً في مقام هضم النفس و إظهار الذلّة و الخضوع كما قال النبي ﷺ : و إنني لأستغفر الله في اليوم و الليلة سبعين مرة فالمراد من هذا الاستغفار هذا المعنى .

قوله تعالى : [قال رب اغفر لي و هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي] ثم حكى سبحانه دعاء سليمان حين أناب إلى الله بقوله : « رب اغفر لي و هب لي ملكاً » .

فلو قيل : إن هذا الدعاء من سليمان يقتضي الضنة والمنافسة لأنه عليه السلام لم يرض بأن يسأل الملك حتى أضاف إلى ذلك أن يمنع غيره منه .
فالجواب أن الأنبياء لا يسألون إلا ما يؤذن لهم في مسألته و لعل أن أعلمه أنه إن سأل ملكاً لا يكون لغيره كان أصلح له من غيره و أعلمه أنه لا صلاح لغيره في ذلك كما أن أحدنا لو صرح في دعائه بهذا الشرط فيقول : اللهم اجعلني أكثر أهل زماني مالاً إذ أعلمت أن ذلك أصلح لي لكن ذلك منه حسناً جائزاً ولا ينسب في ذلك إلى شح و بخل أو المعنى لا يقدر أحد على معارضته أو أنه لما مرض ثم عاد إلى الصحة عرف أن الدنيا صائرة إلى غيره فسأل ربه ملكاً لا يمكن أن ينتقل منه إلى غيره وهو ملك الآخرة .

و ثانيها أنه يجوز أن يكون التمس من الله آيةً لنبوته يتبين بها من غيره وأراد بقوله : « لا ينبغي لأحد » غيري ممن أنا مبعوث إليه و لم يرد من بعده إلى يوم القيامة من النبيين كما يقال : أنا لا أطيع أحداً بعدك أي لا أطيع أحداً سواك .
و ثالثها ما قال المرتضى : إنه يجوز أن يكون سأل ملك الآخرة و ثواب الجنة و يكون معنى قوله : « لا ينبغي لأحد من بعدي » لا يستحقه بعد وصولي إليه أحد .
و رابعها أنه التمس معجزة يختص بها كما أن موسى اختص بالعصا و اليدواختص بالصالح بالناقة و محمد عليه السلام بالمعراج و القرآن و يدل على هذا المعنى ما روي مرفوعاً عن النبي عليه السلام أنه صلى صلاة فقال : إن الشيطان عرض لي ليفسد علي الصلاة فأمكنني الله منه فدفعته و لقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا و تنظروا إليه أجمعين فذكرت قول سليمان : « رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » فردّه الله خائباً خاسئاً أورده البخاري ومسلم في الصحيحين .

ثم يتبين سبحانه أنه أجاب دعاءه بقوله : [فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء] أي ريحاً ليّنة طيبة مطيعة تجري إلى حيث يشاء سليمان [حيث أصاب] أي حيث أراد سليمان من النواحي و منقادة له كيف أراد قيل : كان يقدوس سليمان بإيليا و يقبل بفزوين و يبيت بكابل فإن قيل : كيف وصف سبحانه الريح بالعاصف في قوله : « ولسليمان الريح

عاصفة ، وهنا وصفها « رخاء » ؟ يجوز أن الله جعلها عاصفة تارة و رخاء أخرى بحسب ما أراد سليمان .

[والشياطين] أي و سخرنا له الشياطين [كل بناء] في البر يبنى له ما أراد من الأبنية الرفيعة ؛ بنوا له عشر بلاد عظيمة مثل تدمر و صرواح و مرواح و بينون و سلخين و هبذه و هينذه و فلتوم و غمدان و بيت المقدس [و غوأس] في البحر على الآلي و الجواهر فيستخرج له ما يشاء منها .

[و آخرين مقرنين في الأصفاد] أي و سخرنا له آخرين من الشياطين مشددين في الأغلال و السلاسل من الحديد و كان ^{تعالى} تجمع بين اثنين و ثلاثة منهم في سلسلة لا يمتنعون عليه إذا أراد ذلك بهم عند تمرّد من حكمه . و قيل : إنه كان يفعل ذلك بكفارهم فإذا آمنوا و أطاعوا أطلقهم .

قوله : [هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب] هذا الذي أعطيناك أعط من شئت و امنع من شئت بغير حساب أي ليس عليك حرج فيما أعطيت و فيما أمسكت هذا قول ابن عباس . و قيل : المراد في أمر الشياطين خاصة و المعنى أن هؤلاء الشياطين المسخرين عطاؤنا فامنن على من شئت منهم فخلّ عنه و احبس من شئت منهم في العمل بغير حساب .

و لما ذكر الله سبحانه ما أنعم به على سليمان في الدنيا أردفه بإياديه عليه في الآخرة فقال : [و إن له عند لزلتي و حسن ما ب] و قد سبق تفسيره .

قوله تعالى : و اذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب و عذاب (٤١) اركض برجلك هذا مفتسل بارد و شراب (٤٢) و وهبنا له اهله و مثلهم معهم رحمة منا و ذكرى لاولى الالباب (٤٣) و خذ بيدك ضعفا فاضرب به ولا تحنث انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب (٤٤) .
ثم ذكر سبحانه قصة أيوب فقال :

[و اذكر] يا محمد [عبدنا أيوب] شرّفه الله بأن أضافه إلى نفسه أي اقتد يا محمد به في الصبر على الشدائد و كان في زمن يعقوب بن إسحاق و تزوج « ليا » بنت يعقوب و هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة و إن داود و سليمان كانا

ممن أفاض الله عليه أصناف النعماء و أيوب كان ممن خصه الله تعالى بأنواع البلاء والمقصود من هذه الآيات الاعتبار : كأن الله يقول لمحمد ﷺ : اصبر على سفاهة قومك فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالاً وجاهاً من داود وسليمان وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد والعاقل لا بد له من الصبر على المكروه والمعنى أن نداء أيوب حكاية عن هذا القول : « بأنني مستني الشيطان بنصب » بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وفتحها وضمها وهوالتعب والمشقة والعذاب والألم و كان قد حصل عنده نوعان من المكروه الغم الشديد بسبب زوال الخيرات و أيضاً الألم الشديد في الجسم ولما حصل هذان النوعان لا جرم ذكر الله تعالى لفظين .

و للناس في هذا الموضع قولان : الأول أن الآلام و الأسقام الحاصلة في جسمه إنما حصلت بفعل الشيطان ، الثاني أنها إنما حصلت بفعل الله والعذاب المضاف في الآية إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة .

فأما القول الأول فتقريره ما روي أن الشيطان اللعين سأل ربه فقال : هل في عبيدك من لو سلطني عليه يمتنع مني فقال الله : نعم عبيدي أيوب فجعل يأتيه بوساوسه و هو يرى إبليس عياناً ولا يلتفت إليه فقال إبليس : يا رب قد امتنع فسَلَطْني على ماله و كان يجيئه و يقول : له هلك من مالك كذا و كذا فيقول : الله أعطى و الله أخذ ثم يحمده الله فقال إبليس : يا رب إن أيوب لا يبالي بماله فسَلَطْني على ولده فجاء و زلزل الدار فهلك أولاده بالكليّة فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه فقال : يا رب لا يبالي بما له و ولده فسَلَطْني على جسده فأذن فيه فنفخ في جلد أيوب و حدثت أسقام عظيمة و آلام شديدة فيه من نفسه من نار السموم فمكث في ذلك البلاء سنين ثم وسوس الشيطان إلى أهل البلدة أن أخرجوه من بلدكم فخرج إلى الصحراء و ما كان يقرب منه أحد .

ثم جاء الشيطان إلى امرأته وقال : لو أن زوجك استعان بي لخَلَصْتَه من هذا البلاء قال ابن عباس : إن إبليس تصوّر لها بصورة طبيب وقال لها : أنا أداوي أيوب على أنه إذا برىء قال : أنت شفيتني لا أريد جزاء سواه قالت : نعم فذكرت المرأة ذلك لأَيُوب

فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلّدنّها مائة جلدة وعند هذه الواقعة قال : « أنّي مسني الشيطان بنصب وعذاب » فأجاب الله دعاءه وأوحى إليه أن [اركض برجلك] أي ادفع برجلك الأرض [هذا مغتسل بارد وشراب] وفي الكلام حذف وتقديره فركض رجله فنبعت بركضته عين ماء وقيل : نبعت عينان فاغتسل من أحدهما فبرأ وشرب من الأخرى فروي . والمغتسل الموضع الذي يغتسل منه فلمّا اغتسل منها أذهب الله عنه كلّ داء في ظاهره وباطنه وردّ عليه أهله وماله .

والقول الثاني وهو أن الشيطان لا قدرة له البتّة على إيقاع الناس في الأمراض والآلام لأنّنا لو جوّزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان فلعلّ الواحد منّا إنّما وجد الحياة بفعل الشيطان ولعلّ ما حصل عندنا من الخيرات فقد حصل بفعل الشيطان وحينئذ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطي الحياة والموت والصحة والسقم هو الله الثاني أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء ولم لا يخرب دورهم ؟ الثالث أنّه تعالى حكى عن الشيطان أنّه قال : « ما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي »^(١) ، فصرّح سبحانه بأنّه لا قدرة له في حقّ البشر إلّا على إلقاء الوسوسة والخواطر الفاسدة وذلك يدلّ على فساد قول من قال : إن الشيطان هو الذي ألقاه في تلك الأمراض بنفخته .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال إنّ الفاعل لهذه الأفعال هو الله لكن على وفق التماس الشيطان ؟

قلنا : فإن كان لا بدّ من الاعتراف بأنّ خالق تلك الآلام والأسقام هو الله فأيّ فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك بل الحقّ أن المراد من قوله : « أنّي مسني الشيطان بنصب وعذاب » أنّه بسبب إلقاء الوسوس الفاسدة ويمكن أنّه لما طال مدة المرض وعلمته كانت شديدة الألم ثمّ تنفّر الناس عنه وعن مجاورته وأخرجوه من البلدة ومنعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم لأجل تحصيل القوت فلمّا قويت تلك الوسوس في قلبه تضرّع إلى الله وقال : « أنّي مسني الشيطان » وشقّ على ذلك فتضرّع إلى الله .

روي عن النبي ﷺ أنه بقي أيوب في البلاء ثمان عشرة سنة حتى رفضه القريب والبعيد إلا رجلين ثم قال أحدهما لصاحبه : لقد أذنب أيوب ذنباً ما أتمى به أحد من العالمين ولولاه ما وقع في مثل هذا البلاء فذكروا ذلك لأَيُوب فقال : لا أدري ما تقولان غير أن الله يعلم أنني كنت أمرُّ على الرجلين يتنازعا فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأفرغ عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في الحق .

وقيل : إن امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجيء به إلى أيوب فاتفق أنهم ما استخدموها و طلب بعض النساء منها قطع إحدى ذؤابتها على أن تعطيهما قدر القوت ففعلت ثم في اليوم الثاني ففعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة وكان أيوب عليه السلام إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة فلمّا لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية في قلبه واشتد غمّه فعند ذلك قال : « أنني مستني الشيطان »

وقيل : إن أيوب قال : في بعض الأيام يا رب لقد علمت ما اجتمع عليّ أمران إلا آثرت طاعتك ولما أعطيتني المال كنت للأرامل قيسماً ولابن السبيل معيناً ولليتامي أباً فنودي من غمامة : يا أيوب ممن كان ذلك التوفيق فأخذ أيوب كفّاً من التراب ووضع على رأسه وفيه وقال : يا رب منك ثم خاف من الخواطر فقال : « أنني مستني الشيطان » وقد ذكروا أقولاً أخرى والله العالم .

قوله تعالى : [ووهبنا له أهله ومثلهم معهم] والمراد بقوله : « ومثلهم معهم » فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل فبعد أن أبرأه الله من الأسقام والمكارة بالاغتسال من العين أحيا الله له أهله الذين كانوا ماتوا وهو في البليّة وأحيا له الذين ماتوا وهو في البليّة [رحمةً منا] أي فعلنا ذلك به لرحمتنا إيّاه وليتذكّر ويعتبر به أولو [الألباب] ويعرفوا عاقبة الصبر قالوا : إنّه أطعم جميع أهل بلدتهم سبعة أيّام وأمرهم أن يحمدا الله . ولما كان أيوب حلف قبل ذلك على امرأته لا أمر أنكره من قولها حين وسوس لها الشيطان وكان قد حلف لئن عوفي ليضربنّها مائة جلدة ففعل له : [خذ بيدك ضعفاً] وهو مملء الكف من الشماريخ وما أشبه ذلك و قلنا له : خذ بعدد ما حلفت به من الشماريخ [فاضرب به] دفعة واحدة فإنيك إذا فعلت ذلك برّت يمينك و « الضغث »

الحزمة الصغيرة من الحشيش و نحوه قوله [ولا تحنث] في يمينك نهاء عن الحنث أي لا تورّد الحنث في يمينك وإن البر يتحقق في يمينك بهذا العمل و لقد شرّع الله هذه الرخصة رحمة عليه و عليها لحسن خدمتهاله و رضاه عنها قيل : و هذا الحكم باق .

و روى العياشي بإسناده أن عباد المكي قال : قال لي سفيان الثوري إني أرى لك من أبي عبد الله عليه السلام منزلة فأسأله عن رجل زنى و هو مريض فإن أقيم عليه الحد خافوا أن يموت ما تقول فيه ؟ قال : فسألته فقال لي : هذه المسألة من تلقاء نفسك أو أمرك بها إنسان ؟ قلت : إن سفيان أمرني أن أسألك عنها فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتي برجل قد استسقى بطنه و بدت عروق فخذه و قد زنى بامرأة مريضة فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتى بعرجون فيه مائة شراخ فضربه به ضربة و ضربها به ضربة و خلّى سبيلهما وذلك قوله : « وخذ بيدك ضعفاً فاضرب به ولا تحنث » .

قوله تعالى : [إنا وجدناه صابراً نعم العبد] أي صابراً على البلاء الذي ابتليناه به [إنه أوّاب] رجّاع منقطع إلى الله .

قوله تعالى : و اذكر عبادنا إبراهيم و إسحق و يعقوب أولى الأيدي و الأبصار (٤٥) إنا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار (٤٦) و انهم عندنا لمن المصطفين الأخيار (٤٧) و اذكر اسماعيل و اليسع و ذا الكفل و كل من الأخيار (٤٨) هذا ذكر و ان للمتقين لحسن مآب (٤٩) جنات عدن مفتحة لهم الأبواب (٥٠) متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة و شراب (٥١) و عندهم قاصرات الطرف أتراب (٥٢) هذا ما توعدون ليوم الحساب (٥٣) ان هذا الرزقنا ماله من نفاد (٥٤) .

ثم عطف سبحانه على ما تقدّم من حديث الأنبياء فقال :

[واذكر] يا محمد لا تمتك و قومك [عبادنا إبراهيم و إسحاق و يعقوب] ليقتدوا بهم في حميد أفعالهم و كريم خلالهم فيستحقوا بذلك حسن الثناء في الدنيا و جزيل الثواب في العقبى كما استحق أولئك و إذا قرئ « عبدنا » فيكون التقدير عبدنا إبراهيم و خصّه بشرف إلى نفسه و اذكر إسحاق و يعقوب و صفهم جميعاً فقال : [أولي الأيدي] أي ذوي القوة

على العبادة [والأبصار] الفقه والبصيرة في الدين وحاصل المعنى أولي العلم والعمل « فلا يدي » العمل و « الأبصار » العلم أو المراد من الأيدي النعم على عباد الله بالدعوة إلى الدين والمراد بالأبصار جمع البصر وهو العقل .

قوله : [إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارَ] أي جعلناهم لنا خالصين بأن خلصت لهم ذكرى الدار وهو أنهم يتذكرونها بالتأهب للآخرة و يزهدون في الدنيا كما هو عادة الأنبياء وقيل : المراد « بالدار » الدنيا فحينئذ المراد : أبقيت لهم الذكر الجميل في الدنيا . و قرئ « خالصة » منونة ومضافة فمن نون كان التقدير : جعلناهم خالصين بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها وهي « ذكرى الدار » ومن قرأ مضافة فالمعنى : بما خلص من « ذكرى الدار » يعني أن ذكر الدار قد تكون لله وقد تكون لغيره وهم ذكرهم خالصة لله علماء و عملاً كصبر إبراهيم حين أُلقي في النار في طاعة الله عملاً و يقينه حيث ما راجع أمره إلى غير الله حتى جبرئيل ، علماً وصبر إسماعيل للذبح وصبر يعقوب حين فقد ولده و ذهب بصره .

و اعلم أن النفس الناطقة الإنسانية لها قوتان عاملة و عالمة فالقوة العاملة فأشرف ما يصدر عنها طاعة الله و قد صدر منهم و أمّا القوة العالمة فأشرف ما يصدر عنها معرفة الله و اليقين به فقوله : « أولي الأيدي و الأبصار » إشارة إلى هاتين الحالتين . ثم قال تعالى : [وَ إِنْتَهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ] أي هم المختارين من أبناء جنسهم و اصطفوا للنبوّة و تحمّل أعباء الرسالة و « الأخيار » جمع خير أو خير مخففة كأموال و ميتة و ميت وهو الذي يفعل الأفعال الكثيرة الحسنة واحتج العلماء بهذه الآية في إثبات عصمة الأنبياء لأنّه تعالى حكم عليهم بكونهم أخياراً على الإطلاق وهو يعمّ حصول الخيرية في جميع الأفعال و الصفات .

قوله تعالى : [واذكر إسماعيل و اليسع و ذا الكفل] أي و اذكر لأمتك هؤلاء المذكورين أيضاً ليقنوا بهم و يسلكوا طريقهم و هم قوم آخرون من الأنبياء تحمّلوا الشدائد في دين الله و فصل ذكر إسماعيل عن ذكر أبيه و أخيه لإشعار بعراقته في الصبر و اليسع هو ابن أخطوب بن العجور استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم صار نبياً

و اللام دخل على يسع كما دخل في قوله : « رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً » وقرئ
و الليسع كأن أصله ليسع و اللام أصلية فيعمل ثم دخل عليه حرف التعريف و على
القراءتين علم أعجمي و قيل : هو يوشع . « وذا الكفل » و هو ابن عم يسع وقد فرّ إليه
مائة من بني اسرائيل من القتل فأواهم و كفّلهم .

[و كل من الخيار] المشهورين بالخيرية قد اختارهم الله للنبوّة .

[هذا ذكر] أي شرف و ثناء حسن يُذكرون به في الدنيا وقوله : « هذا ذكر »
بيان عنوان في العاجل لهم من الشأن و قسم آخر من الشأن و هو أعظم .

فشرع في تقرير الباب الثاني فقال : [و إن للمتقين لحسن مآب] أي حسن
مرجع يرجعون في الآخرة إلى ثواب الله و فسّر حسن المآب بقوله : [جنّات عدن] فهي في
موضع جرّ على البذل أي حسن المآب جنّات إقامة و خلود [مفتحة لهم الأبواب]
أي يجدون أبوابها مفتوحة و لا يحتاجون إلى الوقوف عند أبوابها حتّى تفتح .

و قيل : مفتاح تلك الجنان كلمة يقال لها : انفتحي انفتحي أو الملائكة يفتح لهم
و تغلق لهم متى شاءوا .

و احتج القائلون بقدّم الأرواح بقوله : « لحسن مآب » و بكلّ آية على لفظ
الرجوع و يقولون : إن لفظ الرجوع إنّما يصدق لو كانت الأرواح موجودة قبل الأجساد
و كانت في حضرة جلال الله ثم تعلّقت بالأبدان فعند انفصالها عن الأبدان يسمّى
ذلك رجوعاً .

و الجواب أن هذا إن دلّ فإنّما يدلّ على أن الأرواح كانت موجودة قبل
الأبدان و كون الأرواح قبل الأجساد لا يدلّ على قدّم الأرواح بل يدلّ على سبقة
خلقة زمان الروح عن البدن .

قوله : [متكئين فيها] أي مستندين فيها إلى المساند جالسين جلسة الملوك [يدعون
فيها بفاكهة كثيرة و شراب] أي يتحكّمون في ثمارها و شرابها فإذا قالوا شيء منها :
أقبل حصل عندهم و « متكئين » حال قدّمت على العامل فيها و هو قوله : « يدعون
فيها » فالمعنى يدعون في الجنّات متكئين فيها بفاكهة كثيرة أي بألوان الفاكهة و أقسامها

و ألوان الشراب و أقسامها .

و لما بين أمر المسكن و أمر المأكل و المشروب عقبه أمر المنكوح فقال :
[وعندهم قاصرات الطرف أتراب] أي ولهم في هذه الجنان أزواج قصرن طرفهن
على أزواجهن راضيات بهن و مالهن في غيرهم رغبة و معنى « قاصر » نقيض الماد ، يقال :
فلان قاصر طرفه عن فلان و ماد عينه إلى فلان قال امرؤ القيس :

من القاصرات الطرف لودب محول * من الذر فوق الإبتعنها لأثرا

[أتراب] أي أقران على سن واحد ليس فيهن عجوز ولا هرمة و أمثال و أشباه
أو متساويات في الحسن و مقدار الشباب لا يكون لواحدة على صاحبها فضل في ذلك
و قيل : معنى أتراب على مقدار سن الأزواج كل واحدة منهن ترب زوجها لا تكون
أكبر منه و « الترب » اللدة مأخوذ من اللعب بالتراب و لا يقال إلا في الإناث .

[هذا ما توعدون] أي ما ذكر من هذه النعم هو الذي وعدتم به و يخاطب
المتقون فيقال لهم هذا القول [ليوم الحساب] والجزاء .

ثم أخبر سبحانه عن دوام هذه النعم فقال : [إن هذا لرزقنا ماله من نفاق]
و ليس له انقطاع بل هو دائم باق ببقاء الله .

قوله تعالى : هذا و ان للطاغين لشر مآب (٥٥) جهنم يصلونها فبئس
المهاد (٥٦) هذا فليذوقوه حميم و غساق (٥٧) و آخر من شكله أزواج (٥٨)
هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم انهم صالوا النار (٥٩) قالوا بل انتم
لا مرحبا بكم انتم قدمتموه لنا فبئس القرار (٦٠) قالوا ربنا من قدم لنا هذا
فزده عذابا ضعفا في النار (٦١) .

المعنى : لما بين أحوال أهل الجنة و ما أعد لهم من النعم عقبه ببيان أحوال
أهل النار و ما لهم من أليم العذاب فقال :

[هذا] أي ما ذكرناه ثواب للمتقين ثم ابتداء فقال : [و إن للطاغين] الذين
طغوا على الله و كذبوا رسله [لشر مآب] و هو ضد مآب المتقين و فسر ذلك الشر فقال :
[جهنم يصلونها] أي يدخلونها حال كونهم ملازمين النار [فبئس المهاد] و المسكن
و المهاد .

[هذا فليذوقوه حميم و غساق] أي هذا الجزاء للطاغين فليذوقوه حميم و غساق أي هذا الجزاء حميم و هو الحار الشديد الحرارة و الغساق فيح شديد النتن والعفونة خلاف الصفاء و قيل : الغساق ضد الحميم البارد الزمهرير فالمعنى أنهم يعدّون تارة بحال شراب الذي انتهت حرارته و ببارد الذي انتهت برودته فبرده يحرق كما تحرق النار و قيل : الغساق عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذات حمة من الحيات و العقارب وغيرها و قيل : الغساق هو ما يسيل من دموعهم يسقونه مع الحميم و قيل : الغساق هو عذاب لا يعلمه إلا الله من شدته و هو مأخوذ من الظلمة .

[و آخر من شكله أزواج] أي و ضروب آخر من شكل هذا العذاب و جنسه أزواج أي أنواع و ألوان متشابهة في الشدة لأنواع واحد و الضمير في قوله . « من شكله » يعود إلى الحميم و يرجع إلى العذاب الذي يعدّون به أهل جهنم .

و اختلفوا في المراد بالطاغين فأكثر المفسرين حملوه على الكفار . و قال الجبائي : إنه محمول على أصحاب الكبائر سواء كانوا كفاراً أولم يكونوا .

واحتج الأولون بوجوه : الأول أن قوله : « لشرّ مأب » يقتضي أن يكون مأبهم شرّاً من مأب غيرهم و ذلك لا يليق إلا بالكفار . الثاني أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا : « اتخذناهم سخريّات » و ذلك لا يليق إلا بالكافر لأنّ الفاسق لا يتخذ المؤمن سخريّات . الثالث أنه اسم ذمّ والاسم المطلق محمول على الكامل والكامل في الطغيان هو الكافر . وأما حجة الجبائي قوله تعالى : « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى »^(١) وهذا يدلّ على أن الوصف بالطغيان قد يحصل في حقّ صاحب الكبيرة و لأنّ كلّ من جاوز عن تكاليف الله و تعدّاه فقد طغى .

و بالجملة لما وصف الله مسكن الطاغين و ما كولهم حكى سبحانه أحوالهم مع الذين كانوا أحبّاء لهم في الدنيا أو لا ثمّ مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا ثانياً أمّا الأول فهو قوله : [هذا فوج مقتحم معكم] و ههنا حذف أي يقال لهم : « هذا فوج » وهم مادة الضلالة إذا دخلوا النار ثمّ يدخل الأتباع فيقول الخزنة للقادة : هذا فوج ،

أي قطع من الناس وهم الأتباع «مقتحم معكم» في النار دخلوها و الافتحام الدخول في الشيء بشدة و صعوبة و قيل : يعنى بالأول إبليس و أولاده وبالفوج الثاني يعنى بني آدم و المراد أن بني إبليس مقتحم مع بني آدم يدخلون النار و أنتم معهم .
[لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار] فيكون على المعنى الأول أن الفادة و الرؤساء يقولون للأتباع : لا مرحباً بهؤلاء إنهم يدخلون النار مثلنا و لازموها فيقول الأتباع لهم : [بل أنتم لا مرحباً بكم] ولا نلتهم رحباً وسعة [أنتم قد متموه لنا] و حملتمونا على الكفر الذي أوجب لنا هذا العذاب و دعوتهمونا إليه .

و أما على القول الثاني إن أولاد إبليس يقولون لبني آدم : لا مرحباً بهؤلاء قد ضاقت أما كننا بهم و نحن بسببهم في الضيق و الشدة و قد ورد عن النبي ﷺ أن النار تضيق عليهم كضيق الزج بالرمح قالوا : « بل أنتم لا مرحباً بكم » أي يقول بنو آدم لبني إبليس : بل لا كرامة لكم أنتم شر عتموه لنا و زينتموه في نفوسنا حتى استوجبنا هذا العذاب [فبئس القرار] الذي استقرنا عليه و هو جهنم .

[قالوا] ثم قالت الأتباع : [ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار] معناه نظير قوله تعالى : « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً ^(١) » والمراد من «الضعف» عذاب الضلال و عذاب الإضلال لقوله ﷺ : من سن سنة سيئة فعلية وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

هذا شرح أحوال الكفار مع الذين كانوا أحبباً لهم في الدنيا و أما شرح أحوالهم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا :

قوله تعالى : و قالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار (٦٢) اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار (٦٣) ان ذلك لحق تخاصم أهل النار (٦٤) قل إنما أنا منذر و ما من اله الا الله الواحد القهار (٦٥) رب السموات و الارض و ما بينهما العزيز الغفار (٦٦) قل هو نبؤ عظيم (٦٧) انتم عنه معرضون (٥٨) ما كان لى من علم بالملاء الاعلى اذ يختصمون (٦٩) ان يوحى الى الا انما انا نذير مبين (٧٠) .

فحكى سبحانه مقالات أهل النار بقوله : [وقالوا مالنا لانرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار] فيقولون هذا الكلام حين ينظرون في النار فلا يرون من كان يخالفهم مسلكاً في الدنيا وهم يعنون فقراء المسلمين أو المؤمنين وسموهم من الأشرار بمعنى الأراذل الذين لاخير ولاجدوى فيهم أو لأنهم بزعمهم على خلاف الدين .

ثم قالوا : [اتخذناهم سخرياً] أي لمآلهم يروهم في النار قالوا : اتخذناهم هزواً في الدنيا فأخطأنا أم عدلت عنهم أبصارنا فلانراهم وهم معنا في النار قرئء « اتخذناهم » بهزمة الوصل وبهزمة القطع و وجه فتح الهزمة يكون على التقرير و عودلت « بأم » كما عودلت بأم في قوله : « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » .

فإن قيل : فما الجملة المعادلة بقوله : « أم زأغت عنهم الأبصار » على قول من كسر الهزمة في قوله : « اتخذناهم » ؟ فحينئذ الجملة المعادلة لأم محذوفة والمعنى والتقدير : أتراهم أم زأغت الأبصار مثل قوله : « أم كان من الغائبين ^(١) » لأن المعنى أخبروني عن الهدهد أحاضر هو أم كان من الغائبين و « سخرية » إذا كان بضم السين فمعناه التذليل والتسخير والعبودية و أمّا إذا كان بكسر السين فمعناه الهزؤ .

قوله تعالى : [إن ذلك لحق تخاصم أهل النار] و لما حكى سبحانه عنهم هذه المقالات في النار من التابعين و المتبوعين فقال سبحانه : إن ذلك الذي حكيناه عنهم لحق و لابد أن يتكلموا به ثم يبين أن هذه المقالات تخاصم أهل النار و سمي تخاصماً هذا الكلام لأن قول الرؤساء : « لا مرحبا بهم » وقول الأتباع : « بل أنتم لا مرحبا بكم » من باب الخصومة و مجادلة بعضهم بعضاً .

ثم خاطب نبيّه فقال : [قل] يا محمد : [إنما أنا منذر] أي مخوف و محذر من معاصي الله [وما من إله] تحقق له العبادة [إلا الله الواحد القهار] لجميع خلقه المتعالي بسعة مقدوراته فلا يقدر أحد على الخلاص من عقوبته إذا أراد عقابه .

[رب السماوات والأرض وما بينهما] من الإنس والجن و كل خلق [العزيز] الذي لا يغلبه شيء [الغفار] لذنوب عباده مع قدرته على عقابهم و حاصل المعنى أنه أبلغ

يا محمد أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد وأحوال ثواب من أقر بها كما بدأ في أول السورة بأدلة التوحيد والنبوة .

قوله تعالى : [قل هو نبؤ عظيم أنتم عنه معرضون] قل يا محمد : هو نبؤ و يختلف في مرجع الضمير . قيل : هو القرآن أي حديث عظيم لأنه كلام الله المعجز وقيل : هو أي خبر القيامة خبر عظيم أنتم عن الاستعداد لها معرضون وغافلون و بها مكذبون وقيل : معناه النبأ الذي أنبأتكم به عن الله نبأ عظيم وذلك لأن هذه المطالب الثلاثة المذكورة في أول السورة مثل قوله : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » وهؤلاء الأقوام أعرضوا عنه على ما قال : « أنتم عنه معرضون » والقمي : يعني به أمير المؤمنين وفي البصائر عن الباقر عليه السلام هو والله أمير المؤمنين ، وعن الصادق النبأ الإمامة . وقيل : المعنى ما أنبأتكم من نبأ آدم والملائكة وقصص الأولين نبأ عظيم وأنتم لا تتفكرون فيه فتعلموا صدقي في نبوتي .

وبدل على هذا المعنى قوله : [ما كان لي علم بالملائكة الأعلى] يعني الملائكة [إذ يختصمون] وهذا الكلام مسوق لتحقيق أن النبأ عظيم لأنه وارد من جهته تعالى بطريق الوحي من عند الله « والملائكة الأعلى » هم الملائكة وقصة آدم وإبليس وسجود الملائكة واستكبار إبليس والتقدير ما كان لي فيما سبق علم بحال الملائكة الأعلى وإنما علمته بالوحي الذي أنزل إلي وإنما عبر بالمخاصمة بسبب قولهم : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » . ولما جرى هذه المناظرة والسؤال والجواب فشابه المخاصمة والمشابهة علة لجواز المجاز توسعاً فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه [إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين] أي ما كان لي علم باختصاص الملائكة لو لأن الله أخبرني به لم يمكنني إخباركم ولكن ما يوحى إلي أخبركم به وليس يوحى إلي إلا الإيذار البين الواضح فأنا مخوف ومظهر للحق .

ثم يسن اختصاص الملائكة من بيان أمر آدم بقوله :

اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين (٧١) فاذا سويته ونفخت

فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٧٢) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (٧٣)

الا ابليس استكبر و كان من الكافرين (٧٤) قال يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي استكبرت ام كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار و خلقتة من طين (٧٦) قال فاخرج منها فانك رجيم (٧٧) و ان عليك لعنتي الى يوم الدين (٧٨) قال رب فانظرني الى يوم يبعثون (٧٩) قال فانك من المنظرين (٨٠) الى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لا غوينهم اجمعين (٨٢) الاعبادك منهم المخلصين (٨٣) .

ثم ذكر الاختصاص بقوله : [إذ قال ربك للملائكة] و «إذ» يتعلّق بقوله : «يختصمون» وإن اعترض بينهما كلام [إني خالق بشراً من طين] يعني آدم .

[فاذا] سوّيت خلق هذا البشر وتمّمت أعضائه و صورته [و نفخت فيه من روحي] أي جعلت فيه الروح إلى نفسه تشريعاً له و معنى «نفخت فيه» أي تولّيت فعله من غير سبب و واسطة كالولادة المؤدّية إلى ذلك فتبيّن أن الإنسان مرّكب من جسد و هو الطين و من نفس و هو الروح بدليل الآية و ذهبت الحلوليّة الملاعنة إلى أن كلمة «من» تدلّ على التبويض و هذا يوهم أن الروح جزء من أجزاء الله تعالى و هذا في غاية الفساد لأنّ كلّ ماله جزء فهو مرّكب من أجزائه و ممكن الوجود لذاته و محدث و مخلوق و هو غير الله . و أمّا كيفيّة نفخ الروح و حقيقة فهي أمرٌ لا يعلمه إلّا الله و ليس إلّا من عالم الأمر و القدرة و ليس لنا طريق إلى معرفته لكنّه معلوم في الجملة أنّها عبارة عن أجسام شفّافة نورانيّة علويّة العنصر قدسيّة الجوهر وهي تسري في البدن سريان الضوء في الهواء و سريان النار في الفحم .

قوله : [فقموا له ساجدين] أمر سبحانه الملائكة بعد التسوية و نفخ الروح بالتعظيم و السجود له و توجّه أمر الله عليهم بالسجود له و أمّا أن المأمور بذلك السجود ملائكة الأرض أو دخل فيه ملائكة السماوات جميعاً كما هو المستفاد مثل جبرئيل و ميكائيل و الروح الأعظم المذكور في قوله : «يوم يقوم الروح و الملائكة صفّاً» (١) ، ففيه مباحث عميقة .

و احتج بعض الجبهة بإثبات الأعضاء والجوارح لله تعالى بقوله تعالى : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » بأن ظاهر الآية يدل عليه فوجب المصير إليه و آيات كثيرة واردة على وفق هذه الآيات فوجب القطع به .

والجواب أن الدلائل القطعية على نفي كونه جسماً من كِبَا كثيرة وقد سبق ذكرها في مواضع ولكن لا بأس بذكر نكتة منها حتى تجري مجرى الإلزام لأن من قال : إن الله تعالى شأنه مركب من الأعضاء و الأجزاء لزمه تعالى من هذا القول إثبات صورة لا يمكن أن يزاد عليها في القبح فضلاً عن بطلان التركيب الذي هو أصل أصيل لأنه يلزمه إثبات وجه لا يوجد منه إلا رقعة الوجه لقوله : « كل شيء هالك إلا وجهه ^(١) » و يلزمه تعالى أن يثبت في تلك الرقعة عيوناً كثيرة لقوله : « تجري بأعيننا ^(٢) » و أن يثبت له جنباً واحداً لقوله : « يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله ^(٣) » و أن يثبت على ذلك الجنب أيدي كثيرة لقوله : « ما عملت أيدينا ^(٤) » و بتقدير أن يكون له يدان فإنه يجب أن يكون يده تعالى من الحجر الصلب لقوله ^(٥) : الحجر الأسود يمين الله في الأرض و أن يثبت له ساقاً واحداً لقوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق ^(٥) » فحينئذ الحاصل من مثل هذه الصورة أفتح الصور بحيث لو كان صاحب هذه الصورة عبداً لم يرغب أحد في شرائه فكيف يقول العاقل : إن أحسن الخالقين صورته كذلك فتبين أن المراد من قوله : « بيدي » و أمثاله ليس معنى الظاهر بل القدرة بحكم العقل والنقل تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

قوله : [فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين] مفسر في سورة البقرة و الغرض والنظم في الآية المنع من الحسد والكبر و الكفار إنما نازعوا محمداً في نبوته بسبب الحسد والكبر فأنه تعالى ذكر هذه القصة ليصير سماعها زاجراً لهم عن هاتين الصفتين المذمومتين .

وهنا تحقيق وهو أن العلماء ذكروا في قوله : « بيدي » وجوهاً : الأول أن

(١) الباقية : ١٤ .

(١) القصص : ٨٨ .

(٤) يس : ٧١ .

(٣) الزمر : ٥٦ .

(٥) القلم : ٤٢ .

المراد من « اليد » القدرة و الاستيلاء تقول العرب : مالي بهذا الأمر من يد أي من قوة و طاقة . الثاني اليد عبارة عن النعمة . الثالث أن لفظ اليد قد يراد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان : هذا ما كسبت يداك .

فلو قيل : حمل اليد على القدرة غير جائز لأنه لو كانت اليد عبارة عن القدرة فكل شيء مخلوق بالقدرة حتى إبليس و لم تكن هذه العلّة علّة لكون آدم مسجوداً لإبليس أولى من أن يكون إبليس مسجود الآدم و كذلك لو كانت اليد عبارة عن النعمة فهو أيضاً باطل لأن نعم الله كثيرة و إن تعدّ و نعمته لا تحصىها ^(١) ، و النعمة مخلوقة فحينئذ هذا الأمر لا يكون سبب الكمال بل سبب النقصان ؛ لكن المعنى أن السلطان العظيم إذا كان له عناية شديدة في عمل يجعل العناية الشديدة بمنزلة العمل باليد شخصاً مجازاً لاهتمام الأمر به و توسعاً .

و بالجملة قوله : [قال ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي] هذا سؤال توبيخ ومعنى « لما خلقت بيدي » توليت خلقه من غير واسطة ومثل هذا المعنى قوله : « مما عملت أيدينا » [أستكبرت أم كنت من العالين] أي أرفعت نفسك فوق قدرك وتعظمت عن امتثال أمري أم كنت من الذين تعلو أقدارهم عن السجود فتعاليت عنه ؟

[قال] إبليس : [أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين] و فضل النار على الطين [قال] الله سبحانه : [فاخرج منها] من الجنة أو من السماوات [فإنيك رجيم] طريد و مبعد عن رحمتي [وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين] .

[قال] إبليس عند ذلك : [رب فأنظرني إلى يوم يبعثون] أي أخرني إلى يوم يحشرون و هو يوم القيامة [قال] الله : [فإنيك من المنظرين] أي من المؤخرين [إلى يوم الوقت المعلوم] و إنما طلب الإظهار إلى يوم القيامة لأجل أن يتخلص من الموت لأنه إذا أنظر إلى يوم البعث ولم يموت قبل يوم البعث فعند مجيء يوم البعث لا يموت أيضاً فحينئذ يتخلص من الموت فقال الله تعالى : [إنك من المنظرين] إلى يوم الوقت المعلوم ، أي إلى يوم يعلمه الله ولم ينظره إلى يوم القيامة .

[فقال] إبليس : [فبغزتك] أي أقسم بقدرتك التي تفهر بها جميع المخلوقين [لا أغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين] أي أدعو بني آدم إلى الغي و أزين لهم القبائح إلا عبادك الذين استخلصتهم و عصمتهم فلا سبيل لي عليهم و غرضه اللعين من هذا الاستثناء أن لا يقع في كلامه الكذب لأنه علم أنه لا قدرة له عليهم و لو لم يستثن لظهر كذبه وإذا كان الكذب أمر يستكف منه إبليس مع هذه الشقاوة فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه ؟ فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله : «وما أرسلنا من رسول ولا نبي» إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته^(١) ؟

فالجواب أنه لم يقل : إنني لم أقصد إغواء عباد الله المخلصين و هو و إن كان يقصد الإغواء إلا أنه لا يغويهم حيث لا قدرة له عليهم .

فائدة قوله : «إلا عبادك منهم المخلصين» يدل على أن إبليس لا يغوي عباد الله المخلصين فمن وصفه سبحانه في كتابه بأنه من المخلصين معصوم مثل يوسف و أمثاله و ذلك يدل على كذب الحشوية و الذين ينسبون الأنبياء إلى القبائح و ينسبون إليهم بعض المعاصي .

قوله تعالى : قال فالحق و الحق أقول (٨٤) لا ملأن جهنم منك و ممن تبعك منهم اجمعين (٨٥) قل ما سألكم عليه من أجر و ما أنا من المتكلفين (٨٦) ان هو الا ذكر للعالمين (٨٧) و لتعلمن نباه بعد حين (٨٨) .

قال الله تعالى : [فالحق و الحق] قرأ عاصم و حمزة «فالحق» بالرفع «والحق» بالنصب و الباقيون بالنصب فيهما أما الرفع فتقديره فالحق قسمي فيكون مبتدأ و حذف الخبر و أما النصب فيهما فتشبيهاً بالقسم فيكون الناصب له ما ينصب القسم من نحو الله لا فعلن فيكون التقدير الحق لا ملأن و الحق منصوب بأقول أي أقول الحق و يجوز أن يكون «والحق» تأكيداً لقوله : «فالحق» .

و بالجملة [لا ملأن جهنم منك] أي جنسك و هم الشياطين المتمردة [و ممن تبعك منهم] أي من الشياطين التابعين لك أو المراد من قوله «ممن تبعك» من بني آدم

و قوله : [أجمعين] تأكيد من ضمير « منك » أو ضمير « منهم » .
 ثم خاطب النبي ﷺ فقال : [قل] يا محمد لكفار مكّة : [ما أسألكم عليه] أي
 على تبليغ الوحي والقرآن و الدعوة إلى الله [من أجر] و مال تعطونه [و ما أنا من
 المتكلفين] لهذا القرآن من تلقاء نفسي أو المعنى ما أميتكم رسولاً من قبل نفسي و لم
 أتكلف هذا الإتيان بل أمرت به [إن هو إلا ذكر للعالمين] أي ما القرآن إلا موعظة
 للخلق و شرفاً لمن آمن به .

[و لتعلمن] نبأ بعد حين [يا كفار مكّة خبر صدق القرآن بعد الموت و من
 عاش علم ذلك إذا ظهر أمره وعلا حكمه .

فائدة علمية إذا خالف القياس النص يجب تركه ومتابعته والعمل به يوجب الخذلان
 كما أوجب على إبليس الطرد و اللعن لأنه قاس من مقدّمة كاذبة و خالف النص حيث
 قال : من كان أصله خير من أصل غيره فهو خير منه لأنني خلقت من نار و خلق آدم من
 طين فأننا أشرف منه و لا يجوز سجود الأشرف لغير الأشرف لأن الأجرام الفلكية أشرف
 من الأجرام العنصرية و النار أقرب العنصر الفلك من الأرض و الأرض أبعدا عنه
 و النار مضيئة في العالم و الأرض غبراء كثيفة و اللطافة أشرف من الكثافة و النار خفيفة
 يشبه الروح و الأرض ثقيلة يشبه الجسد و الروح أفضل من الجسد و العنصر الثقيل عون
 على تركيب الأجساد و العنصر الخفيف أعون على توليد الأرواح و أشرف أعضاء الحيوان
 القلب و الروح و هما على طبيعة النار و أخس أعضاء الحيوان هو العظم و هو بارد يابس
 أرضي والأجسام الأرضية كلما كانت أشدّ نوراً ومشابهة بالنار كانت أشرف و كلما كانت أكثر
 غبرة و كدورة و مشابهة بالأرض كانت أخسّ مثاله الأجسام الشبيهة بالنار الذهب و الياقوت
 و الأحجار الصافية النورانية كالجواهر و أشرف أجسام العالم الجسماني هو الشمس
 و هي أشبه بالنار في صورته و طبيعته و أثره و توليد المركّبات لانتتم إلا بالحرارة
 و النار القوة الفاعلة و الأرض القوة المنفعلة و الفعل أفضل من الانفعال .

و من هذه المقامات الباطلة استكبر اللعين و آل أمره إلى ما آل لأن كل هذه

الوجوه التي قاسها اللعين أموراً اعتبارية لا متصلة والأمر المتصل والشرف الأصل ما جعله الله أصيلاً وأودع فيه حكمته .

وكل هذه الوجوه متناقضة بمثلها مثاله أن الأرض أمين مصلح فإذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة والنار خائنة تفسد كلما أسلمته إليها ، وكذلك الأرض مستولية بالقدرة على النار فإنها تطفئ النار ، وأما النار فإنها لا تؤثر في الأرض الخالصة فالنار منفعة والأرض فاعلة وقول اللعين : إن من كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه هذه المقدمة كاذبة لأن أصل الرماد النار وأصل الفواكه و الثمار هو الأرض و معلوم بالضرورة أن الأشجار المثمرة خير من الرماد ثم هب أن اعتبار مثل هذه الجهات يوجب الفضيلة إلا أن هذا يمكن أن يصير معارضاً بجهة أخرى أقوى وأولى مثل إنسان أصيل نسيب لكنّه عار عن كل الفضائل و رجل غير نسيب يكون كثير العلم و الفضائل فيكون هو أفضل من ذلك الرجل النسيب العاري فثبت أن قياساته باطلة ولما عارض النص فأبطل .

فإن قيل : هب أن إبليس أخطأ في هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة فإن قوله تعالى : « اسجدوا » أمر والأمر إذا لم يكن حقيقة في الوجوب و يكون حقيقة في الندب فمخالفة الندب لا توجب العصيان فضلاً عن الكفر و هب أن الأمر حقيقة في الوجوب لكنّه محتمل للندب و مع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلاً عن الكفر؟ و هب أنه للوجوب فإذا كان الخطاب للملائكة وعلى كون إبليس لم يكن من الملائكة لا يدخل في الأمر فخصّص نفسه عن عموم ذلك الأمر بالقياس . ثم هب أنه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأموراً به إلا أن هذا المقدار يوجب العصيان ولا يوجب الكفر فكيف لزمه ؟

فالجواب أنه هب أن صيغة الأمر لا تمدّ على الوجوب لكن إذا ضمت إليها من القرائن ما يدل على الوجوب وجب العمل به وقد حصلت تلك القرائن بقوله : « أستكبرت أم كنت من العالين » فاللعين أئى بذلك القياس ليتوسّل به إلى القدح و الجحود في أمر الله و تكليفه و ذلك يوجب الكفر قطعاً بل أعلى درجة الكفر لأن الجحود أقبح أقسام الكفر .

و اعلم أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على
 كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف و ههنا الحكم بكونه
 رجيماً و رد عقيب ما حكى عنه أنه خصص النص
 بالقياس فهذا يدل على أن تخصيص النص
 بالقياس يوجب هذا الحكم ، انتهى
 تمت السورة .



سورة الزمر

و تسمى سورة الغرف

وهي مكّية كلّها ، وقيل : ثلاثة منها نزلن بالمدينة في وحشيّ قاتل حمزة « قل يا عبادي الذين إلى آخركم » ، وقيل : فقط آية « قل يا عبادي » مدنيّة .
قال أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه وأعطاه ثواب الخائفين الذين خافوا الله .

و روى هارون بن خارجه عن الصادق عليه السلام قال : من قرأ سورة الزمر أعطاه الله شرف الدنيا والآخرة وأعزّه بلا مال ولا عشيرة حتّى يباهم من يراه وحرّم جسده على النار و يبنى له في الجنة ألف مدينة في كلّ مدينة ألف قصر في كلّ قصر مائة حوراء و له مع ذلك عينان تجريان و عينان نضاً ختان و جنتان مدها متان و حور مقصورات في الخيام .

التفسير: ختم الله سورة من بذكر القرآن وافتتح هذه السورة أيضاً بالقرآن فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (١) انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين (٢) الاله الدين الخالص و الذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار (٣) لو اراد الله ان يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار (٤) خلق السموات و الارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل و سخر الشمس و القمر كل يجري لاجل مسمى ألا هو العزيز الغفار (٥) تنزيل مبتدأ وخبره « من الله » أو خبر مبتدأ محذوف أي هذا تنزيل الكتاب . عظم الله أمر القرآن و حث المكلفين على القيام بما فيه و اتباع أوامره ونواهيه بأن قال :

[تنزيل الكتاب من الله العزيز المتعالي عن المثل و الشبه [الحكيم] في أفعاله و الحكيم هو الذي يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة و هذا إنما يتم إذا كان عالماً بجميع المعلومات و غنياً عن جميع الحاجات و وصف نفسه سبحانه تعالى بالعزّة تحذيراً من مخالفة كتابه .

[إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق] ولم ننزله بغير غرض و أنزلنا بالأمر الحق والدين الصحيح [فاعبد الله] وتوجه عبادتك إلى الله وحده [مخلصاً له الدين] من شرك الأوثان والأصنام ومعنى الإخلاص أن يقصد العبد بنيته وعمله إلى خالقه ولا يشوبه أمر آخر من الرياء والسمعة وغرض غير الله ولا يكون فيه وجه من وجوه الدنيا وهو الإسلام وشهادة أن لا إله إلا الله على حسب الحقيقة وهو الاعتقاد الواجب في التوحيد و العدل و النبوة و الشرائع والإقرار بها على حسب الجزم واليقين والعمل بموجباتها و البراءة من

كلّ دين سواها فليكن العبد مشتغلاً بعبادة الله على سبيل الإخلاص لقوله تعالى : « فاعبد الله مخلصاً » ومتبرّأً عن عبادة غيره وأن لا يجعل الله تعالى في العبادة شريكاً وهو المراد من قوله تعالى : [أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ] لأنّ قوله : « أَلَا لِلَّهِ » يفيد الحصر و معنى الحصر أن يثبت الحكم في المذكور و ينتفي عن غير المذكور كما أن قوله تعالى : « وما أُمِّروا إِلَّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين »^(١) .

وشرط المعتزلة في قبول العبادات التخلّص من الكبائر وقال غيرهم : إن المعصية لا تضرّ مع الإيمان كما أن الطاعة لا تنفع مع الكفر محتجين بما روي عن النبي ﷺ قال الله : لا إله إِلَّا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي وبالجملّة فالمسألة خلافية بين الأشاعرة والمعتزلة والأكثر على أن الآية متناولة لكلّ ما كلف الله به من الأمر والنواهي وهذا هو الأولى ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى : « إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ »^(٢) نعم إن شهادة أن لا إله إِلَّا الله بمنزلة العمود ولكن أين الطنب و عمود الخيمة لا ينتفع به إِلَّا مع الطنب النهاية أن صاحب هذه الكلمة لا يخلّد و مع ذلك هذه الكلمة مشروطة بشرائط وليست مطلقة قال القاضي عبد الجبار : وأما ما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعاذ وأبي الدرداء : وإن زنى وإن سرق ، على رغم أبي الدرداء فإن صحّ فإنه يجب أن يحمل عليه بشرط التوبة لأنّه مخالف للقرآن قال القاضي : ولأنّه يوجب أن لا يكون إلاّ إنسان مزجوراً عن الزنى والسرقه لأنّه يعلم أنّه لا يضرّه مع التمسك بالشهادتين فكان ذلك إغراء بالقبيح وهو ينافي الحكمة انتهى كلام القاضي .

فلو قيل : إن القول بأنّه يزول ضرر العصيان بالتوبة يوجب أيضاً الإغراء بالقبيح .

فنقول : ليس الأمر كذلك لأننا نعتقد ونقول : إن فعل القبيح مضر لكنّه يزول ذلك الضرر بفعل التوبة في الجملة إذا كانت مقبولة و مأتمّة بشرائطها و آدابها و لما كان الإيمان بالشرائط و الآداب غير محقق والقبول أيضاً غير يقيني فحينئذ لا يكون إغراء

(١) البينة : ٥

(٢) المائدة : ٣٠ .

بالقبيح بخلاف قول من يقول : إن فعل القبيح لا يضر مع الشهادتين ثم من أين تحقق قول القاضي من أن القول به مخالف للقرآن لأنه لما لم يحصل القطع بحصول العفو في حق كل أحد من الناس والعاصين كان الخوف حاصلًا للعاصي في القبول فلا يكون حينئذ الإغراء حاصلًا انتهى .

قوله تعالى : [والذين اتخذوا من دونه أولياء] أي زعموا أن لهم من دون الله مالكا عليهم والتقدير : أنهم يقولون : [مانعهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى] فمرادهم أن عبادتهم لها تقر بهم إلى الله ومعنى « زلفى » أي قربى والتقدير ليقربونا قريبا وحاصل الكلام أن العباد للأوثان والأصنام والملائكة والشمس والقمر كانوا يقولون : إن الإله الأعظم أجل من أن يعبد البشر ، والبشر اللائق به أن يشتغل بعبادة الأكبر من هؤلاء مثل الكواكب ومثل الأرواح السماوية ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر و يتشفعون لنا .

فاقتصر سبحانه في الجواب لهم بإسماع التهديد والتخويف فقال : [إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون] وقد يكون الدعوى من الخصم واهية بحيث لا تكون قابلة للاستدلال في رده فحينئذ يكون الجواب التهديد والتخويف فإن وصفهم لهذه الأوثان والأصنام بأنها آلهة ومستحقّة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وكانت قبل ساعة أو سنة شجرة في بستان أو صخرة في جبل وهم بأيديهم عملوها والعلم الضروري حاكم بأن وصف هذه الأشياء بالالهية والإدراك والقوة والتصرف كذب محض فلا يكون جوابهم إلا التهديد وقد كفروا بنعمة الله فإن العبادة نهاية التعظيم وهي لا تليق إلا لمن صدر منه هذه النعمة فعبادة غير المنعم كفران نعمة المنعم .

ثم قال سبحانه : [إن الله لا يهدي] إلى طريق الجنة أو لا يحكم بهديته إلى الحق [من هو كاذب] على الله وعلى رسوله [كفار] بما أنعم الله عليه وليس مراده سبحانه من الهداية الهداية إلى الإيمان لقوله سبحانه : « وأما مود فهديناها » (١) . قوله تعالى : [لو أراد الله أن يتخذ ولداً] على ما يقوله هؤلاء من أن الملائكة

بنات الله أو ما يقوله النصارى : من أن المسيح ابن الله أو اليهود من أن عزيزاً ابن الله .
قوله : [لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار] أي لاختر من خلقه ما يشاء أي ما كان يتخذ الولد باختيارهم حتى يضيفوا من شاءوا بل يختص ما يشاء لذلك ومثله قوله : « لو أردنا أن نتخذ لهم ولاً لاتخذناه من لدنا ^(١) » وهو منزّه عن مثل هذه النسبة لأنه الواحد الحقيقي والولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء . ينفصل عنه وإذا كان كذلك فيكون ذا أجزاء فهو مركّب محتاج إلى جزئه ولا يتصور الفردية المطلقة مع حصول الأجزاء و شرط الولدية أن يكون الولد ممثلاً في تمام الماهية للوالد فيكون حقيقة الولد حقيقة الوالد حقيقة نوعية محمولة على شخصين أو ثلاث وهذا الشخص لا يكون واجب الوجود لذاته ولا يكون واحداً القهار لخلقهم بالموت والفناء .

ثم نبّه على قدرته بقوله : [خلق السماوات والأرض بالحق] فلمّا طعن في الآية السابقة جعل الأصنام المخلوقة وعباده المربوبة كونها آلهة ذكر في هذه الآية الصفات التي باعتبارها يحصل الإلهية والخالقية فاستدلّ بقدرة على خلق السماوات والأرض واختلاف حال الأفلاك والليل والنهار وهو المراد بقوله :

[يكوّر الليل على النهار و يكوّر النهار على الليل] و بيانه أن النور والظلمة آيتان عجيبتان و في كلّ يوم يغلب هذا تارة ذاك و ذاك تارة هذا ففي هذا الاختلاف دلالة على أن كلّ واحد منهما مغلوب ومقهور بغالب وقاهر ومسخر لهما يكونان تحت حكمه وتديره ومعنى « يكوّر » يدخل فما يزيد في أحدهما ينقص من الآخر والشمس سلطان النهار بل الحاكم والقمر سلطان الليل و أكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقد قدر حرّكتهما بطرز مخصوص إلى زمان مخصوص مسمّى و هو يوم القيامة وهما مسخرتان بأمره .
[ألا هو العزيز الغفار] و هو سبحانه مع هذه القدرة العظيمة غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان والمراد من بيان الآية أن من هو قادر على خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر وتكوير الليل والنهار ليس بمحتاج في اتّخاذ الولد منزّه عنه .
قوله تعالى : خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها و انزل لكم

من الانعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فاني تصرفون (٦) ان تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر اخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون انه عليم بذات الصدور (٧) و اذا مس الانسان ضرر عاربه منيباً اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا اليه من قبل و جعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً انك من أصحاب النار (٨) أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون و الذين لا يعلمون انما يتذكر اولوا الالباب (٩) قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة و ارض الله واسعة انما يوفي الصابرون اجرهم بغير حساب (١٠) .

المعنى : فبعد أن استدلل على كمال قدرته بخلق الآفاق استدلل في هذه الآية بخلق الأنفس فاستدل بخلق آدم وذريته فقال :

[خلقكم من نفس واحدة] يعني آدم لأن جميع البشر من نفسه و نسله [ثم جعل منها زوجها] يعني حواء من فضل طينه و قيل : من ضلع من أضلاعه و « ثم » يقتضي التراخي و المهلة .

و بعد ذلك استدلل سبحانه بخلق الحيوان فقال : [و أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج] و هي الإبل و البقر و الضأن و المعز ذكراً و أنثى و معنى « الأنزال » هنا الإحداث و الإنشاء كقوله : « وقد أنزلنا عليكم لباساً ^(١) » و لم ينزل اللباس ولكن أنزل الماء الذي هو سبب القطن والصوف و اللباس يتكون منهما فكذلك هنا الأنعام تتكون بالنبات و النبات يكون بالماء أو المعنى أنه أنزلها بعد أن خلقها في الجنة و في الخبر : الشاة و الإبل من دواب الجنة و قيل : إن المعنى جعل الأنعام تنزل و رزقاً لكم قوله : [يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق] يعني نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم يكسي العظام لحماً ثم ينشئ خلقاً آخر و قيل : معناه خلقاً في

بطوق الأمتهات بعد الخلق في ظهر آدم ﷺ [في ظلمات ثلاث] ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة وقيل : الصلب والرحم والبطن .

ثم خاطب سبحانه خلقه فقال [ذلكم الله ربكم] أي ذلكم الشيء الذي عرفتم و بيننا من عجائب الأفعال وصنعه هو الله ربكم وخالفكم يملك التصرف فيكم [له الملك] لا لغيره [لا إله إلا هو] لأنه لو ثبت إله آخر فذلك الإله إما أن يكون له الملك أو لا يكون فإن كان له الملك فحينئذ يكون كل واحد منهما قادراً مالئاً ويجري بينهما التمانع وإن لم يكن للثاني شيء من الملك والقدرة فيكون ناقصاً ولا يصلح للإلهية .

ثم زيف سبحانه طريقة المشركين بقوله : [فأنسى تصرفون] عن طريق الحق مثل قوله : « فأنسى تؤفكون » قالت المعتزلة ردّاً على الأشاعرة بأن هذا الكلام تعجب وإنكار عن هذا الانصراف ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو الله لم يبق لهذا الإنكار والتعجب معنى لأنه تعالى لو كان هو الصارف كما قالت الجبرية فمستم يستنكر ومستم يتعجب فثبت أن الصارف غيره .

قوله تعالى : [إن تكفروا] أي تبحدوا نعمة الله [فإن الله غني عنكم] وعن عبادتكم وشكركم فلا يضره كفركم [ولا يرضى لعباده الكفر] وفي الآية أوضح دلالة على أنه سبحانه لا يريد الكفر الواقع من العباد لأنه لو أراد له لوجب متى وقع أن يكون راضياً لعبده وكيف يتصور أن يرضى بشيء ولم يرد الأثرى أنه يستحيل أن نريد من غيرنا أمراً ويقع على وفق ما نريد فلا نكون راضين به أو أن نرضى شيئاً ولم نرده .

[وإن تشكروا يرضه لكم] وإن تشكر الله تعالى على نعمه وتعترفوا بها يرضه لكم والهاء في « يرضه » راجعة إلى المصدر الذي دلّ عليه الفعل وهو قوله : « وإن تشكروا » والتقدير : يرضى الشكر لكم مثل قولهم : من كذب كان شرّاً له أي كان الكذب شرّاً له .

[ولا تنز وازرة وزر أخرى] أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى أي لا يؤاخذ بالذنوب إلا من يرتكبها ويفعله [ثم إلى ربكم مرجعكم] أي مصيركم [فينبئكم بما كنتم

تعملون [أي يجازيكم بحسب عملكم] إنه عليهم بذات الصدور [و لا يخفى عليه سر و علانية .

قوله تعالى : [و إذا مس الإنسان ضر] من شدة و مرض وقحط و كل أنواع الضر [دعا ربه منيباً إليه] راجعاً إليه وحده لا يرجو سواه و لا يرجع في طلب دفعه إلا إلى الله [ثم إذا خولّه] أي أعطاه [نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل] أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى أن يكشفه من قبل نيل هذه النعمة أي نسي الدعاء الذي كان يتضرع به إلى الله أو نسي الله الذي كان يتضرع إليه و رجع إلى المعاصي و عبادة الأصنام .

و المراد بالإنسان قيل : أقوام معينون مثل عتبة بن ربيعة و غيره وقيل : المراد به الكافر الذي تقدم ذكره و في قوله : « خولّه » قيل : من قوله : « فلان خائل مال » إذا كان متعبداً له حسن القيام به و منه ما روي عنه عليه السلام أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة و قيل : من مادة خال يخول إذا اختال و افتخروا في هذا المعنى قالت العرب : « إن الغني طويل الذيل ميسر » و كلمة « ما » في الآية بمعنى « من » كقوله : « و ما خلق الذكر و الأنثى » ^(١) و قوله : « و لا أنتم عابدون ما أعبد » ^(٢) و قوله : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » ^(٣) .

قوله : [وجعل الله أنداداً] أي يرجع هذا الإنسان الكافر إلى عبادة الأصنام وسمي له أمثالاً في توجيه عبادته إلى الأصنام [ليضل] الناس [عن سبيله] أي عن دينه أو يضل هو عن الدين و اللام لام العاقبة و ذلك أنهم لم يفعلوا ما فعلوه و غرضهم ذلك لكن آل أمرهم إليه و هو المراد من معنى لام العاقبة [قل تمتع بكفرك قليلاً] و هذا أمر معناه الخبر كقوله : إذا لم تستحي فاصنع ما شئت ، و المعنى أن مدة تمتعه في الدنيا قليلة زائلة [إنك من أصحاب النار] تعذب فيها دائماً .

(١) الليل : ٣ .

(٢) الجحد : ٣ و ٥ .

(٣) النساء : ٣ .

قوله: [أم من هو قانت] أي هذا الذي ذكرناه خير أم من هو دائم على الطاعة و قيام الليل و قيل : صلاة الليل عن الصادق عليه السلام [آناء الليل] أي ساعات الليل والقانت القائم بما يجب عليه من الطاعة و منه قوله عليه السلام أفضل الصلاة صلاة القنوت و هو القيام فيها و آناء الليل ، أوقاته أوله و وسطه و آخره و عبادة الليل أفضل لأنها أستر على العيون فيكون أبعد عن الرياء لأن الظلمة تمنع الأبصار ونوم الخلق يمنع من السماع فالقلب يكون أفرغ ، وترك النوم أشق فيكون الثواب أكثر كما قال سبحانه : « إن ناشئة الليل هي أشد وطأً و أقوم قياماً » (١) .

قوله : [ساجداً أوقائماً] أي يسجد تارة و يقوم أخرى في الصلاة و في الكلام حذف والتقدير : آمن هو قانت كغيره [يحذر الآخرة و يرجو رحمة ربه] أي يتردد بين الخوف و الرجاء أي ليس أسوأ و هو قوله :

[قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب] بمثل هذه الأمور و يتعظ ذوي العقول من المؤمنين عن الصادق عليه السلام أنه قال : نحن الذين يعلمون و عدونا الذين لا يعلمون وشيعتنا أولو الألباب .

[قل يا عبادي الذين آمنوا] « قل يا محمد : يا عبادي الذين صدقوا بتوحيد الله [اتقوا] عقاب [ربكم] باجتنب معاصيه .

وتم الكلام ثم قال سبحانه : [للذين أحسنوا] أي فعلوا الأفعال الحسنة والأعمال الصالحة وأحسنوا إلى غيرهم [في هذه الدنيا حسنة] أي ثناء حسن و ذكر جميل ومدح وشكر و صحة و سلامة و قيل : معناه الذين أحسنوا في هذه الدنيا لهم مثوبة حسنة في الآخرة و هو الخلود في الجنة و التكبير في « الحسنة » للتعظيم .

[وأرض الله واسعة] و المراد أنه لا عذر للمقصرين في الإحسان حتى أنهم إن اعتكفوا بأوطانهم و بلادهم بأنهم لا يتمكنون فيها من التوفرة على الإحسان قيل لهم : « إن أرض الله واسعة » فتحولوا من هذه البلاد إلى بلاد تقدر على الاشتغال بالطاعات و العبادات و الاقتداء بالأنبياء في مهاجرتهم لتزدادوا إحساناً إلى إحسانهم

و قيل : المراد حث لهم على الهجرة من مكة وقيل: المعنى : و أرض الجنة واسعة فاطلبوها بالأعمال الصالحة .

[إنما يوفى الصابرون أجرهم] أي ثوابهم على طاعتهم و صبرهم على شدائد الدنيا [بغير حساب] لكثرة ما لا يمكن عدّه وحسابه روى العياشيّ بالإسناد عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله : إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين لم ينصب لأهل الصبر في الشدائد ميزان ولم ينشر لهم ديوان بل يصبّ الرحمة عليهم صبّاً حتّى يتمنّى أهل العافية في الدنيا أنّ أجسادهم تفرّض بالمقاريض لما به أهل البلاء من الفضل ثم تلا هذه الآية : «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» .

قوله : قل اني امرت ان اعبد الله مخلصاً له الدين (١١) و امرت لان أكون أول المسلمين (١٢) قل اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٣) قل الله اعبد مخلصاً له ديني (١٤) فاعبدوا ما شئتم من دونه قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم واهليهم يوم القيمة ألا ذلك هو الخسران المبين (١٥) لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون (١٦) والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها و أنا بوا الى الله لهم البشري فبشر عباد (١٧) الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله و أولئك هم أولوا الباب (١٨) أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار (٢٩) لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد (٣٠) .

النظم قيل : إن كفّار قريش قالوا للنبي ﷺ : ما حملك على هذا الذي أنت الذي آتيتنا به ألا تنظر إلى ملّة قومك و سادات عشيرتك يعبدون الآلات والعزّى فأنزّل الله : [قل] يا عمّ : [إنني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين] و العبادة الخالصة ما لا يشوبه الشرك بل شيء من المعاصي [و أمرت] أيضاً [لأن أكون أول المسلمين] فيكون لي فضل سبق^(١) و ثوابه و التكليف نوعان أحدهما الاحتراز عمّا لا ينبغي و الثاني

(١) يريدان الأوليه ليست من جهة الاسلام والايمان فان أول من آمن بهذه الشريعة و عرفها و اسلم لله لا بد و ان يكون الرسول نفسه ولا يمكن غير ذلك حتى يؤمر النبي بذلك بل المراد ان يكون الرسول في طاعة الله و اجراء احكامه الواجبة و المندوبة سابقاً على المؤمنين و المسلمين .

الأمر بتحصيل ما ينبغي ويعبر بالتخلية و التحلية فالعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح وتكرار «أمرت» مشعر لهذا المعنى فليس بتكرار فالأمر مشترك معناه في الوجوب والندب والإباحة ومشارك اللفظي كالعين .

[قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم] أي عذاب يوم القيامة ولما بين سبحانه وأمره بالإخلاص بالقلب وبالأعمال الجوارحية وكان الأمر يحتمل الوجوب والندب بين أن الأمر للوجوب بقوله : « قل إني أخاف إن عصيت » إلخ ، وأنه ﷺ مع جلالة قدره و شرف نبوته إذا وجب أن يكون خائفاً من المعاصي فغيره أولى بذلك وإذا كان تارك الأمر عاصياً وخائفاً فتحقق حينئذ أن الأمر للوجوب .

[قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه] وهذا تأكيد في حصر العبادة له سبحانه يعني الله أعبد ولا أعبد سواه وأنتم معاشر الكفار « فاعبدوا ما شئتم من دون الله » من الأصنام وهذا الأمر على وجه التهديد لهم .

[قل] يا محمد : [إن الخاسرين] في الحقيقة هم [الذين خسروا أنفسهم وأهلهم] وإنما خسروا أنفسهم لأنهم قذفوها بين أطباق الجحيم وخسروا أهلهم الذين كان أعداء لهم الجنة قال ابن عباس : إن لكل رجل منزلاً وأهلاً وخدماء في الجنة فإن أطاع أعطي ذلك وإن كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه وأهله ومنزله وورثته غيره من المسلمين ولا خسارة أعظم منها وهو المراد بقوله : [ألا ذلك هو الخسران المبين] البين الظاهر .

ثم شرح حال الخاسرين [لهم من فوقهم ظلل من النار] أي سرادقات وأطباق من النار ودخانها [ومن تحتهم ظلل] أي فرش ومهاد وإنما أطلق اسم « الظلل » على قطع النار على سبيل التوسيع والتهكم في مقابلة ما لأهل الجنة من الظلل والمعنى أن النار تحيط بجوانبهم وإنما سمى ما تحتهم من النار « ظلل » مع أن الظلل لا يكون إلا من جانب الفوق لأنها ظلل لمن تحتهم إذ النار دركات وهم بين أطباقها .

[ذلك يخوف الله عباده] أي ذلك الذي تقدم ذكره من العذاب يخوف الله به عباده ليحترز عباده المؤمنين منه لأنهم إذا سمعوا أن هذا حال الكفار نبهوا وأخلصوا

في التوحيد و العبادة و الأولى أن التخويف للكافر و المؤمن [يا عباد فاتقون] من الشرك و المعاصي .

[و الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها] و لما ذكر سبحانه و عيد المشر كين ذكر في هذه الآية وعد من اجتنب عبادة الأوثان و تجنب عن المعاصي و إنما أنت للجماعة [و أنابوا إلى الله] فأقلعوا عما كانوا عليه من الشرك و رجعوا إلى الله [لهم البشرى] ما يظهر به من السرور و البشارة جزاءً على ذلك و روى أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال: أنتم هم و من أطاع جبّاراً فقد عبده .

ثم قال سبحانه مخاطباً لنبيه ﷺ: [فبشر] يا محمد [عباد] اجتزىء بالكسرة عن الياء [الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه] أي كل من سمع أمراً من أوامر الله فاختار الأفضل منها و الأحسن في كل باب فهو في زمرة السعداء و تميز الأحسن من القول لا يحصل إلا بالسماع عن المخاطب بالوحي فهو المرشد إلى الطريق الصواب و الأصوب فالذي يتبع أحسن ما يؤمر به و يعمل به فهو أهل البشارة بالسعادة الأبدية عن أبي الدرداء قال : لولا ثلاث ما أحببت أن أعيش يوماً: الظّماء بالمواجر والسجود في جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون من خير الكلام كما ينتقى طيب التمر .

و قيل : المراد يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن و الطاعة التي هي أحسن ثواباً و أكثر فضلاً مثل أن القصاص حق و العفو أفضل فيأخذون بالعفو و هكذا و هذا الحكم يجري في كل أبواب الخير من الأمور الاعتقادية و العملية مثل العلم بأن إله العالم يكون حياً عالماً بالجزئيات يصدر منه جزئيات الخير و كليّاته أحسن من أن يعتقد الإنسان أن الله ليس عالمٌ بالجزئيات هذا في الاعتقاد و مثل أن يصلي الإنسان صلاة جامعة لشرايط الصحة و الكمال أحسن من أن يصلي صلاة جامعة لشرايط الصحة دون الكمال و هذا في مثل العمل و هذا المراد بقوله : « فيتبعون أحسنه » .

[أولئك الذين هداهم الله] و حصول الهداية أمرٌ حادث ولا بدّ له من فاعل فالفاعل هو الله و قابل و إليه الإشارة بقوله : [و أولئك هم أولو الأبواب] . و إن الجسم لما كان قابلاً للحركة و السكون على السوية وهي في هذا الأمر متماثلة

فامتنع أن تصير ذات الجسم سبباً لرجحان أحد الطرفين على الآخر فالاختلاف في الأجسام مع أنها متماثلة دليل وجود الفاعل فكذلك القول في الهداية من الفاعل والقابل عرض وإنما قلنا : إن الفاعل لهذه الهداية هو الله لأن جوهر النفس مع ما فيها من نور العقل قابل للاعتقاد الحق والباطل وإذا كان الشيء قابلاً للضدين كانت نسبة ذلك القابل إليهما بالسوية فامتنع كون ذلك القابل سبباً لرجحان أحد الطرفين كما يتنسأ في الجسم لأن ذات النفس كما أنها قابلة لهذه الإرادة فكذلك ذات العقل قابلة لإرادة مضادة لتلك الإرادة فيمتنع كون جوهر النفس محققاً لتلك الإرادة فثبت أن حصول الهداية لا بد لها من فاعل وقابل والفاعل هو الله لكنها مشروطة وجودها بقبول القابل فتأمل هذه الدقيقة و الآية نزلت في ثلاثة نفر كانوا يقولون في الجاهلية : لا إله إلا الله وهم زيد ابن عمرو بن نفيل و أبي ذر الغفاري و سلمان الفارسي و في حصول هذه البشارة من السلطان الأعظم شرط عظيم و هو الإعراض عن غير الله والطواغيت والإقبال على طاعة الله بالكليّة والمقصود من الآية هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات وحاصل الكلام في قوله : « و الذين اجتنبوا الطاغوت » الإعراض عن عبودية ما سواه و في قوله : « و أنابوا إلى الله » الرجوع والإقبال بالكليّة إلى الله .

و في السفر الخامس من التوراة أن الله تعالى قال لموسى : يا موسى أجب إلهك بكل قلبك ولا شك أنه ما دام يبقى في القلب الالتفات إلى غير الله فهو ما أجاب إليه بكل قلبه و إنما تحصل الإجابة بكل القلب إذا أعرض القلب عن كل ما سواه من باب الطاعات فمن أطاع الشيطان فقد أعرض عن الله و عبد الشيطان في ذلك الأمر .

و ههنا تحقيق للرازي و هو أنه كيف يعرض الإنسان بالكليّة وهو أنه يشاهد بالحس الأسباب المفضية إلى المسببات في هذا العالم فليس المراد من إعراس القلب عنها أن يقتضي عليها بالعدم بل المراد أن يعرف الإنسان أن واجب الوجود لذاته واحد و أن كل ما سواه فإنه ممكن الوجود لذاته و كل ما كان ممكناً لذاته فإنه لا يوجد إلا بتكوين الواجب و إيجاداً و إنما جعل سبحانه تكوين الأشياء على قسمين منها ما يكون بغير واسطة و هي عالم السماوات والروحانيات والعلويات و منها ما يكون بواسطة وهو عالم العناصر

و العالم السفلي .

فأزاعرت الأشياء على هذا الوجه عرفت أن الكل لله و بالله ومن الله ولا مؤثر إلا هو و حينئذ ينقطع نظره عن هذه الممكنات و يبقى مشغول القلب بالمؤثر الحقيقي فإنه إن كان قد وضع الأسباب بحيث يتأدى إلى هذا المطلوب فهذا الشيء يحصل و إن قد وضع بحيث لا يقضي إلى حصول هذا الشيء لم يحصل و بهذا الطريق ينقطع نظره عن الكل ولا يبقى في قلبه التفات إلى شيء إلا إلى الموجد الأول و قد اتفق أني كنت أنصح بعض الصبيان في حفظ المال فعارضني و قال : لا يجوز الاعتماد على الجهد و الجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله و قدره فقلت : هذه كلمة حق سمعتها ولكن ما عرفت معناها و ذلك لأنه لا شبهة أن الكل من الله من الأسباب و المسببات إلا أنه سبحانه دبّر الأشياء على قسمين : منها ما جعل حدوثه و حصوله معلقاً بأسباب معلومة و منها ما يحدثه من غير واسطة هذه الأسباب أمّا القسم الأول فهو حوادث هذا العالم الأسفل و أمّا القسم الثاني فهو حوادث العالم الأعلى فمن طلب حوادث هذا العالم الأسفل وأراد حصولها لامن الأسباب التي عينها الله تعالى لها كان هذا الشخص مخالفاً لتدبير الله ومنازعاً له لأنه تعالى حكم بحدوث هذه الأمور بناءً على أسباب المعينة المعلومة لحصول المسببات و أنت تريد تحصيلها لامن تلك الأسباب و هذا خطأ فهذا هو الكلام في تحقيق الإعراض و الإقبال عن غير الله و إلى الله فتأمل .

قوله تعالى : [أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار * لكن الذين اتفقوا ربهم] [يسن سبحانه هذه الآية للنبي ﷺ لحرصه على إسلام المشركين . والمعنى أنك لا تقدر على إدخال الإسلام في قلوبهم فلا عليك إذا لم يؤمنوا فإتوا ذلك من قبل نفوسهم وهذا كقوله : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ^(١) » الآية ، وقيل : تقدير الآية أفمن وجب عليه وعيد الله بالعقاب أفأنت تخلصه من النار فاكتمى بذكر « من في النار » عن الضمير العائد إلى المبتدئ و أتى بالاستفهام مرتين توكيداً للتوبيخ على المعنى قال ابن الأثيري : الوقف في الآية على قوله : « كلمة العذاب » و التقدير : كمن وجبت

له الجنة .

قوله : [لكن الذين اتفقوا ربهم لهم غرف] أي قصور [في الجنة من فوقها غرف مبنية] وهذه الآية في مقابلة قوله تعالى : « لهم من فوقهم ظلل من النار و من تحتهم ظلل » فإن في الجنة منازل رفيعة بعضها فوق بعض و ذلك أن النظر من الغرف إلى الخضر والمياه و الجنان أشهى و ألذ [تجري من تحتها] أي من تحت الغرف [الأنهار وعد الله] أي وعدهم الله تلك الغرف و المنازل وعداً [لا يخلف الله الميعاد] ميعاده الذي وعده .

قوله تعالى : ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيح فتراه مصفراً ثم يجعله حطاباً ان في ذلك لذكرى لأولى الالباب (٣٩) أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين (٤٢) الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم و قلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء و من يضل الله فماله من هاد (٤٣) أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيمة و قيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون (٤٤) كذب الذين من قبلهم فاتتهم العذاب من حيث لا يشعرون (٤٥) .

لما قدم سبحانه الدعوة إلى التوحيد في الآيات السابقة عقبه بذكر الدلائل فقال يخاطب النبي ﷺ - وإن كان المراد جميع المكلفين - بقوله : [ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً] أي مطراً [فسلكه] أي فأدخل ذلك الماء [ينابيع في الأرض] مثل العيون و القنى والآبار و ينبوع الموضع الذي يفور منه الماء .

[ثم يخرج به] أي بذلك الماء من الأرض [زرعاً مختلفاً ألوانه] و صنوفه من البر والشعير و الأرز و غيرها من أخضر و أصفر و أبيض و أحمر واللون يطلق على الأصناف و على الألوان .

[ثم يهيح] أي يجف لأنه إذا تم جفافه جاز أن يفصل عن منابته و إن لم تتفرق أجزاؤه فتلك الأجزاء كانتها حاجت لأن تتفرق ثم يصير حطاباً يابساً .

[إن في ذلك لذكرى لأولي الأبواب] لأن من شاهد هذه الأحوال في النبات من الشعير علم أن أحوال الحيوان و الإنسان كذلك وأنه وإن طال عمره فلا بد له من الانتهاء إلى أن يصير منحطم الأجزاء فلما شاهد هذه الحالة فحينئذ تعظم نفرتة من الدنيا وطيباتها ورغب في الآخرة وعلم قوله تعالى : « كما بدأكم تعودون ^(١) » ، وينابيع منصوب بنزع الخافض والتقدير : في ينابيع .

قوله : [أفمن شرح الله صدره للإسلام] أي وسع قلبه لقبول الإسلام والثبات عليه و شرح الصدر يحصل بقوة الأدلة [فهو على نور] ودلالة وهدى [من] [توفيق] [ربّه] و شبه سبحانه الدليل بالنور لأن بها يعرف الحق كما بالنور يعرف أمور الدنيا .
قوله : [فويل للفاضية قلوبهم] و في الآية حذف و تقديره : كمن هو قاسي القلب و يدل على المحذوف « فويل للفاضية قلوبهم عن ذكر الله » و هم الذين ألقوا الكفر و تصلبت قلوبهم حتى لا ينفع فيها و عظم ولا ترغيب ولا تهيب ولا يهتدي لقراءة القرآن و ذكر الله .

و اعلم أن جواهر النفوس تختلف ماهياتها بالملكات الطيبة والخبيثة فتصير بعضها خيرة نورانية شريفة مائلة إلى الإلهيات عظيمة الرغبة في الاتصال بالروحانيات وبعضها ندلة خسيصة مائلة إلى الجسمانيات و هذا التفاوت حاصل في جواهر النفوس البشرية و هو المراد من شرح الصدور و قسوة القلوب و لهذا السبب تختلف جواهر النفوس فإن الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار و يبيض ثوبه و كذلك حرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح وقد نرى إنساناً واحداً يذكّر كلاماً واحداً في مجلس واحد فيستطيعه واحد ويستكرهه آخر و ما ذاك إلا من اختلاف جواهر النفوس .

[أولئك في ضلال مبين] وفي عدول عن الحق واضح .

[الله تراد أحسن الحديث] القرآن سماء الله وحديثاً والكلام سمي حديثاً كما سمي كلام النبي حديثاً و القرآن كلام الله و لأنه حديث النزول بعد الكتب المنزلة على

الأنبيا وهو أحسن الحديث لفرط فصاحته وإعجازه واشتماله على جميع ما يحتاج المكلف من الأحكام .

و في الآية دلالة على حدوث الكلام لأن الحديث لابد وأن يكون حادثاً بل لفظ الحديث أقوى دلالة في حدوث من الحادث والشيء إما أن يكون حادثاً أو قديماً وليس مرتبة بين الحادث والقديم .

قوله : [كتاباً متشابهاً] يشبه بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً وقيل : معناه إنه يشبه كتب الله المتقدمة وإن كان أكمل وأففع وأعم [مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم] سمي القرآن بذلك لأنه يثنى فيه بعض القصص والأخبار والأحكام والمواضع بضروب البيان ويثنى في التلاوة فلا يمل لحسن مسموعه « تقشعر منه جلود الذين » أي تأخذهم قشعريرة خوفاً مما في القرآن من الوعيد [ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله] إذا سمعوا ما فيه من الوعد بالثواب والرحمة وتطمئن وتسكن قلوبهم إلى ذكر الله الجنة والثواب وإن العارفين إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا .

و تركيب لفظ القشعريرة من حروف التقشع وهو الأديم اليابس مضموماً إليها حرف رابع وهو «راء» ليكون رباعياً ودالاً على زيادة المعنى يقال : اقشعر جلدك من الخوف ووقف شعره وذلك مثل في شدة الخوف روي عن عباس بن عبد المطلب أن النبي ﷺ قال : إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحانت عنه ذنوبه كما يتحانت عن الشجرة اليابسة ورقها وهذا المعنى نعت لأولياء الله نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم وإنما ذلك في أهل البدع من المتصوفة وهو من الشيطان .

قوله : [ذلك] يعني القرآن [هدى الله يهدي به من يشاء] من عباده بما نصب فيه من الأدلة وهم الذين آتاهم القرآن من أمة محمد وتدبروا في دلائل القرآن واهتدوا بها .

[ومن يضل الله] عن طريق الجنة بسبب عدم قبول القرآن والهداية [فما له

من هاد [أي لا يقدر على هدايته أحدٌ عن الجبائيّ] وقيل : معناه من ضلّ عن رحمة الله و عن الله فلا هادي له يقال : أضللت بعيري إذا ضلّ وقيل : معناه من يضلّه عن زيادة الهدى والألطف بكفره لالطف له لأنّ الكافر لالطف له .

[أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة] أي أفعال من يتقي بوجهه و يدفع عذاب النار بوجهه يوم القيامة كحال من يأتي آمناً لامتسّته النار و إنما قال سبحانه : « بوجهه » لأنّه يلقى منكوساً في النار فأولّ عضو منه مسّته النار وجهه و الوجه أعزّ أعضاء الإنسان و يقال لمقدّم القوم : يا وجه العرب ثمّ إذا وقع الإنسان في نوع من أنواع العذاب فإنّه يجعل يده وقاية لوجهه و فدائه له و إذا كان القادر على الاتّقاء يجعل كلّ ما سوى الوجه وقاية للوجه فجعل الاتّقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتّقاء ونظيره قول النابغة :

و لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم * بهنّ فلول من قراع الكتاب

أي لا عيب في الجماعة إلّا هذا و هو عين المدح في الشجاعة فالمعنى أنّه لا عيب فيهم بوجه من الوجوه في الشجاعة فكذا هنا أي لا يقدرّون على الاتّقاء من العذاب بوجه من الوجوه إلّا بالوجه و هو ليس باتّقاء فليس لهم قدرة على الاتّقاء البتّة و إنّ الذي يلقى في النار يدام مغلولاً إلى عنقه ولا يتهيّأ له أن يتقي النار إلّا بوجهه كيف حاله ؟

و بالجملة فجواب الاستفهام محذوف وتقديره : أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف في نظائره .

ثمّ قال : [وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون] و القائل خزنة النار لهم أي جزاء ما كسبتموه من المعاصي .

ثم أخبر سبحانه عن أمثال هؤلاء الكفار من الأمم الماضية فقال : [كذب الذين من قبلهم] بآيات الله و جحدوا رسله [فأناهم العذاب] عاجلاً [من حيث لا يشعرون] وهم آمنون غافلون .

قوله تعالى : فإذا قهّم الله الخزى في الحياة الدنيا و لعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٣٦) و لقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل

لعلهم يتذكرون (٢٧) قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون (٢٨) ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (٢٩) انك ميت و انهم ميتون (٣٠) ثم انكم يوم القيمة عند ربكم تختصمون (٣١) .

ثم أخبر سبحانه عما فعله بالأُمم المكذبة بأن قال :
[فإذا فهم الله الخزي] أي الذلّ و الهوان في الحياة الدنيا [و لعذاب الآخرة أكبر] أي أعظم وأشدّ [لو كانوا يعلمون] كيفية عذاب الآخرة .
[ولقد ضربنا في هذا القرآن من كلّ مثل لعلهم يتذكرون] سمي ذكر الأُمم السابقة ممثلاً ، كما قال : « وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ^(١) » أو المعنى :
إننا و صفنا و بيننا للناس في هذا القرآن كلّما يحتاجون إليه من مصالح دينهم و دنياهم لكي يتذكروا ويتدبروا فيعتبروا .

[قرآنا عربيا غير ذي عوج] ليس فيه اعوجاج و ميل عن الحق بل هو مستقيم موصل إلى الحق [لعلهم يتقون] المعاصي وفي الآية دلالة على أن أفعال الله وأحكامه معللة وأنه سبحانه يريد من الكلّ الإيمان والمعرفة لأنّ قوله تعالى : « ولقد ضربنا للناس ، مشعر بالتعليل و كذلك » لعلهم يتقون » .

وأيضاً الآية تدلّ على حدوث الكلام لأنّ الشيء الذي يؤتى به لغرض آخر يكون محدثاً لأنّ القديم هو الذي يكون موجوداً في الأزل وهذا يمتنع أن يقال : إنه إنما أتى به لغرض كذا وكذا وبالجملة وصف القرآن بالاستقامة و عدم الاعوجاج و كونه « قرآناً » والمراد كونه متلوّاً في المحارب والأمكنة الشريفة و كونه « عربياً » قد أعجز الفصحاء عن معارضته .

قوله تعالى : [ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون] ضرب سبحانه هذا المثل للمشركين الذين يعبدون الآلهة فحالهم كحال رجل قد اشترك في ذلك الرجل موالى كثيرة وهم شركاء في ملكيته وبينهم تنازع و اختلاف كثير فهذا المولى يأمره بأمر و ذلك ينهيه و ينازع كلّ واحد منهم ويدّعي أنّه عبده وهم يتجادون في حوائجهم والرجل

متحير في أمره فكلما أَرْضَى واحداً غضب الباقيون وإذا احتاج العبد إلى أمرٍ أوردق ومعاش فكل واحد منهم يردّه إلى الآخر فهو يتحير في أمره لا يعرف أيّهم أولى بأن يطلب رضاه رأيّهم يقيم بحوائجه فهو لهذا السبب في عذاب دائم وتعب مقيم . والشكس سوء الخلق . فهذا مثل المشرك الذي يجعل لله شريكاً في العبادة ويجعل له الآلهة و أمّا المؤمن الموحداً الذي يعبد الله و يطيعه وحده كممثل رجل له مخدم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص وذلك المخدم يعينه على مهمّاته فأَيُّ هذين العبدین أحسن حالاً وأحمد شأناً ؟ وهو المراد بقوله : [ورجلاً مسلماً لرجل] وقرئ « سالماً » أي ذوسلامة وتسليم وهذا مثلُ ضرب الله في قبح الشرك وتحسين التوحيد .

ثم قال سبحانه : [هل يستويان مثلاً] أي هل يستوي هذان الرجلان صفة في حسن العاقبة أي لا يستويان .

ثم قال : [الحمد لله] فيكون العبوديّة والحمد والمستحقّ للثناء هو الله لأنّه المالك الواحد والمنعم الحقيقيّ ويمكن أن يكون « الخير » بمعنى الأمر أي احمداً الله [بل أكثرهم لا يعلمون] حقيقة نعمة التوحيد .

فإن قيل : هذا المثل لا ينطبق على عبادة الأصنام لأنّها جمادات وليس بينها مشاكسة ومنازعة ؟

فالجواب أنّ عبدة الأصنام منهم من يقول : هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة فهم في الحقيقة يعبدون الكواكب السبعة ثمّ إنّ القوم يشبّهون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة ألا ترى أنّهم يقوون : زحل هو النحاس الأعظم والمشتري هو السعد الأعظم ومنهم من يقول : هذه الأصنام تماثيل الأرواح الفلكيّة والقائلون بهذا القول زعموا أنّ كلّ نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلّق بروح من الأرواح السماويّة وحينئذ يحصل بين تلك الأرواح مخالقات في المقتضي ومشاكسة فالمثل حينئذ مطابق ومنهم من يقول : هذه الأصنام تماثيل الأشخاص من الصلحاء والعلماء الذين مضوا فهم يعبدون هذه التماثيل ليصبروا أو لئلاّ الأشخاص شفّعاء لهم عند الله والقائلون بهذا القول : يزعم كلّ طائفة منهم أنّ المحقّ هو ذلك الرجل الذي هو على دينه وأنّ من سواه مبطل فعلى

هذا أيضاً ينطبق المثال .

قوله تعالى : [إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ] يبين سبحانه المقام الذي يتبين فيه المبطل من المحق فقال : إِنَّ عَاقِبَتَكَ وَعَاقِبَةُ هَؤُلَاءِ الْمَوْتُ فَحِينَئِذٍ يَتَّبِعُنَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ . [ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ] والاختصام يكون بين المهتدين والضالين والصادقين والكاذبين وقيل : يقع الاختصام بين أهل القبلة قال أبو سعيد الخدري في هذه الآية : كُنَّا نَقُولُ : رَبَّنَا وَاحِدٌ وَنَبِيِّنَا وَاحِدٌ وَدِينُنَا وَاحِدٌ فَمَا هَذَا الْاِخْتِصَامُ ؟ فَلَمَّا وَقَعَ صَفَيْنَ وَشَدَّ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ بِالسُّيُوفِ قُلْنَا : نَعَمْ هُوَ هَذَا .

قوله تعالى : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ الْيَسْرُ فِي جَهَنَّمَ مِثْوَى الْكَافِرِينَ (٣٣) وَ الَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جِزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَ يُجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) . ثُمَّ يَبَيِّنُ نَوْعاً آخَرَ مِنْ قِبَائِحِ أَعْمَالِ الْمُشْرِكِينَ وَ هُوَ أَنَّهُمْ أُثْبِتُوا لِلَّهِ وَلِدَاءً وَ شُرَكَاءَ أَوْ أَنَّهُمْ مَصْرُوفُونَ عَلَى تَكْذِيبِ الصَّادِقِينَ وَ الْأَنْبِيَاءِ وَ يَكْذِبُونَ عَمْدًا ^{عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ} فَأَرْدَفَ تَكْذِيبَهُمْ بِالْوَعِيدِ فَقَالَ :

[أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مِثْوَى] وَ مَفْرَأً [لِلْكَافِرِينَ] وَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : [وَ كَذَبَ بِالْصِّدْقِ] التَّوْحِيدَ وَ الْقُرْآنَ [إِذْ جَاءَهُ] .

قوله : [وَ الَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ] قِيلَ : الَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ عَمْدًا جَاءَ بِالْقُرْآنِ [وَ صَدَّقَ بِهِ] هُمُ الْمُؤْمِنُونَ [أُولَئِكَ] الْمَصْدُقُونَ [هُمُ الْمُتَّقُونَ] وَ قِيلَ : الَّذِي جَاءَ جِبْرِيلُ وَ الصِّدْقُ الْقُرْآنُ وَ تَلْقَاءُ بِالْقَبُولِ وَ صَدَّقَ بِهِ عَمْدًا ^{عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ} وَ قِيلَ : الَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ الْجَائِي عَمْدًا وَ الصِّدْقُ كَلِمَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ صَدَّقَ بِهِ هُوَ أَيْضاً نَفْسَهُ الشَّرِيفَةَ وَ بَلَّغَهُ إِلَى الْخَلْقِ وَ قَالُوا : لَوْ كَانَ الْمَصْدُقُ بِهِ غَيْرَ لَقَالَ : وَ الَّذِينَ صَدَّقَ بِهِ وَ هَذَا الْقَوْلُ أَقْوَى الْأَقْوَالِ وَ الْقَائِلُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ قِيلَ : الَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ الْأَنْبِيَاءُ وَ صَدَّقَ بِهِ أَتْبَاعُهُمْ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ كَلِمَةً وَ الَّذِي ، لِلْجِنْسِ كَمَا قَالَ :

وَ إِنَّ الَّذِي جَاءَتْ بِفُلْجٍ دِمَاؤُهُمْ * هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدَ

الأثرى أنه عاد إليه ضمير الجمع و قيل : الذي جاء بالصدق محمد ﷺ و صدق به المراد علي بن أبي طالب عن مجاهد و رواه الضحاك عن ابن عباس وهو المروي عن أئمة الهدى من آل محمد خزنة العلم .

ثم من سبحانه بما أعد لهم من النعيم فقال : [لهم ما يشاءون] من النعيم في الجنة [عند ربهم] أي ينالون من جهة لطفه [ذلك جزاء المحسنين] ذلك إشارة إلى ما ذكر و هو حصول ما يشاءونه على إحسانهم الذي فعلوه في الدنيا و أعمالهم الصالحة .

[ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا] قيل : اللام في ليكفر من صلة قوله : «لهم ما يشاءون» والمعنى أنه لما وعدهم بما يشاءون جزاء على إحسانهم أثبت وحقق الثواب لهم بتكفير السيئات التي عملوها قبل الإيمان و قيل : اللام للقسم و التقدير : و الله ليكفرن فحذف النون و كسرت اللام أي يسقط الله عنهم عقاب الشرك و المعاصي التي فعلوها قبل ذلك بمقابلته إيمانهم و تصديقهم و رجوعهم إلى الله .

و اعلم أن مقاتلاً شيخ المرجئة و هم الذين يقولون : لا يضر شيء من المعاصي مع الإيمان كما لا ينفع شيء من الطاعات مع الكفر و احتج بهذه الآية فقال : إنها تدل على أن من صدق الأنبياء فإنه تعالى يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا و قال : إن ظاهر الآية يدل على أن التكفير حصل في حال ما وصفهم الله بالتقوى و هو التقوى من الشرك و إذا كان كذلك وجب أن يكون المراد منه الكبائر التي يأتي بها بعد الإيمان والآية تنصيص على أنه يكفر عنهم بعد إيمانهم أسوأ ما يأتون به و ذلك هو الكبائر .

أقول : و في هذا الكلام نظر لأنه من أين ثبت أن المراد من التقوى في الآية التقوى من الشرك كما فسره بل لعل المراد التقوى من المعاصي فتأمل .

[و يجزيهم أجرهم] و ثوابهم [بأحسن الذي كانوا يعملون] بالفرائض والنوافل فهي أحسن أعمالهم لأن عمل المباح و إن كان حسناً لكن لا يستحق به ثواب و لا مدح .

وههنا بحث وهو قوله للمصدقين ووعدهم بقوله : «لهم ما يشاءون عند ربهم» وهذا الوعد يدخل فيه كل ما يرغب المكلف فيه ولا شك أن الكمال أمر محبوب لذاته

مرغوب فيه وأهل الجنة لاشك أنهم عقلاء فإذا شاهدوا الدرجات العالية التي هي للأَنْبياء وأكابر الأولياء عرفوا أنها خيرات عالية ودرجات كاملة والعلم بالشيء من حيث إنه كمالٌ وخيرٌ يوجب الميل إليه والرغبة فإذا كان كذلك فهم يشاءون حصول تلك الدرجات لأنفسهم فوجب حصولها لهم بحكم هذه الآية أيضاً وليس يحصل لهم يقيناً فلولم يحصل لهم ذلك المراد كانوا في الغصة ووحشة القلب .

فالجواب أن أحوال أهل الآخرة بخلاف أحوالهم في الدنيا فيزيل الله عن قلوبهم الحقد والحسد والطمع .

وفي الآية بحث آخر وهو أن بعض الناس تمسكوا بهذه الآية في أن المؤمنين يرون الله تعالى عن ذلك وذلك لقوله : « لهم ما يشاءون عند ربهم » لأن الرؤية أعظم وجوه التجلي وزوال الحجاب ولا شك أنها حالة مطلوبة والنص يقتضي حصول كل ما شاءوه وأرادوه .

وأجيب بأن هذا الكلام باطل لأنه لما علم أن هذا المطلوب ممتنع الوجود بعينه فإنه يترك طلبه للأجل عدم المقتضي للطلب بل لقيام المانع وهو كونه ممتنعاً في نفسه فإذا تحقق الامتناع لهم وجوداً سلب المقتضي فهم لا يشاءون أمراً ممتنعاً لأنهم عقلاء وللمسألة جواب آخر وهو أن الله سبحانه يزيل عن قلوبهم هذه الإساءة فلا يشتهون هذا الأمر حتى تقول : إن ترك الطلب للمانع والطلب والميل باق انتهى .

أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضل الله فما له من هاد (٣٦) ومن يهدي الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام (٣٧) ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره او ارادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون (٣٨) قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون (٣٩) من ياتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (٤٠) .

كانت الكفارة تخيفه صلى الله عليه وآله بالأوثان التي كانوا يعبدونها وكانوا يقولون له صلى الله عليه وآله : إن آلهتنا تمسك بالضر فحسم الله سبحانه مادة قولهم بقوله : [أليس الله بكاف من عبده وإن آلهتهم لا تضر ولا تنفع .

[ويخوفونك بالذين من دونه] يعني آلهتهم ولعل المراد بالعبد في الآية العباد والمقصود الأنبياء كما كفى نوحاً من الغرق وإبراهيم من النار ويونس ردّ فهو كافيك كما كفى الأنبياء قبلك ، قيل : إنه لما قصد خالد لكسر الأصنام بأمر النبي ﷺ قالوا : إيتاك يا خالد فبأسها شديد ف ضرب خالد أنفها بالفأس و هشمها وقال : كفرانك يا عزى لا سبحانك ، سبحان من أهانك ، إني رأيت الله قد أهانك .

[ومن يضل الله فماله من هاد] أي من أضله الله عن طريق الجنة بكفره ومعاصيه فليس له هاد يهديه إليها وقيل : معناه إن من وصفه بأنه ضالّ إذا ضلّ هو عن طريق الحقّ فليس له من إله هادياً وقيل : معناه من يجرمه الله عن زيادات الهدى فليس له زائد . [ومن يهدي الله فماله من مضلّ] أي من يهديه الله وحذف « الهاء » كما حذف في قوله : « أهذا الذي بعث الله رسولا »^(١) لدلالة الكلام إلى طريق الجنة فلا أحد يضلّه عنها وقيل : من بلغ استحقاق زيادات الهدى بصالح أعماله فقد ارتفع عن تأثير الوسواس [أليس الله بعزيز] أي غالب قادر لا يقدر أحد على مغالبتة [ذي انتقام] من أعدائه الجاحدين لنعمه . ثم قال : لنبيّه صلى الله عليه وآله : [ولئن سألتهم] يا محمد [من خلق السماوات والارض] وأوجد ها بعد أن كانت معدومة [ليقولنّ الله] الفاعل لذلك لأنهم مع عبادتهم الأوثان يقرّون بذلك .

فردّ عليهم سبحانه بأنّ ما يعبدونه من دون الله لا يملك كشف السوء و الضرّ عنهم فقال : [قل] لهم : [أفأنتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضرّ] أي بمرض أو فقر أو بلاء أو شدة [هل هنّ كاشفات ضرّه أو أرادني برحمة هل هنّ ممسكات رحمته] والمراد أنّ هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر .

و حاصل المعنى أخبروني أنّ آلهتكم إن أراد الله أن يصيبني بضرّ هل يكشفن عني ذلك الضرّ أو أراد الله أن ينفعني بخير هل تمنعني آلهتكم بحيث لا يصلني ذلك الخير فإذا كان الأمر كذلك و آلهتكم عاجزة عن إيصال النفع و دفع الأذى فكيف يستحقون العبادة فحينئذ الاعتماد على عبادة الله .

[قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون] ويفوضون إليه أمورهم ووجه عبادتهم .
ولما أورد الله عليهم هذه الحجة الواضحة قال على سبيل التهديد : [قل] يا محمد
[يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون] على مكانتكم ، أي على جهدكم
وقدرتكم في إهلاكى وتضعيف أمري ، إني عامل ، قدر جهدي وطاقتي [فسوف تعلمون
من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم] دائم أي فسوف تعلمون أن العذاب
والهوان والخزي يصيبني أو يصيبكم .

قوله تعالى : انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فليدفعه
و من ضل فأنما يضل عليها و ما أنت عليهم بوكيل (٤١) الله يتوفى الأنفس حين
موتها و التي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليه الموت و يرسل الأخرى
الى أجل مسمى ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٤٢) ام اتخذوا من دون الله
شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون (٤٣) قل لله الشفاعة جميعا
له ملك السموات و الارض ثم اليه ترجعون (٤٤) و اذا ذكر الله وحده
اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة و اذا ذكر الذين من دونه اذا هم
يستبشرون (٤٥) .

النظم : و لما كان يعظم على النبي ﷺ إصرارهم على الكفر سلى قلبه
ﷺ فقال :

[إنا أنزلنا عليك الكتاب] الكامل الشريف لنفع الناس و لاهتدائهم به و جعلنا
إنزاله مقروناً بالحق فمن اهتدى به فنفعه يعود إليه و من ضل فضر ضلاله يعود إليه
[و ما أنت عليهم بوكيل] و لست مأموراً بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر
و القبول و عدمه مفوض إليهم و لست كفيلاً بإيمانهم .

قوله : [الله يتوفى الأنفس حين موتها] المقصود من الآية إتيان الحجة على
المشركين ببيان قدرته فإنه المستحق للعبادة دون آلهتهم العجزة و إشعار في تشبيه
الهداية و الإيمان بالحياة و اليقظة و الكفر و الضلال بالموت و النوم فقال : إنه تعالى
يتوفى الأنفس عند الموت و عند النوم .

قال ابن عباس : في بني آدم نفس و روح بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس بها العقل
و التمييز و الروح بها التنفس و الحركة فإذا نام الإنسان قبض الله نفسه و لم يقبض

روحه و إذا مات قبض الله روحه ويؤيده ما رواه العياشي عن الباقر عليه السلام قال : ما من أحد ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء و بقيت روحه في بدنه و صار بينهما سبب كشعاع الشمس فإن أذن الله في قبض الروح و قضى عليه بالموت أجابت الروح النفس و إن لم يأذن أجابت النفس الروح و هو قوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها الآية » فمارأت في ملكوت السماوات فهو مماتله تأويل و مارأت فيما بين السماء و الأرض فهو ممات يخبئه الشيطان و لا تأويل له و نسبة التوفى إلى الملك في بعض الآيات بالمباشرة و المتوفى هو الله .

و بالجملة فمعنى الآية أن الله يتوفى الأنفس وقت موتها و انقضاء آجالها .
[و التي لم تمت في منامها] أي و يتوفى الله النفس التي لم يقض عليه بالموت أيضاً فالنفس التي قضى عليها الموت يمسكها سبحانه إلى يوم القيامة لا تعود إلى الدنيا و التي لم يقض عليها الموت و ما بلغ أجلها يرسلها إلى وقت معلوم قدر لها فليس قادر غيره على هذا الأمر و النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحاني أي من سنخ عالم الروحانيات لا العناصر إذا تعلقت بالبدن حصل ضوءه في جميع الأعضاء و هو الحياة ففي وقت الموت ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن و عن باطنه و أمّا في وقت النوم فإنه ينقطع ضوءه عن الحواس و ظاهر البدن من بعض الوجوه و لا ينقطع ضوءه عن باطن البدن فالموت و النوم متشابهان من بعض الجهات إلا أن الموت انقطاع تام و النوم انقطاع ناقص فيشتركان في كون كل واحد منهما توفياً للنفس و هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن الخالق القادر و هو المراد من قوله : [إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون] .

قوله تعالى : [أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً و لا يعقلون] و لما اعتذر المشركون أننا لا نعبد هؤلاء الأصنام لاعتقاد أنها آلهة مستقلة و إنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقرّبين فنحن نعبدها لأجل الشفاعة فأجاب الله بقوله : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء » أي بل اتخذ قريش من دون إذن الله الأصنام شفعاء تشفع لهم عنده قل يا محمد : « أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون » الهمة ، للاستفهام الإنكاري و استقباح هذا الأمر أي قل لهم : أتعبدونهم شفعاء و لو

كانوا لا يملكون شيئاً من الأشياء ولا يعقلون لأنها جمادات فضلاً عن أن يملكون الشفاعة عند الله وحاصل المعنى: أيتخذونهم شفعاء راجين شفاعتهم ولو كانت الآلهة موصوفة بصفة العجز وعدم الإدراك .

ثم قال سبحانه: [قل] لهم يا محمد: [الله] إذن [الشفاعة] ولا يملك أحد الشفاعة إلا بأذنه وتمليكه [جميعاً] لأنه المالك و [له ملك السماوات والأرض] ثم إليه ترجعون [أي هو مالكها لا يستطيع أحد شفاعة ماحتسى يكون المشفوع له مرتضى دينه والشفيع يكون مأذوناً وكلاهما مفقود ههنا] [وإليه] رجوعكم يوم القيامة دون غيره لاستقلالاً ولا اشتراكاً .

قوله: [وإذا ذكر الله وحده] أشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة [قال ابن عباس: كان المشركون إذا سمعوا قول «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» نفروا من هذا القول لأنهم كانوا يقولون بالتشريك .

[وإذا ذكر الذين من دونه] يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله [إذا] هم يستبشرون [ويسرون] بحيث يظهرون السرور في وجوههم الخبيثة وحصل الغيظ في قلوبهم الفاسدة والاستبشار والاشمئزاز متقابلان بالتضاد .

قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون (٤٦) ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتقدوا به من سوء العذاب يوم القيمة وبدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (٤٧) وبدالهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون (٤٨) فإذا مس الإنسان ضرر دعانا ثم إذا حولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون (٤٩) قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٥٠) .

ولما صدر من المشركين الاستبشار من ذكر تعدد الآلهة والاشمئزاز من وصف التوحيد وهو أمر عجيب تشهد فطرة العقل بفساده أمر نبيه أن يحاكمهم ويدعو بهذا الدعاء :

[قل اللهم فاطر السموات والأرض] فقال: قل يا محمد، أي يا خالقهما ومنشئهما

و يا عالم الغيب و الشهادة أي يا عالم ما غاب علمه عن جميع الخلايق و عالم ما شهدوه و علموه .

[أنت تحكم بين عبادك] يوم القيامة [فيما كانوا فيه يختلفون] في دار الدنيا من أمر دينهم و دنياهم و تفصل بينهم بالحق في الحقوق و المظالم أي فاحكم بيني و بين قومي بالحق .

و في هذا بشارة للمؤمنين بالظفر والنصر لأنه سبحانه إنما أمره به للإجابة لا محالة و عن سعيد بن المسيب أنه قال : إنني لأعرف موضع آية لم يقرأها قط فسأل الله شيئاً إلا أعطاه وهي قوله : « اللهم فاطر السماوات و الأرض » الآية .

ثم أخبر سبحانه بوقوع العذاب والعقاب بالكفار بأمر :

أولها : [و لو أن] للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً و مثله معه [زيادة] عليه [لاقتدرا به من سوء العذاب يوم القيامة] أي إن هؤلاء الكفار لو ملكوا كل ما في الأرض من الأموال و ملكوا مثله معه لجعلوا الكل فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد .
و الثاني : [و بدلهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون] أي ظهر لهم يوم القيامة من صنوف العذاب ما لم يكونوا يظنونونه و ينتظرونه و لم يكن في حسابهم و كما أنه تعالى قال في صفة الثواب في الجنة : فيها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر فكذا في العقاب حصل مثله .

و ثالثها : [و بدلهم] أي ظهر لهم أيضاً [سيئات ما كسبوا] أي جزاء سيئات أعمالهم و آثارها [و حاق] من كل الجوانب و نزل بهم [ما كانوا به يستهزمون] وهو كل ما ينذرهم النبي ﷺ مما كانوا ينكرونه و يكذبون به .
ثم أخبر سبحانه عن شدة تقلب الإنسان من حال إلى حال و عن عقيدته الفاسدة فقال : [فإذا مس] الإنسان ضرر [دعانا] أي عند وقوع الضرر من الفقر و المرض يفرعون إلى الله و يرون أن دفع ذلك لا يكون إلا منه .

[ثم] إذا خولناه نعمة [و هي السعة في المال أو العافية في البدن تفضلاً] قال إنما أوتيته على علم أي زعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه و بسبب جدته و جهده فإن

كان مالاً قال : إنما حصل بكسبي و إن كان صحة قال : إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني وهذا تناقض عظيم لأنه كان في حال العجز والحاجة أضاف إلى الله و استدعى رفعه منه و في حال السلامة قطعه عن الله وأسندته إلى كسب نفسه وهذا تناقض قبيح .

ثم قال تعالى : ليس الأمر على ما يقولونه و يزعمونه [بل هي فتنة أي بليّة واختبار يبتليه الله بها ليظهر شكره أو صبره فيحازيه بحسبها و قيل : معناه هذه المقالة والعقيدة فتنة لهم لأنهم بسبب هذا القول يعاقبون عليها] ولكن أكثرهم لا يعلمون [البلوى من النعمى أو لا يعلمون أن النعم كلها من الله وإن حصل بأسباب من جهة العبد .

فإن قيل : إن لفظ « النعمة » مؤنثة و الضمير في قوله : « أو تيته » عائد على النعمة و ضمير المذكر كيف عاد إلى المؤنث وقال : بعده « بل هي فتنة » فجعل الضمير مؤنثاً فما السبب فيه والجواب أن التقدير حتى إذا خولناه شيئاً من النعمة فمعنى « النعمة » مذكر فلاجرم جاز الأمران و معنى التحويل التفضل .

قوله تعالى : [قد قالها الذين من قبلهم] أي قد قال مثل هذه الكلمة فارون حيث قال : « إنما أو تيته على علم عندي »^(١) [فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون] ولم ينفعهم ما كانوا جمعوه من الأموال بل صارت وبالاً عظيماً .

قوله تعالى : فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا و ما هم بمعجزين (٥١) أو لم يعلموا أن الله يسط الرزق لمن يشاء و يقدر أن في ذلك لايات لقوم يؤمنون (٥٢) قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم (٥٣) و انيىوا الى ربكم و اسلموا له من قبل أن ياتيكم العذاب ثم لاتنصرون (٥٤) و اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم من قبل أن ياتيكم العذاب بغتة و أنتم لا تشعرون (٥٥) .

ثم أخبر سبحانه عن حال هؤلاء الكفار بقوله : [فأصابهم سيئات ما كسبوا] أي أصاب عقاب سيئاتهم فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه و إنما سمي عقاب سيئاتهم « سيئة » لازدواج الكلام كقوله : « و جزاء سيئة سيئة مثلها »^(٢) .

(١) القصص : ٧٨ .

(٢) الشورى : ٤٠ .

[والذين ظلموا من هؤلاء] أي من كفّار قومك [سيصيبهم سيئات ما كسبوا]
 أيضاً [و ما هم بمعجزين] و لا يفوتون الله و لا يعجزون الله بالخروج عن قدرته .
 [أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر] أي يوسع الرزق على من
 يشاء و يضيق على من يشاء بحسب ما يعلم من المصلحة و الدليل عليه أنّا نرى الناس
 مختلفين في سعة الرزق وضيقه و لا بدّ له من سبب و ذلك السبب ليس هو عقل الرجل
 وجهله لأنّا نرى العاقل في أشدّ الضيق و نرى الجاهل المريض الضعيف العاجز في أعظم
 السعة و ليس ذلك أيضاً لأجل الطبائع والأفلاك كما يزعم بعضهم لأنّ في الساعة
 التي ولد ذلك الملك الكبير و السلطان القاهر قد ولد فيها أيضاً عالم من الناس و عالم من
 الحيوان غير الإنسان و عالم من النبات و نشاهد حدوث هذه الأشياء الكثيرة في تلك
 الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في السعادة و الشقاوة علمنا أنّه ليس المؤثر في السعادة
 و الشقاوة الطبيعة و الطالع لأنّ الطالع إن كان يقتضي السعد فيقتضي السعد للملك
 و الصعلوك اقتضاء واحداً و لمّا بطلت هذه الأقسام و الأثر لا يوجد إلّا بالمؤثر و المعلول
 بالعلّة علمنا أنّه ليس المؤثر فيه إلّا الله .

فلا السعد يقضي به المشتري * ولا النحس يقضي علينا زحل
 و لكنّه حكم ربّ السماء * و قاضي القضاة تعالى وجلّ
 [إنّ في ذلك لآيات] و دلالات و اضحات [لقوم يؤمنون] و يصدقون بتوحيد
 الله لا نهم المنتفعون .

[قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم] بارتكاب الذنوب [لا تقنطوا من
 رحمة الله] أي لا تيأسوا من مغفرة الله [إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً] إنّّه هو الغفور الرحيم
 عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : ما أحبّ أن لي الدنيا و ما فيها بهذه الآية . وعن
 أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية . و في مصحف عبد الله بن
 مسعود : إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء .

قال الرازي : إنّ عرف القرآن جار بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين قال تعالى :

« و عباد الرحمن يمشون على الأرض هوناً »^(١) و قال : « عيناً يشرب بها عباد الله »^(٢) و أيضاً لفظ مذكور في معرض التعظيم فوجب أن لا يقع إلا على المؤمنين فظهر من هذه المقدمات أن قوله : « يا عبادي » مختص بالمؤمنين ولأن المؤمن هو الذي يعترف بكونه عبد الله و أمّا المشركون فإنهم في الغالب يسمون أنفسهم بعبد اللات و العزى و عبد المسيح . إذا ثبت هذا فنقول : إنه تعالى قال : « الذين أسرفوا على أنفسهم » عام في حق جميع المسرفين ثم قال تعالى : « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » وهذا يقتضي كونه تعالى غافراً لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين .

فإن قيل : إن هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها و إلا لزم القطع بكون الذنوب مغفورة قطعاً و أنتم لا تقولون به فما هو مدلول هذه الآية لا تقولون به و الذي تقولون به لا تدل عليه هذه الآية فسقط الاستدلال . و أيضاً إنه قال عقيب هذه الآية : « و أنبئوا إلى ربكم و أسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » ولو كان المراد من أول الآية أنه غفر جميع الذنوب قطعاً لما أمر عقيقه بالتوبة ولما خوفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون . و أيضاً لو كان المراد ما يدل عليه ظاهر الآية لكان ذلك إغراء بالمعاصي وإطلاقاً في الإقدام عليها و ذلك لا يليق بحكمة الله تعالى فعلى هذا وجب أن يحمل معنى الآية على أن يقال : المراد منه التنبيه على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا مخلص له من عذاب الله البتة فإن من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله إذ لا أحد من العصاة المذنبين إلا ومتى تاب زال عقابه فمعنى قوله : « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » أي بالتوبة و الإجابة .

و أمّا الجواب عن القول : « بأن الآية تقتضي كون كل الذنوب مغفورة قطعاً و أنتم لا تقولون به »^(٣) قلنا : بل نحن نقول به و ياتيه أن صيغة « يغفر » للاستقبال وعندنا

(١) الفرقان : ٦٣ . (٢) الدهر : ٦ .

(٣) بل الجواب أن جميعاً تأكيد للذنوب و المراد أن الله إذا غفر لمن يشاء يغفر جميع ذنوبه بلا فرق بين كبيرة و كبيرة فلا يقنط أحد من غفران بعض كبائرها العظيمة في نفسه ، و ليس الله أن يغفر بعضها ثم يعذب ببعضها و لذلك عقبه بقوله « و أنبئوا إلى الله و أسلموا » : توبة مما سلف و تسليم لما خلف حتى يغفر لكم جميع ما سلف .

أن الله يخرج من النار أهل التوحيد وعلى هذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعاً
إمّا قبل الدخول في جهنم وإمّا بعد الدخول فيها فحينئذ ما خرجنا عن مدلول
الآية .

و أمّا قوله : لو صارت الذنوب مغفورة بأسرها لما أمر بالتوبة فالجواب أن التوبة
واجبة وحكم لازم على المكلف وخوف العقاب قائم ولم يحصل القطع بإزالة العقاب
بالكيفية بل نقول : لعله يعفو مطلقاً و لعله يعذب بالنار مدّة ثمّ يعفو بعد ذلك انتهى
كلام الرازي .

القمي قال : نزلت الآية في شيعة علي بن أبي طالب خاصة وفي الكافي عن الصادق
عليه السلام قال : لقد ذكركم الله في كتابه إذ يقول : « يا عبادي » الآية ، قال : والله ما أراد
بهذا غيركم وفي معاني الأخبار والقمي عن الباقر عليه السلام قال : وفي شيعة ولد فاطمة
عليها السلام أنزل الله هذه الآية خاصة وفي المحاسن عن الصادق عليه السلام قال : ما على ملّة إبراهيم
غيركم وما يقبل إلا منكم ولا يغفر الذنوب إلا لكم .

و بالجملة قيل : إن الآية نزلت في وحشي قاتل حمزة حين أراد أن يسلم وخاف
أن لا يقبل توبته فلمّا نزلت الآية أسلم . قال الطبرسي : وهذا لا يصح لأن الآية نزلت
بمكة و وحشي أسلم بعدها بسنين كثيرة ولكن يمكن أن يكون قرئت عليه الآية فكانت
سبب إسلامه فإله سبحانه يغفر الذنوب جميعاً للتائب لا محالة حيث يقول سبحانه : « وهو
الذي يقبل التوبة عن عباده » (١) فإن مات الموحّد من غير توبة فهو في مشيئة الله إن شاء
عذّب به بعد له وإن شاء غفر له بفضل كما قال : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (٢) .

قوله [وأنبئوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون]
أي انقادوا له بالطاعة فيما يأمركم به وقيل . معناه : اجعلوا أنفسكم خالصة لقبول دينه
وقد حث سبحانه بهذه الآية على التوبة لكي لا يرتكب الإنسان المعصية ويدع التوبة
اتكلاً على الآية المتقدمة .

(١) التوبة : ١٠٥ .

(٢) النساء : ٤٧ و ١١٥ .

[و اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم] من الحلال و الحرام و الأمر و النهي و اتى بالمأمور به و ترك المنهي عنه و إنما قال : « أحسن ما أنزل » لأنه أراد بذلك الواجبات و النوافل التي هي الطاعات دون المباحات [من قبل أن يأتىكم العذاب بغتة] أي فجأة لا تتوقعونه [و أنتم لا تشعرون] أي لا تعرفون وقت نزوله بكم .

قوله تعالى : ان تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله و ان كنت لمن الساخرين (٥٦) او تقول لو ان الله هداني لكنت من المتقين (٥٧) أو تقول حين ترى العذاب لو ان لى كرة فأكون من المحسنين (٥٨) بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها و استكبرت و كنت من الكافرين (٥٩) و يوم القيمة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين (٦٠)

و لما أمر الله سبحانه بالتباعد الطاعات و اجتناب المعاصي تحذيراً من نزول العقوبات يسن الغرض في ذلك بقوله : [أن تقول نفس] أي كراهية أن تصيروا إلى حال تقولون فيها : [يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله] أي يا ندامتى و طول تحسرتى على ما ضيعت من ثواب الله و قصرت في أمر الله و التفريط إهمال ما يجب أن يتقدم فيه حتى يفوت وقته و الجنب القرب أي في قربه و جواره يقال : فلان في جنب فلان أي في قربه و جواره و هو الجنة و قال الزجاج : أي فرطت في طريق الله فيكون الجنب بمعنى الجانب أي قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى مرضاة الله .

و روى العياشي بإسناد عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : نحن جنب الله . وفي المحاسن عن الباقر عليه السلام : إن أشد الناس حسرة يوم القيامة الذين و صفوا العدل ثم خالفوه و هو قوله : « أن تقول نفس » الآية . و في الكافي عن الكاظم عليه السلام في الآية قال : جنب الله أمير المؤمنين و كذلك من كان بعده من الأوصياء بالمكان الرفيع إلى أن ينتهي الأمر إلى آخرهم . و في الإكمال و العياشي عن الباقر عليه السلام : نحن جنب الله و في المناقب عنه و عن أبيه في هذه الآية : علي جنب الله و حجة على الخلق .

قوله : [و إن كنت لمن الساخرين] أي و إن كنت لمن المستهزئين بالنبي صلى الله عليه وآله و القرآن و بالمؤمنين في دار الدنيا و قيل : معناه من الساخرين ممن يدعوني إلى الإيمان .

و من الكلمات التي حكى الله عنهم قوله : [أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين] فإنهم لم يهتموا في الأدلة وأعرضوا عن القرآن واشتغلوا بالدنيا و الأباطيل توهّموا أن الله لم يهدهم فقالوا ذلك بالظن و قدرّد الله عليهم بقوله : « بلى قد جاءتك آياتي ، الآية » ، وقيل : معناه لو أن الله هداني إلى النجاة بأن يردني إلى حال التكليف لكنت ممّن يتقي المعاصي عن الجبائي قال : لأنهم يضطرون يوم القيامة إلى العلم بالحقيقة بأن الله قد هداهم .

[أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كربة فأكون من المحسنين] أي لو أن لي رجعة إلى الدنيا فأكون من الموحدين المطيعين .

ثم أنكر الله قولهم فقال تعالى : [بلى قد جاءتك] أي ليس كما قلت قد جاءتك آياتي أي حججي و دلائلي [فكذب بها] و أنفت من اتباعها [و استكبرت و كنت من الكافرين] و قرىء في الشواذ بكسر التاءات باعتبار تأنيث النفس .
[و يوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله] فزعموا أن له شريكاً أو ولداً [وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين] استفهام تقرير أي الذين تكبروا عن الإيمان بالله فيها مثواهم و مقامهم .

و روى العياشي بإسناده عن خيثمة قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : من حدث عنّا بحديث فنحن سائلوه عنه يوماً فإن صدق علينا فإنيما يصدق على الله و رسوله لأننا إذا حدثنا لا نقول : قال فلان و قال فلان إنما نقول : قال الله و قال رسوله ثم تلا هذه الآية « و يوم القيامة ترى الذين » الآية ، ثم أشار خيثمة إلى أذنيه فقال : صمّتا إن لم أكن سمعته .
و عن سودة بن كليب قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال : هو إمام انتحل إمامته ليست له من الله قلت : و إن كان علويّاً قال عليه السلام : و إن كان علويّاً قلت : و إن كان فاطميّاً قال عليه السلام : و إن كان فاطميّاً .

قوله تعالى : و ينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون (٦١) الله خالق كل شيء و هو على كل شيء وكيل (٦٢) له مقاليد السموات و الارض و الذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون (٦٣)

قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون (٦٤) ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك و لتكونن من الخاسرين (٦٥) بل الله فاعبد وكن من الشاكرين (٦٦) .

لما أخبر سبحانه في الآية السابقة حال الكفار نقبه بذكر حال الأتقياء الأبرار فقال :

[و ينجي الله الذين اتقوا] معاصيه خوفاً من عقابه [بمفازتهم] أي بمنجاتهم وقرئ، « بمفازاتهم » على أن المصادر قد تجمع إذا اختلف أجناسها و أصل الفوز النجاة و بذلك سميت المفازة على وجه التفاضل بالنجاة منها كما سموها اللديغ سليماً [لايمسهم سوء] أي لا يصيبهم المكروه و الشدة [ولا هم يحزنون] على ما فاتهم من لذات الدنيا . و لما ذكر الوعد والوعيد بين أنه القادر على كل شيء بقوله : [الله خالق كل شيء] أي محدثه ومبدعه [وهو على كل شيء وكيل] أي حافظ و مدبر .

[له مقاليد السماوات و الأرض] واحدها مقلد يريد مفاتيح السماوات و الأرض بالرزق و الرحمة يفتح لمن يشاء و يغلق لمن يشاء على حسب ما يقتضيه الحكمة [والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون] لأنهم خسروا الجنة و نعيمها و يصلون النار و سعيها .

ثم أعلم أنه المعبود و لا معبود سواه بقوله : [قل] يا عجم لهؤلاء الكفار : [أفغير الله تأمروني أعبد] أي تأمروني أن أعبد غير الله [أيها الجاهلون] بما تأمروني به إذ تأمرون بعبادة من لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر .

و بالآية السابقة وهي قوله : [الله خالق كل شيء] استدلت المجبرة بأن الله خالق الكفر والإيمان وأثبتوا الجبر بزعمهم .

و أجيب عنها بأجوبة صحيحة : منها أنه قالت المجوسية : إن السباع والبهائم والموزيات و الأمراض ليست من خلق الله فأراد سبحانه أن يبين أنها بأجمع من خلقه ثم إن لفظة « كل » قد لا يوجب العموم لقوله تعالى : « و أوتيت من كل شيء »^(١) ، والحال

أنها ما أوتيت كل شيء في العالم و قوله تعالى : « تدمر كل شيء »^(١) .

و الجواب الآخر أنه لو كانت الأعمال من العباد من خلق الله لما أضافها إليهم بقوله : « كفاراً حسداً من عند أنفسهم »^(٢) ، و لما صحّ قوله : « و يقولون هو من عند الله و ما هو من عند الله »^(٣) ، و لما صحّ قوله : « و ما خلقنا السماء والأرض و ما بينهما باطلاً »^(٤) ، و معلوم أن الكفر باطل و قال الجبائي : الله خالق كل شيء سوى أفعال خلقه التي صحّ فيها الأمر و النهي و استحقوا بها الثواب والعقاب ولو كانت أفعالهم خلقاً لله لما جاز العقاب فيه كما لا يجوز مثله في ألوانهم وصورهم .

و قال أبو مسلم : الخلق هو التقدير لا الإيجاد فإذا أخبر الله سبحانه عن عباده أنهم يفعلون الفعل الفلاني فقد قدر ذلك الفعل فيصح إطلاق التقدير على الخلق و إن لم يكن له موجد .

قوله تعالى : [و لقد أوحى إليك و إلى الذين من قبلك ، لئن أشرت ليحبطن عملك و لتكونن من الخاسرين] قال ابن عباس : هذا أدب من الله لنبيه و تهديد لغيره لأن الله عصمه من الشرك و هو كلام وارد على طريق الفرض و الشرط و لو أن مشتاقاً لتببيع الرسل وإقناط الكفرة والإيدان بغاية شناعة الكفر و الاشتراك و كونه بحيث ينهي عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره فكيف عن عدا و أفراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الأولى موطئة للقسم والأخريان للجواب .

فإن قيل : كيف صحّ هذا الكلام مع علم الله أن رسله لا يشر كون ولا تجب أفعالهم . فالجواب أن الكلام قضية شرطية و القضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزئها ألا ترى أن قولك : لو كانت الخمسة زوجاً لكانت منقسمة بمتساويين قضية صادقة مع أن كل واحد من جزأيها غير صادق قال الله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »^(٥) ، و لم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة و بأنهما قد فسدتا .

(١) الاحقاف : ٢٥ .

(٢) البقرة : ١٠٩ .

(٣) آل عمران : ٧٨ .

(٤) ص : ٢٧ .

(٥) الانبياء : ٢٢ :

ثم إنه تعالى لما بين هذه الأمور ذكر ما هو المقصود فقال : [بل الله فاعبد وكن من الشاكرين] فرد سبحانه ما اقترحوه منه وَاللَّهُ يَسْتَكْبِرُ من الاستلام ببعض آلهتهم لأن قوله : « قل أغير الله تأمروني » يفيد أن المشركين عيّنوا عليه عبادة غير الله فقال سبحانه : إنهم بس ما قالوا ولكن كن على الصدق وكن من الشاكرين على ما هداك وأرشدك .

قوله تعالى : و ما قدروا الله حق قدره والارض جميعاً قبضته يوم القيامة و السموات مطويات بيمينه سبحانه و تعالى عما يشركون (٦٧) و نفخ في الصور فصعق من في السموات و من في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون (٦٨) و اشرقت الارض بنور ربها و وضع الكتاب و جىء بالنبيين و الشهداء و قضى بينهم بالحق و هم لا يظلمون (٦٩) و وفيت كل نفس ما عملت و هو اعلم بالمهتدين (٧٠) .

فبين سبحانه أن المشركين لما جعلوا هذه الأشياء الخسيسة مشاركة له في المعبودية قال :

[و ما قدروا الله حق قدره] و ما وحدوه و عظموه تعظيماً لا نقاً به فلو قيل : كيف إن الخلق ما عرفوا الله ، فالجواب أن هذا وصف المشركين لا المؤمنين على أن المؤمنين أيضاً لم يعرفوه كما هو .

والضمير في الآية راجع إلى المشركين أي أشر كوا معه غيره والحالة أن [الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة] و هم جحدوا البعث و قالوا : إنه عاجز عن الإعادة و النشر لأن هذا أمر غير ممكن فذكر سبحانه « أن الأرض » كلها مع عظمها في مقدوره كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه و كذلك قوله : [و السموات مطويات بيمينه] أي يطويها بقدرته كما يطوي الواحد من الشيء المقدور له طيه بيمينه و ذكر اليمين للمبالغة في الاقتدار والملك كقول الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمين

قال الزمخشري : المراد من هذا الكلام بيان عظمتة و التوقيف على كنه جلاله لا إلى جهة حقيقة ، روي أن يهودياً جاء إلى رسول الله وَاللَّهُ يَسْتَكْبِرُ فقال : يا أبا القاسم إن

الله يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع و الأرضين على إصبع و الجبال على إصبع و الشجر على إصبع و الثرى على إصبع و سائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول : أنا الملك فضحك رسول الله تعجباً مما قال .

قال الزمخشري : وإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ولكن فهم من كلام اليهودي الخلاصة التي هي الدلالة على القدرة المحضة انتهى كلام الزمخشري .

و اعلم أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة فإن قام دليل منفصل على أنه يتعذر حمله على حقيقته فحينئذ يتعين صرفه إلى مجاز فإن حصلت هناك مجازات لم يتعين صرفه إلى مجاز معين إلا إذا كان الدليل يوجب ذلك التعيين و التعيين يحصل بالأولوية و هذا هو الطريق الصحيح في استعمال اللفظ في معنى المجازية في الكلام و الكلام في الآية كذلك لأنه لما دلت الدلائل العقلية و السمعية على امتناع ثبوت الأعضاء و الجوارح لله تعالى فوجب حمل هذه الأعضاء على وجوه المجاز و أقربها .

و للرازي كتاب مفرد في إثبات تنزيه الله تعالى عن الجسم و المكان سمّاه تأسيس التقديس و من أراد الإطناب في هذا الباب فليرجع إليه .

و قوله تعالى في الآية « والأرض » المراد الأرضون و بيّنه قوله : « جميعاً » فإن هذا التأكيد لا يحسن إدخاله إلا على الجمع فإن الأوصاف و الألفاظ الملحقه بالمفرد إذا كانت جمعاً تدل على أن المراد منه الجمع كقوله : « والنخل باسقات » ^(١) .

قوله : [سبحانه و تعالى عما يشركون] نزه سبحانه نفسه عن شركهم و عما يضيفونه إليه .

[و نفخ في الصور فصعق من في السماوات و من في الأرض إلا من شاء الله] و الصور قرن ينفخ فيه إسرافيل و وجه الحكمة في ذلك أنها علامة جعلها الله ليعلم بها العقلاء آخر أمرهم في دار التكليف ثم بعد ظهور هذه العلامة تجديد الخلق فشبّه ذلك بما يتعارفونه من بوق الرهيل و النزول و قيل : « و نفخ في الصور » جمع صورة فكأنه نفخ في

صورة الخلق .

« فصعق من في السماوات و من في الأرض ، أي يموت من شدة تلك الصيحة التي تخرج من الصور جميع من في السماوات و الأرض يقال : صعق فلان إذا مات بحال هائلة شبيهة بالصيحة العظيمة .

[إلا من شاء الله] اختلف في المستثنى : قال ابن عباس : هم جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و ملك الموت وهو المروي عن حديث مرفوع ثم يميت الله ميكائيل و إسرافيل ثم جبرائيل و ملك الموت و القول الثاني أنهم أي المستثنى هم الشهداء لقوله : « بل أحياء عند ربهم يرزقون ^(١) » و عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : هم الشهداء متقلدون أسياهم حول العرش . القول الثالث : المستثنى هو موسى لأنه صعق مرة فلا يصعق ثانياً . القول الرابع أنهم الحور العين و سُكَّانُ العرش و الكرسي القول الخامس الله أعلم بأنهم من هم و ليس في القرآن و الأخبار ما يدل على أنهم من هم .

و اختلفوا في الصعقة : منهم من قال : إنها غير الموت بدليل قوله في موسى ﷺ : « و خر موسى صعقاً » مع أنه لم يمت فهذا هو النفخ الذي يورث الفزع الشديد فالمراد من نفخ الصعقة و من نفخ الفزع على هذه التقدير واحد و هو المذكور في سورة النمل في قوله : « و يوم ينفخ في الصور ففزع من السماوات و من في الأرض ^(٢) » و على هذا فنفخ الصور ليس إلا مرتين . و القول الثاني أن الصعقة عبارة عن الموت والقائلون بهذا القول قالوا : إنهم يموتون من الفزع و شدة الصوت و على هذا التقدير فالنفخة يحصل ثلاث مرات أولها نفخة الفزع و هي المذكورة في سورة النمل و الثانية نفخة الصعق و الثالثة نفخة القيام و هما مذكورتان في هذه السورة قوله تعالى : « فإذا هم قيام ينظرون » .

و كلمة ثم في قوله : [ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون] تفيد التراخي و هي متأخرة عن النفخة الأولى و روي عن النبي ﷺ أن بينهما أربعين ولا أدري أربعون يوماً أو شهراً أو أربعون سنة أو أربعون ألف سنة وقوله : « فإذا هم قيام » يعني

(١) آل عمران : ١٩٦ .

(٢) الكهف : ١٠٠ .

قيامهم من القبور غيب هذه النفخة الآخرة في الحال من غير تراخ لأنّ الفاء تدلّ على التعقيب والمراد من قوله « ينظرون » أي يقلّبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذ جاءهم خطب عظيم أو ينظرون ما ذا يفعل بهم و يجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والخمود في مكان لأجل استيلاء الحسرة والدهشة عليهم .

ثمّ قال سبحانه : [و أشرق الأرض بنور ربّها] وهذه الأرض المذكورة ليست هي هذه الأرض التي يسكن و يقعد عليها الآن بدليل قوله : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض »^(١) يعني أرضاً لم يكسب عليها الذنوب و بدليل قوله : « و حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة »^(٢) بل هي أرض أخرى يخلقها الله لمحفّل يوم القيامة .

و ههنا بيان و هو أنّه قالت المجسّمة : إنّ الله تعالى نور محض فإذا حضر الله في تلك الأرض لأجل القضاء بين عباده أشرق تلك الأرض بنور الله و أكّدوا هذا القول بقوله : « الله نور السماوات والأرض »^(٣) .

و قد أُجيب عن هذه الشبهة الواهية على التفصيل في سورة النور و كيف يجوز حمل الكلام في معنى النور على الحقيقة و كونه تعالى شأنه من جنس هذه الأنوار المشاهدة و قد فُسّر لفظ النور في قوله : « و أشرق الأرض بنور ربّها »^(٤) على العدل و قد يستعمل هذا اللفظ مجازاً في هذا المعنى و في بيان أنّ المراد من لفظ النور ههنا ليس إلّا هذا المعنى أمّا بيان الاستعمال فهو أنّ الناس شايع في كلامهم بأن يقولون للملك العادل : أشرق الأرض بعد لك و أضاءت الدنيا بقسطك كما يقولون : أظلمت البلاد بجورك قال تعالى : **الظلم ظلمات يوم القيامة** .

و القرينة على أنّ المراد من النور في الآية العدل فقط أنّه تعالى قال : بعده « و وضع الكتاب و جيء بالنبيّين و الشهداء » و معلوم أنّ المجيء بالشهداء ليس إلّا للشهادة وإظهار العدل . و أيضاً قال في آخر الآية : « و هم لا يظلمون » ثمّ إضافة النور إلى الله لا يلزم

(١) النبأ : ٣٨ .

(٢) الحاقة : ١٤ .

(٣) النور : ٣٥ .

(٤) الزمر : ٦٤ .

كون ذلك صفة ذات الله لأنه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب فلمّا كان ذلك النور من خلق الله وشرّفه بأن أضافه إلى نفسه كان ذلك النور نور الله مثل قوله : بيت الله و ناقة الله . وهذا الجواب أقوى من الأوّل لأنّ في هذا الجواب لا يحتاج إلى ترك الحقيقة و الذهاب إلى المجاز .

قوله : [و وضع الكتاب] قيل : المراد من الكتاب اللوح المحفوظ الذي يحصل فيه شرح أحوال عالم الدنيا إلى وقت القيامة وقيل : المراد كتب الأعمال كما قال سبحانه : « و كلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً »^(١) و قال في آية أخرى مما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها^(٢) .

قوله : [وحي بالنبیین] و المراد من مجيء الأنبياء ليكونوا شهداء على الناس قوله : [والشهداء] قيل : أراد بالشهداء المؤمنين وقيل : يعني الحفظة من الملائكة في أعمالهم وقيل : أراد بالشهداء المستشهدين في سبيل الله ، القمي : الشهداء الأئمة وفي إرشاد المفيد عن الصادق عليه السلام في قوله : « و أشرقت الأرض بنور ربّها » المراد إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربّها أي نور الإمام و قد جعله الله نوراً للعالم و استغنى العباد عن ضوء الشمس و ذهب الظلمة .

قوله تعالى : [و قضي بينهم بالحقّ و هم لا يظلمون] أي يفصل بينهم و يوصل إلى كلّ أحد حقه من غير نقيصة [و وقيت كلّ نفس] أي يستوفي كلّ نفس جزاء ما عمل [وهو أعلم بما يفعلون] عالم بكيفيات أعمالهم و مقادير أفعالهم فلا يمكن دخول الخطأ في ذلك الحكم .

قوله تعالى : وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها و قال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم و ينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى و لكن حقت كلمة العذاب على الكافرين (٧١) قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٢) وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا

(١) اسرى : ١٣ .

(٢) الكهف : ٥٠ .

جاؤھا و فتحت ابوابھا و قال لھم خزنتھا سلام علیکم طبتھم فادخلوھا
خالدین (۷۳) و قالوا الحمد لله الذی صدقنا وعده و اورثنا الارض
نتبؤ من الجنة حیث نشاء فنعم اجر العالمین (۷۴) وترى الملائكة حافین
من حول العرش یسبحون بحمد ربھم و قضی بینھم بالحق وقیل الحمد
لله رب العالمین (۷۵).

لما شرح أحوال أهل القيامة بقوله : « ووفيت كل نفس ما عملت » بين أحوال أهل العقاب ثم كيفية أهل الثواب « السوق » الدفع بالعنف ^(١) [وسيق الذين كفروا] أي يساقون بالعنف إلى جهنم تسوقهم الملائكة من خزنة جهنم وهم ملائكة العذاب ونظيره قوله : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً ^(٢) » أي يدفعون دفعاً وأما الزمر فهي الأفواج المتفرقة بعض في أثر بعض .

[حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها] أي تفتح أبواب جهنم عند وصول أولئك إليها
 فإذا وصلوا باب جهنم [قال لهم] ملائكة العذاب [ألم يأتكم رسل منكم] أي من
 جنسكم [يتلون عليكم آيات ربكم] وينذرونكم لقاء يومكم [يقرءون عليكم آيات ربكم
 وحجج ربكم] وما يدلّكم على معرفته وبيان عبادته ويخوفونكم من مشاهدة هذا اليوم
 وعذابه .

[قالوا بلى] فيقول الكفار: قد جاءتنا وخوفونا [ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين] أي وجب العقاب على من كفر بالله لأنه أخبر بذلك فلم يكن يقع منه على خلاف ما أخبر به فصار كوننا في جهنم موافقاً لخبره سبحانه والكلمة قوله تعالى لا بليس ولا ملأ من جهنم منك وتمن تبعك منهم أجمعين^(٣) وقد كنا ممن تبعه وكذبنا الرسل . قوله : [قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها] فتقول الخزنة لهم : ادخلوا أبواب جهنم وأنتم مخلدون ومؤبدون فيها وإبهاهم الفائت لتحويل المقول [فبئس مثوى المتكبرين] أي بئس موضع المتكبرين عن الحق وهذا الكلام لبيان أن ورودهم في النار بناءً على

(١) بل هو الحدث على السير .

(٢) الطور : ١٣ .

(۳) ص : ۸۵ .

كفرهم و تكبرهم عن عبادة الله و هذا العذاب إنما أوردوه على أنفسهم بكفرهم على سبيل الاختيار حيث لم يعتنوا بدلائل التوحيد ولم يقبلوا قول الرسل .

[وسبق الذين اتفقوا ربهم إلى الجنة زمراً] فبين حال أهل الثواب و الذين لم يتكبروا عن أمره و خافوا عن مخالفة الله و رسله .

فإن قيل : السوق في أهل النار للعذاب معقول لأنهم لابد و أن يساقوا إليه لأنهم ذهبوا إليه عنفاً و كرهاً ولكن أي حاجة لأهل الكرامة بالسوق ؟

فالجواب أنه إنما ذكر السوق على وجه المقابلة لسوق الكافرين كلفظ البشارة في قوله : « فبشرهم بعذاب أليم ^(١) » و إنما البشارة للخير و مثل قوله : « و جزاء سيئة سيئة » .

وقيل وجه آخر و هو أن المحبة و الصداقة باقية بين المتقين فإذا قيل لواحد منهم : اذهب إلى الجنة فيقول : لا أدخلها حتى يدخلها أصدقائي فيتأخرون لهذا السبب فحينئذ يحتاجون إلى السوق إلى الجنة .

وقيل أيضاً وجه آخر : أن المؤمنين الماحضين قد عبدوا الله مخلصاً لا للجنة ولا للنار فتصير شدة استغراقهم في مشاهدة مواقف الجلال و الجمال مانعة لهم من الرغبة في الجنة فلا جرم يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة .

وقيل : إن أهل الجنة و أهل النار يساقون إلا أن المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان و العنف كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس و المراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين فالمراد بإسراعهم إلى دار الكرامة و الرضوان كما يفعل بمن يكرم و يشرف من الوافدين على الملوك شتان ما بين السوقيين !

ثم قال تعالى : [حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها] فإن قيل : قال تعالى في أهل النار : « فتحت أبوابها » بغير الواو و قال ههنا بالواو فما الفرق ؟ والفرق أن أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها فأما أبواب الجنة ففتحها يكون متقدماً على وصولهم إليها بدليل قوله : « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ^(٢) » فلذلك جيء

(١) آل عمران : ٢١ .

(٢) ص : ٥١ .

بالواو كأنه قيل : حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها و الواو واو حال وقيل : الواو واو
الثمانية قال المبرّد : الواو زائدة وأنكر قول من قال : إنها واو الثمانية وأنشد لامرئ القيس :
فلما أجزنا ساحة الحيّ وانتحي * بنا بطن جنب ذي حقاف عقتل
قال : والمعنى فلما أجزنا ساحة الحيّ انتحي بنا .

وبالجملة فجواب إذاني صفة أهل الجنة محذوف وتقديره : حتى إذا جاءوها وفتحت
أبوابها فازوا و نالوا وكانوا كيت وكيت كما أن في بيت امرئ القيس الجواب محذوف
والتقدير : فلما أجزنا ساحة الحيّ وانتحي بنا خلونا ونعمنا .

وبالجملة فالمعنى : حتى إذا جاءوها وقد فتحت لهم أبواب الجنة وقال لهم خزنتها :
[سلام عليكم طبتّم فادخلوها خالدين] الخزنة يذكرون لأهل الثواب هذه الكلمات
الثلاث أو لها يبشرونهم بالسلامة من كلّ الآفات فتقول الملائكة عند استقبالهم : سلامة
من الله عليكم ويحيونهم ليزدادوا بذلك سروراً طبتّم ، بالعمل الصالح في الدنيا وطابت
وزكت أعمالكم أو المعنى : طابت أنفسكم بدخول الجنة وقيل : إنهم طيبوا قبل دخول
الجنة بالمغفرة وقيل : طبتّم أي طاب لكم المقام وقيل : إنهم إذا قربوا من الجنة يردون
إلى عين من الماء فيغتسلون بها و يشربون منها فيطهر الله أجوافهم فلا يكون بعد
ذلك منهم حدث وأذى ولا يتغيّر ألوانهم فحينئذ تقول الملائكة لهم : طبتّم فادخلوها
خالدين مؤبدين والفاء في قوله : « فادخلوها » بدل على كون ذلك الدخول معللاً و
متعاقباً بالطيب والطهارة .

قالت المعتزلة : هذا يدلّ على أن أحداً لا يدخلها إلّا إذا كان طاهراً عن كلّ
المعاصي ، قال الرازي : وهذا القول ضعيف لأنّه يدلّ الله سيئاتهم حسنات فحينئذ يصيرون
طيبين طاهرين .

وعن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله قال : إن للجنة ثمانية أبواب منها
باب يسمى الريان لا يدخلها إلّا الصائمون .

[وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده] قال المتّقون عند ذلك : الحمد لله الذي
صدقنا وعده الذي وعدنا على ألسنة الرسل في قوله : « أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا

بالجنة التي كنتم توعدون .

[وأورثنا الأرض] والمراد بالأرض أرض الجنة وعبر عنه بالإرث لأن الجنة كانت في أول الأمر لآدم فلما عادت إلى أولاده كان ذلك سبباً لتسميتها بالإرث أولاً لأن الوارث يتصرف فيما يرثه كما يشاء من غير منازع ولا مدافع فكذلك هؤلاء يتصرفون في الجنة كيف شاءوا والمشابهة علة لحسن المجاز .

قوله تعالى : [تقيو آمن الجنة] أي تأخذ منها مأوى ومبوءة [حيث نشاء] وهذا إشارة إلى كثرة قصورهم ومنازلهم وسعة نعمتهم [فنعم أجر العاملين] أي نعم ثواب المحسنين الجنة قال مقاتل : إن هذا الكلام من قول الله وليس من كلام أهل الجنة .

قوله : [وترى الملائكة حافين من حول العرش] لما بين ثواب أهل الإيمان ذكر عقبيه ثواب الملائكة فقال : كما أن ثواب المتقين الجنة فكذلك دار ثواب الملائكة جوارب العرش وأطرافه أي محذفين بالعرش ويطوفون حوله [يسبحون بحمد ربهم] ينزهون الله عما لا يليق به ويذكرونه بصفاته التي هو عليها وقيل : يحمدون الله حيث دخل الموحدون الجنة وتسيحهم في ذلك الوقت على سبيل التلذذ والتنعيم لاعلى وجه التعبد إذ ليس هناك تكليف .

ثم قال سبحانه : [وقضي بينهم بالحق] بإدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة أو المعنى : قضي بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم [وقيل الحمد لله رب العالمين] أي على ما قضي بيننا بالحق ولما كان تقرير المؤمنين بقولهم : « الحمد لله الذي صدقنا وعده » و بين أنهم اشتغلوا بهذا التحميد تلذذاً لا تكليفاً فكذلك الملائكة متواقفين على الاستغراق في التحميد تلذذاً كان ذلك سبباً لزيد التذاذهم وقيل : « الحمد لله رب العالمين »

من كلام أهل الجنة شكر أو قيل : إنه من كلام الله تعالى فقال في ابتداء

الخلق : الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وقال بعد بعثهم

واستقرارهم في منازلهم : الحمد لله وهذا أدب أدب الله

العباد بأنه يجب الأخذ بأدبه في ابتداء

كل أمر وختم كل أمر .

سورة المؤمن

مَكِّيَّةٌ إِلَّا آيَتَيْنِ مِنْهَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ « إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا ، إِلَى قَوْلِهِ : « لَا يَعْلَمُونَ » وَقِيلَ : إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ » يَعْنِي بِذَلِكَ صَلَاةَ الْفَجْرِ وَالْمَغْرِبِ وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ فَرَضَ الصَّلَاةِ نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ .

فَضْلُ قِرَاءَةِ الْحَوَامِيمِ كَثِيرٌ وَفَضْلُهَا خُصُوصاً رَوَى أَبُو يُرْدَةَ الْأَسْلَمِيُّ (أَوْ بَرِيدَةُ) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَلْيَقْرَأِ الْحَوَامِيمَ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : الْحَوَامِيمُ دِيْبَاجُ الْقُرْآنِ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لِكُلِّ شَيْءٍ لِبَابٌ وَلِبَابُ الْقُرْآنِ الْحَوَامِيمُ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : إِذَا وَقَعْتَ فِي قِرَاءَةِ الْحَوَامِيمِ وَقَعْتَ فِي رَوْضَاتِ دَعْمَاتٍ أَتَانَتْ فِيهِنَّ .

وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : وَمَنْ قَرَأَ سُورَةَ حَمِّ الْمُؤْمِنِ لَمْ يَبْقَ رُوحٌ نَبِيٍّ وَلَا صِدِّيقٍ وَلَا مُؤْمِنٍ إِلَّا صَلَّوْا عَلَيْهِ ، وَاسْتَغْفَرُوا لَهُ وَرَوَى أَبُو بَصِيرٍ عَنِ الصَّادِقِ ع قَالَ : الْحَوَامِيمُ رِيحَانُ الْقُرْآنِ فَاحْمَدُوا اللَّهَ وَاشْكُرُوهُ بِحِفْظِهَا وَتَلَاوتِهَا وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَقُومُ يَقْرَأُ الْحَوَامِيمَ فَيُخْرِجُ مِنْ فِيهِ رِيحٌ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ الْأَزْفَرِ وَالْعَنْبَرِ وَإِنَّ اللَّهَ لَيَرْحَمُ تَالِيَهَا وَقَارِبَهَا وَيَرْحَمُ جِيرَانَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ وَكُلَّ حَمِيمٍ أَوْ قَرِيبٍ لَهُ وَإِنَّهُ فِي الْقِيَامَةِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ وَمَلَائِكَةُ اللَّهِ الْمُقَرَّبُونَ .

وَرَوَى أَبُو الصَّبَّاحِ عَنِ الْبَاقِرِ ع قَالَ : مَنْ قَرَأَ حَمِّ الْمُؤْمِنِ فِي كُلِّ ثَلَاثٍ غُفِرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ وَأُلْزِمَهُ التَّقْوَى وَجَعَلَ الْآخِرَةَ خَيْراً لَهُ مِنَ الدُّنْيَا .

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير (٣) ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يفررك تقلبهم في البلاد (٤) كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٥) وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار (٦) .

وقرى، بكسر الحاء وبعض بين الفتح والكسر قال صاحب الكشاف : بفتح الميم وتسكينها ووجه الفتح للالتقاء الساكنين وإيثار الفتح للخفة نحو أين وكيف أو النصب بإضمار إقرأ ومنع الصرف للتعريف والتأنيث لأنها اسم للسورة وأما السكون لأن الأسماء المجردة تذكر موقوفة الآخر .

وبا لجملة قال الرازي الأقرب أن يقال : « حم » اسم للسورة فقوله : [حم] مبتدأ وقوله : [تنزيل الكتاب من الله] خبره والتقدير : إن هذه السورة المسماة بحم تنزيل الكتاب وتنزيل مصدر لكن المراد منه المنزل . وقوله : من الله بيان أنه تعالى هو المنزل ووصف نفسه بالغالب العليم . والفائدة في ذكر [العزيز العليم] بيان أنه تعالى بقدرته وعلمه أنزل القرآن على هذا الحد الذي يتضمن المصالح في عموم التكليف والإعجاز لقدرته وعلمه .

ثم وصف نفسه بما يجمع الوعد والوعيد والترغيب فقال سبحانه : [غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير] فهذه ستة أنواع من الصفات :

الأولى: غافر الذنب قال الجبائي: معناه أنه غافر الذنب إذا استحق المذنب غفرانه إما بتوبة أو طاعة أعظم من الذنب ومراده أن فاعل المعصية إما أن يقال: إنه كان قد أتمى قبل ذلك بطاعة كان ثوابها أعظم من عقاب هذه المعصية أو ما كان الأمر كذلك فإن كان الأمر كذلك كانت هذه المعصية صغيرة فيحبط عقابها وإن كان الثاني كانت هذه المعصية كبيرة فلا يزول عقابها إلا بالتوبة انتهى كلام الجبائي.

قال الرازي: ومذهب أصحابنا أن الله تعالى قد يعفو عن الكبائر بدون التوبة والآية تدل على ذلك لأن الغفر معناه الستر ومعنى الغفر إنما يعقل في الشيء الذي يكون باقياً موجوداً فيستر والصغيرة تحبط بسبب كثرة ثواب فاعليها فمعنى الغفر فيها غير معقول.

ولا يمكن حمل قوله: غافر الذنب على الكبيرة بعد التوبة لأن معنى كونه قابلاً للتوبة ليس إلا ذلك وإن التائب من الذنب كمن لا ذنب و توسيط الواو بين الأولين لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة أو تغاير الوصفين فثبت أن كونه غافر الذنب يفيد كونه غافراً للذنوب الكبائر قبل التوبة على أن الكلام مذكور في معرض المدح العظيم فحمله على ما يفيد أعظم أنواع المدح أليق انتهى كلامه وفيه نظر.

الصفة الثانية: قوله تعالى: «قابل التوب» وفي لفظ التوب قال أبو عبيدة: هو مصدر وقال الأخفش: إنه جماعة التوبة وقال المبرد: إنه مصدر ماب يتوب توباً مثل «قولاً» قالت الأشاعرة: إن قبول التوبة من المذنب يقع على سبيل التفضل وليس بواجب على الله وقالت المعتزلة: إنه واجب على الله.

الصفة الثالثة: قوله: «شديد العقاب» فلو قيل: إن قوله: «شديد العقاب» وهي صفة للمعرفة وهو الله ولا يصلح أن يوصف المعرفة بالنكرة كما أنه يقال: مهذت برجل شديد البطش ولا يقال: مررت بعبد الله شديد البطش فأجيب بأن هذه الصفة وإن كانت نكرة إلا أنها لما ذكرت مع سائر الصفات التي هي معارف فحسن ذكرها مثل قوله: «وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد»^(١) وأجاب الزجاج أن خفض شديد

العقاب على البذل وجعل النكرة بدلاً من المعرفة و بالعكس أمر جائز وقال ابن عباس في تفسير الآية : إنه تعالى غافر الذنب لمن قال : لا إله إلا الله مخلصاً قابلاً للتوب عمن قال : لا إله إلا الله شديد العقاب لمن لم يقل : لا إله إلا الله ذي الطول أي ذو الغنى عمن لم يقل : لا إله إلا الله . أقول : وقد عرفت أن هذه الكلمة مقيّدة بقبول الولاية وأداء شروطها . وبالجملة فقوله : « ذي الطول » صفة رابعة وقيل : إنه إنما ذكر ذي الطول عقيب قوله : « شديد العقاب » لبيان تفضله و طوله على الخلق و الطول الإحسان كقول الشاعر : « ليلي و ليلي » إلى آخر البيت وهذا البيان ليعلم أن العاصي أئى في هلاك نفسه من قبل نفسه لا من قبل ربه و إلا فنعمه سابغة .

الصفة الخامسة : التوحيد المطلق و هو قوله : لا إله إلا هو فحينئذ لا يشاركه أحد في العبادة .

السادسة : قوله : « إليه المصير » وهذه الصفة أيضاً داعية إلى الترتيب و الترهيب كما أن التوحيد داع إلى الترتيب والترهيب .

ولما ذكر سبحانه صفاته الشريفة و بين أن القرآن كتاب أنزله للهداية ثم ذكر أحوال المخاصم في دفع حجج الله و جحد هاققال : [ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا بآيات الله] اعلم أن الجدل نوعان جدال في تقرير الحق و جدال في تقرير الباطل و الجدال في إثبات الحق فهو حرفة الأنبياء ﷺ قال تعالى لمحمد ﷺ : « و جادلهم بالتتي هي أحسن ^(١) » ، وأما الجدال في تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد في الآية حيث قال : « ما يجادل » الآية و قال : « و جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق » وقال ﷺ : إن جدالاً في القرآن كفر فقوله : إن جدالاً على لفظ التنكير يدل على التمييز بين جدال و جدال و لفظ الجدال في الشيء مشعر بالجدال الباطل و لفظ الجدال عن الشيء مشعر بالجدال الحق والذب عن الحق وقال ﷺ : لا تماروا في القرآن فإن المراء فيه كفر و الجدال في آيات الله هو أن تقول مرة إنه سحر ومرة إنه شعر ومرة إنه قول الكهنة ومرة أساطير الأولين ومرة إنما يعلمه بشر و أشباه هذا من الشبهات الباطلة فذكر تعالى أنه

لا يفعل هذا إلا الذين كفروا وأعرضوا عن الحق .

[فلا يغرك] يا محمد [تقلّبهم في البلاد] أي تصرّفهم في البلاد للتجارات سالمين أصحاء مع كفرهم فإن الله لا يخفى عليه حالهم و إنما يملهم لأنهم في سلطانه ولا يفوتونه و في هذا غايه التهديد أي فإني و إن أمهلتهم فإني سأخذهم كما فعلت بأمثالهم من الأمم المكذّبة و كانت قريش كذلك يتقلّبون في بلاد الشام و اليمن فرحين فرحين و لهم الأرباح الكثيرة في تجارتهم و الزمان مساعد لهم .

ثم كشف عن هذا المعنى بقوله : [كذّبت قبلهم قوم نوح] نوحاً و هو رسولهم [و الأحزاب من بعدهم] أي الأمم المستمرة على التكذيب و الكفر نحو قوم هود و ثمود و غيرهم من بعدهم و هم الذين تحزّبوا على تكذيب الأنبياء .

[و همّت كل أمة] من أولئك الأحزاب [برسولهم] أي قصدوه [ليأخذوه] أي ليهلكوه و يقتلوه و إنما قال : « برسولهم » و لم يقل : برسولها لأن المراد الرجال . [و جادلوا بالباطل] مثل قولهم : ما أنتم بشرٌ مثلنا وهاً أرسل الله إلينا ملائكة [ليدحضوا به الحق] و يبطلوا الحق و يزيلوه يقال : أدحض الله حجته أي أزالها و أزلها [فأخذتهم فكيف كان عقاب] أي عقابي إياهم فأفعل بقومك كما فعلت بهؤلاء إن أصرّوا على الجدل و الكفر بآيات الله .

ثم قال : [و كذلك حقّت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار] أي مثل الذي حقّ على أولئك الأمم السالفة من العقاب حقّت كلمتي أيضاً على هؤلاء الذين كفروا من قومك فوجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار .

قوله تعالى : الذين يحملون العرش و من حوله يسبحون بحمد ربهم و يؤمنون به و يستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة و علما فاعفّر للذين تابوا و اتبعوا سبيلك و قهم عذاب الجحيم (٧) إربنا و ادخلهم جنات عدن التي وعدتهم و من صلح من آبائهم و ازواجهم و ذرياتهم انك انت العزيز الحكيم (٨) و قهم السيئات و من تق السيئات يومئذ فقد رحمته و ذلك هو الفوز العظيم (٩) ان الذين كفروا ينادون لمقت الله اكبر من مقتكم انفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون (١٠) .

ثم أخبر سبحانه عن حال المؤمنين و أنه تستغفر لهم الملائكة مع عظم منزلتهم عند الله فحالهم بخلاف حال الكفار .

المعنى : إنه إذا كان يبالبغون في إظهار العداوة للأنبياء و المؤمنين فأشرف طبقات المخلوقات هم حملة العرش من الملائكة فهم يبالبغون في إظهار المحبة و الدعاء فلا تبال بهؤلاء الأراذل و لا تقم لهم وزناً فإن حملة العرش ينصرونك بالدعاء .

روي أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى و رموسهم قد خرقت العرش و هم خشوع لا يرفعون طرفهم قال النبي ﷺ : لا تتفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة فإن خلقاً من الملائكة يقال له : إسرا فيل زاوية من زوايا العرش على كاهله و قدماء في الأرض السفلى و قد مرق رأسه من سبع سماوات و إنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوضع قيل : إنه طائر صغير .

روي الزخشي : إن الله أمر جميع الملائكة أن يغدوا و يروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة و خلق الله العرش من جوهرة خضراء و بين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام و حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين و من ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عوائقهم رافعين أصواتهم بالتهليل و التكبير و من ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمايل ما منهم أحد إلا و يسبح بما لا يسبح به الآخر والحاصل أن حملة العرش [و من حوله] يعني الملائكة المطيفين بالعرش و هم الكروبيون و سادة الملائكة و أشرافها ينزّهون ربهم عما يصفه به هؤلاء المجادلون [و يؤمنون به] و يصدقونه بوحدانيته [ويستغفرون] و يسألون الله المغفرة [للذين آمنوا] من أهل الأرض و يدعون لمن معك من المؤمنين فإن المشاركة في الإيمان أدعى الدواعي و أتمتها إلى النصح و الشفقة و استغفارهم لهم في سلك وظائفهم المفروضة عليهم و يقولون في دعائهم للمؤمنين :

[ربنا وسعت كل شيء رحمة و علماً] أي وسعت رحمتك و علمك كل شيء والمراد بالعلم المعلوم كما ينبي عن هذا المعنى قوله : « ولا يحيطون بشيء من علمه » أي معلومه

على التفصيل و في هذا تعليم و أدب لطريقة الدعاء لأنه لما كان السعادة مربوطة بأمرين التعظيم لأمر الله و الشفقة على خلق الله المستحقين لها فقوله : « يسبحون بحمد ربهم و يؤمنون به » مشعرٌ بالتعظيم لأمر الله و قوله « و يستغفرون للذين آمنوا » مشعرٌ بالشفقة على خلق الله .

فقالوا : [فاغفر للذين تابوا] من الشرك و المعاصي [و اتبعوا سبيلك] الذي دعوت إليه خلقك و هو دين الإسلام [و فهم] و ادفع عنهم [عذاب الجحيم] و في هذه الآية دلالة على أن إسقاط العقاب عند التوبة تفضيل من الله إذ لو كان واجباً لكان لا يحتاج فيه إلى مسألتهم بل كان يفعل الله سبحانه لا محالة .

قوله : [ربنا و أدخلهم] مع قبول توبتهم و وقايتهم النار [جنات عدن التي وعدتهم] على ألسن أنبيائك [و من صلح من آبائهم و أزواجهم و ذرياتهم] ليكمل أنفسهم و يتم سرورهم [إنك أنت العزيز] الغالب القادر على ما يشاء [الحكيم] في أفعالك . [و فهم السيئات و من تق السيئات يومئذ فقد رحمته] أي و من تقه عذاب السيئات و المعاصي [فقد رحمته] يوم القيامة لأن من انصرف عنه شر معاصيه فقد تفضل و أُنعم عليه [و ذلك هو الفوز العظيم] و الظفر بالبغية و الفلاح .

و في العيون عن الرضا عليه السلام في قوله : « الذين آمنوا » أي آمنوا بولايتنا و في الكافي عن الصادق عليه السلام : إن الله ملائكة يسقطون الذنوب عن ظهور شيعتنا كما يسقط الريح الورق أو ان سقوطه و ذلك قوله تعالى : « الذين يحملون العرش الآية » قال عليه السلام : استغفارهم الله لكم دون هذا الخلق . و القمي في قوله : « الذين يحملون العرش » يعني رسول الله و الأوصياء من بعده يحملون علم الله و من حوله يعني الملائكة يستغفرون للذين آمنوا أي لشعبة آل محمد و قوله : « للذين تابوا » أي للذين تابوا من ولاية غيرهم مثل بني أمية « و اتبعوا سبيلك » يعني ولاية ولي الله « و من صلح » يعني من تولى علياً و ذلك صلاحهم « و ذلك هو الفوز العظيم » لمن نجاه الله عن ولاية غير علي و أولاده المعصومين .

و في الكافي مرفوعاً : إن الله عز وجل أعطى التائبين ثلاث خصال لو أُعطِيَ خصلة

منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها ثم تلا هذه الآية انتهى الحديث .
وهيئة نكتة وهي أن الدعاء في أكثر الأمر مذكور بلفظ ربنا كما قالت الملائكة :
« ربنا وسعت » الآية ، وقال آدم عليه السلام : « ربنا ظلمنا أنفسنا ^(١) » ، وقال نوح عليه السلام :
« رب إنني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ^(٢) » الآية ، وقال أيضاً : « رب
إنني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ^(٣) » ، وقال أيضاً : « رب اغفر لي ولوالدي ^(٤) » الآية ،
وقال إبراهيم : « رب أرني كيف تحيي الموتى ^(٥) » ، وقال : « رب اغفر لي ولوالدي
وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ^(٦) » ، وقال : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ^(٧) » ، وقال موسى :
في قصة الوكز « رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي ^(٨) » ، وقال سليمان : « رب هب لي
ملكاً ^(٩) » ، وقال عيسى : « ربنا أنزل علينا مائدة ^(١٠) » ، وقال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم :
« وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ^(١١) » ، وحكى سبحانه عن المؤمنين أنهم
قالوا « ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، وأعادوا إلى آخر السورة ^(١٢) » هذه اللفظة خمس مرات
فظهر أن الترتيب في الدعاء أن ينادي العبد ربه بقوله : يا رب .

فإن قيل : إن لفظ الله أعظم من لفظ الرب فلم صار لفظ الرب مختصاً بوقت الدعاء ؟
فالجواب أن المناسب في المقام لفظ الرب فإن العبد يقول : كنت في كتم العدم
المحض والنفي الصرف فأخرجتني إلى الوجود وربيتني فاجعل تربيتك لي شافعاً إليك
في أن لا تخليني طرفة عين عن تربيتك وإحسانك القديم إلي فبعد هذا الخطاب والنداء
إلى ربه فليحسن الداعي الثناء عليه ثم يستدعي حوائجه والعقل يحكم برعاية هذا الترتيب
وذلك لأن ذكر الله بالثناء والتعظيم بالنسبة إلى جوهر الروح كالأكثر كسيرة الأعظم بالنسبة
إلى النحاس فكما أن ذرة من الإكسير إذا وقعت على عالم من النحاس انقلب الكل ذهباً

- | | |
|----------------------|-----------------------|
| (١) الاعراف : ٢٢ . | (٢) هود : ٤٧ . |
| (٣) المؤمنون : ٩٨ . | (٤) إبراهيم : ٤١ . |
| (٥) البقرة : ٢٦٠ . | (٦) إبراهيم : ٤١ . |
| (٧) البقرة : ١٢٨ . | (٨) القصص : ١٦ . |
| (٩) الشعراء : ٨٣ . | (١٠) المائدة : ١١٧ . |
| (١١) المؤمنون : ٩٨ . | (١٢) آل عمران : ١٩١ . |

إبريزاً فكذلك إذا وقعت ذرة من إكسير معرفة الله وجلاله على جوهر الروح النطقية انقلب من نحوسة النحاس إلى صفاء القدس والنقاوة ومتى أشرق نور معرفته في جوهر الروح يصير الروح أقوى وأكمل فتأثير القوي أقوى فكان حصول الشيء المطلوب بسبب هذه القوة أمكن وأقرب وهذا هو السبب في تقديم الثناء على الله على الدعاء .

وهنا بحث آخر وهو أن العلم يصح أن يسع كل شيء لكن الرحمة كيف يسع كل شيء لأن الضرر حال وقوعه في الضرر لا يكون ذلك الضرر رحمة .

فالجواب أن كل موجود فقد نال من رحمة الله نصيباً وذلك لأن الموجود إما واجب وإما ممكن أما الواجب فليس إلا الله وأما الممكن فوجوده من الله بإيجاده وذلك رحمة فلا موجود إلا وقد وصل إليه نصيب ونصاب من رحمة الله والمقصود بالذات من الخلق و التربية الرحمة والإحسان ولهذا قالت الحكماء : الخير مراد مرضي والشر مراد مكروه والخير مقضي به بالذات والشر مقضي به بالعرض وفي هذا البيان غور عظيم .

فإن قيل : إن قولهم : « وقهم عذاب الجحيم » وقولهم : « وقهم السيئات » وقد فسرتم أي قهم عذاب السيئات فما هذا التكرار الخالي عن الفائدة ؟

فالجواب أن عذاب الجحيم يتناول عذاب جهنم وعذاب السيئات يشمل عذاب الموقف والقبر ومواقف القيامة أو المراد من قولهم : « وقهم السيئات » المراد الحفظ من العقائد المفسدة في الدين والأعمال الفاسدة كما هو المفهوم من ظاهر الآية .

قوله تعالى : [إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أي إن الملائكة ينادون الكفار يوم القيامة والمراد من الملائكة خزنة جهنم ينادون الكفار وهم في النار : لمقت الله [أكبر من مقتكم] وذلك أنهم مقتوا أنفسهم الأمارة بالسوء التي بسبب اتباعها وقعوا فيما وقعوا أو المعنى أن الكفار مقت بعضهم بعضاً من الأحباب كقوله : « يلعن بعضهم بعضاً » ^(١) والمقت أشد البغض فتقول الملائكة لهم عند ذلك : لمقت الله إياكم في الدنيا أكبر وأعظم من مقتكم والسبب أنكم كنتم إذ تدعون من جهة الأنبياء [إلى الإيمان] فتأبون [وتكفرون] اتباعاً لأنفسكم ومسارعة إلى هواها أو اقتداءً بأخلائكم المضلين .

قوله تعالى : قالوا ربنا ائمتنا اثنتين واحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير (١٢) هو الذى يريك آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر الا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذريوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب (١٧) .

المعنى : يسن سبحانه أن الكفار لما خوطبوا بهذا الخطاب وهو قوله : « ملقت الله الآيه » [قالوا ربنا ائمتنا اثنتين] اختلف في معناه على وجوه :

أحدها أن الإمامة الأولى في الدنيا بعد الحياة والثانية في القبر قبل البعث والإحياء الأولى في القبر للمساءلة والثانية في الحشر وهو اختيار بعض علماء أهل الجماعة مثل السدي والبلخي .

و ثانيها أن الإمامة الأولى حال كونهم نطقاً فأحياهم الله في الدنيا ثم أماتهم الموت الثانية ثم أحياهم للبعث فهاتان حياتان وموتتان ونظيره قوله : « وكيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً » وهذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك واختاره أبو مسلم .

وثالثها أن الحياة الأولى في الدنيا والثانية في القبر ولم يرد الحياة يوم القيامة والموتة الأولى في الدنيا والثانية في القبر عن الجبائي وقوله : « ائمتنا اثنتين » فائتني نعت لمصدر محذوف والتقدير : إمامتين وإحياءتين اثنتين و في تفسير علي بن إبراهيم قال الصادق : ذلك في الرجعة .

ثم حكى الله عنهم أنهم قالوا : [فاعترفنا بذنوبنا] فالقاء فيه معنى السبيبية وذلك أنهم لما كانوا منكبين في البعث فلمّا شاهدوا الإحياء بعد الإمامة مرتين فلا جرم وقع هذا الاعتراف كالمسبب عن تلك الإمامة والإحياء .

ثم حكى سبحانه عن قولهم [فهل إلى خروج] من النار [سبيل] إلى الدنيا لنعمل بطاعتك وفي مثل هذا الكلام نوع تلطّف في الاستدعاء ويعادل الاستفهام : أم اليأس وقع

فلا خروج ولا سبيل وفي الكلام حذف تقديره : فأجيئوا بأنه لا سبيل لكم إلى الخروج .
وينبئ عن هذا الجواب [ذلكم بأنه إذا ادعى الله وحده كفرتم] أي ذلكم العذاب
الذي حل بكم بسبب أنه إذا قيل لا إله إلا الله استكبرتم وقلتم أجعل الآلهة إلهاً واحداً و
جحدتم ذلك [وإن بشرك به] معبود آخر من الأصنام والأوثان [تؤمنوا] و تصدقوا و
تقبلوا [فالحكم] في ذلك والفصل بين المحق والمبطل [الله العلي الكبير] القادر على
كل شيء الذي ليس فوقه من هو أقدر منه أو من يساويه في مقدوره ونقل هذه اللفظة من
علو المكان إلى علو الشأن كما يقال : استعلى فلان بالحجة والقوة .

قوله : [هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً] ولما كان أهم المهمات
رعاية مصالح الأديان من عباده فراعى بإظهار الحجج والبيّنات وراعى مصالح أبدانهم بإتزال
الرزق من السماء فموقع الآيات من الأديان كموقع الرزاق من الأبدان فلا آيات لحياة
الأديان والرزاق لحياة الأبدان فيبين سبحانه في الآية أنه أراكم بيّناته وأنزل أرزاقكم
من السماء لقوام حياتكم [وما يتذكّر] ويتعظ بهذه الأمور وليس تتفكّر في حقيقتها [إلا
من ينيب] ويرجع إليه ويقبل طاعته .

ثم أمر المؤمنين بقوله : [فادعوا الله مخلصين له الدين] أي وجهوا عبادتكم إليه
وحده [ولو كره الكافرون] فلا تبالوا بهم ولا تمتعوا بغيظهم وكرههم .

ثم وصف نفسه سبحانه [رفيع الدرجات] الرفيع بمعنى الرفع أي هو رافع درجات
الأنبياء والموحدين في الجنة وقيل : رافع السماوات السبع وقيل : معناه أنه سبحانه
عالي الصفات [ذو العرش] أي مالك العرش وربّه وقيل : المراد من العرش الملك .

[يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده] وقيل : الروح القرآن وكل
كتاب أنزله الله على نبي من أنبيائه وقيل : الروح الوحي هنا لأنه يحيا به القلب أي
يلقي الوحي على قلب من يشاء ممن يراه أهلاً له يقال : ألقى عليه كذا أي فهمته وقيل :
إن الروح جبرئيل يرسله الله بأمره وقيل : الروح هنا النبوة .

[لينذر] بما أوحى إليه [يوم التلاق] أي لينذر الله الناس أو لينذر النبي الناس
وقرىء بالتاء للخطاب للنبي أي لتنذر الناس العذاب يوم القيامة لأنه يتلاقى فيه الأرواح

و الأجسام أو يلتقي في ذلك اليوم أهل السماء و أهل الأرض و قيل : يلتقي فيه الأولون و الآخرون و الخصم و المخصوم و قيل : يلتقي فيه الخالق و المخلوق عن ابن عباس يعني أنه يحكم بينهم و قيل : يلتقي المرء و عمله و الكل مراد .

[يوم هم بارزون] من قبورهم بدل من يوم التلاق أي خارجون من قبورهم وظاهرون ولا يستترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء لكون الأرض يومئذ قاعاً صافياً وليس عليهم ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث : يحشرون عراة حفاة و يمكن أن يكون المعنى كونهم بارزين كناية عن ظهور أعمالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى : « يوم تبلى السرائر » (١) .

[لا يخفى على الله منهم شيء] فيجازي كلاً بعمله إن خيراً فخير و إن شراً فشر و نظيره قوله تعالى : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » (٢) . فإن قيل : إن الله لا يخفى عليه منهم شيء في جميع الأيام فما معنى التقييد بذلك اليوم ؟ لأنهم كانوا يتوهمون أن الله لا يراهم و يخفى عليه أعمالهم و هو غير عالم بالجزئيات فهم في ذلك اليوم صائرون من الانكشاف و البروز إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما يتوهمونه في الدنيا قال : « ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون » (٣) .

قوله : [لمن الملك اليوم لله الواحد القهار] و التقدير ينادي فيه لمن الملك و هذا النداء في أي الأوقات يحصل فيه قولان : الأول قال المفسرون : إذا هلك كل من في السماوات و من في الأرض فيقول الرب : « لمن الملك اليوم » يعني يوم القيامة و لا يجيبه أحد فهو تعالى يجيب نفسه فيقول : « لله الواحد القهار » قال محمد بن كعب القرظي : يقول الله ذلك بين النفختين حين يغني الخلائق كلها و القول الثاني : أنه تعالى يقول و ذلك يوم الطلاق يوم يبرز العباد من قبورهم فيقر المؤمنون والكافرون بأن الله الواحد القهار . و إنما خص ذلك اليوم بأنه له الملك لأنه قد ملك العباد بعض الأمور في الدنيا ولا يملك أحد شيئاً في ذلك اليوم لأنه تعالى يملك جميع الأمور من غير تمليك مملك

(١) الطارق : ٦ .

(٢) الحاقة : ١٨ .

(٣) حم السجدة : ٢٢ .

وقد أنكر بعض أن هذا النداء يقع وقت هلاك الكل بل قالوا : إن الآية لا تدل على حصول النداء في ذلك الوقت بل يقع يوم التلاق و يوم البروز و يوم تجزى كل نفس بما كسبت والناس في ذلك الوقت أحياء بل يستفاد من الآية أن النداء يقع في يومهم بارزون . ثم إن الكلام لا بد فيه من فائدة و إنما يحسن تكلمه حال كون المتكلم وحشره إما لأنه يحفظ به شيئاً كالذي يكرر على الدرس أو لأجل أنه يحصل له سرور بما يقوله و يستلذ به و كلها في حق الله محال و لو ذكر في ذلك الوقت لأجل أن يعبد الله بذلك الذكرك فذلك أيضاً ممنوع لأنه لا تكليف ولا مكلف نعم يمكن أن يكون النداء وقت فناء البشر دون الملائكة فيكون في ذلك الوقت وقوع النداء لمصلحة من المصالح .

قوله تعالى : [اليوم تجزى كل نفس بما كسبت] تجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته و في الحديث إن الله تعالى يقول : أنا الملك الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار و عنده مظلمة حتى أقتصه منه ثم تلا هذه الآية .

[لا ظلم اليوم] أي لا ظلم لأحد على أحد و لا ينقص من ثواب أحد ولا يزداد في عقاب أحد [إن الله سريع الحساب] لا يشغله محاسبة واحد عن محاسبة غيره . قال القاضي : هذه الآية صريحة قوية في إبطال قول المجبرة لأنه تعالى إذا خلق في الكافر الكفر ثم عذبه عليه فهذا هو عين الظلم .

قوله : و أنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم و لا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الاعين و ما تخفى الصدور (١٩) و الله يقضى بالحق و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ان الله هو السميع البصير (٢٠) .

أمر سبحانه أن يخوف المكلفين يوم القيامة فقال :

[و أنذرهم يوم الآزفة] أي الدانية و هو يوم القيامة لأن كل ما هو آت دان قريب و يوم دنوا المجازاة و الآزفة فاعلة من أرف الأمر إذا دنا و حضر و الآزفة نعت لمحذوف مؤنث على تقدير يوم القيامة .

و يوم الآزفة يوم مسارعتهم دخول النار فإن عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها

من شدة الخوف و قيل : يوم الآزفة يوم حضور الموت و الذي يدل على هذا المعنى أنه تعالى وصف القيامة بأنه يوم التلاق و يوم هم بارزون ثم قال : بعده «و أنذرهم يوم الآزفة» فوصف يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب و أيضاً الصفات المذكورة بعد قوله ، «يوم الآزفة» لائقة بيوم حضور الموت .

و اختلفوا في أن المراد من قوله : «إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين» كناية من شدة الخوف أو هو محمول على ظاهره ؟ قيل : كناية عن شدة الخوف و قيل : بل هو محمول على ظاهره و القلوب تنتزع من مواضعها بسبب شدة الخوف و يبلغ الحناجر حقيقة فلا تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا و قوله : «كاظمين» أي مكروين و الكاظم الساكت حال امتلائه غمّاً و غيظاً وهو حال عن أصحاب القلوب و القلوب كاظمة على غم و كرب مع بلوغها موضع الحنجرة . و أتى بلفظ جمع السلامة لأنه وصف القلوب بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء كما قال : «رأيتهم لي ساجدين»^(١) ، و قال : «فظلت أعناقهم لها خاضعين»^(٢) .

قوله تعالى : [ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع] فيبين سبحانه أنه ليس لهم قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع فيهم فنقبل شفاعته .
و هنا بحث و هو أن أكثر المعتزلة احتجوا بهذه الآية في نفي الشفاعة على المذنبين . و أجاب أهل الجماعة بوجوه :

الأول أنه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع و هذا لا يدل على نفي الشفيع ألا ترى أنك إذا قلت : ما عندي كتاب يباع فهذا يقتضي نفي كتاب يباع ولا يقتضي نفي الكتاب و لفظ الطاعة يقتضي حصول المرتبة فهذا يدل على أنه ليس لهم يوم القيامة شفيع بطبعه الله و معلوم أنه ليس في الوجود أحد أعلى حالاً من الله حتى يقال : إن الله بطبعه .

(١) يوسف : ٤ .

(٢) الشعراء : ٤ .

الوجه الثاني في الجواب أن المراد من الظالمين ههنا الكفار لأن الآية في بيان زجر الكفار الذين يجادلون في آيات الله فوجب أن يكون مختصاً بهم و معلوم أنه لا شفاعة في حق الكفار .

الثالث أن لفظ الظالمين إما أن يفيد الاستغراق وإما أن لا يفيد فإن أفاد الاستغراق كان المراد من الظالمين مجموعهم و يدخل في المجموع الكفار و سلمنا أن الشفاعة غير حاصلة للكافر فحينئذ لا يكون لهذا المجموع شفيع و ان لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض من كان موصوفاً بهذه الصفة و معلوم أيضاً أن بعض الموصوفين بهذه ليس لهم شفيع و هم الكافرون .

و أجاب المستدلون عن الجواب الأول فقالوا : يجب حمل كلام الله تعالى على محل مفيد و كل أحد يعلم أنه ليس في الوجود شيء يطيعه الله لأن المطيع أدون حالاً من المطاع و ليس في الوجود شيء أعلى مرتبة من الله حتى يقال : إن الله يطيعه فكان حمل الآية عليه إخراجاً لها عن الفائدة فوجب حمل الطاعة على الإجابة قال الشاعر :

رب من انضجت غيظاً صدره * قد تمنى لي موتاً لم يطع

أي لم يجب .

و أما الجواب عن الجواب الثاني بأن لفظ الظالمين صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم أقصى ما في الباب أن هذه الآية وردت لذم الكفار إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فحينئذ إن قوله : « ما للظالمين من حميم » يفيد أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع بطاع .

و أجيبوا عن الرد الأول بأن القوم كانوا يقولون في الأصنام : إنها شفاعونا عند الله بغير إذن و لهذا السبب رد الله عليهم ذلك بقوله : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه » فهذا يدل على أن القوم اعتقدوا أنه يجب على الله إجابة الأصنام في تلك الشفاعة وهذا نوع طاعة فالله نفى تلك الطاعة بقوله : « ما للظالمين الآية » .

و أيضاً أجيبوا عن الكلام الثاني بأن الأصل في حرف التعريف أن ينصرف للمعهود السابق فإذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع وكان هناك معهود سابق انصرف إليه

و قد حصل في الآية معهود سابق وهم الكفار الذين يجادلون في آيات الله فوجب أن ينصرف إليه وعن الكلام بأن قوله : « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » يحتمل عموم السلب و يحتمل سلب العموم فعلى التقدير الأول يكون المعنى : إن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع و أمّا على تقدير سلب العموم يكون المعنى : إن مجموع الظالمين ليس لهم حميم ولا شفيع فحينئذ لا يلزم من نفي الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من أحاد ذلك المجموع كما أن قوله تعالى : « إن الذين كفروا لا يؤمنون » إن حملناه على أن كل واحد منهم محكوم عليه بأنه لا يؤمن لزم وقوع الخلف في الكلام لأن كثيراً ممن كفر فقد آمن بعد ذلك أمّا لو حملناه على أن مجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أولم يؤمن صدق و يخلص عن الخلف فلا جرم حملت الآية على سلب العموم ولا نحملها على عموم السلب فكذا قوله : « ما للظالمين من حميم ولا شفيع » يجب حمله على سلب العموم لا على عموم السلب فسقط استدلال المعتزلة بهذه الآية .

اقول : و الحق أنه نعم ما تدارك أهل الجماعة من الجواب في الرد على المعتزلة في إثبات الشفاعة فكيف لا تكون الشفاعة لأنه إن كان مرادكم أن الشفاعة لا ينال الظالم و الظالم بمعنى الكافر فهذا حكم متفق عليه بيننا و بينكم و ليس فيه اختلاف و إن كان مرادكم أن الشفاعة لا تصيب لمن ظلم نفسه أو غيره بالمعصية و الذنوب فالآية ناطقة بأن الشفاعة تنال غير الكافر لقوله : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » دينه والمراد من المرضي الدين المسلم لأن الدين عند الله الإسلام فمن هو مرضي الدين بالإيمان فهو داخل في الشفاعة و أيضاً الأخبار في حصول الشفاعة للنبي الأكرم مستفيضة و غير واحد بل هي حاصلة للمؤمنين كما قال عليه السلام : « أخرت شفاعتي لأمتي من أهل الكبائر انتهى » .

قوله تعالى : [يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور] أي إنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات و يعلم خيانة الأعين الخائنة و هو الرمز بالعين و الخائنة مصدر كالخيانة مثل الكاذبة و اللاغية بمعنى الكذب و اللغو و يعلم ما تخفي الصدور و ضمرات القلوب فحينئذ يعلم الأفعال الخفية من الجوارح فضلاً عن الجلية وأفعال

القلوب و الحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديداً جداً و قيل : الخائنة صفة النظرة إلى ما لا يحل .

[والله يقضي بالحق] و يوصل كل ذي حق إلى حقه [و الذين يدعون الكفار من دونه] من الأصنام [لا يقضون بشيء] و لا ينفعون لأحد لالشفاعة ولا غيرها لأنها جمادات [إن الله هو السميع البصير] سميع بالمسموعات و بصير بالمبصرات .

قوله : أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة و آثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم و ما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله أنه قوى شديد العقاب (٢٢) و لقد أرسلنا موسى بآياتنا و سلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان و قارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه و استحيوا نساءهم و ما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥).

المعنى لما بالغ في الآيات السابقة في تخويف الكفار بعذاب الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا ليعتبروا فقال :

[أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم] والعقل من اعتبر بغيره فإن الذين مضوا من الكفار قبلهم كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار و أقوى آثاراً في الأرض منهم و المراد حصونهم و قصورهم و عساكرهم فلما كذبوا أنبياءهم أهلكتهم الله بضروب الهلاك معجلاً فحذرهم الله من مثل ذلك بهذا القول و قال : [و ما كان لهم من الله من واق] لما نزل العذاب بهم عند أخذه و لم يجدوا من يعينهم و يخلصهم .

[ذلك] العذاب الذي نزل بهم [بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات] و المعجزات الباهرات [فكفروا] بها [فأخذهم الله] وأهلكهم عقوبة على كفرهم [إنه قوى شديد] الانتقام منهم .

ثم ذكر قصة موسى و فرعون ليعتبروا بها فقال : [و لقد أرسلنا موسى بآياتنا] أي بعثناه بحججنا و دلائلنا [و سلطان مبين] ومعجزة باهرة ظاهرة نحو قلب العصاحية

و فلق البحر [إلى فرعون و هامان و قارون] كان موسى رسولاً إلى كافيتهم إلا أنه خص فرعون لأنه كان رئيسهم وكان هامان و زيره و قارون صاحب جنوده و كنوزه و الباقون تبع لهم و عطف السلطان على الآيات لاختلاف اللطفي تمكيداً و قيل : المراد بالآيات حجج التوحيد و العدل و بالسلطان المعجزات الدالة على نبوته .

[فقالوا ساحر كذاب] مموه فيما يدعو إليه [فلمّا جاءهم بالحق من عندنا] أي فلمّا أتاهم بالدين الحق الذي من عندنا وأمرهم بالتوحيد [قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم] أي أمروا بقتل الذكور من قوم موسى لئلا يكثر قومه و لا يتقوى بهم وأمروا باستبقاء نساءهم للخدمة وهذا القتل غير القتل الأول لأنه أمر بالقتل الأول لئلا يولد منهم من يزول ملكه على يده ثم ترك ذلك فلمّا ظهر موسى و أظهر أمر نبوته عاد إلى تلك العادة فمنعهم الله عنه بالدم و الضفادع و الطوفان و الجراد .

[و ما كيد الكافرين إلا في ضلال] و معناه أن جميع ما يسعون فيه من مكيدة موسى فهو باطل لأن ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . ثم أخبر سبحانه عن نوع آخر من قبائح فرعون و قال :

و قال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه اني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦) و قال موسى اني عدت بربي و ربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب (٢٧) و قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم و ان يك كاذباً فعليّه كذبه و ان يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨) يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا قال فرعون ما اريكم الا ما أرى و ما أهديكم الا سبيل الرشاد (٢٩) و قال الذي آمن يا قوم اني اخاف عليكم مثل يوم الاحزاب (٣٠) .

المعنى : [و قال فرعون ذروني أقتل موسى] أي قال لقومه : اتركوني أقتله . وفي الآية دلالة على أنه كان في خاصّة قوم يشيرون عليه بأن لا يقتل موسى و يخوفونه بأن يدعوا ربه فيهلك فلذلك قال فرعون : [وليدع ربه] أي كما يقولون و ليستعن بدعائه

في دفع القتل عنه فإنه لا يجيء من دعائه شيء ، قاله عتوا وتكبراً و جرأة على الله و لعله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقاً فيأتي بوجوه الحيل في منع فرعون من قتل موسى أو لعلهم كانوا يحتالون في منعه من قتله لأجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب أولئك الأقوام فإن من شأن الأمراء أن يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجي حتى يصيروا آمنين من شر ذلك الملك .

قوله : [إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد] أي إن لم أقتله يبدل ما يعتقدونه من إلهيتي أو أن يتبعه قوم و يحتاج الأمر إلى أن نقاتله فيخرب البلاد وقيل : إن مراده بقوله : « أن يظهر الفساد » أن يعمل بطاعة الله و يترك كون قوله . فلما قال اللعين هذه الكلام استعاذ موسى ﷺ بربه [وقال موسى إني عذت بربي و ربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب] أي إني اعتصمت بربي الذي خلقني و ربكم الذي خلقكم من شر كل متكبر على الله متعجب عن الانقياد له لا يصدق بيوم المجازاة .

و لما قصد فرعون قتل موسى وعظم المؤمن من آل فرعون و هو قوله : [قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه] في صدره علي وجه التقية قال الصادق عليه السلام : التقية من ديني و دين آبائي و لادين لمن لا تقية له و التقية ترس الله في الأرض لأن مؤمن آل فرعون لو أظهر الإيمان لقتل قال ابن عباس : لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره و غير امرأة فرعون و ذلك المؤمن هو الذي أنذر موسى فقال : « إن الملا يأترون بك ليقتلوك » قال السدي و مقاتل : كان الرجل ابن عم فرعون و كان آمن بموسى وهو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى و قيل : إنه كان ولي عهد بعده و كان اسمه حبيب و قيل : اسمه حزيبيل .

قال الرجل : [أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله] و قد جاءكم بالبينات والمعجزات مثل العصا واليد و غيرهما و قرىء رجل بكسر الجيم كما تقول : عضد في عضد . [وإن يك كاذباً فعليه كذبه] و إنما قال ذلك على وجه التلطف و حاصل المعنى : إن كان هذا الرجل كاذباً كان و بال كذبه عائداً عليه فاتركوه و إن كان صادقاً [وإن يك

صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم [قيل : إن موسى عليه السلام كان يعدهم بالنجاة إن آمنوا وبالهلاك إن كفروا ولذا قال : « يصيبكم بعض الذي يعدكم » لأنهم إذا كانوا على أحد الحالين نالهم أحد الأمرين و ذلك بعض الأمر لا كله . وقيل : استعمل البعض في موضع الكل تلطفاً في الخطاب و توسعاً في الكلام و المراد الكل ؛ قال الشاعر :

قد يدرك المتأنسي بعض حاجته * وقد يكون من المستعجل الزلل

وكانه قال : إن يك صادقاً أقل ما فيه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم و في ذلك البعض هلاككم قال علي بن عيسى إنما قال : « بعض الذي يعدكم » على المظاهرة في الحجاج أي إنه يكفيكم بعضه فكيف بجميعه ؟

فان قيل : إنه كان من الواجب أن يقال : و إن يك صادقاً يصيبكم كل الذي يعدكم لأن الذي يصيب في بعض ما يعدهم أصحاب الكهانة والنجوم أمّا الرسول الصادق الذي لا يتكلم إلا بالوحي و هو صادق في كل ما يقول .

فالجواب هو الجواب الذي ذكرنا والمراد أنه لا حاجة بكم في دفع شره إلى القتل بل يكفيكم أن تعرضوا عن مقالته وتتركوا قتله فإن كان كاذباً فحينئذ لا يعود ضرره إلا إليه و إن كان صادقاً انتفعتكم به . وفيه بيان و وجه آخر و هو أنه عليه السلام كان يتوعدهم بعذاب الدنيا و بعذاب الآخرة فإذا وصل إليهم في الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الذي يعدهم انتهى .

[إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب] يجوز أن يكون هذا حكاية عن قول المؤمن و يجوز أن يكون ابتداء كلام من الله وفي الكلام بيان أن ما هم فيه من الملك والنعمة يقتضي الشكر لله و الإيمان به و لا يهدي الله إلى جنسته و ثوابه من هو مسرف على نفسه و مجاوز عن الحد في المعصية كذاب على ربه .

ثم قال المؤمن : [يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا] لما بين المؤمن لهم أنه لا يجوز الإقدام على قتل موسى ولا يجوز التكذيب على الله بادعاء الإلهية خوفاً منهم بعذاب الله و بأسه فقال : أنتم اليوم قد علوتم الناس ولكم السلطنة في أرض مصر و ماوايها فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله

وعذابه فإنه لا قبل لكم به وإنما قال : ينصرتنا وجاءنا لأنه كان يظهر من نفسه أنه منهم و هو مناصح لهم ومشارك معهم .

ولما قال هذا الكلام [قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى] أي لا أشير إليكم برأي سوى ما ذكرته أنه يجب قتله حسماً لمادة الفتنة ودفعاً له بالقتل [وما أهديك إلا سبيل الرشاد] ثم حكى سبحانه أن المؤمن ردّ هذا الكلام على فرعون .

قوله : [وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب] و اعلم أن فرعون لما قال : « ذروني أقتل موسى » و كان المؤمن يكتّم إيمانه و الذي يكتّم كيف يمكنه أن يذكر هذه الكلمات مع فرعون فلهذا السبب حصل ههنا قولان :

الأول أن فرعون لما قال : « ذروني أقتل موسى » لم يصرّح المؤمن بأنه على دين موسى بل أوهم أنه مع فرعون و على دينه و لكنّه زعم أن المصلحة تقتضي ذلك و أظهر لفرعون هذا البيان لأجل المناصحة حيلة لتخليص موسى عن القتل و أوهم لفرعون أن مراده من المسرف الكذاب يريد موسى و هو يريد فرعون .

و القول الثاني أنه لما سمع من فرعون إرادة قتل موسى أزال الكتمان و أظهر دينه و شافه بالحق وقال : « يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب » أي عذاباً مثل يوم الأحزاب .

و قيل : القائل لذلك موسى لأن مؤمن آل فرعون كان يكتّم إيمانه وهذا لا يصح لأنه قريب من قوله : « أقتلون رجلاً » . والمراد بالأحزاب الأحزاب الذي تحزّبوا على تكذيب أنبيائهم و اجتمعوا على مخالفة رسلهم وفسرهم بقوله :

مثل دأب قوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم و ما الله يريد ظلماً للعباد (٣١) و يا قوم اني أخاف عليكم يوم التناد (٣٢) يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم و من يضل الله فما له من هاد (٣٣) ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب (٣٤) الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أثاهم كبر مقتاً عند الله و عند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار (٣٥) .

الدأب العادة .

المعنى : إني أخاف عليكم [مثل] عادة الأولين من الله في [قوم نوح و عاد و ثمود] حين أهلكهم الله و استأصلهم جزاء على كفرهم ، قد حذف المضاف في الآية والتقدير: مثل جزاء دأبهم [و] مثل [الذين من بعدهم] كفوم لوط، والخوف بسبب هلاك معجل في الدنيا ثم خوفهم أيضاً بهلاك الآخر و الحرمان من الجنة و هو قوله : [وما الله يريد ظلماً للعباد] و إنما أوجبوا على أنفسهم العذاب و الحرمان بعنادهم و كفرهم و هو سبحانه غير ظالم لخلقهم و إنما هم ظلموا أنفسهم و استحقوا العذاب و هو غير ظالم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قالت المعتزلة : إن هذه الآية صريحة دالة على أنه سبحانه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضاً و تدل على أنه سبحانه لا يريد ظلم أحد من العباد فلو خلق الكفر فيهم ثم يعذبهم على ذلك الكفر لكان ظالماً البتة وإذا ثبت أنه لا يريد الظلم ثبت أنه غير خالق لأفعال العباد من السيئات لأنه لو خلقها لأرادها .

و بالجملة النوع الآخر من كلمات المؤمن [ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد] و التناد التفاعل من النداء يقال : تنادى القوم أي نادى بعضهم بعضاً والأصل الياء وحذفت لدلالة الكسرة و حذف الياء حسن في الفواصل مثل يوم التلاق و هو يوم القيامة .

والسبب في التسمية أن في ذلك اليوم ينادي فيه بعض الظالمين بعضاً بالويل وينادي فيه أصحاب الجنة ينادون أهل النار بأن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً وكذلك أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة كما ذكر الله في سورة الأعراف و نادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء^(١) الآية ويمكن أن يكون قوله تعالى : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم »^(٢) أو ينادي المؤمن « هاؤم اقرءوا كتابيه »^(٣) و الكافر « يا ليتني لم أوت كتابيه »^(٤) أو ينادي فيه باللعنة على الظالمين أو لأنه يجاء الموت بصورة

(١) الأعراف : ٦٤ .

(٢) الإسراء : ٧١ .

(٣ و ٤) البقرة : ١٩ و ٢٥ .

كَبَشْ أَمْلَحْ ثُمَّ يُذْبِحُ وَيُنَادِي يَا أَهْلَ الْقِيَامَةِ لَمُوتْ فَيَزِدَادُ أَهْلَ الْجَنَّةِ فَرَحاً عَلَى فَرَحِهِمْ
وَأَهْلَ النَّارِ حُزْناً عَلَى حُزْنِهِمْ .

ولكن قال أبو علي الفارسي : التنادي مشتق من التناد أصله من قولهم ندى فلان
إذا هرب و هو قول ابن عباس قال : يندون كما يندى الإبل و يؤيد هذا المعنى قوله :
« يوم يفر المرء من أخيه » (١) .

و قوله : [يوم تولون مدبرين] أيضاً يؤيد هذا القول لأنهم إذا سمعوا زفير النار
يندون هاربين فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً فيرجعون إلى المكان
الذي كانوا فيه .

ثم أكد سبحانه التهديد بقوله : [مالكم من الله من عاصم] و مانع من عذابه
[و من يضل الله فماله من هاد] أي من يضلله الله عن طريق الجنة فما له هاد يهديه إليها .
قوله : [و لقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات] يمكن أن يكون هذا من بقية
كلام مؤمن آل فرعون و يجوز أن يكون ابتداء كلام من الله هو يوسف بن يعقوب على
أن فرعونه فرعون موسى أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد وقيل : المراد من يوسف سبطه
و هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف الصديق « من قبل » أي من قبل موسى بالبينات والحجج
الواضحة .

[فما زلتم في شك مما جاءكم به] من الدين و مما يأمركم به من التوحيد [حتى
إذا هلك] يوسف و مات [قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا] ضمناً إلى تكذيب رسالة
من بعده أوجزماً بأن لا يبعث بعده رسولا مع الشك في رسالته و أقمتهم على كفرهم و ظننتهم
أن الله لا يجدد لكم إيجاب الحجّة .

[كذلك] أي مثل ذلك الضلال الفظيع [يضل الله] عن طريق الجنة و الثواب
[من هو مسرف] على نفسه كافر و مجاوز عن الحد [و مرتاب] و شاك في التوحيد
و النبوات فالعبد مالم يضل عن الدين فإن الله لا يضلّه عن طريق الجنة و الخير لأنه
سبحانه قال : إنما أضلهم عن طريق الجنة لكونهم مسرفين في المعاصي مرتابين في دينهم .

ثم بيّن المسرفين و المرتابين فقال : هم [الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أثامهم] و يسعون في دفع آيات الله و إبطالها بغير حجة و دليل أثامهم [كبر مقتاً عند الله] أي كبير ذلك الجدل و المخاصمة منهم بغضاً و عداوة عند الله [و عند الذين آمنوا] بالله و المعنى مقته الله و لعنه و أعدّ له العذاب و مقته المؤمنون و أبغضوه بذلك الجدل و أنتم جادلتم و خاصمتم في آيات الله مثلهم فاستحققتهم ذلك .

[كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار] أي مثل ما طبع على قلوب أولئك بأن ختم عليها علامة لكفرهم يطبع و يفعل ذلك على كل متكبر عن آيات الله و كل من يأنف على قبول الحق و لعل المراد من قوله : « على قلب » أي على ذي قلب و المقت و الغضب و التعجب و الحياء و أمثال هذه الصفات واجبه التأويل في حق الله تعالى و الكبر و أمثاله قد يضاف إلى القلب مثل قوله : « فأنه آمن قلبه » و قال قوم : الإنسان الحقيقي القلب .

قوله تعالى : و قال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب (٣٦) أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى و اني لأظنه كاذبا و كذلك زين لفرعون سوء عمله و صد عن السبيل و ما كيد فرعون الا في تباب (٣٧) و قال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) و يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع و ان الآخرة هي دار القرار (٣٩) من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها و من عمل صالحا من ذكرا و انثى و هو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) .

ثم بيّن سبحانه ما موّه فرعون على قومه لما وعظه المؤمن و خوفه من قتل موسى [و قال فرعون] لوزيره : [يا هامان ابن لي صرحاً] أي قصراً مشيداً بالآجر و قيل : مجلساً عالياً و الصرح البناء الظاهر الذي لا يخفى على عين الناظر وإن بعد .
[لعلّي أبلغ الأسباب] ثم فسر تلك الأسباب [أسباب السموات] أي لعلّي أبلغ بالأسباب الطرق من سماء إلى سماء و قيل : لعلّي أبلغ أسباب طرق السموات أو منازل السموات و أتوصل بها إلى مرادي و إلى علم ما غاب عني من أمور السموات و السبب كل ما يتوصل به إلى شيء يبعد عنك [فأطلع إلى إله موسى] أي فأنظر إليه فأراه أراد

اللعين بهذا الكلام التلخيص على الضعفة مع علمه باستحالة ذلك أو من جهله اعتقد أن الله في السماء وإنه يقدر على بلوغ السماء .

[و إنني لأظنه كاذباً] أي إنني أظن أن موسى كاذب في قوله : أن له إلهاً غيري وهو مرسل إلينا والعجب أن اليهود الباحثين عن تواريف بني إسرائيل و فرعون قالوا : إن هامان ما كان موجوداً في زمان موسى و فرعون و إنما جاء بعدهما بزمان مديد فصدقوا تاريخهم و كذبوا القرآن مع أنهم مقررون بأن أحوالهم اضطربت بسبب غلبة بخت نصر على ملكهم حتى ضيعت توراتهم سيما قد طال العهد بتاريخ أحوالهم فكيف يبقى اعتماد بمثل هذا التاريخ حتى ينسب الصدق إلى التاريخ المشوش والكذب إلى القرآن تعالى كلامه عن الكذب علواً كبيراً .

و بالجملة لما حكى الله سبحانه عن فرعون هذه المقالة قال بعدها : [وكذلك زين لفرعون سوء عمله و صدعن السبيل] و قرئ « و صدعن السبيل » مجهولاً ومعلومياً أي و مثل ما زين لهؤلاء الكفار سوء أعمالهم زين لفرعون سوء عمله و فبيح فعله و إنما زين له ذلك أصحابه و جلساؤه و زين له الشيطان كما قال : « و زين لهم الشيطان أعمالهم ^(١) » و امتنع عن سبيل الحق بسوء اختياره و كفره أو صدغ غيره عن الإيمان على الملوئية .

[و ما كيد فرعون إلا في تباب] أي و ما كيد فرعون في إبطال آيات موسى إلا في هلاك وخسار لا ينفعه و قرأ صاحب الكشاف « و زين له سوء عمله » على المعلوم فالمرين هو الشيطان و سوء العمل بخلاف ما قاله المجسرة .

[و قال الذين آمنوا يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد] ثم عاد الكلام إلى ذكر نصيحة آل فرعون و الكلام من بنية كلام الذي آمن من آل فرعون و قد كان يدعوهم إلى الإيمان بموسى و قيل : إن القائل موسى يا قوم اتبعوني حتى تهتدون طريق الحق وهو الإيمان بالله فقال ابتداءً على سبيل الإجمال : « يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد » . ثم بين على سبيل التفصيل و بين حال حقارة الدنيا و عظم كمال حال الآخرة

فقال : [يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع] أي يستمتع بهذه الحياة الدنيا في أيام قلائل ثم تنقطع وتزول [وإن الآخرة هي دار القرار] والبقاء والدوام خيراً من المنقضي قال بعض العارفين : لو كانت الدنيا ذهباً فانياً والآخرة خزفاً باقياً كانت الآخرة خير من الدنيا فكيف والدنيا خزف فان والآخرة ذهب باق وكما أن النعيم في الآخرة باق فكذلك العذاب فيها دائم والترغيب وقع في قوله بالنعيم الدائم والترهيب عن العذاب الدائم وهو من أقوى وجوه الموعظة .

ثم يبين حصول الجزاء في الآخرة ثواباً كان أو عقاباً فقال : [من عمل سيئة فلا يجرى إلا مثلاً] والمراد بالمثل ما يقابلها في الاستحقاق .

فإن قيل : كيف يصح هذا الكلام مع أن كفر ساعة يوجب عقاب الأبد ؟

قلنا : إن الكافر يعتقد في كفره كونه طاعة وإيماناً فلهذا السبب يكون الكافر على عزم أن يبقى مصرّاً على الكفر أبداً فلا جرم كان عقابه مؤبداً بخلاف الفاسق فإنه يعتقد فيه كونه خيانة ومعصية فيكون على عزم أن لا يبقى مصرّاً عليه فلا جرم يكون عقاب الفاسق منقطعاً والعزم على الإتيان بها أيضاً ليس دائماً ف وقعت المماثلة وهذه الآية أصل كبير في علوم الشريعة فوجب رعاية المماثلة في الأحكام إلا في مواضع التخصيص كما أن هذا الأصل جار في الأحكام الكثيرة مثل باب الجنائيات على النفوس وعلى الأعضاء وعلى الأموال وعلى العبادات .

فلما بين أن جزاء السيئة مقصور على المثل يبين أن جزاء الحسنة غير مقصور على المثل بل هو خارج عن الحساب فقال : [ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب] وفيه إشارة إلى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب وقوله : « ومن عمل صالحاً » نكرة في معرض الشرط في جانب الإثبات فمعنى الآية : إن كل من عمل صالحاً وكان مواظباً على التوحيد ولم يخرج من حد الإيمان فإنه يدخل الجنة ويرزق فيها بغير حساب أي زيادة على ما يستحقونه تفضلاً من الله ولو كان على مقدار العمل فقط لكان بحساب ولكن المعتزلة تقول : إن صاحب الكبيرة عندنا ليس بمؤمن ولا يدخل في هذا الوعد .

قوله تعالى : و يا قوم مالي أدعوكم الى النجاة و تدعونني الى النار (٤١) تدعونني لاكفر بالله و اشرك به ما ليس لي به علم و أنا أدعوكم الى العزيز الغفار (٤٢) لاجرم ألما تدعونني اليه ليس له دعوة في الدنيا و لا في الآخرة و ان مردنا الى الله و ان المصرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم و أفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد (٤٤) فوقه الله سيئات ما مكروا و حاق بآل فرعون سوء العذاب (٤٥) النار يعرضون عليها غدواً و عشياً و يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (٤٦) .

ثم استأنف ذلك المؤمن و نادى :

[يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة] أي أنا أدعوكم إلى الإيمان الذي يوجب النجاة [و تدعونني إلى] الكفر الذي يوجب [النار] و معنى « مالي » أي مالكم كما يقول الرجل : مالي أراك حزينا معناه مالك حزينا .

ثم فسر الدعوتين بقوله : [و تدعونني لأكفر بالله و أشرك به ما ليس لي به علم] و لا يجوز حصول العلم به إذ لا يجوز قيام الدلالة على إثبات شريك لله لامن طريق السمع و لا من طريق العقل [وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار] أي إلى عبادة القادر الذي يعتب و يغفر .

قوله : [لاجرم] أي لا قطع و لا انقطاع لبطلان دعوة الأصنام و لا تزال باطلة و لا ينقطع ذلك فينقلب حقاً و حاصل معنى « لاجرم » في الآية أي كما أن معنى لا بد لك أن تفعل كذا أنه لا بد لك من فعله فكذلك لاجرم أن دعوتهم باطلة و غير حاصلة و لا قطع لذلك و أنهم أبداً يستحقون النار و لا انقطاع لاستحقاقهم أو بمعنى كسب بمعنى أنه ما كسب من دعوة الأصنام إلا ظهور بطلان الدعوة و الأوثان التي تدعونني إلى عبادتها ليس لها دعوة في الدنيا و لا في الآخرة لأنها جمادات و الجمادات لا تدعو أحداً إلى عبادة نفسها أو ليس لها استجابة دعوة في الدنيا و لا في الآخرة فسميت استجابة الدعوة بالدعوة .
ثم قال : [و أن مردنا إلى الله] و ارتجاعنا إلى الله و إن هذه الأصنام لا فائدة

فيها البتة وأي عاقل يترك عبادة الله الذي هو قادر على كل شيء ويعبد ما لا يدعو ولا يستجيب ولا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ؟

[و إن المسرفين هم أصحاب النار] قال قتادة : يعني المشركين وقال مجاهد : السفاكين للدماء أي ووجب أن المسرفين الذين أسرفوا على أنفسهم بالشرك وسفك الدماء بغير حقها إنهم يلازمون النار .

وقال لهم على وجه التخويف والموعظة [فستذكرون ما أقول لكم] أي فستعلمون صحة ما أقول لكم إذا حصلتم يوم القيامة في العذاب أو المعنى فستذكرون عند نزول العذاب بكم صحة ما قلته لكم من النصيحة .

[و أفوض أمري إلى الله] و أتوكل عليه و أسلم له أمري و الأمر اسم جنس [إن الله بصير بالعباد] عالم بأحوالهم و يستنبط من هذا الكلام أن مؤمن آل فرعون قد هدد بأمر يخافه و إنما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام فإن فرعون لما خوفه بالقتل قال : « إني عذت بربّي و ربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » و هذا آخر كلام مؤمن آل فرعون .

قوله تعالى : [فوقاه الله سيئات ما مكروا] أي صرف الله عنه سوء مكروهم فتجماع موسى حتى عبر البحر معه و قيل : إنهم همّوا بقتله فهرب إلى جبل فبعث فرعون رجلين في طلبه فوجداه قائماً يصلي و حوله الوحوش صفوفاً فخافا و رجعا هارين و قيل : المراد من قوله : « فوقاه الله سيئات ما مكروا » أنهم قصدوا إدخاله في الكفر فوقاه الله عن ذلك لكن القول الأول أليق لأن قوله : [و حاق بآل فرعون سوء العذاب] يؤيد معنى الأول أي أحاط بهم الغرق في البحر أو المراد النار المذكورة في قوله : « النار يعرضون عليها » قال الزجاج : النار بدل من قوله : « سوء العذاب » .

[النار يعرضون عليها غدواً و عشياً] أي يعرض آل فرعون على النار في قبورهم صباحاً و مساءً و الآية تقتضي عرض النار عليهم غدوةً و عشياً من قولهم : عرض الأسارى على السيف إذا قتلوا به و ليس المراد منه يوم القيامة لأنه قال : [و يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب] وليس المراد أن هذا العرض في الدنيا فثبت أن هذا العرض

إنما حصل بعد الموت و قيل : يوم القيامة و ذلك يدل على إثبات عذاب القبر في حق هؤلاء و إذا ثبت في حقهم ثبت في حق غيرهم لأنه لا قائل بالفرق لأن حصول هذا العذاب إنما وقع على آل فرعون لجحودهم و كفرهم فالعذاب أيضاً حاصل كما أنهم احتجوا بهذه الآية على إثبات عذاب القبر و المراد من الغداة و العشي مع أن في القبر ليس لهم غداة و عشي وقت الغداة و العشي أي في مثل هذا الزمانين تعرض النار عليهم فيعدون بها ويمكن أن يكون المعنى والمراد دوام العذاب و كناية عن ثبوته كقوله : * ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيّاً^(١) .

و عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة و العشي إن كان من أهل الجنة فمن الجنة و إن كان من أهل النار فمن النار يقال له : هذا مقعدك حين يبعثك الله يوم القيامة أورده البخاري و مسلم في الصحيح وقال أبو عبد الله ذلك في الدنيا قبل يوم القيامة لأن في نار القيامة لا يكون غدو و عشي و لكن هذا في نار البرزخ قبل يوم القيامة .

قوله : [أدخلوا آل فرعون أشد العذاب] و هذا الأمر لآل فرعون بالدخول أو أمر للملائكة بإدخالهم في جهنم باختلاف القراءة في القطع و الوصل في باب الفعل .

قوله تعالى : و اذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء الذين استكبروا انا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار (٤٧) قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد (٤٨) قال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب (٤٩) قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وادعاء الكافرين الا في ضلال (٥٠) .

المعنى : لما انجر الكلام إلى شرح أحوال النار ذكر عقيبها المناظرات التي تجري بين الرؤساء و الأتباع من أهل النار فقال سبحانه :

[و اذ يتحاجون] أي فاذ كر يا محمد لقومك الوقت الذي يتخاصم الرؤساء و الأتباع [فيقول الضعفاء] و هم الأتباع [للذين استكبروا] و هم الرؤساء [انا كنا لكم معاشر

الرؤساء [تبعاً] وكنّا نمثّل أمركم ونجيبكم إلى ما تدعوننا إليه [فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار] لأنّه من شأن الرئيس الدفع عن أتباعه فهل أنتم حاملون عنا قسطاً من النار والعذاب الذي نحن فيه ؟

[قال الذين استكبروا إنّنا كلّنا فيها] أي نحن وأنتم في النار و مجتمعون فيها [إنّ الله قدحكم بين العباد] بذلك وبأن لا يتحمّل أحدٌ عن أحد وإنّه يعاقب من أشرك به وعبد معه غيره لاحتمال فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا ثمّ عندهذا يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين فيرجعون إلى خزنة جهنّم .

[قال الذين في النار لخزنة جهنّم] فيستغيثون بخزنتها [ادعوا ربّكم يخفّف عنا يوماً من العذاب] فتقول الملائكة لهم : [أولم تك تأمّيكم رسلكم بالبينات] أو لم تكن القصة والحال تأمّيكم رسلكم بالحجج على صحتة التوحيد فكفرتهم وعاندتم حتّى استحققتهم هذا العذاب [قالوا بلى] جاءنا الرسل والبينات فكذبناهم وجحدناهم بنوّةهم [قالوا] أي قالت الخزنة : [فادعوا] أنتم فإنّا لا ندعو إلّا بأذن و لم يؤذن لنا فيه و قيل : فادعوا بالويل والثبور [وما دعاء الكافرين إلّا في ضلال] أي في ضياع لأنّه لا ينفع و الفاء في قوله . « فادعوا » فصيحة مثل قوله : فقد جئنا خراساناً .

و المراد من الملائكة حيث قالوا للكفار : فادعوا إقناط الكفار عن الإجابة لأنهم يعلمون أنّ هذا الدعاء و إجابته ليس في خير الإمكان و ليس مراد الملائكة إطماع الكفار في الاستجابة .

قوله تعالى : انا لننصر رسلنا و الذين امنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الاشهاد (٥١) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (٥٢) و لقد آتينا موسى الهدى و اورثنا بني اسرائيل الكتاب (٤٣) هدى و ذكرى لاولى الالباب (٥٤) فاصبر ان وعد الله حق و سبح بحمد ربك بالعشي والابكار (٥٥) .

في النظم لما ذكر سبحانه و قايته لموسى عليه السلام و ذلك المؤمن من مكر فرعون عقبه ببيان أنّه تعالى ينصر رسله و المؤمنين فقال :

[إنّنا لننصر رسلنا] أي إنّ شأننا المستمرّ أن ننصر رسلنا و أتباعهم [في الحياة

الدنيا [تارة بالانتقام والظفر عليهم وتارة بالعذاب الاستيصال على أعدائهم وتارة بالحجة والدلائل ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق لهم من صورة الغلبة للكفار امتحاناً إذ العبرة إنما هي بالعواقب .

[و يوم يقوم الأَشهاد] أي يوم يقوم القيامة عند جمع الأولين والآخريين والمراد « بالأَشهاد كل من يشهد أعمال العباد في ذلك اليوم من ملك ونبي ومؤمن قال المبرّد : يجوز أن يكون واحد الأَشهاد شاهد كأطيار وطائر ويجوز أن يكون واحد الأَشهاد شهيد كأشراف وشريف وأيتام ويتيم .

[يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار] و قرئ « بالتاء » لا تنفع المعنى إن ذلك اليوم كما أنه حصلت النصره و السعادة للرسل و المؤمنين حصلت الشقاوة للظالمين بأمور ثلاثة أحدها لا يقبل منهم عذر و الثاني أن اللعنة مقصورة عليهم و هي الإهانة و الإذلال و اليأس و الثالث سوء الدار و هو العقاب الشديد .

فإن قيل : إن قوله : « يوم لا ينفع الظالمين » يدل على أنهم يذكرون الأَعذار إلا أن الأَعذار لا تنفعهم فكيف الجمع بين هذا وبين قوله : « ولا يؤذن لهم فيعتذرون ^(١) » . فالجواب أن قوله : « لا ينفع الظالمين معذرتهم » لا يدل على أنهم ذكروا الأَعذار بل يدل على أن عذرهم غير مقبول ولا يدل على أنهم ذكروا أم لم يذكروا . ثم إن يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون في وقت ولا يعتذرون في وقت .

قوله : [و لقد آتينا موسى الهدى] الآية و لما ذكر نصره الرسل و المؤمنين ذكر نوعاً من أنواع النصره بإتيان موسى التوراة و المراد ما آتاه الله من العلوم الكثيرة النافعة في الدنيا و الآخرة و النبوة التي هي أعظم المناصب .

ثم قال سبحانه : [و لقد آتينا موسى الهدى و أورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى و ذكرى لأولي الألباب] أي و أورثنا من بعد موسى بني إسرائيل التوراة و ما فيه هداية و دلالة يعرفون بهامعالم دينهم و تذكري لأهل العقل لأنهم الذين يتمكنون من الانتفاع به دون من لا عقل له و توارثوه خلفاً عن سلف و يمكن أن يكون المراد من الكتاب الكتب

التي أنزلها الله على أنبياء بني إسرائيل التوراة والزبور والإنجيل و الفرق بين الهدى والذكرى أن الهدى ما يكون دليلاً على الشيء وليس شرطه أن يذكر شيئاً آخر كان معلوماً ثم صار منسياً وأما الذكرى فهي التي يكون كذلك فكتب السماوية كلها مشتملة على هذين القسمين بعضها دلائل في أنفسها وبعضها مذكرات .

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال : [فاصبر] يا محمد و تحمّل المشاق في تكذيبهم إيمانك و احتمل أذى قومك [إن وعد الله حق] أي ما وعدك من النصر في الدنيا والثواب في الآخرة فالله ناصر كمانصرهم ثم أمره بأن يقبل على طاعة الله النافعة في الدنيا والآخرة . و اعلم أن مجامع الطاعات محصورة في قسمين : التوبة عما لا ينبغي والاشتغال بما ينبغي والأول مقدم على أن التخليّة مقدّمة على التحليّة بحسب الرتبة الذاتية فوجب أن يكون مقدّماً في الذكر و لو أن المراد أمته لأنّه ﷺ ماصدر عنه مكروه فضلاً من غير جائز .

أما التوبة عما لا ينبغي فهو قوله تعالى : [و استغفر لذنبك] والمقصود التأدب و التعبّد من الله في حقّه لمزيد الدرجات ، و لتبصير سنّة لمن بعده ولاظهار خضوعه في العبوديّة لأنّه صدر منه الذنب بل تعليم للدعاء والاستغفار .

و أما الاشتغال بما ينبغي فهو قوله : [و سبح بحمد ربك بالعشي و الأبرار] و التسبيح عبارة عن كلّ ما لا يليق به و العشيّ و الأبرار قيل : صلاة العصر وصلاة الفجر و قيل : المراد من العشيّ من النصف إلى آخر النهار و الأبرار عبارة عن أول النهار إلى النصف و قيل : المراد طرفي النهار و قيل : الأبرار من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس قال ابن عباس : يريد صلوات الخمس و قيل : المراد من الآية صلّ لهذين الوقتين إذا كان الواجب بمكّة ركعتين بكرة و ركعتين عشيّاً .

قوله تعالى : ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتاهم ان في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله انه هو السميع البصير (٥٦) لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون (٥٧) و ما يستوى الاعمى والبصير والذين آمنوا و عملوا الصالحات ولا المسىء

قليلًا ما يتذكرون (٥٨) ان الساعة آتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (٥٩) .

لما ذكر في أول السورة حال المجادلين و المكذبين بآيات الله و اتصل البعض ببعض في النسق نبه سبحانه في هذه الآية على الداعية التي تحمل أولئك الكفار على المجادلة فقال :

[إن الذين يجادلون في آيات الله بغير [حجة و دليل إنما يحملهم على هذا الجدل الباطل الكبير الذي في صدورهم و هو يحملهم على الباطل و ذلك الكبير هو أنهم لو سلموا نبوتك لزمهم أن يكونوا تحت أمرك و نهيك و في صدورهم كبر لا يرضون أن يكونوا تحت يدك .

ثم قال : [ما هم ببالغيه] أي إنهم يريدون أن لا يكونوا تحت يدك و طاعتك لكن لا يصلون إلى هذا المراد بل لا بد و أن يصيروا تحت أمرك و نهيك .

ثم قال : [فاستعذ بالله] أي فالتجئ إليه من كيد من يجادلك [إنه هو السميع] بما يقولون أو تقول [البصير] بما تعمل و يعملون .

قوله تعالى : [لخلق السماوات و الأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون] و تقرير هذا الكلام أن الاستدلال بالشيء على غيره على ثلاثة أقسام أحدها أن يقال : لما قدر على الأضعف و جب أن يقدر على الأقوى و هذا فاسد و ثانيها أن يقال : لما قدر على الشيء قدر على مثله فهذا صحيح لما ثبت في العقول أن حكم الشيء حكم مثله و ثالثها أن يقال : لما قدر على الأقوى الأكمل فبان يقدر على الأقل الأزل كان أولى و هذا الاستدلال في غاية الصحة و القوة .

ثم إن هؤلاء القوم يسلمون أن خالق السماوات و الأرض هو الله و يعلمون بالضرورة أن خلق السماوات و الأرض أكبر من خلق الناس فكان من حقهم أن يقرؤا بأن القادر على خلق السماوات و الأرض يكون على إعادة الإنسان الذي خلقه بدوًا و أولًا فهذا برهان جلي في إفادة المطلوب و مع ذلك أكثرهم لا يعقلون ولا يعلمون .

و لما يبين سبحانه بهذا التقرير الجدل المقرون بالبرهان و الجدل المقرون بالكبر و الجهل فرق بين البابين بذكر المثال فقال : [و ما يستوي الأعمى و البصير]

أي ما يستوي المهتدي والضالّ والمستدلّ والجاهل [والذين آمنوا وعمل الصالحات ولا المسيء قليلاً ما يتذكرون] قرئ بالياء والتاء أي وكذلك لا يستوي المؤمنون العاملون الصالحون ولا الكافر الفاسق في الكرامة والإهانة فذلك يستحقّ الكرامة وهذا يستحقّ الإهانة ومع ذلك قليلاً يتذكرون الناس وقلّ نظرهم فيما ينبغي لهم وما مزينة مؤكّدة أو مصدرية فيكون تقديره قليلاً تذكّروهم .

قوله تعالى : [إن الساعة آتية لا ريب فيها] ولما قرّر سبحانه الدليل على إمكان وجود القيامة أخبر وقوعها فقال : إنها آتية من غير ريب [ولكن] أكثرهم لا يصدقون بها لقصور أنظارهم إلى ظواهر ما يحسّون به ولجهلهم وشكّهم بخبر الله .

قوله تعالى : و قال ربكم ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) .

ولما قرّر سبحانه القول بالقيامة بآته حقّ وصدق وكان من المعلوم أن الإنسان لا ينتفع في يوم القيامة إلا بطاعة الله ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرّع والمسألة أمر الله به بقوله : [ادعوني أستجب لكم] إذا اقتضت المصلحة إجابتكم وكلّ من يسأل الله شيئاً ويدعوه فلا بدّ أن يشترط المصلحة في ذلك وهذا القيد مضمّر في الكلام وإلا يلزم أن يصدر منه قبيح تعالى عن ذلك لأنّه ربّما كان داعياً بما يكون فيه مفسدة .

وقيل : معنى « ادعوني » أي اُبدوني دليل أنّه قال بعده : « إن الذين يستكبرون عن عبادتي » ولولا أن الأمر بالدعاء أمرٌ بمطلق العبادة لما بقي لقوله : « إن الذين » معنى وأيضاً الدعاء بمعنى العبادة كثيرٌ في القرآن كقوله : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » وأجيب عنه بأنّ الدعاء هو اعتراف بالعبودية والذلّ والمسألة فكأنّه قيل : إن تارك الدعاء إنّما تركه لأجل أن يستكبر عن إظهار العبوديّة وأيضاً أجيب عن قوله : إنّ الدعاء بمعنى العبادة كثيرٌ في القرآن بأنّ ترك الظاهر لا يصار إليه إلا بدليل منفصل فحينئذ المعنى على ظاهره وهو معنى الدعاء .

فلو قيل : إنكم قلتم قد شرط المصلحة في الإجابة فإذا كانت الإجابة مصلحة فما هو فيه صلاح فهو سبحانه يفعل ما يشاء أم لا تدعون فلا فائدة في الدعاء .

فالجواب أن الدعاء هو اعتراف بالعبودية ومحقق معناها فلو كانت الإجابة ممتنعة لعدم المصلحة فايقاع العبودية حاصلة وهو أصل المطلوب .

و في المسألة بيان آخر و هو أنه سبحانه قال : « ادعوني أستجب لكم » و لعل العبد يدعو بدعاء ليس فيه أمر يقتضي عدم المصلحة في الحكمة وليس فيه أمر يقتضي إيجابه وجوباً في الحكمة مثل أن يدعو أمراً ينفعه و لا يكون فيه ضرر في الحكمة لكن لا يستجاب لأنه ما دعى الله بالقلب بل دعاه باللسان لأن من دعا الله و في قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأصدقائه وجدّه واجتهاد فهو مادعا الله في الحقيقة خالصاً وفي الجملة في تحصيل ذلك المطلوب معول على غير الله فلذلك لا يستجاب له .

في الكافي عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال : هو الدعاء و أفضل العبادة الدعاء و عنه عليه السلام إنه سئل أي العبادة أفضل فقال : ما من شيء أفضل عند الله من أن يسأل و يطلب ما عنده و ما أحد أبغض إلى الله عز وجل ممن يستكبر عن عبادته و لا يسأل ما عنده .

و عن الصادق عليه السلام ادع ولا تنقل : قد فرغ من الأمر فإن الدعاء هو العبادة إن الله يقول وتلا هذه الآية وفي الصحيفة السجادية بعد ذكر هذه الآية : فسميت دعائك عبادة والشرك استكباراً وتوعدت على تركه دخول جهنم داخرين .

و روى معاوية بن عمار قال : قمت لأبي عبد الله : جعلني الله فداك ما تقول في رجلين دخلا المسجد وكان أحدهما أكثر صلاةً والآخر أكثر دعاءً فأيهما أفضل قال : كلُّ حسن قلت : قد علمت ولكن أيهما أفضل قال عليه السلام : أكثرهما دعاءً أما سمع قول الله : « ادعوني أستجب لكم » وقال : هي العبادة الكبرى .

وروى زرارة عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال : هو الدعاء و أفضل العبادة الدعاء . فإن قيل : كيف الجمع بين هذه البيانات وهذه الرواية عن رسول الله حكاية عن رب العزة إنه تعالى قال : من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين قلنا إن العبد إذا كان مستغرقاً في ثناء الله و آلائه بحيث يمنعه ذلك الاستغراق و التذكّر عن المسألة ذلك أفضل أقسام العبادة و الدعاء و هو حقيقة الدعاء و الدعاء غير منفك عنه

النهاية إن المستغرق لا يطلب ولا يسأل حظاً غير هذا الحظ العظيم انتهى .

الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه و النهار مبصراً ان الله لذو فضل على الناس و لكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو فأنى تؤفكون (٦٢) كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجهلون (٦٣) الله الذي جعل لكم الارض قراراً و السماء بناء و صوركم فأحسن صوركم و رزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (٦٤) هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥) .

و لما أمر الله الناس بالدعاء فلا بد وأن يكون الداعي مسبوقاً بحصول المعرفة فذكر في هذه الآية الدلائل على وجوده وقدرته فذكر من الدلائل الآفاقية والفلكية مثل تعاقب الليل والنهار فقال :

[الله الذي جعل لكم] معاشر الخلق [الليل] و هو ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر [لتسكنوا فيه] في وقت الليل و تستريحون من كدّ النهار و تعبته [و النهار مبصراً] أي و جعل لكم النهار مضيئاً تبصرون فيه مواضع حاجاتكم و لولا الابصار لما حصل ممكنة التصرف في الأمور على الوجه الأنفع كما أن لولا السكون في الليل لما تخلصت الأعضاء من الأعياء و الليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتداركان ما حصل في النهار من الحرارة والجفاف بسبب ما حدث من كثرة الحركات .

فإن قيل : إن الموافق لرعاية البيان أن يقال : « لتبصروا » كما قال : « لتسكنوا » وأيضاً فما الحكمة في تقديم ذكر الليل مع أن النهار أشرف من الليل ؟

فالجواب أن الليل والنوم في الحقيقة طبيعة عدمية في الجملة فهو غير مقصود لأن الظلمة طبيعة عدمية و النور طبيعة وجودية والعدم في المحدثات مقدم على الوجود كما قال سبحانه : « و جعل الظلمات والنور » . و أمّا الجواب عن صيغة الاسم قال الشيخ عبد القاهر النحوي في دلائل الإعجاز : إن دلالة صيغة الاسم على الكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليها فهذا هو السبب في هذا البيان .

و بعد أن شرح سبحانه هاتين النعمتين من المصالح قال : [إن الله ذو فضل على

الناس و لكن أكثر الناس لا يشكرون [ونظيره قوله : « وقليل من عبادي الشكور »^(١) ، وقال إبليس : « ولا تجد أكثرهم شاكرين »^(٢) .

ولما بين الله الدلائل المذكورة على وجوده وقدرته قال : [ذلكم الله ربكم خالق كل شيء ، لا إله إلا هو] قال صاحب الكشف : ذلكم المعلوم المميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه أحد فيها « هو الله ربكم خالق كل شيء » أخبار مرادفة أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية والخلق وأنه لا ثاني له [فأنى تؤفكون] أي أنى تصرفون ولم تعدلون عن هذه الدلائل وتكذبون بها ومعنى « أنى » كيف .

ثم قال : [كذلك] أي مثل ما صرف وأفك وانقلب هؤلاء [يؤفك الذين كانوا بآيات الله يمجدون] ومثل ذلك الإفك العجيب الذي لا وجه له يؤفك كل من جحد بآياته و يؤفك كما أفكوا وهم من تقدّمهم من الكفار صرفهم أكابرهم ورؤساؤهم .

ثم عاد سبحانه إلى ذكر الدليل على توحيده فقال : [الله الذي جعل لكم الأرض قراراً] مستقرّاً تستقرون فيها وهي منزلكم في حال الحياة وبعد الممات [و السماء بناءً] كالقبة المضروبة على الأرض قائمة ثابتة وإلا لوقعت علينا وجعل السماء مرتفعاً ولوجعلها رتقاً مع الأرض لما أمكن الانتفاع للخلق بما بينهما .

[وصوركم فأحسن صوركم] لأن صورة بني آدم أحسن صور الحيوان قال ابن عباس : خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل بيده ويتناول بيده وغيره يأكل بفيه بايدي البشرية ولذلك سمّي بشراً منتصب القامة متناسب الأعضاء متهيئين لاكتساب الصنایع والكمالات .

[ورزقكم من الطيبات] لأنه ليس شيء من الحيوان له طيبات المأكول والمشرب مثل ما خلق الله سبحانه لابن آدم لأن له أنواع الطيبات واللذات من الثمار وفنون النبات واللحوم والدسوم بما لا يحصى كثرة .

[ذلكم الله ربكم] أي خالق هذه الأشياء والمنعوت بهذه النعوت ربكم [فتبارك الله رب العالمين] أي جلّ الله وإنه الدائم الثابت الذي لم يزل ولا يزال .

(١) سبأ : ١٣ .

(٢) الاعراف : ١٦ .

[هو الحي] على الإطلاق من غير علة وسبب و فاعل المتفرد بالحياة الذاتية [لا إله إلا هو] إذ لا موجود يدانيه في ذاته و صفاته و أفعاله [فادعوه] ولا تدعوا غيره و اعبدوه [مخلصين له الدين] في دعائه و عبادته خاصة من غير أن تشاركوا معه أحداً في العبادة و الدعاء [الحمد لله رب العالمين] قال الفراء : وهو خبر و في الكلام إضمار أي احمده على هذه النعم و قولوا : الحمد لله رب العالمين أو المعنى اعبدوه مخلصين له الدين قائلين الحمد لله رب العالمين عن ابن عباس قال : من قال : لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين يريد قول الله : مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين .

قوله تعالى : قل اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البيّنات من ربي و امرت أن اسلم لرب العالمين (٦٦) هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً و منكم من يتوفى من قبل و لتبلغوا أجلاً مسمى و لعلكم تعقلون (٦٧) هو الذي يحيى و يميت فإذا قضى أمر آفانما يقول له كن فيكون (٦٨) ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب و بما أرسلنا به أرسلنا به رسولاً فموف يعلمون (٧٠) .

ثم أمر سبحانه نبيه فقال :

[قل] يا محمد : [إنني نهيت أن أعبد] معبودكم الذين تعبدونهم فأدّب المشركين بألين قول ليصرفهم عن عبادة الأوثان و يبين أن وجه النهي في ذلك ما جاءه من البيّنات من صفات القدرة و الخلق و الرزق و صريح العقل يحكم بأن العبادة لا يليق إلا لمن هو موصوف بهذه وأن جعل المنحوتة و الخشب المصوّرة شركاء له في المعبودية مستنكر في بدهة العقل . [و أمرت أن أسلم لرب العالمين] أي أستسلم لأمر رب العالمين الذي يملك تدبير الخلائق و العوالم .

ثم عاد في ذكر الأدلة فقال : [هو الذي خلقكم من تراب] خلق أصلكم من تراب و أنتم نسله و تنتمون إليه أو أن مادة نطفكم من التراب لأن مادة النطفة من الغذاء و الغذاء إما من الحيوان أو من النبات و كلاهما من التراب [ثم من نطفة] أي ثم أنشأ من ذلك الأصل الذي كان مخلوقاً من التراب النطفة وهي الماء القليل من الرجل و المرأة [ثم من

علقة] وهي قطعة من الدم ثم بعد كونه علقه مراتب إلى أن ينفصل من بطن أمه وترك ذكرها لأجل أنه ذكرها في سائر الآيات .

[ثم يخرجكم طفلاً] أي أطفالاً والطفل للواحد والجماعة قال الله تعالى : « أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء »^(١) [ثم لتبلغوا أشدكم] وههنا تقدير أي يقيقكم لتبلغوا أشدكم وتكملوا [ثم لتكونوا شيوخاً] بعد ذلك .

[ومنكم من يتوفى من قبل] أن يصير شيخاً ومن قبل أن يبلغ أشده [ولتبلغوا أجلاً مسمى] وليبلغ كل واحد منكم ماسمى له من الأجل الذي يموت عنده يفعل ذلك وقيل : هذا للقرن الذي يقوم عليهم القيامة والأجل المسمى هو القيامة على هذا القول [ولعلكم تعقلون] وتعتبرون وتعرفون خالقكم ومعبودكم .

[هو الذي يحيي ويميت] أي من خلقكم من تراب على هذه الأوصاف المذكورة وأحياكم هو الذي يميتكم فأولكم من تراب وآخركم إلى تراب [فإذا قضى أمراً] فما يقول له كن فيكون [أي يفعل ذلك من غير أن يتعذر عليه ويمتنع له أمرأاده وحكم عليه فهو بمنزلة ما يقال له كن فيكون لأنه يخاطب المعدوم بالتكوين في عالم الأمر .

فاستدل سبحانه بهذه الصفات على كمال القدرة وعبر عن الإحياء والإماتة بقوله : « كن فيكون » أي الانتقال من كونه تراباً إلى نطفة إلى كونه علقه وعظاماً في هذه الانتقالات بحسب الحكمة تحصل على التدريج قليلاً قليلاً وأما تعلق جوهر الروح به فذلك يحدث دفعة واحدة وإن تلك المراتب من عالم الخلق وهذه المرتبة من عالم الأمر فلذلك وقع التعبير عنه بقوله : « كن فيكون » .

قوله تعالى : [ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنسى بصرفون* الذين كذبوا بالكتاب و بما أرسلنا به رسلاً فسوف يعلمون] يعني المشركين الذين يخاصمون في إبطال حجج الله كيف يقلبون عن الطريق المستقيم إلى الضلال ثم قال هددهم سبحانه بالذين كذبوا بالقرآن وجحدوه ولم يقلبوا ما في كتب رسلا وكذبوهم بأن عن قريب

يعلمون عاقبة أمرهم إذا حلّ بهم و بال ما جحدوا فيعرفون حينئذ أن ما دعوتهم إليه حق و ما ارتكبوه ضلال و فساد .

قوله تعالى : إذا اغلّال في أعناقهم و السلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم تكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين (٧٤) ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق و بما كنتم تمرحون (٧٥).

« الأغلال » جمع غلّ و هو طوق يدخل العنق فيه للذلّ و الألم و أصله الدخول يقال : انغلّ العنق في الشيء إذا دخل فيه و الغلول الخيانة لأنّها تصير كالغلّ في عنق صاحبها و السلسلة هي الحلقة المنتظمة في جهة الطول .

المعنى : وصف في هذه الآية كيفية عقابهم فقال :

[إذ الأغلال] أي يكون [في أعناقهم] الأغلال [و السلاسل] و [يسحبون] بتلك في الماء المستحق بنار جهنّم ثم في النار يشتعلون و السجر الإيقاد في التنوير .
فإن قيل : إن قوله : « فسوف يعلمون » و سوف للاستقبال و إذ للماضي و هذا الكلام مثل قولك سوف أصوم أمس .

فالجواب أن إذهابنا بمعنى إذا لأن الأمور المستقبلية لما كانت في أخبار الله متيقّنة مقطوعاً بها عبّر عنه بلفظ ما كان و وجد لكنّ المعنى على الاستقبال . و بالجملة فهم بهذه السلاسل و الأغلال وقود جهنّم و توقّد بهم النار .

[ثم قيل لهم] أي يقال لهؤلاء الكفار إذا دخلوا النار على وجه التوبيخ [أينما كنتم تشركون من دون الله] و تزعمون أنّها تنفع و تضرّ من أصنامكم التي عبدتموها [قالوا ضلّوا عنا] أي ضاعوا عنا و هلكوا و لم نقدر عليهم ثم يستدرّكون فيقولون : [بل لم تكن ندعو من قبل شيئاً] أو فسروا هذا القول منهم على وجهين : الأوّل أنّهم أنكروا و كذبوا أنّهم عبدوا غير الله كما أخبر الله سبحانه عنهم في سورة الأنعام أنّهم قالوا : و الله ربّنا ما كنّا مشركين ، و الوجه الثاني أن مرادهم من قولهم : « بل لم تكن ندعو من قبل

شيئاً ، أي تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً أي نحن زعمنا أن عبادتها عبادة إلا أنها لم تكن .

ثم قال الله : [كذلك يضل الله الكافرين] قال القاضي عبد الجبار : معناه أنه سبحانه يضلهم عن طريق الجنة ولا يجوز أن يقال : يضلهم عن الحجة إذ قد هداهم في الدنيا إليها قال الطبرسي : معناه كما أضل الله أعمال هؤلاء وأبطل ما كانوا يأملونه كذلك يفعل بجميع من يتدين بالكفر فلا ينتفعون بشيء من أعمالهم وقيل : يضل الله ويضلها لأنه لا ينفع عمل مع الكفر .

[ذلكم] العذاب الذي نزل بكم [بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق] و بما كنتم تفرحون [جزاء] بفرحكم في الدنيا بالكفر والمعاصي و بما كان تصيبون أنبياء الله من المكاره وتأشرون و تطرون من غير حق ، والفرق بين الفرح والمرح أن الفرح قديكون بحق فيحمد عليه لكن المرح لا يكون إلا باطلاً .

قوله تعالى : ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦) فاصبر ان وعد الله حق فاما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فإلينا يرجعون (٧٧) و لقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك و منهم من لم نقصص عليك و ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا باذن الله فإذا جاء أمر الله قضى بالحق و خسر هنالك المبطلون (٧٨) الله الذي جعل لكم الانعام لتركبوا منها و منها تأكلون (٧٩) و لكم فيها منافع و لتبلغوا عليها حاجة في صدوركم و عليها وعلى الفلك تحملون (٨٠) و يريك آياته فإى آيات الله تنكرون (٨١) .

المعنى : يقال للكافرين : [ادخلوا أبواب جهنم] و هي سبعة أبواب [خالدين فيها] مؤبدين لا انقطاع لكربتكم فيها و لا نهاية و إنما جعل لها أبواب كما جعل لها دركات تشبيهاً لها بالدنيا من المطابق و السجون و المطاعم فإن ذلك أهول و أعظم في الزجر [فبئس مثوى المتكبرين] و مقامهم لأنهم تكبروا عن عبادة الله و إنما أطلق عليه اسم بئس و إن كان حسناً لأن الطبع ينفر عنه كما ينفر العقل من القبيح فحسن لهذه العلة اسم بئس عليه .

[فاصبر إن وعد الله حق] فأمر نبيه ﷺ بالصبر على أذى قومه و الثبات على الحق وسمّاه صبراً للمشقة التي تلحق به كما يلحق بتجرع المر ، فإن ما وعد الله به المؤمنين على الصبر من الثواب في الجنة حق لا شك فيه بل هو كائن لا محالة و يمكن أن يكون إن وعد الله بالنصر لأتبيائه و الانتقام من أعدائه حق .

[فإما نرينك بعض الذي نعدهم] إن شريطة و ما مزيده للتأكيد أي إن نرك بعض الذي نعدهم من العذاب في حياتك و إنما قال : « بعض الذي » لأن المعجل من عذابهم هو بعض ما يستحقونه مثل القتل و الأسر .

[أو توفينك] قبل الإراءة [فإلينا يرجعون] يوم القيامة فنفعل بهم ما يستحقونه من العقاب و لا يفوتونا و حاصل المعنى : إن نعذبهم في حياتك أولم نعذبهم فإنا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب و يجوز أن يكون جواب الشرط محذوفاً وتقديره : فذاك و يجوز أن يكون الجواب قوله : « فإلينا يرجعون » فنفعل بهم ما يستحقونه .

ثم زاد سبحانه في تسليّة نبيه ﷺ بقوله : [ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك و منهم من لم نقصص عليك] أي قد بينّا أحوال بعضهم لك و شرحنا لك أخبار بعضهم و بعضهم لم نبين لك أخبارهم أو المعنى : منهم من تلونا عليك ذكره و منهم من لم نتل عليك ذكره و اختلف الأخبار في عدد الأنبياء فروي في بعضها أن عددهم مائة ألف و ألف و أربعة و عشرون ألفاً و في بعضها أن عددهم ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف من بني إسرائيل و أربعة آلاف من سائر الناس و المذكور قصصهم أفراد معدودة . [و ما كان لرسول أن يأتي بآية] أي و ما استقام و ما صح لرسول منهم أن يأتي

بآية و معجزة [إلا بإذن الله] فإن المعجزات على مشعب فنونها عطايا من الله قسمها بينهم حسبما تقتضيه الحكمة كسائر القسم ليس لهم اختيار في إظهار بعضها والاستبداد ببيان المقترح منها ولم يكن ذلك قادحاً في نبوتهم فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة عن قدر اللزوم و لما لم يكن إظهارها صلاحاً لاجرم ما أظهرناها و هذا هو المراد من قوله : « و ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » .

ثم قال : [فاذا جاء أمر الله فضي بالحق] و هذا وعيد ورد عقيب اقتراحهم

الآيات من النبيؐ فإذا جاء أمر الله بالعذاب في الدنيا والآخرة أو المراد من أمر الله ، القيامة ، و المبطلون هم المعاندون الذين يجادلون في آيات الله و يقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت ففضي عليهم بالعذاب و هو الحق .

[وخسر هنالك المبطلون] أي إنهم خسروا الجنة وحصلوا النار بدلاً منها .

قوله : [الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها و منها تأكلون] جعل لكم من الإبل و البقر و الغنم لتنتفعوا بركوبها ، و منها تأكلون ، يعني إن بعضها للركوب و الأكل كالإبل و البقر و بعضها للأكل كالأغنام و قيل : المراد بالأنعام ههنا الإبل خاصة كما أن أصل اللغة للإبل لنعومة أخفافها حين و طئها على الأرض و إنها التي تركب و تحمل عليها في أكثر العادات و اللام في قوله : « لتركبوا » الام الغرض .

[و لكم فيها منافع] من جهة ألبانها و أصوافها و أوبارها [و لتبلغوا عليها حاجة في صدوركم] بأن تتركبوها و تبلغوا المواضع التي تقصدونها بحوائجكم [و عليها] وأي على الأنعام و هي الإبل هنا [و على الفلك] أي على السفن [تحملون] في البر على الإبل و على السفن في البحر في أسفاركم فعلم الله سبحانه أننا نحتاج إلى الأسفار فخلق لنا مركباً للبر و مركباً للبحر .

قوله : [و يريكم آياته فأي آيات الله تنكرون] أي بعد أن أراكم الله بخلقه هذه النعم التي عدها الله فأي آية منها تنكرونها و إنما أدخل لام الغرض على قوله : « لتركبوا » وعلى قوله : « لتبلغوا » ولم يدخل على البواقي .

قال صاحب الكشف : الركوب في الحج و الغزو إما أن يكون واجباً أو مندوباً فهذان القسمان أغراض دينية فلا جرم أدخل عليها اللام و أمّا الأكل و إصابة المنافع فمن جنس المباحات في الغالب فلا جرم ما أدخل عليها لام التعليل نظيره « و الخيل و البغال و الحمير لتركبوها وزينة ^(١) » فأدخل التعليل على الركوب و لم يدخله على الزينة وفي قوله : « فأي آيات الله » جاء على اللغة المستفيضة و تذكير هذه الكلمة شائع مستفيض .

قوله : أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم و أشد قوة و آثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا

يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سفت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥).

ثم نسبهم فقال :

[أفلم يسيروا في الأرض] بأن يمرّوا في أطرافها فينظروا حال الأمم المهلكة وهم كانوا أكثر منهم عدداً وأشدّ قوة ومالاً وجاهاً من هؤلاء المتأخّرين ولم يستفيدوا من تلك القوة والمكنة إلا الخيبة والخسار والخسارة والبوار فيعتبروا بهم وأما بيان أنّهم كانوا أكثر من هؤلاء عدداً فإنما يعرف بالسماع والأخبار وأما أنّهم كانوا أشدّ قوة وآثاراً في الأرض فلا تبه قد بقيت آثارهم بحصون عظيمة بعدهم مثل الأهرام الموجودة بمصر ومثل هذه البلاد العظيمة التي بناها الملوك المتقدّمون كما حكى سبحانه عنهم من أنّهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً .

ثم قال سبحانه : [فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون] وما في قوله : « ما أغنى » نافية أو مضمنة معنى الاستفهام وما في قوله : « ما كانوا » موصولة أو مصدرية ومحّلها الرفع يعني أي شيء أغنى عنهم كسبهم ؟

قوله : [فلما جاءتهم رسلهم بالبينات] يسنّ سبحانه أن أولئك الكفار لما جاءتهم رسلهم بالدلائل والمعجزات [فرحوا بما عندهم من العلم] والضمير في قوله : « فرحوا » يحتمل أن يكون عائداً إلى الرسل وقيل : راجع إلى الكفار بما عندهم من العلم لأنهم قالوا : نحن أعلم منهم لأنبعث ولا نعذب واعتقدوا أنّه علم فأطلق عليه لفظ العلم على اعتقادهم و فرحوا بالشرك الذي كانوا عليه وأعجبوا به وظنّوا أنّه علم وهو جهل وكفر والمراد بالفرح شدة الإعجاب فيدفعون بجهالتهم علوم الأنبياء .

ويمكن أن يكون المراد بعلمهم علوم الفلاسفة فإنّهم كانوا إذا سمعوا بوحى الله صغّروا علم الأنبياء إلى علومهم ، وعن سقراط أنّه سمع بمجيء بعض الأنبياء فقيل له : لو هاجرت إليه فقال : نحن قوم مهديّون فلاحاجة بنا إلى من يهديننا .

و يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا كما قال : « يعلمون ظاهراً من الحياة

الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون * ذلك مبلغهم من العلم ^(١) ، فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزئوا بها . هذا إذا كان الضمير راجعاً إلى الكفار وأما إذا قلنا : إن الضمير راجع إلى الأنبياء فمعناه أن الرسل لما رأوا من قومهم جهلاً وإعراضاً عن الحق وعلموا سوء عاقبة قومهم وإصابتهم الهداية فرحوا وشكروا الله على نعمة الهداية والوحي وحسن العاقبة .

[وحق بهم ما كانوا به يستهزون] وحل بهم ونزل جزاء استهزائهم برسولهم من العذاب [فلما رأوا بأسنا] أي عند رؤيتهم بأس الله [قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين] وليس في مثل هذا الوقت ينفع الإيمان لأنهم يصيرون عند ذلك ملجئين وفعل الملجأ لا يستحق به المدح .

[سنت الله التي قد دخلت في عباده] أي عدم قبول الإيمان حال اليأس اضطراراً عادة الله مطردة في كل الأمم ثم قال سبحانه : [و خسر هنالك الكافرون] و هنالك مستعار للزمان أي خسروا وقت رؤية اليأس بدخول النار . تمت السورة بحمد الله تعالى

اللهم يا من لا يبلغ أدنى ما استأثرت به من جلالك وعزتك أقصى نعوذ الناعتين

و يا من تقاصرت عن الإحاطة بمبادي أسرار كبريائه أفهام المتفكرين

و أنظار المتأملين لا تجعلنا برحمتك وفضلك في زمرة

الخاسرين المحرومين فإياك أكرم

الأكرمين بمحمد وآله

الطيبين .

سورة فصلت ، السجدة

* (مكية) *

عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ من قرأ حم السجدة أُعطي بعدد كل حرف منها عشر حسنات .

و روى ذريح المحاربي عن الصادق عليه السلام قال : من قرأ حم السجدة كانت له نوراً يوم القيامة مد بصره وسروراً وعاش في الدنيا مغبوطاً محموداً .
ختم الله سورة المؤمن بذكر المتكبرين و افتتح هذه السورة بمثل ذلك :

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) تنزيل من الرحمن الرحيم (٢) كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون (٣) بشيرًا ونذيرًا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون (٤) وقالوا قلوبنا في أكمة مما تدعونا إليه و في آذاننا وقر ومن بيننا و بينك حجاب فأعمل اننا عاملون (٥) .

قيل في أول السورة أقوال : أحدها أن "حم" اسم للسورة مبتدأ وتنزيل خبره . والثاني قال الأخفش : تنزيل مبتدأ وخبره كتاب والثالث قال الزجاج : تنزيل يخصص بالصفة وهو قوله : من الرحمن الرحيم فجاز وقوعه مبتدأ و كتاب فصلت خبره .

و المراد من التنزيل أي المنزل ومعنى المفعولية في المصدر شائع يقال : هذا ضرب السلطان أي مضروبه وبناء الأمير أي مبنيته أي كون السورة منزلاً من الله تعالى كتبها في اللوح المحفوظ وأمر جبرئيل عليه السلام بأن يحفظ تلك الكلمات ثم ينزل بها على محمد ﷺ فلما حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبرئيل سمي تنزيلاً وذلك يدل على كون ذلك التنزيل نعمة عظيمة من الله لأن الفعل المقرون بالصفة لا بد وأن يكون مناسباً لتلك الصفة فكونه رحماناً رحيماً صفتان دالتان على كمال الرحمة فالتنزيل المضاف إلى هاتين الصفتين مشعرٌ بعظيم النعمة .

و الكتاب اسم مشتق من الجمع وقد جمع فيه علوم الأولين والآخرين [فصلت] آياته [و فرقت و جمعت تفاصيل و تفاريق في معان مختلفة فبعضها في وصف ذاته سبحانه للمعرفة من التنزيه و التقديس و أحوال النبات و الحيوان و الإنسان و التكليف المتوجّهة نحو القلوب من العقائد و نحو الجوارح من الأفعال و الثواب و العقاب و تهذيب الأخلاق و رياضة النفس ، و القصص الأولين للعبارة و العظة و مقترن ببعضه ببعض و لذا سمي [قرآنًا] و [عربيًا] قد نزل بلغتهم ليفهموا منه المراد .

قوله : [بشيراً و نذيراً] بشيراً للمطيعين بالثواب و نذيراً للمجرمين بالعقاب و القرآن بشارة و نذارة إلا أنه أطلق اسم الفاعل عليه للتنبيه على كونه كاملاً في هذه الصفة كما يقال : شعر شاعر و كلام قائل [فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون] و مع هذه الصفات التي في القرآن أكثرهم لا يلتفتون إليه .

و اجتج القائلون بخلق القرآن بهذه الآية لأنه وصف بكونه تنزيلاً و المنزل مشعر بالتصيير من حال إلى حال وهو معنى الحدوث ، و كذلك لفظ التنزيل مصدر بمعنى المفعول و المفعول مخلوق ، و كذلك معنى الكتاب بمعنى المكتوب فيدل على الحدوث . و الدليل الرابع أن قوله «فصلت» يدل على أن متصرفاً يتصرف فيه بالتفصيل و التمييز و ذلك لا يكون في القديم . الخامس أنه إنما سمي «قرآناً» لأنه قرن بعض أجزائه بالبعض و ذلك يدل على كونه مفعول فاعل و مجعول جاعل . السادس وصفه سبحانه بكونه «عريباً» وهذه النسبة لأجل أن هذه الألفاظ إنما دخلت على هذه المعاني بحسب وضع العرب و لغتهم و ما جعل يجعل جاعل و فعل فاعل فلا بد أن يكون مخلوقاً . و أجاب القائلون بأنه قديم بأن هذه الوجوه التي ذكرتموها عائدة إلى الحروف و الكلمات و اللغات و هي عندنا محدثة مخلوقة إنما الذي ندعي قدمه شيء آخر سوى هذه الألفاظ .

و الجواب عن جوابهم أنه لو زعمتم أننا ندعي أن علم الله حادث فهذه فرية بلا مزية و المراد من القرآن كلام جامع حاور لمعان مقصودة يحتاج إليه النبي في تبليغه متسق بهذه الحروف و التراكيب استنسخه الله بواسطة الملك من اللوح واللوحة أيضاً مخلوق فهذا المستنسخ من اللوح هو ما بين الدفتين قد أحدثه بهذا التركيب و أنزله على نبيه و ليس موضوع القرآن إلا هذا و لا يطلق القرآن إلا على هذه المعنى الجامع فمن أين ثبت قدمه ؟

فإن قيل : إنه من علم الله فيلزم أن يكون قديماً . قلنا : نعم علم الله قديم لكنّه لا ملازمة في الأمر بأن يكون القرآن قديماً كما أن حول العبد و قدرته من قدرة الله و حصوله بقدرة الله وقوته وهو حادث و ليس بقديم .

قوله تعالى : [وقالوا قلوبنا في أكنة] أي في أغطية [مما تدعوننا إليه] و أكنة جمع كنان مثل أغطية جمع غطاء و الكنان هو الذي يجعل فيه السهام و حاصل المعنى أننا لا نفقه ما تقول و إنما قالوا ذلك ليؤيسوا النبي ﷺ من قبولهم دينه [و في آذاننا و قر] و ثقل و صمم عن استماع القرآن [و من بيننا و بينك حجاب] أي بيننا و بينك حاجز في النحلة و الطريقة فلا نوافقك فيما تقول و التمثيل بالحجاب ليؤيسوه من الإجابة .

[فاعمل إنما عاملون] قيل : إن أبا جهل رفع ثوباً بينه و بين النبي ﷺ فقال : يا محمد أنت من ذلك الجانب و نحن من هذا الجانب فاعمل أنت على دينك إنما عاملون على مذهبنا و قيل : معناه فاعمل في هلاكنا إنما عاملون في هلاكك أو اعمل في إبطال أمرنا إنما عاملون في إبطال أمرك .

قوله تعالى : قل إنما أنا بشر يوحى إلى أنما ألهم الله واحد فاستقيموا إليه و استغفروه و ويل للمشركين (٦) الذين لا يؤتون الزكاة و هم بالآخرة هم كافرون (٧) ان الذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (٨) قل انكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين و تجعلون له أندادا ذلك رب العالمين (٩) و جعل فيها رواسي من فوقها و بارك فيها و قدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين (١٠) .

و لما ظهر منهم العناد و عدم القبول أمر سبحانه نبيه بقوله : [قل إنما] الآية ، كان المعنى أنني لا أقدر على أن أحملك على الإيمان قهراً فأنني بشر مثلكم و يوحى إليّ وأنا أبلغكم الوحي فبعد أن شرّفكم الله بالأمر للتوحيد فتنا لكم السعادة إن قبلتموه و لحقكم الخذلان إن ردّدتموه و ذلك لا يتعلق بنبوتني و رسالتي .

ثم بيّن سبحانه أن خلاصة ذلك الوحي ترجع إلى أمرين العلم و العمل أمّا العلم فالعمدة فيه معرفة التوحيد و ذلك لأن الحق هو أن [إلهكم إله واحد] فوجب علينا أن نعترف به وهو المراد من قوله : [فاستقيموا إليه] ونظيره « و إن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه » [واستغفروا] عمّا لا ينبغي .

ثم أمر بالتحذير عمّا لا ينبغي فقال : [وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة و هم

بالآخرة هم كافرون] ولما ثبت أن التوحيد أصل المراتب وأشرف مقام العبودية كان ضده وهو الشرك أخس المراتب وأرذلها فالسعادة حاصلة لمن وحده الله واستقام في طاعته والويل لمن أشرك به وخالفه ولا يعطون الزكاة المفروضة وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالشرائع وهذا المعنى هو الظاهر.

وقيل: معناه لا يطهرون أنفسهم من الشرك بقول لا إله إلا الله فإنها زكاة الأنفس عن عطاء عن ابن عباس وقد وصف سبحانه الكفر بالنجاسة بقوله: «إنما المشركون نجس»^(١) وذكر الزكاة بمعنى التطهير في قوله: «خيراً منه زكاة»^(٢).

وقيل: معناه لا يقرّون الزكاة ولا يرون إيتاءها ولا يؤمنون بها وعن الكلبي عابهم الله بها وقد كانوا يحجّون ويعتصرون وقال الفرّاء: الزكاة في هذا الموضع أن قرشاً كانت تطعم الحاج وتسقيهم وحرّموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ.

[وهم بالآخرة هم كافرون] أي هؤلاء مع ذلك بالآخرة وبما أخبر الله به من أحوال القيامة جاحدون.

ثم بعد وعيد الكفار ذكر وعد المؤمنين فقال: [إن الذين آمنوا] وصدّقوا بأمر الآخرة من الثواب والعقاب [وعملوا الصالحات] والطاعات [لهم أجرٌ غير ممنون] أي لهم جزاء على ذلك غير مقطوع بل هو متصل دائماً وهو من مننت الجبل إذا قطعتة ويجوز أن يكون المعنى أنه لا أذى فيه من المن الذي يكدر الصنعة لأنّه سبحانه سمّاه أجراً والأجر لا يوجب المنّة.

ثم وبّخهم سبحانه على كفرهم فقال: [قل] يا عمّ (صلى الله عليك) لهم على وجه الإنكار: [إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض] وهذا استفهام تعجيب أي كيف تمجدون وتمكفرون نعمة من خلق الأرض [في] مقدار [يومين] ومن كان بهذه القدرة والكمال كيف يعقل أن تجعلوا له أحجاراً منحوتة غير مدرّكة [أنداداً] وأمثالاً تعبدونها [ذلك رب العالمين] أي ذلك الذي بهذه القدرة قابلٌ للمعبودية لأنّه خالقكم وخالق العالمين

(١) التوبة: ٢٩.

(٢) الكهف: ٨٢.

فإن قيل : إن من استدلل بشيء على شيء فذلك الشيء المستدل به يجب أن يكون مسلماً عند الخصم حتى يصح الاستدلال به و كونه خالفاً للأرض في يومين أمر لا يمكن إثباته بالعقل المحض وإنما يمكن إثباته بالسمع ووحى الأنبياء و هم كانوا منازعين في الوحي و النبوة فكيف تقرير هذه المقدمة عليهم فحينئذ لا يبقى في الاستدلال بكونه خالفاً للأرض في يومين أثر ؟

فالجواب أن كفار مكة كانوا يعتقدون في أهل الكتاب أنهم أصحاب العلوم و الحقائق وكانوا قد سمعوا منهم هذه المعاني واعتقدوا أنها حقة فحسن هذا الاستدلال . قوله : [وجعل فيها رواسي من فوقها] وجعل في الأرض جبلاً ثابتات من فوق الأرض راسخات فيها [وبارك فيها] بما خلق في الأرض من المنافع بأن أثبت فيها من غير غرس وأخرج نباتها من غير زرع وبذر يبذرونه من الكلاء وغيره وأودعها بما ينتفع العباد . [وقد رفيها] أي في الأرض [أقواتها] أي أرزاق أهلها على حسب الحاجة لقوام أبدان الناس وسائر الحيوان وقيل : قدر في كل بلدة مالم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد .

[في أربعة أيام] أي في تمتة أربعة أيام من حين ابتداء الخلق فاليومان الأولان داخلان فيها كما تقول : خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام و إلى الكوفة في خمسة عشر يوماً أي تمتة خمسة عشر يوماً .

قال أبو السعود في قوله تعالى : « في يومين » أي حكم بأنها ستوجد في مقدار يومين أو في نوبتين على أن ما يوجد في كل نوبة يوجد بأسرع ما يكون وإلا فالיום الحقيقي إنما يتحقق بعد وجودها وتسوية السماوات وإبداع نيرانها وترتيب حركاتها انتهى كلامه .

القسمي معنى يومين أي وقتين ابتداء الخلق وانقضاؤه قال : « وبارك فيها » وقد رفيها أقواتها ، أي لا تنزل وتبقى في أربعة أيام .

[سواء] مرتباً أي في أربعة أوقات قام به العالم واستوى وهي الأوقات التي تخرج فيها أقوات العالم من الناس والبهائم والطير وحشرات الأرض وما في البر والبحر

من الخلق والثمار والنبات والشجر وما يكون فيه معاش الحيوان كله وهو الربيع والصيف والخريف والشتاء ففي الشتاء يرسل الله الرياح والأمطار والأنداء والطلول من السماء فيلقي الأرض والشجر وهو وقت بارد ثم يجيء بعد الربيع وهو وقت معتدل حار و بارد فيخرج وقتئذ من الشجر والأرض نباتها فيكون أخضر ضعيفاً ثم يجيء وقت الصيف وهو حين ينضج الثمار وتصلب الحبوب التي هي أقوات العالم وجميع الحيوان ثم يجيء من بعد وقت الخريف فيطيبه ويرده ويدرك ما لم يدرك قبله ولو كان كله شيئاً واحداً لم يخرج النبات من الأرض ولم ينضج الثمار ولم يبلغ الحبوب ولو كان كله صيفاً لاحترق كل شيء نبت في الأرض ولم يكن للحيوان معاش ولو كان الوقت كله خريفاً ولم تتقدمه شيء من هذه الأوقات لم يكن شيء يحصل حتى يتفوت به أهل العالم فقام بهذا الترتيب أمر العالم واستوى وبقي مستوياً مرتباً من غير تخلف .

وسمى الله هذه الأوقات أياماً [للسائلين] أي للمحتاجين لأن كل محتاج سائل ولو أن في العالم من خلق الله من لا يسأل ولا يقدر على السؤال كثير لكنهم سائلون بلسان الحال وهو أبلغ من لسان المقال وقيل : معنى «السائلين» أي السائلين عن مدة خلق الأرض . وقيل في علة خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام إنما خلق ذلك شيئاً بعد شيء في هذه المدة ليعلم الخلق أن من الصواب التأني في الأمور وترك الاستعجال فيها وإلا كان قادراً على أن يخلق ذلك في أقل من لحظة أو ليعلم بذلك أنها صادرة عن قادر مختار إذ لو صدرت عن مطبوع أو موجب لحصلت في حالة واحدة .

وروى عكرمة عن النبي ﷺ أنه قال : إن الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والإثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق الشجر والماء والعمران والخراب يوم الأربعاء فتلك أيام أربعة وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة الشمس والقمر والنجوم والملائكة وآدم فعلى هذا يكون خلقه الأرض قبل السماء .

قوله تعالى : ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها و للأرض انتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين (١١) فقضهن سبع سموات في يومين و أوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم (١٢) فان اعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (١٣)

اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم و من خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لازل ملأئكة فانا بما ارسلتم به كافرون (١٤) فأما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة اولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون (١٥) .

المعنى : ثم ذكر سبحانه خلق السماوات ثم قصد إلى خلق السماوات و كانت السماء دخاناً و ترتيب البيان لأجل اعتناؤه سبحانه بأمر المخاطبين فيبين ترتيب مبادي معاشهم قبل خلقهم بما يحملهم على الإيمان واليقين و يزجرهم عن الشرك فقال :

[ثم استوى] أي قصد نحوها قصداً سوياً لا يلوي على غيره [وهي دخان] أي أمرٌ ظلماني عبّر به عن مادتها أو عن الأجزاء المتصغرة التي رُكبت هي منها أو دخان و بخار مرتفع من الماء و قد روي أن العرش العظيم كان قبل خلق السماوات و الأرض على الماء ثم إنّه سبحانه أحدث في الماء اضطراباً فأزبد فارتفع منه دخان فأما الزبد ففي وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السماوات وخلق جرم الأرض مقدّم على خلق السماوات لكن دحوها و خلق ما فيها مؤخر عنه^(١) لقوله : «والأرض بعد ذلك دحاها» .

روى الحسن أن الله تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهية الفهر عليه دخان ملتزق بها ثم أصدد الدخان و خلق منه و أمسك الفهر في موضعها و بسط منها الأرض و أنشأ دحوها على وجه خاص يليق لها من كل شكل معين و وصف مخصوص . قوله تعالى : [فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً] قال ابن عباس : المراد أنه

سبحانه قال : «ثم استوى إلى السماء» أي قصد و توجه نحوها من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً و «ثم» لتفاوت ما بين الخليقتين لا التراخي في المدة إذ لا مدة قبل خلق السماوات وهي دخان ظلماني .

و المراد من قوله : «فقال لها وللأرض ائتيا» الآية ، إظهار قدرته و التقدير ائتيا طوعاً أو كرهاً أي طائعين أو مكرهين شئتماً أو أبيتما كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا

(١) بل المراد من الدحو الدفع الى مدارفلكها و ذلك بعد خلق السماء فلاشكال

لان الدحو في اللغة الدفع .

شئت أو أبيت قال ابن عباس : أمت السماء بما فيها و أمت الأرض بما فيها و ليس هناك أمر بالقول على الحقيقة و لأجواب لذلك القول بل المراد إنشاءً سبحانه لهما من غير تعذر و لا كلفة بمنزلة ما يقال للمأمور أفل فافعل من غير فعبّر سبحانه عن ذلك بالأمر و الإطاعة كقوله : « كن فيكون » .

و إنما قال : « أتيننا طائعين » و لم يقل : طائعتين لأنّ المعنى أتيننا بمن فينا من العقلاء فغلب حكم العقلاء على التأنيث أولمّا خاطب من يعقل جمع من جمع من يعقل مثل قوله : « كل في فلك يسبحون »^(١) و مثل هذا القول كثير في الكلام قال الشاعر :

ألا انعم صباحاً أيها الرسم وانطق * وحدث حديث الحيّ إن شئت وصدق
وقيل : إنّه تعالى ذكر السماء و الأرض ثم ذكر الطوع و الكره فيجوز أن
ينصرف الطوع إلى السماء و الكره إلى الأرض و تخصيص السماء بالطوع لأنّ الموجود
في السماء ليس إلّا الطاعة قال تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم و يفعلون ما يؤمرون »^(٢) ،
و أهل الأرض ليس الأمر في حقهم كذلك . ثمّ إنّ السماء في دوام حرّكتها على نهج
واحد لا يختلف و الأرض ليست كذلك و إنّ السماء من حيث اللون أفضل الألوان وهي
المستنيرة و أشكالها أفضل الأشكال و هي المستديرة و أجرامها أفضل الأجرام و هي
الكواكب النيرة المتألّثة بخلاف الأرض فإنّها مكان الظلمة و الكثافة و اختلاف
الأحوال و تغير الذوات و الصفات فلا جرم وقع التعبير عن تكوّن السماء بالطوع و
الأرض بالكره .

قوله تعالى : [فقضاهنّ سبع سماوات في يومين] و قضاء الشيء إتمامه و الفراغ
منه و الضمير في «قضاهنّ» راجع إلى السماء على المعنى و يجوز أن يكون ضميراً مبهماً
مفسراً بسبع سماوات و النصيب أحدهما على الحال و الثاني على التمييز .
[و أوحى في كلّ سماء أمرها] أي خلق في كلّ سماء بما أراد من وضعها من
النيرات وغيرها و الملائكة و ما فيها من البحار و جبال البرد قال السديّ : و لله في

(١) الانبياء : ٣٣ .

(٢) النحل : ٥٠ .

كلّ سماء بيت يحجّ و يطوف به الملائكة كلّ واحد منها مقابل الكعبة بحيث لو وقعت منه حصاة ما وقعت إلا على الكعبة و لأهل كلّ سماء تكليف فمن الملائكة من هو في القيام من أوّل خلق العالم إلى قيام القيامة و منهم ركوع لا ينتصبون و منهم سجود لا يرفعون فالمعنى خصّ كلّ سماء بالأمر المضاف إليه و الخلق عبارة عن الإيجاد و التكوين و قد يكون عبارة عن التقدير و التقدير في حقّ الله هو حكمه بأنّه سيوجد و قضاؤه بذلك .

قوله : [وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح] و المراد من السماء الدنيا أقرب السماوات إلى أهل الأرض سمّي الكواكب بمصابيح لأنّه يقع الاهتداء بها و خصّ كلّ واحد بضوء معين و سير معين و اقتضاء مخصوص لا يعرفها إلا الله .

ثمّ قال : [وحفظاً] أي حفظناها حفظاً من الشياطين الذين يسترقون السمع فاعدّ كلّ شيطان نجماً يرميه و لا يخطئه فمنها ما يحرق و منها ما يقتل و منها ما يجعله مخبلاً .

و لما ذكر سبحانه هذه التفاصيل قال : [ذلك تقدير العزيز العليم] ذلك الذي ذكر من عجائب الخلقة تقدير الذي هو غالب في أمره لا يمتنع عليه شيء العليم بمصالح خلقه و لا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : [فإن أعرضوا] مع هذه الحجج الدالة على كمال قدرته و وحدانيّته [فقل] يا أيّها الذين آمنوا : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود [خو فتكم الصاعقة] ، و الصاعقة النائرة المهلكة لأيّ شيء كان و قرى صعقة عاد و هي المرأة من الصعق و هي في العرب اسم للنار التي تنزل من السماء فتحرق .

[إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم و من خلفهم] «إذ» متعلّقة بقوله : «صاعقة» و التقدير نزلت بهم حين أتتهم الرسل من قبلهم و من بعدهم عن ابن عباس يعني به الرسل الذين جاءوا آباءهم و الرسل الذين جاءوهم في أنفسهم لأنّهم كانوا خلف من جاء آباءهم من الرسل فيكون حينئذ الضمير في «خلفهم» راجعاً إلى الرسل و قيل : معناه من تقدّم زمانهم و من تأخّر و يمكن أن يكون المراد أن أخبار الرسل أتتهم من ههنا و ههنا .

فإن قيل : الرسل الذين جاءوا من قبلهم ومن بعدهم كيف يمكن وصفهم بأنهم جاءوهم ؟ نعم مثلاً قد جاءهم هود و صالح داعيين إلى الإيمان و صدقوا الرسل الذين قبلهما فأتيا بما أتى الرسل و كذلك فكان جميع الرسل قد جاءوهم بالأمر على الإيمان و كلهم كانوا يأمرون الناس بالتوحيد .

بأن [لا تعبدوا إلا الله] أي إن الشأن و الحديث قولنا لكم النهي عن عبادة غير الله .

ثم حكى سبحانه عن جواب الكفار [قالوا لو شاء ربنا لآ نزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون] و استدلوا على كذب الأنبياء بأنه سبحانه لو شاء إرسال الرسل إلى البشر لجعل رسله من زمرة الملائكة و قد كفروا بالرسل و جحدوا نبوتهم .

روي أن أبا جهل قال في ملأ من قريش : التبس علينا أمر محمد فلو التمسنا رجلاً عالماً بالشعر و السحر و الكهانة فكلمه ثم أتانا بخبر عن أمره فقال عتبة بن ربيعة : و أنا لقد سمعت الشعر و السحر و الكهانة و علمت من ذلك علماً و ما يخفى عليّ و ذلك أنه كان يحضر بعض الأندية و يستمع .

فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ لم تشتم آلهتنا و تفضلنا فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيساً و إن يكن بك البائة زوجناك عشر نسوة تختارهن أي بنات ممن شئت من قريش و إن كان المراد المال جمعنا لك ما تستغني به ، و رسول الله ما كنت .

فلما فرغ عتبة من كلامه قال ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم » إلى قوله : « صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود » فأمسك عتبة على فيه و ناشده بالرحم و رجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا : لا نرى عتبة إلا قد صبأ فانطلقوا إليه و قالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت فغضب أو قسم وقال : ولقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة و لما بلغ « صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود » أمسكت بفيه و ناشدته بالرحم و لقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب .

و بالجملة ثم فصل الله أخبار الجاحدين بقوله : [فأمّا عاد فاستكبروا في الأرض
بغير الحق] و أظهروا النخوة والكبر والاستعلاء و استخدمهم غيرهم بغير حق جعله الله
لهم بل للكفر و البغي الصرف و اغترّوا بقوتهم و كانوا مخصوصين بكبر الأجسام .
[و قالوا من أشدّ منّا قوة أو لم يروا أنّ الله الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوة]
فلو شاء أهلكهم فإن كانت الزيادة في القوة توجب كون الناقص في طاعة الكامل فهذا
الامر توجب كونهم منقادين مطيعين لله لأنّه هو أقوى منهم [و كانوا بآياتنا] و دلائلنا
[يجدون] و لا يعترفون .

ولما ثبت بالعقل أن مجامع الخصال الحميدة للعبد التعظيم للخالق والمولى والإحسان إلى خلقه فقله : « و كانوا بآياتنا يجحدون » مضادٌ لتعظيم الخالق فقله : « فاستكبروا في الأرض بغير الحق » مضادٌ للإحسان إلى الخلق فهم قد بلغوا في الصفات الخبيثة المذمومة الموجبة للنفي والإبطال وإلى الغاية القصوى حباً للدنيا .
فلهذا المعنى سلط الله العذاب عليهم فقال سبحانه :

فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي
في الحياة الدنيا وللعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (١٦) و أما ثمود
فهدينا هم فاستجبوا العمى على الهدى فاخذهم صاعقة العذاب الهون بما
كانوا يكسبون (١٧) و نجينا الذين آمنوا و كانوا يتقون (١٨) و يوم يحشر
اعداء الله الى النار فهم يوزعون (١٩) حتى اذا جاءوها شهد عليهم سمعهم
و أبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون (٢٠) .

فأخبر سبحانه عن إهلاكهم بقوله : [فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً] عاصفاً شديدة الصوت من الصرّة وهي الصيحة « فاقبلت امرأته في صرّة » أو البرد بحيث شدّة البرد تحرق كما تحرق النار واشتقاق الصرصر من الصرير ضوعف اللفظ إشعاراً بمضاعفة المعنى، وصرّر قلبت أحد الرايين صاداً كما يقال : نهه نهنهه وكفف كفكف .

[في أيام نحسات] قرئ: بسكون الحاء وكسر هاء أي مشنومة عليهم وقيل: شديدة البرد والمعنى كان إرسال الريح في أيام نكدات مشنومات ذوات نحوس أو ذوات غبار

و تراب حتى لا يكاد يرى بعضهم بعضاً و على كون النحسات شديدة البرد لأن العرب تسمي البرد نحساً .

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : الرياح ثمان ؛ أربع منها عذاب : العاصف و العصر و العقيم و السموم ، و أربع منها رحمة : الناشرات و المبررات و المرسلات و الذاريات .

قوله تعالى : [لتذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا] و عن ابن عباس قال : ما أرسل الله من الريح عليهم إلا قدر خاتمي و فعلنا ذلك بهم عذاب الهوان والذل وهو العذاب الذي يجزون في الدنيا في مقابلة استكبارهم .

[و لعذاب الآخرة أخزى] و أفصح من ذلك [و هم لا ينصرون] و لا يدفع عنهم أبداً قيل : إرسال الريح عليهم في الأيام النحسات كن آخر شوال من الأربعا إلى الأربعا و ما عذب قوم إلا في يوم الأربعا و قرئ « لتذيقهم » بالتاء أي الريح أو الأيام . و استدلت الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون نحساً و بعضها قد يكون سعداً و قالوا : الآية صريحة في هذا المعنى .

و أجاب المتكلمون بأن المعنى أن الأيام ذوات غبار و تراب و أيضاً قالوا : كون هذه الأيام نحسات لأن الله أهلكهم فيها لأنها بذواتها نحسة .

و أجاب الأحكاميون بأن النحسات في وضع اللغة هي المشؤمات لأن النحس يقابله السعد و الكدر يقابله الصافي . و أيضاً أجابوا عن الجواب الثاني : إن الله أخبر عن إيقاع ذلك العذاب في تلك الأيام النحسات فوجب أن يكون كون تلك الأيام نحسة مغايراً لذلك العذاب الذي وقع فيها .

فإن قيل : كيف أنذر قومه مثل صاعقة عاد و ثمود مع العلم بأن ذلك لا يقع في أمة محمد ﷺ و قد صرح الله بذلك في قوله : « وما كان الله ليعذبهم و أنت فيهم »^(١) ، وجاء في الأحاديث الصحيحة أن الله رفع عن هذه الأمة هذه الأنواع من العذاب ؟
فالجواب أن قومه ﷺ لما أشار كوا و ساووا قوم عاد و ثمود بسبب إنكارهم التوحيد

و النبوة فاستحقوا مثل تلك الصاعقة و تخويفهم بالعذاب مثل أولئك و جاز حدوث ما يكون من جنس ذلك .

قوله تعالى : [وأما ثمود فهديناهم] أي بيننا لهم سبيل الخير و الشر و نصبنا الدلائل [فاستجبوا العمى على الهدى] و اختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الهداية و هذه الآية تدل على أنهم من عند أنفسهم أتوا بذلك العمى فهذا يدل على أن الكفر و الإيمان يحصلان من العبد بصرف الاختيار من غير شائبة القهر و الكره .

[فأخذتهم صاعقة العذاب الهون] و الهون الهوان وصف به العذاب مبالغة أو بدل منه [بما كانوا يكسبون] بسبب شركهم و تكذيبهم صالحاً و عقربهم الناقة و ثمود قرى بضم الثاء و قرى منوناً و غير منون بالرفع و النصب و الرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء .

والعجب أن الرازي لما عثر على استدلال المعتزلة بالآية في الرد على الجبرية استدلل على صحة مذهب أهل الجبر بدليل أضعف من حجة نحوي وهو أنه أثبت مدعاه بقوله : إن أحداً لا يحب العمى والجهل مع العلم بكونه جهلاً وغرض الرازي أن جهله بإيجاب الله إتياءه و يجعل الآية من دلائل مدعاه .

و الانصاف أن كلامه ما أقرب به إلى الشعوذة لأنه بهذه التقريرات قد أثبت أن الكفر والإيمان يحصلان من الله لا من العبد ونظره أن أحداً لا يختار العمى مع العلم فحينئذ يلزم أن جميع المعاصي الصادرة من العباد غير مأخوذ بها لأنهم لا يعتقدون أنها جهل و عماية و كل حزب بما لديهم فرحون .

قوله : [و نجينا الذين آمنوا و كانوا يتشككون] الشرك أي و نجينا صالحاً و من آمن به من العذاب .

ثم أخبر سبحانه عن حال الكفار يوم القيامة فقال : [و يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون] أي يحبس أو لهم على آخرهم ليتلاحقوا ولا يتفرقوا والمعنى إذا اجتمعوا وقفوا [حتى إذا جاءوها] أي جاءوا إلى النار التي حشروا إليها و المقصود بيان أنهم إذا اجتمعوا سئلوا عن أعمالهم [شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم] أي شهد عليهم

سمعهم بما قرعه من الدعوة إلى الحق فأعرضوا عنه وأبصارهم بما رأوا من الآيات الدالة على وحدانيته فلم يؤمنوا وسائر جلودهم بما باشروا من المعاصي .
وفي شهادة الجوارح قولان : أحدهما أنه يخلق الفهم والنطق فيشهد ، والثاني أن يظهر في تلك الأعضاء أحوالاً يدل على صدور تلك الأعمال من صاحبها وتلك الأمارات تسمى شهادة كما يقال : يشهد هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه فسمي شهادة مجازاً قال ابن عباس : المراد من الجلود هنا الفروج على طريق الكناية كما قال سبحانه : ولكن لا تواعدوهن سرّاً^(١) ، وأراد النكاح وقال : «أو جاء أحد منكم من الغائط^(٢) ، و المراد قضاء الحاجة .

قوله تعالى : و قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة و إليه ترجعون (٢١) و ما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم و لكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون (٢٢) و ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم ارداكم فاصبحتم من الخاسرين (٢٣) فان يصبروا فالنار مثوى لهم و ان يستعبدوا فما هم من المعتبين (٢٤) وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين ايديهم و ما خلفهم و حق عليهم القول في امم قد خلت من قبلهم من الجن و الانس انهم كانوا خاسرين (٢٥) .

ثم حكى الله عنهم أنهم يقولون لتلك الأعضاء : [لم شهدتم علينا] فتقول الأعضاء : [أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء و هو خلقكم أول مرة و إليه ترجعون] يعني إن القادر على خلقكم و إنطافكم في المرة الأولى حال ما كنتم في الدنيا أنطقكم و بعثكم في المرة الثانية .

[و ما] نافية [كنتم تسترون أن يشهد عليكم] أي لم يكن تهيأ لكم أن تستروا أعمالكم عن هذه الأعضاء لأنكم كنتم بها تعملون قال أبو السعود : معنى الآية حكاية لما سيقال لهم يوم القيامة من جهته تعالى بطريق التوبيخ أي ما كنتم تستترون في الدنيا عند مباشرتكم

(١) البقرة ٢٣٥ .

(٢) النساء : ١٤٢ .

الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون من الناس مخافة الافتضاح بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأساً .

[و لكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون] من القبائح فلذلك اجترأتم على ما فعلتم عن ابن مسعود قال : كنت مستتراً بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفران ثقيفان وقرشي فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقوله ؟ فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله « وما كنتم تستترون » الآية ، وكان الكفار يقولون : إن الله لا يعلم ما في أنفسنا ولكنه يعلم ما يظهر .

و حاصل المعنى إثبات أنهم كانوا يستترون عند الإقدام على القبائح إلا أن استتارهم ما كان لأجل خوفهم من شهادة الجوارح وأن الله يعلمه بل لأجل أنهم كانوا يظنون أن الله لا يعلم مستوراتهم من المعاصي وإنما يعلم تعالى ما ظهر منهم علناً .
[ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم] أي هذا الظن الفاسد بربكم أهلككم [فأصبحتم من الخاسرين] إذ جعلوا بظنهم الفاسد ما منحوا الاستسعاد به في الدارين سبباً لشقاء المشر كين .

القمي عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : إن آخر عبد يؤمر به إلى النار إذا أمر به التفت فيقول الجبار جل جلاله ردوه فيردونه فيقول الله : لم التفت إلي فيقول : يا رب لم تكن ظنني بك هذا فيقول : وما كان ظنك بي ؟ فيقول العبد : يا رب كان ظنني بك أن تغفر لي خطيئتي وتسكنني جنّتك قال : فيقول الجبار يا ملائكتي لا وعزتي و جلالتي و آلائي و علوي و ارتفاع مكاني ما ظنّ بي عبدي هذا ساعة من خير قط ولو ظنّ بي ساعة من خير ماروّه أجزوا له كذبه و أدخلوه الجنة قال رسول الله ﷺ : ليس من يظن بالله عز وجل خيراً إلا كان عند ظنه به وذلك قوله : « و ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

قال الصادق عليه السلام : ينبغي للمؤمن من أن يخاف الله خوفاً كأنه يشرف على النار ويرجوه رجاء كأنه من أهل الجنة إن الله يقول : « و ذلكم ظنكم الذي » الآية ، ثم قال ﷺ : إن الله عند ظن عبده إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

ثم أخبر سبحانه عن حالهم فقال : [وإن يصبروا فالنار مثوى لهم] أي فإن يصبر هؤلاء على النار وآلامها وليس المراد به الصبر المحمود ولكنه الإمساك عن الشكوى فالنار مسكن لهم [وإن يستعذبوا فمأواهم من المعتبين] يعني وإن يطلبوا العتبي والرضى من الله أن يرضى منهم فليس لهم طريق إلى الرضاء ومأواهم ممن يقبل عذرهم ويرضى عنهم أي إن صبروا وسكتوا أوجز عوا فالنار مأواهم كقوله تعالى : « فاصبروا أو لا تصبروا أسواء عليكم ^(٢) » والمعتب من يقبل عذره ويجاب إلى مأسأل أو المعنى وإن يستغيثوا فمأواهم من المغائين .

[وقيضنا لهم قرناء] أي هيأنا لهم قرناء من الشياطين أوبدناهم قرناء سوء من الجن والإنس مكان قرناء الصدق الذي أمروا بمقارنتهم فلم يعملوا [فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم] أي إن القراء زينوا لهم أعمالهم التي يعملونها و يشاهدونها بين أيديهم وما خلفهم أي يعملونها بعد وقيل : معناه زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث ولاجنة ولا نار وما خلفهم من أمر الدنيا فزينوا أن الدنيا قديمة وأنه لا فاعل ولا صانع إلا الطبائع والأفلاك وقيل : المعنى إن القراء زينوا لهم ماضي من أعمالهم الخبيثة وما بقي من أعمالهم الخسيسة .

ثم قال تعالى : [وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين] قوله : « في أمم » في محل نصب على الحال من الضمير في « عليهم » والمعنى وجب عليهم الوعيد والعذاب حال كونهم كائنين في جملة أمم من المتقدمين المكذبين أنهم كانوا خاسرين الجنة والثواب واستحقوا العذاب .

قوله تعالى : وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (٢٦) فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوء الذي كانوا يعملون (٢٧) ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون (٢٨) وقال الذين كفروا ربنا إنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين (٢٩) إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون (٣٠) .

المعنى : ثم عطف على ما تقدم من ذكر الكفار: [وقال الذين] الآية قال رؤسائهم للأتباع أو قال بعضهم لبعض يعني كفار فريش : [لا تسمعوا لهذا القرآن] الذي يقرؤه محمد ﷺ ولا تصغوا إليه [والغوا فيه] أي عارضوه باللغو والباطل [لعلكم تغلبون] لتغلبوه بالباطل فلا يتمكن أصحابه من الاستماع و الغوا بالتخليط من كلامكم الفاسد والمكاء والصفير وقيل : ارفعوا أصواتكم في وجهه بالشعر والرجز .

ثم أوعدهم الله فقال : [فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً] في الدنيا بالأسر والقتل [ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون] أي نجازيهم في الآخرة بأقبح الجزاء على أقبح معاصيهم وهو الكفر والشرك .

[ذلك] أي ما تقدم من الوعيد [جزاء أعداء الله] الذين عادوه بالعصيان و الكفر وعادوا الأنبياء والمؤمنين [النار] فيبين سبحانه أن ذلك الأسوأ الذي جعل جزاء أعداء الله هو النار .

ثم قال : [لهم فيها دار الخلد] أي دار العذاب الدائم لهم [جزاء بما كانوا بآياتنا يجرحون] في مقابلة جحودهم بآياتنا وهو جحودهم بأن القرآن ليس من عند الله . قوله : [وقال الذين كفروا] أي وسيقول الكفار في النار : [ربنا أرنا الذين أضلنا من الجن والإنس] يعنون إبليس الأبالسة و قاييل بن آدم أول من أبدع المعصية و إن أول من أبدع الكفر إبليس و القتل بغير الحق سنة قاييل و قرىء : « أرنا » بسكون الراء لثقل الكثرة كما قالوا : في فخذ فخذ وقيل : معناه أعطنا الذين أضلنا قال الخليل : إذا قلت : أرني ثوبك بالكسر فالمعنى بصريه و إذا قلته بالسكون فهو استعطاء معناه أعطني ثوبك .

[نجعلهما تحت أقدامنا] أي يكونان أسفل منا في النار [ليكونا من الأسفلين] تمنوا لشدة عداوتهم لهم و بغضهم إليهم بما أضلّوهم أن يجعلوهم تحت أقدامهم في الدرك الأسفل ندوسهما ونطوهما بأقدامنا إزلالاً لهم حتى يكون عذابهم أشد من عذابنا .

و لما ذكر سبحانه وعيد الكفار عقبه بذكر الوعد للمؤمنين الأبرار فقال : [إن

الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا [أي وحدوا الله وصدقوا أنبياءه ثم استمروا على هذا الأمر و لم يشكوا به شيئاً أو المراد أنهم استقاموا على طاعته و أداء فرائضه و قيل : معناه ثم استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم مخلصاً و لم يعملوا عملاً لغير الله بل لبست عبادته كما لبست معاصيه خوفاً من الرياء .

قيل : إن أيوب النبي كان يحبي الليل كله فإذا كان عند الصباح رفع صوته كأنه قائم تلك الساعة . وكان بعض السالكين مثل إبراهيم النخعي إذا قرأ في المصحف و دخل داخل غطاء و كان الآخر إذا دخل و هو يصلي اضطجع على فراشه و حكي أن إبراهيم بن أدهم إذا مرض يجعل عند رأسه ما يأكله الأصحاء لئلا يشبه بالمرضى و ليس عليهم اعتراض فإن أهل الدار أدري بالدار .

روي عن أنس قال : قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال : قد قالها فآمن ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها . و روى محمد بن الفضيل قال : سألت أبا الحسن الرضا ع عن الاستقامة فقال : هي و الله ما أنتم عليه و من المعلوم بالضرورة أن الاستقامة في الدين هي أن يعتقد بقلبه أن لهذا العالم إلهاً موصوفاً بجميع صفات الكمال و منزهاً عن النقائص و يقر بلسانه و أن يوافق عمله قوله و عقيدته و يبقى مستقيماً عليه و لم يتغير بسبب من الأسباب و أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل و لا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه ، و يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه و التعطيل و بين الجبر و التفويض و كذا في الرجاء و الخوف .

قوله تعالى : [تتنزل عليهم الملائكة] يعني عند الموت روي ذلك عن أبي عبد الله و قيل : تستقبلهم الملائكة إذا خرجوا من قبورهم في الموقف بالبشارة من الله و قيل : إن البشري تكون في ثلاثة مواطن : عند الموت و في القبر و عند البعث .

[ألا تخافوا و لا تحزنوا] أي تقول الملائكة لهم لا تخافوا عقاب الله و لا تحزنوا على ورائكم و على ما خلقتكم من أهل و ولد و قيل : المراد لا تحزنوا على ذنوبكم فإن الله يغفرها لكم و قيل : إن الخوف يتناول المستقبل و الحزن يتناول الماضي فكان لا تخافوا

فيما يستقبل و «لا تحزنوا» على ماضى [وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون] بها في دار الدنيا .

قوله تعالى : نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم و لكم فيها ما تدعون (٣١) نزلا من غفور رحيم (٣٢) و من أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين (٣٣) و لا تستوى الحسنة و لا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم (٣٤) وما يلقبها الا الذين صبروا وما يلقبها الا ذو حظ عظيم (٣٥) .

ثم إن الملائكة تقول للمؤمنين الذين استقاموا بعد البشارة : [نحن] معاشر الملائكة [أولياؤكم] وأحبائكم في الحياة الدنيا تتولى إيصال الخيرات إليكم من قبل الله وفي الآخرة لا تفارقكم حتى ندخلكم الجنة أو كنّا تتولى حفظكم في الدنيا بأنواع المعرفة وفي الآخرة تتولّاكم بأنواع الإكرام ، وقيل : المعنى نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا و نحرسكم وعند الموت وفي الآخرة عن أبى جعفر عليه السلام و هذا في مقابلة قوله تعالى و ما ذكره في الوعيد للكفار حيث قال : « وقيضنا لهم قرناء » .

و للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية بالإلهامات والمكاشفات والمقامات الحقيقية كما إن للشياطين تأثيرات في الأرواح بإلقاء الوسوس وتخييل الأباطيل إليها ؛ فالملائكة أولياء للأرواح الطيبة ، والشياطين أولياء للأرواح الخبيثة العاصية . قال عليه السلام : « لولأن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات . واعلم أن جوهر النفس القدسي من جنس الملائكة و التعلقات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة . قوله تعالى : [و لكم فيها] أي في الآخرة [ما تشتهي أنفسكم] من الملائكة [و لكم فيها ما تدعون] و حاصل فإن الله يحكم لكم بذلك [نزلا من غفور رحيم] أي هذا الموعود به مع جلالته عطاء لكم و رزق يجري عليكم و كرامة لكم ممن يغفر الذنوب رحمة منه لعباده .

[و من أحسن قولا ممن دعا إلى الله] المعنى : أمن المعلوم أن مراتب السعادات اثنتان : التام و فوق التام أمّا التام فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لا جلها يصير

كاملاً في ذاته فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بتكميل الناقصين و هو درجة فوق التام
فقوله : « إن الذين قالو ربنا الله ثم استقاموا » إشارة إلى المرتبة الأولى فإذا فرغ من
هذه المرتبة ينتقل إلى المرتبة الثانية وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى دين الله و هو
المراد من قوله : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ».

و صورة الكلام صورة الاستفهام و المعنى النفي تقديره : و ليس أحدٌ أحسن قولاً
ممن دعا إلى الله و إلى طاعته [و عمل صالحاً] أي أضاف إلى الدعوة الأعمال الصالحة
[و قال إنني من المسلمين] و يقول : أنا من المنقادين لأمر الله كما قال إبراهيم : « وأنا
أول المسلمين » وفي الآية دلالة على أن الدعاء إلى الله من أعظم الطاعات . وفيها دلالة على
أن الداعي يلزم أن يكون عاملاً بعلمه ليكون الناس إلى القبول منه أقرب و
إليه أسكن .

ومن الناس من قال : المراد من قوله : « و من أحسن قولاً » هو رسول الله ﷺ
عن الحسن وابن زيد والسدي وقيل : هم المؤذنون وقيل : هو جميع الأنمة الدعوة الهداة إلى
الحق ، العياشي إنتها في علي عليه السلام .

وبالجملة لعل يدخل في الآية من دعا إلى طريق الحق وللدعوة مراتب فالكاملين
في الدعوة هم الأنبياء ودعوتهم راجحة على دعوة غيرهم لأنهم جمعوا في الدعوة بين الجحة
والسيف وقلما يتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين ثم العلماء العاملين فإنهم يبنون
دعوتهم على دعوة الأنبياء ولهذا السبب قال ﷺ : علماء أمتي كأنياء بني إسرائيل
فنفوس الأنبياء قد حصلت لها مزيستان الكمال في الذات والتكميل للغير فكانت قوتهم على
الدعوة أقوى وكانت درجاتهم أفضل وأكمل فالأنبياء لهم صفتان : العلم والقدرة و العلماء
هم نواب الأنبياء في العلم في الجملة و الملوك إذا استجمعت الشرائط لهم فهم نواب
الأنبياء في القدرة والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد و العلم يوجب الاستيلاء
على الأرواح .

والعلماء على ثلاثة أصناف : العلماء بالله و العلماء بصفات الله و العلماء بأحكام الله
أمّا العلماء بالله فهم الحكماء الذين قال الله في حقهم : « يؤتي الحكمة من يشاء و من

يؤت الحكمة فقدأ وتي خيراً كثيراً^(١) وهم الأنبياء الذين اصطفاهم الله لدينه ومعرفته و لإرشاد الخلق إلى مصالح معادهم ومعاشهم وليس المراد من الحكماء المتقولين في الجواهر والأعراض وأما العلماء بصفات الله فهم أصحاب الأصول وأما العلماء بأحكام الله فهم الفقهاء فثبت من هذا التقرير أن أ كمل من صدق عليه هذه الآية من الخلق محمد ﷺ وعلي ﷺ ثم الأمثل فالأمثل .

قوله تعالى : [ولا يستوي الحسنة ولا السيئة] أي الملة الحسنة التي هي الإسلام والملة السيئة التي هي الكفر أو لا تستوي الأعمال الصالحة والأعمال القبيحة أو لا تستوي النخلة الحسنة والسيئة مثل أن لا يستوي الحلم والغضب والعلم والجهل والمداواة والغلظة والعفو والانتقام .

ثم يبين سبحانه ما يلزم على الداعي من الرفق بالمدعو فقال : [ادفع بالتي هي أحسن] أي ادفع بحقك باطلهم بحلمك ورفقك وبغفوك إساءتهم [فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم] فإذا نك إذا دفعت خصومك بلين ومداواة صار عدوك الذي يعاديك في الدين بصورة وليك القريب وبصير كأنه حميمك في النسب وروي عن أبي عبد الله ﷺ إن الحسنة التقيّة والسيئة الإزاعة .

[وما يلقاها] أي وما يلقى هذه الفعلة والحالة وهي دفع السيئة بالحسنة [إلا الذين صبروا] على كظم الغيظ واحتمال المكروه وصبروا في الدنيا على الأذى عن الصادق ﷺ .

ولا يؤتاها [إلا ذو حظّ عظيم] أي ذو نصيب وافر من الرأي والعقل وقيل : إلا ذو نصيب من الثواب والخير والجنة .

أقول : إن من آتاه الله قريحة قوية ونصاباً وافياً من العلوم في القرآن عرف أنه سبحانه كيف علم نبيّه في إقامة الدعوة وآداب المناظرة .

وجمع في الآية طريق السلوك مع النفوس القاصرة والجدل في إثبات حجج الحق وكيف أدب نبيّه بمكارم الأخلاق .

قوله تعالى : واما ينزغناك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم (٣٦) ومن آياته الليل والنهار و الشمس والقمر لا تسجدوا للشمس وللقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون (٣٧) فان استكبروا فالذين عند ربك يسجدون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون (٣٨) و من آياته انك ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت و ربث ان الذي احيها لمحي الموتى انه على كل شيء قدير (٣٩) ان الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير ام من يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم انه بما تعلمون بصير (٤٠) ان الذين كفروا بالذکر لما جاءهم و انه لكتاب عزيز (٤١) لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٤٢) .

النزغ شبه النخس و الشيطان ينزغ الإنسان و ينخسه و يبعثه على ما لا ينبغي . أي و إن صرفك عما شرعت من الدفع بالتي هي أحسن [فاستعذ بالله] من شره و لا تطعه و امض على شأنك و اطلب الاعتصام من شره بالله [إنه سميع] بأقوالكم [عليم] بنياتكم .

ثم ذكر دلائل التوحيد بقوله : [ومن آياته] و حججه الدالة على توحيده و صفاته التي بآين خلقه بها [الليل و النهار] بذهاب الشمس عن بسيط الأرض و بطلوعها على وجهها على وجه مستقر و نظام مستمر [والشمس والقمر] و ما اختصابه من النور و ظهر فيهما من التدبير و للتيسير و التصرف في العالم .

[لا تسجدوا للشمس و للقمر] و إن كان فيها منافع كثيرة لأنهما ليسا بخالفين [واسجدوا لله الذي خلقهن] و أنشأهن و إنما قال : « خلقهن » لأن الضمير يرجع إلى الآيات لأنه قال : و من آياته هذه الأشياء ، و الضمير راجع إلى الليل و النهار و الشمس و القمر و حكم جماعة ما يعقل حكم الأنثى يقال للأنثى : بريتها و بريتهن . و إنما قال : [إن كنتم إياه تعبدون] لأن ناساً كانوا يسجدون للشمس و القمر كالصائين في عبادتهم الكواكب و يزعمون أنهم يقصدون بالسجود لها السجود لله فنهوا عن هذه الوسيلة و أمروا أن لا يسجدوا إلا لله الذي خلق هذه الأشياء و المروي عن ابن

عبّاس و جماعة أنّ موضع السجود عند قوله : « وهم لا يسأمون » و عن ابن مسعود و جماعة أنّ الموضع عند قوله : « إن كنتم إيتاء تعبدون » وهو اختيار أبي عمرو و بن العلاء وهو المروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

ثم قال سبحانه : [فإن استكبروا] عن توجيه العبادة إلى الله وحده [فالذين عند ربك] وهم الملائكة [يستسبحون له بالليل و النهار وهم لا يسأمون] أي لا يملّون ولا يفكرون ولا ينفكون عن العبادة و التسبيح لحظة واحدة .

والمشبهة تمسكوا بظاهر الآية بقوله : « عند ربك » على إثبات المكان والجهة لله تعالى . و الجواب أنّه قال : عند الملك من الجند كذا و كذا ولا يراد به قرب المكان فكذا ههنا ويقال : عند الشافعي لا يقتل المسلم بالذمّي .

و كذا استدلّ بعض بهذه الآية بأنّ الملك أفضل من البشر وهو استدلال الأعلی على حال الأدون .

و الجواب عدم تسليم الأعلوية أولاً ثمّ داعية الترك في البشر وليس داعية الترك في العبادة في الملك .

قوله تعالى : [و من آياته] أي من الأدلة الدالة على ربوبيته [أنّك ترى الأرض خاشعة] غير أن دارة متهمّة حالها حال المتواضع و قيل : المراد إنّها ميسّنة يابسة لانبات فيها قال الأزهری : إذا يبست الأرض ولم تمطر قيل : قد خشعت [فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت] أي تحرّكت بالنبات و ارتفعت قبل أن تنبت [و ربّت] بكثرة ربّعها و انتفخت .

ثمّ قال : [إنّ الذين أحيّاها لمحي الموتى] يعني إنّ القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها [إنّّه على كلّ شيء قدير] لأنّ عودة التآليف و التركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة المحفوظة في علم الله ممكن لذاته والله قادر على جميع الممكنات فوجب أن يكون قادراً على إعادة الحياة والقدرة و العقل والفهم إلى تلك الأجزاء و قد أخبر سبحانه بوقوعها فوجب وقوعها و هذا هو الدليل الأصلي في المعاد .

قوله تعالى : [و إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا] أي إن الذين يميلون عن الإيمان بآياتنا لا يخفون علينا بأشخاصهم و أقوالهم و أفعالهم و قيل : المراد من الإلحاد في الآيات تبديلهم ذلك و وضعه في غير موضعه و تحريف دلائل التوحيد من الآيات و ترك الاستدلال بها .

ثم قال سبحانه على وجه الإنكار و التهجين لهم : [أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة] أي إن الملحد الذي يلقى في النار مثل أبي جهل خير والذي يأتي آمناً يوم القيامة رسول الله ، قال عكرمة : هو عمار بن ياسر و الصحيح أنه على العموم من المؤمن و الكافر .

ثم قال : [اعملوا ما شئتم] اللفظ الأمر و معناه الوعيد أي إذا علمتم أنهما لا يستويان قال أمير المؤمنين عليه السلام : فليختر كل واحد منكم لنفسه ما شاء من الأمرين فإن العاقل لا يختار الإلقاء في النار فإذالم يختار ذلك فلا بد أن يؤمن بالآيات [إنه بما تعلمون بصير] و عالم بأعمالكم .

ثم قال متجهجاً لهم : [إن الذين كفروا بالذكر] الذي هو القرآن [لما جاءهم] أي حين جاءهم ثم أخبر سبحانه في وصف الذكر و ترك خبر « إن » على تقدير « إن » الذين كفروا بالذكر ، يجازون بكفرهم و نحو ذلك و قيل : إن خبره : « أولئك ينادون من مكان بعيد » [و إنه لكتاب عزيز] الضمير في « إنه » راجع إلى الذكر و القرآن أي إنه يجب أن يعز و يعجل لأنه لا يقدر أحد من العباد أن يأتي بمثله و عزيز باعزاز الله إياه إذ حفظه من التغيير و التبديل و جعله الله على أتم الصفات في الأحكام .

[و لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه] وقيل : في هذا المعنى أقوال : أحدها : إن الباطل الشيطان أي لا يقدر الشيطان أن ينقص منه حقاً أو يزيد فيه باطلاً .

و ثانيها : أنه لا يأتيه ما يبطله من بين يديه أي من الكتب التي قبله و لا من خلفه أي لا يجيء من بعده كتاب ينسخه .

و ثالثها : أنه ليس في أخباره عما مضى باطل و لا في أخباره عما يكون في المستقبل

باطل بل أخباره كلها موافقة لمخبراتها وهو المروي عن الصادق و الباقر عليهما السلام .
 و رابعها : لا يأتيه الباطل من أول تنزيل ولا من آخره .
 وخامسها : لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات فلا تناقض في ألفاظه ولا يعارض
 ولا يزداد فيه ولا يغير بل هو محفوظ حجة على المكلفين إلى يوم القيامة .
 [تنزيل من حكيم حميد] أي هو تنزيل من حكيم عالم بوجوه الحكمة والمصالح
 « حميد » مستحق للحمد على خلقه بالإيعان عليهم ، والقرآن هو من أعظم نعمه فاستحق
 به الحمد و الشكر .

قوله تعالى : ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو
 مغفرة و ذو عقاب أليم (٤٣) و لو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لو لا فصلت
 آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى و شفاء و الذين لا يؤمنون
 فى آذانهم و قرو هو عليهم عمى اولئك ينادون من مكان بعيد (٤٤) و لقد
 آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه و لو لا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم و انهم
 لفى شك منه مريب (٤٥) .

ثم عزى نبيه على تكذيبهم فقال :

[ما يقال لك] أي ما يقول هؤلاء الكفار لك [إلا ما قد قيل] للأنبياء قبلك من
 الجحد و التكذيب لنبوتهم و قيل : المعنى ما يقول الله لك [إلا ما قد] قاله [للرسل
 من قبلك] و هو الأمر بالتوحيد و لزوم طاعته فهذا القرآن موافق لما قبله من الكتب و
 قيل : معناه ما حكاه بعده و هو [إن ربك لذو مغفرة و ذو عقاب أليم] فيكون على
 جهة الوعد لمن آمن و الوعيد لمن كفر فمن الحق أن يرجو أهل طاعته و يخافه أهل معصيته .
 قوله : [و لو جعلناه قرآناً أعجمياً] أي إنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم
 لكان لهم أن يقولوا كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب و يصح لهم فرضاً أن
 يقولوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه و في آذاننا و قرآننا لا نفهمه ولا نحيط
 بمعناه [لقالوا لو لا فصلت آياته] أي هلا تبيست عباراته بلسان العرب حتى نفهمه .
 [« أعجمي » و عربي »] أي كتاب أعجمي و نبي عربي ؟ و هذا استفهام على وجه

الإنكار و كانوا يقولون المنزل عليه عربيّ و المنزل أعجميّ و كان ذلك أشدّ لتكذيبهم و كان بزعمهم لهم عنراً لعدم قبولهم . و تسمّي العرب من لم يبيّن كلامه من أيّ صنف كان من الناس : أعجم و قال أبو علي : الأعجميّ الذي لا يفصح في كلامه من العرب كان أو من العجم قالوا « زباد الأعجم » لآفة كانت في لسانه و كان عربيّاً و قالوا : صلاة النهار عجماء أي تخفى فيها القراءة ولا تبيّن .

و بالجملة يبيّن الله أنّه أنزل الكتاب بلغتهم و أرسل الرسول من عشيرتهم ليكون أبلغ في الحجّة وأقلع للمعذرة .

[قل] يا عمّ : [هو] أي القرآن [للذين آمنوا هدى] من الضلالة [و شفاء] للقلوب من كلّ رب و شبهة و سمّي اليقين شفاء كما سمّي الشك مرضاً كما قال سبحانه : « في قلوبهم مرض » .

قوله : [و الذين لا يؤمنون في آذانهم وقر] ثقل و صمم عن سماعه فلا ينتفعون به فكأنّهم صمّ عنه [و هو عليهم عمي] و عميت قلوبهم عنه لأنّهم لما ضلّوا عنه و جازوا عن تدبّر القرآن فكأنّه عمي لهم [أو لئلك ينادون من مكان بعيد] أي إنّهم لا يسمعون و لا يفهمون كما أنّ من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم لبعده أفهامهم و شدّة اعتراضهم و بعد قلوبهم عنه .

و الغرض من البيان في الآية تمثيل لهم في عدم قبولهم و استماعهم للقرآن بمن ينادي من مسافة نائية لا يكاد يسمع من مثلها الأصوات .

قوله تعالى : [و لقد آتينا موسى الكتاب] أي التوراة [فاختلف فيه] لأنّه آمن به قوم و كذب به آخرون و هذه تسلية للنبي ﷺ عن جحود قومه له و إنكار نبوّته بأنّ الاختلاف في شأن الكتب عادة قديمة للأمم غير مختصّ بقومك .

[و لولا كلمة سبقت من ربك] في حقّ أمّتك المكذّبة و هي العدة بتأخير عذابهم و الفصل بينهم و بين المؤمنين يوم القيامة حيث قال سبحانه : « بل الساعة موعدهم » (١) ، و قوله تعالى : « ولكن يؤخّروهم إلى أجل مسمّى » (٢) ، و أنّه سبحانه لا يعذبهم و أنت

(١) القمر : ٤٦ .

(٢) النحل : ٦١ .

فيهم [لقضي بينهم] أي لحكم باستيصالهم وعذابهم [وإنهم لفي شك منه مريب] أي إن قومك لفي شك مما ذكرناه موقع لهم الريبة وهو أفضح الشك . والضمير في «منه» راجع إلى القرآن .

قوله تعالى : من عمل صالحاً فلنفسه و من أساء فعليها و ما ربك بظلام للعبيد (٤٦) إليه يرد علم الساعة و ما يخرج من ثمرات من اكمامها و ما تحمل من أنثى و لا تضع إلا بعلمه و يوم يناديهم ابن شركاني قالوا آذناك ما منا من شهيد (٤٧) و ضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل و ظنوا ما لهم من محيص (٤٨) لا يسأم الانسان من دعاء الخير و ان معه الشرفيوس قنوط (٤٩) و لمن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى و ما اظن الساعة قائمة و لنرجع الى ربى ان لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا و لنذيقهم من عذاب غليظ (٥٠) .

ثم بين حال من عمل صالحاً و آمن بالكتب بموجبها فلنفسه بعلمه و نفعه راجع إلى نفسه [و من أساء] ضرره راجع إليه لا لغيره و لا يؤخذ أحد بذنوب غيره [و ما ربك بظلام للعبيد] و هذا الكلام على وجه المبالغة في نفي الظلم عن نفسه للعبيد و إنما قال ذلك مع أنه سبحانه لا يظلم مثقال ذرة لأن من فعل الظلم و إن قل و هو عالم بقبحه و بأنه غني عن فعله لكان ظالماً كما أنه لو صدر أمر جزئي من القباحة من شخص كامل شريف لكان ذلك القبيح الجزئي من ذلك الشريف كثيراً و عظيماً جداً .

ثم بين سبحانه أنه العالم بوقت القيامة فقال : [إليه يرد علم الساعة] التي يقع فيها الجزاء للمطيع و العاصي و لما هدد الكفار بأن جزاء كل أحد يصل إليه يوم القيامة كأن سائلاً يقول : ومتى يكون ذلك اليوم للجزاء فقال : لا سيدل للمخلق إلى معرفة ذلك الوقت إليه يرد ذلك العلم .

ثم مثل من علمه بمثلين فقال : [و ما يخرج من ثمرة] و أفراد الثمرة يدل على الكثرة و استغنى به عن الجمع أي عمّا يخرج ثمرة من أوعيتها و علقها ، و الأكمام جمع كم و كم جمع كمته و هي الكفري .

[و ما تحمل من أنثى و لا تضع إلا بعلمه] هذا هو المثال الثاني أي لا تحمل أنثى

من حمل ذكرًا كان أمًا نثى إلا في الوقت الذي علم سبحانه أنها تحمل فيه فيعلم قدر الثمار وكيفية أجزائها وطعومها وروائحها ويعلم ما في بطون الجبال وكيفية انتقالها حالاً بعد حال وأنه عالم بالجزئيات .

[و يوم ينادي الله المشر كين [أين شركائي] في قولكم و زعمكم] قالوا آذناك ما منّا من شهيد [أي يتبرعون بومئذ من أن يكون مع الله شريك قال ابن عباس : « آذناك » أي أسمعناك كقوله : « و أذنت لربها و حققت ^(١) » بمعنى سمعت أي أعلمناك ما من أحد منّا يشهد لهم بالشركة إذ تبرأنا عنهم لما عايننا الحال ، أو المعنى إنه ما منّا من يشاهد الشركاء لأنهم ضلّوا عنا وضلّت عنهم آلهتهم لا يبصرونها و قيل : المعنى أنك علمت من قلوبنا و عقائدنا الآن أننا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة بالشركة لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه أو المعنى الإ نشاء لا الإخبار بما قد كان قبل ذلك .]
[و ضلّ عنهم ما كانوا يدعون] أي يعبدون [من قبل] و ظهر عدم نفعهم فكان حضورهم كغيبتهم [و ظنّوا ما لهم من محيص] فبطل عنهم ما كانوا أعلموه من أصنامهم و علموا و تيقنوا أن لا مخلص من عذاب الله و قد يعبر بالظنّ عن اليقين فيما طريقه الخبر دون العيان و قيل : ظنّوا أو لا ثمّ أيقنوا أنه لا محيص لهم عن النار .
ثمّ يبيّن سبحانه حال الإنسان و قيل : المراد الإنسان في الآية الكافر وهو متبدّل الأحوال متغيّر المنهج فإن أحسن بخير و نعمة انتفخ و تعظّم و إن أحسن بلاء و محنة ذبل و تصغر كما قيل في المثل : هو كالقرطي إن رأى خيراً تدلّى و إن رأى شراً تولى فقال سبحانه :

[لا يسأم الإنسان من دعاء الخير و إن مسّه الشرّ فيؤس فنوط] أي إنه في حال الإقبال و مجيء المراد لا ينتهي قطّ إلى درجة إلا و يطلب الزيادة عليها و يطمع بالفوز بها و بأكثر منها و في حال الإدبار و الحرمان يصير آيساً قانطاً و الحاصل إنه لا يزال يسأل الخير الذي هو المال و الغنى والصحة والولد وإن مسّه الشر أي الشدة و الفقر فهو شديد اليأس فنوط من الرحمة و من إجابة الدعاء و قيل : القنوط سبى الظنّ بربه .

[ولئن أذقناه رحمة منّا] أي خيراً و عافية و غنى [من بعد ضراء مسته] ليقلّوا
هذالي [أي هذا بعلمي و محقوق به و قيل : هذا لي أبداً دائماً] و ما أظنّ الساعة قائمة
أي كائنة [و لئن رجعت إلى ربّي] أي لست على يقين من البعث فإن كان الأمر على ما
يقولون و حمل البعث و رددت في القيامة [إن لي عنده الحسنی] أي الحالة الحسنة و
هي الجنة أي سيعطين في الآخرة مثل ما أعطيت في الدنيا .

ثمّ هدّد سبحانه من هذه صفته أن قال : [فلننسبنّ الذين كفروا بما عملوا]
أي لننقضهم يوم القيامة على مساوي أعمالهم و عقايدهم [و لنذيقنهم من عذاب غليظ]
شديد متراكم .

قوله تعالى : و إذا أنعمنا على الإنسان اعرض و نأى بجانبه و إذا مسه
الشر فذود دعاء عريض (٥١) قل أرايتم أن كان من عند الله ثم كفرتم به من
اضل ممن هو في شقاق بعيد (٥٢) سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم
حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد (٥٣) ألا
إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط (٥٤) .

ثمّ أخبر عن حال الإنسان الذي تقدّم ذكره فقال :

[و إذا أنعمنا على الإنسان أعرض] عن الشكر [و نأى] و صرف وجهه و تجبر عن الاعتراف
بنعم الله من قرأ « ناء » فمقلوب « نائي » كقول الشاعر : « أقول وقد ناءت به غربة النوى »
[و إذا مسه الشر] أي الفقر أو المرض و الشدة فهو [ذود دعاء عريض] كثير و
إنما قال : « عريض » و لم يقل : طويل لأنه أبلغ فإن العرض يدلّ على الطول و الطول
لا يدلّ على العرض إذ قد يصحّ طويل و لا عرض له و لا يصحّ عريض و لا طول له فإنّ
العرض الانبساط في خلاف جهة الطول و الطول الامتداد في أيّ جهة كان و حاصل المعنى
أنّ الكافر سيئال ربه بالتضرّع أن يكشف ما به من الضرّ و البلاء و يعرض عن الدعاء
في الرخاء و النعمة و الخصب قوله تعالى : [قل أرايتم أن كان من عند الله ثمّ كفرتم به]
قل يا عجم لهم : أخبروني إن كان القرآن من عند الله ثمّ كفرتم به فبتقدير أن يكون
صحيحاً يكون دفعكم و إصراركم في عدم قبوله مع تعاضد موجبات الإيمان به
[من أضلّ ممّن هو في شقاق بعيد] أي من أضلّ منكم فوضع الموصول موضع الضمير

تعليلاً لمزيد ضلالهم .

ثم قال سبحانه : [سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم] الآفاق ناحية من نواحي الأرض وكذلك آفاق السماء نواحيها وأطرافها والمراد من آيات الآفاق الآيات الفلكية والكوكبية وآيات الليل والنهار والأضواء والأظلال وعالم العناصر الأربعة قال ابن عباس : « في الآفاق » أي منازل الأمم الخالية وآثارهم و « في أنفسهم » يوم بدر وقيل : في الآفاق ما يفتح الله له ^{من القرآن} من القرى و « في أنفسهم » فتح مكة وقيل : « في أنفسهم » المراد ما دبر سبحانه من لطيف صنعه و بديع حكمته في تكوين الأجنة في ظلمات الأرحام و التراكيب الغريبة .

[حتى تبين لهم أنه الحق] أي يظهر أن تعالى الحق و نريهم في هذه الدلائل مرة بعد أخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم و يحصل فيها الجزم و القطع بوجود الإله القادر .

فإن قيل : أن كلمة « سنريهم » يقتضي إنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات إلى الآن و سيطلعهم عليها بعد ذلك و الآيات الموجودة في العالم الأعلى و الأسفل قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك .

فالجواب أن القوم و إن كانوا قدرأوا هذه الأشياء العجيبة إلا أن عجائبها مما لا نهاية لها فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زماناً فزماناً و كلما يزداد المتأمل في هذه التركيب يزداد وقوفاً فصيحاً هذا الكلام .

قوله : [أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد] و المعنى أولم يكفهم أن ربك شهيد على الأشياء و محقق لكل شيء و قوله : « بربك » في موضع الرفع على الفاعلية أو البدلية و قيل : المعنى أولم يكف ربك شاهداً أن القرآن من عند الله .

[ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم] « ألا » كلمة تنبيه وتأكيدي بأن الكفار في شك من لقاء ربهم و عقابه أي في شك من مجازاة ربهم [ألا إنه] تعالى [بكل شيء] محيط أي أحاط علمه بكل شيء فلا يخفى عليه شيء . تمت السورة بعون الله .

انتهى الجزء التاسع و يتلوه العاشر ان شاء الله

الجزء العاشر

مِنْ كِتَابِ الْفَيْسِيَّةِ

الْمُسَمَّى بِمُقَدِّمَاتِ الدَّرَجَةِ

تأليف

الحاج ميرسيد علي الحارثي الطهراني

اعلى الله مقامه

المعروف في الفَيْسِيَّةِ

الناشر

الشيخ محمد الآخوندی
مدیر

في المكتبة الإسلامية بآمين

بازار سلطانی - طهران

قطعة الجيد في طهران

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزل القرآن نوراً وسراجاً وقمراً منيراً . والصلاة والسلام على رسوله الذي انزل عليه الكتاب بياناً للناس وهدى وموعظة للمتقين ، وعلى آله الطيبين ثانی الثقلين . ولعنة الله على أعدائهم أجمعين . وبعد فقد بذل علماء الاسلام قديماً وحديثاً جهدهم في تفسير علوم القرآن و تبیین لغاته ومشكلاته ، فقريقفسروا ألفاظه و بینوا حقائقه من مجازيه ، و جمع جمعوا أحكامه و بینوا حلاله و حرامه ، و طائفة كشفوا عن تأويلاته قناعه ؛ وكيفما كان ما و صلوا الا الى مبلغ علمهم و منتهى همهم ، و أنى لهم الوصول الى حقائق التنزيل و دقائق التأويل ؟ لان القرآن هو النور الذي أنزله الله على قلب حبيبه محمد صلى الله عليه و آله . الا أن المتمسكين بولاء أهل بيت الوحي المستضيئين بنور علمهم المأمورين بالتمسك بهم في حديث الثقلين قد اغترفوا من بحار علوم أهل بيت النبي غرقاً و غاصوا فيها و اقتنوا منها درراً .

وهاهي المقتنيات الدرر ، قد اقتناها علم من الاعلام ثمرة الشجرة الطيبة و النخبة من السلالة الطاهرة : « الحاج الميرسيد علي الحائري » تغمده الله بغفرانه ، و اوتي كتابه هذا يمينه ، قد اقتنى من الدرر أغلاها و من الغرر أسناها فحقيق أن يتنافس المتنافسون في الاستفادة منها .

وقد وفق الله تلميذه المستضيء بنور علمه المقتفى أثره : الحاج ميرزا عبدالحسين المعروف بمحسنیان لبذل الجهد باحیاء هذا السفر الجليل القيم . هذا ومن الله سبحانه على عبده الزاكي صاحب الهمة القعاء و ارومة الفضل : الحاج محمود الكاشاني ؛ فأ نعم عليه و شرفه باعطاء نفقة طبع الكتاب خدمة للدين و اتحافاً للطيفة و الده السعيد الحاج محمد حسين الكاشاني طيب الله رمسه ، و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ونشكر جميل مساعي الشاب الفاضل الارب السید الكاظم الموسوی المياموی حيث بذل جل أوقاته لمقابلة اجزاء الكتاب مع نسخة الاصل و تخريج الايات المنثورة في ثناياه و اسناد ما يهيم من رواياته و بعض الاصلاح فيه . و نسال الله تعالى أن يوفقنا لآتمامه بمحمد و آله .

محمد الاخو ندى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

سورة جمعسق

وتسمى سورة الشورى وهي مكية إلا أربع آيات منها نزلن بالمدينة والأربع أولها : « قل لا أسألكم عليه أجراً ، قال ابن عباس ؛ ولما نزلت هذه الآية قال رجل : ما أنزل الله هذه الآية فأنزل الله « أم يقولون افترى على الله كذباً ، ثم إنَّ الرجل تاب وندم فنزل « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده » إلى قوله : « لهم عذاب شديد » .

فضلها : عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ من قرأ سورة جمعسق كان ممن يصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون . وروى سيف بن عميرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من قرأ حمعسق بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر حتى يقف بين يدي الله فيقول : عبدي أدمنت قراءة جمعسق ولم تدري ما ثوابها أما لو دريت ماهي وما ثوابها لما مللت من قراءتها ولكن سأجزيك جزاءك : أدخلوه الجنة وله فيها قصر من ياقوتة حمراء أبوابها وشرفها ودرجها منها يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وله فيها حوراً من الحور العين وألف جارية وألف غلام من الولدان المخلدين الذين وصفهم الله .

التفسير : ختم الله سورة السجدة بذكر القرآن وافتتح هذه السورة بذكره أيضاً فقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) عسق (٢) كذلك يوحى إليك و إلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم (٣) له ما فى السموات وما فى الارض وهو العلى العظيم (٤) تكاد السموات يتفطرن من فوقهن و الملائكة يسبحون بحمد ربهم و يستغفرون لمن فى الارض ألا ان الله هو الغفور الرحيم (٥) .

[حم عسق] فى المعاني عن الصادق عليه السلام معناه الحكيم المثلث العالم السميع القادر القوي . والقمي عن الباقر عليه السلام : هو حروف من اسم الله الأعظم المقطوع يؤلفه الرسول أو الإمام بعلمه فيكون الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب . وعنه عليه السلام فى عسق عدد سني القائم عليه السلام ، وقاف جبل يحيط بالديار من زمردة خضراء فخضر السماء من ذلك الجبل وعلم كل شيء فى عسق .

نقل عن ابن عباس أنه قال : لا نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحى إليه

حم عسق .

قيل : وإنما فصلت هذه السورة من الحواميم بعسق لأن جميعها استفتح بذكر الكتاب على التصريح إلا هذه فذكر عسق ليكون دلالة على الكتاب تضميناً لا تصريحاً لأنها اسم للسورة والسورة هي القرآن . وقال عطا : هي حروف مقطعة من حوادث آتية فالجاء من حرب والميم من تحويل ملك والعين من عدو مقهور والسين من الاستئصال بسنين كسني يوسف والقاف من قدرة الله وأمثال هذه البيانات مرت في سورة البقرة .

قوله : [كذلك يوحى إليك] الكاف معناه المثل و ذا للإشارة إلى شيء سبق ذكره فيكون المعنى فى مثل هذه السورة المسماة حم عسق أوحى إليك فى سائر السور وإلى من قبلك من الرسل فى كتبهم على أن المناط فى المماثلة ما يتبين فيها من الدعوة إلى التوحيد

والإرشاد إلى المعاد وما فيه صلاح الخلاق والعدل .

فحاصل المعنى أن مثل الكتاب والسورة المسماة حم عسق يوحى الله إليك وإلى كل من قبلك من الأنبياء . قال الزمخشري : أتى بلفظ المضارع ليدل على أن إحياء مثله عازته . وقرئ « يوحى » بفتح الحاء على ما لم يسم فاعله وقرئ بالنون على التكلم والأكثر قرءوا بكسر الحاء فعلى القراءة الأولى الرافع لاسم الله ما دل عليه يوحى كأن قائله قال : من الموحى ؟ فقيل : الله فإن قيل : فما رافعه إذا كان بالنون ؟ فحيث الرفع بالابتداء والعزير وما بعده إخبار والعزير الحكيم صفتان والخبر الجملة الظرفية وعلى القراءة الكسر فالرفع على الفاعلية .

و بالجملة كونه عزيزاً يدل على كونه قادراً على ما لا نهاية له و كونه حكيماً يدل على كونه عالماً بجميع المعلومات غيباً عن جميع الحاجات نعم ما قيل :

الحمد لله ذي الآلاء والنعم * والفضل والجود والإحسان والكرم
منزه الفعل عن عيب وعن عبث * مقدس الملك عن عزل وعن عدم

[له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم] فهو سبحانه موصوف بقدره نافذة في جميع أجزاء السماوات والأرض على عظمتها وسعتها بالإيجاد والإعدام والتكوين والإبطال وهو العلي العظيم ، ولا يجوز أن يكون المراد علو المكان والجهة لما ثبتت الدلالة على فساد ذلك لا يجوز أن يكون المراد من العظيم العظمة بالجثة وكبر الجسم لأن ذلك يقتضي كونه مؤلفاً من الأجزاء والأبعاض وذلك ضد قول الله : « أحد » فالمراد من العلي المتعالي عن مشابهة الممكنات والمحدثات ومن العظيم العظمة بالقدرة والقهر بالاستعلاء والكمال .

ثم قال : [تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن] وقرئ « بالياء » في تكاد وبالتاء في « يتفطرن » أي قرب السماوات يتشققن من عظمة الله تعالى وقيل : من دعاء الولد له كما في سورة مريم « أن دعوا للرحمن ولداً ^(١) » « من فوقهن » أي يبتدىء التفطر من جهتهن الفوقانية فعلى كون الانشقاق من العظمة لما أن أعظم الآيات وأدلتها على العظمة والجلال من جهة

الفوق والملا الأعلى وعلى كون سبب التشقق نسبة الولد للدلالة على التفطر من تحتهم بالطريق الأولى لأن تلك كلمة الشنعاء الواقعة في الأرض حيث أثرت في جهة الفوق فلأن تؤثر في جهة التحت أولى . وقيل : الضمير في قوله : « فوقهم » راجع إلى الأرضين أي من فوق الأرضين وهذا على طريق التمثيل والمعنى : لو كانت السماوات تتفطر لشيء لانفطرت لهذه العظمة أول هذا الكلام الفاسد .

ثم قال : [والملائكة يسبحون بحمد ربهم] أي ينزهون الله عما لا يليق به ولا يجوز في صفاته وأفعاله [ويستغفرون لمن في الأرض] من المؤمنين، القمي قال : للمؤمنين من الشيعة التوابين خاصة . ولفظ الآية لو كان عاماً فالمعنى خاص لقوله تعالى : « ويستغفرون للذين آمنوا » .

ثم قد ثبت بدليل منفصل أن الكفار ليسوا قابلين للمغفرة وللشفاعة فاخص المعنى بالمؤمن لأنه تعالى قال : « أولئك عليهم لعنة الله والملائكة » فكيف يكونون لاعين ومستغفرين لهم ؟

ثم إن قوله تعالى : « لمن في الأرض » لعله لا يفيد العموم لأنه يصح أن يقال : أنهم استغفروا لكل من في الأرض وأن يقال : إنهم استغفروا لبعض من في الأرض دون البعض ولو كان قوله : « لمن في الأرض » صريحاً في العموم لما صح ذلك التقسيم .

وتأمل أيها المتأمل في هذا الترتيب الشريف العالي في نظم القرآن فإن الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثر لا يقبل الأثر وهو الله سبحانه وهو أشرف الأقسام ومتأثر لا يؤثر وهو القابل وهو الجسم وهو أخسر الأقسام وموجود يقبل الأثر من القسم الأول ويؤثر في القسم الثاني وهو الجواهر الروحانيات المقدسة وهو المرتبة المتوسطة فهذه الجواهر الروحانية لها تعلقان تعلق بعالم الجلال والكبرياء وهو تعلق القبول والاستفاضة لأن الأضواء الصمدانية إذا أشرقت على الجواهر الروحانية استضاءت جواهرها فلما استفادت تلك القوى الروحانية قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيات فقوله : « يسبحون بحمد ربهم » إشارة إلى الوجه الذي إلى عالم الكبرياء وقوله : « ويستغفرون لمن في الأرض » إشارة إلى الإفاضة وإيصال الخير إلى عالم الأجسام .

فالجبهة العلوية اشتملت على أمرين : أحدهما التسبيح والتنزيه وثانيهما التحميد والتسبيح مقدّم على التحميد لأنّه جهة التخلية والتحلية مقدّمة على التجلية لأنّ كونه تعالى منزّهاً في ذاته عمّا لا ينبغي مقدّم في الرتبة على كونه فيضاً للخيرات والسعادات لأنّ وجود الشيء مقدّم على إيجاد غيره و حصوله في نفسه مقدّم على تأثيره في حصول غيره فلهذا السبب كان التسبيح مقدّماً على التحميد .

وأما الجهة الثانية فلا إشارة إليها بقوله : « يستغفرون » والمراد إفاضتها وتأثيراتها الخيرية في عالم الجسمانيّات من الفيض المطلق و ذلك الفيض الذي يصدر منهم أيضاً لشفقة الله على خلقه لأنّه سبحانه خلق الداعية في قلوبهم بطلب المغفرة للمؤمنين فكلّ الخير منسوب إليه تعالى شأنه ولولا الله خلق تلك الداعية في قلوبهم لما أقدموا على الطلب فالغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله كما شهد لنفسه بذلك بقوله : [ألا إنّ الله هو الغفور الرحيم] والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل (٦) وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى و من حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير (٧) ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير (٨) أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير (٩) وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب (١٠) .

ثمّ أخبر سبحانه عن إمهاله الكفار بعد تقديم الإنذار فقال : [والذين اتخذوا من دونه أولياء] أي آلهة عبدوها من كفار مكّة وغيرهم أي إنّ الذين آمنوا بالله يستغفرون لهم الملائكة وإنّه تعالى يعطي المغفرة التي طلبوها لهم ويضمّ إليها الرحمة التامة وأما الذين جعلوا له شريكاً وأنادوا [الله حفيظ عليهم] و رقيب على أحوالهم لا يفوته منها شيء [وما أنت] يا محمد بمفوض إليك أمرهم ولا مقتسرهم على الإيمان إنّما أنت منذر فحسب .

قوله تعالى : [وكذلك أوحينا] أي مثل ما أوحينا إلى من تقدمك من الأنبياء بالكتب التي أنزلناها عليهم بلغة قومهم و بلسانهم أوحينا إليك قرآنًا بلغتهم لتنذر أهل مكة ومن حولها من الخلق. وقرىء الأرض، وسميت مكة أم القرى وكنيت بهذه الكنية إجلالاً لها لأن فيها البيت وأم الأرض لأنها دحيت من تحت موضعها والعرب تسمي أصل كل شيء أمه مثل أن يقال : هذه القصيدة من أمهات القصائد .

فإن قيل : إن ظاهر الآية يقتضي أن الله إنما أوحى إليه لينذر أهل مكة وأهل القرى المحيطة بمكة وهذا يقتضي أن يكون ﷺ رسولاً إليهم فقط وأن لا يكون رسولاً إلى كل العالمين .

فالجواب أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما سواه نعم سلمنا أن هذه الآية تدل على كونه رسولاً إلى هؤلاء خاصة فقله : « وما أرسلناك إلا كافة للناس ، يدل صريحاً على كونه رسولاً إلى كل العالمين .

وأيضاً دليل آخر وهو أنه لما ثبت كونه رسولاً إلى أهل مكة وجب كونه صادقاً فلما ثبت بالتواتر أنه كان يدعي الرسالة إلى العالمين وجب تصديقه لأن الرسول صادق فيما أخبر به وإلا لم يكن رسولاً ووجب تصديقه فثبت أنه رسول إلى كل العالمين . ثم قال سبحانه : [وتنذر يوم الجمع] أي تنذرهم بيوم القيامة فيجمع الله فيه الأولين والآخرين وأهل السماوات والأرضين ، ويوم الجمع مفعول ثان لتنذر [لا رب فيه] ولا شك في كونه وحصوله .

ثم قسم سبحانه أهل الجمع فقال : [فريق في الجنة] بطاعتهم وقبولهم الأوامر [وفريق في السعير] بمعصيتهم [ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة] أي ولو شاء الله لحملهم على دين واحد وهو الإسلام بأن يضطرهم وبلغتهم إليه لفعله ولكنهم لم يفعل لأنه يؤدي إلى إبطال التكليف والتكليف إنما يتحقق مع الاختيار. وقيل : معناه ولو شاء الله لسوى بين الناس في المنزلة بأن يخلقهم في الجنة ولكنهم اختار لهم أعلى الدرجتين وهو استحقاق الثواب والجنة .

[ولكن يدخل من يشاء في رحمته] بسبب قبولهم الإيمان والطاعة [و الظالمون]

ما لهم من وليّ ولا نصير [بسبب ظلمهم و كفرهم و ليسوا قابليّن لنصرة الله و ولايته و ما أدخلهم في رحمته .

[أم اتخذوا من دونه أولياء] استفهام إنكاري و جملة مفسّرة من أن يكون للظالمين وليّ أو نصير والمراد نفي الولاية للذين اتخذوهم لهم أولياء [فالله هو الوليّ] جواب شرط مقدّم و محذوف كأنه قيل بعد إبطال ولاية ما اتخذوه أولياء : إن أرادوا وليّاً في الحقيقة فالله هو الوليّ لا وليّ سواه لأنّه المالك للنفع والضرر [وهو يحيي الموتى و هو على كلّ شيء قدير] لأنّه يحيي الموتى فهو الحقيق بأن يتخذ وليّاً دون من لا يقدر على شيء ، ثم قال : [وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله] أي وما اختلفتم فيه شيء في أموركم و تنازعتم فتحكموا فيه إلى رسول الله ولا تؤثروا حكومة غيره على حكومته و قيل : المعنى : وما وقع بينكم فيه خلاف من الأمور التي لا مدخلية لها بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه كحقيقة الروح فتقولوا : الله أعلم . [ذلكم] الحاكم العظيم الشأن [الله ربّي] و مالكي [عليه توكلت] في مجامع أموري خاصة دون غيره [وإليه أُنيب] أرجع في مهمّات أموري و حيث كان التوكل أمراً واحداً مستمرّاً و الإجابة متعدّدة متجدّدة حسب تجدّد موادّها عبّر في الأوّل بصيغة الماضي و في الثاني بصيغة المستقبل .

واحتجّ نفاة القياس بهذه الآية و قوله : « ذلكم الله » معترضة بين الصفة والموصوف .
ثم وصف سبحانه نفسه بقوله :

فاطر السموات و الارض جعل لكم من أنفسكم أزواجا و من الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء و هو السميع البصير (١١) له مقاليد السموات و الارض يسطر الرزق لمن يشاء و يقدر انه بكل شيء عليم (١٢) شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا و الذين اوحينا اليك و ما وصينا به ابراهيم و موسى و عيسى أن اقيموا الدين و لا تتفرّقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء و يهدي إليه من ينيب (١٣) و ما تفرّقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم و لولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لفضي بينهم و ان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب (١٤) فلذلك فادع و استقم كما امرت و لا تتبع اهواءهم و قل آمنت بما انزل الله من كتاب و امرت لا عدل بينكم الله ربنا و ربكم لنا اعمالنا و لكم اعمالكم لا حجة بيننا و بينكم الله يجمع بيننا و اليه المصير (١٥) .

قوله : [فاطر السماوات] قرىء بالرفع على أنه خبر «ذلكم» أو خبر مبتدئ محذوف
و بالجرف على أنه بدل من قوله : «فحكمه إلى الله» أي الله خالق السماوات و الأرض
و مبتدئها .

[و جعل لكم من أنفسكم] من جنسكم من الناس [أزواجاً] أي ذكوراً و إناثاً و
أشكالاً يأنس بعضهم ببعض [ومن الأنعام أزواجاً] ذكوراً و إناثاً لتكمل منافعكم بها أي و
خلق أيضاً للأنعام من أنفسها أزواجاً .

[ينذروكم] أي يكثر كم يقال : ذرأ الله الخلق أي كثرهم . وقوله : [فيه] أي في هذا
التدبير في الخلقة من الزوجية توجب التكاثر والتناسل والضمير في «ينذروكم» يرجع إلى
المخاطبين غلب جانب العقلاء على غيرهم ولم يقل : ينذروكم به ، وقال : فيه ، كأنه جعل هذا
التدبير كالمعدن لهذا التكثير كما قال : «ولكم في القصص حياة»^(١) .

ثم قال : [ليس كمثله شيء] وهو السميع البصير [أي مثله شيء] والكاف زائدة مؤكدة
لمعنى النفي قال أوس بن حجر :

و قتلى كمثلى جذوع النخيل * ل يغشاهم سبل منهمر

وقيل : الكاف ليست بزائدة فالمعنى حينئذ أنه لو قدر لله تعالى مثل لم يكن لذلك
المثل مثل والصحيح هو الأول .

واحتج علماء التوحيد قديماً وحديثاً بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسماً مركباً
من الأجزاء والجوارح والأجزاء وحاصلاً في المكان والجهة فضلاً عن البراهين القاطعة عن
نفي جسميته وتحيته قالوا : لو كان تعالى جسماً لكان مثلاً لسائر الأجسام فيلزم حصول
الأمثال والأشباه له وذلك باطل بصريح قوله : «ليس كمثله شيء» والمراد بالمماثلة المساواة
في حقيقة الذات والمعنى أن شيئاً من الذوات لا يساوي الله في الذاتية ولا يماثله فلو كان الله
جسماً لكان كونه جسماً ذاتاً لصفة والأجسام متماثلة في كونها متخيزة مثلاً أو طويلة أو
عريضة وعميقة فحينئذ تكون سائر الأجسام مماثلة لذات الله في كونه ذاتاً والنص ينفي
ذلك فوجب بالنص أن لا يكون جسماً .

هذا تمام الكلام في نفي الجسمية عنه سمعاً رلو أن في صفاته أيضاً لا يماثله ولا

يساويه شيء قطعاً لكن لعل بعض الجبهة يناقشون في بعض الصفات بأن يقولوا : إن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما أن الله يوصف بذلك مثل أنه تعالى قال في هذه الآية : « وهو السميع البصير » وقال في حق الإنسان : « فجعلناه سمياً بصيراً » وأمثال ذلك لكن هذا قياس مع الفارق فالمثلية في الذات غير منقول وغير معقول بالكليّة لأن المثليين هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته و ماهيته .

والفرق بين المثل والمثل أن المثل هو الذي يكون مساوياً للشيء في تمام الماهية والمثل هو الذي يكون مساوياً له في بعض الصفات الخارجة عن الذات والماهية وإن كان مخالفاً في تمام الماهية واختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات البتة لأننا نرى الجسم الواحد كان ساكناً ثم يصير متحركاً ثم يسكن بعد ذلك فالذوات باقية في الأحوال كلها على نهج واحد ونسق واحد والصفات متعاقبة متزايلة فاختلفت الصفات والأعراض لا يوجب اختلاف الذوات وأن علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام في الذوات والحقيقة وعلى هذا ظهر أنه لو كان إله العالم جسماً لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام إلا أن هذا باطل بالعقل والنقل أما العقل فلا أن ذاته إذا كانت مساوية لذوات الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصح على سائر الأجسام من القبول للتفرق والتمزق والفناء والعدم ويلزم كونه محدثاً وأما النقل فقوله : « ليس كمثله شيء » .

ولما ثبت أن الأجسام متماثلة في تمام الماهية فلو كانت ذاته جسماً لكان ذلك الجسم متماثلاً ومساوياً لسائر الأجسام ويلزم أن يكون كل جسم مثلاً له لما يدعى أن المعتبر في حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هي لا اختلاف الصفات القائمة بها .
ثم ههنا بحث وهو أن ظاهر قوله : « ليس كمثله شيء » يقتضي إثبات المثل ويقتضي نفي المثل عن مثله لاعنه وذلك يوجب إثبات المثل له له تعالى .

والجواب أن العرب يقول : مثلك لا يبخل أي أنت لا تبخل ، فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عنه ويقال : لا يقال مثلي هكذا أي لا يقال لي هكذا ، أو المراد بهذه العبارة المبالغة لأنه إذا كان ذلك الحكم منتفياً عن من كان مشابهاً بسبب كونه مشابهاً له فلا أن يكون منتفياً عنه كان ذلك أولى فحينئذ فالمعنى ليس كـهو شيء على سبيل المبالغة بطريق الوجه المذكور و

لم يكن هذا اللفظ ساقطاً عديم الأثر بل أبلغ .
وفي الآية بيان آخر وهو أن يقال : إن المراد من الجمع بين حرفي التشبيه الدلالة على كونه منزهاً عن المثل لأنه لو كان له مثل مثل نفسه لكان مساوياً لمثله في تلك الماهية ومبانياً له في نفسه وما به المشاركة غير ما به المباينة فيكون ذات كل واحد منهما مركباً فلمّا حصل لواجب الوجود مثل حصل التركيب وانتفى الواجبية ، انتهى .
[و هو السميع البصير] سامعاً للمسموعات مبصراً للمرئيات ولكن رؤيته تعالى و سماعه لا يحصل بالقرع في الصماخ والتموج في الهواء وتأثر الحذقة بصورة المرئي لأن ذلك على الله محال .

قوله تعالى : [له مقاليد السماوات والأرض] أي مفاتيح أرزاق السماوات والأرض وأسبابها وموجباتها فتعطي السماء بأمره وتنبت الأرض بإذنه . وقيل : المعنى : له خزائن السماوات والأرض والمراد أن الأصنام التي تعبدونها ليست موصوفة بهذه الصفات [ببسط الرزق لمن يشاء ويقدر] أي يوسع ويقتر لمن يشاء على ما يعلمه من المصالح للعباد [إنه بكل شيء عليم] فيفعل ذلك على وجه الحكمة .

ثم خاطب سبحانه [شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً] أي بين لكم ونهج و أوضح من التوحيد والدين والبراءة من الشرك ما وصّى به نوحاً ، والخطاب إلى أمة محمد ﷺ أي شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصّى به نوحاً و محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى .

وإنما خص هؤلاء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة . والمراد من الدين الأخذ بالشرعية المتفق عليها بين الكل من التوحيد والمعاد والإلهيات غير التكاليف والأحكام المتعلقة بالأنبياء لأنها مختلفة متفاوتة كما قال سبحانه : [لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً^(١)] ، فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا يختلف باختلاف الشرائع [والذي أوحينا إليك] يا محمد [هو] ما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى .

ثم شرح ذلك بقوله : [أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه] والمراد من إقامة الدين التمسك به والعمل بموجبه والدوام عليه والدعوة به للخلق ولا تتفرقوا أي ائتلفوا فيه ولا تختلفوا وكونوا عباد الله إخواناً متفقين في الدين كما قال يوسف عليه السلام : «أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار»^(١) وقال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »^(٢) .

واحتج بعضهم بقوله : « شرع لكم » على أن النبي ﷺ في أول الأمر كان مبعوثاً بشريعة نوح والجواب ما بينناه .

قوله : [كبر على المشركين ما تدعوهم إليه] من توحيد الله والإخلاص له خاصة ورفض الأوثان لأنهم قالوا : «أجعل الآلهة إلهاً واحداً» فنقل هذا الأمر عليهم ولذلك عظم اختيارنا لك في النبوة وتخصيصك بالوحي من دونهم .

فبين سبحانه أنه ليس لهم الاختيار [الله يجتبي إليه من يشاء] لرسالته على حسب ما يعلم من قيامه بأعباء الرسالة واشتقاق لفظ الاجتباء يدل على الضم والجمع ومنه جبي الخراج وجبي الماء في الحوض فقوله : «الله يجتبي إليه» أي يضمه إليه ويقرب به منه تقريب الشرف والرحمة وهو كما روي في الخبر : من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن أتاني بمشي أتيته هرولة [ويهدي إليه من ينيب] أي من أقبل إلي بطاعته أقبلت إليه بهدايتي بأن أشرح له صدره ولما بين أنه سبحانه أم كل الأنبياء والأئم بالأخذ بالدين كان لقائل أن يقول : فما السبب أن نجد الأئم متفرقين ؟

فأجاب الله عنهم بقوله : [وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم] لأنهم فعلاً. واذك التفرق للبغي وطلب الرياسة فحملتهم الحمية النفسانية على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب ودعا الناس إليه فصار ذلك سبباً لوقوع الاختلاف .

ثم أخبر سبحانه أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل إلا أنه أخر عذابهم لأن لكل عذاب عنده أجل مسمى ووقتاً معلوماً فقال : [ولو لا كلمة سبقت من

(١) يوسف : ٣٩ .

(٢) يوسف : ١٠٩ . ويس : ٤٣ . والأنبياء : ٢٥ . والعج : ٥٢ . والزخرف : ٢٣ .

ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم] و الأجل المسمى قد يكون في الدنيا و قد يكون في القيامة .

واختلفوا في الذين أريدوا بهذه الصفة من هم؟ فقال الأكثرون : هم اليهود والنصارى والدليل عليه قوله في آل عمران : « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » وقال سبحانه أيضاً في سورة لم يكن : « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم البينة » وهو لائق بأهل الكتاب .

وقال آخرون : إنهم هم العرب وهذا القول باطل لأنه سبحانه بعده قال : [وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب] فهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ في شك من كتابك و كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان لأن كتابهم أنت منعت فيه .

[فلذلك فادع واستقم كما أمرت] أي فلاجل ذلك التفرق و لأجل ما حدث من الاختلاف الكثيرة فادع إلى الاتفاق على الملة الحنيفة واستقم عليها كما أمرك الله [ولا تتبع أهواءهم] الباطلة المختلفة .

[وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب] أي بأي كتاب صح أنه منزل من عنده لأن كلها يدل على وجوب الإيمان بالله [وأمرت لأعدل بينكم] في الحكم إذا تخاصمتم قال الفقهاء المروزي : معناه إن ربي أمرني أن لا أفرق بين نفسي و أنفسكم بأن آمركم بما لأعمله أو أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه وأسوي بينكم من الأكبر و الأصغر فيما يتعلق بحكم الله .

ثم قال : [الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لاجبة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير] أي إن إله الكل واحد وكل واحد مرهون بعمل نفسه فإن الله يجمع الكل في يوم القيامة ولا جدال ولا خصومة بيننا فقد ظهر الحق والباطل لأن أمركم قد ظهر فيه البغي والعداوة علينا ولستم تطلبون المعرفة بالدليل حتى يظهر المحق من المبطل فإذا عاند الإنسان في البغي والعداوة سقط الججاج بينه وبين أهل الحق .

واعلم أن هذه الآية قبل أن يؤمر ﷺ بقتالهم وكانت المتاركة محدودة إلى أن نزلت

آية السيف . وقيل : هذا البيان محاجرة في مواقف المجاورة لا متاركة في مواطن المحاربة حتى يصار إلى النسخ بآية القتال و ليس المراد تحريم المحاجة بل المراد أن المحاجة و إيمان الدليل ليس بنافع لكم لأن قوله : « ادع إلى سبيل ربك » و قوله : « وجادلهم بالتي هي أحسن ^(١) » و أمثال تلك الآيات دالة على وجود إقامة الدليل في الحق بل الغرض من قوله : « لا حجة بيننا و بينكم » أنكم عرفتكم بالحجة صدق قولي ولكنكم تركتم التصديق بغيّاً و عناداً .

قوله تعالى : و الذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجّتهم داحضة عند ربهم و عليهم غضب و لهم عذاب شديد (١٦) الله الذي أنزل الكتاب بالحق و الميزان و ما يدريك لعل الساعة قريب (١٧) يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها و الذين آمنوا مشفقون منها و يعلمون انها الحق ألا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد (١٨) الله لطيف بعباده يرزق من يشاء و هو القوى العزيز (١٩) من كان يريد حرث الآخرة نزدله في حرثه و من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها و ماله في الآخرة من نصيب (٢٠) .

لما تقدّم ظهور الحجة و انقطاع المحاجة لأنها من غير فائدة ذكر حال من بحاج بالباطل فقال :

[و الذين] الآية أي الذين يخاصمون رسول الله في إثبات دينه [من بعد ما] دخل الناس في الإسلام و أجابوه عليه السلام إلى مادّاهم إليه [حجّتهم داحضة] و باطلة حيث زعموا أن دينهم أفضل من الإسلام و ذلك أن اليهود قالوا : ألسنتم تقولون أن الأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف فنبوة موسى عليه السلام و حقيقة التوراة معلومة بالاتفاق و نبوة محمد عليه السلام ليست متفقة عليها فإذا كان الأخذ بالمتفق أولى فوجب أن يكون الأخذ باليهودية أولى فبيّن سبحانه أن هذه الحجة فاسدة و ذلك أن اليهود أطبقوا على أنه إنما وجب الإيمان بموسى لأجل ظهور المعجزات على وفق قوله و همنا أيضاً ظهرت المعجزات على وفق قول محمد عليه السلام و اليهود شاهدوا تلك المعجزات فإن كان المناط ظهور المعجزة و بدل

على الصدق فهنا أيضاً يجب الاعتراف بنبوته محمد وإن كان لا يدل على الصدق وجب في حق موسى أن لا يقرّوا بنبوته وأما الإقرار بنبوته موسى والإصرار على إنكار نبوة محمد مع استوائهما في ظهور المعجزة يكون متناقضاً.

وقيل : معنى الآية « والذين يحتاجون في الله » بنصرة مذهبهم « من بعد ما استجيب للنبي ﷺ دعاؤه في كفار بدر حتى قتلهم الله بأيدي المؤمنين واستجيب أيضاً دعاؤه على أهل مكة حتى قحطوا ، ودعاؤه للمستضعفين حتى خلصهم الله من أيدي قريش وغير ذلك مما يطول شرحه وتعداده ومن بعد ما استجيب لمحمد ﷺ دعاؤه في إظهار المعجزات وإقامتها .

[وعليهم غضب] أي غضب الله عليهم لأجل كفرهم [ولهم عذاب شديد] دائم يوم القيامة .

[الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان] أي أنزل القرآن بالحق والصدق فيما أخبر به من ماض ومستقبل وأمر ونهي وفرائض وأحكام كلكه حق من الله . والميزان عبارة عن العدل كني به عن العدل لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الحق . وقيل : أراد به الميزان المعروف وأنزله الله من السماء وعرفهم كيف يعملون به بالحق وكيف يزنون به وقيل : الميزان محمد يقضي بينهم بالقرآن ويكون المعنى على التوسّع والتشبيه .

ثم يخوفهم بعذاب القيامة فقال : [وما يدريك لعل الساعة قريب] أي متى تفاجئهم ؟ وإنهم لا يعلمون وقتها ، ومتى كان الأمر كذلك وجب على العاقل أن يتحرّز ضرر المظنون فضلاً عن المقطوع وما يعلمك يا محمد ولا غيرك لعل مجيء الساعة قريب ، وخفي وقت مجيئها على العباد ليكونوا على خوف وليبادروا على التوبة ولو عرفهم مجيئها لكانوا مغربين بالقبائح قبل ذلك تعويلاً على التلافي بالتوبة .

ولما كان الرسول ﷺ يهدّدهم بمجيء القيامة وأكثر القول في ذلك وأنهم مارأوا منه أثراً قالوا على سبيل السخرية : فمتى يقوم القيامة وليتها قامت حتى يظهر لنا أن الحق مانحن عليه أو الذي عليه محمد وأصحابه فقال سبحانه : [يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها] وإتسما يشفقون ويخافون لعلمهم أن عندها تمتنع التوبة

و أمّا منكر البعث فلا نته لا يحصل لهم هذا الخوف .

[ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد] فنبّه سبحانه الذين يدخلهم المريبة والشك في وقوع الساعة ويمارون فيها ويجحدون في نهاية من الضلالة لأنّ استيفاء حق المظلوم من الظالم أمر واجب في العدل فلولم يحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله و هذا من المحالات فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالاً بعيداً .

ثم قال : [الله لطيف بعباده] أي كثير الإحسان بهم لأنّه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على ما ينفعهم وما يضرهم فكان ذلك لطفاً لهم . وقيل : المراد من اللطيف العالم بخفيات الأمور . والمراد ههنا الموصل إلى العباد المنافع على وجه يدق إدراكه وذلك في الأرزاق التي قسمها لعباده وصرف الآفات عنهم وإيصال الملاذ إليهم .

ثم قال : [يرزق من يشاء] أي يوسع الرزق على من يشاء ويجعله في خفض ودعة ومن يشاء في كد ومشقة وكل من رزقه الله من ذي روح فهو ممن شاء الله أن يرزقه [وهو القوي] أي القادر الذي لا يعجز [العزيز] الغالب الذي لا يغالب .

قوله تعالى : [من كان يريد حرث الآخرة نزذله في حرثه] ولما بين أنّه تعالى كثير الإحسان بعباده أمرهم بالكسب والسعي في طلب الخيرات وفي الاحتراز عن القبائح فقال : « من كان يريد » كسب الآخرة نضاعف له ثواب عمله ونعطيه على الواحد عشرة و نزيد على ذلك ما نشاء ويسمى الكسب وما يعمله العامل من أمور يطلب بها الفائدة حرثاً على سبيل المجاز .

[ومن كان يريد حرث الدنيا نؤثمه منها وماله في الآخرة من نصيب] أي ومن كان يعمل عملاً يكون قصده فائدة في الدنيا ونفع منها نعطيه نصيباً من الدنيا لاجتماع ما يريد به بل على حسب ما يقتضيه الحكمة وليس له في الآخرة نصيب وحظ . وقيل : معناه من قصد بالجهاد وجه الله فله سهم الغانمين والثواب في الآخرة ومن قصد به الغنيمة لم يحرم ذلك وحصل له سهم الغنيمة ولكن ليس له نصيب من الثواب في الآخرة .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في معنى قوله : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء » قال : ولاية أمير المؤمنين ، وقوله : « من كان يريد حرث الآخرة » قال : معرفة أمير المؤمنين

والأئمة و « نردله في حرثه » أي نزيده منها و نستوفي نصيبه من دولتهم « ومن كان يريد حرث الدنيا نؤمته منها وماله في الآخرة من نصيب » قال عليه السلام : ليس له في دولة الحق مع الإمام نصيب وله النار .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : من كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره وجعل الفقر بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ومن كانت نيته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة وقيل : من كان يعمل للآخرة نال الدنيا والآخرة ومن عمل للدنيا فلا حظ له من ثواب الآخرة لأن الأعلى لا يجعل تبعاً للأدنى .

وكلمة « من » في الآية للتبعية تدل على أن من طلب كسب الدنيا لا يعطى إلا الشيء القليل، وكذلك الآية مشعرة بأن منافع الآخرة والدنيا ليست حاضرة بل لا بد في البابين من الحرث والحرث لا يتأتى إلا بتحمل المشاق في البذر ثم التسقية وإصلاح الأرض والتمية ثم الحصد ثم التنقية فلما سمى الله كلا القسمين حرثاً علمنا أن كل واحد منهما لا يحصل إلا بتحمل المتاعب والمشاق .

قوله تعالى : أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وإن الظالمين لهم عذاب اليم (٢١) ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير (٢٢) ذلك الذي يشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزدله فيها حسناً الله غفور شكور (٢٣) أم يقولون افتري على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور (٢٤) وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون (٢٥) .

ولما بين سبحانه القانون الأعظم والقسطاس الأقوم في أعمال الآخرة والدنيا أورد في هذه الآية على ما هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة فقال :

[أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله] الاستفهام للتقريع أي بل لهم شركاء من الشياطين شرعوا لهم بالتسويل من الدين ما لم يأذن به الله كالشرك وإنكار

البعث وشركاؤهم شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك والعمل للدنيا، وقيل : الشركاء أو ثنائهم وإنما أضيف إليهم لأنهم هم الذين اتخذوها شركاء لله ولما كانت سبباً لضلالتهم جعلت شارعة لدين الضلالة كما قال إبراهيم عليه السلام : « رب إنهن أضللن كثيراً من الناس »^(١) ، والمراد من قوله : « شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » يعني أن تلك الشرائع بأسرها على ضد دين الله .

ثم قال سبحانه : [ولولا كلمة الفصل] أي القضاء السابق بتأخير الجزاء ، أو ولولا الوعد بأن الفصل يكون يوم القيامة [لقضي بينهم] بين الكافرين والمؤمنين في الدنيا وحاصل المعنى أنه لولا حكم الله بتأخير العذاب لهذه الأمة إلى الآخرة لعذب بهم [وإن الظالمين] الذين يكذبونك في الدنيا [لهم] في الآخرة [عذاب أليم] .

ثم ذكر سبحانه أحوال أهل العقاب وأهل الثواب أمّا الأول فهو قوله : [ترى الظالمين مشفقين] خائفين [مما كسبوا وهو واقع بهم] من المعاصي وهو العقاب الواقع بهم لا محالة ولا ينفعهم خوفهم والإشفاق الخوف من جهة الرقة على المخوف عليه من وقوع الأمر يريد سبحانه أن وباله واقع بهم سواء أشفقوا أو لم يشفقوا وأمّا الجزء الثاني فهو أحوال أهل الثواب .

[والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنّات] لأن روضات الجنة أطيب بقعة فيها ، قال الرازي في المفاتيح في الآية تنبيه على أن الفساق من أهل الصلاة كلهم في الجنة إلا أنه خصّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات في البقاع الشريفة من الجنة فلا مكنة التي دون الروضات لابد وأن تكون مخصصة بمن كان دون أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

ثم قال : [لهم ما يشاءون عند ربهم] وهذا يدل على أن كل الأشياء حاضرة مهيأة لهم ثم عظم هذه الدرجة وقال [ذلك هو الفضل الكبير] والأشاعر استدلوا بهذه الآية على أن الثواب غير واجب على الله وإنما يحصل بطريق الفضل من الله قالوا : وهذا تصريح بأن الجزاء المرتب على العمل إنما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق .

ثم أعاد البشارة^(١) فقال : [ذلك الذي يبشّر الله عباده] أي ذلك الثواب والفضل الكبير الذي يبشّر الله به عباده المؤمنين العاملين بالأعمال الصالحة ليستعجلوا بذلك السرور في الدنيا وكيف لا يكون ذلك الثواب فضلاً كبيراً إذ نالوا نعيماً لا ينقطع بعمل قليل منقطع ؟

قوله تعالى : يا محمد [قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى] روي أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض : أترون أن نحمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً فنزلت الآية أي لا أطلب منكم على ما أنا عليه من التبليغ نفعاً وأجراً إلا المودة في القربى . وقيل : الاستثناء منقطع أي لا أطلب الأجر لكن أسألكم المودة .
واختلف في معناه على أقوال :

أحدها : لا أسألكم على التبليغ وتبليغ الشريعة أجراً إلا التوادد والتحاب فيما يقرب إلى الله من العمل الصالح عن الحسن والجبائي وأبي مسلم قالوا : المراد هو التقرب إلى الله والتودد إليه بالطاعة .

وثانيها : أن معناه إلا أن تودوني في قرابتي منكم وتحفظوني لها ، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وجماعة ، قال الشعبي : سألنا ابن عباس عن الآية قال : إن رسول الله ﷺ كان واسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولّده ، فقال الله : قل لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً إلا أن تودوني لقرابتي منكم فيصير المعنى : إنكم قومي وأحق من إجابتي وإطاعتي فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق النسب ولا تؤذوني ولا تهيجوا علي .

القول الثالث : روى الكلبي عن ابن عباس قال : إن النبي ﷺ لما قدم المدينة كانت تعرفه نواب وحقوق وليس في يده سعة فقال الأنصار : إن هذا الرجل ﷺ

(١) بل البشارة إنما هي باعتبار ما بعدها من أجر الرسالة ولذلك قال في أول السورة الآية وما بعدها إلى أربع آيات نزلت بالمدينة فالبشارة للمؤمنين المصاحبين لاجل أنه لم يسأل على أداء رسالته أجراً بل ألزمهم المودة في القربى فقط وهي عبادة وحسنة وأما ما قيل من أن المراد من القربى قرابته من قريش فهذا غلط فإن المخاطبين بذلك القول المسلمون وهم يحبونه صلى الله عليه وسلم لقيام الرسالة والهداية لا لقرابة النسب والنسب في جنب الرسالة والهداية شيء لا يعبأ به مع أن محبة المسلمين له صلى الله عليه وآله أمر ثابت لا يحتاج إلى أي تشويق .

قد هداكم الله على يده وهو ابن اُخْتَكَمَ وجاركم في بلدكم فأجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوه ثم أتوه به فردّه عليهم فنزل قوله تعالى : « قل لا أسألكم . الآية » أي إني على الإيمان لست أطلب منكم أجراً إلا أن تودوا أقاربي وحشهم على مودة أقاربه .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام ما يقرب هذا المعنى قال عليه السلام : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من حجة الوداع وقدم المدينة أتمته الأنصار فقالوا : يا رسول الله إن الله عز وجل قد أحسن إلينا وشرّفنا بك وبنزولك بين ظهرانيّنا فقد فرّح الله صديقنا ونكّب عدونا وقد يأتيك وفود فلا تجد ما تعطيه فيشمت بك العدو فنحب أن تأخذ ثلث أموالنا حتّى إذا قدم عليك وفد مكّة وجدت ما تعطيه فلم يرد رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً وكان صلى الله عليه وآله ينتظر ما يأتيه من ربه فنزل عليه جبرئيل ونزلت الآية ولم يقبل أموالهم فقال المنافقون : ما أنزل الله هذا على محمد وما يريد إلا أن يرفع ابن عمه ويحمل علينا أهل بيته يقول أمس من كنت مولاه فعليّ مولاه ، واليوم ^(١) « قل لا أسألكم » الآية ، ولما قال المنافقون هذا الكلام وهو إنكارهم أن هذه الآية نزلت من الله ، نزلت « أم يقولون افتري على الله كذباً » ^(٢) فأرسل الله إليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتدّ عليهم فنزلت « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده » الآية .

وعنه عليه السلام عن آبائه عليه السلام : لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله قام رسول الله فقال : إن الله تعالى قد فرض لي عليكم فرضاً فهل أنتم مؤدّوه ؟ قال : فلم يجبه أحد منهم فانصرف فلما كان من الغد قام فقال مثل ذلك فلم يجبه أحد ، وكذلك في الثالث فلم يتكلّم أحد فقال : أيّها الناس إنّه ليس من ذهب ولا فضة ولا مطعم ولا مشرب ، قالوا : فألقه إذن ، قال : إن الله تبارك وتعالى أنزل عليّ « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » فقالوا : أمّا هذه فنعم قال الصادق عليه السلام : فوالله ما وفي بها إلا سبعة نفر سلمان و أبوذر وعمرار والمقداد بن الأسود الكندي وجابر بن عبد الله الأنصاري ومولى لرسول الله يقال له الثبيت وزيد بن أرقم .

وفي العيون عن الرضا عليه السلام ما يقرب من هذا الحديث .

(١) وذلك لانه صلى الله عليه وآله قد قال ذلك القول مراراً قبل يوم الندير .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام أنه قال : ما يقول أهل البصرة في هذه الآية ؟ قيل : إنهم يقولون إنها لا قارب رسول الله قال : كذبوا إنما نزلت فينا خاصة في أهل البيت في علي وفاطمة والحسن والحسين أصحاب الكساء عليه السلام .

وفي كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفضيل مرفوعاً إلى أبي أمامة الباهلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الله خلق الأنبياء من أشجار شتى و خلقت أنا وعلي من شجرة واحدة فأنا أصلها وعلي فرعها وفاطمة لقاحها والحسن والحسين ثمارها وأشياعنا أوراقها فمن تعلق بغصن من أغصانها نجي ومن زاع عنها هوى ولو أن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام ثم ألف عام ثم ألف عام حتى يصير كالشن البالي ثم لم يدرك محبتنا أكبه الله على منخريره في النار ثم تلا هذه الآية .

وروى زاذان عن علي عليه السلام قال : فينا في آل حم آية لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن ثم قرأ هذه الآية وإلى هذا أشار الكميت في شعره حيث يقول :

وجدنا لكم في آل حم آية * تأولها مناتقي و معرب

وبالجملة فإن قيل : إن طلب الأجرة على تبليغ الوحي والرسالة لا يجوز لأنه كان واجباً عليه عليه السلام وطلب الأجرة على الأمر الواجب غير جائز كما قال نوح عليه السلام : «وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين» على أن طلب الأجر كان يوجب التهمة وذلك ينافي القطع بصحة النبوة وظاهر الآية أنه جعل المودة في القربى أجر التبليغ .

فالجواب من وجهين : الأول أن الاستثناء منقطع فحينئذ «إلا» بمعنى بل والثاني أن الاستثناء متصل لكنه لما كانت المودة في القربى أمر واجب في الإسلام فلا يكون أجراً للنبوة والتبليغ وهو من باب قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بها من قراع الدارعين فلول (١)

فيصير المعنى في الآية أنا لا أطلب منكم إلا هذا ، وهذا في الحقيقة ليس أجراً لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى : «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء

(١) كذا في التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازي من غير نسبة الى النابغة والمشهور الصحيح في قول النابغة : بهن فلول من قراع الكتاب .

بعض^(١) ، وقال ﷺ : المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً فإذا كان حصول المودة بين المسلمين واجباً فحصولها في حق أشرف المسلمين وأكابرهم أولى فحينئذ المودة في القربى ليست أجراً فرجع الحاصل إلى أنه لا أجر .

ونقل صاحب الكشف عن النبي ﷺ أنه قال : من مات على حب آل محمد ﷺ بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة .

قال الرازي : الآل هم الذين يؤول أمرهم إليه و معلوم أن كل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانواهم الآل ولا شك أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله أشد التعلقات وهذا هو المعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونواهم الآل ، وأيضاً اختلف الناس في الآل فقيل : هم الأقارب وقيل : هم أمته فإن حملناه على القرابة فهم الآل وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل فثبت أن على جميع التقادير هؤلاءهم الآل وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه ، انتهى كلام الرازي .

وروى صاحب الكشف أنه لما نزلت هذه الآية قيل : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم فقال ﷺ : علي و فاطمة وابناهما فثبت بهذا أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي وهم مخصوصون بمزيد التعظيم وقال ﷺ : فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها . وثبت بالنقل المتواتر عن النبي ﷺ أنه كان يحب علياً وفاطمة والحسن والحسين ولما ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله : «واتبعوه لعلمكم تهتدون»^(٢) ،

(١) المائدة : ٥٤ .

(٢) البقرة : ٥٣ و ١٥٠ .

ولقوله سبحانه : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » و الدعاء منصب عظيم و فريضة
ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله : اللهم صل على محمد و آل
محمد وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير آل فثبت أن حب آل محمد واجب قال الشافعي :
يارا كبا فف بالمحصب من منى * واهتف بساكن خيفها و الناهض
سحراً ، إذا فاض الحجيج إلى منى * فيضاً كما نظم الفرات الفاض
إن كان رفضاً حب آل محمد * فليشهد الثقلان أني رافضي
وبالجملة فإن قيل : لم قال : « إلا المودة في القربى » ولم يقل : « إلا المودة للقريب » ؟
لأن المعنى أنهم جعلوا مكان محبة الأمة ومحلها .

قوله تعالى : [ومن يقترب حسنة تزدله فيها حسناً] أي من فعل طاعة تزدله في
تلك الطاعة حسناً بأن نوجب له الثواب وذكر أبو حمزة الثماللي عن السدي أنه قال :
إن إقرار الحسن المودة لآل محمد . وصح عن الحسن بن علي أبي طالب عليه السلام أنه خطب
الناس يوماً وقال في خطبته : أنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم
فقال : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترب حسنة تزدله فيها حسناً »
فاقرار الحسن مودتنا أهل البيت وروى إسماعيل بن عبد الخالق عن الصادق عليه السلام أنه
قال : إنها نزلت فينا أهل البيت أصحاب الكساء .

[إن الله غفور] للسيئات [شكور] للطاعات يعامل عباده معاملة الشاكر في توفية
الحق كأنه تَمَن وصل إليه النفع فشكره .

قوله : [أم يقولون افتري على الله كذباً] أي بل يقولون افتري محمد على الله كذباً
في ادعائه الرسالة عن الله أو إثبات المودة للقريب ، فرية افتري محمد على الله فنزلت
« أم يقولون افتري » الآية ، قال صاحب الكشاف : « أم » منقطعة ومعنى الاستفهام فيه
التوبيخ كأنه قيل : أيجري في أسنتهم أن نسبوا مثله إلى الافتراء على الله ، والفرية أفبح
أنواع الكذب وأفحشها .

[فإن يشأ يختم على قلبك] المعنى استشهد على بطلان ما نسبوا إليه من الافتراء
أي كأنه قيل : لو كان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك وإن يشأ ذلك يختم على
قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنى من معاني القرآن ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث

لم يكن الأمر كذلك بل تواتر الوحي حيناً بعد حين تبين أنه من عند الله تعالى . وقيل : المعنى : فإن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم وأباطيلهم من قبيل : إنه ساحر ومفتن .

ثم أخبر سبحانه أنه يذهب ما يقولونه باطلاً فقال : [ويمح الله الباطل] أي يزيله ويرفعه باقاة الدلائل على بطلانه وحذف الواو من يمحو في المصاحف كما حذف من قوله : « سندع الزبانية » على اللفظ في ذهابها دون المعنى لالتقاء الساكنين وليس بعطف على قوله : « يهتتم » لأنه مرفوع يدل عليه قوله [ويحق الحق بكلماته] أي و يثبت الحق بأقواله التي ينزلها على نبيّه وهو هذا القرآن المعجز . وقيل : المراد من الكلمات الأئمة والقائم من آل محمد [إنه عليهم بذات الصدور] و بضمائر القلوب .

[وهو الذي يقبل التوبة عن عباده] وقد ذكرت قبيل هذا شأن نزول الآية أي إن الله يقبل التوبة عنهم وإن جلت معاصيهم لأنهم نسبوا الافتراء إلى محمد ﷺ ومع ذلك قبلت توبتهم وإن جلت معاصيهم [ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون] من خير و شر فيجازيهم على ذلك .

قوله تعالى : ويستجيب الذين آمنوا وعلموا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد (٢٦) ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء أنه بعباده خير بصير (٢٧) وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد (٢٨) و من آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير (٢٩) وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير (٣٠) .

ولما تقدم في الآيات السابقة وعيد أهل العصيان وأرجاهم بقبول التوبة ولو كانت معاصيهم عظيمة وبيان التوبة قد سبق في سورة البقرة ولا يحتاج إلى التكرار وأقل ما لا بد فيه الندم على الماضي والترك في الحال والعزم الراسخ على عدم العود في المستقبل كما يفصح عن هذا المعنى حديث رواه جابر عن أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له أمير المؤمنين

عليه السلام : يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين فتوبتك يحتاج إلى توبة فقال : يا أمير المؤمنين وما التوبة ؟ فقال عليه السلام : التوبة اسم يقع على ستة أشياء : على الماضي من الذنوب : الندامة ، ولتضييع الفرائض : الإعادة ، ورد المظالم ، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية ، وإذابة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلالة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته .

ومسألة التوبة بين الأشاعرة والمعتزلة في أن قبولها على الله من باب التفضل أو الوجوب خلافية قالت المعتزلة : يجب على الله عقلاً وقالت الأشاعرة : لا يجب على الله شيء وكلما يفعله بالكرم والتفضل .

واحتجّت الأشاعرة على صحة قولهم بقوله : « وهو الذي يقبل التوبة » وقالوا : إنه تعالى يمدح بقبول التوبة ولو كان ذلك القبول واجباً لما حصل التمدح العظيم ألا ترى أن من مدح نفسه بأن لا يضرب الناس ظملاً ولا يقتلهم غضباً كان ذلك مدحاً قليلاً أمّا إذا قال : إنني أحسن إليهم مع أن ذلك لا يجب عليّ كان ذلك مدحاً وثناء .

وبالجملة فقوله تعالى : [ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات] معناه يجيبهم إلى ما يسألونه وقيل : ويجيبهم الله في دعاء بعضهم لبعض عن معاذين جبل وقيل : المعنى إن الله يقبل طاعتهم وعبادتهم ويزيدهم من فضله على ما يستحقونه من الثواب وقيل : معنى « ويستجيب الذين آمنوا » أن يشفعهم في إخوانهم .

[ويزيدهم من فضله] أي ويشفعهم في إخوانهم عن ابن عباس روي عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله : في قوله : « ويزيدهم من فضله » الشفاعة لمن وجبت له النار ممن أحسن إليهم في الدنيا وقيل : إن قوله : « الذين آمنوا » رفع على أنه فاعل تقديره ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم الله إليه لكن الباقي قالوا : إن محله النصب والفاعل مضمّر وهو الله وتقديره ويستجيب الله للمؤمنين إلا أنه حذف اللام كما حذف في قوله : « وإذا كالوهم » وهذا القول مطابق للمعاني المذكورة وأوجه لأن الخبر فيما قبل وبعد عن الله لأن ما قبل الآية قوله : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » وما بعدها قوله : « ويزيدهم من فضله » فيزيد عطف على « ويستجيب » .

فلو قيل : إنَّه تعالى قد يستجيب دعاء الكافر فما فائدة التخصيص للمؤمنين ؟
فالجواب إنَّ اجابة دعاء المؤمنين وذكر التخصيص على سبيل التشريف لكن اجابة
دعاء الكافر في الدنيا دون الآخرة وهي على سبيل الاستدراج بل [و الكافرون لهم عذاب
شديد] .

ولمَّا بيَّن أنَّه يزيد المؤمنين من فضله أخبر أنَّ توسعة الأرزاق و تغييرها تكون
على حسب المصالح فقال : [ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض] أي لو وسع الرزق على
حسب ما يطلبونه لبطروا وتغالبا وظلموا في الأرض وخرجوا عن الاستقامة في دنياهم وتغلب
بعضهم على بعض قال ابن عباس : بغيهم في الأرض طلبهم منزلة بعد منزلة ودابة بعد دابة
وملبساً بعد ملبس ولا يقفون على حدٍّ وهذه الآية كأنَّها جواب عن قوله : « ويستجيب »
وهو أنَّ المؤمن قد يكون في شدة ومحنة وفقر ثم يدعو فلا يجاب ولا يشاهد أثر الإجابة
فأجاب سبحانه « ولو بسط الله الرزق » .

قال بطل الاعتزال الجبائي : إنَّ هذه الآية تدلُّ على بطلان قول المجبِّرة من

وجهين :

الاول : أنَّ حاصل الكلام أنَّه تعالى لو بسط الرزق لعباده لبغوا في الأرض
فالبغي في الأرض غير مراد فبسط الرزق لهذه الجهة غير حاصل وهذا الكلام يصحُّ ويتمُّ
إذا قلنا إنَّه لا يريد البغي في الأرض فثبت فساد قول المجبِّرة .

الثاني أنَّه تعالى بيَّن أنَّه إنما لم يرد بسط الرزق لأنَّه يفضي إلى المفسدة
فلمَّا بيَّن أنَّه لا يريد ما يفضي إلى المفسدة فبأن لا يكون مريداً للمفسدة أولى وبالجملة
فالعقل يحكم بحصول البغي في بسط الرزق وأقلُّ ما فيه خراب العالم في انتظامه لأنَّه
لو بسط الرزق وسوى في الرزق بين الكل لا تمتنع كون البعض خادماً للبعض ولو صار الأمر
كذلك لتعطلت المصالح وانفصمت الأمور بالكليَّة .

ثمَّ إنَّ النفوس إذا كانت شريرة فاقدة الآلات والأدوات كان الشرُّ يصدر منه قليلاً
كما أنَّ العرب كانت كلَّما اتسع أرزاقهم ووجدوا من ماء المطر ما يرويههم ومن الكلاء و
العشب ما يشبعهم أقدموا على الغارات والنهب والإفساد متكبِّرين بالطبع فإذا وجد الغنى

والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر والتطاول وإذا وقع في الشدة عاد إلى الطاعة والتواضع .

[ولكن ينزل بقدر ما يشاء] أي ينزل من الرزق قدر صلاحهم ما يشاء نظراً منه تعالى لهم بالرافة و يؤيده الحديث الذي رواه أنس عن النبي ﷺ عن جبرئيل عن الله تعالى: إن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم ولو صححته لأفسده وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده وذلك أني أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم والحديث طويل .

فلو قيل : إننا نرى كثيراً ممن يوسع عليه الرزق يبغي في الأرض . قلنا : إننا إذا علمنا على الجملة أنه سبحانه يدبر أموره عباده بحسب ما يعلم مصالحهم يمكن أن هؤلاء يستوي حالهم في البغي وسع عليهم أو لم يوسع عليهم ولو لم يوسع عليهم لكانوا أسوأ حالاً في البغي فلذلك وسع عليهم .

[إنه بعباده خير بصير] عليم بأحوالهم بصير بما يصلحهم وما يفسدهم . قوله : [وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا] ولما بين أنه تعالى لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنه علم أن تلك الزيادة تضرهم في دينهم بين أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق فإنه لا يمنهم منه فقال : « وهو الذي » الآية ، وإنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر أي ينزله عليهم من بعد ما يتسوا من نزوله والغيث ما كان نافعاً في وقته والمطر قد يكون ضاراً في وقته وغير وقته ووجه إنزال بعد القنوط لأنه أدعى إلى المعرفة بموقع إحسانه .

[وينشر رحمته] ويفرق نعمته ويبسطها بإخراج النبات والثمار التي يكون سببها المطر [وهو الولي] الذي يتولى تدبير عباده وتقدير أموره المالك لهم [الحميد] المحمود على جميع أفعاله .

[ومن آياته] الدالة على وحدانيته وصفاته التي باين بها خلقه [خلق السماوات والأرض] لأنه لا يقدر على ذلك غيره لما فيهما من العجائب [وما بث فيهما من دابة]

والدابة ما تدب فيدخل فيه جميع الحيوانات وقوله : « من دابة » أي من حي وذي حيات فيصح إطلاق على الملائكة ويمكن أن يكون للملائكة مشي مع الطيران وقد روي أن النبي ﷺ قال : فوق السماء السابعة بحرين أسفله وأعلام كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبتين وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش العظيم .

[وهو على جمعهم إذا يشاء قدير] أي إنه تعالى على حشرهم إلى الموقف بعد إمامتهم قادر لا يتعذر عليه ذلك وكلمة « إذا » عند كونها بمعنى الوقت تدخل على المستقبل كما تدخل على الماضي مثل « والليل إذا يغشى » .

واحتج الجبائي بقوله تعالى : « إذا يشاء قدير » على أن مشيته محدثة بأن قال إن كلمة « إذ » تفيد ظرف الزمان وكلمة « يشاء » صيغة المستقبل فلو كانت مشيته قديمة لم يكن تخصيصها بذلك الوقت المعين من المستقبل فائدة ولما دل قوله : « إذا يشاء قدير » على هذا التخصيص علمنا أن مشيته محدثة قال أبو السعود : قوله : « إذا يشاء » متعلق بما قبله لا بقوله « قدير » .

ثم قال سبحانه : [وما أصابكم] معاشر الخلق [من مصيبة] من بلوى في نفس أو مال [فبما كسبت أيديكم] من المعاصي [ويعفو عن كثير] منها فلا يعاقب بها قال أهل التحقيق : الآية مخصوصة بالمجرمين وإن خرج مخرج العموم لأن الأطفال والمجانين ومن لا ذنب له من المؤمنين قد يصابون بمصائب شديدة مع أنه لا ذنب لهم وإن الأنباء والأئمة بمتحنون بالمصائب وليس ذلك لأجل الذنوب بل لأسباب أخر منها تعريض للثواب العظيم والدرجات العالية .

وروي عن علي عليه السلام أنه قال : قال رسول الله ﷺ : يا علي خير آية في كتاب الله هذه الآية : ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلا بذنب وما عفا الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثنى على عبده .

قوله تعالى : وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير (٣١) ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام (٣٢) ان يشأ يسكن

الرياح فيظللن رواكد على ظهره ان في ذلك لايات لكل صبار شكور (٣٣)
أويوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير (٣٤) ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما
لهم من محيص (٣٥) .

قال الواحدي في البسيط : إن قوله تعالى في الآية السابقة : « وما أصابكم من
مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » أرجى آية في كتاب الله للمؤمنين المذنبين
لأن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين صنف كفر عنهم بالمصائب في الدنيا ، وصنف عفي
عنه في الدنيا وهو كريم لا يرجع عن عفوه وهذه سنته مع المؤمنين .

وأما الكافر فلا تله لا يعجل عليه عقوبة ذنوبه حتى يوافي يوم القيامة فقال : [فما
أنتم بمعجزين في الأرض] أي يا معاشر الكفار أنتم لا تعجزونني حيث ما كنتم ولا تسبقونني
بسبب هربكم في الأرض [وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير] قال الرازي : والمراد
بهم من يعبد الأصنام وبيّن أنه لا فائدة فيها البتة والنصير هو الله فلا جرم هو الذي
تحسن عبادته .

قوله : [ومن آياته الجوار] قرئ الجواري بالياء في الوقف والوصل وقرئ
بإثبات الياء في الوصل والحذف ، وإن كانت لاماً قد كثر في كلامهم وذكر من آياته السفن
الجواري (فحذف الموصوف لعدم الالتباس) وهي تجري على وجه البحر عند هبوب
الرياح .

والغرض من الآية الاستدلال على وجود القادر ، والمعرفة بأن هذه النعم العظيمة
من الله للعباد والمراد من « الأعلام » الجبال ؛ قالت الخنساء ترثي أخاها :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به * كأنه علم في رأسه نار

ونقل أن النبي ﷺ استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوي إلى هذا البيت
قال ﷺ : قاتلها الله ^(١) ما رضية بتشبيهها له بالجبل حتى جعلت على رأسه ناراً .

والحاصل أن هذه السفن التي كالجبال تجري على وجه البحر عند الهبوب على
أسرع الوجوه وعند سكون الرياح تقف ومحرك الرياح ومسكنها هو الله إذ لا يقدر أحد

(١) ليس ذلك دعاء عليها فإن الخنساء اسمت واستشهداها أربعة بنين في القارسية ، بل استعجاب
واستعسان .

على تحريكها من البشر ولاعلى تسكينها ، و ذلك يدل على وجود الإله القادر و إن الله تعالى خص كل جانب من الأرض بنوع من الأمتعة وبهذه الآلة يحصل المنافع العظيمة للناس وهذا الإنسان الذي كان في مبدء أمره لا يميز التبر من التبن جعله ذا قوة عاقلة بحيث يصدر منه هذه الصناعة وأمثالها وليس ذلك إلا بحكمته الوافية .

[إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور] أي في ذلك الذي ذكر من الدلائل والآيات دالة لكل صبار على بلاء الله شكور على آلائه ، و المقصود أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلاً على التقديرين .

ثم قال : [أو يوبقهن بما كسبن و يعف عن كثير] المعنى إن يشأ إسكان الريح يسكن أو إن يشأ يجعل الريح عاصفة يهلك أهل السفن بالغرق عقوبة لهم بما كسبن من المعاصي و يعف عن كثير من أهلها فلا يغرقهم ولا يعاجلهم بالعقوبة . وقوله : « أو يوبقهن » عطف على قوله : « يسكن » أي إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو منهم ومن قرأ « ويعفو » بالواو فقد استأنف الكلام .

ثم قال : [ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص] قرىء يعلم بالرفع على الاستئناف و بالنصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره : لينتقم منهم و يعلم الذين يجادلون في آياتنا والعطف على التعليل المحذوف كثير في القرآن مثل قوله : « خلق السماوات والأرض بالحق » و لتجزى كل نفس بما كسبت أي ليعلم الذين يجادلون في إبطال آياتنا ما لهم ملجأ يلجئون إليه . و قرىء بالجزم عطفاً على يعف والمعنى : وإن يشأ يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير قوم .

قوله تعالى : فما أو تيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٣٦) والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون (٣٧) والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلوة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون (٣٨) والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون (٣٩) وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله أنه لا يجب الظالمين (٤٠) .

ثم خاطب سبحانه من تقدم وصفهم فقال :

[وما أوتيتم من شيء] مما يرغبون و يتنافسون فيه فهو متاع تتمتعون به مدة حياتكم ثم تموتون فيبقى عنكم أو يهلك المال قبل موتكم [وما عند الله] من ثواب الآخرة [خير] ذاتاً [وأبقى] زماناً حيث لا يزول كهذه المنافع الفانية [الذين آمنوا] وصدقوا بتوحيد الله وبما يجب التصديق به [وعلى ربهم يتوكلون] وهم متوكلون ومفوضون أمرهم إلى الله والتوكل على الله تفويض الأمور إليه بأنّها جارية من قبله على أحسن التدبير .

وهذه الخيرية المذكورة في الآية بقوله : « وما عند الله خير » لا تحصل إلا

بشرائط :

الاول : أن يكون العبد من المؤمنين لقوله « للذين آمنوا » .

الثاني : أن يكون من المتوكلين على فضل الله لقوله : « وعلى ربهم يتوكلون » .

الثالث : أن يكون مجتنباً لكبائر الإثم والفواحش ، عن ابن عباس : كبير الإثم هو الشرك وقيل : المراد بكبائر الإثم ما يتعلق بالبدع واستخراج الشهات وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوية و بقوله : [وإذا ما غضبوا هم يغفرون] ما يتعلق بالقوة الغضبية .

الرابع : [والذين استجابوا لربهم] والمراد تمام الانقياد والرضا بقضاء الله من صميم القلب وأن لا يكون في قلبه معارضة ومنازعة في أمر من الأمور ويجيبون ما أمر الله إبتاهم .

[وأقاموا الصلاة] وأداموا عليها في أوقاتها وشرائطها [وأمرهم شورى بينهم] أي إذا وقعت بينهم واقعة تشاوروا ولا يتفرّدوا برأي والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ومعنى قوله : « وأمرهم شورى » أي ذو شورى وهي المفاوضة في الكلام ليظهر الحق وقيل : المعنى والمقصود بالآية : الأ نصار كانوا إذا أرادوا أمراً تشاوروا قبل الإسلام وكان ذلك قبل قدوم النبي ﷺ اجتمعوا وتشاوروا ثم عملوا عليه فأثنى الله عليهم بذلك . وقيل : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور النبي ﷺ وورود النباء حتى اجتمعوا في دار أبي أيوب على الإيمان

به ﷺ والنصرة له وقد روي أنه قال : ما من رجل يشاور أحداً إلا هدي إلى الرشـد [ومما رزقناهم ينفقون] في طاعة الله وسبيل الخير .

الخامس : [والذين إذا أصابهم البغي] من غيرهم [هم ينتصرون] ممن بغى عليهم من غير أن يعتدوا أي يقتصرون في الانتصار على ما يجعله الله لهم ولا يتعدونه .
وقيل : ينتصرون أي يتناصرون وينصر بعضهم بعضاً نحو يختصمون ويتخاصمون .
وقيل : المعنى في الآية المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة وبغوا عليهم ثم مكَّنهم الله في الأرض حتى انتصروا من ظلمهم .

و قيل : جعل الله المؤمنين صنفين صنفاً يعفون ممن ظلمهم وهم الذين ذكروا قبل هذه الآية وهو قوله : « إذا ما غضبوا هم يغفرون » وصنفاً ينتصرون ممن ظلمهم وهم الذين ذكروا في هذه الآية والذي أخذ بحقته ولم يجاوز في ذلك ما حد الله فهو مطيع لله ومن أطاع الله فهو محمود ولا منافاة و تناقض بين الآيات مثل قوله : « وأن تعفوا أقرب للتقوى »^(١) ، وقوله « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین »^(٢) ، وقوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم فهو خير للصابرين »^(٣) .

وبيّن هذه الآية من قوله : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » أن العفو على قسمين قسم بصير سبباً لتسكين الفتنة و رجوع الجاني عن جانيته وقسم بصير سبباً لمزيد الجاني جرأته على الجناية وتلك الآيات في العفو محمولة على القسم الأول وهذه الآية محمولة على القسم الثاني فلا منافاة .

و عن النخعي أنه كان إذا قرأها قال : كانوا يكرهون أن يذّلوا أنفسهم فيجتريء عليهم السفهاء قال الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته * وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
فوضع الندى في موضع السيف بالعلی * مضر كوضع السيف في موضع الندى
ألا ترى أن العفو عن المصّر يكون كالإغراء له .

(١) البقرة : ٢٣٧ .

(٢) الاعراف : ١٩٨ .

(٣) النحل : ١٢٦ .

روي أن زينب أقبلت على عائشة فشتتها فيهاها النبي ﷺ عنها فلم تنته فقال :
النبي ﷺ لعائشة : دونك فانتصري .

ثم إنه تعالى لم يرغب في الانتصار بل بين أنه مشروع فقط ثم بين بعده أن شرعه
مشروط برعاية المماثلة ثم بين أن العفو أولى بقوله : فمن عفى .

قوله : [وجزاء سيئة سيئة مثلها] أي إن جزاء سيئة مثلها فإن الأفعال مستتبعة
بأجزيتها حتماً نحن زوجنا الفعال بالجزاء فقيده سبحانه إن الانتصار لا بد وأن يكون
مقيداً بالمثل فإن النقصان حيف و الزيادة ظلم و التساوي عدل و به قامت السماوات
والأرض .

فإن قيل : إن جزاء السيئة مشروع مأذون فيه فكيف سمي بالسيئة ؟
أجاب صاحب الكشف عنه أن كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء
من ينزل به قال الله : «و إن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك»^(١) يريد ما يسوؤهم من
المصائب والبلايا .

و أجاب غيره بأنه لما جعل أحدهما في مقابلة الأخرى أطلق اسم أحدهما على
الأخر على سبيل المجاز .

وهذه الآية أصل كبير في علم الفقه فإن مقتضاها أن يقابل كل جناية بمثلها وقد
تأكد هذا النص بنصوص أخر مثل قوله : «و إن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم»^(٢) و
قوله : «ومن عمل سيئة فلا يجزى إلا مثله»^(٣) وقوله تعالى : «كتب عليكم القصاص في
القتلى»^(٤) .

والقصاص عبارة عن المساواة و المماثلة وقوله : «و الجروح قصاص» فوجب رعاية
المماثلة مطلقاً إلا فيما لا يمكن المماثلة أو خصه الدليل المنفصل ، والتخصيص يقع في صور
كثيرة مثلاً إذا قال له : أخزاك الله فليقل مثله أخزاك الله أمّا إذا قذفه قذفاً يوجب الحد

(١) النساء : ٧٨ .

(٢) النحل : ١٢٦ .

(٣) المؤمن : ٤٠ .

(٤) البقرة : ١٧٨ .

فليس له مثل ذلك بل الحد الذي أمر الله به .

ثم قال سبحانه : [فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين] فإذا عفا بشرط القربة لله فيقع أجره على الله وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد : من كان أجره على الله فليدخل الجنة فيقال : من ذا الذي أجره على الله ؟ فيقال : العافون عن الناس فيدخلون الجنة بغير حساب .

قوله تعالى : ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل (٤١) إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (٤٢) ولمن صبر وغفران ذلك لمن عزم الأمور (٤٣) ومن يضل الله فماله من بعده و ترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل (٤٤) وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيمة ألا ان الظالمين في عذاب مقيم (٤٥) .

ثم ذكر سبحانه حال المنتصر فقال : من انتصر لنفسه وانتصف من ظالمه [بعد ظلمه] أي بعد أن ظلم وتمعدى عليه فأخذ لنفسه بحقه فالمنتصرون [ما عليهم] من إثم وعقوبة وذم وهنا إضافة المصدر إلى المفعول .

[إنما السبيل] الإثم والعقاب [على الذين يظلمون الناس] أي يبدعون بالإضرار أو يعتدون في الانتقام [و يبغون في الأرض بغير الحق] ويتكبرون فيها علواً وفساداً [أولئك] الموصوفون بما ذكر [لهم عذاب أليم] مولم .

[ولمن صبر] وتحمل المشقة في رضا الله [وغفر] فلم ينتصر ولم يعاقب [إن ذلك] الصبر والتحمل [لمن عزم الأمور] أي الأمور الثابتة التي يحبها الله وأمر بها فلم ينسخ .

وقيل : عزم الأمور الأخذ بأصوبها وأعلاها في باب نيل الثواب .

[و من يضل الله فما له من ولي من بعده] أي ومن يضلله عن رحمته وجنته فما له معين سواء وقيل : من عذبه الله عقوبة له على عناده ليس له ولي يلي أمره و يدفع عذاب الله عنه .

قوله : [وترى الظالمين لما رأوا العذاب] أي تراهم يا محمد إذا شاهدوا عذاب النار [يقولون هل إلى مرد من سبيل] ورجوع في الدنيا وذلك تمنياً منهم .

[وتراهم] يا محمد [يعرضون عليها] أي على النار قبل دخولهم النار [خاشعين من الذل] ساكتين متواضعين في حال العرض [ينظرون من طرف خفي] أي خفي النظر و يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها و ذلة في نفوسهم كأنهم ينظرون من عين لا تفتح كلها و إنما نظروا ببعضها إلى النار كالمصبور ينظر إلى السيف .

[وقال الذين آمنوا إن الخاسرين] أي المتصفين بصفة الخسران في الحقيقة هم [الذين خسروا أنفسهم] بأن فوتوا عن أنفسهم الانتفاع بنعيم الجنة وذلك القول من المؤمنين حين ما رأوا عظيم ما نزل بالظالمين قوله : [وأهليهم] أي خسروا أنفسهم و أولادهم و أزواجهم و أقاربهم .

[ألا إن الظالمين في عذاب مقيم] إمتا من تمام كلامهم أو تصديق من الله تعالى لهم ، و استدلل القاضي عبد الجبار بهذه الآية على أن الكافر و الفاسق يدوم عذابهما ، وأجاب الرازي أن لفظ الظالم المطلق في القرآن مخصوص بالكافر قال تعالى : و الكافرون هم الظالمون .

وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضل الله فماله من سبيل (٤٦) استجيبوا لربكم من قبل أن ياتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من تكبير (٤٧) فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظاً ان عليك الا البلاغ و انا اذا اذقنا الانسان منا رحمة فرح بها و ان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم فان الانسان كفور (٤٨) لله ملك السموات و الارض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء اناثا و يهب لمن يشاء الذكور (٤٩) او يزوجهم ذكرانا و اناثا و يجعل من يشاء عقيماً انه عليم قدير (٥٠) .

ثم أخبر سبحانه عن الظالمين الذين ذكرهم فقال :

[وما كان لهم من أولياء] أي ما كان لهم من دون الله من أنصار يدفعون عنهم عقاب الله ومن يضل الله عن طريق الجنة فليس له سبيل إليها .

ثم قال : [استجيبوا لربكم] أي أجبوا داعي ربكم يعني تجداً فيما دعاكم إليه و

رغبكم فيه من المصير إلى طاعته والانقياد لأمره [من قبل أن يأتي يوم لامرء له من الله] أي لارجوع بعده إلى الدنيا .

وقيل : معناه لا يقدر أحد على رده و دفعه و هو يوم القيامة عن الجبائي . وقيل : معناه لا يرد ولا يؤخر وقته وهو يوم الموت .

[مالككم من ملجأ يومئذ] أي معقل يعصمكم من العذاب [وما لكم من نكير] أي إنكار وتغيير للعذاب أو نصير منكم ما يحل بكم ولا يرد الله بعد ما حكم به ويجوز أن يكون المراد من قوله : « نكير » الإنكار أي لا تقدرون أن تنكروا شيئاً مما اقترعتموه من الأعمال .

[فإن أعرضوا] هؤلاء الذين أمرتهم بالاستجابة ولم يقبلوا هذا الأمر [فما أرسلناك عليهم حفيفاً] بأن تحفظ أعمالهم وتحصيها [إن عليك إلا البلاغ] وليس عليك إلا الإيصال إلى أفهامهم والبيان لما فيه رشدهم .

[وإننا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها] أي إذا وجدوا في الدنيا سعادة وفوزاً بنعيمها فرح واستر بها ، ونعم الله في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى السعادة المعدة في الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سمّاها ذوقاً والمراد أنه إذا فاز بهذا القدر الحقير الذي حصل في الدنيا فإنه يعظم سروره ويقع في العجب والكبر ويظن أنه فاز بكل المني .

ثم يبين أنه متى أصابته سيئة و شيء يسوؤه كالمرض و الفقر فقال : [وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور] والكفور مبالغة في الكفران ولم يقل : فإنه كفور ليبين أن طبيعة الإنسان تقتضي هذه الحالة إلا إذا أدب نفسه بأدب الله .

قوله : [لله ملك السماوات والأرض] والمقصود منه أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه بل إذا علم أن الكل ملك الله وهو تعالى ملكه و أنعم عليه فيصير ذلك حاملاً له على مزيد الطاعة والعبادة و أمّا إذا اعتقد أن تلك النعم إنما حصلت بسبب عقله وجدته بقي مغروراً بنفسه معرضاً عن طاعة الله .

ثم ذكر من أقسام تصرفه تعالى في العالم وقال : [يخلق ما يشاء] يخص البعض

بالأولاد الإناث والبعض بالذكور فقال : [يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراً وإناثاً] أي يجمع لهم بين البنين والبنات تقول العرب : زوجت إبلي أي جمعت بين صغارها وكبارها . قال مجاهد : وهو أن تلد المرأة غلاماً ثم جارية . وقيل : هو أن تلد مؤمناً ذكراً وأنثى أو ذكراً أو أنثى وأنثى . وقيل : هو أن يجمع الرحم الذكر والأنثى عن محمد بن الحنفية قوله : [ويجعل من يشاء عقيماً] أي يجعل البعض محرماً عن الكل من الرجال والنساء [إنه عليم] بما خلق [قدير] على ما يريد وعبر سبحانه في الآية عن الإناث بلفظ التنكير وعن الذكور بلفظ التعريف للتنبيه على أشرفية الذكور على الإناث .

قال ابن عباس : في قوله : [يهب لمن يشاء إناثاً] يريد لوطاً وشعباً عليهما السلام ولم يهب لهما إلا البنات ويهب لمن يشاء الذكور، يريد إبراهيم لم يكن له إلا الذكور وقوله : «أو يزوجهم ذكراً وإناثاً» يريد محمداً ﷺ كان له من البنين أربعة القاسم والطاهر وعبد الله وإبراهيم ومن البنات أربعة زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ﷺ «ويجعل من يشاء عقيماً» يريد عيسى ويحيى .

قوله : وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء انه على حكيم (٥١) وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم (٥٢) صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور (٥٣) .

المعنى : لما ذكر نعمه السابقة على خلقه ذكر في هذه الآية أجل النعم وهي النبوة فقال :

[وما كان لبشر] أي ليس لأحد من البشر [أن يكلمه الله إلا] أن يوحى إليه [وحياً] مثل داود أوحى في صدره فزبر الزبور أو يكون بطريق الإلهام والقذف في القلب أو المنام كما أوحى الله إلى أم موسى وإبراهيم في ذبح ولده أو يسمعه كلامه تعالى [أو من وراء حجاب] وهو موسى في الطور [أو يرسل رسولا] وهو جبرئيل [فيوحي بأذنه ما يشاء] أي

إرسال ملائكته بكلامه وكتبه إلى أنبياء .

والمراد من قوله : «أومن وراء حجاب» هو أن يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه إلا من يريد أن يكلمه به نحو كلامه لموسى لأنه حجب ذلك عن جميع الخلق إلا عن موسى وحده وفي المرة الثانية حجبه عن جميع الخلق إلا عن موسى والسبعين نفرًا الذين كانوا معه ويمكن أن يقال : إنه تعالى حجب عنهم موضع الكلام الذين أقام الكلام فيه فلم يكونوا يدرون من أين يسمعون لأن الكلام عرض لا يقوم إلا في جسم ولا يجوز أن يكون أراد بقوله : «من وراء حجاب» تكلمه عباده لأن الحجاب لا يجوز إلا على الأجسام .

[إنه عليّ حكيم] عليّ عن الإدراك بالأبصار حكيم في أفعاله .

قالت المعتزلة والإمامية : إن هذه الآية تدلّ على أنه تعالى لا يرى وذلك لأنه تعالى حصر أقسام وحيه في هذه الثلاثة ولو صحت رؤية الله لصحّ من الله أن تتكلم مع العبد حال ما يراه العبد فحينئذ يكون ذلك قسمًا رابعًا زائدًا على هذه الأقسام الثلاثة والله تعالى نفى القسم الرابع .

وأما الذين يدعون الرؤية يزيدون في الآية قيداً ، ولعجزهم عن أوّله نفى الرؤية زادوا هذا القيد وقالوا : تقدير الكلام في الآية : وما كان الله لبشر أن يكلمه الله في الدنيا . وهذا القول و التقدير خلاف الظاهر وهب أنهم التزموا بهذا التقدير في الآية و اثبتوا مدّعاهم فماذا يصنعون بتلك الدلائل المنفصلة في نفى الرؤية من وقوع التجسّم و التمكّن والتركيب و أمثالها المبينة لمعنى الألوهية و بالجملة إنه تعالى لا يرى لا في الدنيا ولا في القيامة .

قوله تعالى : [و كذلك أوحينا إليك] أي مثل ما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك [روحاً من أمرنا] ومعنى الروح القرآن لأن فيه الحياة من موت الكفر والاهتداء بالحياة السليمة عن الآفات وقيل : المراد من الروح هو روح القدس وهو ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قال : ولم يصعد إلى السماء وإنه لفينا الأئمة .

[ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان] أي ما كنت باعده قبل الوحي وقبل أن

نعلمك بالوحي ما القرآن ولا الشرائع ومعالم الإيمان؛ وقيل : معناه ولا أهل الإيمان أي من الذي يؤمن ومن الذي لا يؤمن وهذا من باب حذف المضاف .
[ولكن جعلناه] أي جعلنا الروح الذي هو القرآن [نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا] لأن فيه معالم الدين . وقيل : المعنى جعلنا الإيمان نوراً . القمي عن الباقر عليه السلام في قوله : « ولكن جعلناه نوراً » قال : يعني علياً عليه السلام و علي هو النور هدى به من هدى من خلقه .

[و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم] أي كما أن القرآن يهدي إلى الصراط المستقيم فانت تهدي الخلق وعلي نفسك وصنوك فهو أيضاً كذلك قال الصادق عليه السلام حين سئل عن معنى الآية : يعني إنك لتأمر بولاية علي وتدعو إليها وعلي هو الصراط المستقيم .
ثم فسر ذلك الصراط بقوله : [صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض] أي إن الصراط صراط الله ولا يجوز عبادة غيره . ثم قال : [ألا إلى الله تصير] و ترجع [الأمور] دون غيره .

توضيح لو قيل : إن الإجماع منعقد على أنه لا يجوز أن يقال : إن الرسل كانوا قبل الوحي على الكفر فكيف التطبيق مع قوله : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان »؟
والتطبيق ما ذكرنا في تفسير الآية إن كنت عرفت معناه وهو أن المراد من الكتاب القرآن ومن الإيمان الصلاة لقوله تعالى : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » أي صلاتكم .
والجواب الثاني ما بيننا من حذف المضاف أي ما كنت تدري ما الكتاب ومن أهل الإيمان يعني من الذي يؤمن ومن الذي لا يؤمن .

والجواب الثالث ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى كنت طفلاً في المهد و معلوم أن علم النبي صلى الله عليه وآله ما كان قديماً بل علمه الله .

و الجواب الرابع أن الإيمان عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله به وإنه قبل النبوة ما كان عارفاً بجميع جزئيات الشريعة بل إنته كان عارفاً بالله تعالى تمت السورة .

سورة الزخرف

مكية كلها

وقيل : إلا آية منها « واسأل من أرسلنا الآية ، نزلت ببيت المقدس . عن النبي ﷺ
من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون
ادخلوا الجنة بغير حساب » .

وعن أبي بصير عن الباقر ﷺ من أدام قراءة الزخرف آمنه الله في قبره من هوام
الأرض ومن ضغطة القبر حتى يقف بين يدي الله ثم جاءت حتى تكون هي التي تدخله
الجنة بأمر الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) والكتاب المبين (٢) انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون (٣) وانه في ام الكتاب لدينا لعلى حكيم (٤) افنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين (٥) .

[حم] أي هذه السورة مسمّاة بحم أو أن حم هو القرآن وعلى هذا التقدير فقوله : [والكتاب المبين] بالجرّ على أنه مقسم به إما ابتداء أو بإضمار باء القسم ، أقسم سبحانه بالكتاب المبين [إنا جعلناه قرآنا عربيا] فيكون المقسم عليه هو قوله : «إنا جعلناه قرآنا» وعلى تقدير : هذه سورة حم ، فيكون القسم واقعا على أن هذه السورة هي سورة حم وعلى هذا التقدير فقوله : «إنا جعلناه» ابتداء لكلام آخر .

وفي وصف الكتاب بكونه مبينا لأنه المبين للذين أنزل إليهم لأنه بلغتهم ولسانهم أو لأنه مبين طريق الهدى من طريق الضلالة وأبان كل باب عما سواه ووصف الكتاب بكونه مبينا مجاز لأن المبين هو الله وسمي القرآن بذلك توسعا من حيث إنه حصل البيان عنده وهو إنما سمي قرآنا لأنه جعل بعضه مقرونا ببعض و يصدق بعضه بعضا .

[لعلكم تعقلون] وتتدبرون وكلمة لعل للتمنّي والترجّي وهو لا يليق بمن كان عالما بالعواقب فكان المراد منها هنا «كي» أي أنزلناه قرآنا عربيا لكي تعقلوا معناه وتحيطوا بفجواه .

قالت المعتزلة : وكلمة «إنا جعلناه» تدلّ على حدوث القرآن لأن المجعول هو المصنوع المخلوق . فإن قيل : إن المراد من قوله : «جعلناه» أي سمّيناه عربيا ؛ فهذا الكلام مدفوع لأنه لو كان المراد بالجعل هذا لوجب أن من سمّاه عجميا أن يصير عجميا وإن كان بلغة العرب ومعلوم أن هذا باطل .

ثم إن كان المراد من الجعل التسمية وصرف إلى هذا المعنى لزم كون التسمية مجعولة والتسمية أيضاً من كلام الله وذلك يوجب أن بعض كلامه مجعول وإذا صح ذلك في البعض صح في الكل على أنه سمي قرآنًا لأن بعضه مقرون ببعض وما كان كذلك كان مصنوعاً معمولاً وكونه عربياً أي اختصت بمسمياتها بوضع العرب واصطلاحاتهم و ذلك أيضاً يدل على كونه مصنوعاً .

وأيضاً يستنبط دليل آخر على حدوث الكلام وهو أن القسم بغير الله لا يجوز كما روي عن النبي ﷺ إنه كان يقول : يارب طه و يس و يارب القرآن العظيم فحينئذ صار القرآن مربوباً مخلوقاً فتم الدليل .

وأيضاً قالت المعتزلة : إن حاصل معنى قوله تعالى : « إنا جعلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون » على ما فسرتم و فسرنا هو أننا جعلناه قرآنًا عربياً لكي تعقلوا وهذا يفيد أمرين : أحدهما أن أفعال الله معللة بالأغراض والدواعي . والثاني أنه تعالى إنما أنزل القرآن ليهتدي به الناس وذلك يدل على أنه تعالى أراد من الكل الهداية والمعرفة خلاف قول من يقول : إنه تعالى أراد من البعض الكفر و الإعراض ، والقائلين بالجبر هم الأشاعرة .

وبالجملة قوله : « قرآنًا عربياً » أي بلسان العرب ومذاهبها في الحروف و المفهوم ومع ذلك لا يتمكن أحد منهم من إنشاء مثله وما يقاربه من علو طبقة في الفصاحة والبلاغة إما لعدم علمهم بذلك أولاً ثم صرفوا عنه قهراً على الخلاف بين العلماء كالمترضى وأمثاله . قوله [وإنه في أم الكتاب] أي إن القرآن في اللوح المحفوظ وإنما سمي باللوحة المحفوظ لأن سائر الكتب ينسخ منه أو أن أصل كل شيء أمه و القرآن مثبت في اللوح المحفوظ كما قال تعالى : « بل هو قرآن مجيد » في لوح محفوظ (١) ، وهو الكتاب الذي كتب الله ما يكون إلى يوم القيامة لما رأى في ذلك صلاح ملائكته بالنظر فيه وعلم فيه من لطف المكلفين بالإخبار عنه .

[لدينا] أي الذي عندنا [لعلنا] أي عال في البلاغة أو يعلو كل كتاب بما اختص

به من كونه ناسخاً للكتب ويوجب العمل به وبإدامته وبما تضمنته من الفوائد عظيم الشأن تعظمه الملائكة والمؤمنون [حكيم] مظهر للحكمة فهو بمنزلة الحكم الذي لا ينطق إلا بالحق والصواب .

وقد وصف الله تعالى القرآن بهاتين الصفتين لأنهما من صفات الحي ، وفي المعاني عن الصادق عليه السلام : هو أمير المؤمنين كما قيل في سورة الفاتحة في قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » هو أمير المؤمنين ومعرفته ثم خاطب سبحانه من لم يعتبر بالقرآن وجحد ما فيه من الحكمة فقال : [أفنضرب عنكم الذكر صفحاً] والمراد بالذكر القرآن أي أفنترك عنكم الوحي (وذكر الانتقام) صفحاً وإعراضاً إذا كنتم متجاوزين عن الحد . « وأن » قيل : بمعنى « إذ » مثل قوله : « وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين »^(١) ، وتقدير الآية على كون « إن » بمعناها لا بمعنى « إذ » : « إن كنتم مسرفين لانضرب عنكم الذكر صفحاً و عفواً وفريءاً أن بفتح الألف على التعليل أي لأن كنتم مسرفين .

وحاصل معنى الآية أنتمسك عن إنزال الوحي و القرآن ونهملكم فلانصرفكم ما يجب عليكم من أجل سرفكم في كفركم والتعبير في الآية بالضرب لأن الدابة إذا أرادوا أن يصرفوا وجهها عن طريق إلى طريق تضرب بالسوط فوضع الضرب موضع الصرف و العدل . وقيل : إن الذكر بمعنى العذاب فالمعنى أحسبتم أننا لانعذب بكم أبداً ؟ قال صاحب الكشاف : الفاء في قوله : « أفنضرب » للعطف على محذوف تقديره : أنهم لكم فنضرب عنكم الذكر .

قوله تعالى : وكم أرسلنا من نبي في الأولين (٦) وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزءون (٦) فاهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين (٧) و لئن سألتهم من خلق السموات و الأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (٩) الذي جعل لكم الأرض مهذا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون (١٠) .

ثم عزى نبيه بقوله : [وكم أرسلنا من نبي في الأولين] أي في الأمم الماضية [وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزءون] . يعني إن الأمم الخالية التي ذكرناها كفرت بالأنبياء وسخرت منهم لفرط جهالتهم و غباوتهم واستهزأت بهم كما استهزأ قومك

بك فلم تضرب عنهم صفحاً بسبب استهزائهم بالرسول بل كررنا الحجج وأعدنا الرسل [فأهلكننا] من أولئك الأمم بأنواع العذاب من كان أشد قوة ومنعة من قومك فلا يفتقر هؤلاء بالقوة والنجدة .

ثم قال : [ومضى مثل الأولين] أي سلف في القرآن غير مرة ذكر قصتهم التي حقها أن تسير مسير المثل وحاصل المعنى أن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم فليحذروا أن ينزل بهم من الخزي مثل ما نزل بهم فقد ضربنا لهم مثلهم كما قال : « وكألاً ضربنا له الأمثال » (١) .

قوله : [ولئن سألتهم] أي إن سألت قومك يا محمد [من خلق السماوات والأرض] وأنشأهما واخترعهما [ليقولن خلقهن العزيز العليم] أي لم يكن جوابهم في ذلك إلا أن يقولوا : خلقهن يعني السماوات والأرض القادر الذي لا يقهر ولا يغلب العليم بمصالح الخلق وهو الله لأنهم لا يمكنهم أن يحيلوا في ذلك على الأصنام والأوثان وهذا إخبار عن جهلهم إذ اعترفوا بأن الله خلقهن ثم عبدوا معه غيره وأنكروا قدرته على البعث . ثم وصف بقوله : [الذي جعل لكم الأرض مهدياً] وقرئ مهدياً أي مقرأً ومسكناً [وجعل لكم فيها سبلاً] لتسلكوها [لعلكم تهتدون] أي لكي تهتدوا إلى مقاصدكم في أسفاركم . وقيل : معناه لتهتدوا إلى الحق في الدين باعتبار النظر والتدبر فيها . وقال سبحانه : « مهدياً » لأجل كونها واقفة ساكنة يمكن الانتفاع بها في الزراعة وبناء الأبنية ولما كان المهدي موضع الراحة للصبي وهي موضع الراحة للخلق عبس بالمهد .

قوله تعالى : والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشأنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون (١١) والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون (١٢) لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (١٣) وانا إلى ربنا لمنقلبون (١٤) وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين (١٥) .

ثم أكد سبحانه بقوله : [والذي نزل من السماء ماءً] أي غيثاً ومطراً بقدر الحاجة لازئداً عليها فيفسد ، ولاناقصاً عنها فيضر وفي ذلك دلالة على أنه واقع من حكيم

قادر مختار قد قدره على ما يقتضيه الحكمة لعلمه بذلك .

[فأنشرنا [أي فأحيينا] به [أي بذلك الماء] بلدة ميتاً] والنشر الحياة قال الأعشى :

لو أسندت ميتاً إلى نحرها * عائش ولم ينقل إلى قابر

حتى يقول الناس ممّا رأوا * يا عجباً للميت الناصر

و المراد من البلد الميت أي جافة يابسة وإحيائها بإخراج النبات والأشجار

والشمار .

[كذلك تخرجون] أي مثل ما أخرج النبات من الأرض اليابسة تخرجون من

قبوركم يوم البعث .

[والذي خلق الأزواج كلها] يعني أزواج الحيوان من ذكر وأنثى . وقيل : معناه

خلق الأشكال جميعها من الحيوان والجماد فمن الحيوان الذكر والأنثى ومن غير الحيوان

مما هو كالمقابل مثل الحلو والمرّ والرطب واليابس والشتاء والصيف والليل والنهار والشمس

والقمر والسماء والأرض والجنة والنار .

[وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تر كبون] أي السفن والبقر والإبل . وقيل :

المراد في هذه الآية من الأنعام خصوص الإبل أي ما تر كبون في البرّ والبحر [لتستووا

على ظهوره] هي الغرض في خلق ما ذكر : لأن تستووا وتستقيموا بر كوبيكم على ظهوره فالضمير

في ظهوره يعود إلى لفظ « ما » [ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه] فتشكروا

على تلك النعمة التي هي تسخير ذلك المركب وتعترفوا بنعمته منزّهين عن شبه المخلوقين

[وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا] المركب وذلك لنا حتى ركبناه [وما كنّا له

مقرنين] أي مطيقين ومقاومين في القوة به وتقولوا [وإنا إلى ربنا لمنقلبون] أي ولتقولوا

أيضاً ذلك ومعناه وإنا إلى الله راجعون في آخر عمرنا على مركب آخر وهو الجنّازة .

وكان رسول الله ﷺ إذا استوى على بعيره خارجاً في سفر كبير ثلاثاً وقال : « سبحان

الذي سخر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم إنا نسألك في

سفرنا هذا البرّ والتقوى والعمل بما ترضى اللهم هوّن علينا سفرنا واطوئنا بعده اللهم

أنت صاحب السفر والخليفة في الأهل والمال اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر

وكأية المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال، وكان ﷺ إذا رجع قال : آثبون ثائبون لربنا حامدون ، أورده مسلم في الصحيح .

وروى العياشي بإسناده عن الصادق عليه السلام قال : ذكر النعمة أن تقول : الحمد لله الذي هدانا للإسلام وعلمنا القرآن ومن علينا بمحمد ﷺ وتقول بعده : سبحان الذي سخر لنا هذا إلى آخره .

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكفار الذين تقدم ذكرهم فقال : [وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين] ومعنى الجعل في الآية الحكم بأن بعض عباده وهم الملائكة له أولاد؛ قال ابن عباس : زعموا أن الملائكة بنات الله . وقيل : إن معناه وجعلوا لله من مال عباده نصيباً وهو كقوله : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً »^(١)، فحذف المضاف وعلى المعنى الأول أثبتوا التركيب له سبحانه حيث جعلوا الله ذا أجزاء وأبعض كما قال ﷺ : فاطمة بضعة مني والولد أصله ينفصل من الوالد فجرؤه وبعض منه ومتى كان الأمر كذلك فإنه يقبل الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق ولازم هذه الأمور الحدوث وتباين القديمية والأزلية .

[إن الإنسان لكفور مبين] أي جاحد لنعم الله مظهر لكفره غير مستتر .

قوله تعالى : أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنيين (١٦) و إذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم (١٧) أو من ينشؤ في الحلية وهو في الخصام غير مبين (١٨) وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتهم شهداتهم ويسألون (١٩) وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون (٢٠) .

ثم أنكر سبحانه عليهم قال : على سبيل التوبيخ بل [اتخذ مما يخلق بنات] لنفسه سبحانه [وأصفاكم] أي أخلصكم بالبنيين .

ثم زاد في الاحتجاج عليهم بأن قال : [وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً] أي بما جعل الله شبيهاً وذلك أن ولد كل شيء شبهه و جنسه فالمعنى إنة إذا أخبر أحدهم

بولادة ابنته [ظل وجهه مسوداً] بما يلحقه من الغم والحزن [وهو كظيم] مملو من الكرب والغيظ .

ثم وبخهم بما اتهموه فقال : [أو من ينشأ في الحلية] أي أو جعلوا من ينشأ في زينة النساء يعني البنات ومن شأنه أن يربى في الزينة وهو عاجز عن أن يتولى لأمره بنفسه فجعلوا ينسبون شيئاً لهم يستكفون منه إلى الله وحاصل المعنى أنهم ينسبون البنات إلى الله والذي يربى في الحلية وهو ناقص الذات لأنه لولا نقص في ذاتها لما احتاجت تزين نفسها بالحلية .

ثم يبين نقص حالها بطريق آخر وهو قوله : [وهو في الخصام غير مبين] يعني إنها إذا احتاجت المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبين وذلك لضعف لسانها وقلة عقلها وبلاهة طبعها ، ويقال : قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تكلم بحجتها إلا تكلمت بما كانت حجة عليها فهذه الوجوه دالة على نقصها فكيف يجوز إضافتهن بالولدية إليه سبحانه ؟

قال الرازي : والآية تدل على أن التحلي مباح للنساء وأنه حرام للرجال لأنه تعالى جعل ذلك من المعائب وموجبات النقصان وإقدام الرجل عليه يكون إلقاء لنفسه في الذل وذلك حرام لقوله ﷺ : ليس للمؤمن أن يذل نفسه ، وإنما زينة الرجل الصبر على طاعة الله والتزين بزينة التقوى وإنما قال : « وهو في الخصام » ولم يقل : وهي ، لأنه سمله على لفظ « من » .

قوله : [وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً] بأن زعموا أنهم بنات الله [أشهدوا خلقهم] هذا أي أحضروا حتى علموا أنهم إناث ، وهذا كقوله : « أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون »^(١) والمراد أن هذا الأمر الذي يزعمون ليس له طريق إلى ثبوته بالدلائل العقلية وأما الدلالة النقلية فكذلكها متفرعة على إثبات النبوة وهم منكرون للنبوة فلا سبيل إلى إثبات هذا المطلوب إلا بالعيان فأنكر سبحانه عيانهم فثبت أن دعواهم غير محققة لا بضرورة ولا بدليل وقرئ « عند الرحمن » .

واستدلّ الذي قال بتفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية على قراءة النون فقال:
إنّ العنديّة لاشكّ أنّها عنديّة القرب والفضل ولغة «هم» يوجب الحصر فالمعنى أنّهم
هم الموصوفون بهذه العنديّة لا غيرهم .

ثمّ هدّهم بقوله : [ستكتب شهادتهم] بذلك ويسألون عنها يوم القيامة .
[وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم] ثمّ حكى سبحانه نوعاً آخر من كفرهم وشبهاتهم
وهو أنّهم نسبوا هذه العبادة إلى إرادة الله وإشائته والآية تدلّ على فساد قول المجسّرة في
أنّ كفر الكافر يقع بإرادة الله فأبطل سبحانه وزيف هذا الاعتقاد بقوله تعالى : [ما لهم
بذلك من علم] أي لا يعلمون صحّة ما يقولونه لأنّه دعوى من غير دليل [إنهم إلّا يخرصون]
أي ما هم إلّا كاذبون وكذبهم الله لأنّهم أشركوا بالله بإضافة الولد إليه وفارقوا العدل و
نسبوا الظلم إلى الله بإضافتهم الكفر إلى مشيئة الله ، قاله أبو حامد .

قوله تعالى : أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون (٢١) بل قالوا
إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون (٢٢) وكذلك ما أرسلنا
من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا
على آثارهم مقتدون (٢٣) قال اولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم
قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون (٢٤) فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة
المكذّبين (٢٥) .

لما حكى سبحانه تخرّص من أضاف عبادة الأصنام والملائكة إلى مشيئة الله قال :
على سبيل الاستفهام الإنكاري وقرّر خطاءهم بقوله :

[أم آتيناهم كتاباً] والتقدير ، هذا الذي ذكره شيء تخرّصوه وافتعلوه أم آتيناهم
كتاباً [من قبله فهم به مستمسكون] أي بذلك الكتاب المؤتّى عليهم فإذا لم يمكنهم ادّعاء
أنّ الله أنزل بذلك كتاباً علم أنّ ذلك من تخرّصهم .
ثمّ أعلم سبحانه أنّهم اتبعوا الضلالة .

فقال : ليس الأمر كذلك [بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة] أي على ملّة وطريقة ،
عن ابن عباس وجماعة وقيل : أي على جماعة أي كانوا مجتمعين على هذه الطريقة [وإنا على آثارهم

مهتدون] نهتدي بهداهم .

ثم قال : [وكذلك] أي مثل ما قال هؤلاء في الحوالة على تقليد آبائهم في الكفر [ما أرسلنا من قبلك] يا محمد صلى الله عليه وسلم [في قرية] [رمجمع من الناس] [من نذير] ومن زائدة ومؤكدة [إلا قال مترفوها] هم المتمتعون الذين آثروا الترفه على طلب الحجّة يريد الرؤساء [إننا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون] فلانخالقهم فأحال سبحانه حال جميعهم على التقليد للآباء فقط دون الحجّة والتقليد فيبيع في العقول إذ لو كان جائزاً لكان يلزم أن يكون الحق في الشيء وفي نقيضه فكل فريق يقلد أسلافه مع أن كلاً منهم يعتقد أن من سواه على خطأ وضلال وهذا باطل ولا بد من الرجوع إلى حجّة عقلية أو سمعية .

ثم خاطب سبحانه للتذير [قال] قل [لهم أولو جئتم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم] تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم ولا تقبلون ما جئتم به أي أقبولون ما جئتم به أم لا تقبلون وتبكون على ضالتكم وتقليدكم أيضاً وفي هذا البيان حسن التلطّف في الاستدعاء إلى الحق لأن ما جئتم به من الحق إذا كان أهدى مما تزعمون أنه الهداية كان أوجب أن يتبع ويرجع إليه .

ثم أخبر سبحانه أنهم أبوا أن يقبلوا ذلك [وقالوا إنا بما أرسلتم به] أيها الرسل [كافرون] فانتقمنا منهم [فلما تمت الحجّة] وما نعت أهلكتهم وعجلنا عقوبتهم [فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين] لا نبياء الله والجاحدين لهم فدأت الآية على أن العاقبة المحمودة للمصدقين بحججه ورسله والعاقبة المذمومة للمكذّبين بالرسل والآيات .

قوله تعالى : واذ قال إبراهيم لأبيه وقومه انني برأء مما تعبدون (٢٦) الا الذي فطرني فانه سيهدين (٢٧) و جعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون (٢٨) بل تمتعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين (٢٩) ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون (٣٠).

واذكر يا محمد لهم وقت قول [إبراهيم لأبيه وقومه] والمراد من الأب العم والتعبير بالأب عن العم مر ذكره قبل قال : [إنني برأء] أي تبرأً ^{لديكم} منكم ومن مسلكهم و

«براه» مصدر عبرية مبالغة ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث أي إنني بريء من عبادتكم أو معبودكم .

[إلا الذي فطرني] و ابتدأني و أظهرني من العدم إلى الوجود و يجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً أو متصلاً لأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام أي أنا بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني [فإنه سيهدين] أي سيثبتني على الهداية إلى طريق الجنة بلطفه، وفيه بيان ثقته ﷺ بالله تعالى والمعنى أنه كان هداني قبل ذلك فسيهدين بعد ذلك والأقرب أن السين للتأكيد دون التسويف و صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار .

[وجعلها كلمة باقية في عقبه] أي وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد التي عبر بها كلمة باقية في ذريته حيث وصاهم بها كما نطق به قوله تعالى : «ووصى بها إبراهيم» الآية فلا يزال فيهم من يوحد الله إلى يوم القيامة. وقيل : المراد بالكلمة الباقية الإمامة عن أبي عبد الله عليه السلام واختلف في عقبه من هم ؟ فقيل : ذريته وولده وقيل : هم آل محمد ﷺ لأنهم من نسله و ذريته .

[لعلهم يرجعون] ويتوبون ويرجعون عما هم عليه إلى الافتداء بأبيهم إبراهيم في توحيد الله كما اقتدى الكفار بأبائهم .

ثم ذكر سبحانه نعمه على قريش فقال : [بل تمتعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق] ورسول مبين] المعنى إضراب عن محذوف ينساق إليه الكلام كأنه قيل جعلها كلمة باقية في عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعوته فلم يحصل ما رجاء بل تمتعت قومك هؤلاء وآباءهم فأهلوا و تمتعوا حتى جاءهم القرآن والآيات الدالة على الصدق و بعثنا رسولا مبيناً بين الحق وهو محمد ﷺ ولما جاءهم الحق أي القرآن قابلوا هذه النعم بالتكذيب [وقالوا هذا] القرآن [سحر] وحيلة خفية وتمويه [وإننا به كافرون] جاحدون أنه من قبل الله .

وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (٣١) أنهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا الدنيا و رفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك

خير مما يجمعون (٣٤) ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة و معارج عليها يظهرون (٣٣) و لبيوتهم ابوابا و سررا عليها يتكئون (٣٤) و زخرفا و ان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا و الآخرة عند ربك للمتقين (٣٥) .

المعنى : هذا نوع آخر من كفر بآتهم و هو أنهم قالوا : إن رسالة الله منصب عظيم شريف فلا يليق إلا برجل شريف و قد صدقوا في ذلك إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة وهي أن الرجل الشريف هو الذي يكون كثير المال و الجاه و عظم ليس كذلك فلا يليق رسالة الله به وإنما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال في إحدى القريتين وهي مكة و الطائف قال المفسرون : والذي بمكة هو الوليد بن المغيرة والذي بالطائف هو عروة ابن مسعود الثقفي .

فأبطل الله شبهتهم بقوله : [أهم يقسمون رحمة ربك] تعجيب من تحكّمهم والمراد من الرحمة النبوة أي إنه سبحانه يقسم النبوة و ليس بأيديهم مفاتيح النبوة فيضعونها حيث شاءوا .

ثم قال : [نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا] على حسب ما علمناه من المصلحة و ليس لأحد أن يتحكّم في شيء من ذلك فكما فضلنا بعضهم على بعض في الرزق فكذلك اصطفينا للرسالة من نشاء [ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات] أفقرنا البعض و أغنيينا البعض فتلقى ضعيف الحيلة عي اللسان وهو مبسوط له و تلقى شديد الحيلة بسيط اللسان و هو مقتر عليه :

كم عاقل عاقل أعيت مذهبه * كم جاهل جاهل تلقاه مرزوقاً
و حاصل المعنى أن رزق الدنيا مع قلة خطره لم يفوّض إليهم بل جعلناه على وفق ما توجبه الحكمة و المصلحة فكيف نفوّض اختيار النبوة إليهم مع عظم محلّها و شرف قدرها ؟

قوله : [ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً] أي إن الحكمة في اختلاف الرزق بين العباد زيادة على ما فيه من المصالح فيه تسخير من بعض العباد لبعض باحواجم إليه ليستخدم

بعضهم بعضاً فينتفع أحدهم بعمل الآخر له فينتظم قوام أمر العالم وقد جعلنا هذا التفاوت بين العباد في القوة والضعف والعلم والجهل والحذافة والبلاهة والشهرة والخبول وإتباعنا ذلك لأننا لو سويتنا بينهم في كل هذه الأحوال لم يخدم أحداً أحداً ولم يصر أحد منهم مستخراً لغيره وحينئذ يفضي ذلك إلى خراب العالم ثم إن أحداً من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على خروج من قضائنا فإن عجزوا عن الاعتراض على حكمنا في أحوال الدنيا مع قلّتها ودناءتها فكيف يمكنهم الاعتراض على حكمنا وقضائنا في أمر النبوة ومنصب الرسالة وما ظنهم بأنفسهم في تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط العيوق وأعز من بيض الأنوق فمن أين لهم البحث عن التعيين في شخص الرسول ؟

[ورحمة ربك خير مما يجمعون] أي النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين خير مما يجمعون من حطام الدنيا الدنية الفانية فهذه الرحمة الخاصة وهي النبوة خير من الأموال التي يجمعونها لأن الدنيا فانية ورحمته باقية أبد الآباد .

قوله تعالى : [ولولا أن يكون الناس أمة واحدة] ولولا أن يجتمع الناس على الكفر فيكونوا كلهم كفاراً على دين واحد ليلهم إلى الدنيا وحرصهم عليها ولولا أن يجتمع الناس على اختيار الدنيا على الدين [لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سققاً من فضة] أي كنّا جعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن سققاً من فضة ، السقف جمع السقيفة مثل السفن جمع السفينة وقيل : اللام الثانية بمعنى «على» فحينئذ المعنى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن على بيوتهم سققاً من فضة [ومعارج عليها يظهرون] أي وجعلنا سلاليم ودرجاً من فضة عليها يعلون ويصعدون .

[ولبيوتهم أبواباً وسريراً] من فضة على تلك السرر يتكئون [وزخرفاً] قال ابن عباس وجماعة : الزخرف الذهب وهو عطف على محل من فضة . وقيل : الزخرف النقوش وقيل : الفرش ومتاع البيت وتكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير والتأكيد . وبالجملة لولا وقوع كثرة الكفر لكنّا نعطي الكافر غاية ما يتمناه في الدنيا لقلّتها وحقارتها لكنّهم لم يفعل سبحانه لما فيه من المفسدة .

ثم أخبر أن جميع ذلك إنما يتمتع به في الدنيا فقال : [وإن كل ذلك لمآمتاع

الحياة الدنيا [أي وما كل ما ذكر من البيوت المفصلة والزخارف إلّا شيء يتمتع به في الدنيا [والآخرة] أي الجنة الباقية [عند ربك للمتقين] خاصة لهم .
قال بعض أهل التحقيق : والله لقد عمّالت الدنيا بأكثر أهلها إلى الكفر وما فعل سبحانه ذلك فكيف لو فعله ؟

وفي الآية دلالة على اللطف وإتته تعالى لا يفعل المفسدة وما يدعو إلى الكفر وإذا لم يفعل ما يؤدي إلى الكفر فلاّن لا يفعل الكفر ولا يريده أولى تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فثبت بطلان مذهب الجبر .

وعلى قراءة من خفف الماء قال الواحدي : مازائدة و التقدير لمتاع الحياة الدنيا و صحّح قراءة التخفيف الكسائي^(١) .

فإن قيل : إن الله لم يفعل بالكافرين الفعل المذكور و يسن السبب أن المانع لذلك اجتماع الناس على الكفر فلم لم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير ذلك سبباً لاجتماع الناس على الإسلام ؟

فالجواب أن الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الإسلام لطلب الدنيا و هذا الإيمان لا ينفع وهو إيمان المنافقين .

قوله تعالى : ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين (٣٦) وانهم ليصدونهم عن السبيل و يحسبون انهم مهتدون (٣٧) حتى اذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين (٣٨) ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون (٣٩) أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى ومن كان في ضلال مبين (٤٠) .

لما تقدّم ذكر الوعد للمتقين يسن الوعيد لمن هو على ضدّ صفتهم فقال : [ومن يعيش عن ذكر الرحمن] أي يعرض عنه ويعم، شبههم بالأعشى لما لم يبصروا الحق والقرآن والذكر القرآن أو الآيات والأدلة [نقيض له شيطاناً فهو له قرين] أي نخل بينه وبين الشيطان الذي يغويه ويدعوه إلى الضلالة فيصير قرينه عوضاً عن ذكر الله

(١) لأنه انكر مجيء لما بمعنى الافحكم بان قراءة التثنية صحيح لاغير .

وهو الخذلان عقوبة له عن الإعراض. وقيل : معناه نقرن به شيطاناً في الآخرة يلازمه فيذهب به إلى النار كما أن المؤمن يقرن به ملك فلا يفارقه حتى يصير به إلى الجنة . وقيل : أراد به شياطين الإنس نحو علماء السوء ورؤساء الضلالة يصدونهم عن سبيل الله فيقتبعونهم . [وإنيهم] يعني وإن الشياطين، وإنما جمع لأن الكلام في معرض الجمع (لأن المغوين كثيرون) وإن كان اللفظ على الواحد [ليصدونهم] أي يصرفون هؤلاء الكفار [عن السبيل] عن طريق الهداية والجنة [ويحسبون أنهم مهتدون] و يحسب الكفار أنهم على الهدى فيطيعونهم .

[حتى إذا جاءنا] وقرئ « جاءنا » على التثنية فالمعنى : الشيطان المغوي والمغتوي الضال ، ومن قرأ على التوحيد فالمعنى : حتى إذا جاءنا الكافرون يوم القيامة الذي يتولى سبحانه حساب الخلق فيه قال الكافر حينئذ لقرينه الذي أغواه : [يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين] يعني بعد ما بين المشرق والمغرب فغلب أحدهما على الآخر كما قال الشاعر الفرزدق :

أخذنا بأفاق السماء عليكم * لنا قمرها والنجوم الطوالع

يعني الشمس والقمر ، وقيل : يعني محمد وإبراهيم ، وقيل : أراد بالمشرقين مشرق الشتاء ومشرق الصيف أي هذا البعد مسافة حتى لم أرك ولا اغتررت بك .

روي أن الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطانه بيده فلم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار .

قال الرازي في وجوه تفسير المشرقين : إن الحسن يدل على أن الحركة اليومية إنما تحصل بطلوع الشمس من المشرق إلى المغرب وأما القمر فإنه يظهر في أول الشهر في جانب المغرب من الشمس ثم لا يزال يتقدم إلى جانب المشرق وذلك يدل على أن مشرق حركه القمر هو المغرب فالجانب المسمى بالمشرق هو مشرق الشمس ولكنه مغرب القمر والجانب المسمى بالمغرب هو مشرق القمر ومغرب الشمس وبهذا التقدير يصح تسمية المشرق والمغرب بالمشرقين وهذا مبالغة كاملة في بعد المسافة .

[فبئس القرين] أنت اليوم لي ، لأنهما يكونان مشدودين في سلسلة واحدة زيادة عقوبة وغم .

ثم يقول الله في ذلك اليوم [ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنفسكم في العذاب مشتركون] أي لا يخفف الاشتراك عنكم شيئاً من العذاب وذلك لأن الإنسان قد يتسلى عن العذاب والمحنة إذا رأى أن عدوه في مثلها أو أن المصيبة إذا عمّت طابت وسهلت أي ليس الأمر كذلك ويثبت سبحانه أن حصول الاشتراك بينهما لا يفيد التخفيف مثل أحوال أهل الدنيا وذلك لشدة العذاب فاشتغال كل واحد بنفسه ينهله عن حال الآخر حتى يفرح بعذاب عدوه فيكون التسلية له أو لأن القوم إذا اشتركوا في العذاب أعان كل واحد منهم صاحبه .

ثم خاطب سبحانه نبيه [أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي] شبه الكفار في عدم انتفاعهم بما يسمعون ويرونه بالصم والعمي [ومن كان في ضلال مبين] ظاهر أي فلا يضيّق صدرك فإنك لا تقدر على إكراههم على الإيمان وكان عليه السلام يجتهد في دعوة قومه وهم لا يزيدون إلا تصميماً على الكفر ، تأمل في دقائق القرآن فإنه سبحانه وصفهم في أول الأمر إلى العشى ثم لما تمادى كفرهم انتقلوا من العشى إلى العمى ولما بلغوا في النفرة عن استماع القرآن نسبهم إلى الصم ، وإنما أضاف هذه الأوصاف إليهم بسبب كونهم في الضلالة .

ثم سلى نبيه بعد أن ظهر منهم عدم الأثر في قبول الدعوة فقال :

فأما نذهب بك فانا منهم منتقمون (٤١) أو فربك الذي وعدناهم فانا عليهم مقتدرون (٤٢) فاستمسك بالذي أوحى إليك أنك على صراط مستقيم (٤٣) وأنه لذكرك ولقومك وسوف تسألون (٤٤) وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون (٤٥) .

المعنى : يسلى سبحانه نبيه بأنه إن قبضناك وتوفيناك ومات قبل أن نبصرك عذابهم ونشفي بذلك صدرك [فإنا منهم منتقمون] لا محالة له في الآخرة وما في قوله : «فإمّا» زائدة مؤكدة بمنزلة لام القسم في أنها لا تفارق النون المؤكدة مثل والله لأفعلن . قوله : [أو ربك الذي وعدناهم] أي أو أردنا أن نريك العذاب الذي وعدناهم [فإنا عليهم مقتدرون] بحيث لا مناص لهم من قهرنا و لقد أراه سبحانه يوم بدر قال الحسن و

قتادة : إن الله ألزم نبيّه بأن لم يره تلك النعمة ولم يره في أمته إلا ما قرأت به عينه وقد كان بعده نعمة شديدة وقد روي أنه أري ما تلقى أمته بعده فما زال منقبضاً ولم ينبسط ضاحكاً حتى لقي الله .

وروي جابر بن عبد الله الأنصاري قال : إنني لأدناهم من رسول الله ﷺ في حجة الوداع حتى قال ﷺ : لا ألفينكم ترجعون بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض و أيم الله لئن فعلتموها لتعرفنني في الكتيبة التي تضاربكم ثم التفت ﷺ إلى خلفه فقال : أو عليّ أو عليّ ثلاث مرّات فرأينا أن جبرئيل غمزّه فأنزل الله على أثر ذلك : « فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون » بعلي بن أبي طالب .

قال الفيض قدس سرّه : إنما يكون ذلك في الرجعة والقمي عن الصادق قال : فإما نذهبن بك يا محمد من مكّة إلى المدينة فإنا رادوك إليها ومنتقمون منهم بعلي بن أبي طالب .

قوله تعالى : [فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم] القمي عن الباقر عليه السلام إنك على ولاية عليّ وعليّ هو الصراط المستقيم . وقيل : فاستمسك بالقرآن بأن تتلوه حق تلاوته وتتبع أوامره ونواهيه ، إنك على صراط مستقيم . على دين الحق والصواب وهو دين الإسلام وهذا المعنى يؤول إلى ما رواه القمي معنى لأنهما لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض .

قوله : [وإنه لذكر لك ولقومك] أي وإن القرآن الذي أوحى إليك لشرف لك ولقومك لقريش أو العرب لأنه نزل بلغتهم ثم يختص بذلك الأخص فالأخص من العرب حتى يكون الشرف لقريش أكثر من غيرهم ثم لبني هاشم أكثر مما يكون لقريش [وسوف تسألون] عن شكر ما جعله الله لكم من الشرف وقيل : تسألون عن القرآن وعمّا يلزمكم من القيام بحقه .

قوله تعالى : [واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا] أي اسأل مؤمني أهل الكتاب الذين أرسلنا إليهم الرسل هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد والتقدير سل أمم من أرسلنا فحذف المضاف ، وقيل : إن المراد سل أهل الكتابين التوراة والإنجيل وإن كانوا كفاراً

فإنَّ الحجة تقوم بتواتر أخبارهم والخطاب وإن توجه إلى النبي فالمراد به الأمة .
[أ جعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون] أي هل جعلنا فيما مضى معبوداً سوى الله
يعبده قوم فإنتهم يقولون إنا لم نأمرهم بذلك . وقيل : معنى الآية سل الأنبياء وهم الذين
جمعوا له ليلة الأسرى في بيت المقدس وكانوا تسعين نبياً أو أكثر منهم موسى وعيسى ولم
يسألهم لأنه ﷺ كان أعلم بشرائع الله منهم .

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام : نحن قومه ونحن المسئولون وعن الصادق عليه السلام إيانا
عنى ونحن أهل الذكر ونحن المسئولون . وعنه عليه السلام : الذكر القرآن ونحن قومه ونحن
المسئولون . وفي البصائر عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال : رسول الله ﷺ وأهل بيته أهل
الذكر وهم المسئولون .

وفي الكافي والقمي عن الباقر عليه السلام إنه سئل عن هذه الآية وهي « واسأل من
قبلك من رسلنا » من ذا الذي سأل محمد ﷺ وكان بينه وبين عيسى خمسمائة سنة
فتلا هذه الآية « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى
الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا » قال : فكان من الآيات التي أراها الله محمداً ﷺ
حين أسرى به إلى البيت المقدس أن حشر الله له من الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين
ثم أمر جبرئيل فأذن شفعاً ثم أقام شفعاً ثم قال في إقامته حي على خير العمل ثم تقدم
محمد ﷺ فصلى بالقوم فأنزل الله « واسأل من أرسلنا الآية » فقال لهم رسول الله ﷺ
على ما تشهدون وما تعبدون ؟ فقالوا : نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنتك رسول
الله أخذت على ذلك موثيقنا وعهودنا .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث وأما قوله : « واسأل من أرسلنا »
الآية ، فهذا من براهين نبينا الذي آتاه الله وأراه من الآيات وأوجب به الحجة
على سائر خلقه لأنه لما جعله الله رسولاً إلى جميع الخلق خصه بالارتقاء إلى السماء عند
المعراج وجمع له يومئذ الأنبياء فعلم منهم ما أرسلوا به وحملوا من عزائم الله وآياته فأقرّوا
أجمعين بفضل وأوصيائه في الأرض من بعده وفضل شيعته وصيته من الخلق من المؤمنين

والمؤمنات الذين لم يستكبروا عن أمرهم وعرف من أطاعهم وعصاهم من أمهم وسائر من مضى ومن غير أوتقدّم أوتأخّر .

قوله تعالى : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال انى رسول رب العالمين (٤٦) فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون (٤٧) وما نريهم من آية الا هي اكبر من اختها وأخذناهم بالعذاب لعلمهم يرجعون (٤٨) وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون (٤٩) فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكتون (٥٠) ونادى فرعون فى قومه أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتى افلا تبصرون (٥١) ام أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين (٥٢) فلولوا الفى عليه أسورة من ذهب اوجاء معه الملائكة مقرنين (٥٣) فاستخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوماً فاسقين (٥٤) .

المقصود من إعادة قصة موسى و فرعون في هذا المقام أن كفّار قريش لما طعنوا في نبوة محمد ﷺ بسبب كونه فقيراً عديم المال والجاه يسن الله أن موسى بعد أن أورد المعجزات القاهرة الباهرات التي لا يشكّ فيها عاقل أورد فرعون عليه هذه الشبهة التي ذكرها كفّار قريش فقال : إني غنيّ كثير المال وأما موسى فإنه فقير مهين وهذه الشبهة مثل شبهة قريش و كفّار مكة حيث قالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

والحاصل قوله : [ولقد أرسلنا موسى بآياتنا] أي بحججنا [إلى فرعون] وأشرف قومه وخصّ الملائكة بالذكر وإن كان أيضاً مرسلأ إلى غيرهم لأنّ من عداهم تبع لهم [فقال] موسى : [إني رسول ربّ العالمين] أرسلني إليكم . [فلما جاءهم بآياتنا] أي فلما أظهر المعجزات التي هي اليد البيضاء والعصاة [إذا هم منها يضحكون] أي فاجأوا وقت ضحكهم من الآيات واستهزؤوا بها أو لما رأوها ولم يتأملوا فيها استخفافاً وجهلاً منهم .

[وما نريهم من آية إلا هي أكبر من اختها] والمراد بذلك ما ترادف عليهم من

الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس وكانت كل آية من هذه الآيات أكبر من التي قبلها [وأخذناهم بالعذاب] وهي العذاب المذكور [لعلهم يرجعون] لكي يتوبوا ويرجعوا عما هم عليه لأنهم عذبوا بهذه الآيات فكانت الآيات عذاباً لهم ومعجزات لموسى عليه السلام .

فغلب عليهم الشقاء ولم يؤمنوا [وقالوا يا أيته الساحر] يعنون بذلك يا أيها العالم وكان الساحر عندهم عظيماً يعظمونه ولم تكن عندهم صفة ذم وقيل : إنما قالوا : يا أيها الساحر استهزاء بموسى وأرادوا أيها الذي غلبنا بسحره [ادع لنا ربك بما عهد عندك] أي بما زعمت أنه عهد عندك وهو أنه ضمن لنا أننا إذا آمنا بك أن يكشف العذاب عنا [إننا لمهتدون] أي راجعون إلى الحق الذي تدعونا إليه متى كشف العذاب عنا وفي الكلام حذف والتقدير فدعا موسى وسأل ربه أن يكشف العذاب عنهم فكشف الله عنهم ذلك [فلمّا كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون] وينقضون العهد .

[ونادى فرعون في قومه] ولما رأى فرعون أمر موسى يزيد على الأيام ظهوراً واعتلاء خاف على ملكه وأظهر الخداع فخطب الناس بعد ما اجتمعوا وقال : [أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون] فأظهر اللعين بسطته في الملك والمال وهذه الأنهار والمراد الأنهار التي فصلوها من النيل ومعظمها كانت أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس كانت الأنهار تجري تحت قصره .

فلمّا اجتج بقوة جاهه قال : [أم أنا خير من هذا الذي هو مهين] والغرض بأن موسى فقير ضعيف الحال ومهين ولا يعتنى به لضعف حاله وعنّى بقوله : [ولا يكاد يبين] حبة ورتة كانت في لسانه عليه السلام ولا يكاد يفصح بكلامه وقيل : كانت الرتة والعقدة لكن زالت عن لسانه حين أرسله الله كما قال : مخبراً عن نفسه « واحلل عقدة من لساني »^(١) ثم قال الله تعالى : « قد أوتيت سؤلوك »^(٢) ، وإنما عيّر اللعين بما كان في لسانه قبل ذلك والمهين الفقير الذي يمتن نفسه في جميع ما يحتاج إليه ليس له من يكفيه أمره وقيل . كان

(١) طه : ٢٢ .

(٢) طه : ٣٦ .

في لسانه لثغة فرفعه الله وبقي فيه ثقل .

قوله : « أم أنا » اختلفوا في معنى « أم » قال أبو عبيدة منقطعة معناها بل أنا خير وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله : « أفلا تبصرون » ثم ابتداء فقال : « أم خير » بمعنى بل أنا خير وقال الأكترون : أم هذه متصلة وأن المعنى أفلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه وضع قوله : أنا خير موضع تبصرون وقالوا في الآية : إن تمام الكلام عند قوله : « أم » وقوله : « أنا خير » ابتداء كلام والتقدير أفلا تبصرون أم تبصرون لكنني اكتفى فيه بذكر أم كما تقول لغيرك أنا كل أم أي أنا كل أم لأننا كل تقتصر على ذكر أم إشاراً للاختصار فكذا ههنا .

قوله : [فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب] أي هلاً طرح عليه أسورة من ذهب إن كان صادقاً في نبوته وهلاً ألقى إليه مقاليد الملك لما أنهم كانوا إذا سؤدوا رجلاً سؤروه بسوار من ذهب .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصا فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه فقال : ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام الملك وهما بما ترون فهلاً ألقى عليها أسورة وطوقاً بطوق من ذهب . وأسورة جمع سوار وقرى أسورة جمع أسوار بمعنى السوار على تعويض التاء من ياء أساور ، وقرى ألقى على البناء للفاعل وهو الله .

وحاصل المعنى أن فرعون كان يقول : أنا أكثر منه مالاً وجاهاً فوجب أن أكون أفضل منه فيمتنع أن يكون رسولاً لأن منصب النبوة يقتضي المخدومية والأخس لا يكون مخدوماً للأشرف وهي عين المقدمة التي تمسك بها كفار قريش في قولهم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

ثم قال : [أو جاء معه الملائكة مقترنين] متتابعين يعينونه على أمره الذي به له و يشهدون له بصدقه متناصرين متعاضدين قال الزجاج معناه : يمشون معه و يدلون ويشهدون بصحة نبوته .

ثم قال : [فاستخف قومه فأطاعوه] أي إن فرعون استخف عقول قومه فأطاعوه فيما دعاهم إليه لأنه احتج عليهم بما ليس بدليل وهو « أليس لي ملك مصر ، إلى آخره ، لأن الدليل الذي يدل على النبوة وصدق الرسل هو المعجز [إنهم كانوا قوما فاسقين] خارجين عن طاعة الله حيث أطاعوا ذلك الجاعل الفاسق .

قوله تعالى : فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين (٥٥) فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين (٥٦) ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون (٥٧) وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون (٥٨) ان هو إلا عبد أنعمنا عليه و جعلنا مثلاً لبنى اسرائيل (٥٩) و لو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون (٦٠) .

ثم أخبر سبحانه عن انتقامه من فرعون وقومه فقال : [فلما آسفونا] أي أغضبونا عن ابن عباس وجماعة وغضب الله على العصاة إرادة عقوبتهم ، ورضاه عن المطيعين إرادة ثوابهم الذي يستحقونه وقيل : آسفوا رسلنا لأن الأسف لا يجوز على الله [انتقمنا منهم] أي انتقمنا لأوليانا منهم [فأغرقناهم أجمعين] ما نجا منهم أحد .

[فجعلناهم سلفاً] أي متقدمين إلى النار والسلف كل شيء قدّمته من عمل أو قرض أو المتقدم على غيره قبل مجيء وقته ومنه السلف في البيع والسلف نفيس الخلف [ومثلاً] أي جعلناهم مثلاً يتمثلون بهم وعبرة وموعظة [للآخرين] أي لمن جاء بعدهم والمعنى أن حال غيرهم يشبه حالهم إذا أقاموا على العصيان .

قوله : [ولما ضرب ابن مريم مثلاً] قال أبو علي الفارسي : المثل واحد يراد به الجمع ويطلق على أكثر من واحد لقوله تعالى : « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن زرقناه^(١) » فأريد بالمثل مثلين .

وبالجملة اختلف في وجوه معنى الآية :

الاول : أنه لما ضرب الله المسيح مثلاً بآدم في قوله : « إن مثل عيسى عند الله كمثل

آدم خلقه من تراب^(١)، أي كما أنه تعالى أنشأ آدم من تراب وجعله إنساناً من غير أب وأم كذلك أنشأ المسيح من غير أب، فهو مخلوق مربيوب مثل آدم ولا ينبغي أن يعبد . وبعد أن نزلت : «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» جادل ابن الزبيري رسول الله ﷺ في هذه الآية وقال : أهذا لنا ولا لهتنا أو لجميع الأمم فقال ﷺ : هو لكم ولا لهتكم وجميع الأمم فقال : خصمتك ورب الكعبة أليس النصراني يعبدون المسيح واليهود عزيزاً و بنو مليح الملائكة فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرح المشركون وضحكوا وارتفعت أصواتهم وذلك معنى قوله : [إذا قومك منه يصدون] أي قومك قريش من هذا المثل يرتفع لهم ضجيج وجلبة جدلاً وضحكاً بسبب ما رأوا من سكوت رسول الله .

وقرىء بضم الصاد وهو قراءة عليّ عليه السلام وبكسر الصاد وهو قراءة الباقرين أمّا الضم فمن الصدود أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه وأمّا بالكسر فمن الضجيج والصياح .

[وقالوا آلهتنا خير أم هو] يعنون أن آلهتنا عندك ليست خيراً من عيسى فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون وسكوته ﷺ ليس من باب الإفحام وغلبتهم في الحجّة ولكن كان ينتظر الحجّة من الوحي وقد روي أنه لما قال ابن الزبيري : خصمتك ورب الكعبة قال ﷺ : ما أجهلك بلغة قومك ؟ أما فهمت أن «ما» لما لا يعقل . ثم بعد هذه المجادلة أنزل الله قوله : «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون» ونزلت هذه الآية .

ثم قال تعالى : [ما ضربوه لك إلا جدلاً] أي ما بينوا هذا العنوان والمثل لك إلا ليخاصموك ويدفعوك به عن الحق [بل هم قوم خصمون] أي جدلون في دفع الحق بالباطل .

الوجه الثاني : في بيان الآية أن الكفار لما سمعوا أن النصراني يعبدون عيسى

قالوا: إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعبدون الملائكة.

الوجه الثالث: في تفسير الآية وهو أن النبي ﷺ لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح إلهاً لأنفسهم قال كفار مكة: إن محمدًا ﷺ يريد أن يجعل لنا إلهاً كما جعل النصارى عيسى إلهاً لأنفسهم ثم عند هذا قالوا: آلهتنا خير أم هو يعني آلهتنا خير أم محمد وإنما ذكروا ذلك لأجل أنهم قالوا: إن محمدًا يدعونا إلى عبادة نفسه وآباؤنا زعموا أن عبادة الأصنام واجبة فعبادة هذه الأصنام متطابقة لقول آبائنا فقبول هذه العبادة من الأصنام أولى من قبول قول محمد.

ثم بين سبحانه أن الاشتغال بعبادة المسيح باطل مثل عبادة الأصنام فإن عيسى ﷺ عبد أنعمنا عليه فقال: [إن هو إلا عبد أنعمنا عليه] أي وما عيسى إلا كعبد من العبيد فصار من أمره أنه ممن أنعمنا عليه بالنبوة وخصصناه ببعض الخواص البديعة بأن خلقناه بوجه بديع وقد خلقنا آدم بوجه أبداع منه فأين هو من رتبة الربوبية ومن أين يتوهم صحة مذهب عبدته حتى تفتخر عبدة الملائكة بكونهم أهدى منهم.

وفي خلقه عيسى آية لهم ودلالة يعرفون بها قدرة الله فقال: [وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل] أي جعلنا عيسى آية لهم حتى يرون من أعاجيب صنع الله.

ثم قال سبحانه: [ولو نشاء لجعلنا منكم] أي لو أردنا لجعلنا بدلاً منكم معاشر بني آدم [ملائكة في الأرض يخلفون] بني آدم أي كنّا نجعل الملائكة بدلاً من بني آدم في الأرض أي نهلككم يا بني آدم وجعلنا الملائكة سكان الأرض يعمرونها ويعبدون الله ومثل قوله: «منكم» ما في قول الشاعر:

فليت لنا من ماء زمزم شربة * مبردة باتت على الطهيان

وقيل: معنى الآية ولو نشاء لجعلناكم أيها البشر ملائكة إشارة إلى قدرته تعالى على تغيير بنية البشر إلى بنية الملائكة، يخلفون أي بعضهم بعضاً.

وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم (٦١) ولا يصدنكم الشيطان انه لكم عدو مبين (٦٢) ولما جاء عيسى بالبينات قال قد

جئتمكم بالحكمة ولا يبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعوا (٤٣)
ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (٦٤) فاختلف الاحزاب من
بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم (٦٥) .

يعني أن نزول عيسى من السماء لعلم و تصديق وموجب ليقين وقوع الساعة ، و
تسميته علماً لحصول العلم به أو بحدوثه بغير أب أو بإحيائه الموتى وآثاره التي صدرت
منه ﷺ يستدل على صحة البعث الذي ينكره الكفار وقرئ «لعلم» أي علامة وفي الحديث
إن عيسى ينزل على ثنية في الأرض المقدسة يقال لها أفيق ويده حربة وبها يقتل
الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام
فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد ﷺ ثم يقتل الخنازير و يكسر الصليب و
يخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن بشريعة أحمد والقرآن .

وقيل : إن الضمير في قوله : «وإنه» يعود إلى القرآن ومعناه أن القرآن لدلالة
على قيام الساعة والبعث لأنه آخر الكتب أنزل على آخر الأنبياء [فلا تمترن بها] أي لا
تشكوا في وقوعها [واتبعون] هداي أو شريعتي أو رسولي [هذا] أي القرآن وما أدعوكم
به [صراط مستقيم] أي هذا الذي أنا عليه طريق واضح فيم .

[ولا يصدنكم الشيطان] ولا يصرفنكم بوساوسه عن دين الله [إنه لكم عدو مبين]
بين العداوة يدعوكم إلى ما فيه هلاككم .

ثم أخبر سبحانه عن حال عيسى حين بعثه الله رسولا فقال : [ولما جاء عيسى بالبينات
والمعجزات الدالة على نبوته أو المراد منها الإنجيل] قال لهم قد جئتمكم بالحكمة [أي
بالنبوة والعدل والتوحيد و الشرائع] ولا يبين لكم بعض الذي تختلفون فيه [أي قد
جئتمكم لا يبين مختلفاتكم .

والمراد من البعض في الآية الكل كقول ليبيد : «أو يخترم بعض النفوس همامها ،
أي كل النفوس وذلك إن قوم موسى كانوا قد اختلفوا في أشياء من أحكام التكاليف واتفقوا
على أشياء فجاء عيسى ليبين لهم الحق في الخلافات و بالجملة فالحكمة معناها أصول
الدين وبعض الذي يختلفون فيه فروع الدين .

فإن قيل : لم يقل ولم يسن لهم كل الذي يختلفون فيه ؟ فالجواب أن الناس قد يختلفون في أشياء لأحاجة لهم إلى معرفتها فلا يجب على الرسول بيانها قال الزجاج : و الصحيح أن البعض لا يكون في معنى الكل والذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه و يسن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه و قول لبيد إنما عنى نفسه أو المراد من البعض مختلفات أمور الدين دون أمور الدنيا .

[فأتفقوا الله] بأن تعتنبوا معاصيه [وأطيعون] في ما أَدْعُوكم إليه .
[إن الله هو ربي وربكم] الذي يحق له العبادة [فاعبدوه] خالصاً ولا تشرِكوا به معبوداً [هذا صراط مستقيم] يفضي بكم إلى الجنة وثواب الله .
[فاختلف الأحزاب من بينهم] أي الفرق المتحزبة بعد عيسى ﷺ وهم الملكانية واليعقوبية والنسطورية بعد عيسى وقيل : اليهود والنصارى اختلفوا في أمر عيسى والضمير في « من بينهم » يرجع إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله : « قد جئتكم بالحكمة » المبعوث عليهم .

[فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم] مر تفسيره هو يوم القيامة ويجوز أن يكون وعيداً بيوم الأحزاب .

قوله تعالى : هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون (٦٦)
الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين (٦٧) يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون (٦٨) الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين (٦٩) ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون (٧٠) يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشهيه الأنفس وتلذذ الأعين و أنتم فيها خالدون (٧١) وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون (٧٢) لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون (٧٣)
ان المجرمين في عذاب جهنم خالدون (٧٤) لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون (٧٥) .

ثم وبَّخ سبحانه الكفار بقوله : [هل ينظرون] أي هل ينتظرون هؤلاء الكفار بعد ورود الرسل والقرآن [إلا الساعة] أي القيامة [أن تأتيهم بغتة] أي فجأة [وهم لا يشعرون]

أي لا يدرون وقت مجيئها .

[الأُخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ] أي إن الذين تواصلوا و تحاببوا في الدنيا يكون بعضهم أعداء بعض ذلك يوم القيامة وهم الذين تخالّوا في الكفر والمعصية واتّحدوا في مخالفة الرسول ؛ لما يرى كل منهم من العذاب بسبب تلك المصادقة .

ثم استثنى من جملة الأُخلاء المتّقين فقال : [إلّا المتّقين] الموحدين الذين خال بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى فإن تلك الخلّة تتأكّد بينهم ولا تنقلب عداوة ومن المعلوم أن المحبّة أمر لا يحصل إلّا عند حصول خير أو دفع شرٍّ و ضرر فمتى حصل هذا الأمر حصلت المحبّة لا محالة ومتى حصل اعتقاد أنه يوجب ضرراً حصل البغض والنفرة إذا عرفت هذا فذلك الخير الذي كان اعتقاد حصوله يوجب حصول المحبّة إمّا أن يكون قابلاً للتغيّر والتبدّل أو لا يكون كذلك فإن كان القسم الأوّل وجب أن تبدّل تلك المحبّة إلى النفرة لأن تبدّل العلة يوجب تبدّل المعلول لأن حصول المودة بسبب الخير والراحة فإذا زال ذلك الاعتقاد وتحقّق عقيبه الضرر والألم وجب أن تتبدّل المحبّة بالبغضة أمّا إذا كان الخير الموجب للمحبّة أبدياً باقياً غير قابل للتغيّر كانت المحبّة باقية كمحبّة المؤمنين بعضهم بعضاً وليست لغرض فإن بل هي نافعة وثابتة ولا توجب البغضة لأن خيرها ونفعها باق فحينئذ الأُخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلّا المتّقين .

قوله تعالى : [يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون] و من أحكام يوم القيامة قوله : « يا عباد » الآية ، وقد جرى عادة القرآن بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين (١) كأن الله يخاطبهم ويقول لهم : يا عبادي لاخوف عليكم اليوم ولا حزن .

وفي هذا الخطاب أنواع كثيرة ممّا يوجب الفرح: أوّلها أنه تعالى خاطبهم وميّرهم عن غيرهم من غير واسطة . والثاني أنه وصفهم بالعبودية وهذا تشرّيف عظيم لأنّه لما أراد سبحانه أن يشرف عبداً عليه ليلة المعراج قال : « سبحانه الذي أسرى بعبدته » .

(١) يقول ذلك المؤلف قدس سره تبعاً للفخر الرازي وهو وهم لانه تعالى عزوجل قال : « أنتم أضلّتم عبادي ام هم ضلّوا السبيل » وقال عز من قائل « يا عسرة على العباد ما يأتيهم من رسول انا كانوا به يستهزؤن » وغير ذلك .

والثالث نفي الخوف والحزن عنهم بقوله : « لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » .
ثم قال : [الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين] أي أعني الذين صدقوا بحججنا ودلائلنا واتبعوها وقوله : « يا عباد » حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله ، وقوله : « الذين آمنوا » منصوب المحل صفة لعبادي لأنه منادى مضاف ، أي العباد الموصوفين بالتصديق بآياتنا وجاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا وقبول حججنا وقيل : إذا بعث الله الناس فرع كل واحد فينادي مناد يا عباد فيرجوها الناس كلهم ثم يتبعها بقوله : « الذين آمنوا » فيئأس الناس غير المسلمين المتقين وينكس أهل الأديان الباطلة رموسهم .

ويعمر حساب المتقين على أسهل الوجوه و يحاسب حساباً يسيراً ثم يقال لهم : [ادخلوا الجنة أنتم و أزواجكم تحبرون] أي أزواجكم اللاتي كن مؤمنات مثلكم وقيل : المراد من الأزواج أزواج الجنة من الحور العين « تحبرون » أي تسرون وتمكرومون والحبرة المبالغة في الإكرام بحيث يظهر حباريه وأثره على وجوههم كقوله : « تعرف في وجوههم نضرة النعيم »^(١).

[يطاق عليهم بصحاف من ذهب وأكواب] أي يدور عليهم بقصاع من ذهب فيها ألوان الأطعمة وكيزان لا عروة لها مستديرة الرأس ليس لها خرطوم والكوب بحكم الكأس للشراب واكتفى سبحانه بذكر الصحاف والأكواب عن ذكر الطعام والشراب .

[وفيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين] وقرئ بحذف الهاء من تشتهيه وحسن الحذف في أمثاله كقوله : « أهذا الذي بعث الله رسولا »^(٢) ، وقوله : « وسلام على عباده الذين اصطفى »^(٣) ، أي وفي الجنة المدخولة ما يميل النفس إليه من أنواع النعيم من المأكول والمشروب والملبوس والمشموم وما تلذ الأعين بالنظر إليه وأضاف الالتذاز إلى الأعين مع أن المتلذذ هو الإنسان لأن التذاز الأعين سبب التذاد الإنسان .

وقد جمع الله سبحانه بقوله : « ما تشتهي النفس وتلذ الأعين » ما لواجتمع الخلائق

(١) المطففين : ٢٤ .

(٢) الفرقان : ٤١ .

(٣) النمل : ٥٣ .

كلهم على أن يصفوا ما في الجنة من أنواع النعيم لم يزدوا على ما انتظمه هاتان الصفتان .

[وأنتم فيها] أي في الجنة وهذه النعم دائمون [خالدون] وتلك الجنة التي أورتتموها بما كنتم تعملون [وتلك الجنة مبتدة وخبر أو مبتدة وخبره «آتي أورتتموها» وأعطيتهموها ، أو التي أورتتموها صفة وبما كنتم تعملون خبره قال ابن عباس : الكافر يرث نار المؤمن والمؤمن يرث جنة الكافر لقوله : « أولئك هم الوارثون » .

[لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون] فجمع سبحانه في الوصف بين الطعام والشراب والفواكه والدوام فهذه غاية الأمانة .

ثم أخبر عن أحوال أهل النار فقال : [إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون] ودائمون [لا يفتّر عنهم] العذاب ولا يخفف [وهم فيه] أي في العذاب [ملبسون] آيسون من كل خير ويجعل المجرم في تابوت من النار ثم يقفل عليه فبقي خالداً لا يرى ولا يرى وهذه الترغيبات والترهيبات تكميلاً لرغباتهم ودواعيهم في الطاعات وتحذيراً عن الشرك والمعاصي .

قوله تعالى : وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين (٧٦) و نادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون (٧٧) لقد جئناكم بالحق و لكن أكثركم للحق كارهون (٧٨) أم أبرموا أمراً فانا مبرمون (٧٩) أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون (٨٠) قل ان كان للرحمن ولد فأنا اول العابدين (٨١) سبحانه رب السموات والارض رب العرش عما يصفون (٨٢) فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون (٨٣) وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله وهو الحكيم العليم (٨٤) وتبارك الذي له ملك السموات والارض وما بينهما وعنده علم الساعة واليه ترجعون (٨٥) .

لما بين سبحانه ما يفعل بالمجرمين بين سبحانه أنه لم يظلمهم بذلك فقال : [وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين] لنفوسهم بما جنوا عليها من العذاب . [ونادوا يا مالك] أي ويدعون خازن جهنم فيقولون يا مالك وقرىء يا مال بالترخيم

على قراءة ابن مسعود فقيل لابن عباس : إن ابن مسعود كذلك يقره فقال ابن عباس : ما أشغل أهل النار عن هذا الترخيم وأجيب بأن غاية العذاب والضعف سبب ترخييمهم بحيث لا يمكنهم أن يذكروا من الكلمة إلا بعضها لا من باب العريضة قال ابن جنبي : إن قولهم : يا مال في هذا الموضع سر وهو أنه لعظيم عذابهم فثبت قواهم وقصر كلامهم .

[ليقض علينا ربك] أي ليمتنا ربك حتى تتخلص ونستريح من هذا العذاب قال ابن عباس وجماعة : إنما يجيبهم مالك بذلك بعد ألف سنة و قيل : بعد أربعين عاماً وما يدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة فقول مالك مجيباً لهم : [إنكم ما كثون] أي لا بشون دائماً وقوله : « ليقض » من قضى عليه إذا أماته كقوله : « فو كزمو موسى فقضى عليه ^(١) » والمراد سل ربك أن يقضي علينا .

فإن قيل : كيف قال : « ونادوا يا مالك » بعد ما وصفهم بالابلاس ^(٢) ؟ فالجواب تلك أزمئة متطاولة وأحقاب ممتدة فيختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لعلة اليأس وعلمهم بعدم الفرج ويغوثون تارة لشدة ما بهم وقوله : « ما كثون » استهزاء وإلا فالملك يستعمل في الزمان القليل .

قوله : [لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون] أي يقول الله : لقد أرسلنا إليكم الرسل بالحق ، وأضافه سبحانه إلى نفسه لأنه كان بأمره . وقيل : يقول المالك : وإنما قال : « جئناكم » لأنه من الملائكة وهم من جنس الرسل والمراد من الحق القرآن والإسلام أي ولكنكم معاصر الخلق أكثركم للحق كارهون لأن الحق خلاف مشتهياتكم فكرهتموه والباطل موافق لها فالفتموها وكرهتم مفارقتة .

قوله : [أم أبرموا أمراً] أم منقطعة كلام مبتدئ ناع على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله ﷺ معناها بل للانتقال في توبيخ المشركين أي بل أحكموا أمراً في كيد محمد والمكر به ﷺ [فإنا مبرمون] محكمون أمراً في مجازاتهم وكيدهم لأنهم كانوا يتشاورون في إهلاكه ﷺ وإيذائه في دار الندوة وهو قوله تعالى : « وإذ يمكر بك

(١) القصص : ١٥ .

(٢) أي في قوله مبلسون .

الذين كفروا ^(١) .

ثم قال تعالى : [أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم ونجواهم] والنجوى ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال والمعنى بل يظن هؤلاء الكفار أننا لا نسمع ما يسرّون ومعنى السرّ ما يضمّره الإنسان في نفسه ولا يظهره لغيره والنجوى ما يحدث به المحدث غيره في الخفية [بل] نسمع ذلك وندركه .

[ورسّلنا لديهم يكتبون] ما يقولونه ويفعلونه يعني الحفظة من الملائكة قال: يحيى ابن معاذ : من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السماوات فقد جعله أهون الناظرين وهو من علامات النفاق .

[قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين] وقرئ « وولد » بضم الواو وسكون اللام واختلف في معناه :

أحدها : أن معناه « إن كان للرحمن ولد » في زعمكم « فأنا أول العابدين » أي الموحدين لله المكذّبين لقولكم بإضافة الولد إليه .

و ثانيها : أن معناه لو كان له ولد لكنت أنا أول الآتفين من عبادته لأن من كان له ولد لا يكون إلا جسمًا محدثًا ومن كان كذلك لا يستحقّ العبادة معني العابد في الأنف مأخوذ من قولهم : عبدت من الأمر أي أنفت منه قال الفرزدق :

أولئك قومي إن هجوني هجوتهم * وأعبد أن تهجى كليب بدارم
ولكن نصفاً إن سببت وسبّني * بنو عبد شمس من قريش وهاشم
و ثالثها : أن « إن » بمعنى ما النفي والمعنى ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لله المفرّين بذلك .

ورابعها أنه يقول : كما إنني كنت أول من عبد الله كذلك ليس لله ولد وهذا كما تقول : إن كنت كاتباً فأنا حاسب تريد لست كاتباً ولا حاسباً .

وخامسها أن معناه لو كان له ولد لكنت أول من يعبد به بسبب أن له ولد ولكن لأولد له وحاصل المعنى لولد الدليل على أن له ولداً لقلت به ولكنّه لا يدلّ فيكون المعنى

تحقيقاً لنفي الولد وتبعيداً له لآنه تعليق محال بمحال .
قال الزمخشري : معنى الآية : إن صحّ وثبت ذلك بالبرهان و بحجة واضحة
توردونها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته كما يعظم الرجل ولد الملك
لتعظيم أبيه والكلام وارد على سبيل الفرض والغرض المبالغة في نفي الولد وذلك أنه علق
العبادة بكيونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلها فالبيان في صورة
إثبات الكينونية والعبادة وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها وهذا المعنى هو الوجه
الخامس من الوجوه المذكورة .

قال الرازي في المفاتيح : إنهم ظنوا أن قوله : « إن كان للرحمن ولد فأنا أول
العابدين » لو أجريناه على ظاهره فآنه يقتضي وقوع الشك في إثبات الولد لله لاجرم
عدلوا إلى التأويل لكن لا يحتاج البيان عن العدول عن الظاهر لأن القضية الشرطية
لا تفيد إلا كون الشرط مستلزماً للجزاء وليس فيها إشعار بكون الشرط حقاً أو باطلاً أو
يكون الجزاء واقعاً أو غير واقع بل القضية الشرطية مركبة من قضيتين سواء كانتا حقتين
أو باطلتين أو من شرط باطل وجزاء حق أو من شرط حق وجزاء باطل فهذا التركيب في الآية
لا يدلّ بإثبات الولد والعبادة مثل قوله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ^(١) » فالشرط في
الكلام قوله : « فيهما آلهة » والجزاء هو قوله : « لفسدتا » فالشرط في نفسه باطل وغير واقع والجزاء
أيضاً باطل وغير واقع لآنه ليس فيهما آلهة فحينئذ الشرط والجزاء غير واقع وباطل
فكذلك في هذه الآية فلم يحصل الشك للنبي ﷺ لأن حصول الشك في هذا الأمر
مع معرفته بالله سبحانه غير ممكن ومحال وبالجملّة فأجرى الآية على ظاهرها وأيد المعنى
الآخر ، انتهى .

[سبحان رب السماوات والأرض ربّ العرش العظيم] [عمّا يصفون] ثم نزه نفسه عن
ذلك فقال : « سبحان الآية » أي تنزيهاً عن الوالدية وإله العالم هو الواجب الوجود لذاته وكل
ما كان كذلك فهو فرد مطلق لا يقبل التجزي بوجه من الوجوه والولد عبارة عن أن ينفصل
عن الشيء جزء من أجزائه فيصير ذلك الجزء شخصاً مثله وهذا إنما يعقل فيما يكون
ذاته قابلاً للتجزي والتبعيض وإذا كان ذلك محالاً في حق إله العالم فامتنع إثبات الولد له .

ولما يبين هذا البرهان قال : [فذرهم يخوضو ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون] أي فاتركهم يغمروا في باطلهم ويلعبوا حتى يضلوا ويروا العذاب الأبدي وهو عذاب القيامة .

قوله : [وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله] أي هو تعالى في السماء والأرض على سبيل الإلهية والربوبية لأعلى معنى الاستقرار وفي الكلام نفي الآلهة التي كانت تعبد فيحقق له العبادة خاصة وتكرار لفظ «إله» للتأكيد وتمكين المعنى في النفس وإفادة أن العبادة يجب على الملائكة وعلى أهل الأرض من الجن والإنس [وهو الحكيم] في جميع أفعاله [العليم] بمصالح خلقه .

[وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما] أي دامت بركته فمنه البركات والسعادات ، مأخوذ من برك الإبل [وعنده علم الساعة] أي علم يوم القيامة ولا يعلم وقته على التعيين غيره [وإليه ترجعون] فيجازي كلاً على عمله .

قوله تعالى ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون (٨٦) .

ولما كانوا يزعمون أن آلهتهم لأموالهم شفعاء فذكر سبحانه أنه لا شفاعة ولا أثر لمعبودهم فقال : [ولا يملك الذين يدعون من دونه] أي الذي يدعو المشركون إلهاً ويوجهون عبادتهم إليه من الأصنام [الشفاعة إلا من شهد بالحق] وهم عيسى وعزير والملائكة استثناهم سبحانه ممن عبد من دون الله فإن لهم منزلة الشفاعة وقيل : المعنى لا يملك أحد من الملائكة وغيرهم الشفاعة إلا لمن شهد بالحق أي شهد أن لا إله إلا الله وذلك لأن النضرين الحرث ونفراً من قريش قالوا : إن كان ما يقوله محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه فزلت الآية فالمعنى أنهم يشفعون للمؤمنين بإذن الله [وهم يعلمون] بقلوبهم ماشهدوا بالسنتهم .

وفي الآية دلالة على أن حقيقة الإيمان هو الاعتقاد بالقلب لأن الله شرط مع الشهادة العلم بحيث لا يتشكك إذا شكك ولا يضطرب إذا حرك واحتج القائلون بأن إيمان المقلد لا ينفع بهذه الآية .

والاستثناء في قوله : « إلا من شهد بالحق » يمكن أن يكون منقطعاً أي لكن من شهد بالتوحيد و الحق و يمكن أن يكون متصلاً لأن في جملة الذين يدعون من دون الله الملائكة والمسيح وعزير لكن يشفعون للذين شهدوا بالتوحيد .

قوله : ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون (٨٧) وقيله يا رب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون (٨٨) فاصفح عنهم و قل سلام فسوف يعلمون (٨٩) .

[ولئن سألتهم] يا محمد [من خلقهم] من أخرجهم من العدم إلى الوجود أي إذا سألت العابدين و المعبودين من أوجدهم [ليقولن الله] لتعذر الإنكار لغاية بطلانه [فأنى يؤفكون] أي كيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع اعترافهم بكون الكل مخلوقاً له ؟

[وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون] قرئ بالحركات الثلاث ؛ قال الأخفش : النصب عطف على « أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم ونجواهم » وقيله أي قول الرسول و الضمير راجع إلى النبي ﷺ أي قول الرسول يارب الخ ، فإن القول وال قيل وال قال كلها مصادر . والرفع على الابتداء والخبر ما بعده . والجر على العطف بقوله : « علم الساعة » على تقدير حذف المضاف والتقدير وعنده علم الساعة وعلم قيله . قال الزمخشري : « والأقوى أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم ، أو النصب على محل الساعة لأن قوله : « وعنده علم الساعة » معناه أنه تعالى علم الساعة وقيله .

قال ابن عباس في تفسير الآية في قوله : « وقيله يارب » المراد : وقيل يارب والهاء زائدة عن أبي زيد : يقال ما أحسن قيلك وقالك وقولك ومقالك ومقالتك خمسة أوجه . وبالجمله إن النبي ﷺ لما ضجر من قومه و عرف إصرارهم على كفرهم أخبر عنهم أنهم قوم لا يؤمنون وهذا القول قريب من قول نوح حيث قال : « رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً » .

ثم إن الله تعالى قال له ﷺ : [فاصفح عنهم] أي صفح وجهك يا محمد عنهم [وقل سلام] ندبه سبحانه إلى الحلم أي المداراة والمطاركة .

وقيل : هو سلام هجر ومجانبة لاسلام محبة وكرامة كقوله : سلام عليكم لا نبتغي
الجاهلين^(١) .

وقيل : معناه قل يا محمد : سلام ، تسلم من شرهم وأذاهم وهذا منسوخ بآية السيف
و لكن إذا كان المعنى و اصفح عن سفههم و لا تقابلهم بمثله فذلك مما علمه
سبحانه من مكارم الأخلاق فلا يكون منسوخاً . قوله : [فسوف
يعلمون] هددهم بيوم القيامة إذا عاينوا ما يحل بهم من
العذاب . تمت السورة بعونه .

سورة الدخان

﴿مكية﴾

عن النبي ﷺ قال : من قرأ الدخان في ليلة الجمعة غفر له .
قال أبو هريرة : عن النبي ﷺ من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح يستغفر له
سبعون ألف ملك .

وعنه عن النبي ﷺ قال : ومن قرأها في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له .
أبو أمامة عن النبي ﷺ قال : من قرأ سورة الدخان ليلة الجمعة ويوم الجمعة بنى الله
له بيتاً في الجنة .

وروى أبو حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : ومن قرأ سورة الدخان في فرائضه
و نوافله بعثه الله من الآمين يوم القيامة و أظله تحت ظل عرشه وحاسبه حساباً يسيراً و
أعطى كتابه بيمينه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) والكتاب المبين (٢) إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين (٣) فيها يفرق كل أمر حكيم (٤) أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين (٥) رحمة من ربك إنه هو السميع العليم (٦) رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين (٧) لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين (٨) بل هم في شك يلعبون (٩) فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين (١٠) يغشى الناس هذا عذاب اليم (١١) .

في [حم] وجوء الاحتمال : أولها أن يكون التقدير هذه حم [والكتاب المبين] والواو واو القسم كقولك : هذا زيد والله . والثاني أن يكون الكلام قد تم عند قوله : «حم» أي هذه سورة حم ثم قال : والكتاب المبين إنا أنزلناه فيكون إنا أنزلناه جواباً للقسم وأنكر الطبرسي هذا المعنى وقال : إن جواب القسم قوله : «إنا كنا منذرين» قال : ولا يصح أن يكون جواب القسم قوله «إنا أنزلناه» لأنك لا تقسم بالشيء على نفسه والمنزل هو الكتاب . والوجه الثالث أن يكون التقدير : «وحم» بحذف حرف القسم والكتاب المبين فيكون قسمين متوالين على شيء واحد .

و بالجملة أقسم سبحانه بالقرآن الدال على صحة نبوة نبينا وهو مبين فيه بيان الأحكام والفصل بين الحلال والحرام .

[إنا أنزلنا] القرآن [في ليلة مباركة] واللييلة المباركة هي ليلة القدر عن ابن عباس وجماعة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام . قيل : ليلة القدر هي ليلة النصف من شعبان عن عكرمة قال الطبرسي : والأصح الأول ويدل عليه قوله : «إنا أنزلناه في ليلة القدر»^(١) وكذلك قوله : «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن»^(٢) .

(١) القدر : ١ .

(٢) البقرة : ١٨٥ .

واختلف في كيفية إنزاله فقيل : أنزل إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ثم أنزل نجوماً إلى النبي ﷺ وقيل : إنه كان ينزل جميع ما يحتاج في سنة في تلك الليلة ثم كان ينزله جبرئيل عليه السلام شيئاً فشيئاً وقت وقوع الحاجة . وقيل : كان يدعو نزوله في ليلة القدر . وروى ابن عباس وقال : قد كلم الله جبرئيل في ليلة واحدة و هي ليلة القدر فسمعته جبرئيل وحفظه بقلبه وجاء به إلى السماء الدنيا إلى الكتبة وكتبوه ثم أنزل على محمد بالنجوم في ثلاث وعشرين سنة وقيل : في عشرين سنة .

وإنما وصف سبحانه هذه الليلة بالمباركة لأن فيها يقسم نعمه على عباده من السنة إلى السنة فيدوم بركاتها والبركة نماء الخير وثبوته وقيل : بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة ولها أربعة أسماء الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصلاة وليلة الرحمة ووجه التسمية بالبراءة لأن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة كذلك يكتب الله لعباده المؤمنين البراءة والصك .

قال الزمخشري : وهي مختصة بخصال : تفريق كل أمر حكيم وفضيلة العبادة فيها قال رسول الله ﷺ : من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك : ثلاثون يبشرونه بالجنة و ثلاثون يؤمنونه من عذاب النار و ثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشرة يدفعون عنه مكائد الشيطان . ونزول الرحمة قال ﷺ : إن الله برحم أمتي في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب وحصول المغفرة قال ﷺ : إن الله يغفر للمؤمنين جميعاً في تلك الليلة إلا لكاهن أو ساحر أو مشاحن صاحب البدعة التارك للجماعة أو مدمن خمر أو عاق للوالدين أو مصر على الزنا وقد أعطي فيها رسول الله ﷺ من تمام الشفاعة وذلك أنه ﷺ سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته فأعطي الثلاث منها وسأل ليلة الرابع عشر فأعطي الثلاث ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطي الجميع إلا من شرد عن الله شراد البعير ومن عادة الله في هذه الليلة أن يزيد في ماء زمزم زيادة ظاهرة ولا يخفى أن هذا الكلام ينطبق عند القائلين بأن ليلة القدر النصف من شعبان انتهى كلامه .

قوله : [إنا كنا منذرين] أي مخوفين بما أنزلناه من تعذيب العصاة [فيها يفرق كل أمر حكيم] أي في هذه الليلة يفصل ويبين ويقضي كل أمر محكم لا يلحقه الزيادة

والنقصان وهو أنه يقسم فيها الآجال والأرزاق وغيرها من أمور السنة إلى مثلها من العام القابل قال ابن عباس : إنك ترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى .
في الصافي في قوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم » أي بقدر الله في تلك الليلة من أمور تلك السنة ولكن فيه البداء والمشيئة يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء وينقص ويزيد ويلقيه إلى رسوله الله وهو عليه السلام يلقيه إلى أمير المؤمنين وهو يلقيه إلى الأئمة حتى ينتهي إلى القائم وبشترط فيه البداء .

و في الكافي عن الباقر عليه السلام قال : قال الله عز وجل : « فيها يفرق كل أمر حكيم » أي فيها ينزل كل أمر حكيم والحكيم والمحكم شيء واحد فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم الله و من حكم أمراً فيه اختلاف فرأى أنه مصيب فقد حكم بحكم الطاغوت إنه سبحانه لينزل في ليلة القدر إلى ولي الأمر تفسير الأمور يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا وكذا وفي أمر الناس بكذا وكذا وإنه ليحدث لولي الأمر سوى ذلك كل يوم علم الله الخاص والمكنون المخزون مثل ما نزل في ليلة القدر من الأمر ثم قرأ عليه السلام : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام »^(١) الآية .

وعنه : يا معشر الشيعة خاصموا بحكم و الكتاب المبين إنا أنزلناه . الآية ، فإنها لولاة الأمر خاصة بعد رسول الله .

قال الكاظم عليه السلام : حم محمد عليه السلام والكتاب المبين أمير المؤمنين عليه السلام واللييلة المباركة فاطمة عليها السلام فيها يفرق كل أمر حكيم يخرج منها خير كثير ورجل حكيم ورجل حكيم ورجل حكيم الحديث .

[أمراً من عندنا] يعني أننا تأمر ببيان ذلك ونسخه من اللوح المحفوظ [إنا كنا مرسلين] نهداً إلى عبادنا كمن كان قبله من الأنبياء [رحمة من ربك] أي رافة منّا بخلقنا ونعمة عليهم بما بعثنا إليهم من الرسل [إنه هو السميع] لمن دعاه [العليم] بمصالح الخلق .

تذييل : في بيان اللييلة المباركة : اعلم أنه اختلفوا في اللييلة المباركة فقال الأكثرون :

إنّها ليلة القدر، وقال بعض : إنّ اللّيلة المباركة ليلة البراءة وهي ليلة النصف من شعبان .

أمّا الأولون فقد احتجّوا على صحّة قولهم بوجوه :

الأول : أنّه تعالى قال : « إنّنا أنزلناه في ليلة القدر » وفي هذه الآية قال : « إنّنا أنزلناه في ليلة مباركة » فوجب أن يكون هذه اللّيلة المباركة هي تلك المسماة بليلة القدر لئلا يلزم التناقض .

الثاني : أنّه تعالى قال في صفة ليلة القدر : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كلّ أمر سلام هي ^(١) » وقال : أيضاً ههنا « فيها يفرق كلّ أمر حكيم » وهذا الكلام موافق ومناسب لقوله : « تنزل الملائكة والروح » وأيضاً ههنا قال : « أمراً من عندنا » وقال في تلك الآية : « بإذن ربهم من كلّ أمر » وقال ههنا : « رحمة من ربك » وقال في تلك السورة : « سلام هي » وإذا تقاربت الأوصاف وتساوت وجب القول بأنّ إحدى اللّيلتين هي الأخرى .

والثالث : من الوجوه نقل عمّاد بن جرير الطبري في تفسيره عن قتادة أنّه قال : نزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من رمضان والتوراة لست ليال منه والزبور لاثنتي عشرة ليلة مضت والإنجيل لثمان عشرة ليلة مضت منه والقرآن لأربع وعشرين ليلة مضت من رمضان واللّيلة المباركة هي ليلة القدر .

الرابع : أنّه إنّما سمّيت بالقدر لأنّ شرفها وقدرها عظيم ومعلوم أنّه ليس بسبب نفس ذلك الزمان لأنّ الزمان شيء واحد في الذات والصفات فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته بل إنّما شرفه بسبب أنّه حصل فيه أمور شريفة عالية ومعلوم أيضاً أنّ منصب الدين أعلى وأعظم من منصب الدنيا ، وأعلى منصباً في الدين هو القرآن لأجل أنّ به ثبت النبوة وبه ظهر الفرق بين الحقّ والباطل وبه ظهرت درجات أرباب السعادات ودرجات أرباب الشقاوات فعلى هذا لا شيء إلّا والقرآن أعظم قدراً وأعلى شرفاً فلو كان نزوله وقع في ليلة أخرى سوى ليلة القدر لكانت ليلة القدر هي هذه الثانية لا الأولى وحيث

أطبّقوا على أن ليلة القدر هي التي وقعت في رمضان لأنه سبحانه قال : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » علمنا أن القرآن إنما أنزل في تلك الليلة .

وأما القائلون بأن المراد من الليلة المباركة المذكورة في الآية هي ليلة النصف من شعبان فبما نقلوه عن رسول الله بقوله وما أعطي فيها رسول الله من تمام الشفاعة فإن صح ذلك عن رسول الله فلا مزيد عليه وإلا فالحق هو الأول لقوة الدليل انتهى .

قوله تعالى : [رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين] أي خالقهما وخالق ما بينهما إن كنتم موقنين بهذا الخبر محققين له إنه [لا إله إلا هو] يستحق العبادة ولا يستحق غيره العبادة [يحيي ويميت] أي يحيي بعد موتهم ويميتهم بعد إحيائهم [ربكم] الذي خلقكم [ورب آبائكم الأولين] الذين سبقوكم .

ثم ذكر سبحانه حال الكفار فقال : ليس هؤلاء بموقنين بما قلناه [بل هم في شك] مما أخبرناك [يلعبون] مع ذلك ويستهنون بك وبالقرآن إذا قرئ عليهم أن يشتغلوا بالدنيا وهو المراد من اللعب .

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال : [فانتظر يا محمد] أي فانتظر يا محمد [يوم تأتي السماء بدخان مبين] فانتظر يا محمد صلى الله عليه وسلم اليوم الذي تأتي السماء بالدخان وهو ظاهر ولا يشك أحد في أنه دخان .

واختلف في الدخان فعن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين و به أخذ جماعة أنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة حتى يكون الواحد منهم كالرأس الحنيد ويعتري المؤمن منه كهية حال المزكوم وتأخذه الزكمة وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص .

وعن رسول الله ﷺ أول آيات الدخان ونزول عيسى عليه السلام و نار يخرج من فم عدن أبين (اسم رجل ينسب إليه عدن) يسوق الناس إلى المحشر قال حذيفة : يا رسول الله وما الدخان فتلا رسول الله ﷺ الآية وقال يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة أما المؤمن فيصيبه كهية الزكمة وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخره وأذيه ودبره .

وقيل : المراد بالدخان دخان المجاعة و ذلك أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ وأصرّوا على تكذيبه قال : و دعا ﷺ عليهم : اللهم سنيناً كسني يوسف اللهم أشد وطأتك على مضر فأجذبت الأرض فاصابت قريشاً المجاعة وكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان و أكلوا العظام والجيف والعلهز و كان يحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان فمشى إليه ﷺ أبو سفيان ونفر من قريش معه و ناشدوا الله والرحم و واعدوه إن دعا لهم و كشف عنهم أن يؤمنوا فلمّا كشف عنهم رجعوا إلى شركهم فسأل الله لهم بالخصب والسعة فكشف عنهم ثم عادوا إلى الكفر .

[يغشى الناس هذا عذاب أليم] يعني أن الدخان يعمّ جميع الناس على القول الأول وأهل مكة على القول الثاني وهم الذين يقولون هذا عذاب أليم أي قائلين ذلك .

قوله تعالى : ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون (١٣) أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين (١٤) ثم تولّوا عنه وقالوا معلم مجنون (١٤) إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنهم عائدون (١٥) يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون (١٦) ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم (١٧) أن ادعوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين (١٨) وإن لا تعملوا على الله إني آتيكم سلطان مبين (١٩) و إني عدتُ بربي و ربكم أن ترجمون (٢٠) وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون (٢١) لما أخبر سبحانه أن الدخان يغشى الناس عذاباً لهم قالوا : أويقولون - على ما فيه من الخلاف في الدخان - : هذا عذاب أليم [ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون] بمحمد والقرآن .

فأنكر سبحانه عليهم بقوله : [أنى لهم الذكرى] أي من أين لهم الاتعاض و التذكر و كيف يتذكرون ؟ [وقد جاءهم رسول مبين] والحالة أنهم قد جاءهم رسول ظاهر الصدق والدلالة [ثم تولّوا عنه] و أعرضوا ولم يقبلوا قوله : [وقالوا معلم مجنون] أي يعلمه بشر ونسبوه إلى الجنون ، القمي قال : قالوا ذلك لأنّه لما كان ينزل عليه الوحي يأخذه الغشي فقاوا مجنون و تولّوا عنه و بهتوه بأنّ عداس غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علمه .

ثم قال سبحانه : [إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون] أي حيثما انكشف عنكم العذاب وأنتم تعودون إلى شركم لا تلبثون بعد الكشف على ما أنتم عليه من التضرع .
فإن قيل : كيف يستقيم على قول من جعل الدخان قبل يوم القيامة قوله : [إنا كاشفو العذاب قليلاً] ؟

فالجواب إذا أمت السماء بالدخان تضرع المذنبون به من الكفار والمنافقين و تعولوا وقالوا : ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ، منييون فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوماً فحيثما يكشفه عنهم يرتدون .

ثم قال سبحانه : [يوم نبطش البطشة الكبرى] يريد يوم القيامة كقوله : [فإذا جاءت الطامة الكبرى] (١)

وقيل : البطشة الكبرى يوم بدر والبطش التناول والأخذ بصولة [إنا منتقمون] منهم ذلك اليوم .

قوله : [ولقد فتنا قبلهم] أقسم سبحانه أنه فتن قبل كفار قوم النبي [قوم فرعون] فاخبرهم وشد عليهم التكليف لأن الفتنة شدة التعبد وأصلها الإحراق بالنار لخلاص الذهب من الغش أي اختبرنا قوم فرعون بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم [وجاءهم رسول كريم] على الله وعلى عباده المؤمنين وكريم في نفسه لأن الله لا يبعث نبياً إلا من سراة قومه وكرامهم وكان موسى عليه السلام كذلك .

[أن أدوا إلي] هي أن المفسرة أو المخففة من المثقلة أي جاءهم بأن الشأن والقصة أدوا إلي [عباد الله] وهم بنو إسرائيل يقول : أرسلوهم معي . ويجوز أن يكون ندا لهم والتقدير : أدوا إلي يا عباد الله ما هو واجب عليكم من قبول دعوتي واتباع سييلي وعلل ذلك بأنه [رسول أمين] قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته .

[وأن لا تعملوا على الله] أن هذه مثل الأولى في كونها مفسرة أو مخففة أي لا تمكبروا على الله بإهانة وحيه ورسوله [إنني آتيكم بسلطان مبين] بحجة بيّنة يعترف بها كل عاقل .

فلما قال ﷺ هذا الكلام توعدوه بالقتل والرجم فقال : [وإني عذت بربي و
ربكم أن ترجحون] أي لذت بمالكي و مالكم والتجأت به من أن ترجحوني بالحجارة
أوالمراد من الرجم الشتم كقولهم : هو ساحر كذاب [وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون] فلا
موالة بيني وبينكم و تنحوا عني أو المعنى فخلّوني ولا تتعرضوا عليّ بشركم و
إذاكم .

قوله تعالى : فدعا ربه ان هؤلاء قوم مجرمون (٢٢) فاسر بعبادي ليلا
انكم متبعون (٢٣) واترك البحر رهوا انهم جند مغرقون (٢٤) كم تركوا
من جنات وعيون (٢٥) وزروع ومقام كريم (٢٦) ونعمة كانوا فيها فاكهين (٢٧)
كذلك واورثناها قوماً آخرين (٢٨) فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا
منظرين (٢٩) .

ثم ذكر سبحانه قصة موسى أي فلما يس موسى أن يؤمنوا به دعا موسى [ربه]
فقال :

[إن هؤلاء قوم مجرمون] مشر كون لا يؤمنون فكأنه قال ﷺ : اللهم عجل
لهم ممّا يستحقّون بكفرهم وما دعا عليهم إلّا بعد أن أذن له في ذلك وقوله : [فأسر
بعبادي] الفاء وقعت موقع الجواب فأجيب بأن قيل له : فأسر وقرىء بقطع الهجزة من أسرى
ووصلها من سرى أي فاسر بني إسرائيل أي أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي [ليلاً
إنكم متبعون] أي يتبعكم فرعون وقومه ويصير ذلك سبباً لهلاكهم .

[واترك البحر رهوا] وفي الرهو قولان : أحدهما أنه الساكن يقال : عيس رام إذا
كان حافظاً ساكناً قال الأعشى :

يمشين رهواً فلا الأعجاز خازلة * ولا الصدور على الأعجاز تتشكل

أي مشياً ساكناً على تودة وقرار ، والثاني أن الرهو هو الفرجة الواسعة أي أترك
الطريق كما كان حتى يدخل قوم فرعون فيغرقوا وذلك لأنه أراد موسى لما جاوز البحر
أن يضربه بعصا لينطبق كما ضربه فانفلق فأمره الله بأن يتركه ساكناً على حاله ليدخله
القبض فإذا حصلوا فيه أطبقه الله . وحاصل المعنى أن اتركه على حاله منفرجاً [إنهم

جند مغفرون [وقرىء أنهم بالفتح بمعنى لا أنهم .

ثم قال : [كم تركوا من جنّات و عيون * و زروع و مقام كريم] فأخبر أنهم بعد غرقهم تركوا هذه النعم والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة وقيل : المنابر التي كانوا يمدحون فرعون عليها [ونعمة كانوا فيها فاكهين] والنعمة بالفتح من النون حسنه ونضارته و بالكسر من إنعام الله أي تركوا سعة في العيش ونعماً كانوا بها متنعمين ومتمتعين كما يستلذّ الآكل بأنواع الفواكه .

[كذلك وأورثناها قوماً آخرين] معناه كذلك أفعال بمن عصاني وإيراث النعمة تصييرها إلى الثاني بعد الأول بغير مشقة فلمّا كانت نعمة قوم فرعون وصلت بعد إهلاكهم إلى غيرهم كان ذلك ميراثاً من الله لهم والمراد بقوم آخرين بني إسرائيل لأنهم رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون .

[فما بكت عليهم السماء والأرض] اختلف في معناه على وجوه : أحدها : لم يبك عليهم أهل السماء والأرض لكونهم مسخوطاً عليهم، بحذف المضاف مثل قوله تعالى (١) : «حتى تضع الحرب أوزارها» أي أصحاب الحرب قال ذو الرمة :

لهم مجلس صهب السبال أذلّة * سواسية أحرارها وعبيدها

أي لهم أهل مجلس. والثاني : المراد في البيان تصغير قدرهم فإن العرب إذا أخبرت عن عظم المصائب بالهالك قالت : بكاه السماء والأرض وأنظلم لفقده الشمس والقمر قال جرير : يرثي عمر بن عبد العزيز :

الشمس طالعة ليست بكاسفة * تبكي عليك نجوم الليل والقمر
وقالت الخارجية :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً * كأنك لم تجزع على ابن طريف

و ذلك على سبيل الاستعارة التخيلية مبالغة في وجوه الجزع والبكاء وكذلك ما حكى عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية وقيل : وهل يبكيان على أحد ؟ قال : نعم مصلّي المؤمن في الأرض ومصعد عمله في السماء وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : ما

من مؤمن إلا وله باب يصعد عمله وباب ينزل رزقه فإذا مات بكيا عليه فعلى هذا يكون معنى البكاء في هذا المورد والإخبار عن الاختلال بعده كما قال مزاحم العجلي :

بكت دارهم من أجلهم فتهلكت * دموعي فأني الجازعين ألوم
أستعبر أيبكي من الهون والبلى * أم آخر يبكي شجوه و بهيم

وروى زرارة بن أعين عن الصادق عليه السلام أنه قال : بكت السماء على يحيى بن زكريا وعلى الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام أربعين صباحاً ولم تبك إلا عليهما ، قلت : وما بكأوها ؟ قال : كانت الشمس تطلع حمراء وتغيب حمراء . وقال السدي : لما قتل الحسين بكت السماء عليه ، وبكأوها حمرة أطرافها . وبالجملية فالمراد من قوله : « فما بكت عليهم السماء » التهكم واستصغار القدر .

ثم قال : [وما كانوا منظرين] أي لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا إلى وقت آخر التوبة وتدارك تقصير .

قوله تعالى : ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين (٣٠) من فرعون انه كان عالياً من المسرفين (٣١) ولقد اخترناهم على علم على العالمين (٣٣) وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين (٣٤) ان هؤلاء ليقولون (٣٤) ان هي الا موتنا الاولى وما نحن بمنشرين (٣٥) فاتوا بآبائنا ان كنتم صادقين (٣٦) أنهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم اهلكتناهم انهم كانوا مجرمين (٣٧) وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لآعين (٣٧) ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون (٣٩) ان يوم الفصل ميقاتهم اجمعين (٤٠) .

ثم أقسم سبحانه بقوله : [ولقد نجينا بني إسرائيل] الذين آمنوا بموسى [من العذاب المهين] يعني قتل الأبناء واستخدام النساء والاستعباد وتكليف المشاق [من فرعون] انه كان عالياً [متكبراً متغلباً] [من المسرفين] المجاوزين الحد في الطغيان والغالي في الإساءة .

[ولقد اخترناهم] أي اخترنا موسى وبني إسرائيل وفضلناهم بالتوراة وكثرة الأنبياء منهم [على علم] أي على بصيرة منّا باستحقاقهم التفضل [على العالمين] أي على

عالمي زمانهم . و قيل : الآية عام دخله التخصيص بقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس »^(١).

ثم قال : [وآتيناهم من الآيات] مثل فلق البحر وتظليل الغمام و إنزال المن والسلوى وغيرها من الآيات القاهرة [ما فيه بلاء مبين] اختبار ظاهر لتمييز الصديق عن الزنديق وههنا آخر الكلام في قصة موسى .

ثم ذكر سبحانه كفار مكة ورجع الكلام فيهم حيث قال : « بل هم في شك » يلعبون ، ورجع إلى حديثهم حيث كانوا منكرين للبعث فقال : [إن هؤلاء ليقولون * إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين] .

فإن قيل : القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية فكان من حقهم أن يقولوا إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين .

فالجواب أنه قيل لهم : إنكم تموتون مودة تعقبها حياة كما تقدمتكم مودة و تعقبها حياة وذلك قوله « و كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم »^(٢) ، فحينئذ قالوا : « إن هي إلا موتتنا الأولى » أي ما هذه الصفة التي تصفون بها المودة من تعقب الحياة إلا المودة الأولى خاصة فلا فرق إذن بين هذا الكلام وبين قوله : « إن هي إلا حياتنا الدنيا » أو المراد منهم في هذا الكلام أنه لا تأتينا شيء من الأحوال إلا المودة الأولى أي لا تأتينا الحياة الثانية ثم صرحوا فقالوا : « وما نحن بمنشرين » وقيل : المعنى ليست المودة التي تعقبها حياة إلا هذه المودة دون المودة التي تعقب حياة القبر وما نحن بمنشرين أي لا نحيا في القبر ولا نبعث في القيامة و نحيا كما نزعون .

[فأتوا بآياتنا إن كنتم صادقين] خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول والمؤمنين قالوا : إن كان الأمر على ما تقولون فاجعلوا لنا إحياء من مات من آياتنا . قيل : طلبوا من النبي ﷺ أن يدعو الله حتى ينشر قصي بن كلاب ليشاوروه في صحة نبوة محمد و في صحة البعث . و قيل : إن المقترح بهذا القول كان أوجهل ولما كانت المصلحة خير مقتضية

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) البقرة : ٢٨ .

لقبول اقتراحهم عدل سبحانه عن إجابتهم إلى الوعظ والوعيد فقال :
[أهم خير أم قوم تبّع] الحميري ، أي أمشركو قرش أكثر أموالاً وأعز في
القوة والقدرة أم قوم تبّع الذي حير الحيرة وسير بالجيوش من اليمن إلى سمرقند فهدمها
ثم حفر خندقها وبنّاها قيل : اسمه شمر بن أفرقش وسمرقند معرب شمر كندوقيل : اسمه
أسعد أبو كرب وسمي تبّعاً لكثرة أتباعه .

روى سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال : لا تسبّوا تبّعاً فإنه كان قد أسلم .
وقال كعب : نعم الرجل الصالح ذم الله قومه ولم يذمه . وروى الوليد بن صبيح عن أبي عبد الله
عليه السلام قال : إن تبّعاً قال للأوس والخزرج : كونوا ههنا أي في يثرب حتى يخرج هذا
النبي أما أنا لو أدركته لخدمته وخرجت معه والتبّع ليس اسم وعلم الفرد بل لقب ملوك
اليمن كما يقال لملك الترك خاقان وملك الروم قيصر وكان تبّع إذا كتب كتاباً كتب بسم
الذي ملك برّاً وبحراً . وقيل : هو الذي كسا البيت ويقال لملوك اليمن التبابعة لأنهم
يتبعون كما يقال : الأقبال لأنهم يتقبّلون وسمي الظل تبّعاً لأنه يتبع الشمس .

قوله : [والذين من قبلهم] أي من تقدّمهم من قوم نوح وعاد وثمود [أهلكناهم]
أي ليسوا بأقوى وأفضل منهم وقد أهلكناهم بكفرهم وهؤلاء مثلهم بل أولئك كانوا أكثر
قوة وعدداً فأهلك هؤلاء أيسر [إنهم كانوا مجرمين] أي إنهم كانوا كافرين فليحذر قومك
أن ينالهم مثل ما نال أولئك .

[وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعين] أي لم نخلق لغواً وعبثاً بل
لأن نفع المكلفين بذلك بضروب المنافع واللذات فذكر الدليل القاطع على صحة البعث
والقيامة أي ولو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعباً وعبثاً .

[ما خلقناها إلا بالحق] أي لغرض صحيح وعلى الحق الذي يستحق به الحمد
خلاف الباطل الذي يستحق به الذم [ولكن أكثرهم لا يعلمون] صحة ما قلناه
لعدولهم عن التدبير والنظر والطاعة .

[إن يوم الفصل كان ميقاتهم أجمعين] يعني ذلك اليوم يفصل فيه بين المبطل والمحق

ويوم القيامة يوم الحكم بين الأقسام المذكورة من قوم فرعون وقوم تبع ومن قبلهم وقومك أجمعين .

قوله تعالى : يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون (٤١)
إلا من رحم الله أنه هو العزيز الرحيم (٤٢) إن شجرة الزقوم (٤٣) طعام
الائيم (٤٤) كالمهل يغلي في البطون (٤٥) كغلي الحميم (٤٦) خذوه فاعتلوه
إلى سواء الجحيم (٤٧) ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم (٤٨) ذق إنك
أنت العزيز الكريم (٤٩) إن هذا ما كنتم به تمترون (٥٠) .

المعنى : شرح سبحانه يوم الفصل فقال :

[يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً] والمولى صاحب الذي من شأنه أن يتولى
معاونة صاحبه على أموره فيدخل في ذلك ابن العم والقراة والناصر والحليف وغيرهم ممن
يتصف بهذه الصفة .

وحاصل المعنى أن ذلك اليوم لا يغني فيه ولي عن ولي شيئاً ولا يقدر أن يدفع
المكروه عنه [ولا هم ينصرون] وهذا المعنى لا ينفي الشفاعة وإثباتها للنبي ﷺ
والأئمة والمؤمنين لأن الشفاعة لا تحصل إلا بأمر الله وإذنه والآية تدل على أنه ليس
لهم من يدفع عن عذاب الله وينصرهم من غير إذن الله ، وقد بين هذا بما أشر إليه باستثنائه
بقوله : [إلا من رحم الله] أي إلا الذين رحمهم الله من المؤمنين فإنه إما أن يسقط عذابهم
ابتداءً أو يأذن بالشفاعة فيهم لمن علت درجته عنده فيسقط عقاب المشفوع له بشفاعته [إنه
هو العزيز] في انتقامه من أعدائه [الرحيم] بالمؤمنين .

ثم أردف بالوعيد للكفار والوعد للأبرار فقال : [إن شجرة الزقوم طعام الأئيم]
وقد ذكرنا اشتقاق الزقوم في سورة الصافات .

«طعام الأئيم» قالت المعتزلة : الآية تدل على أن هذا الوعيد حاصل للأئيم والأئيم
هو الذي صدر عنه الإثم ، قال الرازي : ليس كذلك لأننا بيننا في أصول الفقه أن اللفظ
المفرد الذي دخل عليه حرف التعريف الأصل فيه أن ينصرف إلى المعهود والمذكور
السابق ولا يفيد العموم وههنا المذكور السابق الكافر فينصرف إليه ، انتهى كلامه .

قيل : إن المراد من الأثيم في الآية أبو جهل روي أنه أتى بتمر وزبد فجمع بينهما وأكل مع جماعة وقال هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به محمد نحن نتزقم به أي نملاً أفواها منه وقد فعل اللعين ذلك بعد أن نزل « أذلك خير أم شجرة الزقوم » وكان أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر التزقم فنزلت : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » .

[كالمهل] قرئ بضم الميم وفتحها وهو دردي من الزيت ويدل عليه قوله تعالى : « يوم يكون السماء كالمهل » مع قوله : « فكانت وردة كالدهان » وقيل : المهل مذاب النحاس و سائر الفلزات وهو ما يمهل في النار حتى يذوب [يفلي في البطون] الزقوم [كغلي الحميم] الماء الفائر الشديد الفور . ولا يجوز أن يحمل الغلي على المهل لأن المهل مشبه به وإتما يفلي ما يشبه بالمهل لا المهل وهو الزقوم وقرئ تغلي بالثاء باعتبار الشجرة .

روي أن أهل جهنم لما أكلوا الزقوم والضريع غلبا فيطلبون الماء فيسقون من الأثرية ثم قال سبحانه : [خذوه] أي خذوا الأثيم ، يأمر سبحانه الزبانية [فاعتلوه] والعتل أن تأخذ لمنكب الرجل و تجرّه إليك و تذهب به إلى حبس أو محنة ولذلك القود العنيف تسمى عتلاً وقيل : معناه جرّوه على وجهه [إلى سواء الجحيم] أي إلى وسطه .

[ثم صبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم] قال مقاتل : إن خازن النار يمرّ به على رأسه فيذهب دماغه عن رأسه ثم يصب فيه من ماء الذي انتهى حرّه ويقول له [ذق إنك أنت العزيز الكريم] وذلك أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ : ما^(١) بين جبليها أعزّ وأكرم منّي فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً وأنا أعزّ أهل الوادي فيقول له الملك ذق العذاب أيها المتعزّز المتكبر وهذا على طريق التهكم . ومعنى «إنك» لأنك ، قرأ به الحسن بن علي عليه السلام .

ثم قال : [إن هذا ما كنتم به تمترّون] أي هذا العذاب الذي كنتم تشكّون فيه في دار الدنيا والجمع باعتبار المعنى لأن المراد نوع الأثيم .

ثم شرح سبحانه ما أعد للمتقين بقوله :

(١) «ما» نافية ، أي ليس بين جبلي مكة أعز مني .

ان المتقين في مقام أمين (٥١) في جنات و عيون (٥٢) يلبسون من سندس واستبرق متقابلين (٥٣) كذلك وزوجناهم بحور عين (٥٤) يدعون فيها بكل فاكهة آمنين (٥٥) لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى ووقهم عذاب الجحيم (٥٦) فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم (٥٧) فانما يمرنانه لسانك لعلمهم يتذكرون (٥٨) فارتقب انهم مرتقبون (٥٩) .

بشر عباده [إن المتقين] الذين يجتنبون معاصي الله لكونها قبائح ويفعلون الطاعات لكونها طاعات [في مقام] أي مكان [أمين] أمنوا فيه من الغير والموت و الفناء والحوادث و قيل : أمنوا من الشيطان و الأحزان و المقام بالفتح أقوى و معناه موضع القيام أي المكان و بضم الميم موضع السكون و الإقامة [في جنات و عيون] أي بساتين و عيون ماء نابعة فيها .

[يلبسون من سندس واستبرق] والسندس مارق من الديباج والاستبرق ما غلظ منه وهو تعريب سطر بالفارسية أي غليظ .

فإن قلت : كيف ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ عجمي ؟
فالجواب إذا عرّب خرج من أن يكون عجمياً لأن معنى التعريب تغييره عن مناجه وإجراؤه على أوجه الأعراب . وقيل : السندس ما يلبسونه والإستبرق ما يفترونه وبالجملّة خاطب العرب فوعدهم بما عظم عندهم واشتهته أنفسهم وعلى هذا لا يقدح من أن يكون اللفظ أصلاً عجمياً فعرّب .

[متقابلين] في المجالس لا ينظر بعضهم إلى بعض من القفا ، بل يقابل بعضهم بعضاً .

[كذلك] حال أهل الجنة [وزوجناهم بحور عين] وقرناهم بحور عين قيل : هن عجائز كم الدرد المؤمنات ينشئن الله خلقاً آخر وقرى بال إضافة والمعنى بالحور من العين لأن العين إما أن يكون حوراء أو غير حوراء فهو لاء من الحور العين لا من شهلين و في قراءة عبد الله بن مسعود بعيس عين والعيساء البيضاء تعلوها حمرة والحور في العين أن يكون

البياض في العين غاية البياض و السواد فيها غاية السواد و العين جمع العيناء وهي العظيمة العينين .

قوله : [يدعون فيها بكل فاكهة آمنين] أي يستدعون فيها أي ثمرة شاموه واشتهوه غير خائفين فوتها وآمنين من مضرتها وأسقامها وأوجاعها .

[لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى] والاستثناء منقطع بمعنى لكن والتقدير: لا يذوقون فيها الموت لكن الموتة الأولى فذاقوها . و على كون الاستثناء متصلاً وأنهم ماذا ذاقوا الموتة الأولى في الجنة فكيف حسن هذا الاستثناء؟ قال صاحب الكشف: أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله : إلا الموتة الأولى موضع ذلك المعنى لأن الموتة الماضية محال في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل : إن كانت الموتة الأولى يمكن ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها انتهى كلامه .

فإن قيل : أليس أهل النار أيضاً لا يموتون ولا يذوقون الموت فلم بشر أهل الجنة بهذا مع أن أهل النار يشاركونهم في هذا الأمر؟

فالجواب أن البشارة ليست بدوام الحياة بل بدوام الحياة مع سابقة الخيرات واللذات فظهر الفرق .

[ووفاهم ربهم عذاب الجحيم] وصرف عنهم العذاب على سبيل التأيد .

[فضلاً من ربك] أي فعل الله ذلك بهم تفضلاً منه لأنه سبحانه خلقهم وأنعم عليهم وركب فيهم العقل وبيّن لهم من الآيات والرسائل ما استدّلوا به على وحدانية الله وحسن الطاعات فكل هذه الأمور تفضل منه تعالى إليهم فاستحقوا النعم العظيمة بهذه الأمور ثم جزاهم بالحسنة عشر أمثالها فكان ذلك فضلاً أيضاً وإنما سماها فضلاً وإن كانوا مستحقين بالطاعات لأن سبب الاستحقاق هذه الأمور التي ذكرت من أمور التكليف وهو فضل منه ولولاها لما نالوا هذه الدرجة [ذلك هو الفوز العظيم] أي الظفر بالمطلوب العظيم الشأن .

[فإنما يسرناه بلسانك] أي سهلنا القرآن أي ذكرهم بالكتاب المبين فإننا

هوّا عليك ذكره حيث أنزلناه عريّسا بلغتك و لغة قومك إرادة أن تفهم ويفهم قومك
فيذكروا [فارتقب] أي فانتظر إن أعرضوا عن قبوله و ارتقب مجيئ ما وعدناك [إنهم
مرتقبون] لأنّ المحسن يترقب عاقبة الإحسان و المسيّ ينتظر عاقبة الإساءة
و قيل : المعنى انتظر لهم عذاب الله فإنّهم ينتظرون بك الدوائر أو
انتظر نصرك عليهم فإنّهم منتظرون قهرك بزعمهم . تمت
السورة بحمد الله .

سورة الجاثية

✽ (وتسمى سورة الشريعة) ✽

مَكِّيَّة إِلَّا آيَةُ «قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا» الْآيَةُ .

فضلها أبي بن كعب قال : قال النبي ﷺ : من قرأ الجاثية ستر الله عورته وسكن

روعته عند الحساب . وروى أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال : من قرأ الجاثية كان ثوابها

أن لا يرى النار أبداً ولا يسمع زفير جهنم ولا شهيقتها وهو مع محمد ﷺ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢) ان في السموات و الارض لايات للمؤمنين (٣) و في خلقكم و ما يث من دابة آيات لقوم يوقنون (٤) واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فأحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون (٥) .

ذكر في قوله : [حم تنزيل الكتاب] وجوهاً : الأول أن " حم " مبتدأ مخبر عنه وتنزيل الكتاب خبره ولا بد من حذف مضاف والتقدير : تنزيل حم تنزيل الكتاب و [من الله] متعلق وصلته للتنزيل ، الثاني أن يكون التقدير : هذه حم ثم يقول : تنزيل الكتاب واقع من الله . الثالث أن يكون حم قسماً و جواب القسم " إن في السموات " والتقدير : و حم الذي هو تنزيل الكتاب إن الأمر كذا و كذا و الأولى أن حم اسم للسورة و خبر لمبتدأ محذوف أي هذه السورة مسمى بحم فيكون هذه حم و تنزيل الكتاب خبر بعد خبر و مصدر أطلق على المفعول .

وقوله : [العزيز الحكيم] يمكن أن يكون صفة لله ويمكن أن يكون صفة للكتاب و كونه صفة لله أولى لأن ذلك بالنسبة إلى الله على سبيل الحقيقة و إذا جعلناها صفة الكتاب كان ذلك مجازاً والحقيقة أولى من المجاز على أن القرب يوجب الرجحان . ثم قال : [إن في السموات والأرض لايات للمؤمنين] الذين يصدقون بالله و بأنبيائه وهم المنتفعون من الآيات إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة ولا بد لها من صانع وكذلك إذا نظروا في خلق أنفسهم و تنقلها من حال إلى حال ومن هيئة إلى هيئة .

[وما يث من دابة] وكذلك إذا نظروا في خلق ما هو مبثوث على وجه الأرض من صنوف الحيوان و عجائب ما خلقه على اختلاف أنواعها و أجناسها و منافعها المقصودة

منها ، دلالات و شواهد و [آيات لقوم يوقنون] و يطلبون اليقين بالتدبير والتعمق .
[واختلاف الليل والنهار] أي وكذلك اختلافهما في القصر والطول وفي أن أحدهما نور والآخر ظلمة ومجيئهما على وتيرة واحدة [و ما أنزل الله من السماء من رزق] أراد به المطر الذي ينبت به النبات الذي هو رزق الخلائق سمّي رزقاً لأنه سبب الرزق [فأحيا به الأرض بعد موتها] وبسبب ذلك المطر أحيا الأرض بعد يبسها وجفافها [وتصرف الرياح] يجعلها سبحانه مرة شمالاً ومرة جنوباً ومرة صبا وأخرى دبوراً وتارة رحمة وتارة عذاباً [آيات لقوم يعقلون] - قرى آيات بالرفع أي هي آيات ، وقرأ حمزة والكسائي آيات بكسر التاء - أي يتدبرونها فيعلمون أن لهذه الحوادث محدثاً مدبراً حكيماً لا يشبهه شيء .

و كل هذه الأمور المذكورة دلالات على وجود الإله القادر لأنها مرّكبة من الأجزاء وتلك الأجزاء أجسام وقد ذكر غير مرة أن الأجسام من حيث هي متماثلة ووقوع تلك الأجزاء والأجسام بعضها في العمق دون السطح وبعضها في السطح دون العمق لا بدّ لها من مخصص ومرجح لأنك ترى أن الأفلاك والعناصر مع تماثلها في تمام الماهية الجسميّة تختص كل واحد منها بصفة معيّنة كالحرارة والبرودة واللطف والكثافة من الفلكيّة والعنصريّة وإن أجرام الكواكب مختلفة في الألوان مع تماثلها في الجسميّة مثل كمودة زحل و يابض المشتري وحمرة المريخ والضوء الباهر للشمس ودرية الزهرة وصفرة عطارد وكون بعضها سعدة وبعضها نحسة وبعضها نهاريّاً ذكراً وبعضها ليليّاً أنثى فجعل هذه الاختلافات والخواص لا بدّ وأن يكون من أمر خارج عنها فهي مسخرة لذلك الأمر والوضع و ذلك بتقدير العزيز العليم .

و كذلك كون كل فلك مختصّاً بحركة من جهة إلى جهة وسرعة وبطء مع أن الحركة مثلاً من جهة المشرق إلى المغرب بالنسبة إلى ذلك الفلك أو ذلك الكوكب ليس بأولى من حرّكتهم من جانب المغرب إلى المشرق فهذا الاختصاص والتعيين في المدار من غير تخلف دليل على الفاعل المدبر المختار .

قوله تعالى : تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله

وآياته يؤمنون (٦) ويل لكل أفاك أثيم (٧) يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم (٨) وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين (٩) من وراءهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم (١٠).

أي ما ذكرناه أدلة الله التي نصبها للمكلفين نقرأها عليك يا محمد لتقرأها عليهم [بالحق] دون الباطل والتلاوة الإتيان الثاني في أثر الأول في القراءة وقوله : « تتلوها عليك » في محل الحال أي متلوّة عليك [فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون] أي هؤلاء الكفار إن لم يصدقوا بما تتلوها عليك فبأي حديث وكلام بعد حديث الله وهو القرآن وآياته يصدقون وينتفعون .

والفرق بين الحديث الذي هو القرآن وبين الآيات أن الآيات هي الأدلة الفاصلة بين الحق والباطل فقط أو أن الغرض من العطف عطف التفسيري ومناط العطف التغاير العنواني يؤمنون ويصدقون وقرئ يؤمنون على الخطاب .

[ويل لكل أفاك أثيم] الويل كلمة وعيد يتلقى بها الكفار وقيل : هو واد سائل من صديد جهنم . والأفاك يطلق على من يعظم كذبه أو يكثر كذبه وإن كان في خبر واحد ككذب مسيلمه في ادعائه النبوة والأثيم كثير الآثام يعني الويل لمثل هذا الموصوف . [يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً] ويبقى ويقم على كفره مستكبراً عن الإيمان بالآيات معجبات بما عنده قيل : نزلت في النضر بن الحرث كان يشتري من قصص الأعاجم مثل رستم واسفنديار ويشغل الناس بها عن استماع القرآن والآية عامة في كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ويشمل حال القصاصين الباطل [كأن لم يسمعها] أي هذا الموصوف بالاستكبار بعد أن سمع الآيات مثل أن لم يسمعها [فبشره بعذاب أليم] مؤلم .

[وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً] أي إذا بلغه شيء من آياتنا ينتقل من مقام الاستكبار إلى مقام الاستهزاء واتخذ ذلك المعلوم هزواً وخاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر بذلك المعلوم بل يستهزئ بالآيات [أولئك لهم عذاب مهين] إشارة إلى

الموصوفين بهذه الصفات . [من وراءهم جهنم] الورا اسم يقع على القدم والخلف وما توارى عنك فهو وراءك خلفك كان أو أمامك فالمعنى قد أمهم جهنم وقيل : المعنى من وراء ما هم من التعرز والمال والتلذذ بالدنيا جهنم .

ثم بين سبحانه أن ما ملكوه في الدنيا لا ينفعهم فقال : [ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً] وكذلك إن أصنامهم لا تنفعهم فقال : [ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء] أي إن الآلهة التي عبدوها ليكون لهم شفعاء ما نفعهم [ولهم] مع ذلك [عذاب عظيم] .

قوله تعالى : هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز اليم (١١) الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضلا ولعلكم تشكرون (١٢) وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (١٣) قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون (١٤) من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون (١٥) .

أي [هذا] القرآن الذي تلوناه والحديث الذي ذكرناه [هدى] ودلالة موصولة إلى التمييز بين الحق والباطل من أمور الدين والدنيا [والذين كفروا] وجحدوا بالآيات لهم أشد العذاب والرجز هو أشد أنواع العذاب و «من» تبينية للعذاب وتنوين عذاب في المواقع الثلاثة للتفخيم .

ثم نبه سبحانه خلقه بالدلائل على توحيدہ فقال : [الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره] أي جعله على هيئة لتجري السفن فيه مثل أنه وضعه أملس السطح يطفوا عليه ما فيه التخلخل كالأخشاب وغيره ولا يمنع الغوص والخرق لميعانه كذلك سخره لكم لتركبوا في الفلك وتجري الفلك فيه [ولتبتغوا] و تطلبوا التجارة والانتقال والرزق من الغوص والصيد وغيرها [من فضله و اعلکم تشكرون] أي لكي تشكروا النعم المرتبة على ذلك .

[وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه] أي وسخر و ذلل لكم

معاشر الخلق ما في السماوات من الأمور العلوية من الشمس والقمر والنجوم والأقطار
والثلوج وما في الأرض من الدواب والأشجار والنبات والأثمار والأنهار ، ومعنى تسخيرها
لنا بأن خلقها بوضع يمكن انتفاعنا منها على الوجه المضبوط ولو أنه تعالى أوقف أجرام
السماوات والأرض في مقامها وأحياها ، أو كان يجعل الأرض من الذهب أو الفضة أو الحديد
ما كان يحصل منها الانتفاع لها و قوله : « جميعاً منه » واقع موقع الحال أي كائنة هذم الأمور
من عنده وحكمته وهو مسخرها لخلقها أي كل ذلك منه تعالى .

[إن في ذلك] أي فيما ذكر من النعم العظيمة [لآيات] عظيمة الشأن [لقوم
يتفكرون] في بدائع صنع الله تعالى .

ولما بين دلائل وحدته وقدرته أتبع ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة
بقوله : [قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله] أمرهم بالعفو عن الذين لا
يتوقعون وقائع الله بأعدائه ، من قولهم لوقائع العرب : أيام العرب مثل قولهم يوم حليم و
يوم ذي قار وهذا الاصطلاح شائع في لسان العرب قال ابن عباس : المراد من قوله : « لا
يرجون أيام » أي أيام ثواب الله ولا يخافون عقابه و لا يخشون مثل عقاب الأمم الماضية
وقال أكثر المفسرين : إن الآية منسوخة بآية السيف .

و حاصل المعنى العفو عن الذين نالوكم بالأذى والمكره ولا يرجون ثوابه بالكف
عنكم ومعنى « يغفروا » تركوا مجازاتهم ولا يكافئوهم ليتولى الله مجازاتهم . القمي : قال :
يقول الله لأئمة الحق : لا تدعوا على أئمة الجور حتى يكون الله هو الذي يعاقبهم . وعن
الصادق عليه السلام معنى الآية قل للذين آمنوا و منناً عليهم بمعرفتنا أن يعرفوا و يعلموا
الذين لا يعلمون فإذا عرفوهم فقد غفروا لهم .

[ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون] أي ليجزي الله الصابر بسبب صبره و تحمله
والكافر بسبب إساءته و بيان الجزاء في قوله : [من عمل صالحاً] أي طاعة و برّاً [فلنفسه]
و يعود ثواب عمله عليه [ومن أساء فعليها] أي و بال إساءته على نفسه [ثم إلى ربكم
ترجعون] و يكون إليه رجوعكم يوم القيامة إلى حيث لا يملك أحد الإقناع و الإضرار
والأمر والنهي غيره فيجازي كلاً على قدر عمله .

قوله تعالى : ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين (١٦) و آتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (١٧) ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعملون (١٨) انهم لن يغفوا عنك من الله شيئاً وان الظالمين بعضهم اولياء بعض والله ولى المتقين (١٩) هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون (٢٠) .

المقصود ببيان أنه حال قومك كحال من تقدم فقال :

[ولقد آتينا بني إسرائيل] نعماً كثيرةً والنعم على قسمين نعم الدين ونعم الدنيا و نعم الدين أفضل من نعم الدنيا فبدأ بذكر نعم الدين بأن قال: آتيناهم [الكتاب] وهو التوراة [والحكم] يجوز أن يكون المراد العلم بفصل الحكومات والمعرفة بأحكام الله [والنبوة] وهي معلومة .

و أمّا نعم الدنيا فهي المراد بقوله : [و رزقناهم من الطيبات] وذلك لأنه تعالى وسّع عليهم في الدنيا فأورثهم أموال فرعون و قومه وديارهم ثم أنزل عليهم المن والسلوى وأعطاهم نصيباً وافراً .

قال : [و فضلناهم على العالمين] أي كانوا أرفع درجةً ممن سواهم في وقتهم و عالمي زمانهم .

ثم قال : [وآتيناهم بينات من الأمر] قال ابن عباس : يعني بين لهم من أمر النبي أنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ويكون أنصاره أهل يثرب وقيل: المراد من البينات آتيناهم أدلة على أمور الدنيا وأعطيناهم حذساً وفهماً في أمور دينهم يترتبون بها أشغالهم وقيل : المراد وآتيناهم معجزات قاهرة على صحة نبوتهم .

[فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم] أي فما وقع بينهم الخلاف في الدين إلا من بعد ما جاءهم ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم بكتب الله وإنما اختلفوا وحدث البغي بينهم للعداوة والحسد والأثرة وطلب الرياسة وقيل : المعنى [بغياً] على عهد وجوداً لما في كتابهم من نبوته وصفاته وهذا المعنى قريب من معنى الأول .

والمقصود من هذا الكلام التعجب من هذه الحالة لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف و ههنا صار مجيئة سبباً لحصول الخلاف وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم الهداية وإنما المقصود منه التقدم والرياسة فلاجل هذا المقصود بغوا و عاندوا و أظهروا الخلاف فقال سبحانه : [إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة] في مختلفاتهم .

[ثم جعلناك على شريعة من الأمر] يا محمد جعلناك على دين ومنهاج و طريقة بعد موسى وقومه فأمره سبحانه أن يتمسك بدينه وطريقة كتابه و هو القرآن [فاتبعها] أي فاتبع شريعتك والشريعة السنة التي من سلك طريقها أدته إلى البغية كالشريعة التي هي طريق إلى الماء فهي علامة منصوبة على الطريق من الأمر والنهي يؤدي إلى الجنة كما يؤدي تلك إلى الوصول إلى الماء .

[ولاتتبع أهواء الذين لا يعلمون] الحق ولا يفصلون بينه وبين الباطل من أهل الكتاب الذين غيروا التوراة اتباعاً لهواهم وحباً للرياسة واستتباعاً للعوام ولاالمشركين الذين اتبعوا أهواءهم في عبادة الأصنام [إنهم لن يغفوا عنك من الله شيئاً] أي لن يدفعوا عنك شيئاً من عذاب الله إن اتبعت أهواءهم .

[وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض] أي إن الكفار بأجمعهم متفقون على معادلتك وبعضهم أنصار بعض عليك [والله ولي المتقين] وناصرهم وحافظهم فلا تشغل قلبك بتعاونهم عليك .

[هذا بصائر للناس] أي هذا الذي أنزلته عليك من القرآن معالم في الدين وعظات وعبر للناس يبصرون بهامن أمور دينهم [وهدي] أي دلالة واضحة [ورحمة] أي نعمة من الله [لقوم يوقنون] بشواب الله وعقابه لأنهم المنتفعون به . قال الكلبي : إن رؤساء قريش اجتمعوا وقالوا للنبي ﷺ وهو بمكة: ارجع إلى ملّة أفوامك فهم كانوا أفضل وأقدم منك فأنزل الله هذه الآية [إنهم لن يغفوا عنك من الله] الآية .

قوله : ٢١ حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم و مماتهم ساء ما يحكمون (٢١) و خلق الله السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون (٢٢)

أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضْلَاهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَأْكَانَ حُجَّتِهِمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّنَّا بَاءً بَاتْنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥).

«أم» منقطعة بمعنى بل و الهمزة للاستفهام الإنكاري و الاجترارح الاكتساب و منه الجوارح لأنها كاسبة قال سبحانه : «ويعلم ما جرحتم بالنهار»^(١).

وقيل : أم متصلة وهي كلمة وضعت للاستفهام عن شيء حال كونه معطوفاً على شيء آخر سواء كان ذلك المعطوف مذكوراً أو مقدراً فحينئذ تقدير الآية : هذا القرآن بصائر للناس مؤدية إلى الخير أفعلوا ذلك أم حسب الذين اكتسبوا الشرك والمعاصي أن يجعل منزلتهم منزلة الذين آمنوا وصدقوا لله ورسوله [سواء عيياهم ومماتهم] ؟ أي أحسبوا أن موتهم وحياتهم كحياة المؤمنين وموتهم ؟ [سواء ما يحكمون] أي بس ما حكموا على الله فإنه تعالى لا يسوي بينهم بل ينصر الله المسلمين و يخذل الكافرين ينزل الملائكة عند الموت على المؤمنين بالبشرى وعلى الكافرين يضربون وجوههم وأدبارهم وقيل : أراد عيياهم بعد البعث ومماتهم عند حضور الملائكة لقبض أرواحهم . وقيل : المراد إن المؤمنين عيياهم على الإيمان والطاعة ومماتهم كذلك وعيبي الكافرين على الشرك والمعصية ومماتهم كذلك يموتون مشركين فلا يستويان .

قال الكلبي : نزلت الآية في ثلاثة من المؤمنين : علي بن أبي طالب وحمزة وأبي عبيدة بن الجراح^(١) وثلاثة من المشركين عتبة وشيبة والوليد بن عتبة لأنهم قالوا : للمؤمنين ما أنتم على شيء ونحن لو كان على ما تقولون الأمر لنكون في الآخرة أفضل منكم كما أننا في الدنيا أفضل منكم فنزلت «أم حسب الذين» الآية، ونظيره «أفمن كان فاسقاً كمن كان

(١) الانعام : ٦٠ .

(١) هكذا في تفسير الإمام الرازي ، و عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة هم الثلاثة الذين برزوا إلى المسلمين يوم بدر فخرج اليهم ثلاثة نية من الانصار ولما علموا انهم من الانصار نادوا يا محمد أخرج إلينا اكفاءنا من قومنا فامر رسول الله حمزة وإلياً و عبيدة بن العارث بن عبد المطلب بالبراز ، و من هنا يستأنس ان ابي عبيدة ابن الجراح سهو والصحيح عبيدة بن العارث .

مؤمناً لا يستقون^(١) و كان الفضيل بن عياض إذا يقرء هذه الآية جعل يرددها و يبكي و يقول : يا فضيل ليت شعري من أيّ الفريقين أنت ؟

قوله : [وخلق الله السماوات والأرض بالحق و لتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون] معطوف على قوله : « خلق الله » لأن فيه معنى التعليل أي خلق الله السماوات والأرض للدلالة على وجوده وقدرته « و لتجزى كل نفس » بعمله إن خيراً فخير و إن شراً فشر من غير ظلم .

[أفرايت من اتخذ إلهه هواه] و قرئ آلهته . وفي الآية معنى التعجب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنه عبده ، أي أنظرت رأيته يتخذ دينه ما يهواه ولا يؤمن بالله ولا يخافه ولا يحجزه تقوى ؟ وما يهواه يعبده وكان أحدهم يعبد الحجر فإذا رأى ما هو أحسن منه وأزين رمى به وعبد الآخر فقد عبد آلهة شتى .

[وأضلّ الله على علم] أي خذله الله عالماً بضالاله وتبديله لفطرة الله التي فطره عليها وخلاه وما اختاره جزاء له على كفره وترك تدبره وقيل : معنى « أضله الله » أي وجده ضالاً بسبب علمه كما يقال : أحمّدت فلاناً أي وجدته حميداً كقول عمرو بن معدي كرب : « فاعلمناهم فما أجبتناهم و سألناهم فما أبخلناهم » أي ما وجدناهم جنباء بخلاء . وقيل : معنى « أضله الله » أي ضلّ عن الله قال الشاعر :

هبوني امرأةً منك أضلّ بعيره * له زمة إن الذمام كبير

أي ضلّ عنه بعيره .

[و ختم على سمعه و قلبه و جعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون] أي ختم الله على سمعه و قلبه و عينه من بعد تعاميه عن الهدى و تماديه في الغي بسوء اختياره و كفره فمن بعد ضلاله . من يهديه من بعد الله أفلا تتعظون بهذه المواعظ و هذا استبطاء بالتذكّر منهم أي تذكروا .

ثم أخبر سبحانه عن منكري البعث فقال : [وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا] أي ليس الحياة إلا حياتنا التي نحن فيها في الدنيا ولا يكون بعد الموت بعث ولا حساب [نموت و

نحيا] و قرى نحيا بضم النون في معناه أقوال : أحدها يعني نحيا و نموت فقدّم وأخّر و الثاني نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا والثالث يموت بعضنا و نحيا بعضنا ويمكن أن يريد به التناسخ فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان .

ثم جمعوا بين إنكار الإله والبعث والقيامة بقولهم : [وما يهلكنا إلا الدهر] ومقصودهم أن تولد الأشخاص إنما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع و إذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت فال موجب للحياة و الموت تأثيرات الطبائع فهذا هو المراد من قولهم : ما يهلكنا إلا الدهر .

فقال سبحانه : [وما لهم بذلك من علم] نفى عنهم العلم لجهلهم بسبب نسبتهم ذلك إلى الدهر [إنهم لا يظنون] ما هم فيما ذكره إلا ظانّون وقد روي في الحديث قال صلى الله عليه وآله وسلم : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر أي فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر لأن الدهر هو مخلوق مقهور و كان أهل الجاهلية ينسبون الحوادث و البلايا النازلة إلى الدهر ويقولون : فعل الدهر كذا و كانوا يسبّون الدهر فقال صلى الله عليه وآله وسلم : لا تسبوا الدهر فإن الدهر لا يحدث أمراً فلا تسبوا فاعلموا نسبة الحوادث إلى الدهر كان شائعاً فيهم قال الأصمعي : ذم أعرابي رجلاً فقال : هو أكثر ذنباً من الدهر وقال كثير :

و كنت كذبي رجلين رجل صحيحة * و رجل رمى فيها الزمان فشلت
ثم قال سبحانه : [وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجّتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين] وذكروا هذه الشبهة الضعيفة حجّة بزعمهم وأنكروا البعث بقولهم : فائتوا بآبائنا الذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحّة البعث وليس هذه الكلمة الواهية بشيء لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول فإن حصول كل واحد منّا كان معدوماً من الأزل إلى الوقت الذي حصلنا فيه و لو كان عدم الحصول في وقت معين يدل على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك وذلك باطل بالاتفاق .
ثم قال سبحانه :

قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيمة لا ريب فيه و لكن اكثر الناس لا يعلمون (٣٦) والله ملك السموات و الارض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون (٣٧) وترى كل امة جاثية كل امة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون (٣٨) هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون (٣٩) فاما الذين امنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين (٤٠)

ثم خاطب سبحانه نبيه وقال :

[قل] يا أيها الله يحييكم في دار الدنيا ولا يقدر أحد على الإحياء غيره [ثم يميتكم] عند انقضاء آجالكم [ثم يجمعكم إلى يوم القيامة] بأن يبعثكم ويعيدكم أحياء [لا ريب فيه] ولا شك في وقوعه لأن من قدر على فعل الحياة في وقت قدر على فعلها في كل وقت [ولكن أكثر الناس لا يعلمون] بعدولهم عن النظر الموجب للعلم بصحته ولما يسن أنه القادر على الإحياء والإماتة عمم الدليل فقال : [ولله ملك السموات والأرض] أي له القدرة على جميع الممكنات .

ثم ذكر تفاصيل أحوال القيامة في الجملة :

فأولها : [ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون] وعامل النصب في يوم فعل يخسر و يومئذ بدل من يوم يقوم واعلم أن الحياة و العقل و الصحة رأس المال للإنسان في تحصيل السعادة كتصرف التاجر في رأس ما له في التجارة و طلب الربح و المبطلون أسرفوا رأس ما لهم في الكفر و طلب الشقاوة فما وجدوا إلا الخذلان فكان ذلك نهاية الخسران .

وثانيها : [وترى كل أمة جاثية] والجثو الجلوس على الركب كما يجثى بين يدي الحاكم وقرى «جاذية» والجثو أشد من الجثو لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف الأصابع ، والحاصل أن الأمة مجتمعة مرتقبة لما يعمل بها .

ثم قال تعالى : [كل أمة تدعى إلى كتابها] أي إلى صحائف أعمالها فاكتمى باسم الجنس و يقال لهم : [اليوم تجزون ما كنتم تعملون هذا كتابنا] و نسبة الكتاب

إليهم لأنه المشتمل على أعمالهم ونسبة الكتاب إليه تعالى أيضاً لأنه هو الذي أمر الملائكة بكتبه .

[ينطق عليكم] ويشهد بما عملتم من غير زيادة ونقصان [إننا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون] أي نستكتب الملائكة أعمالكم .

و في الكافي والقمي عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال : إن الكتاب لم ينطق ولن ينطق ولكن رسول الله هو الناطق بالكتاب قال الله تعالى : وهذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، بضم الياء وفتح التاء ف قيل : إننا لانقرؤها هكذا فقال عليه السلام : هكذا والله أنزل بها جبرئيل على محمد و لكنّه ممّا حرّف من كتاب الله وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عن «ن والقلم» قال : إن الله خلق القلم من شجرة في الجنة يقال له : الخلا ، ثم قال : لنهر في الجنة : كن مداداً فجمد النهر وكان أشدّ بياضاً من الثلج وأحلى من الشهد ثم قال : للقلم : اكتب فقال : ياربّ وما أكتب فقال : اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فكتب القلم في رقّ أشدّ بياضاً من الفضة أو أصفى من الياقوت ثم طواه فجعله في ركن العرش ثم ختم على فم القلم فلم ينطق ولا ينطق أبداً فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها أولستم عرباً فكيف لاتعرفون معنى الكلام وأحدكم يقول لصاحبه : انسخ ذلك الكتاب أوليس إنما ينسخ من كتاب آخر هو الأصل و هو قوله : «إننا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» .

و في سعد السعود في حديث الملكين الموكّلين بالعبد إنهما إذا أرادا النزول صباحاً ومساءً ينسخ لهما إسرافيل عمل العبد من اللوح المحفوظ فيعطيهما ذلك فإذا صعدا صباحاً ومساءً يدنوان عمل العبد قابله إسرافيل بالنسخ التي استنسخ لهما حتى يظهر أنه كان كما نسخ منه .

قوله : [فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته] أي في جنته وثوابه [ذلك هو الفوز المبين] أي الفلاح الظاهر .

و أما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم و كنتم قوماً مجرمين (٣١) وإذا قيل ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري

ما الساعة ان نظن الاظنا و ما نحن بمستيقنين (٣٢) وبدالهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزون (٣٣) وقيل اليوم ننسكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وماواكم النار وما لكم من ناصرين (٣٤) ذلكم بانكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون (٣٥) فله الحمد رب السموات و رب الارض رب العالمين (٣٦) وله الكبرياء في السموات والارض وهو العزيز الحكيم (٣٧).

قالت المعتزلة في قوله تعالى : [فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته] : إنه سبحانه ذكر بعد وصفهم بالإيمان كونهم عاملين للصالحات فوجب أن يكون عمل الصالحات مغايراً للإيمان زائداً عليه وعلق الدخول في رحمته على كونه آتياً بالإيمان والأعمال الصالحة والمعلق على مجموع أمرين يكون عدماً عند أحدهما فعند عدم الأعمال الصالحة وجب أن لا يحصل الفوز بالجنة .

و أجاب الأشاعرة بأن تعليق الحكم على الوصف لا يدل على عدم الحكم عند عدم الوصف انتهى .

قوله : [وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم] أي يقال لهم : أفلم تكن بيناتي وحججي تقرأ عليكم [فاستكبرتم و كنتم قوماً مجرمين] أي تعظمتم عن قبولها و صرتم بسبب الاستكبار كافرين كما قال سبحانه : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » .

قالت الأشاعرة : إنه تعالى علل استحقاق العقوبة بأن آياته تليت عليهم فاستكبروا ، و هذا يدل على أن استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد مجيء الشرع فالواجبات لا تجب إلا بالشرع خلافاً لما يقوله المعتزلة من أن بعض الواجبات قد تجب بالعقل .

أقول : و في كلام الأشاعرة نظر لأن بعض الواجبات والمحرمات ثبت وجوبه و حرمة بالعقل مع قطع النظر عن الشرع كحسن الإحسان وقبح الظلم .

فإن قيل : كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرمًا في معرض الذم له قيل : والمراد أن الكفار قد يكونون عدولاً في أديانهم و هؤلاء فساق في ذلك الدين و جواب الاستفهام

محذوف والفاء في «أفلم تكن» يدل عليه و التقدير : فأمّا الذين كفروا فيقال لهم : «أفلم تكن الآية» .

[و إذا قيل إن وعد الله حق] أي إن ما وعد الله من الثواب و العقاب كائن ثابت للاحالة [والساعة] آتية [لأريب] في وقوعها [قلتم] معاشر الكفار [ما ندرى ما الساعة] و أنكرتموها [إن نظنّ إلا ظنّاً وما نحن بمستيقنين] و ذلك لأنّ القوم كانوا في هذه المسألة على قولين منهم من كان قاطعاً بنفي البعث والقيامة وهم الذين ذكرهم الله في الآية السابقة بقوله : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا » و منهم من كان يظهر التحجير في وقوعه و لكثرة ماسمعه من الرسول صاروا يظهرون الشك فيه وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية والذي يدل على هذا المعنى أنه تعالى حكى مذهب أولئك القاطعين ثم أتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الأول .

[و بدا لهم سيئات ما عملوا] أي ظهر لهم جزاء معاصيهم التي عملوها في الآخرة وقد كانوا يعدّونها حسنات [و حاق بهم ما كانوا به يستهزئون] و نزل بهم و ثبت واستقر لهم جزاء تكذيبهم و استهزائهم و هذا كالدليل على أن هذه الفرقة لما قالوا : « إن نظنّ إلا ظنّاً » إنما ذكروه على وجه السخرية فعلى هذا الوجه فهذا الفريق شرّ من الفريق الأول لأنّهم ضمّوا إلى الإنكار الاستهزاء .

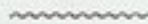
ثم قال تعالى : [وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم] أي نتركم في العذاب كما نسيتم لقاء يومكم هذا اليوم وتركتم التأهب للقاء يومكم ونحلّكم في العذاب محلّ المنسيّ كما أحللتهم هذا اليوم عندكم محلّ المنسيّ [وما أواكم النار] أي مستقرّكم جهنّم [وما لكم من ناصرين] يدفعون عنكم عذاب الله .

[ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً] أي ذلكم الذي فعلنا بكم لأجل أنكم استهزأتم بآيات الله تسخرون بها و بسبب أنكم استغفرتم في حب الدنيا والإعراض بالكليّة عن الآخرة وهو المراد من قوله : [و غرّكم الحياة الدنيا] و خدعتم بزينتها [فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون] و قرأ حمزة والكسائي بفتح الباء في «ولا هم يستعتبون» أي لا يطلب منهم أن يعتبوا ربّهم أي يرضوه وغير مأذونين في الاعتذار لأنّ التكليف قد

زال وقيل : معناه : لا يقبل منهم العتبي .

[فلكه الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين] أي احمدا الله حمداً وشكراً تاماً أو الحمد التام والمدحة التي لا يوازيها مدحة لله الذي خلق السماوات والأرض و دبّرهما وخلق العالمين [وله الكبرياء] أي السلطان القاهر والعلو والشأن في السماوات والأرض ولا يستحقه أحد غيره وفي الحديث قال الله سبحانه : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني ألقيته في جهنم [وهو العزيز] في حكمه وجلاله [الحكيم] في أفعاله وقيل : معناه العزيز في انتقامه من الكفار والحكيم في ما يفعله بالمؤمنين والكلام مفيد للحصر .

تمت السورة والحمد لله حمداً دائماً طيباً مباركاً مخلداً مؤبداً كما يليق بشأنه وعظيم إحسانه والصلاة على الأرواح الطاهرة المقدسة من ساكني أعالي السماوات ونجوم الأرضين من الملائكة والأنبياء والألياء خصوصاً على خير خلقه محمد و خلفائه الأئمة المرضيين صلوات عليه وعليهم أجمعين .



سورة الأحقاف

مَكِّيَّةٌ إِلَّا آيَةً مِنْهَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ آيَةٌ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ » .

عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَحْقَافِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ بِعَدَدِ كُلِّ رَمَلٍ فِي الدُّنْيَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ وَحُمِي عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ » .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَعْفُورٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : « مَنْ قَرَأَ كُلَّ لَيْلَةٍ أَوْ كُلَّ جُمُعَةٍ سُورَةَ الْأَحْقَافِ لَمْ يَصِبْهُ اللَّهُ بِرُوعَةٍ فِي الدُّنْيَا وَآمَنَهُ مِنْ فِرَاقَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢) ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون (٣) قل أرايتم ما تدعون من دون الله أروني ما ذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك السموات اتوني بكتاب من قبل هذا أو إثارة من علم إن كنتم صادقين (٤) ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون (٥).

قوله : [حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم] مر تفسيره [ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق] أي ما خلقناهما عبثاً ولا باطلاً وإنما خلقناهما لنتعبد سكاكنها بالأمر والنهي ونعرضهم الثواب وضروب النعم والخلق عبارة عن التقدير وآثار التقدير ظاهرة في السموات والأرض.

قالت المعتزلة : هذا يدل على أن كل ما في السموات والأرض من القبائح فهو ليس من خلقه بل هو من أفعال عباده وإلا لزم أن يكون خالقاً لكل باطل وذلك ينافي قوله : « ما خلقناهم إلا بالحق ».

وأجاب الأشاعرة بأنه هو الذي خلق الباطل إلا أنه خلق ذلك الباطل بالحق لأن ذلك تصرف منه تعالى في ملك نفسه وتصرف المالك في ملك نفسه يكون بالحق لا بالباطل وقالوا : إن أعمال العباد من جملة ما بين السموات والأرض فهي مخلوقة لله.

والجواب : أن أفعال العباد أعراض والأعراض لا توصف بأنها حاصلة بين السموات والأرض ثم إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق وما خلق الباطل والذي خلقه هو الحق لكن سوء اختيار العبد غير الحق وجعله باطلاً ومثاله أن الطاهي يصنع طعاماً يتخذ من اللحوم والأبازير ويطبخه على أحسن تركيب ويقدمه للضيف فيتسرع

إليه طفل أو مجنون فيلقي في ذلك الطعام جفنة من علقم أو ملح فغيره بحيث لا يؤكل من ذلك الطعام بل لا يمكن الذوق منه لفرط مرارته فهل يمكن أن يقال : إن الطاهي أفسد هذا الطعام وأضاعه فكذا هنا، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قوله : [وأجل مسمى] يعني يوم القيامة فإنه أجل مسمى عنده سبحانه ومطوي عن العباد علمه إذا انتهى إليه تنهى وقامت القيامة وقيل : هو مسمى للملائكة وفي اللوح المحفوظ [والذين كفروا عما أُنذروا معرضون] أي إن الكافرين عما أُنذروا من القيامة والجزاء معرضون وعادلون عن قبوله والتفكر فيه .

[قل] يا محمد - صلى الله عليه وسلم - لهؤلاء الذين كفروا : [أرايتهم ما دعون من دون الله] أي أخبروني من الأصنام التي تعبدونها [أروني] تأكيد لأرايتهم [ماذا خلقوا من الأرض] وما الذي أبدعوه وأظهروه من العدم إلى الوجود [أم لهم شرك في السماوات] في خلقها وترتيبها .

ثم قال سبحانه : قل لهم : [ائتوني بكتاب الله من قبل هذا] أي قبل هذا القرآن أنزله الله يدل على صحة قولكم [أو أثارة من علم] أي بنية من علم يؤثر من كتب الأولين تعلمون به أنهم شركاء لله أو خبر من الأنبياء السالفة يقولون بهذا الأمر فيكون يتوهم لهم شائبة استحقاق المعبودية فأتوا به [إن كنتم صادقين] قال المبرد : الأثارة ما يؤثر و يبقى من علم لقولك : هذا الحديث مأثور عن فلان و من هذا المعنى سميت الأخبار بالآثار كأنها بنية يستخرج فيؤثر و قرئ «أثرة» أي من شيء أوثرتم و خصصتم به .

قوله : [ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة] أي من أضل عن طريق الصواب ممن يدعو غير الله شيئاً لدعائه إلى يوم القيامة لم يجبه ولم يغشه ولا يستجيب له أبداً [وهم عن دعائهم غافلون] أي المعبودون مع ذلك عن دعاء العابدين غافلون وجاهلون لأنهم بحادات وليس لها إدراك و كسبي عن الأصنام بجمع العاقل على زعمهم نحو « رأيتهم لي ساجدين » .

قوله تعالى : وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٦)

وإذا تولى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين (٧) يقولون افتراء قل ان افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً هو اعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم (٨) قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادرى ما يفعل بى ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى الى وما انا الا نذير مبين (٩) قل ارايتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدى القوم الظالمين (١٠) **المعنى :** ذكر سبحانه أنه إذا قامت القيامة صارت آلهتهم التي عبدوها أعداء لهم مثل قوله تعالى : « ويكونون عليهم ضدّاً » (١) ، [وكانوا بعبادتهم كافرين] أي إن هذه الأوثان التي عبدوها ينطقهم الله حتى يجحدوا ويكفروا بعبادة الكفار لهم . ثم وصفهم الله سبحانه فقال : [وإذا تولى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق] أي للقرآن والمعجزات التي ظهرت على يدي النبي [هذا سحر مبين] أي حيلة لطيفة ظاهرة وخداع بين .

[أم يقولون افتراء قل إن افتريته] ولما بين سبحانه أنهم يسمون المعجزة بالسحر بين أنهم متى سمعوا القرآن قالوا : إن عهد افتراء واختلقه من عند نفسه ومعنى الهمزة في « أم » ، للإنكار والتعجب كأنه قيل : دع هذا واسمع القول المنكر العجيب بأنهم أضربوا عن الكلام القبيح الأول من تسميتهم الآيات سحراً إلى ذكر قولهم إن عهد افتراء ، قل يا عهد لهم : إن اختلقته على سبيل الفرض وكذبت على الله كما زعمتم عاجلني الله لا محالة بعقوبة الافتراء ولا تقدرين على كفه عن عقوبته سبحانه إني [فلا تملكون لى من الله شيئاً] ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عنى فكيف أتعرض لعقابه ؟ ثم قال : [هو أعلم بما تفيضون فيه] أي إن الله أعلم بما تقولون وتخوضون في القرآن من التكذيب به والقول فيه بأنه سحر [كفى به شهيداً بينى وبينكم] أي كفى به سبحانه شاهداً أن القرآن جاء من عنده [وهو الغفور الرحيم] في تأخير العقاب عنكم حين لا يعجل بالعقوبة وهو وعد لمن رجع عن الكفر وتاب واستعان بحكم الله عليهم مع عظم ما ارتكبوه .

[قل] ما كنت بدعاً من الرسل [أي لست بأول رسول بعث ، والبعد الأول من الأمر ، فلا ينبغي أن تنكروا إخباري بأنني رسول الله إليكم ولا تنكروا دعوتي لكم إلى التوحيد ونهيي عن عبادة الأصنام فإن كل الرسل إنما بعثوا بهذا الطريق وذلك أنهم كانوا يعيرونه بأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق و بأنه فقير وبأن أتباعه فقراء فقال سبحانه : « قل ما كنت بدعاً من الرسل » بل كانوا كلهم بهذه المثابة فهذه الأشياء لا تقدر في نبوتهم كما لا تقدر في نبوتهم .

ثم قال : [وما أدري ما يفعل بي ولا بكم] في تفسير الآية وجهان : الأول أن تحمل على أحوال الدنيا أي لا أدري أموت أم أقتل ولا أدري أيها المكذّبون ما يفعل بكم أترمون بالحجارة من السماء أم يخسف بكم الأرض أم ليس يفعل بكم ما فعل بالأمم المكذّبة وهذا هو في الدنيا وأما في الآخرة فإنه علم بسبب خبر الله أنه في الجنة أو المعنى لست أدعي غير الرسالة ولا أدعي علم الغيب ولا معرفة لي فيما يفعل الله بي ولا بكم من الإحياء والإماتة والمنافع والمضار إلا أن يوحى إليّ وقيل : المعنى ما أدري ما أؤمر به ولا ما تؤمرون به في باب التكليف والشرائع إلا ما أوحاه الله إليّ وقيل : ما أدري أترك بمكة أو أخرج منها .

قال : ابن عباس : في رواية الكلبي عنه لما اشتدّ البلايا بأصحاب رسول الله ﷺ بمكة رأى في المنام ﷺ أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء فقصّها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا أن ذلك فرج مما هم فيه من أذى المشركين ثم إنهم مكثوا بذلك برهة من الزمان لا يرون أثر ذلك فقالوا : يا رسول الله ما رأينا الذي قلت ومتى يهاجر إلى الأرض التي رأيته في المنام ؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله الآية « ما أدري ما يفعل بي ولا بكم » .

وأما الوجه الثاني أن المراد من الآية يكون في أحوال الآخرة كما زعم بعض وهذا القول ضعيف جداً قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية فرح المشركون واليهود وقالوا : كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به وبنا فأنزل الله « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك » إلى قوله : « فوزاً عظيماً » فبين سبحانه ما يفعل

به وبمن اتبعه وشرحت هذه الآية وأرغم الله أنف المنافقين والمشركين .
و اعلم أن أكثر المحققين أنكروا الوجه الثاني و هو كون المراد في معنى الآية
الأحوال الآخرة لوجوه :

الاول أن النبي ﷺ لابد وأن يعلم كونه نبياً ومتى علم كونه نبياً علم أنه
لا تصدر عنه الكبائر وأنه مغفور له وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكاً في أنه هل هو مغفور
له أم لا ؟

الثاني لاشك أن الأنبياء أرفع حالاً وشأناً من الأولياء فلما قال سبحانه : «إن
الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» فكيف يعقل أن يبقى
الرسول الذي هو رئيس الأنبياء وقادة الأولياء شاكاً في أنه هل هو من المغفورين
أو من الملعدين ؟

الثالث أنه تعالى قال : «الله أعلم حيث يجعل رسالته» والمراد منه كمال حاله ونهاية
قربه من حضرة الله تعالى ومن هذا حاله كيف يليق به أن يبقى شاكاً في أنه من الملعدين
أو من المغفورين ؟ فثبت أن هذا ضعيف . و قرأ الزمخشري بفتح الياء في « يفعل » على
المعلوم .

ثم قال : [إن أتبع إلا ما يوحى إلي] أي لأقول قولاً ولا أعمل عملاً إلا بمقتضى
الوحي [وما أنا إلا نذير مبين] كانوا يطالبونه ﷺ بالمعجزات العجيبة و يقترحون منه
وبالإخبار عن الغيوب فقال سبحانه : قل « وما أنا إلا نذير مبين » بين الإيذار أنذركم
عقاب الله .

واحتج نفاة القياس بهذه الآية قالوا : النبي ﷺ ما قال قولاً ولا عمل عملاً إلا
بالنص الذي أوحاه الله إليه فوجب أن يكون حالنا كذلك لقوله تعالى : «واتبعوه» وقوله
تعالى : «فليحذر الذين يخالفون عن أمره» (١) .

قوله تعالى : [قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به] ثم قال سبحانه : «قل» يا
محمد لهم : أرايتم أي أخبروني وماذا تقولون إن كان هذا القرآن من عند الله هو أنزله؟ وكفرتم

به، حال با ضمير «قد» وجواب الشرط ههنا محذوف تقديره: إن كان القرآن من عند الله والحال أنكم كافرين به أستم ظالمين وخاسرين؟

وبدل على هذا المحذوف قوله: «إن الله لا يهدي القوم الظالمين» وجواب الشرط قد يحذف مثل هذه الآية ومثل قوله تعالى: «ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال»^(١)، الآية، وقد يذكر مثل قوله: «قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء»^(٢).

قوله: [وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله] والضمير في مثله راجع إلى القرآن وهو التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك وبديل عليه «وإنه لفي زبر الأولين»^(٣)، و«إن هذا لفي الصحف الأولى»^(٤)، وقوله: «وكذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك»^(٥). ويجوز أن يكون المعنى إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك يعني كونه من عند الله.

والمراد في الآية من الشاهد قيل: عبد الله بن سلام وقيل: الشاهد موسى شهد على التوراة كما شهد النبي على القرآن. وقالوا: لا يمكن أن يكون الشاهد عبد الله بن سلام لأن السورة مكّية وعبد الله أسلم في المدينة. وأجيب عن ذلك بأن الآية مدنية والسورة مكّية وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول الله بأن يضعها في سورة كذا فهذه الآية نزلت في المدينة وإن الله أمر رسوله بأن يضعها في هذه السورة المكّية في هذا الموضع المعين. قال صاحب الكشف: إنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه عبد الله بن سلام و نظر إلى وجه النبي ﷺ وتأمله فعرف أنه ﷺ ليس بوجه كذاب وتحقق أنه هو النبي ﷺ المنتظر.

(١) الرعد: ٣٣

(٢) القصص: ٧٢

(٣) الشعراء: ١٩٦

(٤) الأعلى: ١٨

(٥) الثورى: ٢

فقال له عبدالله : إني سأثبثك عن ثلاث ما يعلمهن إلا النبي : ما أول أشرط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال عليه السلام : أما أول أشرط الساعة فنار تحشرهم ونجمعهم من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزع له وإن سبق ماء المرأة نزع لها فقال عبدالله : أشهد أنك لرسول الله حقاً .

ثم قال عبدالله : يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإن علموا بأسلامي قبل أن تسألهم عنني بهتوني عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبي عليه السلام : أي رجل عبدالله عندكم؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا فقال : أرايتم إن أسلم عبد الله فقالوا : أعاده الله من ذلك فخرج عليهم عبد الله وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقالوا : شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال عبد الله : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله .

فقال سعد بن أبي وقاص : ما سمعت رسول الله يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزل « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » .

لكن بعض أنكر هذا المعنى كما ذكرنا قبل هذا في أول الآية وقالوا : إن الإخبار عن المسائل الثلاث إخبار عن وقوع شيء من الممكنات العادية وما يكون هذا سبيله فإنه لا يعرف صدقه إلا إذا عرف أولاً كون المخبر صادقاً فلو أننا عرفنا صدق المخبر بكون ذلك الخبر صادقاً لزم الدور وإنه محال . ثم إن الجوابات المذكورة عن الأسئلة لا يبلغ العلم بها إلى حد الإعجاز .

لكن يمكن الجواب عن هذا الإيراد أنه جاء في بعض كتب الأنبياء أو التوراة أن رسول آخر الزمان يسأل عن هذه المسائل وهو يجيب بهذه الجوابات وكان عبدالله عالماً بهذا المعنى فلمّا سأل النبي وأجاب عليه السلام عرف بهذا الطريق كونه رسولاً حقاً، انتهى .

ثم أخبر سبحانه وقال : [فأمن واستكبرتم] أي آمن الشاهد وكفرتم [إن الله لا يهدي القوم الظالمين] بسبب قبولهم الظلم وهو الكفر وإنما منعهم الهداية لفعل القبيح الذي صدر منهم لكونهم ظالمين أنفسهم .

قوله تعالى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم (١١) ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين (١٢) ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٣) أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون (١٤) وصينا الانسان بوالديه احسانا حملته امه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ اشدّه وبلغ اربعين سنة قال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وان اعمل صالحا ترضه واصلح لي في ذريتي اني تبّت اليك واني من المسلمين (١٥)

هذه شبهة أخرى للقوم في إنكار نبوته ﷺ وذلك أنه لما أسلمت جبهة وأسلم وغفار قال بنوعامر وغطفان وأسد وأشجع وهم كانوا أقوياء : لو كان هذا خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء رعاء البهم ، هؤلاء الصعاليك والفقراء والأراذل مثل عمّار وصهيب وابن مسعود وأمثالهم .

وقيل : إنه كانت أمة لعمر أسلمت قبل أن يسلم عمرو كان عمر يضربها حتى يفترق يقول : لولا إني فترت لزدتك ضرباً فكان كفار قريش يقولون : لو كان ما يدعونه حقاً ما سبقتنا إلى قبول دينه فلائنة .

وقيل : كان اليهود يقولون هذا الكلام عند إسلام عبدالله بن سلام .

قوله : [وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم] أي فإن لم يهتدوا بالقرآن من حيث لم يتدبروه فسيقولون هذا القرآن كذب متقادم وأساطير الأولين والقديم في اللغة ما تقدم وجوده وفي عرف المتكلمين هو الموجود الذي لأوّل لوجوده .

ثم قال سبحانه : [ومن قبله كتاب موسى] أي وتقدمه كتاب موسى وهو التوراة

[إماماً ورحمةً] يقتدى به كما يقتدى بالإمام ورحمة من الله للمؤمنين به قبل القرآن و في الكلام حذف والتقدير و كان قبل القرآن كتاب موسى فلم يهتدوا به ودل على المحذوف قوله تعالى في الآية الأولى : «وإذ لم يهتدوا به» وذلك أن المشركين لم يهتدوا بالتوراة فيتركوا عبادة الأوثان ويعرفوا منه صفة محمد كما هو مذكور فيه .

ثم قال : [وهذا كتاب] أي القرآن [مصدق] للكتب التي قبله [لساناً عربياً] و ذكر اللسان تأكيداً كما تقول : جاءني زيد رجلاً صالحاً فذكر رجل للتأكيد أي إن هذا القرآن مصدق لكتاب موسى في أن محمداً رسول حق من عند الله لكونه ﷺ مذكور النعت في التوراة [لينذر الذين ظلموا] فإسناد الإنذار إلى الكتاب كما أسند إلى الرسول وقرئ بالتاء على الخطاب [وبشرى للمحسنين] وبشارة لهم أو يبشر الكتاب بشرى أو في موضع الرفع أي وهو بشرى للموحدين .

[إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا] بيان صفة الموحدين أي الذين وحدوا الله واستقاموا في أمور الدين على العمل به و في الآية دلالة على تراخي مرتبة العمل عن التوحيد وجوب العمل [فلا خوف عليهم] من لحوق مكروه [ولا هم يحزنون] من فوات محبوب وقال أهل التحقيق : خوف العقاب زائل عنهم وأما خوف الجلال والهيبة فلا يزول عن العبد البتة ألا ترى أن الملائكة مع علو درجاتهم وعصمتهم لا يزول الخوف عنهم فقال تعالى : «يخافون ربهم من فوقهم» .

قوله : [أولئك أصحاب الجنة] أي هؤلاء الموصوفين ملازمون الجنة [خالدين فيها] مؤبدين [جزاء بما كانوا يعملون] أي يجزون جزاء في الدنيا من الطاعات والأعمال الصالحة .

[ووصينا الإنسان بالديه إحساناً] قرئ «إحساناً» حسناً بضم الحاء وسكون السين و فمّن قرأ إحساناً فحجته مثل قوله تعالى في سورة بني إسرائيل «وبالوالدين إحساناً» (١) والإحسان ضد الإساءة ومن قرأ حسناً فالمعنى أمرناه بأن يوصل إليهما فعلاً حسناً وسمي ذلك الفعل الحسن بالحسن على سبيل المبالغة كما يقال : زيد عدلٌ وهذا الرجل علمٌ وكرمٌ .

[حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً] قرئ: كرهاً بضم الكاف وفتحها هما لغتان مثل الضعف والضعف في المصادر ، وفي غير المصادر مثل الدف والدُف والشهد والشهد فمما كان مصدراً أو في موضع الحال فالفتح أحسن مثل قوله : « أن ترثوا النساء كرهاً »^(١) ، ومما كان اسماً كان الضم أحسن مثل قوله : « كتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم »^(٢) .

قال المفسرون : حملته أمه كرهاً أي حملته على مشقة وليس يريد ابتداء الحمل فإن ذلك لا يكون مشقة لأنه تعالى قال : « فلما تغشاه حملت حملاً خفيفاً » يريد ابتداء الحمل فإن حمل النطفة والعلقه والمضغة لا يكون مشقة فإذا أثقلت فحينئذ حملته كرهاً ووضعته كرهاً يريد شدة الطلق .

[وحمله وفصاله ثلاثون شهراً] والمراد من الفصال الرضاع التام المنتهي به فإذا كان المراد من الآية مدة الحمل والرضاع فكيف عبّر عنه بالفصال لأن الرضاع ينتهي إلى الفصال ويتم الرضاع بالفصال ويؤول إليه فسمي فصلاً كما سمي المدة بالأمد . قال الشاعر :

كل حي مستكمل مدة الـ * عمر وبور إذا انتهى أمده

و في الآية دلالة على أن أقل الحمل ستة أشهر لأنه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثون شهراً وقال : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين »^(٣) ، فإذا أسقطت الحولين وهي أربعة وعشرون شهراً من الثلاثين بقي مدة الحمل ستة أشهر .

قال الرازي : روي عن عمر أن امرأة دفعت إليه وكانت قد ولدت بستة أشهر فأمر عمر برجمها فقال علي أمير المؤمنين عليه السلام : لا رجم عليها وذكر الآية وعن عثمان أنه هم أيضاً بذلك فقرأ ابن عباس عليه ذلك فامتنع عن الرجم .

واعلم أن الآية دالة على أن حق الأم أعظم لأنه تعالى ذكرهما أولاً ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، فذكرهما معاً ثم خص الأم بالذكر فقال : « حملته أمه »

(١) النساء : ١٨ .

(٢) البقرة : ٢١٦ .

(٣) البقرة : ٢٣٣ .

الآية ، وذلك يدل على أن حقها أعظم لأن وصول المشاق إليها أكثر والأخبار كثيرة في هذا الباب .

قوله : [حتى إذا بلغ أشده] وهو ثلاث وثلاثون سنة على قول ابن عباس : وقيل : بلوغ الحلم وقيل : وقت قيام الحجّة عليه وقيل : هو أربعون سنة وذلك وقت نزول الوحي على الأنبياء إلا عيسى بن مريم فإن الله جعله نبياً من أول عمره وروي أنه جاء جبرئيل إلى النبي فقال : يؤمر الحافظان أن ارفقا بعبيدي في حداثة سنّه حتى إذا بلغ الأربعين قيل لهما : احفظا وحققا ولذلك فسّره [وبلغ أربعين سنة] وذلك بيان لزمان الأشدّ و أراد بذلك أنه يكمل له عقله ورأيه عند الأربعين وذلك إذا اكتهل .

و حكى عن ارسطاطا ليس أنه قال : أزمنة الولادة و حبل الحيوان مضبوطة سوى الإنسان فربما وضعت الجبلى لسبعة أشهر و ربما وضعت في الثامن وقلما يعيش المولود في الثامن إلا في بلاد معينة مثل مصر وقد يكون لسنة أشهر ومن المعلوم أن مراتب سنّ الحيوان ثلاثة لأن الحرارة الغريزية والرطوبة الغريزية غالبية في أول العمر وناقصة في آخر العمر والانتقال من الزيادة إلى النقصان لا يعقل حصوله إلا إذا حصل الاستواء في وسط هاتين المديتين . فمدة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام :

أولها أن تكون الرطوبة الغريزية زائدة على الحرارة الغريزية وحينئذ يكون الأعضاء قابلة للتمدد في ذواتها وللزيادة في الطول والعرض والعمق وهذا هو سنّ النشوء والنماء .

والمرتبة الثانية وهي المرتبة المتوسطة أن تكون الرطوبة الغريزية وافية بحفظ الحرارة الغريزية من غير زيادة ولا نقصان وهذا هو سنّ الوقوف وهو سنّ الشباب .
والمرتبة الثالثة وهي المرتبة الأخيرة أن تكون الرطوبة الغريزية ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزية والنقصان خفي وهو سنّ الكهولة وجليّ ظاهر وهو سنّ الشيخوخة .

ثم ههنا بيان آخر وهو أن دور القمر إنما يتم في مدة ثمانية وعشرين يوماً و

شيء ، فإذا قسمنا هذه المدة بأربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة فلهذا السبب قد روا الشير بالأسابيع الأربعة ولهذه الأسابيع تأثيرات عظيمة في اختلاف أحوال هذا العالم فكذلك عالم عمر الإنسان ينقسم إلى أربعة أسابيع و يحصل للأدمي بحسب انتهاء كل أسبوع من هذه الأسابيع الأربعة نوع من التغير يؤدي إلى كماله .

أما عند تمام الأسبوع الأول من العمر فتصلب أعضاؤه بعض الصلابة وتقوى أفعاله مثل أن تبدل أسنانه الضعيفة الواهية مثلاً بالقوية وقوة الهضم كذلك أقوى من قبل .

وأما في نهاية الأسبوع الثاني يتقوى الحرارة وتقل الرطوبات وتتسع المجاري وتقوى الأعضاء وتتصلب صلابة كافية ويتولد فيه مادة الزرع وعند هذا يحكم الشرع عليه بالبلوغ لأن الدماغ قد اعتدل وكمل القوى النفسانية التي هي الفكر والإدراك فلا جرم يتوجه إليه التكليف الشرعية فما أحسن قول من ضبط البلوغ الشرعي بخمس عشرة سنة وهو تكميل أسبوعين على البيان الذي قرأنا .

و يتفرع على حصول هذه الحالة أمارات ظاهرة و علائم بيّنة منها انفراق طرف الأرنبة وتواء الحنجرة و غلظ الصوت لأن الحرارة التي تنهض في ذلك الوقت توسع الحنجرة فتنتفخ ويغلظ الصوت و ثالثها تغير ريح الإبط وهي الفضلة العفنية التي يدفعها القلب إلى ذلك الموضع لأن القلب لما قويت حرارته لاجرم قويت على إفضاج المادة و دفعها إلى اللحم الغددي الرخو الذي في الإبط وكذلك نبات الشعر و حصول الاحتلام والاحتلام لأن الحرارة كلما قويت قدرت على توليد الأبخرة المولدة للشعر و على توليد مادة الزرع ولهذا في هذا الوقت تتحرك الشهوة في الصبايا وينهد ثديهن وينزل حيضهن لأن الحرارة الغريزية التي فيهن قويت في آخر هذا الأسبوع .

و أما في الأسبوع الثالث فيبلغ في حد الكمال فيزداد الحسن و أما في الأسبوع الرابع هذه الأحوال متكاملة متزايدة .

وعند انتهاء الأسبوع الرابع لا يظهر الازدياد ويدخل الإنسان في سن الوقوف في الأسبوع الخامس أسبوع واحد فيكون المجموع خمسة و ثلاثين سنة .

ولما كانت هذه المدة المذكورة إما قد تزداد وإما قد تنقص بحسب ضعف الأمزجة وقوتها جعل الغاية فيه مدة أربعين سنة فإن هذا الوقت تسكن أفعال القوى الطبيعية بعض السكون وتنتهي له أفعال القوة الحيوانية غايتها وتأخذ القوى الطبيعية والحيوانية في الانتقاص وتأخذ القوة النطقية والعقلية في الاستكمال وهذا أحد الدلائل من أن النفس غير البدن فإن البدن عند أربعين يأخذ في الانتقاص والنفس من الأربعين يأخذ في الاستكمال ولو كانت النفس عين البدن لحصل لشيء الواحد في الوقت الواحد الكمال والنقصان وذلك محال وهذا بيان قوله : [حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر] أي ألهمني ، وأصله أو معنى من أوزعه بكذا [أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذرتي] أي اجعل لي خلف صدق ذلك عبيد [إني تبت إليك وإني من المسلمين] المنقادين لأمرك وهذا الدعاء تصريح بأن القوة النفسانية العقلية تستكمل في هذا الوقت .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : لما حملت فاطمة عليها السلام بالحسين عليه السلام جاء جبرئيل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : إن فاطمة ستلد غلاماً يقتله أمك من بعدك فلما حملت فاطمة عليها السلام بالحسين كرهت حمله وحين وضعته كرهت وضعه قال عليه السلام : لم تر في الدنيا أم تلد غلاماً تكرهه ولكنها كرهت لما علمت أنه سيقتل قال عليه السلام : وفيه نزلت هذه الآية .

وفي رواية أخرى ثم هبط جبرئيل عليه السلام فقال : يا محمد إن ربك يقرؤك السلام وببشرتك بأنه جاعل في ذريته الإمامة والولاية والوصية فقال عليه السلام : إني رضيت ثم بشر فاطمة بذلك فرضيت قال : فلولا أنه قال : « أصلح في ذريته » لكاف ذريته كلهم أئمة قال : ولم يرضع الحسين من فاطمة ولا من أنثى كان يؤتى به النبي صلى الله عليه وآله فيضعه صلى الله عليه وآله في إبهامه في فيه فيمص منها ما يكفيه اليومين والثلاث فنبت لحم الحسين عليه السلام من لحم رسول الله صلى الله عليه وآله ودمه من دمه ولم يولد لستة أشهر إلا يحيى بن زكريا والحسين عليه السلام . قوله تعالى : أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا و نتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون (١٦) والذي

قال لوالديه أف لكما اتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا أساطير الاولين (١٧) اولئك الذين حق عليهم القول في امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين (١٨) ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون (١٩) ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون (٢٠).

ثم أخبر الله سبحانه بما يستحقه هذا الإنسان و مثل هذا الإنسان من الثواب فقال :

[أولئك] يعني أهل هذا القول [الذين يتقبل] وقرئ، بالياء على البناء للمجهول [عنهم أحسن ما عملوا] بإيجاب الثواب لهم أحسن أعمالهم وهو ما يستحق به من الثواب في الواجبات والمندوبات فإن المباح أيضاً من الحسن ولا يوصف بأنه متقبل [وتتجاوز عن سيئاتهم] التي اقترفوها [في أصحاب الجنة] أي في جمع ممن تتجاوز عن سيئاتهم وهم أصحاب الجنة فيكون قوله : « في أصحاب الجنة » في موضع النصب على الحال .

[وعد الصدق الذي كانوا يوعدون] أي وعدهم وعد الصدق وهو ما وعد أهل الإيمان يتقبل من محسنهم ويتجاوز عن سيئاتهم إذا شاء أن يتفضل عليهم بإسقاط عذابهم أو إذا تابوا ، الوعد الذي كانوا يوعدونه في الدنيا على السنة الرسل .

قوله : [والذي قال لوالديه أف لكما] لما وصف الولد البار بوالديه في الآية المتقدمة وصف الولد العاق لوالديه في هذه الآية فقال : « والذي » الآية ، قيل : إنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قال له أبواه : أسلم وألحاً عليه فقال : أحيوا لي عبدالله بن جذعان ومشايخ قريش حتى أسألهم عما تقولون عن ابن عباس وجماعة . وقيل : عامة في كل كافر عاق لوالديه كما أن الآية الأولى عامة لكل بار لوالديه وليس المراد بشخصاً معيناً .

وكلمة « أُف » صوت يصدر عن المرء عند تضجره واللام لبيان المؤفف له كما في هيت لك وبيان أن هذا التأفف لكما خاصة وقرىء « أُف » بالفتح والكسر بغير تنوين وبحركات الثلاث مع التنوين والصحيح أن « أُف » لكما مبتدء وخبر وتقديره هذه الكلمة التي يقال : عند الأمور المكروهة كائنة لكما .

قوله : [أتعذاني أن أخرج] من القبر وأُحيا وأُبعث [وقد خلت القرون من قبلي] ومضت أُمم وماتوا قبلي فما أخرجوا ولا أُعيدوا وقيل : معناه خلت القرون والأجيال على هذا المذهب ينكرون البعث [وهما] أي والديه [يستغيثان الله] أي يطلبان من الله الغوث ويقولان له [ويلك آمن] بالقيامة وبما يقوله النبي [إن وعد الله حق] بالبعث والنشور والثواب والعقاب فيقول هو في جوابهما : [ما هذا] القرآن [إلا أساطير الأولين] أي إن هذا القرآن وما تخبرونه من أخبار الأولين وأحاديثهم التي سطورها ليس لها حقيقة . [أولئك الذين حق عليهم القول في أُمم] أي القائلون هذه المقالات الباطلة الذين حق عليهم القول والقول قوله لا إبليس : « لا ملأن جهنم منك وتمن تبعك منهم أجمعين »^(١) و قوله : في أُمم ، أي مع أُمم قد مضوا على مثل حالهم وعقائدهم [من الجن والإنس] وهذه الآية خلاف من يزعم أن الجن لا يموتون إلا حين انقراض الدنيا ثم أخبر سبحانه عن حالهم [إنهم كانوا خاسرين] لأنفسهم إذ أهلكوها بالمعاصي .

قوله : [ولكل درجات مما عملوا] أي لكل واحد ممن تقدم ذكره من المؤمنين البررة والكافرين الفجرة درجات على مراتب حالهم ومقادير أعمالهم فدرجات الأبرار في عليين ودرجات الفجار في سجين وقيل : المعنى لكل مطيع درجات ثواب وإن تفاضلوا في مقاديرها أو المعنى لكل من ولد البار والعاقر الفاجر درجات فإن قيل : كيف يجوز ذكر لفظ الدرجات في أهل النار وقد جاء في الخبر الجنة درجات والنار درجات ؟ فيمكن حمل الكلام على التغليب أو المراد بالدرجات المراتب المترتبة إلا أن زيادات أهل الجنة في الخيرات وزيادات أهل النار في السيئات .

[وليوفقهم أعمالهم وهم لا يظلمون] وقرىء بالنون ، أي وليوفقهم الله أعمالهم أي جزاء أعمالهم « وهم لا يظلمون » بعقاب لا يستحقونه أو بمنع ثواب يستحقونه .

قوله تعالى : [ويوم يعرض الذين كفروا على النار] أي يوم القيامة يعرضون على النار ويدخلونها كما يقال : عرض فلان على السوط ويجوز أن يكون المعنى يعرض النار عليهم قبل أن يدخلوها ليروا من أهوالها [أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا] أي يقال لهم آثرتم لذاتكم في الدنيا على طيبات الجنة [واستمتعتم بها] وتلذذتم من لذاتها منهمكين فيها وأنفقتموها في شهواتكم ولم تنفقوها في مرضات الله وقرأ ابن عامر بهمزتين أذهبتم والباقون بلفظ الخبر .

وعن رسول الله ﷺ أنه دخل على أهل الصفّة وهم يرفعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعاً فقال ﷺ : أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلّة ويروح في أخرى ويغدي عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى ويستر بيته كما يستر الكعبة قالوا : نحن يومئذ خيراً قال ﷺ : بل أنتم اليوم خير . انتهى الحديث .

ولما وبخ الله الكفار بالتمتع بالطيبات واللذات في الدنيا آثر النبي وأمير المؤمنين الزهد واجتناب الترفه والنعمة ، وفي الحديث إن عمر قال : استأذنت على رسول الله فدخلت في حجرة أم إبراهيم وإنه ﷺ لمضطجع على خصفه وأن بعضه على التراب وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً فسلمت عليه ثم جلست فقلت يا رسول الله أنت نبي الله وصفوته وخيرته من خلقه وكسرى وقبصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحريز فقال رسول الله ﷺ : أولئك قوم عجلت طيباتهم وهي وشيكة الانقطاع وإنما أخرت لنا طيباتنا .

وكذلك كان حال علي عليه السلام وهو يقول : في بعض خطبه و الله لقد رفعت مدرعتي هذه حتى استحيت من رافعها ولقد قال لي قائل : ألا تنبذها؟ فقلت : أعزب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى .

وروى محمد بن قيس عن الباقر عليه السلام أنه قال : و الله إن كان ليأكل أكلة العبد و يجلس جلسه العبد وإن كان يشتري القميصين فيخير غلامه خيرهما ثم يلبس الآخر فإذا جاز أصابعه قطع الزائد وإذا جاز كعبه حذفه ولقدولي قرب خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة وما ترك صفراء ولا حمراء وأن كان ليطعم الناس خبز البر واللحم و يتصرف إلى منزله فيأكل خبز الشعير والزيت أو الخل وما ورد عليه أمران كلاهما لله

رضى إلا أخذ بأشدّهما على بدنه ولقد أعتق ألف مملوك من كد يمينه تربت يده منه وعرق فيه وجهه وما أطاق عمله أحد من الناس وإنه كان ليصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة وكان أقرب الناس شبيهاً به في العبادة علي بن الحسين عليهما السلام ما أطاق عمله أحد من الناس بعده .

وقد اشتهر في الرواية أنه لما دخل علي العلاء بن زياد بالبصرة يعوده قال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد لبس العبادة وتخلّى من الدنيا فقال علي عليه السلام: علي به فلمّا جيء به قال: يا عديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث أما رحمت أهلك وولدت أترى الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها أنت أهون على الله من ذلك قال عاصم: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجرشونة ما كلك قال: ويحك إنني لست كأنت إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يساووا أنفسهم بضعة الناس كيلاً يتبيخ بالفقير فقره ، انتهى .

قوله تعالى: [فاليوم تجزون عذاب الهون] أي عذاب الذي فيه الذلّ والخزي و الهوان [بما كنتم تستكبرون] باستكباركم عن الانقياد للحق في الدنيا وتكبركم على الأنبياء [بغير الحق] من دون حق لكم في الترفع والإنكار [وبما كنتم تفسقون] وبخروجكم من طاعة الله إلى معاصيه وذلك اليوم عظيم .

قوله: واذكر أخا عاد إذا نذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله أني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٢١) قالوا اجئتنا لتأفكنا عن الهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين (٢٢) قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكفى أراكم قوما تجهلون (٢٣) فلما رآوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم (٢٤) تدمر كل شيء بأمر ربها فاصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك يجزي القوم المجرمين (٢٥) .

ولما بيّن سبحانه أنواع الدلائل في التوحيد والنبوة و كان المشركون بسبب استغراقهم في لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها لم يلتفتوا إلى الدلائل أمر نبيه أن يذكر

هذه القصة ههنا ليعتبروا و يقبلوا على طلب الدين لأن من أراد تقبيح أمر عند قوم كان الطريق فيه ضرب الأمثال ليعلموا ضرره ويتركوها ما هم عليه .
[واذ كر] يا عجم لقومك [أخا عاد] يعني هوداً ومن انتسب إلى طائفة يقال له : أخو فلان مثل أن يقول : أخو سليم وأخو قيس [إذ أنذر قومه بالأحقاف] وخو فهم من عذاب الله ومخالفته ودعاهم إلى طاعته و الأحقاف واد من الرمل بين عمان وحضر موت مشرفة على ساحل البحر [وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه] أي وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده .

[ألا تعبدوا إلا الله] بأن لا تعبدوا وحاصل المعنى إني لم أبعث قبل هود ولا بعده إلا بالأمر بعبادة الله وحده وهذا اعتراض وقع بين إنذار هود وكلامه لقومه .

ثم عاد إلى كلام هود لقومه فقال هود : [إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم] و تقدير الكلام أنذر هود قومه بالأحقاف فقال : [إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم] .

ثم حكى سبحانه ما أجاب به قومه بقوله : [قالوا أجبنا لنأفكنا عن آلهتنا] أي أجبنا لتصرفنا وتلفتنا عن عبادة آلهتنا [فأنتنا بما تعدنا] من العذاب [إن كنت من الصادقين] أن العذاب نازل بنا وهذا الكلام منهم في استعجال العذاب تكديماً لهود عليه السلام .

[قال إنما العلم عند الله] فقال لهم هود : لا علم لي بالوقت الذي يحصل فيه العذاب وإنما علم ذلك عند الله [وأبلغكم ما أرسلت به] وأنا أخطركم من وقوعه [ولكنني أراكم قوماً تجهلون] حيث تصرّون في الجهل المفرط وطلب العذاب وهذا جهل عظيم .

[فلما راوه عارضاً مستقبلاً أو دبتهم] والضمير في «راوه» إما إلى غير مذكور ويبيّنه قوله : «عارضاً» مثل قوله : «ما ترك على ظهرها من دابة»^(١) و لم يذكر الأرض لكونها معلومة فكذا ههنا الضمير عائد إلى السحاب فالمعنى فلما رأوا السحاب عارضاً و يجوز أن يكون الضمير عائداً إلى ما في قوله : «فأنتنا بما تعدنا» فلما رأوا ما وعدوا به عارضاً و العارض السحابة التي ترى في ناحية السماء ثم تطبق .

قال المفسرون : كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً فساق الله إليهم سبحانه سوداء

فخرجت عليهم من وادٍ يقال له : المغيث فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا وقالوا : « هذا عارض ممطرنا » أي سحاب ممطر إيانا .

فقال هود عليه السلام : ليس الأمر كما زعمتم [بل هو ما استعجلتم به] هو الذي وعدكم به وطلبتم تعجيله ثم فسره فقال : [ريح فيها عذاب أليم] وقيل : هو من كلام الله ووصف ماهية الريح بقوله : [تدمر كل شيء] أي يهلك كل شيء من الناس والحيوان والنبات وليس المراد من الكل كل موجود و أطلق الكل على البعض والمراد من قوله : [بأمر ربها] أن هذا ليس من الأمور العادية ومن تأثيرات الكواكب والقرانات مثل الأنواء بل هو أمر عظيم حدث بقدرته الله لأجل تعذيبكم .

[فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم] وتذكير الفعل في قوله : « لا يرى » أحسن من إلحاق علامة التأنيت بالفعل من أجل الجمع لأنه يحمل الكلام على المعنى مثل قولهم : ما قام إلا هند و لم يقولوا : ما قامت إلا هند لأن المعنى ما قام أحد إلا هند و قرئ « مسكنهم » .

روى أن الريح كانت تحمل الفسطاط وترفعها في الجو حتى يرى كأنها جردة و أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت : رأيت ريحاً فيها كسب النار .

وروي أن أول ما عرفوا به أنه عذاب أليم أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رجالهم و مواشيهم يطير به الريح بين السماء و الأرض فدخلوا بيوتهم و غلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم و أحال الله عليهم الأحقاف فكانوا تحتها سبع ليالٍ وثمانية أيام لهم أين ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم و طرحتهم في البحر ولما أحس هود عليه السلام بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خط على جنب عين تمنع فكانت التي تصيبهم ريحاً لينة هادية طيبة والريح التي تصيب قوم عاد ترفعهم من الأرض و تطيرهم إلى السماء و يضربهم على الأرض و أثر المعجزة إنما ظهر في تلك الريح من هذا الوجه .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما أمر الله خازن الرياح أن يرسل على عاد إلا مثل مقدار الخاتم و ذلك القدر أهلكتهم بكليتهم و كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى الريح فزع وقال : اللهم إني أسألك خيراً و خيراً ما أرسلت به و أعوز بك من شرها و من شر ما أرسلت به .

قوله تعالى : [كذلك نجزي القوم المجرمين] والمقصود تخويف كفار مكة أي مثل ما أهلكنا أهل الأحقاف نجزي الكافرين الذين يسلكون مسالكهم . فإن قيل : لما قال الله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم »^(١) فكيف يبقى التخويف حاصلاً ؟ فالجواب أن قوله : « وما كان الله » إنما نزل في آخر الأمر و كان التخويف قبل ذلك .

ثم يبين سبحانه فضل قوم عاد بالقوة والجسم على كفار مكة فقال سبحانه :

ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وابصارا و افئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بايات الله و حاق بهم ما كانوا به يستهزءون (٢٦) ولقد اهلكنا ما حولكم من القرى و صرفنا الايات لعلهم يرجعون (٢٧) فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم و ذلك افكهم و ما كانوا يفترون (٢٨) و اذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين (٢٩) قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق و الى صراط مستقيم (٣٠) .

[ولقد مكنا] قوم عاد في أمور ما مكناكم فيها بمعنى أنهم كانوا أقوى منكم جسماً وأكثر أموالاً قال المبرد : كلمة « ما » في قوله : « فيما » بمنزلة الذي وكلمة « إن » بمنزلة « ما » وقال ابن قتيبة كلمة « إن » زائدة والتقدير ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه قال الرازي وهذا غير صحيح لأن الحكم بأن حرقاً من كتاب الله عبث لا يقول به عاقل ثم إن المقصود من الكلام أنهم كانوا أقوى منكم وأنهم مع زيادة القوة ما نجوا من عذاب الله فكيف يكون حالكم ؟ وهذا المعنى لا يتم مع ما قاله ابن قتيبة . و يؤيد قول المبرد آيات كثيرة مثل قوله : « هم أحسن أثاثاً ورئياً »^(٢) وقوله : « كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض »^(٣) .

(١) الانفال : ٣٣ .

(٢) مريم : ٧٤ .

(٣) المؤمن ٨٢ .

وبالجملة ثم قال سبحانه : [وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة] أي فتحنا عليهم أبواب المعرفة والنعمة ليستمعوا الآيات والدلائل وليبصروا الأشياء ليعتبروا وأعطيناهم أفئدة ليتفكروا فما استعملوا هذه الجوارح في طلب معرفة الله بل صرفوا هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها .

فلاجرم [ما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم] لأنهم [كانوا يجحدون بآيات الله] وذكره إذ ، في مثل هذا المقام للتعليل كقولك : صرته إذ أساء أي لأنه أساء فإذا كان أولئك مع قوتهم نزل بهم عذاب الله فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا العذاب .

قوله : [ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى] يا أهل مكة ما حولكم وهم قوم هود وكانوا باليمن وقوم صالح وهم بالحجر وقوم لوط على طريقهم إلى الشام [وصرنا آيات] وتصريف الآيات تارة باختلاف أنواع المعجزات وتارة في الإهلاك وتارة في التذكير بالنعمة والنقم وتارة بوصف الأبرار ليقنوا بهم وتارة بتوبيخ الكفار ليجتنبوا مثل فعلهم [لعلمهم يرجعون] لكي يرجعوا عن الكفر والمعاصي .

[فلولوا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة] أي فهلاً نصر هؤلاء الذين أهلكهم الله وهم عابدوهم وكان العابدون يزعمون بعبادتهم إياهم يتقربون إلى الله بهذه العبادة والمعبودين يشفعون لهم فلم غابوا عن نصرتهم وذلك لأنهم كانوا يعبدون الآلهة للتقرب إلى الله ويجعلونها شركاء لله قرباناً .

[بل ضلوا عنهم] أي ضلّت آلهتهم وقت حاجتهم إليها ولم تنفعهم وقت نزول العذاب بهم [وذلك إفكهم] أي اتخذوا الآلهة دون الله كذبهم وافترائهم [وما كانوا يفكرون] أي من مفقراتهم .

ثم بين سبحانه أنه كما في الإنس مؤمن وكافر كذلك في الجن مؤمن وكافر فقال : [وإذ صرنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن] واذكروا لينته علمك يا محمد إذ وجّهنا إليك جماعة من الجن تستمع القرآن قال سعيد بن جبیر : كانت الجن تستمع وتسترق من

السماء فلمّا رجّوا قالوا : هذا الذي حدث في السماء إنّما حدث آشيء في الأرض فذهبوا يطلبون السبب .

وكان قد اتفق أن النبي ﷺ لما أيس من أهل مكّة أن يجيبوه خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام فلمّا انصرف إلى مكّة وكان ﷺ يبطن نخل قام يقرء القرآن في صلاة الفجر فمرّ به نفر من أشراف جنّ نصيبين وذلك أن إبليس بعثهم ليعرفوا السبب الذي أوجب الله حراسة السماء بالرجم فسمعوا القرآن وعرفوا أن ذلك هو السبب .

قال الزهري : لما توفي أبو طالب ﷺ اشتدّ البلاء على رسول الله ﷺ فعمد ليقف بالطائف رجاء أيأووه فوجد ثلاثة نفر من بني عبد ياليل فعرض ﷺ عليهم نفسه فقال أحدهم : أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قطّ وقال الآخرون كلمات يتشابه الأول و تهزّموا به ﷺ و أفشوا في قومهم ما راجعوه به ففقدوا به صفتين على طريقته .

فلمّا مرّ النبي ﷺ بين صفتهم جعلوا لا يرفع ﷺ رجله ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة فخلص منهم وهما يسيلان دماً إلى حائط من حوائطهم واستظلّ في ظلّ شجرة منه وهو ﷺ مكروب موجه تسيل رجلاه دماً .

فإذا في الحائط عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة فلمّا رآهما كره مكانهما لما يعلم ﷺ من عداوتهما لله ورسوله فلمّا رأياه أرسلا إليه غلاماً لهما يقال له عداس وهو نصرانيّ من أهل نينوى فلمّا جاء قال له رسول الله : من أيّ أرض ؟ فقال : من أهل نينوى قال صلى الله عليه وآله وسلم : من مدينة العبد الصالح ابن متى فقال له عداس : وما يدريك من يونس فقال : أنا رسول الله والله أخبرني خبر يونس فلمّا أخبره بما أوحى الله إليه من شأن يونس خرّ عداس ساجداً لرسول الله وجعل يقبل قدميه وهما يسيلان الدماء فلمّا بصره عتبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكنا فلمّا أناهما قالوا : ما شأنك سجدت لمحمد وقبلت قدميه ولم ترك فعلت ذلك بأحدٍ منّا قال : هذا رجل صالح أخبرني بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا يدعى يونس بن متى فضحكوا وقالوا : لا يفتنّك عن نصرانيتك فإنّه رجل خداع فرجع رسول الله ﷺ إلى مكّة حتّى إذا بنخلة قام يصليّ و يقرء القرآن في صلاته فمرّ به

نفر من الجن فاستمعوا له وهذا أحد القولين في تفسير الآية مثل سعيد بن جبير وجماعة وقال آخرون : أمر النبي ﷺ أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله و يقرء عليهم القرآن فصرف الله إليه نفراً من الجن ليستمعوا منه القرآن وينذروا قومهم ونقل أنهم كانوا يهوداً لأن في الجن ملأاً كما في الإنس من اليهود والمجوس والنصارى وعبدة الأصنام .

وأطبق العلماء المحققون على أن الجن مكلفون وسئل ابن عباس هل للجن ثواب فقال : نعم لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون في الجنة ويردحون على أبوابها .

قال الزمخشري : المنفردون العشرة وجمع على أنفار .

وعن ابن عباس أن أولئك الجن كانوا سبعة من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله رسلاً إلى قومهم وعن قتادة أنهم صرفوا إليه من ساوة .

قال القاضي عبد الجبار في تفسيره عن أنس بن مالك قال : كنت مع رسول الله ﷺ في جبال مكة فإذا شيخ يتوكأ على عكازه فقال النبي ﷺ شية جنسي و نغمته فقال الشيخ : أجل فقال ﷺ : من أي الجن أنت فقال : أنا هامة بن هيم بن قيس بن لافيس بن إبليس فقال ﷺ : لأرى بينك وبين إبليس إلا أبو بن فكم أتى عليك ؟ فقال : أكلت عمر الدنيا إلا أفلها و كنت وقت قتل قاييل هايل أمشي بين الآكام و ذكر كثيراً مما مر به و ذكر في حملته أن قال : قال لي عيسى بن مريم : إن لقيت عمداً فافراه مني السلام وقد بلغت سلامه وآمنت بك فقال ﷺ : على عيسى السلام وعليك يا هامة ما حاجتك ؟ فقال : إن موسى علمني التوراة وعيسى علمني الإنجيل فعلمني القرآن فعلمه ﷺ عشر سور وقبض ﷺ انتهى .

ثم بعد تصريح الله ﷻ نفراً من الجن إليه ﷺ يستمعوا القرآن [فلما حضروه] و الضمير راجع إلى القرآن وقيل : إلى النبي ﷺ أي لما حضر هؤلاء نفر من الجن قيل : كان مجيئهم من نينوى قرب الموصل فقال ﷺ : إني أمرت أن أقرء على الجن الليلة فأتاكم يتبعني فاتبعه عبد الله بن مسعود قال عبد الله : ولم يتبعه ﷺ أحد غيري فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة فدخل النبي ﷺ شعباً الجحون وخط لي خطاً ثم أمرني أن أجلس

وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم انطلق حتى قام فافتتح بالقرآن و السورة التي تلاها عليهم افرء باسم ربك فغشته أسودة كثيرة حتى حالت بيني و بينه حتى لم أسمع صوته ثم انطلقوا وطفقوا ينقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين حتى بقي منهم رهط و فرغ رسول الله مع العجز فانطلق فبرز ثم قال : هل رأيت شيئاً فقلت : نعم رأيت رجالاً ذوي ثياب بيض .

قال ابن عباس : كان ذلك الرهط سبعة نفر من جن نصيبين فجعلهم ﷺ رسلاً إلى قومهم وروى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : لما قرء رسول الله سورة الرحمن على الناس سكتوا ولم يقولوا شيئاً ، فقال رسول الله : الجن كانوا أحسن جواباً منكم لما قرأت «فبأي آلاء ربكما تكذبان» قالوا : لا ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب .

وبالجملة [قالوا أنصتوا] أي قال بعضهم لبعض : أنصتوا واسكتوا مستمعين .

[فلما قضى] و فرغ ﷺ من القراءة [ولوا إلى قومهم منذرين] ينذرون قومهم قالوا يا قومنا : [إننا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم] ووصفوا القرآن بوصفين :

الاول كونه مصداً لما لكتب الأنبياء أي كما أن كتب الأنبياء مشتملة على الدعوة إلى التوحيد والنبوة والمعاد وتمذيب الأخلاق فكذلك هذا الكتاب .

الثاني قوله : «يهدي إلى الحق» وإلى صراط مستقيم ، و مطالب عالية شريفة يعلم كل أحد بصريح عقله أنه صدق وحق .

فإن قيل : كيف قالوا : «من بعد موسى» ؟ لأنهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس أن الجن ما سمعت أمر عيسى فلذلك قالوا : من بعد موسى .
ثم إن الجن لما وصفوا القرآن قالوا :

يا قومنا اجيبوا داعي الله و آمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم و يجزكم من عذاب أليم (٣١) و من لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض و ليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين (٣٢) أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض و لم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيء

قدير (٣٣) ويوم يعرض الذين كفروا على النار اليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٤) فاصبر كما اولا لعزم من الرسل ولا تستعجل لهم كانهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون (٣٥) .

ثم بين سبحانه حكاية قول الجن [يا قومنا اطيعوا داعي الله] يعنون عمداً اذ دعاهم إلى خلق الأنداد دونه وصدقوا بتوحيد الله وآمنوا به [يغفر لكم من ذنوبكم] أي فإني لكم إن آمنتم بالله ورسوله . وإنما بعض في الآية لأن من الذنوب ما لا يغفر بالابدان كذنوب المظالم ونحوه .

واختلف بأن هل للجن ثواب كما للإنسان قيل نعم : وقيل : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار لقوله : [ويجركم من عذاب أليم] و الصحيح أنهم في حكم بني آدم لأنه قال علي بن إبراهيم : فجاءوا إلى رسول الله يطلبون شرائع الإسلام فأنزل الله على نبيه **وقل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن** ، إلى آخر السورة ، فأمنوا إلى رسول الله . وفي هذا دلالة على أنه كان مبعوثاً إلى الجن كما كان مبعوثاً إلى الإنس ولم يبعث الله قبله نبياً إلى الإنس والجن .

[ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض] أي لا يعجز الله فيسبقه ويفوته ولا مهرب له منه [وليس له من دونه أولياء] أي لا يكون له أنصار يمنعون من عذاب الله إذا نزل بهم هذا من كلام رسل الجن ويجوز أن يكون من كلام الله تعالى ابتداء ثم قال : [أولئك في ضلال مبين] أي الذين لا يجيبون داعي الله في عدول عن الحق وفي ضلالة واضحة .

ثم قال منبهاً على قدرته على البعث والإعادة : [أولم يروا] ولم يعلموا [أن الله خلق السماوات والأرض] وأنشأهما [ولم يعي بخلقهن] أي لم يصبه في خلق ذلك أعباء ولا تعب يقال : عي فلان بأمره إذا لم يقدر عليه [بقادر] الباء زائدة وموضعه رفع بأنه خبر أن [على أن يحيي الموتى] أي خلق السماوات والأرض أعجب من إحياء الموتى .

ثم قال : [بلى إنه على كل شيء قدير] ثم عقبه بذكر الوعيد فقال : [ويوم يعرض الذين كفروا على النار اليس هذا بالحق] أي يقال لهم على وجه التهكم : أليس هذا

الذي جوزيتم به واقعاً وحققاً [قالوا] فيقولون : نعم [و ربنا] واعترفوا بذلك وحلفوا بعد أن كانوا منكرين في الدنيا [قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون] فيقال لهم : ذوقوا بسبب كفركم وجحودكم .

ثم قال لنبيته : [فاصبر كما صبراً ولو العزم من الرسل] أي فاصبر يا عتد على أذى قومك وعلى ترك إجابتهم لك كما صبر الرسل و «من» ههنا لتبين الجنس وعلى هذا القول فيكون جميع الأنبياء هم أولو العزم لأنهم عزموا على أداء الرسالة وتحمل أعبائها وقيل : إن من ههنا للتبعيض وهو قول أكثر المفسرين والظاهر في روايات أصحابنا .

ثم اختلفوا فقيل : أولو العزم من الرسل من أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدمه وهو خمسة أولهم نوح عليه السلام ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد عليه السلام عن ابن عباس وجاعة وهو المروي عن الباقر والصادق عليه السلام قال : وهم سادة النبيين وعليهم دارت رحى المرسلين وقيل : هم ستة نوح صبر على أذى قومه وإبراهيم صبر على النار وإسحاق صبر على الذبح وإسماعيل ويعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر ، ويوسف صبر على البئر والسجن ، وأيوب صبر على الضر والبلوى . وقيل : هم الذين أمروا بالجهاد والقتال وجاهدوا العدو في الدين وقيل : هم إبراهيم وهود ونوح ورابعهم محمد عليه السلام .

والمراد بالعزم الوجوب والختم وأولو العزم من الرسل هم الذين شرعوا الشرايع وأوجبوا على الناس الأخذ بها والانقطاع عن غيرها .

قوله تعالى : [ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون] أي ولا تستعجل لهم العذاب فإنه كائن لا محالة وواقع بهم وما هو آت فهو قريب «كأنهم يوم يرون ما يوعدون» من العذاب في الآخرة [لم يلبثوا] في الدنيا [إلا ساعة من نهار] أي إذا عاينوا العذاب طول لبثهم في الدنيا والبرزخ مثل ساعة من نهار لأن ماضى كأن لم يكن وإن كان طويلاً وتم الكلام .

ثم قال : [بلاغ] أي هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغ للناس أي تبليغ

ج ١٠ (الجزء السادس والعشرون - سورة الأحقاف ٤٦ - آية ٣١-٣٥) - ١٣٥ -

للنّاس وقرىء بلاغاً أي بلغوا بلاغاً . وقيل : معناه ذلك اللبث و مكثهم في الدّنيا بلاغ
ويسير .

قوله : [وهل يهلك إلّا القوم الفاسقون] أي لا يقع العذاب إلّا بالعاصين الخارجين
من أمر الله وقيل : المعنى لا يهلك إلّا هالك مشرك ولّي ظهره الإسلام أو منافق صدّق
بلسانه وخالف بقلبه وعمله وقيل : لا يهلك مع رحمة الله إلّا القوم الخارجون
عن دين الله . قال الزجاج و ما جاء في القرآن في الرجاء
لرحمة الله شيء أقوى من هذه الآية تمت السورة
بحمد الله

م

سورة محمد ﷺ

وتسمى سورة القتال .

مدنية إلا آية منها نزلت على النبي ﷺ وهو يريد التوجه إلى المدينة من مكة وجعل ﷺ ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً فنزلت « و كأن من قرية هي أشد قوة من قريتك الآية » .

فضلها أبي بن كعب قال : قال النبي ﷺ : من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة .

وروى أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال : من قرأها لم يدخله شك في دينه أبداً ولم ينزل محفوظاً من الشرك والكفر أبداً حتى يموت فإذا مات وكل الله به في قبره ألف ملك يصلون في قبره ويكون ثواب صلاتهم له ويشيعونه حتى يوقفوه موقف الأمان من عند الله ويكون في أمان الله وأمان محمد . وقال الصادق عليه السلام : من أراد أن يعرف حالنا وحال أعدائنا فليقرأ سورة محمد فإنه يراها آية فينا وآية فيهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم (١) والذين آمنوا و عملوا الصالحات وآمنوا بما أنزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم و أصلح بالهم (٢) ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل و ان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم (٣) فإذا القيم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم و لكن ليبلو بعضكم ببعض و الذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم (٤) سيهديهم ويصلح بالهم (٥) ويدخلهم الجنة عرفها لهم (٦) .

المعنى : ختم الله تلك السورة بوعيد الكفار وافتتح هذه السورة بمثلها

فقال :

[الذين كفروا] بتوحيد الله وعبدوا معه غيره [وصدوا] الناس [عن سبيل] الإيمان والإسلام باستدعائهم إلى الباطل والشرك و تكذيب النبي ﷺ [أضل أعمالهم] أي أحبط الله أعمالهم التي كان في زعمهم أنها أعمال وقرية وتنفعهم كالعتق والصدقة وفري الضيف والمعنى أنه أذهبها إذ لم يروا لها في الآخرة ثواباً .

قيل : نزلت في المطعمين بيد وكانوا عشرة أنفس منهم أبوجهل والحرث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم . وقيل : المراد كفار قريش . وقيل : أهل الكتاب أو هو عام يدخل فيه كل كافر والمراد بالصد صد أنفسهم ومنع عقولهم من اتباع الدليل والحق أو صدوا غيرهم عن اتباع الحق .

فإن قيل : إن المستضعفين كانوا أتباعاً و لم يصدوا غيرهم فيقتضي أن لا يضل

أعمالهم .

فالجواب أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي ما عداه . ثم إن كل من كفر صاد لغيره من بعده لأن المستضعف بمتابعته أثبت متبوعه بالمنعية من اتباع الرسول لأنه بعد ما يكون متبوعاً يشق عليه بأن يصير تابعاً على أن كل من كفر صار صادقاً لأن عادة الناس اتباع المتقدم كما قال سبحانه عنهم : «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون» فعلى هذا كل كافر صادق .

فإن قيل : فما الفائدة حينئذ من ذكر الصد في الآية بعد الكفر ؟
فالجواب أنه من باب ذكر المسبب عليه كقولك : أكلت كثيراً وشبعت .
والكفر سبب الصد وفي المصدود عنه وجوه : الأول عن الإيمان . الثاني عن الإيفاق على محمد وأصحابه . الثالث الاتباع عن دينه وقد ذكرناها في صدر تفسير الآية .
وفي الإضلال في أعمالهم أيضاً وجوه :

الأول : الإبطال أي يوازن بسببهم الحسنات التي صدرت منهم ويسقطها بالموازنة في الدنيا ويبقى لهم سيئات محضة لأن الكفر يزيد على غير الإيمان من الحسنات والإيمان تترجح على غير الكفر من السيئات .

الثاني : أن الإبطال بسبب فقد شرط ثبوتها ؛ لأن الإيمان شرط قبول العمل للآخرة قال الله : «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن^(١)» وإذا لم يقبل الله العمل لا يكون له وجود لأنها أعراض لبقاء له في نفسه بل يعدم عقيب ما يوجد في الحقيقة غير أن الله يكتب عنده بفضل إن فلاناً عمل صالحاً وعندني جزاؤه فيبقى حكماً وهذا البقاء الحكمي خير من البقاء الدنسي للأجسام التي هي محل الأعمال حقيقة فإن الأجسام وإن بقيت غير أن مآلها إلى الفناء والعمل الصالح من الباقيات عند الله أبداً فتبين أن الله بالقبول متفضل وقد أخبر سبحانه أنني لا أقبل إلا من مؤمن فحينئذ من عمل وتعب من غير سبق إلى الإيمان فهو المضيق تعب لا الله تعالى .

الثالث : أن الكافر لم يعمل عمله لوجه الله خاصة فلم يأت بخير هو من يعمل مثقال

ذرة خيراً يره، والكافر لم يعمل الخير فكيف يره؟ انتهى .

قوله : [والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم] أي الذين صدقوا بتوحيد الله وأضافوا إلى الإيمان الأعمال الصالحة وآمنوا وقبلوا بما نزل على محمد من القرآن والعبادات وخص الإيمان بمحمد في الذكر مع دخوله في الأول تشریفاً وتعظيماً له ﷺ ولئلا يقول أهل الكتاب : نحن آمننا بالله وبأنبيائنا وكتبنا .

وقوله : «وهو الحق» من ربهم أي ما نزل على محمد هو الحق من ربهم لأنه ناسخ للشرائع والناسخ هو الحق ، وقيل : إن الضمير راجع إلى محمد أي محمد الحق من ربهم دون ما يزعمون من أنه سيخرج في آخر الزمان نبي من العرب وليس هذا هو فرد الله سبحانه ذلك القول عليهم بذكر اسمه .

[كفر عنهم سيئاتهم] أي سترها عنهم بأن غفرها لهم السيئات المتقدمة بإيمانهم [وأصلح حالهم] أي أصلح حالهم في معاشهم ومعادهم بأن نصرهم على أعدائهم في الدنيا و أدخلهم الجنة في العقبى .

ثم بين سبحانه إتمام قسم هذا القسمين فقال : [ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وإن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم] أي ذلك الضلال والإصلاح بسبب اتباع الكافرين الكفر و عبادة الشيطان والباطل و بسبب اتباع المؤمنين التوحيد و القرآن و ما أمر الله باتباعه .

[كذلك يضرب الله للناس أمثالهم] أي كالبيان الذي ذكرنا يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وسيئات الكافرين وقوله : ضربت لك مثلاً أي بينت لك ضرباً من الأمثال وأضاف المثل إلى الناس لأنه مجعول ليعتبروا .

ثم أمر سبحانه بقتال الكفار فقال : [فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموه] فاذا لقيتم معاشر المؤمنين الذين كفروا في دار الحرب . ووجه تعلق الفاء بما قبله في قوله : «فاذا» لأنه لما بين سبحانه بأن الذين كفروا أضل الله أعمالهم ومعلوم أن اعتبار الإنسان بالعمل ومن لم يكن له عمل فهو همج فإن صار مع ذلك يؤذي ويفسد

حسنُ إعدامه بل وجب .

فإذا لقيتم الذين ظهر منهم هذه الصفة فاضربوا أعناقهم ، وحذف الفعل و أُنيب المصدر منابه مضافاً إلى المفعول ونسبة الضرب إلى الرقاب لأنَّ أكثر مواضع القتل ضرب العنق وإن كان يجوز الضرب في سائر المواضع والمقصود دفعهم عن وجه الأرض وتطهير الأرض من رجسهم لأنَّ الأرض جعلها الله لأمة محمد مسجداً والمشر كون نجس والمسجد يطهر من النجاسة .

[حتى إذا أثخنتموهم] وحتى لبيان غاية الأمر لا لبيان غاية القتل أي وجوب القتل متعيّن إلى حدّ الإثخان لكنّ الجواز في القتل باقٍ ولو كانت حتى لبيان القتل لما جاز القتل بعد الإثخان والحالة أن القتل جائز أيضاً بعده والمعنى إذا أثخنتموهم بالجراح وظفرتهم بهم وبالغتم في قتلهم حتى ضعفوا [فشدوا الوثاق] أي أحملوا الوثاق و الوثاق بالفتح والكسر اسم ما يوثق به أي فأسروهم وأحكموا وثاقهم وليكن الأسر بعد المبالغة في القتل والإثخان فيهم ليدلّوا ولا يكون الأسر إلا بعد القتل كما قال سبحانه : «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض» (١) .

فبعد القتل والأسر [فأما منّا وأما فداء] أي إما أن تمنوا عليهم منّا فتطلقوهم بغير عوض وإما تفدوهم فداءً وتأخذون فداءً وعوضاً والمراد التخيير للإمام بعد الأسر بين المنّ أي الإطلاق وبين أخذ الفداء والعوض .

في الكافي والتهذيب عن الصادق عليه السلام قال : كان أبي يقول : إن للحرب حكمين وهو أنّه إذا كانت الحرب قائمة ولم تضع أوزارها وأثقالها كالسلاح والكراع ولم يشخن أهلها فكلّ أسير أخذ في تلك الحال فإن الإمام فيه بالخيار إن شاء ضرب عنقه وإن شاء قطع يده ورجله من خلاف وتركه يتشحط في دمه حتى يموت وهو قول الله : «إنما جزاء الذين يحاربون الله الآية» . قال عليه السلام : والحكم الآخرو هو بعد أن وضع الحرب أوزارها وبعد أن أثخن أهلها فكلّ أسير أخذ على تلك الحال ووقع في أيديهم فالإمام فيه مخير إن شاء منّ عليهم بالإطلاق فأرسلهم وإن شاء فاداهم أنفسهم وإن شاء استعبدهم فصاروا

عبيداً فإذا أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك وكان حكمهم حكم المسلمين .
 قوله : [حتى تضع الحرب أوزارها] وفي تعلق «حتى» وجهان : أحدهما تعلقها
 بالقتل أي اقتلوهم حتى تضع أهل الحرب أسلحتهم فلا يقاتلون و قيل : المعنى حتى لا
 يبقى أحد من المشركين وقيل : حتى لا يبقى دين غير دين الإسلام و قيل : أي حتى تضع
 حربكم وقاتلكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم بأن يسلموا ولا تبقى إلا الإسلام ولا يعبد
 الأصنام وهذا كما جاء في الحديث والجهاد ماض مذبحني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي
 الدجال قال الفرّاء : المعنى حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسلم قال الزجاج : المعنى اقتلوهم
 وأسروهم حتى يؤمنوا فما دام الكفر الحرب قائمة أبداً .

[ذلك و لو يشاء الله لاتنصر منهم] أي الأمر والواجب ذلك الذي ذكرناه و لا
 يريد سبحانه غير هذا الترتيب و لو أراد لفعل من خسف أو غرق و لكن أمرهم بالقتال
 للامتحان .

قوله تعالى : [ليبلو بعضكم ببعض] أي هذه الأحكام ليمتحن بعضهم ببعض فيظهر
 المطيع عن العاصي والمعنى أنه لو كان الغرض زوال الكفر فقط لأهلك الله سبحانه الكفار
 بما يشاء من أنواع الهلاك و لكن أراد مع ذلك أن تستحقوا الثواب و ذلك لا يحصل إلا
 بالتعبّد وتحمل المشاق .

[والذين قتلوا في سبيل الله] أي الذين قتلوا في الجهاد من المسلمين ، وقرىء قاتلوا
 فالمعنى جاهدوا سواء قتلوا أو لم يقتلوا [فلن يضل أعمالهم] أي لن يضيع الله أعمالهم بل
 يقبلها و يجازيهم عليها ثواباً دائماً والقتل ليس بإهلاك بالنسبة إلى المؤمن بل يورث الحياة
 الأبدية وبتقدير أن يقتل أو يقتل فهو مكرم بخلاف الكافر .

[سيهديهم ويصلح بالهم] يهتدون إلى طريق الجنة والثواب ويصلح حالهم وشأنهم
 والوجه في تكرير قوله «بالهم» أن المراد بالأول أنه أصلح بالهم في الدين والدنيا و
 الثاني المراد نعيم العقبى فالأول سبب النعيم والثاني نفس النعيم .

قوله : [و يدخلهم الجنة عرفها لهم] أي يبينها لهم حتى عرفوها إذا دخلوها و
 تفرقوا إلى منازلهم فكانوا أعرف بها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم وقيل : معناه

بينها الله لهم وأعلمهم بوصفها على ما يشوق إليها فيرغبون فيها ويسمعون لها . وقيل : معناه من العرف وهو العطر والرائحة الطيبة أي طيبات الجنة لهم بالعطر .

روى أن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء . أعطاه الله وفيه وجه آخر وهو أن يقال : عرفها لهم قبل موت الشهيد فإن الشهيد قبل وفاته يعرض عليه منزلته في الجنة فيشتاق إليه وذكر وجوه أخر لاجابة إلى الإطالة . ثم لما بين ثواب المجاهدين وعدهم بالنصر في الدنيا فقال :

يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٧).

أي إن تنصروا دين الله وطريقه وحزبه وفريقه وتنصروا النبي ﷺ ينصركم على عدوكم ويشجعكم ويقوي قلوبكم لتثبتوا أو ينصركم في الآخرة ويثبت أقدامكم على الصراط وعند الحساب أو يثبت أقدامكم في الدارين وهو الوجه قال بعض العلماء حق على الله أن ينصر من نصره وأن يزيد من شكره لقوله : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ، وأن يذكر من ذكره كقوله : « فاذكروني أذكركم » ، وأن يفي بعهده من أقام على عهده لقوله : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم » .

قوله تعالى : والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم (٨) ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم (٩) أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها (١٠) .

[والذين كفروا فتعسأ] ومكروها لهم وسوء ، يريد في الدنيا القتل وفي الآخرة التردى في النار والمعنى اتعس الذين كفروا وأفضي بهم بالتعس يريد أن العثور والانحطاط لهم لا الانتعاش والثبوت [وأضل أعمالهم] مر معناه .

[ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله] على نبيته أي ذلك التعس بسبب أنهم كرهوا القرآن وما أنزل الله فيه من التكليف والأحكام لأنهم ألغوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذفشق عليهم ذلك وخالفوا ذلك وقال أبو جعفر عليه السلام : كرهوا ما أنزل الله في حق علي فكشطوا اسم علي [فأحبط أعمالهم] لأنها لم يقع على الوجه المأمور به ولما أعرضوا عن القرآن لاجرم لم يعرفوا العمل الصالح وكيفية الإيمان به فأتوا بالباطل و

أشركوا و الشرك محبط للعمل قال : « لئن أشركت ليحبطن عملك » ^(١) و كل ما سوى وجه الله هالك محبط .

ثم نبههم على الاستدلال على صحة ما دعاهم إليه من التوحيد فقال : [أقلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم] حين أرسل الله إليهم الرسل فلم يقبلوا منهم و عصوه أي هلا ساروا و راعوا عواقب أولئك [دمر الله عليهم] أي أهلكهم .
ثم قال : [و للكافرين] بك يا محمد [أمثالها] من العذاب إن لم يؤمنوا أي إنهم يستحقون أمثالها وإنما يؤخر الله عذابهم تفضلاً منه .

قوله تعالى : ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا و ان الكافرين لامولى لهم (١١) ان الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار و الذين كفروا يمتعون و يأكلون كما تأكل الانعام و النار مثوى لهم (١٢) و كائن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك اهلكناها فلا ناصر لهم (١٣) أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله و اتبعوا اهواءهم (١٤) مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن و انهار من لبن لم يتغير طعمه و انهار من خمر لذة المثار بين و انهار من عمل مصفى و لهم فيها من كل الثمرات و مغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار و سقوا ماء حميمًا فقطع امعاءهم (١٥) .

و المعنى [ذلك] الذي فعلنا في الفريقين [بأن الله مولى الذين آمنوا] به و يتولى نصرهم و حفظهم و يدفع عنهم [وأن الكافرين لامولى لهم] ينصرهم ولا أحد يدفع عنهم العذاب و المولى في هذه الآية بمعنى الناصر و في قوله : « وردوا إلى الله مولاهم الحق » معناه الرب فلا تناقض .

روي أن النبي ﷺ كان في الشعب يوم أحد و قد فشت في المسلمين الجراحات و فيه نزلت « وإن الكافرين لامولى لهم » فنادى المشركون : أعل هبل فنادى المسلمون : الله أعلى وأجل ، فنادى المشركون : يوم بيوم و الحرب سجال « إن لنا عزى ولا عزى لكم » فقال

رسول الله : قولوا : «الله مولانا ولا مولى لكم» إن الفقلى مختلفة فقتلنا أحياء يرزقون و أمّا قتلاكم إلى النار يعدّون .

ثم ذكر سبحانه حال الفريقين فقال : [إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار] أي من تحت أشجارها وأبنيتها [والذين كفروا يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم] أي الكفار يتمتعون من الدنيا ولذاتها و يأكلون مثل ما تأكل الأنعام أي كما أن الأنعام همّها الأكل لا غير كذلك الكافر ولا تستلذّ الأنعام بالماكول على خالفها كذلك الكافر لكنّ المؤمن في الدنيا مسجون ولا يتمتّع من لذائذها بل يأكل ليعمل صالحاً و يقوى عليه و ما أعدّ الله له في الجنة من الطيبات ذلك الذي ينبغي أن يقال : يتمتّع ويستلذّ منه فنعمة الدنيا بالنسبة إلى المؤمن كنسبة غيظة و أجرة^(١) فيها من بعض الثمار العفصة والمياه الكدرة و فيها سباع و حشرات و مؤذيات كثيرة فالمؤمن لا يتمتّع منها و حاله في الدنيا حال مسجون في بئر مظلمة بخلاف الكافر فإنّ متاع الدنيا للكافر بالنسبة إلى ما يصله من العذاب في الآخرة نهاية اللذة وإنّ متاعها بالنسبة إلى عذاب الآخرة جنة عدن كما قال سبحانه : « والنار مثوى لهم» أي مقرّ ومقام لهم .

قوله : [وكأين من قرية هي أشدّ من قرينك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم] ثم سلّى نبيّه ﷺ وقال : و كثير من أهل القرى الذين هم كانوا أشدّ من أهل مكّة أهلكناهم كذلك نفعل بأهل قرينك ، فاصبر كما صبر رسولهم . وقوله : « فلا ناصر لهم » . فلو قيل : إن الإهلاك كان سابقاً و ماضٍ و كلمة « ناصر » للحال والاستقبال ؟ قال الزمخشري : إنّه محمول على الحكاية و الحكاية كالحال و يمكن أن يكون المعنى لا ناصر لهم من عذاب الذي يعدّون .

ثم قال سبحانه على وجه التوبيخ للكفار والمنافقين : [أفمن كان على بينة من ربه] و يقين على دينه و على حجة واضحة في اعتقاده من التوحيد والشرائع [كمن زين له سوء عمله] زين الشيطان المعاصي و أغواه [واتبعوا أهواءهم] وشهواتهم و ما تدعوهم إليه طباعهم

(١) مجتّع الشجر .

وهو وصف كمن زين له سوء عمله وهم المشركون والمنافقون وقيل : المراد هم المنافقون عن أبي جعفر عليه السلام .

ثم وصف الجنات الموعودة بها للمؤمنين بقوله :

[مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن] أي غير متغير طعمه لطول المكث كما تتغير مياه الدنيا [وأنهار من لبن لم يتغير طعمه] فهو غير حامض ولا يعتريه شيء من العوارض التي تصيب الألوان والأشربة في الدنيا .

[وأنهار من خمر لذّة للشاربين] يلتذّون بشربها ولا يتعاقبون من شربها بصداخ ونحوه بخلاف خمر الدنيا وكذلك [أنهار من عسل مصفى] خالص من الشمع والرغوة ومن جميع العيوب التي تكون لعسل الدنيا .

[ولهم فيها من كل الثمرات] أي مما يعرفون اسمها ومما لا يعرفون اسمها مبرأة من كل مكروه يكون لثمرات الدنيا [ومغفرة من ربهم] وهو أنه يستر ذنوبهم وينسيهم سيئاتهم حتى لا يتنقص عليهم نعيم الجنة .

أي أقمن كان على بيّنة من ربه [كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم] قوله : « كمن » يتعلّق بقوله « مثل الجنة » الموصوفة الإقامة كمقام من هو خالد ومقيم ومؤبد في النار فوقعت المقابلة في الكلام بين من يكون على بيّنة من ربه وبين من زين له سوء عمله وبين من في الجنة الموصوفة وبين من هو خالد في النار سقوا وبين المقابلة بين اللبن والأنهار من الخمر والعسل وبين سقاية الماء الحميم المفيور في جهنّم ، فوقعت المقابلة في طرفي التضاد والتباعد . قوله : « فقطع أمعاءهم » بسبب شدة الحرارة أو بسبب آخر كالسمومة وغيرها .

وتأمل كيف سبحانه وصف بعض نعيم الجنة التي أعدت للمتقين فاختار الأنهار من الأجناس الأربعة بمشروبهم وذلك لأنّ المشروب إمّا أن يشرب لطعمه وإمّا لأمر عائد إلى الطعم فإن كان الشرب للطعم فالطعوم تسعة في الدنيا : المرّ والمالح والحريف والحامض والعفص والغاض والتفه والحلو والدسم ومن المعلوم أنّ الذّات الطعوم المذكورة الحلو والدسم وأحلى الأشياء في الحلاوة العسل فذكر سبحانه العسل وكذلك أدسم

الأشياء الدهن لكنّ الدسومة إذا تمحضت لا يطيب للأكل ولا للشرب فإنّ الدهن لا يشرب في الغالب لكنّ الدسومة الكائنة في غيرها طيب للأكل والشرب فذكره الله تعالى « وأنهار من لبن » وأما ما يشرب لا لأمر عائد إلى الطعم فالماء والخمر ، فهو الماء والخمر فإنّ الخمر فيها أمر يشربها الشارب لأجل ذلك الأمر لا للطعم وهي كريهة الطعم فعزى سبحانه إياها عن صفات النقص بقوله : « غير آسن » وبقوله : « لذة للشاربين » وكذلك العسل بقوله : « مصفى »

قوله تعالى : ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا انعلم ماذا قال آنفاً اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم (١٦) والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (١٧) فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم (١٨) فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم (١٩) ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت فأولي لهم (٢٠)

القمي : إن الآية نزلت في المنافقين من أصحاب الرسول ومن كان إذا سمع شيئاً لم يكن يؤمن به ولم يعه فاذا خرج قال للمؤمنين : ماذا قال محمد ؟ وقال صاحب المجمع : قال أمير المؤمنين عليه السلام : إنا كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا ومن يعيه فاذا خرجنا قالوا : ماذا قال آنفاً يعني الساعة .

وإفراد الضمير باعتبار لفظ « من » كما أن جمعه فيما سيأتي باعتبار معناها و كانوا يقولون على سبيل الاستهزاء وإن كان كلامهم بصورة الاستفهام وأنف الشيء لما تقدم معه مستعار عن الجارحة وهو ظرف بمعنى وقتاً ومؤتلفاً .

[قالوا ماذا قال آنفاً] وقالوا : تحقيراً لقوله صلى الله عليه وآله ويحتمل أن يكونوا سألوا رياءً ونفاقاً أي ماذا قال ؟ أعدّه عليّ لأحفظه [اولئك الذين طبع الله على قلوبهم] بسمه الكفار أو المعنى خلّى بينهم وبين اختيارهم [واتبعوا أهواءهم] وشهوات أنفسهم و مالت إليه طباعهم .

ثم وصف سبحانه المؤمنين فقال : [والذين اهتدوا] بما سمعوا من الرسول أو من قراءة القرآن والنبى [زادهم] الله [هدى] أو أن فاعل فزاده استهزاء المنافقين أي زاد المؤمنين استهزاء المنافقين إيماناً وعلماً وبصيرة وتصديقاً للنبى [وآتاهم ثوابهم] أي وفقهم للتقوى وقيل : المعنى وآتاهم ثواب تقواهم .

[فهل ينظرون إلا الساعة] أي الكافرون والمنافقون بعد أن البراهين قد صحت والأمور اتضحت وهم لم يؤمنوا فليس ينتظرون إلا إتيان الساعة [بغتة] وفجأة والمعنى إلا إتيان الساعة إبتاهم بغتة [فقد جاء أشراطها] وعلاماتها والنبى ﷺ من أشراطها قال ﷺ : بعثت أنا والساعة كهاتين . وأعلام الساعة انشقاق القمر والدخان وخروج النبى ﷺ ونزول آخر الكتب ، والشرط بالتحريك العلامة وأصحاب الشرط سموا بذلك للبسهم لباساً يكون علامة لهم ، والشرط في البيع علامة بين المتبايعين .

قوله : [فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم] أي فمن أين لهم الذكر والاعتناظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة . وموضع ذكراهم رفع الذكر بأمر الله أن يتذكروا به ، وحاصل المعنى وكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الساعة ؟ فإنه لا ينفعهم في ذلك إلا إيمان لزوال التكليف عنهم . ثم قال لنبيه والمراد به جميع الملكة :

[فاعلم أنه لا إله إلا الله] أي افسم على هذا العلم واثبت عليه واعلم في مستقبل عمرك ما تعلمه الآن ويدل عليه ما روي عن النبى ﷺ قال : من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة أورده المسلم في الصحيح ، وقيل : إن هذا إخبار بموته ﷺ والمراد فاعلم أن الحي الذي لا يموت هو الله وحده . وقيل : إنه كان ضيق الصدر من أذى قومه فتبيل له : فاعلم لا كاشف لذلك إلا الله .

[واستغفر لذنبك] الخطاب له والمراد به الأمة وإنما خاطبوا بذلك لتستن أمته بسنته والمراد الانقطاع إلى الله فإن الاستغفار عبادة يستحق به الثواب ويمكن أن يكون المراد توفيق العمل الحسن واجتناب العمل السيئ . لأن الاستغفار طلب الغفران والغفران هو الستر عن القبيح ومن عصم فقد ستر عليه قبائح الهوى ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه واستغفاره من هذا القبيل ولطلب

هذا العنوان وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو في حق المؤمنين كأنه للنبي ﷺ ثلاثة أحوال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره ، فأما مع الله فوحده وأما مع نفسه فاطلب العصمة وبقائها وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم من الله .

قوله : [وللمؤمنين والمؤمنات] أكرمهم الله بهذا إذ أمر نبيه أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم [والله يعلم متقلبكم ومثواكم] فعلم سبحانه حالكم في الدنيا وفي الآخرة ويعلم منصرفاتكم في الدنيا ومصيركم في الآخرة إلى الجنة أو إلى النار . وقيل : يعلم متقلبكم أي في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم أي مقامكم في الأرض أو المعنى متصرفاتكم بالنهار ومضجعكم بالليل والحاصل أنه عالم بجميع أحوالكم وقيل : المراد أن الله يعلم متقلبكم في معاشكم ومتاجركم ويعلم حيث تستقرون في منازلكم في الدنيا والآخرة ومثواكم في الجنة أو إلى النار ، ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى منه وإن يستغفر ويسترحم له فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم فيها فبادروا إلى الامتثال بما أمركم به فإنه المهم لكم في المقامين .

مستدرك وتذييل في بعض أشراف الساعة ذكره الفيض في الصافي ، من كتاب الخصال عن الصادق عليه السلام قال : سئل رسول الله ﷺ عن الساعة قال : عند إيمان بالنجوم ومكذوب بالقدر .

وفي العلل عن النبي ﷺ في أجوبة مسائل عبدالله بن سلام أما أشراف الساعة فنار يعشر الناس من المشرق إلى المغرب .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : قال النبي ﷺ : من أشراف الساعة أن يفشو الفالج وموت الفجاءة .

وفي روضة الواعظين عن النبي ﷺ : إن من أشراف الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويفشو الزنا ويقل الرجال وتكثر النساء حتى أن الخمسين امرأة فيهن واحد من الرجال .

والقمي عن ابن عباس قال : حججنا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع فأخذ بحلقة باب الكعبة ثم أقبل علينا بوجهه فقال : ألا أخبركم بأشراف الساعة فكان أدنى الناس منه

منه ﷺ يومئذ سلمان رحمة الله عليه فقال : بلى يا رسول الله فقال : إن من أشرار القيامة إضاعة الصلاة واتباع الشهوات والميل مع الأهواء وتعظيم أصحاب المال وبيع الدين بالدنيا فعندها يذاب قلب المؤمن في جوفه كما يذاب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيره .

قال سلمان : وإن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال ﷺ : إي والذي نفسي بيده يا سلمان إن عندها يتولاهم أمراء جوراء ووزراء فسقة و عرفاء ظلمة وأمناء خونة .

فقال سلمان : وإن هذا لكائن ؟ قال ﷺ : إي والذي نفسي بيده يا سلمان إن عندها يكون المنكر معروفاً والمعروف منكراً يؤتمن الخائن ويخون الأمين ويصدق الكاذب ويكذب الصادق .

قال سلمان : وإن هذا لكائن ؟ قال : إي ثم عندها تكون إماراة النساء ومشاورة الإماء وقعود الصبيان على المنابر ويكون الكذب طرفاً والزكاة مغرمات والفبي مغنماً ويجفو الرجل والديه ويبر صديقه ويطلع الكواكب المذنبة .

قال سلمان : وإن هذا لكائن ؟ فقال ﷺ : إي وربي عندها يأسلمان تشارك المرأة زوجها في التجارة ويكون المطر غيضاً ويحتكر الرجل المعسر فعندها تكسد الأسواق إذ قال هذا لم أبع شيئاً وقال هذا لم أربح شيئاً فلا ترى إلزاماً لله .

قال سلمان : وإن هذا لكائن ؟ قال : إي فعندها يتولاهم أقوام إن تكلموا قتلوهما وإن سكتوا استباحوهم ليسأثروا بغيثهم وليطؤوا حرمتهم وليسفكن دمائهم وليملئن قلوبهم رعباً فلا تراهم إلا خائفين مرعوبين مرهوبين يأسلمان إن عندها فالويل لضعفاء أمتي منهم والويل لهم من الله لا يرحمون صغيراً ولا كبيراً ولا يوقرون كبيراً ولا يتجافون عن مسيء ، جثثهم جثث الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين وعندها يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها ويشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ويمر كذب زوات الفروج على السروج فعليه من أمتي لعنة الله يأسلمان عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البيع والكنائس وتحلى المصاحف

وتطول المنارات وتكثر الصفوف ، قلوب متباغضة وألسن متوافقة وعندها تحلّي ذكور أمتي بالذهب ويلبسون الحرير والديباج ويتخذون جلود النمر .

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن ؟ قال : إي والذي نفسي بيده وعندها يظهر الرباء ويتعاملون بالرشا ويوضع الدين وترفع الدنيا ويكثر الطلاق فلا يقام لله حدّ وإن بضراً والله شيئاً وعنده يظهر القينات والمعازف ويتولاهم أشرار أمتي وتحج أغنياء أمتي للنزهة وتحج أوساطها للتجارة وفقراؤهم للرباء والسمة فعندها يكون أقوام يتعلمون القرآن لغير الله ويتخذونه مزامير ويكون أقوام يتفقهون لغير الله ويكثر أولاد الزنا ويتغنّون بالقرآن ويتهاقون بالدنيا يا سلمان ذاك إذا انتهك المحارم واكتسب المآثم وسلط الأشرار على الأخيار ففشو الكذب ويظهر اللحاجة والفاقة ويتباهون في اللباس ويمطرون في غير أوان المطر ويستحسنون الكوبة والمعازف وينكرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتّى يكون المؤمن في ذلك الزمان أضلّ من الأمة ويظهر قراؤهم وعبادهم فيما بينهم التلاوة فأولئك يدعون في ملكوت السماوات الأرجاس الأنجاس فعندها لا وجود للغني على الفقير حتّى أن السائل يسأل فيما بين الجمعتين لا يصيب أحداً يضع في كفه شيئاً فعندها يتكلّم الروبيضة فقال سلمان : وما الروبيضة يا رسول الله قال ﷺ يتكلّم في أمور العامة من لم يكن يتكلّم فلم يلبثوا إلّا قليلاً حتّى تخور الأرض خورة فلا يظنّ كلّ قوم إلّا أنها خارت في ناحيتهم فيمكثون ماشاء الله ثم ينكثون في مكثهم يلقي بهم الأرض أفلا زكبتها ذهباً وفضة ثم أوما بيده ﷺ إلى الأساطين فقال : هذا ، فيومئذ لا ينفع ذهب ولا فضة فهذا معنى قوله : «فقد جاء أشراطها» انتهى .

قوله تعالى : [و يقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة] أي هلا نزلت لأنهم كانوا يأمنون بنزول القرآن ويستوحشون لإبطائه ليعلموا أوامره الله [فإذا أنزلت سورة محكمة] ليس فيها متشابه ولا تأويل وقيل : المعنى سورة ناسخة لما قبلها قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة وهي أشد القرآن على المنافقين وقيل : المراد من المحكمة المقرونة بالوعيد المؤكّد كقوله : «إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً» وقيل : محكمة الوضوح ألفاظها وعلى هذا فالقرآن كلّ محكم وقيل : المحكمة هي التي تتضمن نصّاً لم يختلف تأويله ولم

يتعقبه نصّ وفي قراءة ابن مسعود سورة محدثة أي مجدّدة .

[وذكر فيها القتال] أي وأوجب عليهم فيها أي في السورة القتال وأمرؤا به [رأيت] يا محمد [الذين في قلوبهم مرض] وشكّ ونفاق [ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت] يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم و ينظرون إليك نظراً شديداً كما ينظر الشاخص يبصره عند الموت لثقل ذلك عليهم و عظمه في نفوسهم [فأولى لهم] هذا الكلام تهديد و وعيد قال الأصمعيّ : معنى هذا الكلام أي ولّاك وقارئك ما تكره ، فتادة : أي العقاب و الوعيد لهم وعلى هذا فأولى اسم للتهديد و الوعيد فأولى لهم مبتدأ و خبر و لا ينصرف «أولى» لأنّه على وزن الفعل و صار اسماً للوعيد و قيل : المعنى أولى لهم طاعة لله و لرسوله و قول معروف بالإجابة أحسن فحينئذ يكون المعنى لو أطاعوا فأجابوا كانت الطاعة و الإجابة أولى لهم وهذا المعنى قول ابن عباس في رواية عطاء ، و اختار الكسائيّ هذا القول فعلى هذا المعنى طاعة و قول معروف متصل بما قبله وعلى القول الأوّل يكون طاعة و قول معروف مبتدأ محذوف الخبر تقديره طاعة و قول معروف أحسن و أمثل أو خبر مبتدأ محذوف و تقديره أمرنا طاعة و قول معروف .

قوله تعالى : طاعة و قول معروف فاذا عزم الامر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم (٢١) فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض و تقطعوا أرحامكم (٢٢) اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم (٢٣) افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفاها (٢٤) ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم (٢٥) .

المعنى في قوله : «طاعة و قول» فذكر المعنيين [فاذا عزم الأمر] وجوابه محذوف تقديره فاذا عزم ووجب الأمر تخلفوا وخالفوا كأنّه يقولون في أوّل الأمر سمعاً وطاعة وعند آخر الأمر خالفوا و نسب العزم إلى الأمر و المراد لصاحب الأمر [فلو صدقوا] أي لو صدقوا الله فيما أمرهم به و امتثلوا أمره [لكان خيراً لهم] و على كون المعنى في قوله : «طاعة و قول معروف» خير لهم وأحسن فمعنى قوله : «لو صدقوا» في إيمانهم واتباعهم الرسول «لكان خيراً لهم» .

ثم قال تعالى : [فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم]
 الاستفهام للتقرير المؤكد لأن الكفار كانوا يقولون كيف نقاتل و القتل إفساد والعرب
 ذوو أرحامنا و قبائلنا فقال تعالى : « إن توليتم ، لا يقع منكم إلا الفساد في الأرض فإني أنكم
 تقتلون من يقدرون عليه وتنهبونه والقتال واقع منكم أليس قتلكم ووأدكم البنات إفساداً
 وقطعاً للأرحام فلا يصح تعللكم بالجهاد بقولكم : القتل إفساد لأنكم تقتلون وتنهبون مع
 أنه خلاف ما أمر الله والجهاد مع أنه طاعة ومعروف من الله فكيف تنكرونه ؟

في الكافي والقمي عن علي عليه السلام أنها نزلت في بني أمية .

قال الزمخشري : معنى « فهل عسيتم » الآية ، هل يتوقع منكم الا لفساد ؟ لأنكم
 اخترتم . وقيل : المعنى إن أعرضتم وتوليتم وأدبرتم عن دين رسول الله أن ترجعوا إلى
 ما كنتم عليه في الجاهلية من التناهب والمقاتلة وقطع الأرحام .

وفي قراءة علي أمير المؤمنين إن توليتم على المجهول أن تولواكم ولاية غشمة ظلمة
 خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بأفسادهم .

[أولئك الذين لعنهم الله] إشارة إلى المذكورين المخاطبين لعنهم الله وأبعدهم من
 رحمته لإفسادهم وخذلهم حتى صمموا عن استماع الموعدة [وأعمى أبصارهم] عن إبطار طريق
 الهدى .

[أفلا يتدبرون القرآن] و يتفكرون فيه فيعتبروا به و يقضوا ما عليهم من الحق
 عن أبي عبد الله وأبي الحسن [أم على قلوب أفاها] وتنكير القلوب إرادة قلوب هؤلاء ومن
 كان مثلهم من غيرهم مثل قلوب المنافقين التي انقلعت عن الهدى والإيمان فلا تنفتح وقرى
 إفاها بصيغة المصدر والمراد أن بعض القلوب بسبب عدم تدبرها وقبولها لا يصل إليها ذكر
 ولا ينكشف لها أمورا لهداية .

قوله : [إن الذين ارتدوا على أدبارهم] أي رجعوا عن الحق والإيمان [من
 بعد ما تبين لهم الهدى] وظهر لهم طريق الحق وهم المنافقون عن ابن عباس والضحاك
 وجماعة كانوا يؤمنون عند النبي ثم يظهرون الكفر فيما بينهم فتلك ردة وقيل : هم كفار
 أهل الكتاب كفروا بمحمد ﷺ وقد عرفوا نعمته و وجدوه مكتوباً في التوراة والإنجيل

في الكافي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال : الذين ارتدوا عن الإيمان في ترك ولاية أمير المؤمنين قال : والله نزلت فيهم وفي أتباعهم .

[الشیطان سول لهم وأملی لهم] أي زين وسهل لهم عملهم وخطاياهم أو دعاهم إلى ما يوافق مرادهم وهواهم ، وأملی لهم أي طوّل لهم أملهم وأوهم الأمن في المكارہ وأبعد لهم في الأمل والأمنية .

قوله تعالى : ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم أسرارهم (٢٦) فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم (٢٧) ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم (٣٨) م حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم (٣٩) ولو نشاء لآرينا لهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم (٤٠) .

ثم بيّن سبحانه سبب استيلاء الشيطان عليهم فقال :

[ذلك] أي ذلك التسويل والإملاء بأنهم قالوا للذين كرهوا ولاية عليّ : [ما نزل الله] من القرآن وما فيه من الأمر والنهي والأحكام ومنعتهم الرياسة عن اتباع محمد و القرآن والمروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهم بنوا أمية كرهوا ما نزل الله في ولاية عليّ بن أبي طالب قوله : [سنطيعكم في بعض الأمر] سنطيعكم في التظاهر على عداوة رسول الله أو في ترك ولاية عليّ والقعود عن الجهاد [والله يعلم أسرارهم] أي ما أسرّ بعضهم إلى بعض من القول وما أسرّوه من الاعتقاد في أنفسهم .

[فكيف إذا توفتهم الملائكة] أي كيف حالهم إذا قبضت الملائكة أرواحهم وإنما حذف تفخيماً لشأن ما ينزل بهم في ذلك الوقت من عظم العذاب والشدة [يضربون وجوههم وأدبارهم] على وجه العقوبة لهم .

ثم ذكر السبب فقال : [ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله] من المعاصي التي يكرها الله ويعاقب عليها [وكرهوا رضوانه] أي سببرضوانه وهو الإيمان وطاعة الرسول [فأحبط

الله أعمالهم [التي كانوا يعملونها من البر و الصدقات وغيرها لأنها في غير إيمان ولا فائدة فيها .

ثم قال : [أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم] أي لا يبين الله أحقادهم على المؤمنين ولا يبدى معائبهم للمبهي عليه السلام .

[ولو نشاء لأريناكم فلعرفتم بسيماهم] بأعيانهم يا محمد حتى تعرفهم بعلاماتهم وأشخاصهم لكي تعرفهم بها [ولتعرفنهم في لحن القول] أي و تعرفهم الآن في فحوى كلامهم لأن كلام الإنسان يدل على ما في ضميره .

وعن أبي سعيد الخدري قال : لحن القول بغضهم علياً . قال : و كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ببغضهم علي بن أبي طالب و روي مثل ذلك عن جابر بن عبد الله الأنصاري وعن عبادة بن الصامت قال : كنّا نرور أولادنا بحب علي بن أبي طالب فإذا رأينا أحدهم لا يحب علياً علمنا أنه لغير رشد .

وقال أنس : ما خفي منافق على عهد رسول الله بعد هذه الآية .

[والله يعلم أعمالكم] ظاهرها وباطنها والفرق بين اللامين في قوله : « لعرفتمهم » أن الأولى جواب « لو » مثل التي في لأريناكم واللام الثانية فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف .

ومعنى اللحن أن تميله إلى تحزمن الأتحاء ليفطن له صاحبه مثل التورية والتعريض وبعض مفادات الكلام قال الشاعر :

ولقد لحنتم لكم لكيما تفقهوا * و اللحن يعرفه ذوو الألباب
و يقال للمخطيء لحن لأجل أنه يعدل بالكلام عن الصواب

قوله : و لنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم و الصابرين و نبلوا أخباركم (٣١) ان الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله و شاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً و يحبط أعمالهم (٣٢) يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله و اطيعوا الرسول و لا تبطلوا أعمالكم (٣٣) ان الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم (٣٤) فلا

تهنؤا وتدعؤا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم اعمالكم (٣٥)
ثم أقسم سبحانه فقال :

[ولنبلو نكم] أي نعاملكم معاملة المختبر بما نكلفكم من الأمور الشاقة [حتى
نعلم المجاهدين منكم و الصابرين] أي نتميز المجاهدين في سبيل الله من جهلكم و
الصابرين على الجهاد وقيل : المعنى حتى يعلم أوليائنا المجاهدين منكم . و أضاف العلم
إلى نفسه تعظيماً لهم كما قال : « إن الذين يؤذون الله ورسوله » أي يؤذون أولياء الله و
قيل : المعنى حتى نعلم جهادكم موجوداً لأن الغرض أن تفعلوا الجهاد فيثيبكم على ذلك
[ونبأو أخباركم] أي نخبر أسراركم بما يستقبلونه من أفعالكم

[إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله] أي امتنعوا عن اتباع دين الله ومنعوا
غيرهم عن اتباعه تارة وبالإغواء أخرى قيل : المرادهم أهل الكتاب قريضة والنضير وقيل :
المراد كفار قريش يدل على القول الأول قوله تعالى : « من بعد ما تبين لهم الهدى »
قوله : « من بعد ما تبين لهم الهدى » تبين لهم صدق محمد وهو نعتة ﷺ في التوراة
[وشاقوا الرسول] أي خالفوه وعاندوه وعادوه [من بعد ما تبين لهم الهدى] أي بعد
ما عرفوا أنه رسول الله [لن يضر الله بذلك شيئاً] وإنما ضرّوا أنفسهم [و سيحبط الله
أعمالهم] فلا يرون لها ثواباً في الآخرة .

وفي هذه الآية دلالة على أن هؤلاء الكفار كانوا قد تبين لهم الهدى فارتدوا عنه ولم
يقبلوه عناداً وهم المنافقون وقيل : المراد رؤساء الضلالة جحدوا الهدى طلباً للجهاد والرياسة
لأن العناد يضاف إلى الخواص .

فإن قيل : إن في أول السورة قال سبحانه : « أحبط أعمالهم » بصيغة الماضي فكيف
قال : يحبط أعمالهم في المستقبل ؟

فالجواب أن المراد من قوله : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله » في أول السورة
المراد المشركون وهم من أول الأمر كانوا مبطلين وكانت أعمالهم على غير شريعة و المراد
من الذين كفروا في هذه الآية أهل الكتاب وكانت لهم أعمال قبل الرسول فأحبطها بسبب
تكذيبهم الرسول ولا ينفعهم إيمانهم ويجوز أن يكون المراد من الأعمال في هذه الآية

الأخيرة مكايدهم في القتال و ذلك قد تحقق منهم والله سيبطله حيث يكون النصر للمؤمنين .

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم] إشارة إلى حصول العمل بعد حصول العلم ، ودرءوا على الإطاعة والعمل ولا تشر كوا فتبطل أعمالكم أو المعنى لا تتر كوا طاعة الرسول فيبطل أعمالكم كما أبطل أهل الكتاب بسبب عدم طاعتهم للرسول وتكذيبهم إياه و يؤيد المعنى الثاني قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم و أنتم لا تعلمون » و قيل : المراد أن تبطلوا أعمالكم بالرياء و قيل : المراد بالكبائر .

قوله : [إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم] « إن الذين » مر تفسيره « ثم ماتوا وهم كفار » أي صبروا على الكفر حتى ماتوا على كفرهم « فلن يغفر الله لهم » أبدأ لأن لفظ « لن » للتأييد .

[فلا تهنوا] أي لا تتوّلوا ولا تضعفوا عن القتال [وتدعوا إلى السلم] أي ولا تدعوا الكفار إلى المسالمة والمصالحة [وأنتم الأعلون] أي وأنتم القاهرون الغالبون و قيل : إن الواو للحال أي إذا كنتم غالبين وتكون الغلبة لكم لا تصالحوهم فعلى المعنى الأول إخبار من الله على غلبتهم على الكافرين أي أنتم أيها المؤمنون أعلى يداً و قدرة و منزلة آخر الأمر و إن غلب الكفار في بعض الأحوال [والله معكم] بالنصرة [ولن يترككم أعمالكم] أي لن ينقصكم من ثوابكم شيئاً والثرة النقص من و ترت الرجل إذا قتلت له قتيلاً من أخ أو حميم والمعنى مأخوذ من أفردته من قريبه يشبه أضاعة عمل العامل بوتر الواتر، ومنه قوله ﷺ : من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله أي أفرد عنهم قتلاً ونهباً .

قوله تعالى : إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم (٣٦) ان يسألكموها فيحفركم تبخلوا و يخرج اضغانكم (٣٧) ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل و

من يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغني وانتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم (٣٨) .

ثم حث الله سبحانه على طلب الآخرة فقال :

[إنما الحياة الدنيا لعب ولهو [أي سريعة الفناء و الانقضاء و من اختار الفاني على الباقي كان جاهلاً ومنقوصاً و الذي خلقها هو أعلم بها [وإن تؤمنوا] بالله و رسوله و تتقوا معاصيه [يؤتكم أجوركم] وجزاء أعمالكم في الآخرة .

[ولا يسألكم أموالكم] كلها في الصدقة وإن أوجب عليكم الزكاة في بعض أموالكم و قيل : معنى الآية لا يسألكم أموالكم لأن الأموال كلها لله فهو أملك لها وهو المنعم بإعطائها و قيل : لا يسألكم الرسول على أداء الرسالة أموالكم أن تدفعوها إليه [إن يسألكموها فيحلفكم] يقال : أحلف شاربه إذا استأصله وأحلف في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح وبالغ فيه أي إن يسألكم جميع أموالكم وبجهدكم بمسألة جميعها [تبخلوا] بها ولا تعطونها و يظهر بغضكم وعداوتكم لله ولرسوله ولكنّه فرض عليكم ربع العشر والضمير في [يخرج] راجع إلى الله وقرئ : نخرج بالنون وبالتاء مع فتح التاء والراء ورفع [أضغانكم] .

قوله : [ها أنتم هؤلاء] أي أنتم أيها المخاطبون هؤلاء الموصوفون [تدعون] فيه توبيخ عظيم وتحقير لشأنهم [لتنفقوا] في سبيل الله أي إنمّا أمرتم بإخراج ذلك للإففاق [في سبيل الله] وطاعته وهو يعمّ الزكاة والغزو وصرفه إلى المستحقين من إخوانكم .

[فممنكم من يبخل] بما فرض الله عليه [ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه] لأنه يجرمها بثوبة جسيمة ثم يلزمه عقوبة عظيمة والمراد أن معطي المال أحوج إليه من الفقير الآخذ ببخله بخل على نفسه وذلك أشدّ البخل لأنه إنما يبخل بالخير والفضل في الآخرة عن نفسه كمن يبخل عن أجره الطبيب وثمر الدواء وهو مريض ثم حقق ذلك بقوله : [والله الغني] عما عندكم من الأموال [وأنتم الفقراء] إلى ما عند الله من الخير والرحمة ولا يأمركم بالإففاق لحاجة ولكن لتنفقوا بذلك الإففاق في الآخرة .

[وإن تتولوا] وتعرضوا عن طاعته وعن أمر رسوله [يستبدل قوماً غيركم] أمثل

وأطوع منكم في أوامره [ثم لا يكونوا أمثالكم] بل يكونوا خيراً منكم وروى أبو هريرة
أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين ذكرهم الله وكان
سلمان إلى جنب رسول الله ﷺ فضرب يده إلى فخذ سلمان فقال : هذا وقومه والذي
نفسى بيده لو كان إلا إيمان منوطاً بالثريّا لتناولوه رجال من فارس وروى أبو بصير عن
أبي جعفر ﷺ قال : إن تتولّوا يا معشر العرب يستبدل قوماً غيركم يعني
الموالي القمي قوله : « وإن يتولّوا » عطف على « إن لا تؤمنوا » أي إن تتولّوا
عن ولاية أمير المؤمنين يستبدل قوماً خيراً منكم يقومون مكانكم ولا
يكونون أمثالكم في معاداتكم و خلافتكم و ظلمكم
لا آل محمد ﷺ .

سورة الفتح

☆ (مدنية) ☆

فضلها : أبي بن كعب قال : من قرأها فكأنما شهد مع محمد ﷺ فتح مكة .
 و في رواية أخرى فكأنما بايع محمد تحت الشجرة قال عمر بن الخطاب : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقال ﷺ : نزلت عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها : إنا فتحنا لى قوله : « وما تأخر » أورده البخاري في الصحيح . عن أنس بن مالك قال : لما تراجعنا من غزوة الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكننا فنحن بين الحزن والكآبة إذا أنزل الله تعالى : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً فقال ﷺ : لقد أنزلت عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا كلها .

و عن عبدالله بن مسعود قال : أقبل رسول الله من الحديبية فجعلت ناقته تنقل فقدّمنا فأنزل الله : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، فأدر كنا رسول الله و به من السرور ما شاء الله فأخبر ﷺ أنها أنزلت عليه عبدالله بكير عن أبيه قال : قال أبو عبدالله ﷺ : حصنوا أموالكم ونساءكم وما ملك أيمانكم من التلف بقراءة : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً فإنه من كان يذم قراءتها ناداه مناد يوم القيامة حتى يسمع الخلائق أنت من عبادي المخلصين الحقوه بالصالحين من عبادي فأسكنوه جنّات النعيم واسقوه الرحيق المختوم بمزاج الكافور .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

انا فتحنا لك فتحاً مبيناً (١) ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر
ويتم نعمته عليك وبهديك صراطاً مستقيماً (٢) وينصرك الله نصراً عزيزاً (٣)
هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله
جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً (٤) ليدخل المؤمنين
والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم
وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً (٥) .

المعنى : الفتح ضد الإغلاق وهو الأصل ثم استعمل في معان كثيرة فمنها الحكم
والقضاء والحكومة والنصر ومنها فتح البلدان ومنها العلم نحو قوله : « وعنده مفاتيح الغيب »
من ذلك .

[إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً] أي قضينا لك قضاءً ظاهراً وقيل : معناه يسرنا لك
يسراً مبيناً وقيل : أعلمناك علماً ظاهراً وفي الفتح وجوه أحدها فتح مكة وثانيها فتح الروم
وغيرها وثالثها صلح الحديبية والأظهر الأنسب فتح مكة للمناسبة .

و الرابطة الآخرة السورة المتقدمة لأنه سبحانه لما قال : « ها أنتم هؤلاء تدعون
لتنفقوا في سبيل الله » إلى أن قال : « ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه » بين تعالى
أنه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك
وكذلك لما قال : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم » وكان معناه لا تسألوا الصلح من عندكم
بل اصبروا فإنهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية .

فلوقيل : إن كان المراد فتح مكة فمكة حينئذ لم تكن فتحت فكيف قال : « فتحنا
لك » بل نظير الماضي والمعنى قد رزقنا فتحها وحكمنا وما قدره الله فهو كائن لا محالة .

نزلت الآية عند مرجع النبي ﷺ عن الحديبية بشر في ذلك الوقت بفتح مكة .
وعن جابر قال : ما كنا نعلم فتح مكة إلا يوم الحديبية وذلك أن المشركين اختلطوا
بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكنوا الإسلام في قلوبهم وأسام في ثلاث سنين خلق كثير فكثرت
بهم سواد الإسلام والحديبية برروي أنه نفذ ماؤها وظهر فيها من أعلام النبوة ما اشتهرت
به الروايات .

قال البراء بن عازب : تعدون الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً و نحن نعد
الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع النبي ﷺ أربع عشر مائة والحديبية بر
نرحناها فما وجد فيها قطرة فبلغ ذلك إلى النبي ﷺ فأثاها وجلس على شفيرها ثم دعا
بإناء من ماء فتوضأ ، ثم تمضمض ودعا ، ثم صبه فيها وتمر كها ثم إننا أصدرتنا نحن
و ركابنا .

وعن محمد بن إسحاق بن يسار عن الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة
إن رسول الله خرج لزيارة البيت لا يريد حرباً فذكر الحديث إلى أن قال : قال رسول الله
انزلوا فقالوا : يا رسول الله ما بالوادي ماء فأخرج من كنانته سهماً فأعطاه رجلاً من أصحابه
فقال له : انزل في هذا القلب فاغزره في جوفه ففعل فجاش بالماء الرواء .

وعن عروة وذكر خروج النبي ﷺ قال : و خرج قريش من مكة فسبقوه إلى بلدح
وإلى الماء فنزلوا عليه فلمّا رأى النبي ﷺ أنه سبق نزل ﷺ على الحديبية وذلك
في حر شديد وليس فيها إلا بر واحد فأشفق القوم من الظماء والقوم كثير فنزل فيها رجال
يمتنحونها ودعا النبي ﷺ بدلو من ماء فتوضأ من الدلو ومضمض فاه ثم مَجّ فيه وأمر أن يصب
في البئر ونزع سهماً من كنانته وألقاه في البئر فدعا الله ففارت بالماء جعلوا يغترفون بأيديهم
منها وهم جلوس على شفتها .

وروي سالم بن أبي الجعد قال : قلت لجابر بن عبد الله : كم كنتم يوم الشجرة ؟ قال
كنا ألفاً وخمسمائة ، وذكر عطشاً أصابهم قال : فأتى رسول الله بماء في تور فوضع يده
فيه فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون قال : فشربنا وسقنا وكفانا قال : قلت
كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا كنا ألفاً وخمسمائة .

وروي عن مجمع بن حارثة الأنصاري أن المراد فتح خيبر قال : شهدنا الحديبية مع رسول الله فلمّا انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباغر فقال بعض الناس لبعض : ما بال الناس قالوا : أوحى إلى رسول الله فخرجنا نوجف فوجدنا النبي واقفاً على راحلته عند كراع الغميم فلمّا اجتمع الناس إليه قرأ : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » السورة ، فقال عمر : أفتح هو يا رسول الله؟ قال : نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح فقسمت خبر على أهل الحديبية لم يدخل فيها أحداً إلا من شهدا .

قوله تعالى [ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر] وقد فسر بعض الحشوية بعض التفسير الباطلة التي لا يقبلها ذو دين مثل أن حملوا الآية على ظاهرها ونسبوا إليها الصغيرة وأمثالها .

وقال ابن عطاء الخراساني لما بلغ سدة المنتهى ليلة المعراج قدم هو عليه السلام وتأخر جبرئيل فقال لجبرئيل : تتركني في هذا الموضع وحدي فعاتبه الله حين سكن إلى جبرئيل فقال : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » فيكون كل من الذنوب بعد النبوة .

وقال سفيان الثوري : ما تقدم أي مما عملت في الجاهلية وما تأخر مما لم تعمله ويذكر مثل ذلك على طريق التأكيد مثل قولهم : ضرب من لقاء و من لم يلقه و المعلوم من كلام الثوري أنه من الحشوية و إلا ما حشاه بهذا التبن ، فالثور ثور و إن عبد .

وقيل : إن ما تقدم من الذنب بالنسبة إليه يوم بدر وما تأخر يوم حنين أمّا يوم بدر حيث قال : اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد في الأرض أبداً فعوب عليه السلام من أين تعلم أنني إن أهلكتها لأعبد أبداً ؟ فكان الذنب المتقدم هذا وقال يوم حنين بعد أن هزم الناس ورجعوا إليه : لولم أرمهم بكفّ الحصى لم يهزموا فأنزله الله « وما رميت إذ رميت » وهو الذنب المتأخر .

والصحيح أي ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر بشفاعتك .
وقيل : المراد الوعد بالعصمة قبل الفتح وبعد الفتح والإشارة إلى عموم العصمة كقولهم

اضرب من لقيت ومن لا تلقاه مع أن من لا يلقى لا يمكن ضربه و هو إشارة إلى العموم و
و كقول القائل لغيره : « صفحت عن السالف و الأنف » و حسنت إضافة ذنوب أمته إليه
للاتصال والسبب بينه وبين أمته ويؤيد هذا المعنى ما رواه المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام
قال : سأله رجل عن هذه الآية فقال : والله ما كان له ذنب ولكن الله ضمن له أن يغفر ذنوب
شيعة علي ما تقدم من ذنبهم وما تأخر .

وقيل : ما تقدم من ذنب أبيك آدم وحواء بير كنتك ، وإضافة الذنب إليه لأنه لا شيء له
كان في صلبه . قوله : « وما تأخر » أي من ذنوب أمته بشفاعتك .

وقيل : استغفار الأنبياء لا يكون عن ذنب كذنوبنا وإنما هو عن أمر يدق عن
عقولنا .

وقيل : إن نسبة الذنب إليه من حيث إن شريعته حكمت بأنه ذنب في شريعته
مثل الغيبة مثلاً فإنه عليه السلام حكم بأنها ذنب فحسن الإضافة فذنوب أمته يضاف إليه
وإلى شريعته بهذا التقرير فهذا اطمينان له في أمته ولو بعد عقوبة .

و روى عمرو بن يزيد قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام عن قول الله : « ليغفر
لك الله الآية » قال : ما كان له ذنب ولا هم بذنب ولكن الله حمل ذنوب شيعة ثم
غفرها له .

وقال المرتضى قدس الله روحه : إن الذنب مصدر والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل
والمفعول معاً فيكون هنا مضافاً إلى المفعول والمراد ما تقدم من ذنبهم إليك في منعهم إياك
عن مكة و صدّهم لك عن المسجد الحرام فيكون معنى المغفرة على هذا المعنى الإزالة و
النسخ لأحكام أعدائه أي يزيل الله ذلك عنك ويستتر عليك تلك الوصمة بما يفتح لك من
مكة ولذلك جعله جزاء على جهاده . قال : ولو أنه أراد مغفرة ذنوبه لم يكن لقوله : « إننا
فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله » معنى معقول لأن المغفرة للذنوب لا تتعلق لها بالفتح
فلا يكون غرضاً فيه وأما قوله : « ما تقدم وما تأخر » فلا يمتنع أن يريد به ما تقدم زمانه
من فعلهم القبيح بك وبقومك .

وقيل في تأويل الآية : إن معناه لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك أو المراد بالذنب ترك المندوب والأفضل وحسن ذلك لأن من لا يخالف الأوامر فجاز أن يسمى ذنباً منه ما لو وقع من غيره لم يسم ذنباً وذلك الأمر لعلو قدره ﷻ و رفعة شأنه .

قوله : [ويتم نعمته عليك] في الدنيا بإخلاء الأرض لك عن معانديك بإظهارك على عدوك ونصرة دينك وبقاء شرعك وفي الآخرة برفع محلك فإن يوم الفتح لم يبق للنبي عدو ذو اعتبار فإن بعضهم كانوا أهلكوا يوم بدر والباقيون آمنوا واستأنوا يوم الفتح .

[ويهديك صراطاً مستقيماً] أي يديمك ويثبتك على الصراط المستقيم أو المعنى أن جعل الفتح سبباً للهداية إلى الصراط المستقيم لأن الجهاد سبب سلوك سبيل الله للمؤمنين .

قوله : [وينصرك الله نصراً عزيزاً] ظاهراً غالباً لأن بالفتح ظهر النصر واشتهر الأمر إذ صير دينه ﷻ أعز الأديان وسلطانه أعظم السلطان .

قوله : [هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين] والسكينة أن يفعل الله بهم اللطف الذي يحصل لهم عنده من البصيرة بالحق ما تسكن إليه نفوسهم وذلك بكثرة ما ينصب لهم من الأدلة فهذه النعمة التامة خاصة للمؤمنين وأما غيرهم فيضطرب نفوسهم لأن عارض من شبهة ترد عليهم إذ لا يجدون برد اليقين وروح الطمأنينة في قلوبهم، والسكينة هو سبب ذكرهم الله كما قال : « ألبذكر الله تطمئن القلوب » وقيل : معنى السكينة النصرة للمؤمنين لتسكن بذلك نفوسهم ويثبتوا على القتال .

[ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم] أي يقيناً إلى يقينهم بما يرون من الفتوح وعلو كلمة الإسلام ويزدادوا تصديقاً بشرائع الإسلام وهو أنهم كلما أمروا بشيء من الشرائع والفرائض كالصلاة والصيام والصوم والصدقات صدقوا به وذلك بالسكينة التي أنزلها الله في قلوبهم ليزدادوا معارفاً على المعرفة الحاصلة عندهم .

[والله جنود السماوات والأرض] يعني الملائكة والجن والإنس والشياطين يعني لو

شاء لأعانكم به و في الآية بيان أنه لو شاء لأهلك الكافرين لكنه عالم بهم و بما يخرج من أصلابهم فأمهلهم لعلمه بالعاقبة و لم يأمر بالقتال عن عجز و احتياج لكن ليعرض المجاهدين الثواب [وكان الله عليماً حكيماً] فكل أفعاله حكمة و صواب .

قوله : [ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار] تقدير الآية إنا فتحنا لك ليغفر لك الله إنا فتحنا لك ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنات و لذلك لم يدخل واول العطف في ليدخل إعلالاً بالتفصيل تجري من تحتها الأنهار أي من تحت أشجارها الأنهار خالدين مؤبدين لا يزول عنهم نعيماً .

[و يكفر عنهم سيئاتهم] و عقاب معاصيهم التي فعلوها و يجوز أن يكون المعنى أنزل السكينة على المؤمنين ايزدادوا إيماناً بسبب الإزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنات .

فإن قيل : فقوله : «يعذب» عطف على قوله : ليدخل، وازدياد إيمانهم لا يصلح سبباً لتعذيبهم ، بلى و المعنى أنكم بسبب ازديادكم في الإيمان يدخلكم في الآخرة جنات و بسبب عدم إيمانهم و مخالفتهم لكم و عدم اتباعهم يزاد الكافر كفراً فيعذب به .

[وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً] أي ما ذكر من الإدخال و التكفير عند الله أي كائن في علمه وهو فوز عظيم لا يقدر قدره لأنه منتهى ما يمتد إليه أعناق الهمم من جلب نفع و دفع ضرر و تقديم الإدخال في الذكر على التكفير مع أن الترتيب في الوجود على العكس للمسارعة إلى ما هو المطلب الأعلى .

قوله تعالى : ويعذب المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء و غضب الله عليهم و لعنهم و أعد لهم جهنم و ساءت مصيراً (٦) ولله جنود السموات و الأرض و كان الله عزيزاً حكيماً (٦) إنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً (٨) اتقوا بالله و رسوله و تعزروه و توقروه و تسبحوه بكرة و أصيلاً (٩) ان الذين يباعدونك انما يباعدون الله يدالله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجرا عظيماً (١٠)

قدّم سبحانه ذكر المنافقين على المشركين في مواضع من القرآن لأنهم كانوا أشدّ على المؤمنين من الكافر وأضرّ عليهم لأنّ المؤمن يتوقّى الكافر في معاشرته ولكن يخالط المنافق لعدم علمه بنفاقه [الظانّين بالله ظنّ السوء] ظنّ السوء ظنّهم أنّ الله لا ينصر الرسول والمؤمنين ولا يرجعهم إلى مكّة ظافرين [عليهم دائرة السوء] أي ما يترتبصونه بالرسول والمؤمنين فهو حالق بهم ودائر عليهم .

والسوء بالضمّ الهلاك والدمار وقرئ بالفتح أي الدائرة التي يذمّونها ويسخطونها فهي عندهم دائرة سوء وعند المؤمنين دائرة صلاح وصدق وهل فرق بين السوء والسوء؟ هما كالكره والكره والضعف والضعف من سوء إلا أنّ الفتح غلب في أن يضاف إليه ما يراد منه من كلّ شيء وإمّا السوء بالضمّ فمعناه جار مجرى الشرّ الذي هو نقيض الخير ، يقال : أراد به السوء وأراد به الخير ولذلك أضيف الظنّ إلى المفتوح لكونه مذموماً وإمّا دائرة السوء بالضمّ فلاّنّ الذي أصابهم مكروه وشدة فصحّ أن يقع عليه اسم السوء كقوله تعالى : «إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة»^(١) أو السوء المصدر والسوء الاسم وهو أيضاً على التقرير المذكور وقيل : على قراءة الضمّ المراد دائرة العذاب وبالفتح المراد ما جعله للمؤمنين من قتلهم وغنيمة أموالهم قوله : [وغيض الله عليهم ولعنهم] أي أبعدهم من رحمته [وأعدّ لهم جهنّم] يجعلهم فيها [وساءت مصيراً] أي مآلاً ومرجعاً [ولله جنود السماوات والأرض] وإتعا كرّر فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين فقال بعده [وكان الله عزيزاً حكيماً] والثاني لبيان العذاب على الكافرين فقال : «وكان الله عزيزاً حكيماً» وفيه إشارة إلى ذكر العذاب ولذا ذكر العزّة كقوله : «أليس الله بعزيز ذي انتقام»^(٢) وقال : «فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر»^(٣)

ولابأس بذكر بعض قصّة الحديدية وهي أنّ رسول الله أمر في النوم أن يدخل المسجد الحرام ويطوف ويحلّق مع المخلّفين فأخبر أصحابه وأمرهم بالخروج فخرجوا من المدينة فلمّا نزلوا الحليفة أحرّموا بالعمرة وساقوا البدن وساق رسول الله ستّة وستين بدنة فأحرّموا

(١) الاحزاب : ١٧ .

(٢) الزمر : ٣٧ .

(٣) القمر : ٤٢ .

من ذي الحليفة ملبّين بالعمرة وقد ساق منهم الهدي مشمرت مجلات
فلما بلغ قريشاً ذلك بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً لتستقبل رسول الله
ﷺ وكان يعارضه على الجبال فلما كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر فأذن بلال
فصلّى رسول الله بالناس فقال خالد : لو كنّا حملنا عليهم في الصلاة لأصبناهم فأنتم لا يقطعون
صلاتهم ولكن تجيء الآن لهم صلاة أخرى أحب إليهم من ضياء أبصارهم فإذا دخلوا في
الصلاة أغرنا عليهم فنزل جبرئيل على رسول الله بصلاة الخوف في قوله : «وإذا كنت فيهم
فاقمت لهم الصلاة» (١) الآية ، وهذه الآية في سورة النساء .

فلما كان في اليوم الثاني فنزل النبي ﷺ الحديبية وهي على طرف الحرم و كان
صلّى الله عليه وآله يستنفر الأعراب في طريقه معه فلم يتبعه أحد منهم ويقولون : أقطع محمد
وأصحابه أن يدخلوا الحرم وقد غزتهم قريش في عقر ديارهم فقتلوا فلا يرجع محمد وأصحابه
إلى المدينة .

فلما نزل رسول الله الحديبية خرجت قريش يحلفون باللات والعزى لا يدعون
رسول الله يدخل مكة وفيهم عين تطرف فبعث إليهم رسول الله أني لم آت لحرب وإنما
جئت لأقضي مناسكي وأنحر بدني وأخلّي بيني وبينكم وبين لحمايتها فبعثوا عروة بن
مسعود الثقفي و كان عاقلاً أميناً وهو الذي أنزل الله فيه : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن
على رجل من القريتين عظيم ، فلما أقبل إلى رسول الله قال : يا رسول الله تركت قومك وقد
ضربوا الأبنية وأخرجوا العود المطافيل يحلفون باللات والعزى لا يدعوك تدخل مكة و
فيهم عين تطرف أفتريد أن تبتدء أهلكت وقومك ؟ فقال النبي ﷺ : ما جئت إلا لأقضي
مناسكي فقال : عروة والله ما رأيت أحداً كالיום صد كما صدرت .

ثم رجع إلى قريش وأخبرهم فقالت قريش : والله لئن دخل محمد مكة وتسامعت به
العرب لنذلن ولتجترئن علينا العرب فبعثوا حفص بن أحنف وسهيل بن عمرو فلما نظر إليهما
النبي ﷺ قال : ويح قريش قد نهكتهم الحرب إلا خلّوا بيني وبين العرب فإنك صادقاً
فإنما أجزأ الملك إليهم مع النبوة وإن أكاذباً كفيتهم ذئبان العرب ، لا يسألني اليوم أحد

من قريش حاجة ليس لله فيها سخط إلا أجبتهم .
فلما وافى الرجالان قالا : يا محمد ألا ترجع معنا عامك هذا إلى أن ننظر إلى ما يصير
أمر العرب ؟ فإن العرب قد تسامعت بمسيرك فإذا دخلت بلادنا وحرمتنا استذلقتنا العرب
واجترأت علينا ونخلت لك في العام المقبل في هذا الشهر ثلاثة أيام حتى تقضي منسكك و
تنصرف معنا فأجابهم النبي إلى ذلك وقالوا له : ترد إلينا كل من جاءك من رجالنا ونرد
إليك كل من جاءنا من رجالك فقال رسول الله : من جاءكم من رجالنا فلا حاجة لنا فيه ولكن
على أن المسلمين بمكة لا يؤذون في إظهارهم الإسلام ولا يكرهون ولا ينكر عليهم شيء يفعلونه
من شرائع الإسلام فقبلوا ذلك .

فلما أجابهم رسول الله إلى الصلح أنكر عامة أصحابه وأشد ما كان إنكار عمر فقال :
يا رسول الله ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ فقال نعم : قال : أتعطي الذلة في ديننا
فقال : إن الله عز وجل قد وعدني فلن يخلفني قال : ولو أن لي أربعين رجلاً لخالفته .
فرجع سهيل بن عمرو وحفص بن الأحنف إلى قريش فأخبراهم بالصلح فقال عمر : يا
رسول الله ألم تقل لنا أن ندخل المسجد الحرام ويحلّق مع المحلّقين ؟ فقال النبي ﷺ :
أمن عامنا هذا وعدتك ؟ قلت لك : إن الله عز وجل قد وعدني أن أفتح مكة وأطوف وأسمى
وأحلّق مع المحلّقين

فلما أكثروا عليه قال : إن لم تقبلوا الصلح فحاربوهم فمرّوا نحو قريش وهم
مستعدون للحرب وحملوا عليهم فانهزم أصحاب رسول الله هزيمة قبيحة ومرّوا برسول الله
فتبسّم ﷺ ثم قال : يا علي خذ السيف واستقبل قريشاً فأخذ أمير المؤمنين سيفه وحمل على
قريش فلما نظروا إلى أمير المؤمنين تراجعوا ثم قالوا : أبدأ لمحمد فيما أعطانا ؟
فقال : لا .

وتراجع أصحاب رسول الله مستحيين وأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله فقال ﷺ لهم
ألستم أصحابي يوم بدر إذ أنزل الله فيكم إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم
بألف من الملائكة مردفين^(١) ألستم أصحابي يوم أُحد : إذ تصعدون ولا تلوّن على أحد و

الرسول يدعوكم في أخراكم^(١)، أستم أصحابي يوم كذا ، أستم أصحابي يوم كذا فاعتذروا إلى رسول الله وندموا على ماكان منهم وقالوا : الله أعلم ورسوله فاصنع مايدالك .
ورجع حفص بن الأحنف وسهيل بن عمرو إلى رسول الله فقالا : يا محمد قد أجابت قريش إلى ما اشترط من إظهار الاسلام وأن لا يكره أحد على دينه فدعا رسول الله بالكتب ودعا أمير المؤمنين وقال له : اكتب فكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : لا نعرف الرحمن اكتب كماكان يكتب آباؤك بسمك اللهم فقال رسول الله : اكتب بسمك اللهم فإنه اسم من أسماء الله ثم كتب هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله ﷺ والملائكة من قريش فقال سهيل بن عمرو : لو علمنا أنك رسول الله ما حاربناك اكتب هذا ما تقاضى عليه محمد بن عبد الله أنأنف من نسبك يا محمد فقال النبي ﷺ : أنا رسول الله وإن لم تقرّوا ، ثم قال : امح يا علي واكتب محمد بن عبد الله فقال علي ﷺ : ما أمحو اسمك من النبوة فمحا رسول الله بيده ثم كتب : هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله والملائكة من قريش وسهيل بن عمرو واصطلحوا على وضع الحرب بينهم عشر سنين على أن يكف بعضنا عن بعض ، وعلى أنه لا إرسال ولا إغلال^(٢) ، وأن بيننا غيبة مكفوفة ، وأن من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل ، وأنه من أتى محمداً بغير إذن وليه ردّه ، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يرده إليه وأن يكون الاسلام ظاهراً بمكة ولا يكره أحد على دينه ولا يؤذى ولا يعير وأن محمداً يرجع عامه هو وأصحابه ثم يدخل علينا في العام القابل مكة فيقيم فيها ثلاثة أيام ولا يدخل عليها بسلاح إلا سلاح المسافر وكتب علي بن أبي طالب وشهد على الكتاب المهاجرون والأنصار .

قال النبي ﷺ : يا علي إنك أبيت أن تمحو اسمي من النبوة فوالذي بعثني بالحق نبياً لتجيبن أبناءهم إلى مثلها وأنت مضيض مضطهد^(٣) فلمّا كان يوم صفين ورضوا بالحكمين كتب هذا ما اصطلح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن

(١) آل عمران ١٥٣

(٢) بهامش الاصل : الاغلال : الخيانة ، والاسلال : الاغارة .

(٣) اورده القلقشندي في صبح الاعشى عند نقله صلح صفين والنراضي بالحكمين .

أبي سفيان فقال عمرو بن العاص : لو علمنا أنك أمير المؤمنين ما حاربناك و لكن اكتب هذا ما اصطلح عليه علي بن أبي طالب و معاوية بن أبي سفيان فقال أمير المؤمنين : صدق الله ورسوله أخبرني بذلك رسول الله .

و بالجملة فلمّا كتبوا الكتاب قامت خزاعة فقالت : نحن في عهد محمد رسول الله و عقده و قامت بنو بكر فقالت : نحن في عهد قريش و عقدها و كتبوا نسختين : نسخة عند رسول الله و نسخة عند سهيل و رجع سهيل و حفص إلى قريش فأخبروهم و قال رسول الله ﷺ لأصحابه : انحروا بدنكم و احلقوا رؤوسكم فامتنعوا وقالوا : كيف فنحروا لم نطف بالبيت و لم نسع بين الصفا و المروة فافغتم لذلك الرسول و شكوا ذلك إلى أم سلمة فقالت : يا رسول الله انحرأت و احلق فنحر رسول الله و حلق فنحر القوم على يقين و شك و ارتياب فقال النبي ﷺ تعظيماً للبدن : رحم الله المحلقين و قال قوم : لم يسوقوا البدن يا رسول الله و المقصرون لأن من لم يسق هدياً لم يجب عليه الحلق فقال رسول الله : ثانياً رحم الله المحلقين الذين لم يسوقوا الهدي فقالوا : يا رسول الله و المقصرون فقال : رحم الله المقصرين .

ثم رحل رسول الله ﷺ نحو المدينة فرجع إلى التنعيم و نزل تحت الشجرة فجاء أصحابه الذين أنكروا عليه الصلح و اعتذروا و أظهروا الندامة على ما كان منهم و سألوا رسول الله أن يستغفر لهم فنزلت آية الرضوان و هذه القصة مذكورة في روضة الكافي عن الصادق بزيادة و نقصان من أرادها فليراجع .

قوله : [إنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً] ثم خاطب نبيه فقال : « إنا أرسلناك ، يا محمد شاهداً على أمتك بما عملوه من طاعة و معصية و قبول و رد » شاهداً ، تبليغ الحكم و التكليف « و مبشراً ، بالجنة لمن أطاع » و نذيراً ، من النار لمن عصى ثم بين الغرض من الإرسال [لتؤمنوا] و قرىء بالياء فالمعنى ليؤمن هؤلاء الكفار [بالله و رسوله و تعزوه و توقروه] و الهاء راجع إلى النبي أي تنصروه بالسيف و اللسان و تعظموه و تجعلوه [و تسبحوه بكرة و أصيلاً] أي و تصلوا لله بالغداة و العشي فالضمير في تسبحوه راجع إلى الله و قيل : معناه و تنزهوا الله عما لا يليق به .

و كثير من القرآء اختاروا الوقف على قوله : « وتوقروه » لاختلاف الضمير فيه وفيما بعده وقيل : الضمائر راجعة إلى الله أي لتعظموا الله وتطيعوه كقوله : « لا ترجون الله وقاراً » قال الزمخشري : الضمائر لله ومن فرق فقد أبعد ، و قرىء تعزروه بالتخفيف وكسر الزاي قال ابن عباس : المراد من قوله : « وتسبحوه بكرة وأصيلاً » صلاة الفجر و صلاة الظهر والعصر .

وفي هذه الآية دلالة على بطلان مذهب الجبر لأنه سبحانه صرح هنا أنه يريد من جميع المكلفين الإيمان والطاعة .

قوله : [إن الذين يبايعونك] المراد بالبيعة هنا بيعة الحديبية وهي بيعة الرضوان يابعوا رسول الله ﷺ على الموت [إنما يبايعون الله] أي يبايعون لأجل الله ولوجهه لأن طاعتك طاعته وإنما سميت بيعة لأنها عقدت على بيع أنفسهم الجنة للزومهم في الحرب وباعوا أنفسهم .

[يد الله فوق أيديهم] كأنهم في هذه البيعة يابعوا الله من غير واسطة وقوة الله في نصرته نبيه فوق أيديهم في النصره ، أي ثق بنصرة الله لك لا بنصرتهم وإن يابعوك أو أن يد رسول الله أنتمي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله والله منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام وإنما المعنى تقرير أن عقد الرسول ﷺ والميثاق معه كعقده مع الله من غير تفاوت في الأجر كقوله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (١) .

[فمن نكث] أي نقض ما عقد من البيعة [فإني ما ينكث على نفسه] أي يرجع ضرر ذلك النقض عليه وليس له الجنة والكرامة .

[ومن أوفى بما عاهد عليه الله] و قرىء عهد والمعنى من ثبت على العهد يقال : وفيت وأوفيت بالهدد وهي لغة تهامة ومن هذه اللغة قوله : « أوفوا بالعقود » [فسيؤتيه أجراً عظيماً] و قرىء بالنون على التكلم أي ثواباً جزيلاً .

قوله تعالى : سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلنا أموالنا واهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً

ان أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً (١١) بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى اهلهم ابداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً (١٢) ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا اعتدنا للكافرين سعيراً (١٣) والله ملك السماوات والارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً (١٤) سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون ان يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلك قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدونا بل كانوا لا يفقهون الا قليلاً (١٥) .

ثم أخبر سبحانه عمن تخلف عن نبيه فقال :

[سيقول المخلفون من الأعراب] أي الذين تخلفوا عن صحبتك وذلك أنه لما أراد ﷺ المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً وكان في ذي القعدة سنة ست من الهجرة استنفر من أطراف المدينة في الخروج معه ﷺ وهم غفار وأسلم وأشجع ومزينة حذراً من قريش من أن يعرضوا له بحرب أو يصدوا، وأحرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً .

فتناقل عنه كثير من الأعراب وقالوا : نذهب معه إلى قوم قد جاءوه فقتلوا أصحابه فتخلفوا عنه واعتلوا بالشغل فشرح الله حالهم للنبي ﷺ فقال سبحانه : إنهم يقولون لك إذا عاتبهم على التخلف عنك [شغلونا أموالنا وأهلونا] وقرئ بالتشديد عن الخروج معك [فاستغفر لنا] في قعودنا عنك فكذبهم الله فقال : [يقولون بالسننهم ما ليس في قلوبهم] في الاعتذار بما أخبر عن ضمائرهم أي إنهم كاذبون في الاعتذار وطلب الاستغفار .

[قل] يا أيها لهم : [فمن يملك من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً] أي فمن يمنعكم من عذاب الله إن أراد بكم سوءاً أو نفعاً وغنيمة ؟ وذلك أنهم ظنوا أن تخلفهم عن النبي ﷺ يدفع عنهم الضر أو يحصل لهم النفع بالسلامة من المال والأهل [بل كان الله بما تعملون خبيراً] أي إنه عالم في تخلفكم وسببه .

[بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى اهلهم أبداً] أي ظننتم أنهم لا

يرجعون إلى من خلفوا بالمدينة من الأهل والمال و إن العدو يستأصلوهم و يصطلمهم
 [و زين ذلك في قلوبكم] أي زين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم و سوله لكم
 [و ظننتم ظن السوء] في هلاك النبي ﷺ وأصحابه و كل هذه الأخبار من الغيب وما
 كان يطلع عليها إلا الله فصار معجزاً للنبي ﷺ [و كنتم قوماً بوراً] أي هلكى لاتصلحون
 الخير و فاسدين .

[ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً] أي ومن يظن بأن الله
 يخلف وعده أو الرسول كاذب فيما قاله فله نار مسعرة معدة في الآخرة [والله ملك السماوات
 والأرض يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء] إذا استحق العقاب [وكان الله غفوراً
 رحيماً] .

ثم قال سبحانه : [سيقول لك المخلفون] أي هؤلاء المخلفون أوضح كذبهم بأنهم
 إذا أحسوا بالغنيمة يقولون من تلقاء أنفسهم : [ذرونا نتبعكم] فإذا كان أموالهم وأهلهم
 شغلهم يوم دعوتكم إياهم إلى أهل مكة فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم أخذ الغنيمة
 والمراد من المغانم مغانم أهل خيبر وفتحها وغنم المسلمون ولم يكن معهم إلا من كان معه
 في المدينة ، و وعد المواقين بالغنيمة والمخلفين بالحرمان و وعدهم الله فتح خيبر لمن شهد
 الحديبية فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون : ذرونا نتبعكم .

فقال سبحانه : [يريدون أن يبدلوا كلام الله] أي مواعيد الله لأهل الحديبية
 بغنيمة خيبر خاصة أراد تغيير ذلك بأن يشاركوهم فيها وقيل : يريد أمر الله نبيه أن لا
 يسير معه منهم أحداً .

[قل لن تتبعونا كذلك قال الله من قبل] بالحديبية قبل خيبر لمن شهد الحديبية
 بشرهم فيها غيرهم « كذلك قال الله » أي نهى الله أن تتبعوا أئمتها المخلفون إيانا في
 المغانم .

وقال الجبائي : أراد بقوله : « يريدون أن يبدلوا كلام الله » قوله سبحانه : « قل
 لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً »^(١) .

وهذا غلط فاحش لأن هذه السورة نزلت بعد الانصراف من الحديبية وتملك الآية نزلت في الذين تخلفوا عن تبوك وكان منصرفه من تبوك في بقية رمضان من سنة تسع من الهجرة ولم يخرج بعد ذلك لقتال ولا غزو إلى أن قبضه الله فكيف يكون هذه الآية مرادة بقوله «كلام الله» وقد نزلت بعده بأربع سنين؟

ثم قال: [فسيقولون بل تحسدونا] أي فسيقول المخلفون عن الحديبية لكم إذا قلت لهم: لن تتبعونا وسمعوا هذا النهي يقولون لكم ليس هذا النهي من الله بل تحسدونا أن نشارككم في الغنيمة ثم قال سبحانه: ليس الأمر على ما قالوه [بل كانوا لا يفقهون] الحق وما تدعونهم إليه [إلا قليلاً] أي إلا فقهاً قليلاً وشيئاً قليلاً.

قوله تعالى: قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تقولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً (١٦) ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً (١٧) لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً (١٨) ومغانم كثيرة تأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً (٩) وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً (٢٠).

[قل] يا أيها الذين تخلفوا عنك في الخروج إلى الحديبية [من الأعراب] وهم قبائل متشعبة [استدعون] بعد ذلك [إلى قوم] ذوي النجدة والبأس قيل: المراد بالقوم هوازن وحنين وقيل: هوازن وثقيف وقيل: هم بنو حنيفة مع مسيلمة الكذاب وقيل: هم أهل فارس أو الروم وقيل: هم أهل صفين أصحاب معاوية قال الطبري: والصحيح أن الداعي في قوله: «استدعون» هو النبي ﷺ لأنه قد دعاهم بعد ذلك إلى غزوات كثيرة وقاتل أقوام ذوي البأس فلا معنى لحمل ذلك على ما بعد النبي ﷺ وبعد وفاته.

[تقاتلوهم أو يسلمون] معناه أحد الأمرين لا بد أن يكون يقع لاحتمال تقديره أو

يسلمون ويقرّون بالإسلام و ينقادون لكم و في قراءة أبيّ أو سلموا أي إلى أن يسلموا وعلى هذه القراءة لا يمكن أن يكون المراد من القوم فارس والروم لأنهم يقبل منهم الجزية إذا لم يسلموا .

[فإن تطيعوا] وتجيئوا إلى قتالهم [يؤتكم الله أجراً حسناً] وجزاء صالحاً [وإن تتولّوا] عن القتال وتقعّدوا عنه [كما تولّيتم من قبل] مثل يوم الحديبية [يعذبكم عذاباً أليماً] في الآخرة .

[ليس على الأعمى ولا على الأعرج ولا على المريض حرج] يبيّن سبحانه من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكرّ و الفرّ وذلك بيان أصناف ثلاثة: الأول الأعمى فإنه لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب و لا يمكنه الاحتراز والهرب و الأعرج كذلك والمريض كذلك و في معنى الأعرج الأقطع والمقعّد أي ليس على هؤلاء ضيق في ترك الخروج مع المؤمنين في الجهاد .

[ومن يطع الله ورسوله يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار] المراد من الإطاعة في الآية قبول القتال والجهاد [ومن يتولّ يعذب به عذاباً أليماً] أي وإن قعدتم عن القتال و تولّيتم وما وافقتم النبيّ في جهاد العدو يعذب بكم في الآخرة عذاباً مؤلماً شديداً فقرن الله طاعته تعالى بطاعة رسوله و معصيته بمخالفة رسوله هذا هو الناموس الأكبر و الجاه الأوفر .

[لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة] يعني بيعة الحديبية وتسمّى بيعة الرضوان لهذه الآية والشجرة هي شجرة السمرة [فعلم ما في قلوبهم] من صدق النية لأنّه ﷺ بايعهم على القتال والصبر و الوفاء [فأنزل السكينة عليهم] و هي الطمأنينة و اللطف المقوّي لقلوبهم [وأنا بهم فتاحاً قريباً] يعني فتح خيبر وقيل : فتح مكّة [ومغانم كثيرة تأخذونها] يعني غنائم خيبر فإنّها كانت مشهورة بكثرة الأموال والعقار وقيل : غنائم هجر وهو ازن بعد فتح مكّة [وكان الله عزيزاً] غالباً في أمره [حكيماً] في أفعاله ، حكم للمسلمين بالغنيمة ولأهل الخيبر بالهزيمة .

ثم ذكر سبحانه سائر الغنائم التي يأخذونها فيما بعد من الزمان فقال : [وعدّكم الله

مغانم كثيرة تأخذونها] مع النبي ومن بعده إلى يوم القيامة [فعجل لكم هذه] يعني غنيمة خيبر [و كف أيدي الناس عنكم] و ذلك أن النبي ﷺ لما قصد خيبر و حاصر أهلها همّت قبائل من أسد و غطفان أن يغيروا على أموال المسلمين و عيالهم بالمدينة فكف الله أيديهم عنهم بإلقاء الرعب في قلوبهم و قيل : إن مالك بن عوف و عيينة بن حصن مع بني أسد و غطفان جاءوا لنصرة اليهود فخذف الله الرعب في قلوبهم و انصرفوا .
[ولتكون] الغنيمة التي عجلها لهم [آية للمؤمنين] على صدقك حيث وعدهم أن يصيبوها فوق المخبّر على طبق الخبر [ويهديك صراطاً مستقيماً] فيكمل اعتقادكم و يقينكم و تفوضون أموركم إلى صراط الله العزيز و هو الثبات على دين الإسلام و تحمّل مشاق الطاعة .

قوله تعالى : و آخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها و كان الله على كل شيء قديراً (٢١) .

المعنى : ثم عطف سبحانه على ما تقدّم بعد النبي و المؤمنين فتوحاً آخر فقال :

[و آخرى لم تقدروا عليها] أي و وعدكم الله مغانم أخرى لم تقدروا عليها بعد فيكون «أخرى» في محلّ النصب ، و قيل : المعنى و قرية أخرى لم تقدروا عليها قد أعدّها الله لكم وهي مكّة و قيل : هي ما وعد الله لهم من بعد ذلك اليوم أو المراد بها فارس و الروم عن ابن عباس و جماعة قال : كما أن النبي ﷺ بشرهم كنوز فيصرو كسرى و ما كانت العرب على قتال فارس و الروم بعد و فتح مدائنهم بل كانوا خولاً لهم حتّى تمكّنوا و قدروا عليها بالإسلام .
[قد أحاط الله بها] قال الفرّاء : أحاط الله بها لكم حتّى يفتحها عليكم فكانه قد حفظها و منعها عن غيركم حتّى تفتحوها و قد رفّعتها لكم و أحاط علمه سبحانه بذلك الأمر [و كان الله على كل شيء قديراً] من فتح القرى و غير ذلك .

و نذكر في هذا المقام نبذاً من قصّة خيبر : لما رجع ﷺ من الحديبية إلى المدينة مكث بها عشر بن ليلة ثم خرج منها إلى خيبر ذكر ابن إسحاق بإسناده عن أبي مروان الأسلمي عن أبيه عن جده قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر حتّى إذا كنا قريباً

منها وأشرفنا عليها قال النبي ﷺ : قفوا فوقف الناس فقال : اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أظللن ورب الشياطين وما أضللن إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها أقدموا باسم الله .

وعن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعنا من ههنا تك وكان عامر رجلاً شاعراً فجعل يقول :

لاهم لولا أنت ما حجينا * ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اقتلينا * وثبت الأقدام إن لا قبينا
و أنزلن سكينه علينا * إنا إذا صبح بنا أمينا
و بالصباح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : من هذا السابق ؟ قالوا : عامر قال : يرحمه الله ، قال ممر - وهو على جمل - : يا رسول الله لولا أمتعتنا به ، وذلك أن رسول الله ﷺ ما استغفر لرجل قط يخصه إلا استشهد قالوا : فلما جد الحرب وتضاف القوم خرج يهودي وهو يقول :
قد علمت خيبر أنني مرحب * شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه عامر وهو يقول :

قد علمت خيبر أنني عامر * شاكي السلاح بطل مغامر
فاختلفا ضربتين فوق سيف اليهودي في ترس عامر و كان سيف عامر فيه قصر فتناول به ساق اليهودي ليضربه فرجع ضباب سيفه فأصاب ركبته والركبة أصل الصلابة إذا قطعت واقع بين الفخذ والورك فمات منه قال : فإذا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون بطل عمل عامر قتل نفسه فقال النبي ﷺ : كذب أولئك بل أوتي عامر من الأجر مرتين .
و بالجملة قال : فحاصروهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة ثم إن الله فتحها علينا و ذلك أن النبي ﷺ أعطى اللواء عمر بن الخطاب و نهض من نهض معه من الناس فلقوا

أهل خيبر فانهمز عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله ﷺ يحبونه أصحاب عمر ويحبونهم و كان رسول الله ﷺ أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس فلما أفاق من وجعه سأل ﷺ ما فعل الناس بخيبر؟ فأخبره فقال : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحب الله ورسوله كرا غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه .

و روى البخاري و مسلم عن قتيبة بن سعيد قال : حدثنا يعقوب عن عبد الرحمن الإسكندراني عن أبي حازم قال : أخبرني سعد بن سهل أن رسول الله ﷺ قال : يوم خيبر لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحب الله ورسوله قال : فبات الناس يدر كوا بجملتهم أيتهم يعطيها فلما أصبح الناس غدوا إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ أين علي؟ فقالوا : يا رسول الله هو يشتكي عينيه قال : فأرسلوا إليه فأتى به ﷺ فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرىء كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال علي ﷺ : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمران نعم قال سلمة : فبرز مرحب وهو يقول :
«قد علمت خيبر أنني مرحب»

الآيات ، فبرز له علي وهو يقول :

أنا الذي سميتني أمي حيدر * ضرغام آجام و ليث قسوره

أكيلكم بالصاع كيل السندره

فضرب مرحباً ففلق رأسه فقتله و كان الفتح على يده ﷺ أورده مسلم في الصحيح . وروى أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال : خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه يهودي فطرح ترسه من يده فتناول علي ﷺ باب الحصن فتمترس به عن نفسه فلم يزل في يده و هو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده فلقد رأيتني في نفر مع سبعة أنا منهم نجهد على أن نحرر ذلك الباب فما استطعنا أن نقلبه .

وعن ليث بن أبي سليم عن أبي سليم عن أبي جعفر محمد بن علي ﷺ قال : حدثني

جابر بن عبد الله الأنصاري أن علياً حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه فافتتحوها وأنه حرّك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً . قال : وروي من وجه آخر عن جابر ثم اجتمع عليه سبعون رجلاً فكان جبهدهم أن أعادوا الباب .

وبإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : كان علي عليه السلام يلبس في الحرّ والشتاء القباء المحشوّ الثخين وما يبالي الحرّ فأتاني أصحابي فقالوا : إننا رأينا من أمير المؤمنين شيئاً فهل رأيت ؟ قلت : وما هو قالوا : رأينا يخرج علينا في الحرّ الشديد في القباء المحشوّ وما يبالي الحرّ ويخرج علينا في البرد الشديد في الثوبين الخفيفين وما يبالي البرد فهل سمعت في ذاك شيئاً ؟ قلت : لا فقالوا : فاسأل أباك عن ذلك فإنه يسمر معه فقال : ما سمعت في ذلك شيئاً فدخل على علي عليه السلام فسمر معه ثم سأله عن ذلك فقال عليه السلام : أو ما شهدت خيبر ؟ قلت : بلى قال : أفما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله حين دعا أبا بكر فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقى القوم ثم جاء بالناس وقد هزم فقال : بلى : قال : ثم بعث عمر فلقى القوم فقاتلهم ثم رجع وقد هزم فقال رسول الله : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يده كراً غير فرار فدعاني وأعطاني الراية ثم قال : اللهم اكفه الحرّ والبرد فما وجدت بعد ذلك حرّاً ولا برداً وهذا كلّ منقول في كتاب دلائل النبوة للإمام أبي بكر البيهقي .

وبالجملة ثم لم يزل رسول الله يفتح الحصون حصناً حصناً وبحوز الأموال حتى انتهوا إلى حصن الوطيطخ والسالام وكان آخر حصون خيبر وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بضع عشرة ليلة .

قال ابن إسحاق لما افتتح حصن ابن أبي الحقيق أتي رسول الله بصفية بنت حيي بن أخطب وبأخرى معها فمرّ بهما بلال وهو الذي جاء بهما على قتلى يهود فلمّا رأتهما التي معها صفية سكّت وجهها وحشت التراب على رأسها فلمّا رآها رسول الله صلى الله عليه وآله قال : أغربوا عني هذه الشيطانة وأمر بصفية فخيرت خلفه وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أنه صلى الله عليه وآله قد اصطفّاها لنفسه وقال صلى الله عليه وآله لبلال لمّا رأى من تلك اليهودية ما رأى : أنزع منك الرحمة يا بلال حيث تمرّ بأمرأتين على قتلى رجالهما ؟

وكانت صفيّة قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن ربيع أبي الحقيق أن قمرأ وقع في حجرها فعرضت رؤياها على زوجها فقال : ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز تحداً ولطم وجهها لطمه اخضرت عينها منها .

ولما أتى بها إلى رسول الله وبها أثر منها فسألها النبي ﷺ : ما هو ؟ فأخبرته وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله : أنزل فأكلّمك ، قال ﷺ : نعم فنزل وصالح رسول الله على حقن دمائهم في حصونهم من المقاتلة وترك الذريعة لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بنذرهم و يخلّون بين رسول الله وبين ما كان لهم من مال وأرض وما يكون لهم من كل شيء من الصفراء والبيضاء والسلاح والكراع وعلى البز إلا ثوب على ظهر الإنسان فقال رسول الله : فبرئت ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتوني شيئاً ، فصالحوه على ذلك .

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يحقن دماءهم ويخلّون بينه وبين الأموال فنزل ﷺ وكان ممن يمشي بين رسول الله وبينهم في ذلك محبصة بن مسعود أحد بني حارثة .

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم الأموال على النصف وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأمر لها فصالحهم رسول الله على النصف على أنّا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم وصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت أموال خيبر فية بين المسلمين وفدك خاصة لرسول الله لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب .

ولما اطمان رسول الله أهدت له زينب بنت الحارث بن سلام وهي بنت أخي مرحب شاة مصلية وقد سألت أي عضو منها أحب إلى رسول الله ﷺ فقيل لها : الذراع ، فأكرت فيها السمّ وسمت سائر الشاة ثم جاءت بها فلمّا وضعتها بين يديه تناول الذراع فأخذها ولاك منها مضغة وانتهش منهاو معه بشر بن البراء بن معروف تناول عظماً فانتهش منه فقال رسول الله ﷺ : ادفعوا أيديكم فإن كنف هذا الشاة يخبرني أنها مسمومة ثم دعاها فاعترفت فقال : ما حملك على ذلك ؟ فقالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك قتل : إن كان نبياً فسيخبر وإن كان ملكاً استرحنا منه فتجاوز عنها رسول الله ومات بشر من أكلته التي أكل . ثم دخلت أمّ بشر بن البراء على رسول الله ﷺ تعوده في مرضه الذي توفي فيه

فقال ﷺ : يا أمّ بشر ما زالت أكلة خبز التي أكلت مع ابنك تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري وكان المسلمون يرون أنّ رسول الله مات شهيداً مع ما أكرمه الله من النبوة .

قوله تعالى : ولوقاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً (٢٢) سنة الله التي قد دخلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً (٢٣) .

المعنى [ولو قاتلكم الذين كفروا] من قريش يوم الحديبية يا معشر المؤمنين [لولوا الأدبار] منهزمين بنصرة الله إياكم وخذلان الله إياهم وقيل : المراد بالذين كفروا من أسد وغطفان الذين أرادوا نهب ذراري المسلمين [ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً] يوالىهم ويدافع عنهم وهذا من الغيب وفي ذلك إشارة إلى أنّ المعلوم معلوم في علم الله .

[سنة الله التي قد دخلت من قبل] أي هذه سنتي في أهل طاعتي وأهل معصيتي وعادتي السالفة أنّ كلّ قوم إذا قاتلوا أنبياءهم انهزموا وقتلوا [ولن تجد لسنة الله] وعادته [تبديلاً] .

وهو الذي كف أيدهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن اظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً (٢٤) هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً (٢٥) .

النزول : إنّ المشركين بعثوا أربعين رجلاً - وقيل : ثمانين رجلاً - عام الحديبية ليصيبوا المسلمين هبطوا من جبل التنعيم عند صلاة الفجر وقيل : خرج ثلاثون شاباً عليهم السلاح فدعا عليهم النبي ﷺ فأخذ الله بأبصارهم فأخذهم أصحاب رسول الله فخلّى ﷺ سبيلهم فنزلت الآية .

المعنى : [وهو الذي كف أيديهم] أي أيدي كفّار مكة [وأيديكم عنهم ببطن مكة] أي في الحديبية لأنّها من مكة وذلك أنّ عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة من المشركين إلى الحديبية فبعث رسول الله خالد بن الوليد^(١) على جند فهزمهم حتّى

(١) ولا يستقيم هذا ، فإن خالداً لم يسلم حتّى الحديبية وقد مرّ أنّه كمن مع ما مضى نفر يريدون النيلة بأصحاب النبي صلى الله عليه وآله فانزل الله صلاة الغوف ووقاهم شرهم .

أدخلهم حيطان مكة ثم عاد وقيل : إن هذا الأمر كان يوم الفتح ، و به استشهد أبو حنيفة على أن مكة فتحت عنوة لاصلاحاً .

[من بعد أن أظفركم عليهم] فكف أيديهم عنكم بالفرار وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم و تركهم وقوله : « من بعد أن أظفركم » منة على المؤمنين بأن الظفر كان لكم مع أن الظاهر كان يقتضي كون الظفر لهم لكثرة عددهم و لكون البلاد لهم فكان هذا الأمر بعيداً لكونهم لابد لهم الذنب عن أهلهم و أولادهم ولذا قال تعالى : « يظن مكة ، وأما كف المسلمين عنهم أيضاً أمر بعيد لأنهم بعد أن ظفروا بعدوهم يقتضي أن يستأصلوهم كما هو عادة العدو والله تعالى بحسب علمه بالعاقبة كف اليدين [وكان الله بما تعملون بصيراً] يرى سبحانه من المصلحة .

ثم ذكر سبحانه المصلحة والسبب في الصلح فأشار إلى أن الكف لم يكن لأمر فيهم لأنهم كفروا ومنعوك والمسلمين عن المسجد الحرام وكل ذلك يقتضي قتالهم والمنع والكف عن القتال بالصلح في الحديبية ليس بسببهم لأنهم كفروا وصدوا وذلك يقتضي القتال لا الكف [ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم] و جواب لولا محذوف تقديره لما كف الله وإنما ذلك للرجال المؤمنين والنساء المؤمنات أي رجال غير معلومي الوطء و ما تعرفونهم و أنتم غير عالمين بأعيانهم لاختلاطهم مع المشركين أن تطؤوهم أي إذا أقدمتم على القتال توقعوا بكم [فتصيبكم منهم] من جهتهم [معرفة] أي مشقة و مكروه مثل الكفارة بقتلهم و وجوب الدية والتأسف عليهم و الإثم بالتقصير في البحث عنهم و أيضاً تعيير المشركين إياكم بأنكم قتلتم أهل دينكم و جواب لو محذوف أي لو طئتم رقاب المشركين وللزمكم القتال معهم فذكر الله أولاً المقتضي للقتال و هو الكفر والصد ثم ذكر ما امتنع لأجله مقتضاء وهو وجود الرجال .

وقوله : [والهدي معكوفاً أن يبلغ محله] عطف على كلمة «كم» في صدوكم و قرئ الهدي بالجر عن المسجد و معكوفاً حال من الهدي أي منعهم و حبسهم الهدي أن يبلغ محله الذي يكون أن ينحر فيه و الحاصل صدقهم الهدي عن محل المعهود الذي هو منى و بالجملة لولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين الكافرين غير عالمين أنتم بهم فيصيبكم بذلك

مكروه لما كَفَّ اللَّهُ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ .

[لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ] بِذَلِكَ الْكَفَّ الْمُؤَدِّي إِلَى الْفَتْحِ بَعْدَ ذَلِكَ [مِنْ بَشَاءٍ] وَاللَّامُ مُتَعَلِّقٌ بِمُحْذَوْفٍ دَلَّ عَلَيْهِ مَعْنَى الْكَلَامِ تَقْدِيرُهُ فَحَالَ بَيْنَكُمْ وَيَدْنِيهِمْ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ بَشَاءٍ يَعْنِي مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْكُفَّارِ بَعْدَ الصَّلَاحِ .

[لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ] أَيْ لَوْ تَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ [عَذَابًا أَلِيمًا] بِالسَّيْفِ وَالْقَتْلِ بِأَيْدِيكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بِالْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْكُفَّارِ فَلِحَرَمَةِ اخْتِلَاطِهِمْ بِهِمْ لَمْ يَعْذِّبْهُمْ ، أَعْرِفُوا قَدْرَ الصَّلَاحِ فَإِنَّ كَوْنَهُمْ فِيكُمْ مَانِعٌ عَنْكُمْ الْعَذَابَ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبُيَعٌ ، الْآيَةُ .

قوله تعالى : اذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَقَدْ خَلَنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَهُمْ وَمُقَدِّصِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا مَسْجِدًا يُبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) .

المعنى : [إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ الْآيَةُ] «إِذْ» مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : «لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا» أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِصَدِّكُمْ أَوْ بِفَعْلٍ مُقَدَّرٍ أَيْ إِذْ كَرَّرَ جَعَلَ الْكُفَّارَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ أَيْ الْحَمِيَّةَ النَّاشِئَةَ مِنْ جَهْلِهِمُ الْقَدِيمِ جَعَلُوا هَذِهِ الْأَنفَةَ وَالْعَصْبِيَّةَ ثَابِتَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَتِلْكَ الْحَمِيَّةُ أَنْ لَا يَنْقَادُوا لِأَحَدٍ .

وذلك أن كُفَّارَ مَكَّةَ قالوا : قد قُتِلَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ آبَاءُنَا وَإِخْوَانُنَا وَيَدْخُلُونَ عَلَيْنَا

في منازلنا فتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا واللات والعزى لا يدخلونها علينا فهذه الحمية الجاهلية التي دخلت قلوبهم أو المراد أنفتحت من الإقرار لمحمد بالنبوة والاستفتاح بسم الله الرحمن الرحيم حيث أراد ﷺ يكتب كتاب الصلح في الحديبية .
فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ولما جعل الكافرون لأنفسهم حمية الجاهلية وأنوفتها جعل الله للمؤمنين الطمأنينة في الإيمان والسكينة والتقوية في قلوبهم فما جعل للكافرين بجعلهم وما جعل للمؤمنين بجعل الله والفرق بين الفاعلين ما لا يخفى كما أن بين المفعولين مباينة تامة وأين الحمية الجاهلية والسكينة الإلهية ؟
ثم تأمل في حسن العبارة في قوله تعالى : « فأنزل » عبر سبحانه بالفاء لا بالواو إشارة إلى أن ذلك كالمقابلة تقول : أكرمني فأكرمته للمجازاة والمقابلة ولوقلت : أكرمني وأكرمته لا ينبيء عن هذا المعنى .

قوله : [وألزمهم كلمة التقوى] وهي قول لا إله إلا الله عن ابن عباس وجماعة وفي العلل عن النبي ﷺ أنه قال في تفسير لا إله إلا الله : وهي كلمة التقوى يشغل الله بها الموازين يوم القيامة وفي الكافي عن الصادق عليه السلام أنه سئل عنها فقال : هي الإيمان وفي المجالس عن النبي ﷺ قال : إن علياً راية الهدى وإمام أوليائي ونور لمن أطاعني وهو الكلمة التي ألزمها المتقين وقال علي عليه السلام في خطبة : أنا عروة الله الوثقى والكلمة التقوى .
قوله : [وكانوا أحق بها وأهلها] قيل في الآية تقديم وتأخير والتقدير كانوا أهلها وأحق بها أي كان المؤمنون أهل تلك الكلمة وأحق بها من المشركين وقيل : المعنى وكانوا أحق بنزول السكينة عليهم وأهلها وقيل : وكان المؤمنون أحق بمكة أن يدخلوها وأهلها وقد يكون حق أحق من غيره [وكان الله بكل شيء عليم] فيبين سبحانه علمه بيوطن سرائرهم وما ينطوي عليه عقد ضمائرهم .

[لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق] وبيانه أن الله تعالى أرى نبيه في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أن المسلمين دخلوا المسجد الحرام فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم ذلك فلمّا انصرفوا من الحديبية ولم يدخلوا مكة قال المنافقون : ما حلقنا وما قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام ، فأنزل الله هذه

الآية وأخبر أنه أرى رسوله الصدق في منامه لا الباطل و أنهم يدخلونه وأقسم على ذلك فقال :

[لتدخلن المسجد الحرام] يعني العام المقبل [إن شاء الله آمين] استثنى الله مما يعلم ويستثنى الناس في ما لا يعلمون وقيل : إن الاستثناء من الدخول و كان بين نزول الآية والدخول مدة سنة و قدماء منهم أناس في السنة فيكون تقدير الآية : ليدخلن كلكن إن شاء الله لأنه سبحانه علم أن منهم من يموت قبل السنة أو يمرض فلا يدخلها فأدخل الاستثناء لأن لا يقع في الخبر خلف و قيل : إن الاستثناء داخل على الخوف والأمن و هذه الأقوال الثلاثة للبصريين . و قيل : إن في الآية بمعنى إذهنا أي إذهاب الله ذلك مثل قوله تعالى : « و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » و معناه : إذ كنتم مؤمنين و هذا القول لا يرضيه البصريون .

[مخلقين رؤوسكم و مقصرين] أي محرمين بحلق بعضكم رأسه أو يقصر و يأخذ بعض الشعر وفي الآية دلالة على أن المحرم عند التحلل من الإحرام بالخيار إن شاء حلق وإن شاء قصر [لا تخافون] مشر كاً حال من فاعل لتدخلن أو من آمين أو من مخلقين أو من مقصرين أو استيناف والمعنى لا تخافون بعد ذلك .

[فعلم ما لم تعلموا] عطف على « صدق » أي علم سبحانه عقيب ما أراه الرؤيا بالصادقة أموراً من الحكمة الداعية لتأخر دخولكم في سنتكم كالسبب لوطوء المؤمنين و المؤمنات أو من المصالح المتجددة والمراد بعلمه العلم الفعلي المتعلق بأمر حادث بعد ذلك .

[فجعل] لأجل هذه المصلحة [من دون ذلك] أي من قبل دخولكم [فتحاً قريباً] والمراد إما صلح الحديبية و عمرة القضا أو فتح خيبر وقوله تعالى في الآية السابقة : « وكان الله بكل شيء عليماً » يدفع توهتهم حدوث علمه من قوله : « فعلم » لأن قوله : « وكان الله بكل شيء عليماً » يفيد سبق علمه العام لكل علم محدث .

[هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق] أي إن الله هو الذي أرسل رسوله محمد بالدليل الواضح وقيل : المراد بالهدى القرآن و دين الحق أي الإسلام [ليظهره على الدين كله] على جميع الأديان وقيل : إن تمام ذلك عند خروج القائم فلا يبقى في الأرض

دين سوى دين الإسلام [وكفى بالله شهيداً] بذلك .

ثم قال : [عجل رسول الله] نص على اسمه لتزول الشبهة و تم الكلام هنا .

ثم أثنى على المؤمنين فقال : [و الذين آمنوا معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم] قيل : بلغ من تشديد المؤمنين على الكفار أن كانوا يحترزون من ثياب المشركين حتى لا يلتصق بثيابهم وعن أبدانهم حتى لا تمس أبدانهم قال الصادق عليه السلام : أوحى الله إلى نبي من أنبيائه قل لمن آمن بي : لا يلبسوا لباس أعدائي ولا يطعموا مطاعم أعدائي ولا يسلكوا ماسلك أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي ؛ وكان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه و يظهرن لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرافة ولم يستدلّون ويتسخّرون و على الكافرين أقوياء و متصليين .

[تراهم ركعاً سجداً] من طرق العامة المراد عليّ و كان يسمع في كل ليلة ألف تكبيرة الإحرام من مصلاه ، إخبار من الله في كثرة صلاتهم ومدامتهم عليها [يبتغون] بذلك [فضلاً من الله ورضواناً] و يطلبون نعم الله ورضاه [سيماهم في وجوههم من أثر السجود] أي علامتهم يوم القيامة أن يكون مواضع سجودهم أشدّ بياضاً قال شهر بن حوشب : يكون مواضع سجودهم كالقمر ليلة البدر وقيل : المراد من السيماء الصفرة والنحول في وجوههم و أبدانهم إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما بهم مرض [ذلك مثلهم في التوراة] أي إن ما ذكر من وصف المؤمنين هو ما وصفوا به في التوراة .

[ومثلهم في الإنجيل] ثم ذكر نعمتهم في الإنجيل فقال : « ومثلهم في الإنجيل » وقيل : ليس بينهما وقف والمعنى ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل جميعاً و وصفوا في الكتابين ومثلوا [بزرع أخرج شطأه] أي فراخه و نبوغه و إن هذه الأفراخ لحقت الأمهات حتى صارت مثلها فتموت [فأزره] أي فقوى الزرع ذلك الشطأ [فاستغلظ] أي متن و غلظ ذلك الزرع [فاستوى على سوقه] أي قام على قصبه و أصوله فاستوى الصغار مع الكبار وتناهى و بلغ الغاية .

[يعجب الزرع] أي يروع ذلك الزرع الزرع و الأكرة الذين زرعوه قال الواحدي : هذا مثل ضرب به الله فالزرع عجل والشطأ المؤمنون حوله وكانوا في ضعف وقلة كما

يكون الزرع في أوله دقيقاً ثم غلظ وقوي و تلاحق فكذلك المؤمنون قوتى بعضهم بعضاً فاستووا على أثر أمره ﷺ [يغيط بهم الكفار] وإنما كثرهم الله وقواهم ليكونوا غليظاً للكافرين بتظاهروهم واتفاقهم على الطاعة .

ثم قال سبحانه : [وعد الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات] أي وعد من

أقام على الإيمان والطاعة [مغفرة] أي سترأ على ذنوبهم الماضية .

[وأجرأ عظيماً] وثواباً جزيلاً دائماً .



سورة الحجرات

﴿مدنية الآية قوله « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكروا أنثى »﴾

فضلها عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال : من قرأ سورة الحجرات أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع الله ومن عصاه . الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من قرأ سورة الحجرات في كل يوم أو في كل ليلة كان زوَّار محمد ﷺ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا ايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يديه الله ورسوله و اتقوا الله ان الله سميع عليم (١) يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم لا تعلمون (٢) ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحنهم الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة واجر عظيم (٣) ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون (٤) ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم (٥) .

النفول : نزل قوله : « يا أيها الذين آمنوا » إلى قوله : « غفور رحيم » في وفد تميم وهم عطاردين حاجب بن زرارمة مع أشراف من بني تميم منهم الأقرع بن حابس و الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم في وفد عظيم فلما دخلوا المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد فأذى ذلك رسول الله فخرج إليهم فقالوا : جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا و خطيبنا فقال عليه السلام : قد أذنت فقام عطاردين حاجب - وكان رجل الفصاحة - وقال : الحمد لله الذي جعلنا ملوكاً الذي له الفضل علينا والذي وهب لنا أموالاً عظيماً نفعل بها المعروف وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثر عدداً وعدة فمن مثلنا في الناس فمن فاخرنا فليعد مثل ما وعدنا ولو شئنا لأكثرنا من الكلام ولكننا نستحي من الإكثار ثم جلس . فقال رسول الله عليه السلام : لثابت بن قيس بن شماس : قم فأجبه فقام ثابت فقال : الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض خلقه ففضى فيه أمره ووسع كرسيه علمه ولم يكن شيء قط إلا من فضله أن جعلنا ملوكاً واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمه نسباً وأصدق حديثاً وأفضله حسباً فأنزل الله عليه كتاباً وائتمنه على خلقه فكان خيرة الله على العالمين ثم دعا الناس إلى الإيمان بالله فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمته أكرم

الناس أحساباً وأحسنهم وجوهاً فكان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله نحن فنحن أنصار رسول الله وردوه ؛ نقاتل الناس حتى يؤمنوا فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ومن نكث جاهدناه في الله أبداً و كان قتله علينا يسيراً ، أقول هذا و استغفر الله للمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم .

ثم قام الزبرقان بن بدر ينشد وأجابه حسان بن ثابت .

فلما فرغ من قوله قال الأقرع : إن هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا وشاعره أشعر من شاعرنا وأصواتهم أعلى من أصواتنا فلما فرغوا أجازهم رسول الله وأحسن جوائزهم وأسلموا .

أقول : وهذا عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم لما وردوا على النبي ﷺ قال الميداني في مجمع الأمثال : إنه عليه السلام سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان أن يعرفه فقال : عمرو إنه مطاع في عشيرته شديد العارضة مانع لما وراء ظهره فقال الزبرقان : يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر من هذا ولكنه حسدني فقال عمرو : أما والله إنه لزم المروءة ضيق العطن أحق الوالد لثيم الخال والله يا رسول الله ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الآخرة ولكنني رجل رصيت فقلت أحسن ما علمت و سخطت فقلت أقبح ما وجدت فقال عليه السلام : إن من البيان لسحراً يعني إن بعض البيان يعمل السحر ومعنى السحر إظهار الباطل في صورة الحق والبيان موضوعة اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب مع اللسان وإنما شبه بالسحر لحدته أثره في سامعه وسرعة قبول القلب له ، انتهى كلام الميداني .

وقيل : إن الوافد كانوا أناساً من بني العنبر كان للنبي سبياً من ذراريهم فأقبلوا إلى فدائهم فقدموا المدينة ودخلوا المسجد وعجلوا أن يخرج إليهم النبي فجعّلوا يقولون يا محمد أخرج إلينا عن أبي حمزة الثمالي عن عكرمة عن ابن عباس فنزلت يا أيها الذين آمنوا وروى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : ماسكت السيوف ولا أقيمت الصفوف في صلاة ولا رجوف ولا جهر بأذان ولا أنزل الله بأيتها الذين آمنوا حتى أسلم أبناء الأوس والخزرج .

قوله : [لا تقدموا بين يدي الله] والمراد من بين يدي الله الأمام لأن ما بين يدي الإنسان أمامه والمعنى : لا تقطعوا أمراً ولا تعجلوا به دون الله ورسوله ولا تفعلوا ما تؤثرونه وتتركوا ما أمركم الله ورسوله به ولا تقدموا أمراً على ما أمركم الله به والمفعول وهو أمرٌ محذوف وقد مواء في الآية بمعنى تقدم وقيل : معنى الآية لا تقدموا أعمال الطاعة قبل الوقت الذي أمر الله ورسوله به حتى قيل : لا يجوز تقديم الزكاة قبل وقتها وقيل : المعنى : لا تمكثوا أحداً يمشي أمام رسول الله بل كونوا له تبعاً وأخروا أقوالكم واقعاً لكم عن قوله وفعله وقيل : نزلت في قوم ذهبوا الأضحية قبل صلاة العيد فأمرهم رسول الله ﷺ بالإعادة وقال ابن عباس : نهوا أن يتكلموا قبل كلامه فالمعنى إذا كنتم جالسين في مجلس رسول الله ﷺ وسئل عن مسألة فلا تسبقوه بالجواب حتى يجيب النبي ﷺ أولاً وقيل : معناه لا تسبقوه بقول ولا بفعل حتى يأمركم به .

والأصح حمل الآية على الجميع فإن كل شيء كان خلافاً لله ولرسوله إذا فعل فهو تقديم بين يدي الله ورسوله وذلك ممنوع .

[واتقوا الله] أي اجتنبوا معاصيه [إن الله سميع] لأقوالكم [عليم] بأعمالكم فيجازيكم بها .

[يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي] لأن فيه أحد الشئيين إما نوع استخفاف به فهو الكفر وإما سوء الأدب فهو خلاف تعظيم المأمور به . [ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض] أي غصوا أصواتكم وليسوا عند مخاطبتكم إياه وفي مجلسه فإنه ليس مثلكم إذ يجب توقيره من كل وجه وقيل : معناه لا تقولوا له : يا محمد كما يخاطب بعضهم بعضاً بل خاطبوه بالتعظيم والتجليل وقولوا : يا رسول الله [أن تحبط أعمالكم] أي كراهة أن تحبط أولئلا تحبط أعمالكم وقيل : إنه في حرف عبد الله أبي مسعود فتحبط أعمالكم [وأنتم لا تشعرون] لا تعلمون أنكم أحبطتم أعمالكم لأنهم إذا عظموه استحقوا الثواب فلما فعلوا على خلاف ذلك الوجه استحقوا العقاب وفاتهم ذلك الثواب فأنحبطت أعمالهم .

ثم مدح سبحانه من يعظم رسوله ويوقره فقال : [إن الذين يفضون أصواتهم عند

رسول الله [أصواتهم في مجلسه إجلالاً له] أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى [أي أخلصها للتقوى مأخوذ من امتحان الذهب بالنار إذا أذيب حتى يذهب غشّه وتبقى خالصه وقيل : المعنى : إنه علم خلوص نياتهم لأنّ الإنسان يمتحن الشيء ليعلم حقيقته وقيل : معناه عاملهم معاملة المختبر بما تعبّد بهم به من هذه العبادة فخلصوا على الاختبار كما يخلص الذهب الجيّد بالنار] لهم مغفرة من الله [لذنوبهم وأجر عظيم على طاعتهم .

ثمّ خاطب النبي ﷺ فقال : [إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات] وهم الجفّة من بني تميم لم يعلموا في أيّ حجرة هو ﷺ فكانوا يطوفون على الحجرات و ينادونه [أكثرهم لا يعقلون] وصفهم الله بالجهل وقلة العقل والفهم إذ لم يعرفوا قدر النبي ﷺ ولا ما استحقّه من التوقير فهم بمنزلة البهائم .

[ولو أنّهم صبروا حتّى تخرج إليهم لكان خيراً لهم] من أن ينادونك من وراء الحجرات في دينهم فيما يحرزونه من الثواب وفي دنياهم باستعمالهم حسن الأدب في مخاطبة الأنبياء ليعدّوا في زمرة العقلاء وقيل : معناه لأطلقت أسراهم بغير فداء فإنّ رسول الله كان سبي قوماً من بني العنبر فجاءوا في فدائهم فأعتق نصفهم وفادى النصف فيقول سبحانه : ولو أنّهم صبروا لكنت تعتق كلّهم [والله غفور رحيم] لمن تاب منهم .

يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين (٦) واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبيب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون (٧) فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم (٨) وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل و اقسطوا ان الله يحب المقسطين (٩) انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون (١٠) .

النزول : في قوله : « إن جاءكم فاسق » نزل في الوليد بن عتبة بن أبي معيط بعثه

رسول الله ﷺ في صدقات بني المصطلق فخرجوا يتلقونه فرحاً به و كانت بينهم عداوة في الجاهلية فطن الوليد أنهم همّوا بقتله فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : إنهم منعوا صدقاتهم وكان الأمر بخلافه فغضب النبي ﷺ وهم أن يغزوه فأنزلت الآية عن ابن عباس ومجاهد وجماعة .

وقيل : إنها نزلت فيمن قال للنبي ﷺ إن مارية يأتيها ابن عم لها قبضي فدعا رسول الله ﷺ علياً وقال : يا أخي خذ هذا السيف فإن وجدته عندها فاقتله ، فقال : يا رسول الله أكون في أمره إذا أرسلتني كالسكة المحممة أمضي لما أمرتني أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ؟ قال النبي ﷺ : بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب قال علي : فأقبلت متوشحاً بالسيف فوجدته عندها فاخترطت السيف فلمّا عرف أنني أريد أمتي نخلة فرقي إليها و شفر برجليه فإذا هو أجب أمسح وماله مال الرجال قليل ولا كثير وذلك بعد أن ألقى نفسه عن النخلة ، قال علي ﷺ : فرجعت وأخبرت النبي ﷺ ، فقال : الحمد لله الذي يصرف عنا سوء أهل البيت .

وبالجملة قوله تعالى : [يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ] أي بخبر عظيم الشأن من فاسق خارج عن طاعة الله إلى معصيته [فتبينوا] صدقه من كذبه ولا تبادروا إلى العمل بخبره . ومن قرأ فتبينوا فالمعنى توقفوا فيه وتأنوا حتّى تثبت حقيقته عندكم [أن تصيبوا قوماً بجهالة] أي حذراً من أن تصيبوا قوماً في أنفسهم و أموالهم بغير علم بحالهم وما هم عليه من الطاعة والإسلام [فتصبحوا على ما فعلتم] من إصابتهم بالخطأ [نادمين] لا يمكنكم تداركه .

وفي هذا دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم ولا العمل لأن المعنى إن جاءكم من لا تأمنون أن يكون خبره كذباً فتوقفوا فيه وهذا التعليل موجود في خبر من يجوز كونه في خبره كاذباً .

وقد استدلل بعضهم بالآية على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان عدلاً من حيث إن الله أوجب التوقف في خبر الفاسق فدلّ على أن خبر العدل لا يجب التوقف فيه لأن دليل الخطاب لا يعمل عليه عندنا وعند أكثر المحققين .

[واعلموا أن فيكم رسول الله] أي فاتقوا الله أن تقولوا باطلاً عنده فإن الله يخبره بذلك فتفضحوا وقيل : معناه واعلموا بما أخبره الله من كذب الوليد أن فيكم رسول الله فهذه إحدى معجزاته [لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتكم] أي لو فعل ما تريدونه في كثير من الأمر لوقعتم في عنت وهلاك يقال : فلان لعنت فلاناً أي لطلب ما يؤدبه إلى الهلاك وقد أعنت من العظم إذا هين بعد الجبر وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع بيني المصطلق وتصديق قول الوليد وتطير هذه الهنأة كانت تفرط منهم والطاعة تراعى فيها الرتبة فلا يكون إلا إنسان مطيعاً لمن دونه في الدين وإنما يكون مطيعاً لمن فوقه .

ثم خاطب المؤمنين الذين لا يكذبون فقال : [ولكن الله حبب إليكم الإيمان] أي جعله أحب الأديان إليكم بأن أقام الأدلة على صحته مثل وجود النبي ﷺ والكتاب وبما وعد من الثواب عليه [وزينه في قلوبكم] وجعل هذا الدين محبوباً عندكم بالألطف الداعية إليه .

[وكرر إليكم الكفر] بما وصف من العقاب عليه [والفسوق] أي الخروج عن الطاعة إلى المعاصي وعن القصد والعدل بظلم نفسه [والعصيان] أي الامتناع من الانقياد وهو شامل لجميع الذنوب والفسوق مختص بالكبائر [أولئك هم الراشدون] أي المستثنين بقوله : «ولكن الله حبب إليكم الإيمان» هم السالكون إلى الطريق السوي الموصل إلى الحق .

وفي الآية تلوين وعدول حيث ذكر أول الآية على وجه الخطاب وآخرها على المغايبة حيث قال : «أولئك هم الراشدون» ليعلم أن جميع من كان حاله هكذا فقد دخل في هذا المدح كما قال أبو الليث .

[فضلاً من الله ونعمة] وهذا الفضل والإعانة تعليل لقوله : «حبب» ذكره للراشدين فإن الفضل والإعانة فعل الله والرشد وإن كان مسبباً عن فعله وهو التوجيه والتكريه لكن السلوك والرشد إلى طريق الهداية وقبولها مستند إليهم لأنهم قبلوا هذا السلوك لأن الرشد قائم بالقوم والفضل والإعانة قائمان به تعالى وليس المراد من الفاعل

إلا من قام به الفعل [والله عليهم حكيم] عليهم بما بينكم من التمايز والتفاضل حكيم يفعل كل ما يفعل بموجب المصلحة والشأن .

[وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما] أي قفائلا ، وأتى بلفظ الجمع باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع و الطائفة جماعة من الناس لكن دون الفرقة والفرقة أكثر عدداً من الطائفة .

نزلت الآية في الأوس والخزرج وقع بينهما قتال . وقيل : نزلت في رهط عبدالله بن أبي بن سلول من الخزرج و رهط عبدالله بن رواحة من الأوس و السبب أن النبي ﷺ وقف على عبدالله بن أبي فرات حمار رسول الله - أو بال - فأمسك عبدالله أنفه وقال : إليك عني فقال عبدالله بن رواحة : لبول حمار رسول الله أطيب ريحاً منك ومن أبيك فغضب قوم عبدالله بن أبي و أعان ابن رواحة قومه و وقع بينهما ضرب بالحديد و الأيدي والنعال .

وبالجملة إن فريقان من المؤمنين قاتل أحدهما صاحبه فأصلحوا بينهما حتى يصطلحا ولا دلالة في هذا على أنهما إذا اقتتلا بقيا على الإيمان ويطلق عليهما هذا الاسم ولا يمنع أن يفسق إحدى الطائفتين أو يفسقا جميعاً وطائفتان فاعل فعل محذوف وجوباً لا مبتدأ لأن حرف الشرط لا يدخل إلا على الفعل لفظاً أو تقديرأ والتقدير : وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، واقتتلوا يفسر الأول وحذف الأول لأن الفعل الثاني بيّنه .

[فأصلحوا بينهما] والصالح الحصول على الحالة الحسنة النافعة والإصلاح بين الناس إذا تفاسدوا وكانوا مؤمنين من أعظم الطاعات وأتم القربات .

قال ﷺ : ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : إصلاح ذات البين وفي الحديث المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يخذله ولا يتطاول عليه في النيان فيسترعنه الربح إلا باذنه ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف له منها ولا يشتر لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها .

ولما نزلت الآية قرأها رسول الله عليهم وأصلح بينهم .

فإن قيل : إن عبدالله بن أبي كان منافقاً والآية في طائفتين من المؤمنين .

فالجواب أن طائفة عبد الله بن أبي ما كانوا كلهم منافقين و فيهم مؤمنون و الآية تناول المؤمنين .

وقال ابن حجر : القتال لا يكون بالنعال والأيدي وذلك كان كذلك وإنما هذا في المنتظر من الزمان ، وهذا بعيد لأن المراد من القتل أمر يحصل به زهوق الروح و ذلك يحصل بأي شيء كان على أن القتال قد يستعمل مجازاً في المضاربة والمحاربة .

[وإن بغت إحداهما] وتعدت واستطالت إحدى الطائفتين و كانت مبغطة [على الأخرى] وكانت محقة [فقاتلوا التي تبغي] أي قاتلوا الطائفة الباغية [حتى تفيء] أي ترجع [إلى أمر الله] إلى حالة محمودة وهي المصالحة ورفع العداوة والرجوع إلى حكمه الذي حكم له وإنما أطلق الفيء على الظل لرجوعه بعد إزالة الشمس فإن الشمس كلما ازداد ارتفاعاً ازداد الظل انتساعاً وزوالاً وذلك إلى أن توازي الشمس خط نصف النهار فإذا زالت عنه وأخذت في الانحطاط أخذ الظل في الظهور والرجوع فلما كان الزوال سبباً لرجوع ما انتسخ من الظل أضيف الظل إلى الزوال . فقيل : في الزوال ، ويطلق أيضاً على الغنيمة لرجوعها من الكفار إلى المسلمين و تلك الأموال و إن لم تكن أولاً للمسلمين لكنها لما كانت حقهم لا يمانهم كانت لهم فرجعت إليهم .

و مر الأصمعي بحكي من أحياء العرب فصحاء فوجد صديقاً يلعب بالتراب مع الأتراب في الصحراء فقال الأصمعي : أين أباك يا صبي ؟ فنظر إليه الصبي ولم يجب ثم قال الأصمعي : أين أباك ؟ فنظر إليه ولم يجب كالأول ثم قال : أين أبوك ؟ فقال : قد فاء إلى الفياء ليطلب الفيء فإذا فاء الفيء فاء .

قوله تعالى : [فإن فاءت] أي فإن رجعت عن القتال وأنابت إلى طاعة الله [فأصلحوا بينهما] أي بينها وبين الطائفة التي على الإيمان [بالعدل] أي بالقسط والسواء ولا يكون شطط بينهما من الأرش والجنايات [وأقسطوا إن الله يحب المقسطين] العادلين .

[إنما المؤمنون إخوة] في الدين يلزم نصرة بعضهم لبعض والإخوة جمع الأخ وأصله المشارك الآخر في الولادة من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع ويستعار لكل

مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في صفة أو في مودة أو غيره من المناسبات وقال بعض أهل اللغة : الإخوة جمع الأخ من النسب والأخوان جمع الأخ من الخلّة والصداقة والآية من قبيل التشبيه البليغ من تشبيه الإيمان بالأب في كونه سبباً للحياة كالأب [فأصلحوا بين أخويكم] و تخصيص الاثنين بالذكر لإثبات لزوم الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية لتضاعف الفساد فيه .

[و اتقوا الله] في رعاية الحقوق والأوامر [لعلمكم ترحمون] راجين أن ترحموا على تقواكم أو لكي ترحموا و عن سالم عن أبيه أن رسول الله قال : المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن سرّ مسلماً سرّ الله يوم القيامة أورده البخاريّ و مسلم في صحيحهما .

وفي وصيّة رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام : يا عليّ سرّ ميلاً عد مريضاً و سرّ ميلين شيع جنازة سرّ ثلاثة أميال أجب دعوة سرّ أربعة أميال زر أخاً في الله ، سر خمسة أميال أجب دعوة الملهوف ، سر ستة أميال انصر المظلوم و عليك بالاستغفار .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون (١١) يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم (١٢) يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر و انثى وجعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليهم خبير (١٣) قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وان تطيعوا الله و رسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ان الله غفور رحيم (١٤) .

قوله : [يا أيها الذين] الآية قال ابن عباس : نزلت الآية في ثابت بن قيس بن

شماس كان في أذنه وقر فكان إذا أتى مجلس رسول الله وقد سبقوه بالمجلس وسعوا له حتى يجلس في جنبه ﷺ ليسمع ما يقول فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة عن صلاة الفجر فلما انصرف النبي أخذ أصحابه مجالسهم وضاق كل رجل بمجلسه فلا يكاد يوسع أحداً أحد فكان الرجل إذا جاء لا يجد مجلساً فيقوم على رجله فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله يتخطى رقاب الناس وهو يقول : تفسحوا تفسحوا فاجعلوا يتفسحون حتى انتهى إلى رسول الله بينه وبينه رجل فقال له : تفسح فلم يفصل الرجل فقال ثابت : من هذا فقال له الرجل : أنا فلان فقال : بل أنت ابن فلانة يريد أمماً له كان يعير بها في الجاهلية فخبجل الرجل ونكس رأسه فنزلت الآية .

وروي أن قوله : [ولا نساء من نساء] نزل في نساء النبي عيرن أم سلمة بالقصر أو أن عائشة قالت : إن أم سلمة جميلة لولا أنها قصيرة .

وقيل : إن الآية نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلماً بعد فتح مكة فكان المسلمون إذا رأوه قالوا : هذا ابن فرعون هذه الأمة فشكا ذلك للنبي فقال ﷺ : لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات فنزلت الآية ، ثم صارت الآية عامّة في الرجال والنساء فلا يجوز لأحد أن يسخر من صاحبه أو من أحد من خلق الله . وعن ابن مسعود : إنني لأخشى لو سخرت من كلب أن أحول كلباً وذلك لأن المؤمن ينبغي أن ينظر إلى الخالق فإنه ضيقه لا إلى المخلوق . قيل للقمان : ما أقبح وجهك ؟ فقال : تعيب بهذا على النفس أو على النقائص ؟

وقيل : في قوله : « ولا نساء من نساء » نزل في نساء النبي سخرن من أم سلمة وكانت لابسة ثوب أبيض وسدت طرفه خلفها فكانت تجرّه فقالت عائشة لحفصة : انظري ماذا تجرّ خلفها كأنه لسان كلب فهذا كانت سخر منها .

[عسى أن يكن خيراً منهن] أي ممكن أن تكون المطعونة بالعيب والسخرية خيراً من العائبة عند الله [ولا تلمزوا أنفسكم] أي لا يعيب بعضكم بعضاً لأن المؤمنين كنفس واحدة . وقيل : اللّمز العيب في المشهد والهمز العيب في المغيب أو اللّمز يكون باللسان وبالعين وبالإشارة والهمز لا يكون إلا باللسان . وقيل : معنى « ولا تلمزوا أنفسكم »

أي لا يلعن بعضكم بعضاً ولا تتنازروا بالألقاب ، والمراد من اللقب لقب إذا دعي به الإنسان بكرهه ، أمّا إذا لا يكرهه مثل الفقيه فلا بأس . وقيل : هو قول التعيير مثل أن يعمل إنسان شيئاً من القبيح ثم يتوب منه فيعير بما سلف منه عن ابن عباس .

وروي أن صفية بنت حيي بن أخطب جاءت إلى النبي تبكي فقال ﷺ : ما وراءك؟ فقالت : إن عائشة تعيرني و تقول : يهودية بنت يهوديين فقال ﷺ : هلا قلت : أبي هارون وعمي موسى وزوجي نوح؟ فنزلت الآية عن ابن عباس .

وبالجملة النبز القذف باللقب والحاصل أنه لا تلقّبوا ولا يدعوا بعضكم بعضاً بالألقاب قبيحة [بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان] أي بئس الاسم اسم الفسوق بأن يقول له : يا يهودي مثلاً وقد آمن ، أو المعنى بئس الشيء اكتساب اسم الفسوق لنسبة العيب إلى المؤمنين .

قال صاحب روح البيان : الاسم في الآية ليس ما يقابل اللقب والكنية ولا مقابل الفعل والحرف بل بمعنى الذكر المرتفع لأنه من سمو والمعنى في الآية بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم في الإيمان .

وقيل : المعنى بئس الاسم اسم يخرجهم عن الإيمان ويدخلهم في الفسوق مع أنهم دخلوا في الإيمان والطاعة وهذا المعنى يطابق ما ذكرنا في نزول الآية في حق صفية .

[ومن لم يتب] من التنازير والمعاصي ويرجع إلى طاعة الله [فأولئك هم الظالمون] نفوسهم بفعل ما يستحقون به العقاب وفي الآية دلالة على أن الرجل بترك التوبة يدخل مدخل الظلمة .

[يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن] قيل : هو أن يظن بأهل الخير سوءاً فأما أهل سوء والفسق فلنا أن نظن بهم مثل ما ظهر منهم وقيل : إذا ظن بأخيه المسلم سوءاً لا بأس به ما لم يتكلم به فإن تكلم بذلك الظن وأبراه أنهم وهو قوله : [إن بعض الظن إثم] يعني ما أعلنه مما ظن بأخيه وهذا القول عن المقاتلين يعني مقاتل بن حسان ومقاتل بن سليمان . وقيل : إنما قال تعالى : كثيراً من الظن ، لأن من جملته ما

يجب العمل به ولا يجوز مخالفته وإتّما يكون إثمًا إذا عمل بظنّه وله طريق إلى العلم بدلاً منه فهذا ظنّ محرّم لا يجوز فعله وأمّا ما لا سبيل إلى دفعه بالعلم بدلاً منه فليس بإثم ومعناه يجب على المؤمن أن يحسن الظنّ ولا يسيئه في شيء يجد له تأويلاً جميلاً وإن كان ظاهره قبيحاً [ولا تجسسوا] أي لا تتبعوا عشرات المؤمنين قال أبو عبيدة: التجسس والتجسس واحد في المعنى وقرئ في الشواذ بالمهملة قال الأخفش: وليس يبعد أحدهما عن الآخر إلا أنّ بالجيم عمّا يكتّم ومنه الجاسوس وبالهاء البحث عمّا تعرفه وحاصل المعنى أنّه لا تتبعوا عيوب المسلمين العيوب التي هم ستروها ولا تبحثوا عمّا خفي.

[ولا يغتب بعضكم بعضاً] والغيبة ذكر العيب بظهر القلب وفي الحديث إذا ذكرت الرجل بما فيه ممّا يكرهه فقد اغتبتّه وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهتته وعن جابر قال: قال رسول الله: إياكم والغيبة فإنّ الغيبة أشدّ من الزنا ثم قال: إنّ الرجل يزني ثم يتوب فيتوب الله عليه وإنّ صاحب الغيبة لا يغفر له حتّى يغفر له صاحبه.

ونزلت الآية في رجلين من أصحاب النبي ﷺ اغتابا رفيقهما وهو سلمان الفارسي بعثاه إلى رسول الله ليأتي لهما بطعام فبعثه ﷺ إلى أسامة بن زيد وكان خازن رسول الله على رحله فقال أسامة: ما عندي شيء فعاد إليهما فقالا: بخل أسامة وقالا لسلمان: لو بعثناه إلى بشر سميحة لغار ماؤها ثم انطلقا يتجسّسان عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله فقال ﷺ: مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما - والعرب تسمي الأسود أخضر والأخضر أسود وخضرة اللحم من قبيل الأول - قالوا: يا رسول الله ماتنا ولنا يومنا هذا لحماً قال: ظللتم تأكلون لحم سلمان وأسامة فنزلت الآية.

وعن أبي قلابة قال: إنّ عمر بن الخطاب: حدّث أنّ أبا محجن الثقفي يشرب الخمر في بيته هو وأصحابه فانطلق عمر حتّى دخل عليه فإذا ليس عنده إلا رجل واحد فقال أبو المحجن: يا أمير المؤمنين إنّ هذا لا يحلّ لك قد نهاك الله عن التجسس فقال عمر: ما يقول هذا؟ قال زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم: صدق يا أمير المؤمنين فخرج عمر وتركه.

وخرج عمر بن الخطاب أيضاً ومعه عبد الرحمن بن عوف فتبيّنت لهما نار فأتيا و

استأذن ففتح لهما الباب فدخلوا وإذا رجل وامرأة تغتني وعلى يد الرجل قدح فقال عمر : من هذه منك ؟ قال : امرأتي قال عمر : وما في هذا القدح ؟ قال : ماء ، فقال : للمرأة ما الذي تغتني ؟ قالت : أقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه * و أرقتني ألا حبيب الأعبه
فوالله لولا خشية الله و التقى * لززع من هذا السرير جوانبه
ولكن عقلي و الحياء يكفني * وأكرم بعلي أن تنال مرا كبه
ثم قال الرجل : ما بهذا امرنا يا أمير المؤمنين قال الله : ولا تجسسوا ، فقال عمر : صدقت فانصرف .

[أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً] و التأويل أن ذكر ك بالسوء أخاك المؤمن إذا كان غائبا بمنزلة أن تأكل لحمه وهو ميت لا يحس بذلك [فكرهتموه] فكما كرهتم ذلك فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبا والغيبة بكسر الغين اسم من الاغتياب وفتح الغين غلط إذ هو بالفتح مصدر بمعنى الغيبة .

وحاصل المعنى لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيابه وخلفه والاغتياب هو أن يتكلم إنسان خلف إنسان أمراً مستوراً يسوؤه ويكون فيه ويكون عيباً والتشبيه بأكل لحم الميت لأن لحم الميت هو الممتنهي في كراهة النفوس عن أكله والطباع وكذلك كما أن الميت لا يؤلمه قطع لحمه وأكله كذلك المغتاب لا اطلاع له بمن اغتابه لكن إذا سمعه و اطلع عليه تألم قلبه جداً من فرض عرضه كما يتألم من فرض لحمه بل الغالب عنده فرض لحمه أهون من فرض عرضه . وفي قوله : «فكرهتموه» الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من التمثيل فكأن يقول : و حيث كان الأمر كذلك فقد كرهتموه و تحقق كراهتكم لأكل لحم الميت فكذلك فليتحقق نظيره الذي هو الاغتياب .

[واتقوا الله] معاصيه [إن الله توّاب رحيم] قابل التوبة رحيم بالمؤمنين .
[يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكروا نثى] زجر الله سبحانه عن التفاخر بالأنساب
نزلت الآية حين أمر النبي ﷺ بالآل ليؤذن بعد فتح مكة فعلا ظهر الكعبة و أذن فقال عتاب بن أسيد و كان من الطلقاء : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم

وقال الحارث بن هشام : أما وجد رسول الله سوى هذا الغراب ؟ يعنون بلالاً .
وقيل : الآية نزلت في أبي هند حين أمر رسول الله بني بياضة أن يزوجه امرأة
منهم فقالوا : يا رسول الله نتزوج بناتنا موالينا ؟ فنزلت وفي الآية إشارة إلى أن الكفاة
بالإيمان والتقوى خلقناكم جميعاً من آدم وحواء .

[وجعلناكم شعوباً وقبائل] والشعب بفتح العين الجمع العظيم المنتسبون إلى
أهل واحد وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العماير والعمارة بالكسر تجمع البطون
والبطون تجمع الأفاخذ والغخذ تجمع الفصائل والفصيلة تجمع العشائر وليس بعد العشيرة
من يوصف به مثاليها فخزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصي بطن وهاشم والعباس
فصيلة وسميت شعوباً لأن القبائل تنشعب منها كتشعب أغصان الشجرة وسميت القبائل
لأنها يقبل بعضها على بعض من حيث كونها من أب واحد وقيل : الشعوب بطون العجم
والقبائل بطون العرب والأسباط من بني إسرائيل والشعوب من قحطان والقبائل من
عدنان .

[لتعارفوا] أي جعلناكم كذلك لتتعارفوا ، وحذفت إحدى التاءين أي ليعرف
بعضكم بعضاً بنسبه وأبيه وقومه ولولا ذلك لفسدت المعاملات وخربت الدنيا ويتعزى
أحد إلى غير آبائه وقد جعلنا خلقكم كذلك لهذه المصلحة لا للتفاخر بالآباء والقبائل و
بالتفاوت والتفاضل ولولم يكن هذا قرشياً وذاك تميمياً لم يتمييز بينهما وذلك فيه فساد
عظيم .

[إن أكرمكم عند الله أتقاكم] فالأكرم عنده سبحانه هو الأتقى وإن كان عبداً
حبشياً مثل بلال ألا ترى إلى قوله ﷺ : أنا سيد ولد آدم ولا فخر أي ليس الفخر
لي بالسيادة بل بالعبودية فإنها شرف أي شرف وكفى شرفاً تقديم العبد على الرسول في
التشهد [إن الله عليم] بكم وبأعمالكم [خبير] ببواطن أحوالكم .

ولما أبطل سبحانه اعتبار النسب مع أنه ثابت مستمر غير مقدور التحصيل فبطلان
اعتبار غيره كالمال والجاه بطريق أولى فغير الماتقي والمؤمن لا قدر له وإن كان قرشياً النسب
وقارون النسب إن أكثركم عملاً وأتقاكم لمعاصيه أكرم عند الله .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله سبحانه يوم القيامة: أمرتكم فضيعة ما عهدت إليكم فيه ورفعتكم أنسابكم فالיום أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

أبو بكر البيهقي بالإسناد عن عباية بن ربعي عن ابن عباس قال: قال رسول الله: إن الله عز وجل جعل الخلق قسمين فجعلني في خيرهم قسماً وذلك قوله: وأصحاب اليمين والشمال فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني خيراً ثلاثاً وذلك قوله: «وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون السابقون» فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة وذلك قوله: «وجعلناكم شعوباً وقبائل» الآية فإني أتقى ولد آدم ولا فخر وأكرمهم على الله ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً وذلك قوله عز وجل: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» وأهل بيتي مطهرون من الذنوب.

[قالت الأعراب آمناً] الأعراب أهل البادية نزلت الآية في نفر من بني أسد قدموا المدينة في ستة حذب فأظهروا الشهادتين وقالوا لرسول الله ﷺ: أتتكَ العرب بأنفسها على ظهور رواجلها وأتيناك بالعيال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ويطهرون الإيمان لأخذ الصدقة ولم يكونوا مؤمنين في السر فأمره الله أن يخبرهم بذلك ليكون آية ومعجزة له ﷺ.

[قل] ردأ لهم: [لم تؤمنوا] إذا الإيمان هو التصديق بالقلب ولم يحصل لكم ذلك [ولكن قولوا أسلمنا] أي دخلنا في السلم مثل أصبح وأمسى أي قولوا: دخلنا في السلم والصلح مخافة أنفسنا أو الطمع [ولما يدخل الإيمان في قلوبكم] أي قلوبكم في حال غير موطناة للإيمان، وكلمة ما في «ولما» فيها معنى التوقع مشعر بأن هؤلاء يؤمنون فيما بعد.

[وإن تطيعوا الله ورسوله] بالإخلاص وترك النفاق [لا يلبتكم من أعمالكم شيئاً] أي لا ينقصكم من أعمالكم وأجورها وفي مادة «لا يلبتكم» أقوال: يقال: من أأله السلطان حقته أشد الألت وهي لغة غطفان وأهل الحجاز وبنو أسد يقولون: من لآله لبتاً وقرىء

بالقرآن في اللغتين لا يلتكم ولا يالتكم هكذا قال الزمخشري : قال رؤية :
وليلة ذات ندى سربت * ولم يلتني عن هواها ليت
الأتني عن حاجتي أي صرفني عنها وقرأ لا يالتكم في الآية وحجته قوله تعالى : وما
آلتناهم ، ومن قرأ يالتكم جعل مادة الكلمة من لات يليت .
[إن الله غفور] لما فرط من المطيعين [رحيم] بالتفضل عليهم .

قوله تعالى : انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا
وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون (١٥) قل
اتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله
بكل شيء عليم (١٦) يمتنون عليك أن اسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله
يمن عليكم ان هداكم للإيمان ان كنتم صادقين (١٧) ان الله يعلم غيب السموات
والأرض والله بصير بما يعلمون (١٨) .

أي إن المؤمنين الذين ثبتوا على الإيمان ولم يقع في نفوسهم شك و ترديد فيما
آمنوا به وفيه إشارة إلى أن فيهم ما يوجب نفي الإيمان عنهم وهو الارتياب مطاوع راب
إذا أوقعه المريب في الشك في الخبر مع التهمة للمخبر فظهر الفرق بهذا بين المريب والشك
فإن الشك تردد بين نقيضين لاثمة فيه ، وفي كلمة « ثم » إشعار بأن اشتراط عدم الارتياب
في اعتبار الإيمان ليس في حال إنشائه فقط بل وفيما يستقبل كما في قوله : « ثم »
استقاموا .

قوله : [وجاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله] في طاعتهم على تكثير فنونها من
العبادات البدنية المحضة و المالية و المشتمة عليهما معاً كالجهاد والأمر بالمعروف
[أولئك] الموصوفون بهذه الأوصاف الجميلة [هم الصادقون] في دعوى الإيمان لا غيرهم
و في البيان قصر أفراد و تكذيب لأعراب بني أسد ولما نزلت الآية اتان أموا رسول الله يحلفون
أنهم مؤمنون صادقون في دعواهم الإيمان فأنزل الله تعالى .

[قل] يا محمد : [أتعلمون الله بدينكم] أي أتخبرون الله بالدين الذي أتم عليه وهو
عالم بذلك وهو استغفهم توبيخ أي كيف تعلمون الله بدينكم ؟ [والله يعلم ما في السموات وما

في الأرض والله بكل شيء عليم [لأنه العالم لنفسه ولا يحتاج إلى علم يعلم به كما أنه إذا كان قديماً موجوداً في الأزل لنفسه استغنى عن موجد أو جده .

قوله تعالى : [يمتنون عليك أن أسلموا] يجعلون المنّة عليك بإسلامهم [قل] يا أيّها [لا تمتنوا عليّ] إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان [وأرشدكم إليه بأن أزاح الغل و نصب لكم الأدلة عليه و وفقكم له [إن كنتم صادقين] في ادّعاءكم الإيمان .

[إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما يعملون] من طاعة و معصية وإيمان و كفر . تمت السورة .

قال النبي رسول الله ﷺ : فضّلني ربّي بالمفصل من القرآن والمفصل ما هو بعد الحواميم إلى آخر القرآن وسميت مفصلاً لكثرة المفصلات فيها بسطر « بسم الله الرحمن الرحيم » لأنّها سور قصار يقرب فصل كلّ سورة من الأخرى فكثرت التفصيل فيها . و أوّل من نقل الخطّ الكوفي إلى الخطّ المعروف بالنسخ عليّ بن مقلة وزير المقتدر بالله والقادر بالله العباسي ثمّ جاء ابن البواب وزاد في تحسين الخطّ النسخ وهدّب طريقة ابن مقلة وكساها بهجّة وحسنات ثمّ ياقوت المستعصي المعروف وختم فنّ الخطّ وأكمله بحيث لا مزيد عليه إلى الآن .

قيل : أوّل من تكلم بالعربيّة أو خطّ بالعربيّة يعرب بن قحطان

وكان يتكلم بالعربيّة والسريانيّة . وقيل :

إسماعيل بن إبراهيم الخليل



سورة ق

السورة مكيّة غير قوله : « ولقد خلقنا السماوات والأرض » إلى قوله : « وقبل الغروب » . من قرأ سورة ق هوّن الله سكرات الموت .

عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : ومن أدام في فرائضه ونوافله وسّع الله رزقه وأعطاه كتابه بيمينه وحاسبه حساباً يسيراً . لما ختم الله تلك السورة بذكر الإيمان وشرائطه للعبيد افتتح هذه السورة بذكر ما يجب الإيمان به من القرآن وأدلة التوحيد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق والقرآن المجيد (١) بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب (٢) اذ امتنا وكنا ترابا ذلك رجع بهيد (٣) قد علمنا ما تنقص الارض منهم و عندنا كتاب حفيظ (٤) بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في امر مريج (٥) .

[ق] أي هذه السورة مسمّاة بق ، قال ابن عباس : هو اسم من أسماء الله . وقال محمد بن كعب : هو مفتاح بعض أسماء الله مثل القادر والقدير والقديم والفاخر والقريب والفاض والقاضي والقُدوس والقيّوم فيكون التأويل : أنا القادر . وقيل : ق اسم من أسماء القرآن . وقيل : قسم أقسم الله به أي بحق القائم . وقيل : معناه قل يا محمد : والقرآن المجيد . وقيل : المعنى كف يا محمد على أداء الرسالة و عند أمرنا و نهينا والعرب تقتصر من كلمة على حرف مثل قول الشاعر : « قلت لها : فني ، فقالت : ق » أي وقفت . وقيل : معناه قضي الأمر وما هو كائن .

و قيل : المراد بحق الفلم الذي برقم القرآن في اللوح المحفوظ و في الصفائح . قال ابن عطا : أقسم سبحانه بقوة قلب حبيبه حيث تحمّل الخطاب ولم يؤثر ذلك فيه لعلو مقامه بخلاف موسى فإنه خرّ صعقاً في الطور من سطوة تجلّي النور .

وقيل : ق جبل محيط بالأرض كحاطة العين بسوادها وهو أعظم جبال الدنيا خلقه الله من زمردة خضراء منه خضرة السماء والسماء ملتزقة به فليست مدينة من المدائن و قرية من القرى إلا وفيها عرق من عروقه وملك موكل به واضع يده على تلك العروق فإذا أراد بقوم هلاكاً أوحى إلى ذلك الملك فحرّك عرقاً فخرس أهلها . قال أبي بن كعب الزلزلة لا تخرج إلا من ثلاثة إمّا لنظر الله بالهيبه إلى الأرض و إمّا لكثرة الذنوب من بني آدم

و إما لتحريك الحوت الذي عليه الأرضون السبع تأديباً و تنبيهاً للخلق . قيل : قال ذوالقرنين : يا قاف أخبرني بشيء من عظمة الله فقال : إن شأن ربنا لعظيم وإن من ورائي مسيرة خمسمائة عام من جبال تلج يحطم بعضها بعضاً لولا ذلك لاحترفت من نار جهنم . قيل : لما خلق الأرض على الماء تحركت و مالت فخلق الله من الأبخرة الغليظة الصاعدة من الأرض بسبب هيجانها الجبال حتى تسكن فسكن ميل الأرض و ذهبت تلك الحركة و طوى سبحانه الأرض بجبل محيط بها و هو من صخرة خضراء و طوى الجبل بحية عظيمة رأسها بذنبها .

و في الخبر إن لفاف في السماء سبع شعب لكل سماء شعبة منها فالسماوات السبع مقببة على شعبه و خلق الله ستة جبال من وراء قاف و قاف سابعها و هي مودة بأطراف الأرض على الصخرة و قاف و راءها على الهواء و كذلك بحر محيط بجبل قاف و حوله جبل قاف آخر و السماء الثانية مقببة عليه و كذلك من وراء ذلك بحار محدقات بجبل قاف على عدد السماوات السبع وإن كل سماء منها مقببة عليه وإن في هذه البحار و في سواحلها و بينها المحدثه بهاملائكة لا يحصى عددهم إلا الله و يعبدون الله حق عبادته و ما وراء جبل قاف فهو من حكم الآخرة لا من حكم الدنيا .

قال بعض المفسرين : إن لله سبحانه من وراء جبل قاف أرضاً بيضاء كالفضة المجلاة طولها مسيرة أربعين يوماً للشمس و يسير الشمس في طرفه عين مسافة ثلاثمائة وستون ضعف وجه الأرض و في كل هذه الأمكنة المذكورة ملائكة شاخصون إلى العرش لا يعرف الملك منهم من يكون إلى جانبه من الملك من هبة الله تعالى ولا يعرفون ما آدم و ما إبليس هكذا حالهم إلى يوم القيامة و يوم القيامة تبدل أرضنا هذه بتلك الأرض . روي أن الله تعالى خلق ثمانية آلاف عالم الدنيا منها عالم واحد وإن الله تعالى خلق في الأرض ألف أمة سوى الجن والإنس ستمائة في البحر و أربعمائة في البر و كل مستفيض منه تعالى جل جلاله .

رجعنا إلى التفسير ؛ جواب القسم في قوله : « ق والقرآن المجيد » محذوف و يدل عليه « أنذا متنا وكنا تراباً » وتقديره : إنكم مبعوثون فقالوا : أنبعث إذا متنا و صرنا

تراباً وقيل: جواب القسم محذوف لكن تقديره والقرآن الكريم المعظم الذي هو ذوالشرف الواسع إن تمحداً رسول الله ويدل على هذا المحذوف قوله :

[بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم] وحسبوا أنه لا يوحى إلا إلى ملك ويعجبون أن جاءهم من جنسهم منذر وحاصل المعنى أنه أقسم بجبل قاف الذي به بقاء دنياكم وبالقرآن المجيد الذي به بقاء دينكم أن فراغة قريش ما كذبوك ببرهان بل عجبوا لهذا الأمر أنك منهم وأنهم يحيون بعد البعث .

[فقال الكافرون هذا شيء عجيب] والحالة أن إنكارهم لنبوته ﷺ عجيب لأنهم من فرط جهلهم عجبوا أن يكون الرسول بشراً وأوجبوا أن يكون الإله حجراً .

[أنذا متنا وكنا تراباً] أي أحيين نموت فتفارق أرواحنا أشباحنا ونصير تراباً لافرق بيننا وبين تراب الأرض نرجع ونبعث كما ينطق به النذير والهمزة للإنكار أي لا نرجع [ذلك] إشارة إلى محل النزاع أي هذا الخبر [رجع] ورد [بعيد] جداً عن الأوهام والصدق وغير كائن .

[قد علمنا ما تنقص الأرض منهم] رد لاستبعادهم أي نحن على رجوعهم في غاية القدرة فإن من علم علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى و تأكل من لحومهم وعظامهم كيف يستبعد رجوع إيتاهم أحياء وعبر بمن لأن الأرض لا تأكل كل على ما قيل عجب الذنب فإنه كالبنذر لأجسام بني آدم وفي الحديث كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب فمنه خلق وفيه تركيب والعجب بفتح العين وسكون الجيم أصل الذنب ومؤخر كل شيء وهو ههنا عظم لاجوف له قدر ذرة أو خردلة يبقى من البدن ولا يبلى .

وقال الرقائبي: المراد من العجب جوهر فرد وجزء واحد وهو صورة هيولى النفس الحيوانية القابلة لأجزاء العناصر فإذا أراد الله إعادة ركب على ذلك العظم سائر البدن وأحياء غير أبدان الأنبياء والصدّيقين والشهداء فإنها لا تبلى على ما نص به الأخبار الصحيحة وحفظ ما تنقص الأرض إنما هو ليعود بعينه يوم القيامة ولو كانت غيرها فكيف كان تشهد الجلود والأيدي والأرجل على الكفرة ومن قال غيرها فقد خالف كتاب الله والحديث .

قال أهل الكلام : إن الله يجمع الأجزاء الأصلية التي حصل وجود الإنسان معها حال التولد وهي العناصر الأربعة ويعيد روحه إليه سواء سمي ذلك الجمع إعادة المعلوم بعينه أو لم يسم .

فإن قيل : إن البدن الثاني ليس هو الأول لما ورد في الحديث من أن أهل الجنة جرد مرد وإن الجهنمي ضرسه مثل جبل أحد فيلزم التناسخ وهو تعلق الروح ببدن إنسان آخر وهو باطل .

قلنا : إنما يلزم إن لم يكن البدن الثاني مخلوقاً من الأجزاء الأصلية للبدن الأول فلا يلزم التناسخ جداً والتغاير في الوصف لا يوجب التغاير في الذات كما أن الخضر عليه السلام يصير شاباً على كل مائة وعشرين سنة مع أن البدن هو البدن الأول قال ابن عباس : إن إبليس إذا مرت عليه الدهور وحصل له الهرم عاد إلى ثلاثين سنة .

قوله تعالى : [وعندنا كتاب حفيظ] أي حافظ لعددهم وأسمائهم وأشخاصهم وهو اللوح المحفوظ لا يشذ عنه ومحفوظ من النسيان والدروس .

ثم أخبر سبحانه بتكذيبهم فقال : [بل كذبوا بالحق] وهو القرآن أو الرسول [فهم في أمر مرجح] أي مختلط لأنهم كانوا يقولون مجنون وتارة قالوا شاعر وتحيروا في أمره لجهلهم ولم يثبتوا على أمر واحد وكذلك في القرآن تارة قالوا إنه سحر ورجز و مرة قالوا مفترى قال الحسن : ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم واختلط .

قوله تعالى : أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها و مالها من فروج (٦) والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج (٧) تبصرة وذكرى لكل عبد منيب (٨) و نزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد (٩) والنخل باسقات لها طلع نضيد (١٠) رزقاً للعباد واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخرج (١١) .

ثم أقام سبحانه الدلائل على كونه قادراً على البعث أي أفلم يتفكروا في بناء السماء مع عظمها [كيف بنيناها] بغير علاقة ولا عماد [فوقهم] بحيث يشاهدونها متى ما نظروا [وزينناها] بما فيها من الكواكب على نظام بديع [و مالها من فروج] وشقوق و

اختلاف وصدوع حتى يختلف النظم .

والفرجة بضم الفاء معناها الشق والصدع بالفتح التفصي من الهم قال الشاعر :
ربما تكره النفوس من الأ * مرله فرجة كحل العقل
واستعير الفرغ للشعر وفي عهد الحجاج أنى وليتك الفرجين يعني الخراسان و
سيستان والمراد موضع المخافة والمراد من قوله : « مالها من فروج » سلامتها من العيب
للاستتار وهذا لا ينافي وجود الأبواب والمصاعد وسمي القباء المشقوق فرجاً .
[والأرض مددناها] أبسطناها وفرشناها على وجه الماء مسيرة خمسمائة عام من
الكعبة وهذا دليل على أن الأرض مبسوطة وليست على شكل الكرة ولو أنه يمكن لأنة
لانفاة بين بساطتها وكرويتها لسعتها .

[وألقينا فيها رواسي] أي جبلاً راسيات في الأرض ثوابت إذ لو لم تكن لكنت
مضطربة مائلة إلى الجهات المختلفة كما كانت قبل إذروي أن الله لما خلق الأرض جعلت
تمور فقالت الملائكة : ماهي بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر
الملائكة مم خلقت والتعبير عن الجبال بالإرساء للإيدان بأن إلقاءها لإثبات الأرض بهاو
التأويل إلى رجال الله فأنهم أوتاد الأرض والعمد المعنونة للسماء فإذا انقضوا ولم يوجد
في الأرض من يقول : الله الله فسدت السماوات والأرض .

[وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج] أي من كل صنف من النباتات ماهو حسن طيب
من الثمار والأشجار والبهجة حسن اللون وظهور السرور فيه .
[تبصرة وذكرى] علمتان للأفعال المذكورة معنى أي فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً
[لكل عبد منيب] راجع إلى ربه بالنظر والاستدلال في بدائع صنائعه و التبصرة
معرفة من الله على العبد و الذكري عدها على نفسه في كل حال ليشغل بالشكر ولا
يذهل عنه .

[ونزلنا من السماء ماء مباركاً] أي كثير البركة والدوام والمنافع لحياة الأناسي
والحيوان وغيرها [فأنبتنا به] بذلك الماء [جنات] كثيرة أي أشجار ذوات أثمار فذكر
المحل وأراد الحال [وحب الحصيد] و الحصيد المحصود بحذف الموصول نحو مسجد

الجامع لئلا يلزم إضافة الشيء إلى نفسه والمعنى وحبّ الزرع الذي شأنه أن يحصد من البرّ والشعير وأمثالهما مما يقتات به .

[والنخل باسقات لها طلع نضيد] أي طوالاً ومنه سبق فلان على أصحابه علاهم ويجوز أن يكون معناه حوامل من قولهم أبسقت الشاة إذا حملت فيكون من باب أفعل فهو فاعل « لها طلع نضيد » أي منضود بعضه فوق بعض و الطلع ما يطلع من النخلة وهو الكمّ قبل أن ينشق وما في الطلع شيء أبيض يشبهون الشعراء الأسنان به و رايحته كالنبيّ وفشر كل ثمرة وغلافه يسمى الكفريّ بضم الكاف والفاء وتشديد الراء [رزقاً للعباد] أي لرزقهم .

[وأحيينا به] بذلك الماء [بلدة ميتاً] وتذكير ميتاً باعتبار البلد والمكان أي أرضاً جدبة لانماء فيها [كذلك الخروج] أي مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور وحاصل المعنى كما أنزلنا من السماء الماء فأخرجنا به النبات من الأرض وأحيينا البلدة الميتة رزقاً للعباد يكون خروجكم .

العبّاشي عن الصادق عليه السلام قال : أمرني الله أعطى من أعطى من كرامته عليه ومنع من منع من هو ان به عليه لا ولكن المال مال الله يضعه عند الرجل ودائع وجوزلهم أن يأكلوا قصداً ويشربوا قصداً ويلبسوا قصداً وينكحوا قصداً ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ويلمّوا به شعثهم فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالاً وينكح ويركب حلالاً ومن عدا ذلك كان عليه حراماً ثم تلا « ولا تسرفوا إن الله لا يحبّ المسرفين » أمرني الله ائتمن رجلاً على مال خوّل له أن يشتري فرساً بعشرة آلاف و يجزيه فرس بمائة درهم و يشتري جارية بألف دينار و يجزيه جارية بعشرين ديناراً « ولا تسرفوا إن الله لا يحبّ المسرفين » .

قوله تعالى: كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود (١٣) وعاد وفرعون وإخوان لوط (١٤) وأصحاب الأيكة وقوم تبع وكل كذب الرسل فحق وعيد (١٤) أفعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد (١٥) ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد (١٦) اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد (١٧) ما يلفظ من قول الا لديه

رقيب عتيد (١٨) وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد (١٩)
ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد (٢٠).

ذكر سبحانه الأمم المكذبة تسلياً للنبي ﷺ وتهديداً للكفار فقال :
[كذب قبلهم] أي قبل أهل مكة [قوم نوح] وكانوا بنو شيث و بنو قابيل
[وأصحاب الرس] أيضاً كذبوا .

قيل : كانت الرس بئراً بعدن لأمة من بقايا ثمود و كان لهم ملك عادل حسن السيرة
يقال له العليس - كزيير - وكانت البئر تسقي المدينة كلها وباريتها وجميع ما فيها من الدواب
والغنم والبقر وغير ذلك وكانت لها بكراة كثيرة منصوبة عليها ورجال كثيرون موكلون بها
وحياض كثيرة تعالاً للناس و آخر للدواب و آخر للغنم والبقر وكذلك ولم يكن لهم ماء
غيره فطال عمر الملك فلما جاءه الموت طلي جسده بدهن ليبقى صورته ولا تتغير وكذلك
كانوا يفعلون بالشرفاء .

و بعد أن مات الملك شق ذلك عليهم و رأوا أن أمرهم قد فسد و ضجوا بالبكاء
واغتنمها الشيطان فدخل في جثة الملك فكلمهم بأنني لم أمت ولكنني نفيت عنكم حتى
أرى صنيعكم يعدي ففرحوا و أمر لخاصته أن يضربوا له حجاباً بينه و بينهم و يكلمهم
الشيطان من ورائه كيلا يعرف الموت في صورته فذنبوه صنماً من وراء حجاب لا يأكل ولا
يشرب و أخبرهم أنه لا يموت أبداً وأنه إله لهم وذلك كله تتكلم به الشيطان على لسانه
فصدق كثير منهم وارتاب بعضهم و كان المؤمن المكذب منهم أقل من المصدق و اتفقوا
على عبادته .

فبعث الله لهم نبياً كان الوحي ينزل عليه في النوم دون اليقظة و كان اسمه حنظلة
ابن صفوان فأعلمهم أن الصورة صنم لا روح له و أن الشيطان فيه و أن الملك لا يجوز
أن يكون شريكاً لله و أوعدهم و نصحهم و حذرهم سطوة ربهم فعادوه و آذوه و هو يتعهدهم
بالموعظة و النصيحة حتى قتلوه و طرحوه في البئر و عند ذلك حلت لهم النعمة فباتوا شباعاً
رواء و أصبحوا و البئر قد غار ماؤها و تعطل رشاؤها فصاحوا بأجمعهم و ضجت البهائم عطشاً
حتى عمى الموت و خلفهم في أرضهم السباع و الثعالب و الضباع و تبدلت جناتهم

بالسدر والشوك فلا تسمع فيها إلا عزيف الجن وهو جرس يسمع في المفاوز بالليل .
وقيل : الرس بشر قرب اليعامة أو بشر قرب آذربايجان أو واد نعوذ بالله من سطواته
قال الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا خاصة » (١) .

قوله : [واثمود] أي وقوم ثمود كان نبيهم صالح وهو ثمود بن عاد وهو الآخرة وعاد
الأولى هو عاد الإرم [وعاد] أي قوم عاد وكان نبيهم هود عليه السلام [وفرعون] وهو فرعون
موسى [وإخوان لوط] لاشتراكهم معه في النسب بالمصاهرة وغيرها لا في الدين . قيل :
ما من أحد من الأنبياء إلا ويقوم معه قومه إلا لوط يقوم وحده [وأصحاب الأيكة] وهم
من بعث إليهم شعيب غير أهل مدين وكانوا يسكنون أيكة غيضة تنبت المقل والسدر
والأراك [وقوم تبع] الحميري ملك اليمن .

[كل كذب الرسل] أي فيما أرساؤ به من الشرائع أي كل هؤلاء كذبوا رسلهم
ورد جميع الرسل لاتفاق الرسل على التوحيد والمحشر هؤلاء أشركوا وكذبوا البعث
فكذبوا جميع الرسل ولو أن يكذبوا رسولا واحدا [فحق وعيد] أي فوجب عليهم وعيد
وهي كلمة العذاب والوعيد يستعمل في الشر خاصة والوعد في الخير والشر .

[أفعيينا بالخلق الأول] أي بالأمر العجز عنه والهمزة للإنكار والمعنى أفعجزنا
عن الخلق الأول وهو الإبداء والإنشاء أو مرة حتى يتوهّم عجزنا عن الخلق الثاني
وهو الإعادة وما اعتاض لنا خلقه بالأول حتى نعني بإعادتهم بعثهم أي ليس كذلك مثل
ما يزعمون [بل هم في لبس من خلق جديد] أي بل هم في ضلال وشك من إعادة الخلق جديداً
واللبس منع من إدراك المعنى بما هو كالستر له وخلق جديد إشارة إلى النشأة الثانية وقبول
الجديد بالخلق لما كان المقصود بالجديد القريب العهد بالقطع من الثوب .

[ولقد خلقنا الإنسان] يعني نوع بني آدم [ونعلم ما توسوس به نفسه] أي ما
يحدث به قلبه ويكن في نفسه ولا يظهره لأحد من المخلوقين [ونحن أقرب إليه] بالعلم
[من حبل الوريد] وهو عرق يتفرق في البدن يخالط الإنسان في جميع أعضائه . وقيل :
هو عرق الحلق أو هو عرق متعلق بالقلب أي نحن أقرب إليه من قلبه بمنزلة ذلك العرق

في قربه للشخص وفي ذلك العرق مجاري الروح .

[إذ يتلقى المتلقيان] التلقي الأخذ و التلقن بالحفظ والكتابة أي يأخذ الحفيظان الموكلان بالإنسان ما يتلفظ به وفي الحديث أن مقعد ملكك على ثنيتك ولسانك قلمهما وريقك مدادهما وأنت تجري فيما لا يعينك لا تستحيي من الله ولا منهما [عن اليمين] هو أشرف الجوارح وفيه القوة التامة [وعن الشمال] هو مقابل اليمين أي عن جانب اليمين [قعيد] أي قاعد فحذف الألف لدلالة الثاني عليه وقيل : يطلق الفعيل على الواحد والمتعد كقوله : « والملائكة بعد ذلك ظهير » .

[ما يلفظ من قول] ما يرى به من فيه من خير أو شر والقول أعم من الكلمة والكلام [إلا لديه رقيب] ملك يرقب قوله ويكتبه والخير يكتبه صاحب اليمين والشر صاحب الشمال وهو [عتيد] أي مهيباً لكتابة ما أمر به وهذا التهيؤ لكليهما والافراد حيث لم يقل رقيباً عتيدان مع وقوفهما معاً لما أن كلاهما رقيب لما فوض إليه لا لما فوض إلى صاحبه .

واختلف فيما يكتبانه ف قيل : يكتبان كل شيء حتى أئنه في مرضه . وقيل : إنما يكتبان ما فيه أجر و وزر وهو الأظهر كما ينبى عنه قوله : كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات آمر على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عسراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر .

وإن الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه وعند جماعه و لذكر الكلام في الجماع وعند قضاء الحاجة أشد كراهة لأن الحفظة تنأذى من الحضور في ذلك الموضع الكريه لأجل كتابة الكلام ولذا يحمد الله بقلبه عند العطاس في بيت الخلاه وكذا الضحك في هذه الحالة .

في هذه الحديث أن ملائكة الليل وملائكة النهار يصلون معكم العصر فيصعد ملائكة النهار وتمكث ملائكة الليل فإذا كان الفجر نزل ملائكة النهار و يصلون الصبح فيصعد ملائكة الليل وتمكث ملائكة النهار وما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله

في أول الصحيفة خيراً وفي آخرها خيراً إلا قال ملائكتك : اشهدوا أنني غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة وفي الحديث نظفوا لثائمكم فأمر بتنظيفها لئلا يبقى وضر الطعام فتتغير النكهة ويتأذى الملكان الحافظان لأنه طريق القرآن ومقعد الملكين عند نايبه .
وعن مجاهد قال : أبطأ جبرئيل على النبي ﷺ ثم أتاه فقال ﷺ : له ما حبسك يا جبرئيل ؟ قال : وكيف آتني وأمتك لا يقصون أنظفارهم ولا يأخذون من شواربهم ولا ينقو براجمهم ولا يستأكون و البرجة بضمي الباء والجيم وسكون الراء وهو ظهر عقدة كل مفصل من قصبة الأصابع فظهر العقدة يسمى ببرجة وما بين العقدتين يسمى راجبة فلكل إصبع برجتان وثلاث رواجب إلا الإبهام فإنه له برجة وراجتين فأمر بتنقيته لئلا يدرن فيبقى فيه الجنابة ويحول الدرن بين الماء والبشرة والجنب لا يقربه الملائكة إلى أن يتطهر .

قوله تعالى : [وجاءت سكرة الموت بالحق] السكرة استعارة لشدة الموت وعمرته الذاهبة بالعقل وعبر عن وقوعها بالماضي إيداناً بتحقيقها وغاية اقترانها حتى كأنها قد أمت وحضرت كما قيل : قد أتماكم الجيش بالحق ، أي بأمر الله الذي هو حق وواقع لا محالة .

[ذلك ما كنت منه تحيد] أي يقال له : يا إنسان ، ذلك ، أي ذلك الموت الذي كنت منه تحيد وتهرب وتميل و كنت تفر منه . وقيل : إن نفس المؤمن المطيع تنسل انسلاال القطرة من السقاء وينزل عند الموت أربعة من الملائكة ملك يجذب النفس من قدمه اليمنى وملك يجذبها من قدمه اليسرى وملك يجذبها من يده اليمنى وملك يجذبها من يده اليسرى فيجذبونها أطراف البنان ورؤوس الأصابع وأما الفاجر فينسل روحه كالسفود من الصوف المبلول وهو يظن أن بطنه ملئت شوكة وكان نفسه يخرج من ثقب إبرة وكان السماء انطبقت على الأرض وهو بينهما .

فإن قيل : إن المحتضر مع هذه الشدة لم لا يصيح كما يصيح من به ألم من الضرب وغيره ؟

لأنه إنما يستغيث و يصيح المضروب لبقاء قوته في قلبه وجوارحه و لسانه لكن

ينقطع صوت المحتضر من الشدة لأن الكرب قد بولغ فيه وغلب على كل موضع من جسده فهو كل قوة وأضعف كل جارحة ولم يترك له قوة الاستغاثة وربما كشف للميت عن الأمر المملوئي قبل أن يغفر فعابن الملائكة على صور هي حقايق أعماله فإن كانت أعماله حسنة براهم على صورة حسنة وإن كانت سيئة فعلى صورة قبيحة فذلك الذي يشخص بصره وقد تظهر صفات قبح الأعمال عند الموت فالمغتاب تقرض شفاهه بمقاريض من نار والسامع للغيبة يسلك في أذنيه نارواً كل الحرام يقدم له الزقوم كذلك إلى آخر أعمال العبد .

قوله تعالى : [و نفخ في الصور] وهي نفخة الثانية نفخة البعث والنافخ إسرافيل وقد سبق الكلام في معنى الصور [ذلك] أي ذلك النفخ [يوم الوعيد] أي يوم إنجاز الوعيد الواقع في الدنيا عبارة عن العذاب الموعود به وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنه يوم الوعد أيضاً لبيان التهديد والتهويل .

قوله تعالى : كل نفس معها سائق وشهيد (٢١) لقد كنت في غفلة من هذا فمكشفاً عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (٢٢) وقال قرينه هذا ما لدى عتيد (٢٣) ألقيا في جهنم كل كفار عنيد (٢٤) مناع للخير معتدي (٢٥) الذي جعل مع الله آلهة آخر فالقياه في العذاب الشديد (٢٦) قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد (٢٧) قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد (٢٨) ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد (٢٩) يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد (٣٠) .

[وجاءت كل نفس] من النفوس البرّة والفاجرة [معها سائق وشهيد] وبخلاف كيفية السوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملاً أي مع كل نفس ملكان أحدهما يسوقه إلى المحشر والآخر يشهد بعمله خيراً أو شراً ويمكن أن يسوق سائق الكافر إلى النار والشهيد يشهد بمعصيته ويسوق المؤمن إلى الجنة ويشهد الشهيد بطاعته .

[لقد كنت في غفلة من هذا] الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمر أو سهو يعتري من قلة التحفظ والتيقظ أي يقال له : أيها الشخص لقد كنت في الدنيا في غفلة وزهول من هذا اليوم وغوائله والخطاب للكافر .

[فكشفنا] أي أزلنا [عنك غطاءك] الذي كان على بصرك بسبب الغفلة والجهل وقيل : المراد من الغطاء القبر أي أخرجناك منه [فبصرك اليوم حديد] و نافذ تبصر ما كنت تنكره وتستبعده في الدنيا فأت حينئذ حديد البصر والبصيرة والإنسان وإن خلق من عالمي الغيب والشهادة فالغالب عليه في البداية والشهادة وهي العالم الحسي فيرى بالحواس الظاهرة العالم المحسوس وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب فمن الناس من يكشف الله غطاءه عن بصر بصيرته فيجعل بصره حديداً يبصر رشده وذلك بسبب إطاعته وقبوله الحق ومنهم من يكشف بصر بصيرته يوم القيامة وهم الكفار .

[وقال قرينه] يعني الملك الشهيد عليه وهو المروي عن الباقر والصادق عليه السلام وقيل : المراد من القرين الشيطان الذي قبض له وقيل من الإنس [هذا ما لدي عتيد] فلو كان المراد الملك الشهيد فالمعنى هذا حسابه حاضر لدي في هذا الكتاب أي يقول لربه : كنت وكلفتني به فما كتبت به من عمله حاضر عندي وإن المراد به الشيطان أو القرين من الإنس فالمعنى هذا العذاب حاضر عندي معد بسبب سيئاته .

[ألقيا في جهنم كل كفار عنيد] هذا خطاب للملكين الموكلين به وهما السائق والشهيد وبحذف الإسناد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : إذا كان يوم القيامة يقول الله لي ولعلي : ألقيا في النار من أبغضكما وأدخلا الجنة من أحبكما وذلك قوله : « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد » والعنيد الذاهب عن الحق ومعاند له والعناد أقبح الكفر والعنيد المعجب بما عنده ويميل عن الحق ويرده وهو عارف به قيل : مشتق من العند وهو عظم يعترض في الحلق .

[مناع للخير] الذي أمراه به من بذل المال في وجوهه [معتد مريب] ظالم معتد حدود الله ذوريب وشاك أو شاك في الله وفيما جاء من عنده قيل : الآية نزلت في الوليد بن المغيرة حين استشاره بنو أخيه في الإسلام فمنعهم فيكون المراد بالخير الإسلام .

[الذي جعل مع الله إلهاً آخر] من الأصنام والأوثان وغيرها [فالقياء في العذاب الشديد] هذا تأكيد للأول فكأنه يقول سبحانه : أفعلا ما أمرتكما به فإنه مستحق لذلك ومن طريق العامة دليل ورد أيضاً من طريق الخاصة بينما الناس في الحساب إذ

بعث الله عنقاً من النار يتكلم فيقول : ائتوني بثلاثة : بمن دعا مع الله إلهاً آخر و بمن قتل نفساً بغير حق و بجبار عنيد فيلقطهم من الناس كما يلقط الطير الحب الجيد ثم يصيرهم في نار جهنم .

وأيضاً بهذا الطريق في الحديث يخرج عنق من النار قبل الحساب والناس وقوف قد ألجمهم العرق وتصدت القلوب لهول المطلع فإذا أشرف على الخلاق له عينان و لسان فصيح يقول : يا أهل الموقف إني و كُلت منكم بثلاثة وذلك ثلاث مرات إني و كُلت بكل جبار عنيد فتلقطهم من بين الصفوف كما تلقط الطير حب السمسم فإذا لم يترك أحداً في الموقف نادى نداءً ثانياً يا أهل الموقف إني و كُلت بمن أذى الله ورسوله فيلقطهم كذلك فإذا لم يترك أحداً منهم نادى ثالثاً يا أهل الموقف إني و كُلت بمن ذهب يخلق كخلق الله و هم الذين يصورون الكنائس لتعبد تلك الصور و الذين يصورون الأصنام و ينحتون الأحجار و الأخشاب ليعبدوها من دون الله فيلقطهم من بين الصفوف كما يلقط الطائر حب السمسم فإذا أخذهم الله عن آخرهم و بقي الناس و فيهم المصورون الذين لا يقصدون بتصويرهم عبادتها حتى يسألوا عنها لينفخوا فيها أرواحاً تحيا بها وليسوا بنافخين فيقفون ما شاء الله ينتظرون ما يفعل الله بهم والعرق قد ألجمهم .

[وقال قرينه] أي شيطانه الذي أغواء وسمي به قريناً لأنه يقرنه في العذاب أو قرينه السوء من الإنس و هم علماء السوء من المتبوعين [ربنا ما أطغيته] أي ما أضلته أي ما أوقعته في الطغيان باستكراه [ولكن كان في ضلال] من الإيمان [بعيد] وهذا مثل قول الشيطان «وما كان لي عليكم من سلطان»^(١) .

قال الله لهم : [لا تختصموا لدي] ولا يخاصم بعضكم بعضاً عندي [وقد فدت إليكم بالوعيد] في دار التكليف ولم تنزجروا وخالفتكم أمري .

[ما يبدل القول لدي] [إن الذي فدت لكم في دار الدنيا من أني أعاقب من جحدني و كذب رُسلي لا يبدل بغيره ولا يتخلف] [وما أنا بظلام للمبيد] بل هو الظالم لنفسه وإنما قال : «بظلام» على وجه المبالغة ردّاً على من أضاف الظلم إليه ولا أنه لو صدر

عنه تعالى ظلماً جزئياً بالنسبة إلى عدله كثير عظيم .

[يوم نقول لجهنم هل امتلأت] يتعلق يوم بقوله : «ما يبدل القول» الآية، أو متعلق باذكر ذلك اليوم الذي نقول فيه لجهنم هل امتلأت من كثرة ما ألقى فيك من العصاة [وتقول] جهنم : [هل من مزيد] أي تطلب الزيادة . وقيل : معناه الكفاية أي لم يبق مزيد لامتلائها وقيل : طلب الزيادة منها كان قبل دخول جميع أهل النار فيها . ويجوز أن يكون طلب الزيادة على أن يزداد في سعتها وأما الوجه في كلام جهنم فقيل : خرج مخرج المثل مثل قوله :

امتلاً الحوض وقال قطني * مهلاً رويداً قد ملأت بطني

وقيل : يخلق لجهنم آلة الكلام لأن من ينطق الأيدي والأرجل والجلود قادر على أن ينطق جهنم وقيل : إنه خطاب لخزنة جهنم ومعناه ما من مزيد كقوله : «هل من خالق غير الله»^(١) .

و أزلفت الجنة للمتقين غير بعيد (٣١) هذا ما توعدون لكل ابواب حفيظ (٣٢) من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (٣٣) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود (٣٤) لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد (٣٥) و كم اهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيى (٣٦) ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (٣٧) ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام وما مسنا من لغوب (٣٨) فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (٣٩) و من الليل فسبحه وادبار النجوم (٤٠) .

لما أخبر عما أعدّه للكافرين عقبه بذكر ما أعدّه للمتقين فقال :

[وأزلفت الجنة] أي قربت الجنة وأزيلت للذين اتقوا الشرك والمعاصي [غير بعيد] تأكيد لقوله : «أزلفت» أي مكاناً غير بعيد بحيث ينظرون إليها قبل دخولها وتقرب الجنة بأن يسهل للمتقين مسيرهم إليها ويراد بهم الخواص .

وأهل الجنة ثلاثة أصناف : قوم يحشرون إلى الجنة مشاة وهم الذين قال فيهم :

«وسيق الذين اتفقوا ربهم إلى الجنة زمراً»^(١)، وهم عوام المؤمنين . وأما خاص الخاص فهم الذين قال فيهم : «وأزلفت الجنة للمتقين»^(٢) .

[هذا ما وعدون] أي يقال لهم من قبل الله أو على لسان الملائكة عند مشاهدة الجنة [لكل أو آب] بدل من المتقين أي لكل توأب رجاء إلى الطاعة أو لكل مسبح [حفيظ] لما أمر الله به متحفظ من الخروج إلى ما لا يجوز من سيئة .

[من خشي الرحمن بالغيب] الخشية خوف يشوبه تعظيم وقيل : انزعاج القلب عند القلب عند ذكر السيئة أي هو من خاف الله وأطاعه وآمن بشوابه وعقابه ولم يردّه وقيل : المراد من قوله : «بالغيب» أي في الخلوة بحيث لا يراه أحد [وجاء بقلب منيب] أي دام على ذلك بالقلب والاعتقاد إذ لا عبرة للإجابة إلا إذا كان من القلب ومقبل عليه تعالى بالكيفية و معرض عن سواه .

[ادخلوها] يقال لهم : ادخلوا الجنة [بسلام] أي متلبسين بسلامة من العذاب أو بسلام من الله وملائكته [ذلك] إشارة إلى الزمان الممتد الذي وقع في بعض منه ما ذكر أو هذا اليوم يوم خلودكم وتأييدكم في الجنة وخلود الأمر بقاؤه على الحالة التي هو عليها .

[لهم ما يشاءون] من فنون المفردات كائناً ما كان سوى الخبائث فإنهم لا يشاءونها لأن الله يعصم أهل الجنة من شهوة قبيحة مثلاً مثل اللواط وما شابهها [ولدينا مزيد] أي وعندنا زيادة على ما يشاءونه مما لم يخطر ببالهم أو الزيادة على قدر استحقاقهم من الثواب بأعمالهم .

ثم خوف كفار مكة فقال : [وكم أهلكنا قبلهم من قرن] أي كثيراً أهلكنا قبل هؤلاء الكفار من القرون الذين كذبوا رسلهم [هم أشد منهم بطشاً] أي الذين أهلكناهم كانوا أكثر عدداً وعدة ولم يتعذر علينا إهلاكهم و «كم» هنا للتكثير خبرية وقعت مفعول أهلكنا [فانقبوا في البلاد] أي فتحوا المسالك وخرقوا البلاد وقطعوا المفاوز ودوخوا

(١) آل عمران : ١٦٨ .

(٢) الشعراء : ٩٠ .

وأذلّوا وقهروا أهلها و تصرّفوا في أقطارها لشدة بطشهم وسطوتهم [هل من محيص] أي هل كان لهم من محيص عن الموت ومنجأ من العذاب والمحيص المهرب .

[إن في ذلك] أي فيما ذكر في هذا البيان وفي هذه السورة [لذكرى] لذكورة وعظة [لمن كان له قلب] سليم يدرك به ما يضره وما ينفعه وله علم وفهم وعقل [أو ألقى السمع وهو شهيد] أي ألقى سمعه إلى ما يتلى عليه من الوحي ولكن بشرط أن يكون الملقى حاضر الذهن وكلمة «أو» لتقسيم المتفكر إلى الفقيه والمتعلم .

[ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب] والمراد من «ما بينهما» من أصناف المخلوقات في ستة أيام ولو شاء لكان خلقها في أقل من ملح البصر ولكنه تعالى من لنا الثاني بذلك فإن العجلة من الشيطان إلا في ستة مواضع: أداء الصلاة إذا دخل الوقت ، ودفن الميت ، وتزويج البكر إذا أدركت ، وقضاء الدين إذا وجب وحل ، وإطعام الضيف إذا نزل وتعجيل التوبة إذا أذنب .

[وما مسنا من لغوب] اللغوب التعب أي ما أصابنا من هذه الخلقة العظيمة نصب وتعبد وعي .

[فاصبر على ما يقولون] أي ما يقوله المشركون في شأن البعث وإنكارهم فإن من فعل هذه الأفاعيل قادر على بعثهم وفي الآية إشارة إلى تربية النفوس بالصبر على ما يقول الجاهل من كل نوع من المكروهات وبيان طريق تزكيتها من الصفات المذمومة بملازمة الذكر والتسبيحات والتحميدات بقوله :

[وسبح بحمد ربك] أي فنزّهه عن جميع ما لا ينبغي في ساحة جلاله [قبل طلوع الشمس وقبل الغروب] وقيل : هما وقت الفجر والظهر والعصر [ومن الليل فسبحه] يعني المغرب والعشاء . وقيل : وسبحه بعض الليل [وأدبار السجود] وأعقاب الصلاة وأواخرها إذا انقضت الركوع والسجود يعبر بهما عن الصلاة لأنهما أعظم أركانها كما يعبر بالوجه عن الذات لأنه أشرف أعضائها فحينئذ المراد التسبيح بعد كل صلاة . وقيل : المراد من أدبار السجود الركعتان قبل الفجر عن علي بن أبي طالب والحسن بن علي عليهما السلام

وجماعة . وقيل : المراد من النوافل بعد المفروضات وقيل : إنه الوتر من آخر الليل روي ذلك عن الصادق عليه السلام .

قوله تعالى : واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب (٤١) يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج (٤٢) أنا نحن نحيي ونميت وإينا المصير (٤٣) يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير (٤٤) نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد (٤٥) .

أي و [استمع] حديث يوم النداء فحذف المضاف . واصغ إلى النداء أي بوقعه و ذلك يوم القيامة والبعث والنشور وهي النفخة الثانية وقيل : إنه ينادي مناد من صخرة بيت المقدس أي بيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة قومي لفصل القضاء وما أعد الله سبحانه عز وجل لكم من الجزاء . وقيل : إن المنادي هو إسرافيل يقول : يا معشر الخلائق قوموا للحساب .

وإنما قال : من مكان قريب ، لأن الخلائق يسمعون كلهم على حد واحد في السماع ولا يخفى على أحد قريب ولا بعيد فكأنهم نودوا من مكان يقرب النداء منهم . أو المكان القريب المراد قربه إلى السماء ، فإن بيت المقدس أقرب من جميع الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً أو عشر أميال .

[يوم يسمعون الصيحة بالحق] بدل من يوم ينادي والصيحة المرة الواحدة من الصوت الشديد أي إنها كائنة لا محالة [ذلك يوم الخروج] ذلك يوم الخروج من القبور وهو من أسماء يوم القيامة .

[إنا نحن نحيي ونميت] أخبر سبحانه عن نفسه أنه هو الذي يحيي الخلق بعد أن كانوا جماداً أمواتاً ومكرير الضمير للتأثير والاختصاص والتفرد [وإينا المصير] للجزاء في الآخرة لا إلى غيرنا فليستعدوا للقائنا .

[يوم تشقق الأرض عنهم سراعا] بحذف إحدى التاءين أي تمصدع عن الناس والأموات ويخرجون من القبور متسرعين إلى إجابة الداعي من غير التفتات إلى يمين وشمال [ذلك حشر] أي هذا الإحياء من القبور بعث وجمع و سوق [علينا يسير] وهيئ

وهو كلام معادل لقول الكفار حيث قالوا : « ذلك رجع بعيد » وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسير به تعالى .

[نحن أعلم بما يقولون] من نفي البعث وتكذيب الآيات وفي الكلام تسليية للنبي ﷺ وتهديد للكفار [وما أنت عليهم بجبار] أي بمسلط تفسرهم على الإيمان وإنما أنت مذكر .

[فذكر بالقرآن من يخاف وعيد] أي عظمهم بمواعظ القرآن من يخاف وعيدي فإنهم المنتفعون به كما قال : « فإن الذكرى تنفع المؤمنين ^(١) » وكما قال : « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ^(٢) » وأهل القرآن أهل الله وخاصته فيرون الحق بالحق ولا يتعظ بمواعظ القرآن إلا الخائفون على إيمانهم بل خائفون على كل من أنفاسهم وإنما يتعظ النفوس القابلة لتذكير القرآن ووعيده .

وكان رسول الله يخطب بسورة ق في كثير من الأوقات لاشتمالها على ذكر الله والثناء عليه وبيان علمه تعالى بما يوسوس به النفوس وما يكتبه الملائكة على الإنسان من طاعة ومعصية وتذكير الموت وسكرته وأحوال القيامة وأهوالها والشهادة على الخلق وأعمالهم وتذكير الجنة والنار والصحة والخروج والمواظبة على الصلاة تمت السورة

(١) الذاريات : ٥٥ .

(٢) يس : ١١ .

سورة الذاريات

﴿مكية﴾

قال أبي بن كعب عن النبي من قرأها في يومه أو ليلته أصلح الله له معيشته وأتماه
برزق واسع ونور له في قبره بسراج يزهر إلى يوم القيامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والذاريات ذروا (١) فالحاملات وقرأ (٢) فالجاريات يسرا (٣) فالملقسات
أمر (٤) ان ماتوا وعدون لصادق (٥) وان الدين لواقع (٦) والسماء ذات الحبك (٧)
انكم لفي قول مختلف (٨) يؤفك عنه من افك (٩) قتل الخراصون (١٠)
الذينهم في غمرة ساهون (١١) يسئلون أيا يوم الدين (١٢) يوم هم على
النار يفتنون (١٣) ذوقوا فتنكم هذا الذي كنتم به تستعجلون (١٤) .

ختم الله سورة ق بالوعيد وافتتح هذه السورة أيضاً بالوعيد روي أن ابن الكواء
سأل أمير المؤمنين علياً وهو يخطب على المنبر فقال : ما الذاريات ؟ قال : الرياح يقال ذرت
الريح التراب إذا طيرته قال ابن الكواء : فما الحاملات وقرأ ؟ قال الْحَامِلَاتُ الْوَحْلَ : السحاب
قال : فما الجاريات يسراً ؟ قال : السفن قال : فالملقسات أمراً ؟ قال : الملائكة .

وقيل : الجاريات هي السحاب تجري يسراً إلى حيث أمر الله إلى البقاع . وقيل :
هي النجوم السبعة السيارة : الشمس والقمر وزحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد
أقسم الله بهذه الأشياء لكثرة منافعها للعباد أو التقدير برب هذه الأشياء .

قال أبو جعفر والصادق عليهما السلام : إنّه لا يجوز لأحد أن يقسم إلا بالله والله سبحانه
يقسم بما يشاء من خلقه والذاريات صفة الرياح وحذفت الموصوفات والتقدير والرياح
الذاريات ذروا روي أنه لو حبس الله الريح عن الأرض ثلاثة أيام ما بقي على وجه الأرض
إلا تن .

وعن أبي أمية قال : قال رسول الله : ليبتين قوم من أمتي على أكل وشرب ولهو
ولعب ثم ليمسخن قردة وخنازير وليصين أقواماً من أمتي خسف وقذف باتخاذهم
القيان وشربهم الخمر وضربهم الدفوف ولبسهم الحرير ولينسفن أحياء من أمتي الريح
كما نسفت عاداً ، والنسف القلع من الشيء من أصله .

ثم ذكر المقسم عليه بعد ذكر المقسم به فقال : [إنما توعدون لصادق] من الثواب والعقاب صدق لابد من كونه اسماً وضع موضع المصدر والعائد محذوف أي إن الذي توعدونه من الجزاء والبعث لذو صدق مثل قولهم : تامر ولا بن [وإن الدين لواقع] أي إن الجزاء على الأعمال حاصل و كائن فإن من قدر على هذه الأفعال البديعة قادر على البعث والجزاء [والسماء ذات الجبك] والجبك جمع جبلك والمعنى الطرائق التي هي مسابر الكواكب ومسالك الملائكة .

فأقسم سبحانه بها وقال : [إنكم] يا أهل مكة [لفي قول مختلف] في شأن القرآن بقولهم : إنه سحر أو شعر واختلاق وأساطير أو إنكم في قول مختلف في حق محمد فبعضكم يقول : شاعر وبعض يقول : ساحر كذاب أو إنكم منكم مكذب به ومنكم مصدق به ومنكم شاك فيه [يؤفك عنه من أفك] ورجل مأفوك مصروف عن الحق إلى الباطل أي يصرف عن القرآن أو الرسول من انصرف بسبب عدم قبول الدلائل ويحرم نفسه من الإيمان وينصرف عن هذه السعادة لجحوده وإنكاره .

[قتل الخراصون] دعاء عليهم كقوله ^(١) : « قتل الإنسان ما أكفره » وجرى هذا الكلام مجرى لعن وقبح ، و الخرس تقدير القول بلا حقيقة ومنه خرس الثمار وكل قول مقول عن ظن وتخمين يقال : خرس من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم بل اعتمد عليه بالتخمين كفعل الخارس في خرصه وكل من قال قولاً على هذا النحو يسمى كاذباً وإن كان قوله مطابقاً للقول المخبر به فالخراصون في الآية المراد الكذابين وتقدير الآية قتل هؤلاء الكذابين .

[الذين هم في غمرة] من الجهل والضلال ، والغمرة معظم الماء أي الجهالة غمرتهم [ساهون] أي غافلون .

[يسألون أيتان يوم الدين] أي متى يوم الجزاء إنكاراً واستهزاء وسؤالهم لا على وجه الاستفهام والاستفادة لمعرفته ، وحذف المضاف أي متى وقوع يوم القيامة فأجيئوا بأن يقع .

[يوم هم على النار يفتنون] والظرف منصوب بفعل مقدر أي يقع يوم هم على النار

يعدّون كما يفتن الذهب بالنار .

[ذوقوا فتنتكم] أي مقولاً لهم هذا القول إذا عدّوا والقائل خزنة النار : ذوقوا جزاء كفركم وقوله : « فتنتكم » أي كفركم مراداً بالكفر عاقبة الكفر وهو العذاب .

ان المتقين في جنات و عيون (١٥) آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين (١٦) كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون (١٧) وبالأسحارهم يستغفرون (١٨) وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (١٩) وفي الأرض آيات للموقنين (٢٠) وفي أنفسهم أفلا تبصرون (٢١) وفي السماء رزقكم وما توعدون (٢٢) فو رب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون (٢٣) .

ثم ذكر سبحانه ما أعدّه لأهل الجنة فقال :

[إن المتقين في جنات و عيون] أي المحترزين عن الكفر والمعاصي والمتصفين بالإيمان والمعرفة والطاعة في بساين والتكثير للتعظيم أو للتكثير مثل قولهم : إن له لا بلاً وإن له لغنماً ولي أنهار جارية .

[آخذين] قابلين لكل ما أعطاهم من الثواب متلقين بالقبول لأنّه في غاية الجودة ومنه قوله (١) : « يأخذ الصدقات » أي يقبلها ويرضاها ثم علّل استحقاقهم بقوله : [إنهم كانوا قبل ذلك] أي قبل دخول الجنة أي في الدنيا [محسنين] يفعلون الطاعات ويحسنون إلى غيرهم بضروب الإحسان .

[كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون] الهجوع النوم أي كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل و « ما » مزيدة لتأكيد معنى التقليل أي يذكرون ويصلّون أكثر الليل وينامون أقله وبعض فسروا هذا الحديث « نوم العالم عبادة » قالوا : فمن يعبد لا يكون فائماً قيل : نزلت الآية في شأن الأنصار حيث كانوا يصلّون في مسجد النبي ﷺ ثم يمضون إلى قبا وبينهما ميلان .

[وبالأسحارهم يستغفرون] السحر السدس الأخير من الليل لاشتباهه بالضياء كالسحر يشبه الحق وهو باطل أي هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار

في الأسحار وهذا دليل على أنهم غير معجبيين بأعمالهم وخائفين من التقصير وتقديم الظرف في الآية للاهتمام ورعاية الفاصلة ولعل يستغفرون استصغاراً لفعلهم .

قيل : يا رسول الله كيف الاستغفار ؟ قال ﷺ : قولوا : اللهم اغفر لنا وارحمنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . في الحديث إن أحب أحبائي إلي الذين يستغفرون بالأسحار أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض شيئاً صرفت بهم عنهم . وكان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت الحق ووعدك ولقاؤك حق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنبئون حق ونحمدك والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك .

و في الحديث قال داود عليه السلام : يا جبرئيل أي من الليل أفضل قال : لا أدري إلا أن العرش يهتز وقت السحر ولا يهتز العرش إلا لكثرة تجليات رحمة الله فرحاً لأهل السهر وإما طرباً لأنين المذنبين والمستغفرين في ذلك الوقت وإما تعجباً لكثرة عفو الله ومغفرته في ذلك الوقت وإما تعجباً من حسن لطف الله على عباده الآبقين الهاربين منه مع غناؤه عنهم ثم مع ذلك هم غافلون في نومهم وهو تعالى يتوجه إليهم ويدعوهم بقوله : هل من سائل هل من مستغفر هل من تائب هل من نادم هل من من يقرض غير عدوم ؟ وإما تعجباً من غفلات أهل الغفلة بنومهم في ذلك الوقت وحرمانهم من البركة واعلم أن الله أمر نبيه بأحياء الليل لأن هذه الطريقة أقرب طرق إلى الله للمقبل الصادق وما يطبقها إلا المتمكن الصابر .

قال ﷺ : فرض علي قيام الليل ولم يفرض عليكم . قال أهل التحقيق : وذلك لأنه روح العالم ﷻ ومداره فكيف يكون لله ولي كامل يبخل بنفسه على الله متكاسل ويتكاسله يخرب العالم ويشدد جهل أهله كما أن الروح إذا ضعف اختل الجسد وقوامه من هنا تعرف شدة توغل الأنبياء والأتقياء في العبادات وكلما قرب الإنسان من الكمال اشتد تكليفه .

قيل : إن إلياس النبي ﷺ أتى إليه ملك الموت ليقبضه فبكى فقال له : أبكي وأنت راجع إلى ربك ؟ فقال : بل أبكي على ليالي الشتاء ونهار الصيف ؛ الأحباب يقومون ويصومون ويجذبون ويتلذذون بمناجاة محبوبهم وأنا رهين التراب فأوحى الله إليه فداجلناك إلى آخر الدهر لجبتك خدمتنا فتمتع .

[وفي أموالهم حق] أي نصيب وافر يوجبون على أنفسهم و يعدونه واجباً عليهم تفرّجاً إلى الله [للسائل] أي لطالب الجدوى و لحاجة المستجدي [والمحروم] أي المتعفف الذي يحسبه الناس غنياً فيحرم الصدقة أو المحروم الممنوع من الخير والرزق بترك السؤال أو زهاب المال و خراب الضيعة أو مدبر الأيتام و لعل تخصيص الذكر بالسائل و المحروم ولم يذكر سائر المستحقين لأن ذلك حق سوى الصدقة المفروضة كما قال ﷺ : إن في المال حقاً سوى الزكاة أي قد يقع في المال حق واجب سوى الزكاة وهو الحقوق التي تلزم عند ما يعرض من الأحوال مثل النفقة على الوالدين إذا كانا فقيرين و ما يجب من إطعام المضطر و حمل المنقطع .

[وفي الأرض آيات للموقنين] أي دلائل واضحة على وجود الصانع و علمه و قدرته من حيث إنها مدحوة كاللبساط الممهّد وفيها مسالك للمتقلّبين في أقطارها و السالكين في مناكبها و كيف وفيها سهل و جبل و بر و بحر و عيون و معادن متفكّنة و ألوان النبات و الألوان والطعوم و الحيوان و دبّر سبحانه لكل تدبيراً لبقاء نوعه وإتمام خص الموقنين لأنهم يتأملون فيها فيحصل لهم العلم بموجبيها .

[وفي أنفسكم] أي وفي أنفسكم أيضاً آيات وشواهد على خالقيتهم ووحدا نيته [أفلا تبصرون] أي أفلا ترون أنفسكم منتقلون من صفة إلى أخرى مثل أن كنتم نطفة فصرتم أحياء جنيناً ثم كنتم أطفالاً فصرتم شباباً ثم كهولاً فهلاً دلكم ذلك على أن صانعاً و مقدراً يقدر ويدبّر هذه الأمور فساعة تجوع وساعة تشبع و تغضب وترضى وهذه الأمور كله من آيات الله وتصرّفه .

[وفي السماء رزقكم] فينزل الله إليكم بأن يرسل الغيث والمطر عليكم فيخرج به من الأرض أنواع ما تقتاتونه و تلبسونه وتمتفعون به و كذلك اختلاف المطالع و المغارب التي

يترتب عليه اختلاف الفصول التي هي مبادي حصول الأرزاق [و ما توعدون] من الثواب لأن الجنة على ظهر السماء السابقة تحت العرش قرب سدة المنتهى أو أن كل ما توعدون من الخير والشر والشدة والرخاء وغيرها مكتوب مقدّر في السماء .

[فو رب السماء والأرض] أقسم سبحانه بنفسه ذكر الرب لأنه في بيان التربية بالرزق [إنه لحق] أي ما توعدون لحق وواقع قيل : إن رسول الله قال : قاتل الله أقواماً أقسم الله لهم بنفسه فلم يصدقوه [مثل ما أنكم تنطقون] أي كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في حقيقته وإنما اختص التمثيل بالنطق في التشبيه لأنه مختص بالإنسان وهو أخص صفاته .

هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين (٢٤) اذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال قوم منكرون (٢٥) فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين (٢٦) فقر به إليهم قال ألا تأكلون (٢٧) فاوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم (٢٨) فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم (٢٩) قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم (٣٠) قال فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا أنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك للمسرفين (٣٤) فآخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم (٣٧) .

لما قدّم الوعد والوعيد ذكر بشارة إبراهيم عليه السلام ومهلك قوم لوط تخويفاً للكفار

فقال :

[هل أتاك] يا عبد وهذا اللفظ يستعمل إذا أخبر الناس بخبر ماض فيقال : هل سمعت خبر كذا وإن علم أنه لم يأت به [حديث ضيف إبراهيم المكرمين] عند الله و ذلك لأنهم كانوا ملائكة كراماً . وقيل : المراد بالمكرمين لأن إبراهيم أكرمهم ورفع مجالستهم وخدمهم بنفسه وسمّاهم ضيفاً مع أنهم لم يأكلوا من طعامه لأنهم دخلوا مدخل الأضياف واختلف في عددهم فقيل : كانوا اثني عشر ملكاً وقيل : كان جبرئيل ومعه سبعة أملاك وقيل :

ثلاثة جبرئيل وميكائيل وملك آخر .

والضيف في الأصل مصدر ضافه ولذلك يطلق على الواحد والجماعة و أصل معنى الضيف المليل وهو مأخوذ من مال إليك نزولاً بك .

وفي الراوية إن الله أوحى إلى إبراهيم - وهو أول من سن القرى - أكرم الضيف فكان يعد لكل من أضيفه شاة مشوية فأوحى إليه أكرم أضيافك فجعله ثوراً فأوحى إليه أكرم فجعله جملأ فأوحى إليه أكرم فتحيّر فيه فعلم أن إكرام الضيف ليس في كثرة الطعام فخدمهم بنفسه فأوحى إليه : الآن أكرمت الضيف . قيل : لا عار للرجل ولو كان سلطاناً أن يخدم ضيفه وأبويه ومعلمه .

[إذخلوا عليه] وتقديره هل أتاك حديثهم الواقع وقت دخولهم عليه [فقالوا سلاماً] أي نسلم عليك سلاماً والفاء لبيان أن السلام وقع بعد الدخول [قال] إبراهيم : [سلام] أي عليكم سلام فحيّاهم إبراهيم بتحية أحسن من تحييتهم لأن تحييتهم كانت بالجملة الفعلية الدالة على الحدث حيث نصبوا سلاماً وتحيته بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام [قوم منكرون] أي تصوّر إبراهيم في نفسه هؤلاء قوم منكرون لا أعرفهم وذلك أنه عليه السلام ظن أنهم من الإنس .

[فراغ إلى أهله] أي ذهب إليهم خفياً وإنما راغ مخافة أن يمنعوهم من تكلف الأكل [فجاء بعجل سمين] وكان مشوياً لقوله في آية أخرى « حنيد » فكان عامة مال إبراهيم ذلك الوقت البقر فجاء به [فقرّ به إليهم] بأن وضعه لديهم ليأكلوا فلم يأكلوا [قال ألا تأكلون] عرض عليهم الأكل و امتنعوا من الأكل .

[فأوجس منهم خيفة] وظن أنهم يريدون به سوءاً قيل : إنهم قالوا : نحن لا نأكل بغير ثمن قال إبراهيم : كلوا وأعطوا ثمنه قالوا : وما ثمنه ؟ قال : إذا أكلتم فقولوا : بسم الله وإذا فرغتم قولوا : الحمد لله فعجبت الملائكة من قوله .

وبالجملة لما رآهم لا يأكلون أوجس في نفسه الخوف . والوجس الصوت الخفي في النفس وأضر الخوف و ذلك أن من العادة من يجيء بالشر والضر أن لا يتناول من طعام من يريد إضراره ومن المشهور : إن من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك .

ولمّا أحسّت الملائكة بخوفه [قالوا لا تخف] إنّنا رسل الله . وقيل : مسح جبرئيل العجل بجناحه فقام يمشي حتّى لحق بأُمّه فعرّفهم إبراهيم وأمن منهم .

[وبشّروه بغلام عليم] والغلام المبشّر به هو إسماعيل وقيل : هو إسحاق لأنّه من سارة وهذه القصة لها فلمّا سمعت سارة امرأة إبراهيم البشارة أقبلت في ضجّة (وقيل : في جماعة عن الصادق عليه السلام) وأخذت تصيح وتولول ومعنى الصرّة الصيحة الشديدة يقال : صرّ إذا صوت ومنه صرير الباب وصرير القلم [فأقبلت امرأته في صرّة فصكّت وجهها] أي جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجباً ولطمت وجهها والصكّ ضرب الشيء بالشيء العريض [وقالت عجوز عقيم] أي أنا عجوز عاقر فكيف ألد ؟

[قالوا كذلك قال ربك] أي كما قلنا لك إنّك ستلدن غلاماً [إنّهُ هو الحكيم العليم] بخفايا الأمور .

[قال] إبراهيم لهم : [فما خطبكم] أي فما شأنكم ولأيّ أمر جيئتم [أبئها المرسلون] كأنّه قال : قد جيئتم لأمر عظيم ولا يستعمل الخطب إلّا في أمر عظيم [قالوا] إنّنا أرسلنا إلى قوم مجرمين [متمادّين في الآثام] . وقيل : المجرم فاعل الجرائم وهي صعاب المعاصي والمراد به قوم لوط .

[لنرسل عليهم] بعد ما قلبنّا قراهم وجعلنا عاليها سافلها [حجارة من طين] أي طين متحجّر وهو السجيل طبخت بنار جهنّم مكتوب عليها أسماء القوم ولو لم يقل من طين لتوهّم من الحجارة البرد بقرينة إرسالها من السماء [مسوومة] معلّمة من السومة أي العلامة معلّمة ببياض وحمرة أو بسيما يتميّز بها عن حجارة الأرض أو المراد من المسوومة المرسلّة من سوّمت الماشية أي أرسلتها لترعى [عند ربك] أي في خزانة ربك [للمسرفين] المجاوزين الحدّ في الفجور وقيل : المراد من السرف ههنا الشرك عن ابن عباس .

[فأخرجنا] الفاء فصيحة مفصّحة عن محذوف كأنّه قيل : فباشروا ما أمروا به فأخرجنا بقولنا : « فأسر بأهلك » الآية [من كان فيها] أي في قرى قوم لوط [من المؤمنين] وذلك أنّ الله أمر لوطاً بأن يخرج هو ومن معه من المؤمنين [فما وجدنا غير بيت من المسلمين] يعني لوطاً وبيته وصفهم الله بالإيمان والإسلام إذ كلّ مؤمن هو مسلم .

[وتر كنافيها] أي في مدائن قوم لوط أبقينا [آية] وعلامة [للذين يخافون العذاب الأليم] فيخافون مثل عذابهم ويعتبرون به دون من عداهم من ذوي القلوب الفاسدة بأنهم لا يعدونها آية كما أن أكثر الحاج حين المرور بمدائن لا يلتفتون وكان النبي يبكي حين المرور بمثل هذه الموانع وينكس رأسه ويأمر بالبكاء والتباكى .

واعلم أن الاعتبار في باب النجاة الحشر مع أهل الصلاح وحسن اتباعهم بالا اتصال المعنوي لا الاختلاط الصوري وإلا نجت امرأة لوط وابن نوح فعلى العاقل المسترشدا باتباع الكامل والاحتراز عن أهل الفساد سيما الناقص في العقل والدين .

قوله تعالى : وفي موسى اذ ارسلناه الى فرعون بسلطان مبين (٣٨) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم (٤٠) وفي عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم (٤١) ما تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم (٤٢) وفي ثمود اذ قيل لهم تمتعوا حتى حين (٤٣) فهتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون (٤٤) فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين (٤٥) وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوماً فاسقين (٤٦) .

[وفي موسى] عطف على قوله : « وفي الأرض آيات للموقنين » فقصة إبراهيم ولوط معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه .

أي وجعلنا في إرسال موسى إلى فرعون وإبجائه وما لحق فرعون وقومه من الفرق آية [إذ أرسلناه] أي وقت إرسالنا [إلى فرعون] صاحب ملك مصر [بسلطان مبين] هو ما ظهر على يده من المعجزات والسلطان مصدر يطلق على المتعدد وعلى الواحد .

[فتولى بركنه] أي أعرض فرعون وثنى عطفه والتولى كناية عن الإعراض والباء للتعدية مثل قوله : « نأى بجانبه » والركن بمعنى الطرف والجانب وقيل : المراد فتولى فرعون بما يتقوى به من الملك والعسكر والجنود فإن الركن اسم لما يركن إليه الإنسان والركن مستعار لجنوده نسبتها بالركن الذي يتقوى البنيان به .

[وقال] هوأي موسى [ساحر أو مجنون] وأو في الآية بمعنى الواو كقوله (١) :

« مائة ألف أو يزيدون » وتأمل في حق فرعون أنه نسب إلى موسى صفتين متناقضتين لأنّ السحر لا يعلمه إلا من له حذاقة وإدراك والجنون زوال هذه الأمور .

[فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم] النبذ طرح الشيء وإلقائه لقلّة الاعتداد به فطرحناهم في بحر القلزم وأخذناه والحال أنه مستحقّ للملامة أو مليم نفسه .

[وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم] عطف على ما تقدّم أي وفي قوم هود وهم العاديّون آيات إذ أرسلنا على أنفسهم أصالة وعلى دورهم وأموالهم وأنعامهم تبعاً للريح العقيم، العقم هزمة يقع في الرحم فلا يقبل التوليد شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بإعقام النساء التي لا يلدن ولا يعقبن استعارة تبعيّة، وهو الدبور كما قال عنه : نصرت بالصبا وأهلكته عاد بالدبور وهي تجيء من جانب المغرب فإنّ الصبا تجيء من جانب المشرق وقيل : هي الجنوب مقابل الشمال وتجيء من شمال من يتوجّه إلى المشرق .

[ما تذر] أي ما تترك ، وأما توأماضيه ومصدره واسم فاعله ومناطق بها [من شيء أنت عليه] أي جرت على ذلك الشيء [إلّا جعلته كالريم] مثل الشيء البالي المتفتّت رمّ العظم أي بلى وفتّت قال ابن عباس : ما أرسل على عاد من الريح إلّا مثل خاتمي هذا . [وفي ثمود أي وفي قوم صالح آيات جعلنا] إذ قيل لهم تمتّعوا [أي انتفعوا بالحياة الدنيا] حتّى حين [إلى وقت العذاب وهو آخر ثلاثة أيّام الأربعاء والخميس والجمعة فإنّهم غفروا الناقة يوم الأربعاء وهلكوا بالصيحة يوم السبت وقال لهم صالح : تصبح وجوهكم غداً مصفرةً وبعد غدٍ حمرةً واليوم الثالث مسودةً ثمّ يصبحكم العذاب فكان كذلك ولون جهنّم أسود فعند الهلاك صاروا إلى لون جهنّم .

[فعتوا عن أمر ربّهم] فاستكبروا عن الامتثال به وأمر ربّهم على لسان صالح من قوله : « اعبدوا الله » وقوله : « فذروها تأكل في أرض الله » [فأخذتهم الصاعقة] ولما رأوا العلامات التي بينها صالح من تغيير ألوانهم حسب ما أوعد عمدوا إلى قتله فنجاه الله إلى أرض فلسطين وأخذتهم الصاعقة قيل : أتتهم صيحة من السماء فيها صوت صاعقة فتقطّعت قلوبهم وقيل : أهلكوا بالصاعقة حقيقة بأن جاءت نار من السماء فأهلكتهم جميعاً [وهم ينظرون] إليها لأنّها جاءت معانيّة بالنهار وهذا القول أقوى لأنّ الصيحة لا ينظر إليها

وإنما تسمع بالأذن ويمكن الجمع بأن معها صيغة جبرئيل .
[فما استطاعوا من قيام] وهذا كقوله : « فأصبحوا في دارهم جاثمين »^(١)، فما قدروا
على القيام فضلاً عن الهرب [وما كانوا منتصرين] بغيرهم .
[وقوم نوح] أي وأهلكنا قوم نوح [من قبل] هؤلاء [إنهم كانوا قومًا فاسقين]
خارجين عن الحدود في الكفر والمعاصي وهو علة لإهلاكهم .

قوله تعالى: والسماء بنيناها بأيدٍ وانا لموسعون (٤٧) والارض فرشناها
فنعم الماهدون (٤٨) ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (٤٩) ففروا
الى الله انى لكم منه نذير مبين (٥٠) ولا تجعلوا مع الله الهًا آخر انى لكم
منه نذير مبين (٥١) كذلك ما اتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر
أو مجنون (٥٢) اتواصوا به بل هم قوم طاغون (٥٣) فتول عنهم وما أنت
بمعلوم (٥٤) وذكر فان الذكري تنفع المؤمنين (٥٥) وما خلقت الجن والانس
الا ليعبدون (٥٦) ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون (٥٧) ان الله
هو الرزاق ذو القوة المتين (٥٨) فان للذين ظلموا ذنوبًا مثل ذنوب اصحابهم
فلا يستعجلون (٥٩) فويل للذيل كفروا من يومهم الذى يوعدون (٦٠) .

نصب السماء على الاشتغال أي و بنينا السماء بأيدٍ أي بقدرة . والقوة ههنا بمعنى
القدرة بسبب قدرتنا لأن القوة عبارة عن شدة البنية وصلابتها المضادة للضعف والله منزّه
عن ذلك لكن القدرة هي الصفة التي بها يتمكن من الفعل وتركه بالإرادة تقول : أيدى أيد
أيداً أي قوي واشتدّ ولما في البدن من القوة قيل : يد ، وأيدتك أي قوتك وقوت يدك
[وانا لموسعون] أي لقادرون يان لسعة قدرته والمعنى موسعون السماء وجاعلوها واسعة
أو موسعون الرزق .

[والارض فرشناها] أي فرشناها ومهدناها من تحت الكعبة ليستقرّ وأعليها ويتقلبوا
كما يتقلب أحدهم على فراشه ومهاده قال مكحول الشامي : إن ما بين أقصى الدنيا إلى
أدناها مسيرة خمسمائة سنة مائتان من ذلك في البحر ومائتان ليس يسكنها أحد وثمانون

فيها يأجوج ومأجوج وعشرون فيها سائر الخلق لكن هذا القول وأمثاله لا يوجب العلم به [فنعم الماهدون] أي فعلنا ذلك على حسب المصالح النافعة للعباد .

[ومن كل شيء] أي من أجناس الموجودات [خلقنا زوجين] صنفين ونوعين مختلفين كالذكر والأنثى والسماء والأرض والليل والنهار والصيف والشتاء والإنس والجن والأشياء كلها مر كبة من تركيب يقتضي كونه مصنوعاً وإنه لا بد له من صانع [لعلكم تذكرون] أي فعلنا ذلك كله من البناء والخلق ليعرفوا أنه خالق الكل وأنه المستحق للربوبية والخلق مستحق للعبودية وكل شيء في عالم الملك وهو عالم الأجسام له اتصال بعالم الملكوت وهو عالم الأرواح وقائم به وملكوته قائم بقدرته تعالى .

[ففرّوا إلى الله] قل يا محمد لقومك : إذا كان الأمر كذلك وهو الخالق لكل شيء فاحذروا عصيانه وفرّوا إليه لتنجوا من عقابه كي تفوزوا بثوابه وحاصل المعنى فرّوا بما سوى الله إلى الله ومن المعصية إلى الطاعة ومن الجهل إلى العلم ومن العذاب إلى الرحمة [إنني لكم منه نذير] لكم من أمره وجهته منذرٌ ومخوفٌ فكم من عصيانه لا من قبل نفسي .

[ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر] كأنه قيل : وفرّوا من أن تجعلوا معه إلهاً غيره [إنني لكم منه] أي من هذا الجعل المنهي عنه [نذير مبين] وفي الآية تأكيد لما قبله لأن هذا الأمر مورد التأكيد لأنه لا يغفر أن يشرك به .

[كذلك ما أتى الذين من قبلهم] أي إن أمر الذين من قبلهم من الأمم السالفة بالنسبة إلى رسلهم كذلك مثل تكذيب قريش والمشرّكين إياك [إلا قالوا] في حق ذلك الرسول [ساحر أو مجنون] وأنت لا تأمن على تكذيب قومك إياك فسلى نبيه ﷺ . [أتواصوا به] إنكار وتعجب من أمر المكذّبين أي أوصى الأولون الآخرين بهذا القول الشنيع حتى اتفقوا عليه ؛ [بل هم قوم طاغون] إضراب عن التواصي واتفاقهم على هذا الأمر لبعده الزمان وعدم تلاقيهم في وقت واحد وإثبات الطغيان الذي هو قبيح لأن الطغيان شامل لكل قبيح وبيان أن نفوسهم متمردة عن قبول الخير فما أتاها رسول إلا استكبروا وأنكروا أمره .

[فتولّ عنهم] و أعرّض عن جدالهم [فما أنت بملوم] على التولّي بعد ما بذات المجهود و كرّرت لهم البيان والدليل ولست بملوم بسبب العجز عن هدايتهم و قبولهم الكفر .

قال المفسّرون : لما نزلت هذه الآية حزن رسول الله والمؤمنون وظنّوا أنّ الوحي قد انقطع وأنّ العذاب قد حلّ حتّى نزلت الآية [فذكر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين] فطابت نفوسهم والمعنى عطف بالقرآن من آمن من قومك فإنّ الذكرى تنفعهم كما قال : « إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد^(١) » .

والمذكّر يكون تذكيره بأمر تسعة :

الاول أن يذكّرهم نعم الله عليهم حتّى يشكروا .

والثاني : أن يذكّرهم مثوبات المحن والبلايا حتّى يصبروا .

والثالث : يذكّرهم عقوبة المعاصي حتّى يمتنعوا ويتوبوا .

الرابع : أن يذكّرهم عداوة الشيطان و مكائده حتّى يحترزوا .

الخامس : أن يذكّرهم زوال نعمة الدنيا وفناءها حتّى ينقلعوا عن محبتها .

السادس : أن يذكّرهم الموت حتّى يتداركوا ما فات .

السابع : أن يذكّرهم أهوال القيامة و وقوعها و أحوال النار و عقوباتها كي

يخافوا ولا يطفوا .

الثامن : أن يصف لهم درجات الجنّة ونعيمها كي يرغبوا في الطاعة .

التاسع : أن يذكر لهم مقام القهر والعظمة والجلال ومقام الرحمة والإفضال

كي يخافوا و يرجوا .

« وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون » وقرئ بياء المتكلّم في يعبدون ولعلّ تقديم

ذكر الجنّ في الآية لتقدّمه على الإنسان في الوجود أي إنّ خلقهم لأجل إظهارهم

العبودية والذلة بالأفعال المخصوصة التي هي العبادة الوصفية حتّى يتخضعوا لربّهم بالوجه

المشروع الوارد لا يجعلهم من عند أنفسهم وهي رحمة منه ونفّضل على عباده بإيصال الخير

إليهم بسبب الامتثال ويكفي في تحقق معنى التعليل هذا الاعتبار في مدلول اللام وأنه غني عن عبادة كل عابد وإرادة الفاعل لها فليست من مقتضيات اللام حتى يلزم من عدم صدور العبادة عن البعض تخلف المراد عن الإرادة كما في قوله : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ^(١) » ، والخليفة لمعرفة العبادة كاشفة عن المعرفة .

والأشاعة أنكروا صحة توجيه أفعال الله معنى وإن كان واقعاً لفظاً تمسكاً بأن الله مستغن عن المنافع فلا يكون فعله لمنفعة راجعة إليه ولا إلى غيره لأنه قادر على إيصال تلك المنفعة من غير توسيط العمل فلا يصلح أن يكون غرضاً فعندهم لام التعليل يكون استعارة تبعية تشبيهاً لعادة العباد .

ولكن أكثر الفقهاء من العامة وجل العلماء من الخاصة والمعتزلة قالوا بصحة توجيه تعليل أفعال الله لمنفعة عائدة إلى عباده تمسكاً بأن الفعل الخالي من الغرض عبث والعبث من الحكيم محال وقالوا : إن مراد الله جائز أن يتخلف عن إرادته إذا كان من الأفعال الاختيارية للعباد ومصادق هذا القول هذه الآية بعينها لأن وضع اللام في لعبدون بيان أن العبادة هي الغرض من خلق الجن والإنس و معلوم أن بعضاً منهم لم يعبدوه فيخلف مراده عن إرادته ولا يلزم من هذا البيان أنه كان محتاجاً لهذا الغرض حتى ينافي الألوهية وهو تعالى مستكمل بذاته قبل القبل في أزل الأزال لكن بروز آثار الأسماء يتحقق بعد الكونية .

قوله تعالى : [وما أريد منهم من رزق] أي تعالى شأنه متعالياً عن أن يكون كسائر السادة مع عبيدهم حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم وتهية أرزاقهم [وما أريد أن يطعمون] أي يطعموني أي مستغن عن جميع ذلك وما أريد منهم رزقي بل أفضّل عليهم برزقهم وفي الآية تعريض بأصنامهم فإنهم كانوا يحضرون لها المأكول فربما أكلتها الكلاب والثعالب ثم بالتعليق .

[إن الله هو الرزاق] وهو من قصر الصفة على الموصوف أي لا رازق إلا الله [ذو القوة

المتين] على جميع خلقه متين وشديد في القوة والقوة يعبر بها عن القدرة والتمكن مكتنفا الصلب . قال أهل التحقيق : اعتبروا باللبيب الطالب للأرزاق وحرمانه وبالطفل العاجزو تواتر الأرزاق عليه لتعلموا أن الرزق طالب وليس بمطلوب ، قيل : من خاصية اسم الرزاق لسعة الرزق أن يقرأ قبل صلاة الفجر في كل ناحية من نواحي البيت عشراً يبدأ باليمين من ناحية القبلة قال السهروردي المداوم عليه يقضي حاجته من الملوك وولاة الأمر فإذا أراد ذلك وقف مقابلة المطلوب وقرأ سبع عشرة مرة ومن تلاه عشرين يوماً على الريق رزق زهناً جيداً .

[فإن للذين ظلموا] أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب رسول الله و وضعوا مكان التصديق تكذيباً وهم أهل مكّة [ذنوباً] أي نصيباً وافرأ من العذاب [مثل ذنوب أصحابهم] أي مثل أنصبا نظرائهم من الأمم المحكيّة وهذا المعنى مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب وهو الدلو العظيم قال : لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب [فلا يستعجلون] أصله بياء المتكلم أي لا يطلبوا منّي أن أعجل في المجيء بالعذاب لأن له أجلاً معلوماً نازل بهم في وقته المحتوم وهو جواب لقولهم : متى هذا الوعد و كان المستعجل النضرين الحارث وأصحابه فأمهل إلى يوم بدر ثم قتل في ذلك اليوم .

[فويل للذين كفروا] والويل أشد من العذاب والشقاء وواد في جهنم ووضع

الموصل موضع ضميرهم إشعاراً بعلّة الحكم وهو الكفر [من يومهم

الذي يوعدون] وقيل : المراد من يوم يوعده يوم بدر وقيل :

يوم القيامة وهو الأصح تمت السورة

بحمد الله

سورة الطور

﴿مكية﴾

عن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ الطور في المغرب .
 روى محمد بن هشام عن أبي جعفر قال : من قرأ سورة الطور جمع الله له خير الدنيا و
 الآخرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والطور (١) وكتاب مسطور (٢) في رق منشور (٣) والبيت المعمور (٤)
والسقف المرفوع (٥) والبحر المسجور (٦) ان عذاب ربك لواقع (٧) ماله
من دافع (٨) يوم تمور السماء مورا (٩) وتسير الجبال سيرا (١٠) فويل يومئذ
للمكذبين (١١) الذين هم في خوض يلعبون (١٢) يوم يدعون الى نار جهنم
دعا (١٣) هذه النار التي كنتم بها تكذبون (١٤) افسحروا هذا ام انتم لا
تبصرون (١٥) اصلوها اليوم فاصبروا او لا تبصروا سواء عليكم انما تجزون
ما كنتم تعملون (١٦) .

[والطور] الواو للقسم ، و الطور الجبل بالسريانية . قال ابن عباس : الطود كل
جبل ينبت قال الشاعر :

لومر بالطور بعض ناعقة * ما أنبت الطور فوقه ورقه

وقيل : هو جبل محيط بالأرض ، الأظهر الأشهر هو جبل مخصوص وهو طور سنين يعني
الجبل المبارك وهو جبل واقع بمدين سمع موسى عليه السلام فيه كلام الله ومحل قدم الأحاب
وقت سماع الخطاب أوبين الشام ومدين بالقرب من أيلة كان إذا جاء موسى للمناجاة
ينزل عليه غمام فيدخل في الغمام ويتكلم وهو الجبل الذي ذكر عند التجلي وهناك خر
موسى صعقا وهذا الجبل قيل : إذا كسرت حجارته يخرج من وسطها شجر العوسج ويعظم
اليهود شجرة العوسج لهذا السبب .

[وكتاب مسطور] مكتوب على وجه الانتظام فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة
والمراد به القرآن وقيل : هو الكتاب الذي كتبه الله ملائكته في السماء يقرمون فيه ما كان
وما يكون و آخر سطر في اللوح المحفوظ : سبقت رحمتي غضبي من أثنائي بشهادة أن لا إله
إلا الله وأن محمد رسول الله وأن علياً ولي الله أدخله الجنة . وقيل : هو صحائف الأعمال التي

يخرج إلى بني آدم يوم القيامة لقوله : «ويخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً»^(١)، وقيل : هو التوراة كتبه الله لموسى وهو مناسب بالطور .

[في رق منشور] الرق الجلد الذي يكتب فيه ، شبه كاغذ استعير لما يكتب فيه الكتابة من الصحيفة وهو ضد الغليظ والمنشور خلاف المطوي نشر الثوب والصحيفة أي بسطها والتنكير للتفخيم .

[والبيت المعمور] قيل : هو الكعبة البيت الحرام معمور بالحاج والمعتمرين وقيل : هو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة تعممه الملائكة قال أمير المؤمنين: يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبداً و روي عن النبي ﷺ قال : البيت المعمور في السماء الرابعة فيه نهر يقال له الحيوان يدخل فيه جبرئيل كل يوم وإذا خرج انتفض منه انتفاضة جرت منه سبعون ألف قطرة يخلق الله من كل قطرة ملكاً يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور فيصلون ثم لا يعودون أبداً و حرمة في السماء كحرمة الكعبة في الأرض و قيل: في السماء السابعة، وسمي بالضراح- بضم الصاد المعجمة- من التنحية والإبعاد أي رفع وأبعد . [والسقف المرفوع عن الأرض مقدار خمسمائة عام .

[والبحر المسجور] أي المملوء، وقيل : هو الموقد المحمى بمنزلة التنوير وتحمى البحار يوم القيامة فتجعل نيراناً يفجر بعضها في بعض ثم يفجر إلى النار و رده الحديد، وعلى كون المراد من المسجور هو البحر المحيط الأعظم الذي منه مادة البحار وهو بحر لا يعرف له ساحل والبحار التي على وجه الأرض خليجان منه وفي هذا البحر عرش إبليس وفيه مدائن يطغو على وجه الأرض وهي أهلة من الجن وفيه قصور تظهر على وجه الماء ثم تغيب و تظهر وفيه من الجزائر المسكونة و الخالية ما لا يعلمه إلا الله، قال أمير المؤمنين عليه السلام : هو بحر تحت العرش عمقه كما بين سبع سماوات إلى سبع أرضين فيه ماء غليظ يقال له بحر الحيوان يمطر منه على الموتى ماء كالمني بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً فيبيتون في قبورهم .

[إن عذاب ربك لواقع] لنازل بهم حتماً والمراد عذاب الآخرة للكفار هو جواب

القسم [ماله من دافع] يدفعه و الفرق بين الدفع و الرفع أن الدفع يستعمل قبل الوقوع والرفع يستعمل بعد الوقوع ومعلوم أن كل معصية و فعل قبيح ووصف ذميم فهو عذاب حكمي و نار معنوي و العذاب الصوري أثر ذلك وليس من خارج عن الإنسان أما في الدنيا فلا أن التلبس بسبب الشيء تلبس بالشيء .

[يوم تمور السماء موراً] يوم ظرف لواقع ، بيان لوقوع العذاب الأكبر في ذلك اليوم والمور الاضطراب قيل : تدور السماء كما تدور الرحي وتنكفي بأهلها كما تنكفي السفينة و قيل : يختلج أجزاؤها بعضها في بعض ويموج أهلها بعضهم في بعض ويختلطون وهم الملائكة وذلك من الخوف [وتسير الجبال سيراً] و تزول من أماكنها حتى تستوي الأرض ، وتسير الجبال كما تسير السحاب ثم تنشأ أثناء السير حتى تصير آخره كالعين المنفوش لهول ذلك اليوم وتأكيد الفعلين بمصدر لهما للإيدان بغرابتها بحيث لا يدرك كنه غرابتها .

[فويل يومئذ للمكذبين] والفاء فصيحة أو بمعنى المجازاة و التقدير إذا وقع ذلك الأمر فويل لمن كذب بآيات الله ورسله و كذب بالبعث وهو لا ينافي تعذيب غير المكذبين من أهل الكبائر لأن الويل والعذاب الشديد إنما هو للمكذبين بالله ورسوله [الذين هم في خوض يلعبون] خائضين في الدنيا بالكذب والاستهزاء و الأباطيل من الأقوال و الأفعال شبه التخبيط بالباطل بخوض الماء وغوصه .

[يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً] الدع الدفع الشديد أي يدفعون إليها ذلك اليوم دفعاً عنيفاً بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم و يجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار دفعاً على وجوههم وفي أفقيتهم حتى يردوها .

[هذه النار] يقال : لهم و القائل خزنة النار قبل الورد هذه النار [التي كنتم في الدنيا] بها تكذبون أفسح هذا [تفريع لهم حيث كانوا يسمونه سحراً و كنتم تقولون : للقرآن الناطق بهذا الخبر سحر فهذا الأمر سحر أيضاً و الفاء سببية لا عاطفة لئلا يلزم عطف الإنشاء على الإخبار] أم أنتم لا تبصرون [أي أترون هذا العذاب أم لا ترون] .

ثم يقال لهم : [اصلوها] وقاسوا حرها وشدائدها [فاصبروا أولاً تصبروا] لاختلاس

لكم منها [سواء عليكم] خبر مبتدأ محذوف دل عليه فاصبروا أولاً تصبروا أي الأمر سواء عليكم في الصبر وعدمه [إنما تجزون ما كنتم تعملون] تعليل للاستواء حيث إن الجزاء على كفرهم واجب الوقوع حتماً والغفلة عن خالق البريات والشرك به توقد نار الحسرات . وفي الآية إشارة إلى التحذير ومراتب الخوف كما أن الآية التي تليها إشارة إلى مرتبة الرجاء فإن الأمن والقنوط كلاهما ممنوع بل كفر فقال : [إن المتقين] عن الكفر والمعاصي [في جنات و نعيم] النعيم الخفض و الدعة والترفع والاسم النعمة بفتح النون والنعيم النعم الكثيرة أي إنهم في لين عيش من الملبوس والمأكول ، وأية جنات و آية نعيم كاملة الصفات ؟

ان المتقين في جنات و نعيم (١٧) فاكهين بما آتاهم ربهم ووقفهم ربهم عذاب الجحيم (١٨) كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون (١٩) متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين (٢٠) والذين آمنوا و اتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم وما اتناهم من عملهم من شيء كل امرء بما كسب رهين (٢١) و امددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون (٢٢) يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم (٢٣) و يطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون (٢٤) و اقبل بعضهم على بعض يتسائلون (٢٥) قالوا انا كنا قبل في أهلنا مشفقين (٢٦) فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم (٢٧) انا كنا ندعو من قبل انه هو البر الرحيم (٢٨) .

[إن المتقين] في الجنة [فاكهين] متلذذين من النعم [بما آتاهم ربهم] من الكرامة [ووقفهم ربهم عذاب الجحيم] صانهم الله عن عذاب الناز و الجحمة شدة تأجيج النار ومنه الجحيم [كلوا واشربوا] أي يقال لهم من قبل خزنة الجنة دائماً : كلوا واشربوا [هنيئاً] صفة لمصدر محذوف أي طعاماً وشراباً هنيئاً وترك الذكر لبيان تنوعهما وكثرتهما والهنيء والمريء صفتان من هنؤ الطعام و مرؤ إذا كان سائغاً لا يورث الكور و الكسل [بما كنتم تعملون] فيبين أن رتب الجنة بحسب الأعمال لكن يمكن دخولها برحمة الله .

[متكئين] حال من ضمير كلوا واشربوا أي معتمدين [على سرر] جمع السرير [مصفوفة] أي مصطفة بعضها إلى جنب بعض أو المعنى مزينة بالذهب والفضة و الجواهر

قال الكلبي : صف بعضها إلى بعض طولها مائة ذراع يتقابلون عليها في الزيارة وإذا أراد أحدهم القعود عليها اتمضعت وتطاطأت فإذا قعد عليها ارتفعت إلى أصل حالها .

[وزو جناتهم بحور عين] واحد الحور حوراء وواحد العين عينا وإتما سمين حوراء لأن الطرف يحار في حسنهن وعينا لأنهن الواسعات الأعين أو الحور كيفية في العين مثل أن يكون البياض في غابة البياض و سواد العين في غابة السواد والباء للسبيبة أي الإلصاق والاتصال وقع بسبب الحور فالترويج حينئذ ليس على معنى العقد والنكاح فحينئذ تعدى بالباء وإلا فعل الترويح مما يتعدى إلى مفعولين بلا واسطة كقوله تعالى : وزو جنات كها^(١) وحاصل المعنى وفرناهم بهن ، وفي الراقعات المحمودية مذكور أن لأهل الجنة بيوت ضيافة يعملون فيها الضيافة للأحباب يتنعمون ولكن أهلهم لا يظهرون لغير المحارم وعدم ظهورهن لامن حيث الحرمة لأن الحل والحرمة من توابع التكليف ولا تكليف في الجنة لكن لأجل تكميل اللذة .

[و الذين آمنوا] مبتدأ وخبره « ألحقنا بهم » [واتبعتهم ذريتهم] أي نسلهم [بإيمان] متعلق بالاتباع والمعنى واتبعتهم ذريتهم بإيمان في الجملة وفي الآية إيدان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل إصالة لا إلحاقاً [ألحقنا بهم ذريتهم] أي أولادهم الصغار في الدرجة قال النبي ﷺ : إن الله تعالى يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقر عينهم بهم ويكمل سرورهم ثم تلا هذه الآية فحينئذ يحكم بإيمان الولد الصغير تبعاً لأحد أبويه فإنه تعالى لما جعلهم تابعين لأبائهم ولاحقين بهم في أحكام الآخرة فينبغي أن يكونوا لاحقين بهم في أحكام الدنيا أيضاً .

[وما ألتناهم] أي ما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق من باب ألت يألث كضرب يضرب [من عملهم من شيء] أي لم ننقص الآباء من الثواب حين ألحقناهم ذريتهم وفي أطفال المشركين وأهل الفترة والمجانين أقوال كثيرة . قيل : يرسل إليهم يوم القيامة رسول من جنسهم ويدعون إلى الإيمان ويمتنح المؤمن منهم بإيقاع نفسه في النار هناك فمن قبل

الدعوة ولم يمتنع عن الإيقاع في النار خلص وإلا دخل جهنم وقيل في أطفال الكافرين يكونون خدام أهل الجنة وقيل يلحقون بأبائهم في النار تبعاً لأبائهم وهذا القول بعيد جداً وقال آخرون : إنهم في الجنة لكونهم غير مكلفين وتوقف طائفة فيه انتهى .

[كل امرئ] عاقل [بما كسب رهين] فهو بمكسباته مرهون والرهن ما يوضع وثيقة للدين أي كل إنسان مرهون عند الله بالعمل الصالح والإيمان اللذين هما دين عليه فإن عمل به وأدامه فك رقبته من الرهن وإلا أهلكها قال النبي ﷺ لكعب بن عجرة لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت يا كعب الناس صنفان فمبتاع نفسه فمعتقها وبايع نفسه فموبقها .

[وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون] والإمداد الإتيان بالشيء وبعد الشيء أي أعطيناهم حالاً فحالاً من جنس الثمار ومن اللحم من الجنس الذي يشتهونه .

[يتنازعون فيها كأساً] يتعاطفون كأس الخمر والمراد التداول على طريق التجاذب تجاذب الملاعبة لفرط السرور والمحبة وفي هذه الكيفية نوع لذة ولا يكون التنازع في الآية بمعنى التخاصم إذ لا خصومة في الجنة بل يعطون الكؤوس يأخذونها بعضهم بعضاً والكأس لا تسمى كأساً إلا إذا كان فيه شراب كما لا تسمى مائدة ما لم يكن عليها طعام فمعنى كأساً أي خمرأ تسمية لها باسم محلها .

[لا لغو فيها] والكأس مهموزة مؤنثة أي لا لغو في شربها ولا يتكلمون في أثناء الشرب بلغو الحديث واللغو سقط الكلام وما لا يعتد به ويردلا عن روية وفكر فيجري مجرى اللغاء وهو في الأصل صوت العصافير ونحوها من الطيور [ولا تأثيم] أي ولا يفعلون ما يائمه به فاعله وينسب الإثم من الكذب والسب والفواحش كما هو دين المذامنين في الدنيا ولا يؤول حالهم في الشرب إلى ما يؤول حال أهل الدنيا .

[وبطوف عليهم] الطواف المشي حول الشيء أي ويدور على أهل الجنة بالكأس [غلمان لهم] جمع غلام وهو الطار الشارب أي ممالك مخصوصون بهم [كأنهم لؤلؤ مكنون] كالدر المصون المخزون في الصفاء والبياض والحسن والصباحة ومع ذلك للغلمان في خدمتهم حصول اللذة والسرور . قيل للنبي : يا رسول الله إذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف بالمخدوم ؟

فقال ﷺ : والذي نفسي بيده إن فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعنه ﷺ إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيبه ألف خادم يباه به لبيك لبيك .

[وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون] أي يسأل بعض أهل الجنة بعضاً آخر عن أحواله وأعماله على ما هو عادة أهل المجلس بشرعون في التحادث للأُسر وكلهم سائلون ومسؤولون [قالوا] أي السائلون [إنا كنا قبل] أي قبل دخول الجنة [في أهلنا] في الدنيا [مشفقين] خائفين من عصيان الله وجلين من العقوبة والمراد من أهل الأزواج والأولاد والعبيد والإماء والأصحاب [فمن الله علينا] وأنعم بالرحمة [ووقانا عذاب السموم] وحفظنا من عذاب النار النافذة في المسام وثقب الجسد مثل المنخر والفم والأذن نفوذ الريح الحارة التي تؤثر تأثير ألم والإشفاق أرق من الخوف والخوف أصلب والشفقة نقيض الغلظة وأصله الضعف من قولهم ثوب شفيق أي رقيق النسيج ومنه الشفق للحمرة عند غروب الشمس لأنها حمرة ضعيفة .

[إنا كنا من قبل] المصير إلى الله يعنون في الدنيا [ندعوه] أي نعبد ونسأله الوقاية [إنه هو البر] أي المحسن [الرحيم] كثير الرحمة والبر خلاف البحر وفي البر التوسع فاشتق منه البر أي المتوسع في فعل الخير وبر الوالدين التوسع في الإحسان إليهما .

قال علماء الأخلاق : لا يكون الفقير فقيراً حتى يكون فيه خصلتان أحدهما الثقة بالله والثانية الشكر له فيما زوي عنه من الدنيا مما ابتلي به غيره ولا يكمل الفقير حتى يكون نظره من الله له في المنع أفضل من نظره له في العطاء وعلامة صدقه في ذلك أن يجد للمنع من الحلاوة ما لا يجد للعطاء .

قوله تعالى : فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون (٢٩) أم يقولون شاعر نترصد به ريب المنون (٣٠) قل تربصوا فاني معكم من المتربصين (٣١) أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون (٣٢) أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون (٣٣) فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين (٣٤) أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون (٣٥) أم خلقوا السموات والارض بل لا

يوقنون (٣٦) أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون (٣٧) أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين (٣٨) أم له البناات و لكم البنون (٣٩) أم تسألهم أجرآفهم من مغرم مثقلون (٤٠) أم عندهم الغيب فهم يكتبون (٤١) أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون (٤٢) أم لهم اله غير الله سبحانه الله عما يشركون (٤٣) .

ثم خاطب نبيّه فقال :

[فذكر] ولما بين سبحانه أن في الوجود قوماً يخافون الله فأمر نبيّه بالتذكير وفرع بقوله : « فذكر » واثبت على ما أنت عليه من العظمة بما أنزل إليك من الآيات ولا تكثرث بما يقولون من الأباطيل .

[فما أنت بنعمة ربك] (نعمت) رسمت بالتاء ووقف عليها بالهاء ، أي لست بسبب إنعامه عليك بالنبوة وزيادة العقل [بكاهن] والكاهن من يبتدع القول ويخبر عما سيكون في غيروي وقيل : الكاهن الذي يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن كالعرآف الذي يخبر عن الأخبار المستقبلية على نحو ذلك ولكون هاتين الصناعتين مبنيتين على الظن الذي يخطئ و يصيب قال ﷻ : من أتى عرآفاً أو كاهناً فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل الله على نبيّ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله .

ويجوز أن يكون الباء في قوله : « بنعمة » للقسمة فاقسم سبحانه أنه ﷻ ليس بكاهن كما يقولون [ولا مجنون] والمجنون زوال العقل وستره وفساده و يحصل بحصول الحائل بين النفس والعقل وهو إذا حصل دائماً أو في أكثر أوقات السنة فمطبق وإلا فدوري .

[أم يقولون شاعر] « أم » المكسورة في هذه الآيات منقطعة بمعنى بل لكن الخليل قال : ما في سورة الطور من ذكر أم كلمة استفهام وليست بعطف يعني ليست بمنقطعة للتوبيخ « شاعر » أي هو شاعر قال المرزوقي شارح الحماسة : تأخر الشعراء عن البلغاء لأن ملوكهم قبل الإسلام وبعده ينجحون بالخطابة وبعدها أكمل أسباب الرياسة وبعدها الشعر دناءة لأن الشعر كان مكسبة وتجارة وفيه وصف اللئيم عند الطمع بصفة

الكريم والكريم عند تأخر صلته بوصف اللثيم .

ومما يدل على شرف النثر أن الإعجاز وقع في النثر دون النظم لأن زمن النبي ﷺ زمن الفصاحة فلهذا السبب نسبوا الشعر إليه ﷺ وظنوا أنه كان يرجو الأجر على التبليغ ولذا قال الله تعالى : (١) « قل لا أسألكم عليه أجراً » وقال : (٢) « وما علمناه الشعر » وقوله : « أم يقولون شاعر » من باب الترقى لأن الشاعر أدخل في الكذب من الكاهن وقد قيل : أحسنه أ كذبه وكانوا يقولون : لا نعارضه مخافة أن يقلبنا بقوة كلامه وإننا نصبر وتربص موته وهلكه وحينئذ يتفرق أصحابه .

[ترتب به ريب المنون] والمراد بالريب الحوادث التي يترتب ضد مجيء الموت أو حوادث الدهر فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء .

ثم قال سبحانه : [قل] يا محمد : انتظروا حوادث الدهر [وتربصوا] فإني معكم من المتربصين [المنتظرين وتربص الكفار بالنبي قبيح وتربص النبي والمؤمنين بالكفار حسن والكلام وإن كان بصورة الأمر ولكن معناه التهديد .

[أم تأمر أحلامهم] الحلم ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب والحكم وإن كان في الحقيقة ليس هو العقل لكن من مسببات العقل ولذا فسر بالعقل قال المفسرون : كانت عظماء قريش توصف بالأحلام و العقول فأزرى الله بعقولهم فقال : بل أنأمرهم عقولهم بما يقولونه لك هذه الأقوال السخيفة ولم تثمر عقولهم بأن غيروا الحق عن الباطل .

ثم أخبر عن طغيانهم فقال : [أم هو قوم طاغون] وقرئ بل هم قوم طاغون يتجاوزون الحدود في المكابرة والعناد .

[أم يقولون تقوله] هو ترقى إلى ما هو أبلغ في الفصح والإيثار وهو أن نسبوه إلى اختلاق القرآن من تلقاء نفسه وليس الأمر كما زعموا [بل لا يؤمنون] البتة لعنادهم فإن كان الأمر كما زعموا [فليأتوا بحديث مثله] ويأتوا بكلام مثل القرآن وإذا قرئ به حديث منوفاً للضمير في « مثله » راجع إلى القرآن وإذا قرئ على طريق الإضافة فيكون الضمير راجعاً إلى النبي ﷺ

(١) الانعام : ٩٠ .

(٢) يس : ٦٩ .

[إن كانوا] فيما يزعمون [صادقين] فإن صدقهم في قولهم يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله لمشاركتهم له ﷺ في العربية والبشرية والفصاحة مع طول الممارسة لهم للخطب والأشعار وقدرتهم على أساليب النظم والنثر وحفظ الوقائع والأيتام ولهم مع ذلك دواع في الإتيان وقد عجزوا ولم يأتوا بمثله ولا بمثل بعضه لأن القرآن معجز من حيث معناه وأحكامه وتكاليفه بحيث أن لو اجتمع عقلاء الدنيا بأن يقتنوا قانوناً في العالم لنظام العالم أكمل وأتم من القرآن لا يقدر أن لا يقدر أن لا يقدر أيضاً لا يقدر أن لا يقدر من حيث اللفظ لأن القرآن متميز من خطبة البلغاء ببلوغه حد الكمال من إنباز اللفظ والتنبية الغريب والاستعارة البديعية وتلاؤم الحروف والكلمات وفواصل الآيات وتجانس الألفاظ وتعريف القصص والأحوال وتضمن الحكم والأسرار وحسن البيان في الطلب وتمهيد المصالح والأشياء والأخبار عما كان وما يكون مع أن مادته ألفاظ العرب وألفاظه ألفاظهم وإته منظم من ما ينظمون به كلامهم وقد أعجزهم القرآن لفظاً ومعنى .

[أم خلقوا من غير شيء] أي أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير محدث وقيل : المعنى أم خلقوا من أجل لا شيء من عبادة وجزاء فحينذ « من » للسياسة [أم هم الخالقون] لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله ولا يطيعونه .

[أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون] أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السماوات والأرض ؟ قالوا : الله ، وهم غير موقنين بما قالوا وإلا لما أعرضوا وأشركوا بعبادته .

[أم عندهم خزائن ربك] جمع خزائن بالكسر وهو محرز المال أي عندهم خزائن رزقه ورحمته حتى يرزقوا من شاءوا ويمسكوها عن من شاءوا حتى يختاروا لها من اقتضت الحكمة اختياره للنبوة .

[أم هم المسيطرون] الغالبون على الأمور ويدبروا أمر الربوبية ومسلطون على الناس فيجبرونهم على ما شاءوا مأخوذ من السطر كأنه يخط للمسلط عليه خطأ لا يجاوزه .

[أم لهم سلم] منصوب إلى السماء والسلم اسم لما يتوصل به إلى كل شيء رفيع

[يستمعون فيه] فيمن يستمعون معنى الصعود ، وفيه ، متعلق بمحذوف هو حال من فاعل يستمعون وتقدير الكلام يستمعون صاعدين في ذلك السلم ومفعول يستمعون محذوف أي إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يكونوا واثقين بقولهم أو في بمعنى على كقوله : « في جذوع النخل » [فليأت مستمعهم] وهو أمر تعجيز أي فليأتوا ماسمعوا [بسلطان مبين] بحجة واضحة تدل على صدق قولهم .

[أم له البنات ولكم البنون] في الكلام إنكار عليهم حيث جعلوا ما يكرهون لله وتركيك لعقولهم واختيارهم وذلك أن من جعل خالقه أدون حالاً منه بأن جعل له ما لا يرضى لنفسه كما قال : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ^(١) » ومن كان في عنوان هذه الخرافات لم يستبعد منه هذه الحماقات .

[أم تسألهم أجراً] رجوع إلى خطابه ﷺ وإعراضاً عنهم أي أتسألهم أجراً على تبليغ الرسالة [فهم من مغرم مثقلون] فهم لأجل إلزام الغرامة يحملون الثقل و في الكشف الغرم أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه من غير جنابة منه أو ما يلزم أدائه وكذلك المغرم والغريم من عليه الدين .

[أم عندهم الغيب] أي اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب [فهم يكتبون] ما فيه حتى يتكلموا في ذلك بنفي أو إثبات في أمر القيامة وغيرها .

[أم يريدون كيداً] أي يكتفون بهذه المقالات الفاسدة بل يريدون مع ذلك أن يكيدوا بك كيداً وهو كيدهم في دار الندوة وقد مر بيانه من القتل والحبس والإخراج في حقه ﷺ والكيد هو الأمر الذي يسوء من نزل به أو ضرب من الاحتيال وإرادة مضرة الغير خفية ؛ وهو من الخلق الحيلة السيئة ، ومن الله التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق قال بعض المفسرين مثل السدي : المعنى أن هذا البيان من الأخبار بالغيب فإن السورة مكية وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة .

[فالذين كفروا هم المكيدون] أي هم الذين يحيق بهم كيدهم ويعود إليهم وبال كيدهم لا من أرادوا أن يكيدوه فإنه ﷺ الغالب عليهم حجة وسيفاً والمراد ما أصابهم يوم بدر .

[أم لهم إله غير الله] غنيهم ويحرسهم من عذابه [سبحانه الله عما يشركون] نزه نفسه تعالى عما ينسبون إليه من الشرك .

قوله تعالى : وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مر كوم (٤٤) فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون (٤٥) يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا ولاهم ينصرون (٤٦) وان للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن اكثرهم لا يعلمون (٤٧) واصبر لحكم ربك باعينا وسبح بحمد ربك حين تقوم (٤٨) ومن الليل فسبحه وادبار النجوم (٤٩) .

[وإن يروا] قطعة من العذاب أو من السماء أي إن عذبناهم بسقوط بعض من السماء عليهم لأن ينتهوا عن كفرهم قالوا : هو قطعة من السحاب من فرط طغيانهم وعنادهم والكف هو التغطية كالكسوف والمر كوم المتراكم الغليظ أي سحاب هذا تراكم وألقي بعضها على بعض ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب وحاصل المعنى مثل قوله : «ولو فتحنا عليهم بابا من السماء ، حتى شاهدوا بالعين لقالوا : «إنما سكرت أبصارنا ، فالمعنى [فذرهم] يا محمد ودعمهم [حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون] إلى أن يعابنوا اليوم الذي فيه يهلكون وقرى مجهولاً من صعقته الصاعقة [يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا] من العذاب بأن يتمكنوا من رد العذاب عن أنفسهم [ولاهم ينصرون] بغيرهم في دفع العذاب عنهم .

[وإن للذين ظلموا] أي لهؤلاء الظلمة من الكفار مثل أبي جهل وأصحابه [عذاباً] آخر [دون ذلك] أي دون عذاب الآخرة والمراد يوم بدر من القتل والأسر وقيل يريد عذاب القبر وقيل : المراد الجوع والقحط سبع سنين [ولكن أكثرهم لا يعلمون] لفرط جهلهم وعنادهم وعلى العاقل أن يعتقد ويتعلم علم الآخرة وهو من المعلوم الضرورية الواجبة قال بعض المحققين : العلم علمان : علم تحتاج منه مثل ما يحتاج من القوت فينبغي الاقتصار على قدر الحاجة منه وهو علم الأحكام فينبغي النظر فيه بقدر ما تمس الحاجة إليه في الوقت فإن تعلق تلك العلوم إنما هو بالأحوال الواقعة في الدنيا للعمل حتى يكون على بصيرة فقط لا غير وعلم ليس له حد يوقف عليه وهو العلم المتعلق بمعرفة الله

ومواطن القيامة إذ العلم بمواطنها يؤدي العالم بها إلى الاستعداد لكل مواطن بما يليق به لأن الله هو المطالب في ذلك اليوم وهو يوم الفصل فينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة من أمره معداً للجواب عن نفسه وعن غيره في المواطن التي يعلم أنه يطالب بالجواب . ومن المواطن القبر ؛ فإن الله يحيي العبد المكلف في قبره ويرد الحياة إليه و يجعله من العقل في مثل الحال الذي عاش عليه ليعقل ما يسأل عنه وما يجيب به وقد سئل عليه السلام لما أخبر بفتنة الميت في قبره وسؤال منكرو ونكيروهما الملكان : (قيل : إن السائل كان عمر) أيرجع علي عقلي ؟ قال عليه السلام : نعم و أنكره الملحدة ومن تمذهب من الإسلاميين بمذهب الفلاسفة عذاب القبر لكنهم بمعزل عن الدين القويم والمداد أعز من أن يصرفه إلا ناس في الاستعداد ببيان سواد وجوههم وقبائح مذهبهم والأحاديث من رواة العامة والخاصة في بيان عذاب القبر و ضغطته أكثر من أن تحصى و كان عليه السلام يدعو ويقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال وينجي المؤمن من عذاب القبر وأهوا له خمسة أشياء : الأول الرباط في سبيل الله ولو يوماً وليلة والثاني الشهادة بأن يقتل في سبيل الله والثالث قراءة سورة الملك فإن من قرأها كل ليلة لم يضره القتال والرابع الموت مبطوناً فإنه لا يعذب في قبره والخامس الوقت ففي الحديث من مات يوم الجمعة أوليلة الجمعة (١) .

قوله : [واصبر لحكم ربك] بإمهالهم إلى يومهم الموعود وحكم ربك الذي حكم به وألزمك التسليم له إلى أن يقع عليهم العذاب الذي حكمنا عليهم [فإنك بأعيننا] أي بمرئى منا وخبر استناد جمع العين للإيدان بغاية الاعتناء في الحفظ و بكثرة أسباب الحفظ وتماثل بين الحبيب ودرجة الكليم حيث أفرد فيه العين وقال « و لتصنع على عيني » وعناية عين الله تعالى على محمد مستمرة لا ينقطع لا في حياته ولو أن موته عين الحياة كما روي أنه ينزل على قبر محمد عليه السلام كل صباح سبعون ألف ملك و يضربون أجنتهم عليه ويحفظونه إلى المساء ثم ينزل سبعون ألفاً غيرهم فيفعلون به ما فعل الأولون و هكذا إلى يوم القيامة روي عن رسول الله عليه السلام أن من قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثلاث مرات وقرأ ثلاث آيات آخر سورة الحشر « هو الله الذي لا إله إلا

هو ، إلى آخر السورة حين يصبح وكل الله به سبعين ألف ملك يحرسونه و كذلك إذا قرأها حين يمسي وكل الله به سبعين ألف ملك يحرسه قوله : [وسبح] أي نزهه تعالى عما لا يليق به حال كونك متلبساً [بحمد ربك] على نعمائه [حين تقوم] من أي مقام قمت قال سعيد بن جبير : أي قل حين تقوم من مجلسك : سبحانك اللهم وبحمدك أي سبح الله متلبساً بحمده فإن كان ذلك المجلس خيراً أزدت إحساناً وإن كان غير ذلك كان كفارة له قال رسول الله ﷺ : من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه بالغين المعجمة و الطاء المهملة و هو الكلام الرديء واختلاط أصوات الكلام حتى لا يفهم - فقال قبل أن يقوم : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك كان كفارة له ما لم يتعلق بحق آدمي كالغيبية وكان رسول الله ﷺ إذا قام لصلاة الليل كبر عشرين وعشراً وسبح الله عشرين وهلك عشرين واستغفر عشرين ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة .

[ومن الليل فسبحه] يعني صلاة الليل روى زرارة وجران وتجد بن مسلم عن الباقر والصادق عليهما السلام في هذه الآية قالا : إن رسول الله كان يقوم من الليل ثلاث مرات فينظر في آفاق السماء ويقرأ الخمس من آل عمران التي آخرها « إنك لا تخلف الميعاد » ثم يفتح صلاة الليل الخبر وقيل : معناه صل المغرب والعشاء الآخرة [وإدبار النجوم] بكسر الهمزة مصدر أدير يعني الركعتين قبل صلاة الفجر عن ابن عباس وقتادة وهو المروي عن الصادقين والرضا عليهما السلام وذلك حين تدبر النجوم أي تغيب بضوء الصبح وقيل : يعني صلاة الفجر المفروضة وقيل : إن المعنى لا تغفل عن ذكر ربك صباحاً ومساءً ونزهه في جميع أحوالك ليلاً ونهاراً فإنه لا يغفل عنك .

وفي قوله تعالى : « ومن الليل فسبحه » إشارة إلى أنه أشق على النفس وأثوب وأبعد عن الرياء كما يلوح به تقديمه على الفعل والليل زمان المعراج والصلاة معراج المؤمن فمن أراد أن يتأسي في الجملة برسول الله فليصل بالليل والناس نيام و لشرف ذلك الوقت كان معراجه ﷺ فيه لأقرب الصباح لأن في قربه قد يستيقظ بعض النفوس للحاجات وفي ختم هذه السورة بالنجوم وافتتاح الآية بالنجم أيضاً من حسن الانتهاء والابتداء تمت بعون الله .

سورة النجم

مَكِّيَّة غير آية منها فَأَنزَلَتْ بِهَا نَزْلًا بِالْمَدِينَةِ. «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ»
الْآيَةُ ، عدد آياتها اثنتان وستون آية .

فضلها : عن أبي قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ سورة النجم أُعْطِيَ من
الأجر عشر حسنات بعدد من صدَّقَ بِمُحَمَّدٍ ومن جحد به .
و عن الصادق عليه السلام قال : من كان يَدْعُو قِرَاءَةَ النجم في كلِّ يوم أو في كلِّ
ليلة عاش محموداً بين الناس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

و النجم اذا هوى (١) ماضل صاحبكم وما غوى (٢) وما ينطق عن الهوى (٣) ان هو الا وحى يوحى (٤) علمه شديد القوى (٥) ذو مرة فاستوى (٦) وهو بالافق الاعلى (٧) ثم دنى فتنلى (٨) فكان قاب قوسين أو أدنى (٩) فاوحى الى عبده ما اوحى (١٠) .

قال صاحب تفسير روح البيان : إنها أول سورة جهر بها رسول الله وجهر بقراءتها في الحرم والمشر كون يستمعون نزلت في شهر رمضان من السنة الخامسة من النبوة ولما بلغ ﷺ السجدة سجد معه المؤمنون والمشركون والجن غير أبي لهب في رواية أنه رفع من تراب حفنة إلى جبهته وقال : يكفيني هذا ، و في رواية كان ذلك الوليد بن المغيرة فإنه رفع تراباً إلى جبهته فسجد عليه لأنه كان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود وإنما سجد المشركون .

قال الشيخ إسماعيل الحقي صاحب تفسير روح البيان : لأنه ﷺ لما بلغ إلى قوله : « أفرأيتم اللات والعزى » * و منات الثالثة الأخرى « الحق الشيطان به قوله : تلك الغرائيق العلى * منها الشفاعة ترتجى

فسمعه المشركون وظنوا أنه من القرآن فسجدوا لتعظيم آلهتهم و من ثم عجب المسلمون من سجود المشركين من غير إيمان و المراد بالغرائيق العلى الأصنام وشبهت الأصنام بالغرائيق التي هي طائر الماء جمع غرنوق بكسر الغين المعجمة وإسكان الراء وهو طير طويل العنق أو الكركي ووجه الشبه بين الأصنام وملك الطيور أن تلك الطيور تعلو وترفع في السماء فالأصنام مشبهة بها في علو القدر وارتفاعه .

أقول : وقد مرّ بيانه في تفسير سورة الحجّ وهذه الرواية رواها ابن عباس قال الطبرسي في المجمع : إن صحّ الخبر محمول على أنّه كان ﷺ يتلو القرآن فلمّا بلغ إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته ﷺ أنّه يعيها قال بعض الحاضرين من المشركين : تلك الغرائق العلى و ألقى ذلك في تلاوته توهم أنّ ذلك من القرآن فأضافه الله إلى الشيطان لأنّه إنّما حصل باغوائه ووسوسته حيث يقول عز وجل : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته » (١) أي في تلاوته . هكذا أورده المرتضى قدس سرّه في كتاب التنزيه .

وبالجملة قوله تعالى : [والنجم إذا هوى] الواو للقسم أقسم بالنجم والمراد به الثريّا فإنّه اسم غالب عليها ومنه قوله ﷺ : ماطلع النجم قطّ وفي الأرض من العاهة شيء إلا رفع يريد ﷺ الثريّا وتسمّى الثريّا أيضاً بالية الحمل لأنّها تطلع بعد بطن الحمل وهي سبعة كواكب ولا يكاد يرى السابع منها لخفائه تمتحن به الأبصار وكانت قريش تعظمها وتقول : أحسن النجم في السماء الثريّا وكانت رجلتها عند طلوعها وسقوطها فإذا طلعت بالغداة عدّها من الصيف وإذا طلعت بالعشيّ عدّها من الشتاء « إذا هوى » إذا غرب والهوى السقوط من علو إلى سفلى .

و في تفسير قوله : « والنجم إذا هوى » أقوال :

الاول : أنّه تعالى أقسم بالنجم الثريّا إذا سقطت و غابت مع الفجر .

والثاني : أقسم بالقرآن إذا نزل نجوماً متفرّقة على النبيّ في ثلاث وعشرين سنة فسمّى القرآن نجماً لتفرّقه في النزول والعرب يسمي التفريق تنجيماً والمفرّق منجماً .

والثالث : أنّ المراد به جماعة النجوم إذا هوت وأخفيت وأراد به الجنس وإشارة في أقول النجم إلى طلوعه لأنّ ما يافل يطلع فاستدلّ بأفوله و طلوعه إلى وحدانيّته تعالى وقيل : المراد بهويّه وسقوطه يوم القيامة .

والرابع : يعني به الرجوم من النجوم وهو ما يرمى به الشياطين عند استراق السمع وروى العامة عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : أراد بالنجم عهداً ﷺ إذا نزل ليلة

المعراج والهوى النزول نزل من السماء السابعة ليلة المعراج ولما نزلت السورة وقرأها رسول الله ﷺ جاء عتبة بن أبي جهل^(١) إلى النبي ﷺ وطلق ابنته النبي ﷺ وتفل اللعين في وجهه ﷺ وقال : كفرت بالنجم ورب النجم فدعا ﷺ عليه وقال : اللهم سلط عليه كلباً من كلامك فخرج عتبة مع أبيه إلى الشام فنزل في بعض الطريق وألقى الله إليه الرعب فقال : لأصحابه أقيموني بينكم ليلاً ففعلوا فجاء أسد أو كلب فاقتربه من بين الناس .

الخامس : في المجالس عن ابن عباس قال : صلينا العشاء الآخرة ذات ليلة مع رسول الله ﷺ فلما سلم أقبل إلينا بوجهه ثم قال : إنه سينقض كوكب من السماء مع طلوع الفجر فيسقط في دار أحدكم فمن سقط ذلك الكوكب في داره فهو وصي وخليفة والامام بعدي فلما كان قرب الفجر جلس كل واحد منّا في داره فلما طلع الفجر انقض الكوكب في دار علي قال ابن عباس - وكان أطمع القوم في ذلك - فقال رسول الله لعلي : يا علي والذي بعثني بالنبوة لقد وجبت لك الوصية والخلافة والإمامة بعدي فقال المناقون : لقد ضلّ محمد في محبة ابن عمه وغوى وما ينطق في شأنه إلا بالهوى فأنزل الله تعالى : «والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى» يعني في محبة علي [وما ينطق عن الهوى] في شأن علي [إن هو إلا وحي يوحى] وعن الصادق عن آبائه ﷺ ما يقرب منه والقمي عن الرضا ﷺ إن النجم رسول الله . وعن الباقر ﷺ يقول : ما ضل في علي وما غوى وما ينطق فيه عن الميل والهوى وما كان ما قاله فيه إلا عن الوحي الذي أوحى إليه وفي الكافي عنه ﷺ : أقسم سبحانه بمحمد إذا قبض ما ضل صاحبكم بتفضيله أهل بيته وما غوى وما ينطق بفضل أهل بيته بهواه وهو قول الله : «إن هو إلا وحي يوحى» إليه .

وفي المجالس عن الصادق ﷺ إن رضى الناس لا يملك وإن ألسنتهم لا مضبطو كيف تسلمون مما لم يسلم منه رسول الله ﷺ وأنبيائه فنسبوا نبينا محمداً إلى أنه ينطق عن الهوى في ابن عمه علي حتى كذبهم الله فقال : «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى» .

وبالجملة ما عدل ﷺ عن الحق وما فارق الهوى وما خاب عن إصابة الرشد . و قيل : ما خاب سعيه بل ينال ثواب الله وكرامته .

وقوله : «ماضل» صاحبكم ، جواب القسم . والوحي قد يكون اسماً بمعنى الكتاب الإلهي وقد يكون مصدر أوله معان الإرسال والإلهام والكتابة والإشارة إلى أن النبي ﷺ قد فنى عن ذاته وصفاته وأفعاله في ذات الله وصفاته وأفعاله بحيث لم يبق منه لاسم ولا رسم فكان ناطقاً بنطق الحق لا بنطق البشرية فحينئذ لا يجري عليه الخطرات الشيطانية والهواجس النفسانية به وهذا معنى قوله : لست كأحدكم أيبت عند ربّي يطعمني ويسقيني وقوله ﷺ : أنا من الله والمؤمنون منّي .

[علّمه شديد القوى] أي علّم القرآن الرسول و نزل به عليه وقرأه عليه و بيّنه له هذا على أن يكون الوحي بمعنى الكتاب وإن كان بمعنى الإلهام فتعليمه بتبليغه إلى قلبه ﷺ فيكون كقوله : «نزل به الروح الأمين على قلبك»^(١) ، «علّمه شديد القوى» من إضافة الصفة إلى فاعلها مثل حسن الوجه والموصوف مخدوف أي ملك شديد قواه وهو جبرئيل عليه السلام ويكفيك دليلاً على شدة قواه أنه قطع قرى قوم لوط من الماء الأسود تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها و صاح بشموذ صيحة فأصبحوا جاثمين و رأى جبرئيل إبليس يكلم عيسى عليه السلام في بعض عقبات الأرض المقدسة فنفضه نفخة بجناحه وألقاه في أقصى جبل في الهند وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده ﷺ في أسرع من رجعة الطرف .

[ذومرّة] أي حصافة واستحكام في رأيه وعقله ومثانة في دينه والمرّة بالكسر قوة الخلق والعقل وفلان ذومرّة أي محكم القتل وذومرّة جبرئيل .

[فاستوى] عطف على علّمه أي فاستقام واستقرّ بصورته التي خلقه الله عليها وله ستمائة جناح دون الصورة التي كان يتمثل بها كلّما هبط إلى الأرض كما كان يهبط بالوحي أحياناً بصورة دحية الكلبي وأتى إبراهيم في سورة الضيف و لداود في صورة الخصم وذلك أن النبي ﷺ أحب أن يراه في صورته التي جعل عليها و كان رسول الله ﷺ بجبل

حراء وهو الجبل المسمى بجبل النور بقرب مكة فقال جبرئيل : إن الأرض لا تسعني و لكن انظر إلى السماء فطلع له جبرئيل من المشرق فسد الأرض من المغرب وملاً الأفق فخبر رسول الله كما خر موسى في جبل الطور فنزل جبرئيل في صورة الأدميين فضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه فإن الجسد وهو في الدنيا لا يتحمل رؤية ما هو خارج عن طور العقول .

وما رأى أحد من الأنبياء صورة جبرئيل بصورته غير نبيينا ﷺ فإنه رآه فيها مرتين مرة في الأرض وهي هذه ومرة في السماء ليلة المعراج عند سدة المنتهى . وروي أن حمزة بن عبد المطلب استدعى من رسول الله وقال : أرني جبرئيل في صورته فقال : إنك لن تستطيع أن تنظر إليه قال : بلى يا رسول الله أرنيه فقعد و نزل جبرئيل على خشبة في الكعبة كان المشركون يضعون ثيابهم عليها إذا طافوا فقال ﷺ : ارفع طرفك يا حمزة فانظر فرفع عينه فإذا قدماء كالزبرجد فخر مغشياً عليه ، وروي أنه رآه على فرس والدنيا بين كلكها وفي وجهه أخذود من البكاء لو ألقيت السفن فيه لجرت وإنما رآه ﷺ مرتين ليكمل له الأمر مرة في عالم الكون والفساد وأخرى في المحل الأعلى وإنما قام بصورته ليؤكد أن ما يأتيه في صورة دحية هو هو .

فإن قيل : كيف يجوز أن يغير الملك صورة نفسه وهل يقدر غير الله على تغيير صورة المخلوقين وقد ثبت أن جبرئيل أتى رسول الله في صورة رجل وقد قيل : إن إبليس أتى قريشاً^(١) في صورة شيخ نجدى .

فالجواب عنه أن التغيير الصورة الذي هو تغيير التركيب والتأليف لا يقدر عليه إلا الله لكن صفة جبرئيل بفعل الله وقد جعل الله لجبرئيل بأمره هذه القوة وليس انتقاله ﷺ من صورة إلى صورة يكون بنقض البنية وتفريق الأجزاء وتمزيقها حتى إذا انقضت بطل الحياة واستحال وقوع الفعل من الجملة و يحتاج إلى إحياء ثان فيكون تلك القدرة من جبرئيل محال وأما إبليس فكان ذلك تخيلاً للناظرين وتمويهاً دون التحقيق كفعل السحرة بالعصي والحبال .

(١) عند اجتماعهم في دار الندوة لاطفاء نورا الله .

قال القاضي أبو يعلى ولا قدرة للشياطين على تغيير خلقهم والانتقال في الصورة إنما يجوز أن يكونوا معلمين كلمات وملقنين ضرباً من ضروب الأفعال إذا فعله و تكلم به نقله الله من صورة إلى صورة فيكون قادراً على التصوير و التخيل معنى أنه قادر على قول إذا قاله أو على فعل إذا فعله نقله الله من صورة إلى صورة أخرى والتمثل بصورة رجل أو غيره ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً بل معناه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن خاطبه والقدرة الزائدة لا يزول ولا يفنى بل يخفى على الراي فقط وتعد الصور بالتخييل والتشكيل ممكن كما هو حاصل للجان .

قوله: [وهو بالأفق الأعلى] كناية عن جبرئيل بالأفق المشرق وهو فوق جانب المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء وكان النبي ﷺ بحراء جبل النور قرب مكة وقد مر بيانه .

[ثم دنا فتدلى] وقيل : فتداني و تقديره قرب جبرئيل بعد بعده وعلوه ثم تدلى أي زاد في القرب مثل قولك : فلان قرب مني و دنا وقيل : المعنى استوى أي اعتدل وافتق في الهواء بعد أن كان نزل بسرعة ليراه النبي ﷺ بصورته وقيل : إن المعنى استوى جبرئيل أي ارتفع وعلا إلى السماء بعد أن علم عمداً وقيل : استوى جبرئيل و عمداً بالأفق الأعلى يعني السماء ليلة المعراج وقيل : إن التدلي استرسال مع التعلق أي استرسل جبرئيل من الأفق الأعلى مع تعلقه به فدنا من النبي ﷺ .

[فكان] أي مقدار امتداد ما بين رسول الله وجبرئيل ومسافة بينهما [قاب قوسين] و القوس ما يرمي به وخصت بالذكر على عادة العرب وقيل : المراد من القوس ما يقاس به الشيء والمراد مقدار ذراعين يقال : قاس الشيء يقوسه إذا قدره و قوله : [أو أدنى] أو أقل من ذراعين أو أقل من سبتي القوسين ومسافتها والعباد يخاطبون على لغتهم و هو كقوله : «أوبزيدون»^(١) فإن التشكيك لا يصح على الله فأو للشك من جهة العباد كما أن كلمة لعل كذلك في مواضع القرآن والمعنى لورآهما راء منكم لقال : هو قدر قوسين في القرب

أوأدنى والتبس القرب عليه والمراد بيان وتمثيل بملكة الاتصال وتحقيق استماعه ﷺ لما أوحى إليه .

[فأوحى] أي جبرئيل [إلى عبده] أي محمد وإضماره قبل الذكر لغاية ظهوره مثل قوله : «ما ترك على ظهرها» (١)، [ما أوحى] من الأمور العظيمة التي لا تنفي العبارة أو فأوحى الله بواسطة جبرئيل ما أوحى ، وفي العلل عن السجّاد عليه السلام أنه سئل عن الله هل يوصف بمكان فقال: تعالى الله عن ذلك قيل : فلم أسري بنبيته محمد إلى السماء قال : ليريه ملكوت السماء وما فيها من عجائب صنعه وبدائع خلقه قيل : فقول الله : «ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى» قال : ذلك رسول الله دنا من حجب النور فرأى ملكوت السماوات ثم تدلى فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض حتى ظن أنه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى فحينئذ الضمير في قوله : «دنا فتدلى» راجع إلى النبي ﷺ .

وعن الصادق عليه السلام أول من سبق إلى الله وذلك أنه أقرب الخلق إلى الله بالمكان الذي قال له جبرئيل : لما سري به إلى السماء تقدّم يا محمد فقد وطئت موطئاً ما وطئه ملك مقرب ولا نبي مرسل .

وفي الأموال عن النبي ﷺ قال : عرج بي إلى السماء ودنوت من ربي كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى فقال لي : يا محمد من تحب من الخلق قلت : يا ربّ عليّاً قال : فالتفت يا محمد فالتفت عن يساري فإذا علي بن أبي طالب وفي الاحتجاج عن السجّاد قال : أنا ابن من علا فاستعلى فجاء سدرة المنتهى فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى . وفي الكافي عن الصادق أنه سئل كم عرج برسول الله فقال : مرتين فأوقفه جبرئيل موقفاً فقال له : مكانك يا محمد فلقد وقفت موقفاً ما وقفه ملك ولا نبي إن ربك يصلي فقال : يا جبرئيل وكيف يصلي قال : يقول سبّوح قدّوس أنا رب الملائكة والروح سبقت رحمتي غضبي فقال : اللهم عفوك عفوك .

قال الصادق عليه السلام : ما جاء ولاية أمير المؤمنين من الأرض ولكن جاءت من السماء مشافهة قال الفيض : ولا تنافي بين هذه الأخبار وكلها صدر من معدن العلم على مقادير

الأفهام المخاطبين والمراد من الآية تمثيل المقدار القرب المعنوي الروحاني بالمقدار الصوري الجسماني المكاني تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً والمراد من قوسين مقدار طرفي القوس فيكون مقدار مجموع مقدار جعل الطرفين من القوس قوساً على حدة لا أنه طرفي قوسين متعدد دين فيكون مقدار مجموع القوسين مقدار قوس واحد .

قوله تعالى : ما كذب الفؤاد ما رأى (١١) أفتمارونه على ما يرى (١٢) ولقد رآه نزلة أخرى (١٣) عند سدرة المفتهى (١٤) عندها جنة المأوى (١٥) اذ يغشى السدرة ما يغشى (١٦) ما زاغ البصر وما طغى (١٧) لقد رأى من آيات ربه الكبرى (١٨) أفرأيتم اللات والعزى (١٩) ومنات الثالثة الأخرى (٢٠) أنكم الذكر وله الانثى (٢١) تلك اذا قسمة ضيزى (٢٢) .

ثم بين سبحانه ما رآه النبي ليلة الأسمى وحقق رؤيته فقال : لم يكذب فؤاد محمد ما رآه بعينه وما أوهمه الفؤاد إنه رأى ولم ير بل حقيقة رأى و صدقه الفؤاد رؤيته . وقيل : المراد رأى محمد ربه بفؤاده وبصيرته لا بعينه روي ذلك عن محمد بن الحنفية عن أبيه عليه السلام فحينئذ يكون بمعنى العلم أي علمه علماً يقينياً بما رآه بعينه من الآيات الباهرة كقول إبراهيم : « ولكن ليطمئن قلبي »^(١) وإن كان عالماً قبل ذلك وقيل : المراد مما رأى من صورة جبرئيل أي ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره . [أفتمارونه على ما يرى] أي أنكذبون محمدًا فتجادلونه على ما يراه معانية من صورة جبرئيل أو آيات جلال ربه وذلك أن النبي ﷺ لما أخبر بما رأى ليلة الأسمى أنكروا عليه وتعجبوا والمماراة المجادلة بالباطل واشتقاقه من مري النافقة سخرها لتدري ومريت الفرس إذا استخرجت ما عنده من الجري ولما كانت رؤية جبرئيل أو الآيات مستمرة إلى وقت الانتقال صح أن يقال بصيغة المستقبل .

القمي : سئل رسول الله عن ذلك الوحي فقال : أوحى إلي أن علياً سيد المؤمنين وإمام المتقين وأول خليفة استخلفه خاتم النبيين فدخل القوم في الكلام فقالوا : أمن الله أو من رسوله فقال الله لرسوله : قل لهم : « ما كذب الفؤاد ما رأى » ثم رد عليهم فقال :

« أفتمارونه على ما يرى » فقال لهم رسول الله ﷺ : أمرت أن أنصبه للناس فأقول : هذا وليكم من بعدي وإنه بمنزلة السفينة يوم الغرق من دخل فيها نجا ومن خرج عنها غرق .

[ولقد رآه نزلة أخرى] أي رأى جبرئيل في صورته التي خلق عليها مرة أخرى ونزلة منصوب على الظرف الذي هو مرة لأن الفعل للمرة من الفعل فكانت في حكمها في المعنى فيكون تقدير الكلام وبالله لقد رأى محمد جبرئيل على صورته الأصلية مرة أخرى من النزول وذلك أنه كان للنبي ﷺ ليلة المعراج عرجات لمسألة التخفيف في أعداد الصلاة المفروضة فيكون لكل عرجة نزلة فرأى جبرئيل بصورته الأصلية في بعض تلك النزلات .

[عند سدرة المنتهى] أي كان جبرئيل عند السدرة وهي شجرة عن يمين العرش فوق السماء السابعة انتهى إليها علم كل ملك أو ينتهي ما يعرج إلى السماء وما يهبط من فوقها وهذه الشجرة حيث انتهى إليه الملائكة فأضيف إليه وقيل : هي شجرة طوبى وهو مقام جبرئيل وكان قد بقي هناك عند عروجه ﷺ إلى مستوى العرش فقال جبرئيل : لو دئت أنملة لاحترقت والظاهر أن شجرة السدرة تبقى في السماء السابعة عن يمين العرش ورقها كأذان الفيلة نبع من أصلها الأنهار المذكورة في القرآن وينتهي إليها الملائكة وجبرئيل رسول الملائكة إذا لم يتجاوزها فبالحري أن لا يتجاوزها غيره فأعلاها لجبرئيل كالوسيلة للنبي ﷺ وكما أن خواص الأمة يشتركون مع النبي في الجنة عدن بدون أن يتجاوزوا إلى مقامه المخصوص به فكذا الملائكة يشتركون مع جبرئيل في السدرة بدون أن يتعدوا إلى ما خص به من المكان وإليها ينتهي علم الخلائق ولا يعلم أحد ما وراءها ولو أن ورقة من تلك السدرة وضعت لأهل الأرض لأضاعت الأرض وإضافة السدرة إلى المنتهى إضافة الشيء إلى مكانه كقولك : أشجار البستان وإذا كان الفرض أن الضمير المفعول في قوله : « رآه » راجع إلى الله كما أن المرئي هو الله يعني أن محمد رأى الله مرة أخرى يعني مرتين كما كلم موسى مرتين فحينئذ كلمة « عند سدرة المنتهى » حال من الرائي لا من المرئي لأن الله منزله عن أن يحل في مكان أو زمان و « عند » متعلق برأى .

قال ابن برجان : الإسراء مرتين الأولى بالغواد وهذه المرة بالعين ولما كان ذلك لا يتأتى إلا ينزل بقطع مسافة البعد التي هي الحجب عبّر بقوله : « نزلة أخرى » وعبر الوقت بتعيين المكان فقال : « عند سدرة المنتهى » ولكن جلّ المفسرين جعلوا الضمير في قوله « رآه » كناية إلى جبرئيل لا إلى الرب كما قالت عايشة : سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال ﷺ : رأيت جبرئيل نازلاً في الأفق على صورته الأصلية .

قال صاحب تفسير روح البيان : إن الشيخ الأكبر قال : إن معراجهم ﷺ أربع و ثلاثون مرة واحدة بجسده و الباقي بروحه . قال البقلي : بان الحق لحبيبه عند شجرة السدرة لا بالتجسم كما بان لموسى من شجرة العناب .

وبالجملة فعظم الله بيان شرف السدرة فقال : [عندها جنة المأوى] وإضافة الجنة إلى المأوى مثل إضافة مسجد الجامع أي قرب السدرة جنة الخلد وهي في السابعة وقيل : هي الجنة التي كان آوى إليه آدم عليه السلام وتصور إليها أرواح الشهداء . وقيل : هي التي يأوي إليه جبرئيل والملائكة وهذه الجنة لا تقتضي الخلود لذاتها فلذلك أمكن خروج آدم منها .

[إذ يغشى السدرة ما يغشى] الغشيان بمعنى التغطية والستر وكلمة « إذ » ظرف زمان لرآه قال النبي ﷺ : رأيت السدرة رفرف أي جماعة من طيور خضر - وقيل : يغشاها فراش أو جراد من ذهب - ورأيت على كل ورقة ملكاً قائماً يسبح الله فالطيور هم الملائكة . وقيل : يغشاها من النور والبهاء والصفاء الذي يروق الأبصار ، وحاصل المعنى : إنه صلى الله عليه وآله رأى جبرئيل في الحال التي يغشى فيها السدرة من الملائكة بصورة الفراش يعبدون الله .

والتنكير في قوله : « ما يغشى » لتفخيم الأمر مثل قوله : « ما أوحى » . وقيل : المراد من قوله : « ما يغشى » المراد الملائكة الذين استأذنوا اللقاء النبي ﷺ فأذن لهم وقيل لهم : لا تأمؤوه بغير نثار فجاء كل واحد منهم بطبق من أطباق الجنة عليه من اللطائف فنشروه بين يديه . وفي الحديث أنه ﷺ أعطي عند السدرة ثلاثاً الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن مات من أمته وهو غير مشرك بالله شيئاً .

[ما زاغ البصر] أي مامال بصير رسول الله أدنى ميل عما رآه [وما طغى] وما تجاوز مع ما شاهد هناك من الأمور العظيمة المدهشة للعقول وما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ويستفاد من الآية على أن رؤيته ﷺ الآيات كانت بعين بصره حقيقة وبقطة لا حكماً وقلباً ولو كانت الرؤية قلبية لقال ما زاغ قلبه ولو كان المراد بالبصر بصر قلبه فلا بد له من القرينة وهي ههنا معدومة .

[لقد رأى من آيات ربه الكبرى] أي وبالله لقد رأى محمد ليلة المعراج الآيات التي هي كبرها وعظماها ما لا يحيط به نطاق العبارة التي منها ما ذكر في الرفارف والسدرة وصورة جبرئيل وغيرها واعلم أن القدم منزلة عن الحلول في المكان وكانت الشجرة مرآة لظهور جلاله تعالى جل جلاله وكان الإسراء ليلة السابع والعشرين من رجب في السنة الثانية عشر من النبوة قبيل الهجرة .

قال صاحب تفسير روح البيان : إن وقوع الإسراء في هذا التاريخ فيه إشكال بل يكون قبل هذا التاريخ لأن هذه السورة على ما قيل : نزلت في السنة الخامسة من النبوة .

وأول من رأى ﷺ في السماء ليلة الإسراء آدم في السماء الدنيا وكان آدم قبل ذلك في أمن الله وجواره فأخرجه عدوّه إبليس منها وما أشبه حاله ﷺ بحال آدم حين أخرجه أعداؤه من حرم الله وجوار بيته وكربه .

ثم رأى ﷺ في السماء الثانية عيسى ويحيى وهما الممتحنان باليهود أمّا عيسى فكذبته اليهود وآذته وهمّوا بقتله فرفعه الله وأمّا يحيى فقتلوه كذلك يشبه حاله ﷺ بحالهما من أذى اليهود إياه ﷺ وهمّوا بإلقاء الصخرة عليه ليقتلوه وسمّوا في الشاة فلم تنزل تلك الأكلة تعاوده حتى قطعت أبهره .

و في السماء الثالثة لقاءه ليوسف ﷺ يشبه حاله حال يوسف و ذلك أن يوسف ظهر بأخوته بعد ما أخرجوه من بين ظهرائهم فصفح عنهم وقال : لا تثريب عليكم اليوم ^(١) الآية ، وكذلك نبينا ﷺ أسر يوم بدر جملة من أقاربه الذين أخرجوه من

مكة وفيهم عمه العباس وابن عمه عقيل فممنهم من أطلق و منهم من فداء وظفر بعد ذلك عليهم عام الفتح فجمعهم وقال لهم : أقول لكم ما قال أخي يوسف : « لا تثريب عليكم » .
و كذلك لقاءه ﷺ إدريس في السماء الرابعة وهو المكان الذي سماه الله مكاناً علياً وهو أول من آتاه الله الخط بالقلم وهو مؤذن بحاله رافعة وعلو شأنه حين أخاف الملوك و كتب ﷺ إليهم يدعوهم إلى طاعته حتى قال أبو سفيان : وهو عند ملك الروم حين جاء كتاب النبي ورأى مارأى من خوف هرقل لقد آل أمر ابن أبي^(١) كبشة حتى أصبح يخافه ملك ابن أبي الأصفر و كتب إلى بعض ملوك الأرض فممنهم من اتبعه على دينه كالنجاشي و ملك عمان و منهم من هادنه وأهدى إليه و أتبعه كهرقل ملك الشام ومقوقس سلطان مصر و منهم من تعصى عليه فأتظفر الله عليه فهذا مقام علي .

و لقاءه في السماء السادسة لموسى ﷺ يؤذن بحاله تشبه بحالة موسى حين أمر بغزوة الشام على الجبابرة بعد إهلاك فرعون كذلك النبي ﷺ غزا تبوك من أرض الشام وظهر على صاحب دومة الجندل حين صالحه على الجزية بعد أن أتى أسيراً وافتتح مكة وأدخل أصحابه البلد الذي خرجوا منه .

ثم لقاءه في السماء السابعة لإبراهيم وهو الرافع لقواعد الكعبة المحجوجة ويؤذن بأنه ﷺ يحج هو وأصحابه ويتبع إبراهيم بالحج وقيام أمره .

قال أهل التحقيق : إن الله لا يرى ولا يمكن أن يرى كما هو الحق وهذه الآيات دالة على أن محمداً لم ير الله ليلة المعراج وإنما رأى آيات ربه المعظمة لأنه تعالى ختم قصة المعراج برؤية الآيات حيث قال : « لقد رأى من آياته الكبرى » وقال في موضع آخر : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام^(٢) » ، إلى أن قال : « لنريه من آياته » ولو كان رآه لكان ذلك أعظم ما يكون من الكرامة وكان يذكره ويختم به .

أقول : ورؤية ذاته تعالى أمر محال غير ممكن ولا يحصل أبداً في الدنيا ولا في الآخرة

(١) يلقبون به رسول الله صلى الله عليه وآله . لما سيأتي ذيل قوله تعالى : « وانه هو رب السموى » .

(٢) الاسراء : ١ .

ولكنه أظهر سبحانه لحبيبه من قدرته المظاهر العظيمة والآيات الكبرى التي مفاتيح الفيض من فيضه الأقدس سبحانه لحبيبه المنتخب من كل العالم بحيث صارت حياته ﷺ مادة حياة العالم كله علوية وسفلية روحانية وجسمانية معدنية ونباتية حيوانية وإنسانية كما قال عز وجل : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ^(١) ، وقال : لولاك لما خلقت الأفلاك وقال ﷺ : أنا من الله والمؤمنون مني .

وكذلك علمه ﷺ فقد علم الأولين والآخرين وفي رواية علم ما كان وما سيكون وصار ﷺ ببركة تجلي صفاته تعالى شأنه له صار آدم بتبعيته وخلافته خليفة العالم كما أخبر في كتابه العزيز « إني جاعل في الأرض خليفة » وأسجد الله الملائكة لتلائو نور هذا الحبيب في وجه آدم انتهى .

[أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى] هي أصنام كانت لهم فاللات كانت لتثيف بالطائف وأصله من لويه لأنهم كانوا يلوون عليها ويطوفون بها وهذا الأصل على قراءة الكسائي فإنه كان يقف باللات بالهاء ويجعلها من هذه المادة والباقون يقفون بالتاء وأصله من اللات وأصله من اسم رجل كان بيت السويق للحجاج بسمن وأقظ إذا قدموا و كان رجلاً صالحاً وكانت العرب تعظم ذلك الرجل باطعامه في كل موسم فلمسا مات اتخذوا مقعده الذي كان بيت فيه السويق منسكاً ثم سنج لهم الأمر إلى أن عبدوا تلك الصخرة التي كان يقعد عليها ومثلوها صنماً وسموها اللات أي ملت السويق .

والعزى تأنيث الأعز كانت لغطفان وهي سمرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها وهو يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانهك * إني رأيت الله قد أهانك

قيل : فخرجت من أصلها شيطانة باشرة شعرها واضعة يدها على رأسها وهي تولول فجعل خالد يضربها بالسيف حتى قتلها وقيل : صنم لاسمرة ، وأول من اتخذها ظالم بن أسعد من ملوك اليمن قيل : كانوا يسمعون فيها الصوت فبعث إليها خالد فهدم البيت الذي هي فيه وأحرق السمرة .

ومناة صخرة لهذيل وخزاعة سميت ، لأن دماء المناسك تمنى وتراق عندها و منه منى وفي إنسان العيون : مناة صنم كان للأوس والخزرج . أرسل رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً إلى مناة ليهدم محلها فلمّا وصلوا إلى ذلك الصنم قال السادن لسعد : ما تريد ؟ قال : هدم مناة قال : أنت وذاك فأقبل سعد إلى ذلك الصنم فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء تائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب رأسها فقال لها السادن : مناة دونك بعض عصاتك فضر بها سعد فقتلها وهدم محلها .

و وصف مناة بالثالثة تأكيداً لأنها لما عطف عليها علم أنها ثالثتهما والأخرى صفة ذم لها وهي المتأخرة الوضعية المقدار لأن الأخرى يستعمل في الضعفاء كقوله تعالى وقالت أخراهم لأولاهم^(١) أي ضعفاؤهم لرؤسائهم . والأخرى تأنيث الآخر بفتح الغاء و هو في الأصل المتأخر في الوجود نقل في الاستعمال إلى المفارقة مع الاشتراك مع موصوفه فيما أثبت له و كانت الأوليّة و التقدم عندهم للآت فيكون مناة من المتأخر الرببي .

وقيل : إن المشرّكين أرادوا أن لا لهم من الأسماء الحسنى فسمّوا في مقابلة اسم الله اللات وفي مقابلة العزيز العزى وفي مقابلة المنان المناة وكانوا يقولون : إن الملائكة وتلك الأصنام بنات الله .

والحاصل في معنى الآية : أخبروني عن حال آلهتكم التي تعبدونها واتخذتموها معبوداً هل وجدتم فيها صفة من صفات الألوهية من الإيجاد والإعدام والنفع والضر لا بل اتخذتموها آلهة لغاية جهلكم وظلمكم على أنفسكم ، والهمزة للإنكار والتبكي والمفعول الثاني من رأيتم محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره خالقة و كان بعض المشرّكين يقولون : إن الملائكة بنات الله وهذه الأصنام صورتها ويعبدونها فقال سبحانه على سبيل التوبيخ مثل توبيخ الأوثان :

[ألكم الذكر وله الأنثى] أي الذي تستنكفون منه تنسبونه إليه تعالى [تلك إذاً قسمة ضيزى] إشارة إلى القسمة القبيحة المستنبطة من الجملة الاستفهامية و ضيزى فعلى

بضم الصاد من ضار يضير ضيراً إذا جار في الحكم وضاره حقه إذا بخسه ونقصه أي ما هذا إلا قسمة الجور .

ان هي الا اسماء سميتموها أنتم وابقوكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى (٢٣) أم للانسان ما تمنى (٢٤) فله الاخرة والاولى (٢٥) وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى (٢٦) ان الذين لا يؤمنون بالاخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى (٢٧) ومالهم به من علم ان يتبعون الا الظن ان الظن لا يغنى من الحق شيئاً (٢٨) فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا (٢٩) ذلك مبلغهم من العلم ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بمن اهتدى (٣٠) .

[ان هي إلا أسماء] أي ليس تسميتكم هذه الأصنام بأنها آلهة وأنها بنات الله إلا مجرد الأسماء لامعاني لها ولا مصاديق تحت هذه الأسماء لأنه لا ضرر لها ولا نفع وما هي إلا مجرد الأسماء لامعاني لها ولا مصاديق تحت هذه الأسماء لأنه لا ضرر لها ولا نفع وما هي إلا أسماء ألقيت على جمادات [ما أنزل الله بها من سلطان] أي لم ينزل الله حجة وكتاباً لكم فيها وليس لكم فيما تقولونه حجة [سميتموها أنتم وابقوكم] وأسماء خالية عن المسميات وضعتموها للأصنام أنتم ومن تقدم منكم بمقتضى أهوائكم الباطلة .

[ان يتبعون إلا الظن] التفات إلى الغيبة للإيدان بأن تعداد قبائحهم اقتضى الإعراض عنهم وما يتبعون إلا توهم أن ما هم عليه حقاً [وما تهوى الأنفس] ويشتهونها تأسيّاً بأفعال آبائهم وهوى أنفسهم [ولقد جاءهم من ربهم الهدى] حال من فاعل يتبعون وفيه تأكيد لبطلان اتباع الظن وهوى النفس والهدى القرآن والرسول ولم يهتدوا بهما مع أن القرآن والرسول والمعجزات من موجبات الهدى وقد أعرضوا لجهلهم .

[أم للانسان ما تمنى] أي ليس للانسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه من الأمور التي من جعلتها طمعهم الفاسد في شفاعته هؤلاء الجمادات .

ما كل ما يتمنى المرء يدركه * تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

و قيل : المعنى أم لا إنسان ما انتهى من طول الحياة وأن لا يبعث ولا يحشر ولا يتهيأ له كل ما يتمناه إذ كل ميسر لما أراد الله .

[فلله الآخرة والأولى] تعليل لاقتفاء أن يكون للإنسان ما يتمناه فإن اختصص أمورا الآخرة والأولى به تعالى مقتضى لاقتفاء أن يكون له أمر من الأمور التكوينية .

[وكم من ملك في السماء] إقناط لهم ما طمعوا من شفاعاة الملائكة حيث عبدوها وكم خبرية مفيدة للتكثير و محلها الرفع على الابتداء و الخبر الجملة المنفية أي و كثير من الملائكة [لا تغني شفاعتهم] عند الله [شيئاً] من الإغناء ولا تنفع شيئاً من النفع و ليس المعنى أن الملائكة يشفعون فلا تنفع بل المعنى أنهم لا يشفعون لأنه لا يؤذن لهم في الشفاعاة كما يفصح عن هذا المعنى [إلا من بعد أن يأذن الله] لهم في الشفاعاة [لمن يشاء] أن يشفعوا له [وبرضى] و براء أهلاً للشفاعة ويكون مرضي الدين ومن أهل التوحيد والإيمان وأما من عداهم من أهل الكفر والنفاق فهم من إذن الله بمعزل فإذا كان حال الملائكة في أمر الشفاعاة كذلك فحال الأصنام الجمارية والنباتية معلومة .

[إن الذين لا يؤمنون بالآخرة] وبما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي [ليسمون الملائكة] المنزهين عن سمات النقص [تسمية الأئشي] أي تسمية مثل تسمية الأئشي .

فإن قيل : كيف يصح أن يقال : إنهم لا يؤمنون بالآخرة مع أنهم كانوا يقولون : هؤلاء شفعائنا عند الله وكان من عادتهم أن يربطوا مراكب الميت على قبره ويعتقدون أنه يحشر عليه ؟

فالجواب أنهم لا يجزمون به بل كانوا يقولون : لانحشر فإن حشرنا فلنا شفعاء بدليل قوله حكاية عنهم : « وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى »^(١) ثم إنهم ما كانوا يعترفون على الوجه الذي ورد به الرسل .

و اعلم أن الملائكة ليسوا بذكور ولا أناث يعني أنه ليس لهم آلة الرجولية ولا آلة الأنوثة وما في الحديث من أنه ﷺ قال : أتاني جبرئيل فعلمني الوضوء والصلاة

فلما شرع في الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه أي محلّ الفرج من الإنسان .
[و ما لهم به من علم] أي يسمّون والحال أنّه لا علم لهم بما يقولون أصلاً [إن
يتبعون] أي ما يتبعون [إلا الظنّ] الفاسد وليس في الكلام تكرار لأنّ الأوّل متصل
بعبادتهم اللات والعزى ومناة والثاني بعبادتهم الملائكة [وإنّ الظنّ لا يغني من الحقّ
شيئاً] مرّ تفسيره والظنّ لا اعتداد به في شأن المعارف الأصوليّة . والحقّ في الآية يجوز
أن يكون بمعنى العلم وقيل : الحقّ في الآية بمعنى العذاب .

ثمّ خاطب نبيّه فقال : [فأعرض] يا محمد [عن من تولى عن ذكرنا] ولم يقرّ
بتوحيدنا ومال إلى الدنيا و منافعها والمراد من الإعراض في الآية أن لا تقابلهم على أفعالهم
و احتملهم ولا تدع مع هذا دعاءهم إلى الحقّ .

[ذلك مبلغهم من العلم] أي الإعراض عن التدبّر في أمور الآخرة وصرف الهمة
إلى التمتع باللذات العاجلة منتهى علمهم و هو مبلغ خسيس لأنّه من طباع البهائم لا
تنتظر العافية .

[إنّ ربّك هو أعلم] منك و من جميع الخلق [بمن ضلّ عن سبيله] و عدل عن
سبيل الحقّ [وهو أعلم بمن اهتدى] فيجازي كلّاً على حسب أعمالهم .

ولله ما في السموات والارض ليجزي الذين اساءوا بما عملوا ويجزي
الذين احسنوا بالحسنى (٣١) الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللهم
ان ربك واسع المغفرة هو اعلم بكم اذ انشأكم من الارض و اذ انتم اجنة
فى بطون امهاتكم فلا تزكوا انفسكم هو اعلم بمن اتقى (٣٢) أفرأيت الذى
تولى (٣٣) واعطى قليلا و اكدى (٣٤) اعنده علم الغيب فهو يرى (٣٥) لم
ينبأ بما فى صحف موسى (٣٦) و ابراهيم الذى وفى (٣٧) الا تزر وازرة وزر
اخرى (٣٨) و ان ليس للانسان الا ما سعى (٣٩) و ان سعيه سوف يرى (٤٠)
ثم يجزاه الجزاء الاوفى (٤١) .

ثمّ أخبر سبحانه عن كمال قدرته فقال :

[والله] ملك [السماوات] وهذا اعتراض بين الآية السابقة و بين قوله : [ليجزي

الذين أساءوا بما عملوا] واللام في قوله : « ليجزي » متعلق بمعنى الآية السابقة لأنه إذا كان أعلم بهم جازى كلاً منهم بما يستحقه واللام لام العاقبة وذلك أن علمه تعالى بالفريقين أدى إلى جزائهم باستحقاقهم وإنما يقدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان كثير الملك ولذلك أخبر به في قوله : « والله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي » في الآخرة « الذين أساءوا » وأشر كوا ومملوا بالمعاصي .

[ويجزي الذين أحسنوا] ووحدوا ربهم لأنه يعلم حالهم فيعلم ضلال من ضلّ واهتداء من اهتدى [بالحسن] أي بالثبوت الحسن التي هي الجنة أو بسبب أعمالهم فالحسن للزيادة المطلقة والباء لتعديده الجزاء أو المقابلة .

[الذين يجتنبون كبائر الإثم] صفة للذين أحسنوا أو بدل منه و كبائر الإثم ما يكبر عقابه من الذنوب وهو ما خص عليه الوعيد كالشرك والزنا وقتل النفس وأمثالها [والفواحش] جمع فاحشة وهي أقبح الذنوب وأفحشها واختلف في عدد الكبائر قال ابن عباس : هي إلى السبعين أقرب ، وقيل : إن الكبيرة ما أوعده الله عليها النار والفاحشة كل ذنب فيه الحد .

[إلا اللّم] والاستثناء منقطع لأن معنى اللّم التقارب والنزول بقربه ويعبر به عن الصغيرة والصغائر لا تدخل في الكبائر ويمكن أن يكون الاستثناء متصلاً لأن الصغيرة داخلة في أفراد الذنوب وليس خارج عنه من حيث الذات بل متفاوتة بالصفة وحاصل المعنى إلا ما قلّ وصغر فإنه مغفور ممن يجتنب الكبائر وإن الصلاة الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهن إذا احتتب الكبائر قال سبحانه : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » (١) .

قيل في النزول : إن نبهان التمار أخته امرأة لتشتري التمر فقال لها : أدخلي الحانوت فعانقها وقبلها فقالت المرأة : خنت أخاك ولم تصب حاجتك فندم وذهب إلى رسول الله فنزلت الآية .

قال ابن عباس : المعنى إلا أن يلم بالمعصية مرة أو اتفاقاً ثم يتوب ولم يثبت عليها

وقال بعض المحققين : إن الذنوب كلها كبائر على الحقيقة لأن الكل يتضمن مخالفة أمر الله تعالى لكن بعضها أكبر من بعض عند الإضافة ولا كبيرة أعظم من الشرك وأما اللطم فهو من جملة الكبائر أيضاً إلا أن الله أراد باللمم الفاحشة التي يتوب عنها مرتكبها وهذا قول جماعة من علماء العامة مثل مجاهد والحسن .

[إن ربك واسع المغفرة] حيث يغفر الذنوب قال ابن عباس : لمن فعل ذلك و تاب ومعناه أن رحمته تسع الذنوب مع التوبة ولا تضيق عنه .

ثم قال سبحانه : [هو أعلم] منكم [بكم] أي بأحوالكم قبل أن خلقكم [إذ أنشأكم من الأرض] أي أنشأ أباكم من أديم الأرض أو المراد جميع الخلق أي خلقكم من الأرض بسبب تناول الأغذية التي خلقها من الأرض فكانت أنشأهم منها [وإذ أنتم أجنت في بطون أمهاتكم] أي علم سبحانه في وقت كونكم أجنت في الأرحام ما أنتم صانعون و صائرون و إذ أعلم ذلك منكم قبل وجودكم فكيف لا يعلم ما حصل منكم ؟

[فلا تزكوا أنفسكم] الفاء لترتيب النهي عن تزكية النفس أي لا تمدحوها بحسن الأعمال ولا تصفوها بالتطهير من الآثام لأن كل واحد من التخلية والتحلية إنما يعتد به إذا كان خالصاً لله وإذا كان معو سبحانه أعلم بأحوالكم فلا حاجة إلى التزكية للناس فهي شرك خفي ومعصية جلية [هو أعلم بمن اتقى] المعاصي والشرك وأعلم بمن بر وأطاع وأخلص العدل من نفس العامل وتحقيق أعلمية الله من نفس العامل هو أن الإنسان علمه ولو بنفسه علم إجمالي ومقيّد بقواه البشرية وهو متناه بحسب تناهي قواه البشرية وعلمه تعالى به علم مطلق إذ علمه عين ذاته في مقام الأحدثية والعلم المطلق أجمع وأكمل من العلم المقيّد .

[أفرأيت الذي تولّى * وأعطى قليلاً وأكدى] نزلت الآيات السبع « أفرأيت الذي ، الآيات » في عثمان بن عفان كان يتصدق وينفق ماله فقال أخوه من الرضاة ، عبدالله بن سعد بن أبي سرح : ما هذا الذي تصنع ؟ يوشك أن لا يبقى لك مال فقال عثمان : إن لي ذنباً وإني بما أصنع أطلب رضى الله فقال له عبدالله : أعطني نافتك برحلتها وأنا أتحمّل عنك ذنوبك كلها فأعطاها وأمسك بعد ذلك عن الصدقة فنزلت : « أفرأيت الذي

توَلَّى ، أي يوم أحد حين ترك المركز ، وأعطى قليلاً ، ثم قطع نفقته إلى قوله : « وإن سعيه سوف يرى » .

قوله : « وأكدي » من أكدي حافر البئر إذا بلغ الصلابة ولا يمكن الحفر أي قطع وأبخل بعطيته وفي تاج المصادر أي قطع القليل .

وقيل : نزلت الآية في الوليد بن المغيرة كان يتبع رسول الله ﷺ وطمع النبي ﷺ في إسلامه فعيّره بعض المشركين وقال له : تركت دين الأسياف وذللتهم ؟ فقال : أخشى عذاب الله فضمن أن يتحمل العذاب عنه وكل شيء يخافه في الآخرة إن أعطاه بعض ماله فارتد وتوَلَّى عن استماع الكلام النبوي ، وأعطاه بعض المشروط وبخل بالباقي . والكلام لا يخلو عن التوبيخ والتهكم ، نعوز بالله من الحور بعد الكور^(١) ومن التنكير بعد التعريف .

[أعنده علم الغيب فهو يرى] أي أعنده علم ما غاب عنه من أمر العذاب فهو يرى ويعلم أن صاحبه يتحمل عنه عذابه .

[أم لم يذباً بما في صحف موسى* وإبراهيم الذي وقى] أي ألم يخبر ولم يحدث بما في أسفار التوراة وبما في صحف إبراهيم الذي أكمل وأنتم^{عليكم السلام} ما أمر به وما أوجب الله عليه من كل ما أمر .

ثم بين سبحانه ما في صحفهما وهو [ألا تزر وازرة وزر أخرى] أي مكتوب في صحفهما أن لا تحمل نفس حمل أخرى ولا تؤخذ نفس بأثم غيرها والصحيفة التي يكتب فيها ويجمع على صحائف وصحف والمصحف مثلث الميم ما جمع فيه القرآن والصحف .

و عن أبي ذر الغفاري قال : سألت رسول الله ﷺ من كتاب أنزل الله ؟ قال ﷺ : مائة كتاب وأربع كتب أنزل الله على آدم عشر صحائف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل الله التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

قال أبو ذر : قلت يا رسول الله ما كانت في صحف إبراهيم^{عليه السلام} ؟ قال : كانت مواعظ و

(١) أي النقص بعد الزيادة .

أمثالاً منها أيها الملك المغرور المبتلى إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك كيلا ترد دعوة المظلوم فإني لأردّها وإن كانت من كافر ، وكان فيها أمثال منها : و على العاقل مالم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات ساعة يناجي ربه فيها و يفكر في صنع الله وساعة يحاسب نفسه فيما قدّم وأخّر وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال في المطعم والمشرب وغيرهما وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه ومن علم أن كلامه من عقله قلّ كلامه إلا فيما يفيد .

وإنما قدّم سبحانه في الذكر صحف موسى على إبراهيم لأن التوراة عندهم أشهر وأكثر وإنما وصف سبحانه إبراهيم بالتوفية لأنه عليه السلام بالغ في الوفاء والابتلاء واحتمل أموراً عظيمة كالصبر على نار نمرود بيقين ثابت حتّى أتمّ جبرئيل حين ألقى في النار فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أمّا إليك فلا ، وعلى ذبح الولد وعلى الهجرة وعلى ترك أهله وولده في واد غير ذي ذرع . روي أنه عليه السلام كان يمشي كلّ يوم يرتاد ضيفاً فإن وجدته أكرمه وإلا نوى الصوم وقد بذل مهجته للنيران وقلبه للرحمن وولده للقرّبان وماله للإخوان .

وبالجملة [و أن ليس للإِنسان إلا ماسعى] عطف على قوله : « ألا تزر » أي وهذا أيضاً ما في صحف موسى وإبراهيم أي ليس له من الجزاء إلا جزاء عمله و السعي المشي الذريع دون العدو ويستعمل للجد في الأمر و « أن » مخففة أي إن الشأن ليس للإِنسان في الآخرة إلا سعيه في الدنيا من العمل وهو بيان أنه لا يؤخذ بذنب الغير ولا يعطى ثواب عمل الغير له . قيل : كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى وأمّا هذه الأمة فلم يماسعوا وماسعى لهم غيرهم وينفع الله الآباء في الأبناء والآباء في الآباء وعلى ذلك قوله تعالى : « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيّهم أقرب لكم نفعا »^(١) ولما روي أن امرأة رفعت صبيّاً لها من محفّه وقالت : يا رسول الله ألهذا حج ؟ قال : نعم ولك أجره و المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره .

والمراد من الآية أن أحداً لا يقدر أن يدفع ويتحمّل عن غيره العقاب وهذا الحكم عام في كلّ الأمم والأقرب أن يكون قوله : « وأن ليس للإِنسان إلا ماسعى » خالصاً في

السيئة وأما في الحسنه فمن باب التفضل من العشر إلى السبع مائة وأزيد بطوله ورحمته .
 قيل : إن من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله كاد أن يخرق الإجماع من الفريقين
 العامة والخاصة وذلك باطل من وجوه :

أحدها أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره وهو انتفاع بعمل الغير .
 والثاني أن النبي يشفع لأهل الموقف في الحساب ثم لأهل الجنة في دخولها
 ولأهل الكبائر في الإخراج من النار أو قبل الدخول وهذا الانتفاع بسعي الغير .
 والثالث أن كل نبي وصالح له شفاعه وذلك انتفاع بعمل الغير .
 والرابع أن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الأرض وذلك منفعة بعمل الغير .
 والخامس أن الله تعالى يخرج من النار من لم يعمل خيراً قط بمحض رحمته وهذا
 انتفاع بغير عملهم .

والسادس أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم ذلك انتفاع بمحض عمل
 الغير وكذا الميت بالصدقة عنه وأن الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وليه عنه ولو
 بغير ماله وكذا تبرأ ذمة الإنسان من ديون الخلق إذا قضاها قاض وذلك انتفاع بعمل
 الغير وكذا من عليه تبعات ومظالم إذا حلل منها سقطت عنه .

والحاصل قال ابن عباس في رواية الوالبي : إن هذا منسوخ الحكم في شريعتنا
 لأنه سبحانه يقول : « ألحقنا بهم ذرياتهم »^(١) ، ورفع درجة الذرية وإن لم يستحقوها
 بأعمالهم ومن قال : غير منسوخ الحكم قال : الآية تدل على منع النيابة في الطاعات إلا
 ما قام عليه الدليل كالحج وهو أن امرأة قالت : يا رسول الله إن أبي لم يحج قال عليه السلام :
 فحجني عنه .

[وأن سعيه سوف يرى] أي ما يفعله الإنسان ويسعى فيه لا بد أن يرى فيما بعد
 ويجازى عليه ويبين ذلك بقوله : [ثم يجزاء الجزاء الأوفى] والهاء في « يجزاء » عائد
 إلى السعي أي يرى العبد سعيه يوم القيامة ثم يجزى سعيه أوفى الجزاء .

قوله تعالى : وان إلى ربك المنتهى (٢٢) وأنه هو اوضحك وابكي (٢٣)

وانه هو أمات وأحي (٤٤) وانه خلق الزوجين الذكر والانثى (٤٥) من نطفة اذا تمنى (٤٦) وان عليه النشأة الاخرى (٤٧) وانه هو أغنى واقنى (٤٨) وانه هو رب الشعري (٤٩) وأنه اهلك عاد الاولى (٥٠) وثمود فما ابقى (٥١) وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم واظفى (٥٢) والمؤتفة اهوى (٥٣) فغشاها ما غشى (٥٤) فبأى آلاء ربك تتماارى (٥٥) هذا نذير من النذر الاولى (٥٦) ازفة الازفة (٥٧) ليس لها من دون الله كاشفة (٥٨) أفمن هذا الحديث تعجبون (٥٩) و تضحكون ولا تبكون (٦٠) و أنتم سامدون (٦١) فاسجدوا لله واعبدوا (٦٢) .

المنتهى مصدرأي انتهاء الخلق في رجوعهم إلى الله بعد الموت لا إلى غيره فيجازيهم على أعمالهم [وأنه] تعالى [هو] خلق قوتي الضحك والبكاء و فعل سبب السرور والحزن و قيل : المراد أضحك أهل الجنة في الجنة وأبكى أهل النار في النار . وقيل : أضحك الأشجار بالأنوار ^(١) وأبكى السحاب بالأقطار أو أضحك المطيع بالرحمة وأبكى العاصي بالسخطه والضحك انبساط الوجه من سرور النفس وعجب في القلب والبكاء جريان الدمع على الخد عن غم في القلب وربما كان عن فرح يمازجه تذكر حزن .

قال النبي ﷺ لجبرئيل : مالي لم أرميكائيل ضاحكاً قط فقال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار ولقي يحيى عيسى ﷺ فتبسّم عيسى في وجه يحيى فقال يحيى : مالي أراك لاهياً كأنك آمن ؟ فقال عيسى : مالي أراك عابساً كأنك آيس ؟ فقالا : لا نبرح حتى ينزل علينا الوحي فأوحى الله تعالى أحبكما إلي أحسنكما فلتنا بي وفي رواية أحبكما إلي الطلق البسم .

[وأنه هو أمات و أحيأ] لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره لا خلقاً ولا كسباً فان أثر القاتل نقض البنية وتفريق الاتصالات لكن يحصل الموت عنده بفعل الله على العادة فللقاتل نقض البنية كسباً دون الإماتة وتقديم الإماتة على الإحياء لعل مراعاة الفواصل و لتقدم العدم قبل الوجود .

[وأنه] سبحانه [خلق الزوجين] من كل الحيوان صنفين [الذكر والانثى] *

(١) جمع النور بالفتح منشأ الانوار .

من نطفة [هي الماء القليل] إذا تمنى [وتدفق وتصب في الرحم من أمنى يمنى إماء أو من مادة قدر إذا ألقى على قدر يتكون منه الولد بقدره المقدرة بالحكمة البالغة و آدم وعيسى وحواء مستثنون من هذا الأمر .

[وأن عليه] أي على الله [الذنأة الأخرى] أي الخلق الأخرى وهو الإحياء بعد الإماتة وفاء بوعده وفيه تصريح بأن الحكمة الإلهية اقتضت الذنأة الثانية للجزاء وإيصال المؤمنين إلى كمالهم اللائق بهم ولو أراد تعجيل أجورهم في الدنيا لضاعت ثواب واحد منهم وأقل المؤمنين منزلة في الجنة من له فيها مثل الدنيا عشر مرات فما ظنكم بالباقي .

[وأنه هو أغنى] أعطى الغنى وأغنى بعض الناس بالأموال [وأقنى] وأعطى بعض الناس القنية وأصول المال وما يدخرون ويخزنون زيادة عن الكفاية . وقيل : أغنى بالقناعة وأقنى بالرضا والافتناء حفظ المال النفيس ، يقال : ليس من لمس درهماً صير فياً ولا من اقتنى درهماً جوهرياً وقيل : المعنى أغنى من شاء وأقنى أي حرم من شاء . وقيل : أغنى بالذهب والفضة والثياب وأقنى بالابل والبقر والغنم والحشم ، وإفراد القنية بالذكر بعد قوله : «أغنى» لأنها أشرف الأموال والأوفق من المعاني المذكورة في الإقناء الفقر مراعاة لصناعة الطباق ويكون الهمزة في باب الإفعال للسلب والإزالة أي أزال المال .

[وأنه هورب الشعري] كانت خزاعة تعبدتها وأول من عبدها أبو كبشة من أقوام أجداد النبي من قبل أمته وكان المشركون يسمون النبي ابن أبي كبشة لمخالفته ﷺ إياهم في الدين كما خالف أبو كبشة غيره في عبادة الشعري والشعري كوكب معروف نير خلف الجوزاء يقال له العبور وهي أشدّ بياضاً من الغميصاء وإن الشعري شعريان إحداهما اليمانية وهي المسمّاة بالعبور وثانيتهما الشاميّة وهي المسمّاة بالغميصاء فصلت المجرة بينهما، تزعم العرب أن الشعريين اختا سهيل وأن الثلاثة كانت مجتمعة فانهدر السهيل نحو اليمن و تبعته العبور فعبرت المجرة ولقيت سهيل وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل فغمصت عينها فكانت أقلّ نوراً من العبور فقال أبو كبشة وهو رجل من أشراف خزاعة : إن النجوم تقطع السماء عرضاً وهذه تقطع طولاً فليس نجم مثلاً فاتخذوها

معبوداً فقال سبحانه : إنه خالق الشعرى وهو مربوب ولا يصلح للإلهية وكل من كان من أهل البدع من الزنادقة والضالة يقال له : أبو كبشة .

[وأنه أهلك عاداً الأولى] هي قوم هود أهلكوا بريح صرصر وعاد الأخرى إرم ووصفهم بالأولى لتقدم هلاكهم بعد قوم نوح بحسب الزمان على هلاك سائر الأمم وعاد الأخيرة هي التي قاتلها موسى بأريحاء كانوا تناسلوا من الهزيلة بنت معاوية وهي التي نجت من قوم عاد مع بنيتها الأربعة عمر وعمره وعامر والعنيد وكانت الهزيلة من العمالق فالعاد الأخيرة أيضاً من عاد الأولى [وثمود فما أبقى] أي وأهلك ثمود قوم صالح فما أبقى أحداً منهم .

[و قوم نوح] عطف عليه أي أهلك قوم نوح [من قبل] إهلاك قوم عاد و ثمود [إنهم] أي قوم نوح [كانوا هم أظلم] لنبيهم [وأطغى] من الفريقين لأنهم كانوا يضربون نوحاً حتى لا يكون به حراك وما أثرت فيهم دعوته قريباً من ألف سنة وما آمن معه إلا قليل .

[والمؤتفكة] هي قرى قوم لوط ائتفكت بأهلها وانقلبت أي أهلك المؤتفكة وأهلها [أهوى] أي أسقطها إلى الأرض مقلوبة والأهواء بمعنى الإلقاء وألقاها في الهاوية [فغشأها ما غشى] من فزون العذاب أي أستر تلك المدائن وألبس الله المؤتفكة ما ألبسها من الحجارة المنضودة المسومة مثل قوله تعالى ^(١) : « فغشيهم من اليم ما غشيهم » .

قوله : [فبأي آلاء ربك تتماري] الآلاء النعم واحداً آلى والتماري المجادلة والمحااجة والخطاب من باب التعريض بالغير مثل قوله : « لئن أشركت ليحبطن عملك » وجعل الأمور المعدودة نعماً مع أن بعضها نعم لما أنشأ أيضاً نعم من حيث إنشأ نصرته للأنبيا والمؤمنين وفيها عظات وعبر للمعتبرين وهلاك أعداء الله من أعظم آلائه الواصلة إلى المؤمنين . وحاصل المعنى بأي هذه النعم يشكون ويترددون ويتخاصمون والخطاب لأفراد الأمة ولذا أفرد لاشتمال النبي ﷺ على أمته وفيه إشارة إلى أنه كما نصرت إخوانك من الأنبياء الماضين وأهلك أعداءهم فكذلك أفعل بك فلا تك قلبك في حرج

من عنادهم .

[هذا نذير من النذر الأولى] إشارة إلى القرآن أي هذا القرآن إنذار كائن من قبيل الإنذارات المتقدمة أو إشارة إلى الرسول فحينئذ النذير بمعنى المنذر لا بمعنى المصدر الذي هو نذير أي هذا الرسول نذير من جنس المنذرين المتقدمين وكل منذر متأخر فهو من قبيل النذير المتقدم لاتحاد كلمتهم ودرؤتهم إلى الله على بصيرة فطوبى لمن تابع وويل لمن خالف .

[أذفت الآفة] في إبراده عقيب المذكورات إشعار بأن تعذيبهم مؤخر إلى يوم القيامة تعظيماً للنبي ﷺ والأذف ضيق الوقت وإشارة إلى قرب الساعة ودرؤها وكل ما هو آت قريب [ليس لها من دون الله كاشفة] إذا غشيت الخلق شدائدها وأهوالها لم يكشف عنهم أحد ولم يردّها أي لا يكون نفس كاشفة أو جماعة كاشفة ويجوز أن يكون مصدراً كالعافية والعاقبة والواقية فيكون المعنى ليس من دون الله كشف ولا يكشف عنها غيره كقوله : لا يجليها لوقتها إلا هو ^(١)، أي ليس لها أنفس قادرة على إزالتها وكشفها عند وقوعها في وقتها إلا الله ويجوز أن يكون التاء للمبالغة كتاء علامة وقيامة ، العارفين بالله المخصوصين بالولاية الكليّة مشهودة عنهم ولا يتوقف شهودهم على وقوع القيامة الظاهرة كما قال سيّد الأواباء أمير المؤمنين : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً فطوبى لمن وصل إلى حقّ اليقين .

[أفمن هذا الحديث تعجبون] استفهام إنكاري والعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء قال بعض الحكماء : العجب ما لا يعرف سببه أي أمن هذا الأخبار المتقدمة ذكرها تعجبون قال الصادق عليه السلام : هذا المعنى أو أفمن هذا القرآن ونزوله من عند الله تعجبون أيها المشركون وهذا دليل على حدوث القرآن .

[وتضحكون] استهزاء ولا تبكون انزعجاً وتنبيهاً من الوعيد [وأنتم سامدون] ولاهون في الغفلة ، وقيل : معرضون . وقيل : المراد الغناء باغة الحمير لأن المشرّكين كانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء ليشغلوا الناس عن استماعه روي أنّه ﷺ ما رئي ضاحكاً بعد نزول هذه الآية .

و عن أبي هريرة : لما نزلت هذه الآية بكى أهل الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم فلما سمع رسول الله حنينهم بكى معهم فبكينا لبكائه فقال ﷺ : لا يلج النار من بكى من خشية الله ولا يدخل الجنة مصر على معصية الله ولو لم تذبوا لجاء الله بقوم يذبون ثم يغفر لهم . وفي تفسير روح البيان : إن النبي ﷺ نزل عليه جبرئيل وعنده رجل يبكي فقال جبرئيل : من هذا ؟ فقال : فلان فقال جبرئيل : إنا نزن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء فإن الله ليطفى بالدمعة بحوراً من نيران جهنم .

[فاسجدوا لله واعبدوا] الفاء لترتيب موجب الأمر على ما تقرر من بطلان مقابلة

القرآن بالإنكار والاستهزاء ووجوب تلقّيه بالإيمان وكمال الخضوع أي وإذا

كان الأمر كذلك وحال الكفار ما بينناه فاسجدوا لله ، الذي فعل

هذه الأمور وأنزل هذا الحديث والقرآن ، و اعبدوه

ولا تعبدوا غيره من ملك أو بشر فضلاً عن جحد

كالأصنام والكواكب . تمت السورة

بعون الله

سورة القمر

☆ (مكية) ☆

عن النبي ﷺ ومن قرأ سورة اقتربت في كل غيب بعث يوم القيامة ووجهه على صورة القمر ليلة البدر ومن قرأها كل ليلة كان أفضل وجاء يوم القيامة ووجهه مسفر على وجوه الخلائق .

وروى يزيد بن خليفة عن الصادق عليه السلام : من قرأ سورة اقتربت أخرجه الله من قبره على ناقة من نوق الجنة ختم الله تلك السورة بذكر أزفت الآزفة وافتتح هذه السورة بمثله فقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقتربت الساعة وانشق القمر (١) وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر (٢) وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (٣) ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر (٤) حكمة بالغة فما تغن النذر (٥) فتول عنهم يوم يدع الداع الى شيء نكر (٦) خشعا أبصارهم يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر (٧) مهطعين الى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر (٨) كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) فدعاه ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) .

الاقتراب لزيادة مبالغة في القرب كما في اقتدر مبالغة على قدر أي قربت الساعة التي تموت فيها الخلائق وتكون القيامة والساعة جزءاً من أجزاء الزمان عسى بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك لسرعة حسابها أو لأنها يقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم .

قال عليه السلام : إن الله جعل الدنيا كلها قليلاً فما بقي منها قليل من قليل ومثل ما بقي منها مثل الغدير شرب صفوه وبقي كدره فالاقتراب في الآية يدل على مضي الأكل وكثروا مضي الأقل عن قريب كما مضي الأكل .

قال صاحب تفسير روح البيان : وقد قيل : إن مدة هذه الأمد تزيد على ألف بنحو خمسمائة سنة ولا يكون الزيادة إلى خمسمائة سنة بعد الألف من الهجرة لعدم ورود الأخبار في ذلك ؛ وقد قال عليه السلام : مثلي ومثل الساعة كفرس رهان فإذا وجوده عليه السلام من أشرط الساعة فمعجزاته من انشقاق القمر تكون كذلك . قيل : إن آدم خاطبته الدنيا وقالت : يا آدم جئت وقد انقضى شبابي . فأدم على هذا التقدير جاء إلى الدنيا وقد انقضى عمرها وبقي شيء قليل منها وعلى هذا يحمل قول من قال : إن عمر الدنيا سبعون ألف سنة .

وأما تعيين وقت الساعة فقد انفرد الله بعلمه وأخفاه عن عباده وفي الحديث : إن بين يدي الساعة كذا ابن فاحذروهم والمراد بالكذا ابن الدجاجة وهم الأئمة المضلون فكل كذا اب مبتدع فهو من مقدّمات الدجال وأصحابه كما أن كل أهل صدق وحق من مقدّمات المهدي انتهى كلام صاحب روح البيان .

قوله : [وانشق القمر] قال ابن عباس : اجتمع المشركون إلى رسول الله فقالوا : إن كنت صادقاً فانشق القمر فرقتين فقال لهم ﷺ : إن فعلت تؤمنون ؟ قالوا : نعم ، وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله ربه أن يعطيه ما قالوا فانشق القمر فرقتين ورسول الله ينادي يا فلان يا فلان اشهدوا قال عبدالله بن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله شقتين فقال لنا رسول الله : اشهدوا اشهدوا . وروي أيضاً عن ابن مسعود أنه قال : والذي نفسي بيده لقد رأيت الحراء بين فلق القمر . وعن جبير بن مطعم قال : انشق القمر على عهد رسول الله فرقتين على هذا الجبل وهذا الجبل فقال ناس : سحرنا محمد .

وقد روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة منهم عبدالله بن مسعود وأنس بن مالك وحذيفة بن يمان وابن عمر وابن عباس وجبير بن مطعم وعبدالله عمر وعليه جماعة من المفسرين إلا ما روي عن عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال : سينشق القمر وأنكره الباقر .

قال البلخي : هذا لا يصح لأن المسلمين أجمعوا على ذلك فلا يعتد بخلاف من خالف فيه لأن اشتهازه بين الصحابة يمنع من القول بخلافه .

ومن طعن في ذلك بأنه لو وقع انشقاق القمر لما كان يخفى على أحد من أهل الأقطار فقول باطل لأنه يجوز أن يكون الله قد حجب عن أكثرهم مصلحة لا نعرفها وقد رآه المفترحون . وفي كتاب فتح الباري لابن حجر : إن الجذع وانشقاق القمر نقل مستفيضاً يفيد القطع عند من يطلع على طرق الحديث وأسند أبو إسحاق الزجاج عشرين حديثاً إلا واحداً في تفسيره في انشقاق القمر ، قال سعدى المفتي : وقد رواه ستون أو أكثر من الصحابة .

[وإن يروا آية يعرضوا] إخبار عن حال كفار قريش إن يروا آية من آيات الله

وهي معجزة لمحمد ﷺ و دليل على صدق نبوته يعرضوا عن التأمل فيها ليقفوا على حقيقتها فيؤمنوا [ويقولوا] هذا [سحر مستمر] مطرد دائم يأتي به محمد ﷺ كسائر أنواع السحر. والاستمرار بمعنى الاطراد أي تتبع بعضه بعضاً وهو يدل على أنهم رأوا قبل انشقاق القمر آيات أخرى مترادفة حتى يقولوا ذلك وفيه تأكيد وقوع الانشقاق لا أنه سينشق يوم القيامة كما قاله بعض . و يجوز مستمر بالكسر من المرة والقوة أي سحر ذو قوة شديدة يعلو كل سحر وقيل : معناه مستمر أي ذاهب يزول ولا يبقى من المرور .
[وكذبوا] بالنبي [واتبعوا أهواءهم] التي زينها الشيطان لهم من رد الحق بعد ظهوره أو كذبوا الآية التي هي الانشقاق وقالوا : سحر أعيننا والقمر بحاله ولم يصبه شيء .
[أو كل أمر مستقر] أي وكل ما وعد الله به كائن في وقته و حاصل لا محالة فالخير يستقر بأهله والشر بأهله أو أن المعنى كل أمر من خير و شر مستقر ثابت حتى يجازي به صاحبه إما في الجنة أو في النار .

[ولقد جاءهم من الأنباء] أي وباللّٰه لقد جاءهم يعني أهل مكة في القرآن من الأخبار النافعة ولا يقال لخبر في الأصل : نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن أي أتاهم في القرآن أنباء القرون الخالية و أحوال الآخرة وما وصف من عذاب الكفار [ما فيه مزدجر] أي ازدجار أو موضع ازدجار وتاء الافتعال يقلب دالا للتناسب في المخرج يقال : زجره أي نهاه عن السوء وعظه غير أن أفتعل أبلغ في المعنى من فعل وأيضاً الزجر طرد بصوت ثم استعمل في الطرد تارة وفي الصوت تارة فحينئذ قوله : « مزدجر » أي فيه طرد ومنع عن ارتكاب المآثم .

[حكمة بالغية] لاخلل فيها وقد بلغت الغاية في الإنذار والموعظة وهو يدل من ما أُوخِر لمحذوف والحكمة بالكسر العدل والعلم والحكم والنبوة والقرآن وإصابة الحق بالعلم وإذا وصف القرآن بالحكيم فلتضمنه الحكمة وهي علمية وعملية والقرآن حاولهما [فماتغني النذر] ومفعول تغني محذوف أي لم تغن النذر شيئاً إذا كذبوا وما تنفعهم لتكذيبهم وفيه إشارة إلى عدم انتفاع النفوس المتمردة بالإنذار منذر الروح [فتول عنهم] والفاء للسببية أي بسبب أن الإنذار لا يؤثر فيهم أعرض عنهم إلى أن تؤمر بقتالهم وانتظر

عقوبتهم [يوم يدع الداع] أصله يدعو الداعي لما حذف الواو يدعو من التلطف لاجتماع الساكنين حذفت في الخط أيضاً اتباعاً للفظ وأسقطت الياء من الداعي للاكتفاء بالكسرة تخفيفاً و يوم منصوب يخرجون والداعي إسرافيل ينفخ في الصور قائماً على صخرة بيت المقدس ويدعو الأموات وينادي : أيتها العظام البالية واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمر كن أن تجتمعن لفصل القضاء . وقيل : إن إسرافيل ينفخ و جبرئيل يدعو وينادي بذلك وقال بعضهم : هو مجاز كالأمر في قوله : « كن فيكون » فحينئذ الدعاء في البعث مثل كن في التكوين ويكون الدعاء عبارة عن مشيئة والأصح بقاؤه على حقيقته .

[إلى شيء نكر] أي منكر غير معتاد بل أمر فظيع لم يروا مثله ، قرى ، بضمين وقرى بسكون الكاف و كلاهما بمعنى المنكر ينكره النفوس وهو هول يوم القيامة ومنه منكر و نكير لأنه لم يعهد عند الميت مثله .

[خشعاً أبصارهم] حال من فاعل « يخرجون » أي خاشعة أبصارهم وذليلة خاضعة عند رؤية العذاب وإنما وصف الأبصار بالخشوع لأن ذلة الذليل وعزّة العزيز تتبين وتظهر في العين [يخرجون من الأجداث] أي القبور حال كونهم ذليلين [كأنهم جراد منتشر] في الكثرة والتموج والتفرق في الأقطار .

[مهطعين إلى الداع] أي مسرعين إلى جهة الداعي مادّين أعناقهم إليه ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم يقال : هطع الرجل إذا أقبل يبصره على الشيء لا يقطع عنه وأهطع إذا مدّ عنقه وأهطع في عدوه إذا أسرع .

[يقول الكافرون] استيناف وقع جواباً عما نشأ من وصف اليوم بالأحوال كأنه قيل : فما ذا يكون حينئذ ف قيل في الجواب : يقول الكافرون [هذا يوم عسر] أي صعب شديد علينا فيمكنون بعد الخروج من القبور واقفين أربعين سنة يقولون : أرحنا من هذا أو إلى النار ثم يؤمرون بالحساب وفي إسناد القول المذكور إلى الكفار تلويح بأن المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة من الشدة بل ذلك اليوم يسير لهم ببركة إيمانهم وأعمالهم بل المطهرون الذين ماتت نسل بواطنهم بالشبهة المضلة ولا ظواهرهم أيضاً بالمخالفات الشرعية آمنون .

[كذب قبلهم قوم نوح] أي فعل التكذيب قبل قومك قوم نوح تسليمة للرسول
[فكذبوا عبدنا] نوحاً تفسير لذلك التكذيب المبهم مثل قوله ^(١) : « ونادى نوح ربه فقال
ربّ، فالملكذب والمقامان واحد والفاء تفصيلية تفسير به تعقيدية في الذكر فإن التفصيل
يعقب الإجمال وفي ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم لنوح عليه السلام
و رفع لحاله وزيادة تشنيع ملكذيه وإشارة إلى أنه لاشيء أشرف من العبودية .

[وقالوا] في حقّه [مجنون] قد غطي على عقله [وازجر] أي وزجر بالشتم والرمي
بالقيح وتوعد بالقتل ومنع عن التبليغ بأنواع الأذية وقيل : المعنى أن وازجر من جملة
ما قالوه أي هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبّطته وأفسدته وزهبت بلبّه .

[فدعا ربه] أي لما زجروا نوحاً عن الدعوة ومنعوه أشد المنع وبلغ مدة التبليغ
و كمل إلى تسعمائة وخمسين سنة دعا ربه [أنني مغلوب] أي بأنني مغلوب من جهة قومي و
مالي قدرة على الانتقام منهم [فانتصر] فانتقم لي منهم وذلك بعد تقرر بأسه منهم فقدروي
أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً فيفيق ويقول : اللهم اغفر لقومي
فإنهم لا يعلمون فلما أذن الله له في الدعاء للإهلاك دعا فأجيب كما قال في الصافات :
« ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون » ^(٢) .

ففتحننا أبواب السماء بماء منهمر ^(١١) و فجبرنا الأرض عيوناً فالتقى
الماء على امر قد قدر ^(١٢) وحملناه على ذات ألواح و دسر ^(١٣) تجري
بأعيننا لمن كان كفر ^(١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر ^(١٥) وكيف كان
عذابي ونذر ^(١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ^(١٧) كذبت عاد
فكيف كان عذابي ونذر ^(١٨) إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس
مستمر ^(١٩) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ^(٢٠) فكيف كان عذابي
ونذر ^(٢١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ^(٢٢) .

ثم بين سبحانه إجابته لدعاء نوح فقال :

[ففتحننا أبواب السماء] ههنا حذف تقديره فاستجبنا لنوح دعاءه فأجرينا الماء
من السماء كجريانه إذا فتح عنه باب كان مانعاً له وذلك من صنع الله الذي لا يقدر عليه

سواء [بماء منهمر] الهمر صبّ الدمع والماء ؛ همره يهمره صبّه و انهمر انسكب و سال و المعنى بماء كثير منصبّ لم ينقطع أربعين يوماً و كان مثل الثلج بياضاً و برداً و الباء للملابسة .

[وفجّرنا الأرض عيوناً] أي شققنا الأرض بالماء عيوناً حتى جرى الماء على وجه الأرض قيل : وكان ماء الأرض مثل الحميم حرارة وأصله : وفجّرنا عيون الأرض ، فجبر عن المفعولية إلى التمييز قضاءً لحقّ المقام من المبالغة .

[فالتقى الماء] أي ماء السماء وماء الأرض وارتفع على أعلى جبل في الأرض مائتين ذراعاً [على أمر قد قدر] على حال قد قدره الله أو على حالة قدرت وهو أن قدر ما أنزل الله من السماء على قدر ما أخرج من الأرض أو المعنى على أمر قدره الله في اللوح المحفوظ وهو هلاك قوم نوح وإنما لم يشنّ ولم يقل : فالتقى الماءان لأنه اسم الجنس يقع على القليل والكثير .

[و حملناه على ذات ألواح] أي حملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح مركبة جمع بعضها إلى بعض والأواح خشباتها التي صنعت منها واللوح كل صحيفة عريضة [ودر] جمع دسار وهو الدفع الشديد بقهر سمّي به المسمار لأنه يدرس به منفذ ويدفع بالدق . [تجري بأعيننا] أي تجري السفينة و تسير بمرئى منّا و محفوظة بحفظنا و منه قولهم للمودع : عين الله عليك [جزاء لمن كان كفراً] أي فعلنا بهم ما فعلنا من إغراقهم جزاء لمن جحد نبوته وكفر بالله .

[ولقد مر كناها آية فهل من مدّكر] قيل : الضمير راجع إلى الفعلة وهي الغرق وقيل : راجع إلى السفينة أبقاها الله دهرأ طويلاً بياقردى من بلاد الجزيرة و في تفسير أبي الليث إن تلك السفينة كانت باقية على الجبل الجودي قريباً من خروج النبي ﷺ ثم اضمحلت ألا ترى أن مقام إبراهيم مع كونه حجراً صلباً لم يبق أثره بكثرة مسح الأيدي ثم لم يبق نفسه على ما هو الأصحّ والمعروف بالمقام الآن هو مقام ذلك المقام و قيل : المراد من قوله : « وتر كناها » أي جنس السفينة صارت عبرة وأنّ الناس لم يعرفوا قبل ذلك سفينة واتخذوا السفن بعد ذلك في البحر فكذلك كانت آية للناس .

قال بعضهم : لم يكن في الدنيا قبل الطوفان إلا البحر المحيط و ذلك أن الله أمر الأرض بعد الطوفان فابتلعت ماءها وبقي ماء السماء لم تبلعه الأرض فهذه البحور على وجه الأرض منها وأما البحر المحيط فغير ذلك بل هو جزر عن الأرض حين خلق الله الأرض من زبدته وإليه الإشارة بقوله : « وكان عرشه على الماء » وبالجمله وكان نوح نجاراً فجاء جبرئيل وعلمه صنعة السفينة « فهل من مدكر » أصله مدتكر أدغمت الدال في التاء ثم قلبت دالاً مشددة .

[فكيف كان عذابي ونذر] استفهام تعجيب وتعظيم على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف والنذر جمع نذير أصله نذيري حذف الياء واكتفي بالكسرة .
[ولقد يسرنا القرآن] أي و بالله لقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم كما قال : « فإِنَّمَا يُسْرِنَا بِلسَانِكَ » [للذكر] بأن وشحناء بأنواع العبر والمواظ وعن الحسن عن النبي ﷺ لولا قول الله : « ولقد يسرنا القرآن للذكر » لما أطاقت الإنس أن يتكلم به [فهل من مدكر] إنكار ونفي للمتعظ .
[كذبت عاد] بالرسول الذي بعثه الله إليهم وهو هود فاستحقوا الهلاك فأهلكهم .
[فكيف كان عذابي] لهم [ونذر] أي وإنذاري .

ثم يبين كيفية إهلاكهم فقال : [إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصراً] أي شديدة الهبوب وقيل : المراد من الصر وهو البرد أو من صر الباب والقلم أي شديدة الصوت وهي ريح الدبور وتقدم تفصيله [في يوم نحس] النحس ضد السعد أي شؤوم [مستمر] صفة ليوم أو نحس أي استمر شؤومه عليهم واتصل عذابهم في الدنيا حتى اتصل بالعقبى وروى العياشي عن أبي جعفر أنه كان في يوم الأربعاء آخر الشهر لا تدور ويمكن أن يكون المراد من اليوم الحين وابتداء ذلك يوم الأربعاء .

[تنزع الناس] أي ريحاً تقلع الناس روي أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى أو ينزع أرواحهم من أجسادهم دامت عليهم سبع ليالي وثمانية أيام كيلاً ينجو منهم أحد ممن في كهف أو سرب فأهلكت من كان ظاهراً ومستتراً بالافتلاع والهدم أو الجوع والعطش [كأنهم أعجاز نخل منقعر] عجز الإنسان

مؤخره والنخل اسم جنس يفرق بين جمعه وواحدته بالتاء ، والمنعقر المنقلع عن أصله قيل : شبتهم بأعجاز النخل وهي أصولها بلا فروع لأن الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رؤوس .

قال أبو الليث : صرعتهم وكتبتهم على وجوههم كأنهم أصول نخل منقلعة من الأرض فشبتهم لطولهم بالنخل الساقط قال مقاتل : كان طول كل واحد منهم اثني عشر ذراعاً وقال الكلبي : كان طول كل واحد منهم سبعين ذراعاً فاستهزءوا حين ذكر لهم الريح فخرجوا إلى الفضاء وضربوا بأرجلهم وغيبوا في الأرض إلى قريب من الركبة فقالوا : قل للريح حتى ترفعنا فجاءت الريح وجعلت ترفع كل اثنين وتضرب أحدهما بالآخر بعدما ترفعهما في الهواء ثم تلقيهما في الأرض ثم رمت بالرمل والتراب عليهم .

[فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر] مرة

تفسيرها .

كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا ابشرا واحداً منا تتبعه انا اذا لقي ضلال وسعر (٢٤) .

[كذبت ثمود بالنذر] أي الأندار التي سمعوها من صالح أو بالرسول فإن تكذيب أحدهم تكذيب للكل للاتفاق على الأصول [فقالوا أبشراً منا] أي من جنسنا واتصاف بشر بفعل يفسره ما بعده [واحداً] أي منفرداً لا تبع له أو واحداً من آحادهم لا من أشرافهم [تتبعه] في أمره [إنا إذا لقي ضلال وسعر] أي تقدير اتبعنا له وهو منفرد ونحن أمة ، في الغواية عن الحق والصواب وجنون ، يقال : ناقة مسعورة إذا كان بها جنون وأصله التهاب الشيء .

ءالقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غداً من الكذب الأشر (٢٦) انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبتهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣٢) .

[ءالقي الذكر] بقية من كلام القوم أي ءالقي الكتاب والوحي [عليهم من بيننا] و

فينا من هو أحق بذلك والاستفهام للإيثار [بل كذاب أشرف] شديد الكذب فيما يقوله بطر متكبر يريد أن يتعظم علينا بالنبوة [سيعلمون غداً من الكذاب الأشرف] وهذا وعيد لهم سيعلمون يوم القيامة إذا نزل بهم العذاب أهوال الكذاب أم هم في تكذيبه فذكر مثل لفظهم مبالغته في توبيخهم وإنما قال : « غداً » على وجه التقرب على عادة الناس كما يقال : إن مع اليوم غداً .

[إنما مرسلو الناقة فتنة لهم] باعثو الناقة بأشائها على ما طلبوها معجزة لصالح واختباراً لهم إذ بها يتميز المئاب من المعاقب [فارتقبهم] أي انتظر بإصالح فيهم أمر الله [واصطبر] على ما يصيبك من الأذى حتى يأتي أمر الله .

[ونبتهم أن الماء قسمة بينهم] يوم للناقة ويوم لهم [كل شرب محتضر] أي كل نصيب من الماء يحضر أهله لا يحضر آخر معه ففي يوم الناقة يحضر الناقة وفي يومهم يحضرونه وحضر واحتضر بمعنى واحد وإنما قال : « قسمة بينهم » تغليبا لمن يعقل .

[فنادوا صاحبهم] وهو قدار بن مالف بضم القاف وكان قصيراً شريراً أزرق أشقر أحمر يلقب بأحمر ثمود [فتعاطى فعقر] مجاز عن الاجترأ والتعاطى تناول الشيء بتكلف والعقر ضرب القوائم أي فاجترأ صاحبهم قدار على تعاطي الأمر العظيم فأحدث العقر بالناقة ومعنى « نادوا صاحبهم » أي نسبوا قدار على مجيء الناقة وقر بها من مكنه .

[فكيف كان عذابي ونذر] مر تفسيره [إنما أرسلنا عليهم صيحة واحدة] هي صيحة جبرئيل جزاء الوفاق لفعلهم فإنهم صاروا سبياً لصيحة الولد بقتل أمه [فكانوا كهشيم المحتظر] أي فصاروا لأجل تلك الصيحة بعد أن كانوا في نضارة عيش ودعة كاليابس المكسّر من الشجر وغيره وأصله جمع الشيء في حظيرة والمحتظر بكسر الظاء الذي يجمع و يعمل الحظيرة قال الجوهري : الحظيرة التي تعمل للإبل من الشجر لتقيها البرد والريح .

[ولقد بسترنا القرآن للذكر فهل من مدكر] مر تفسيره : ونعم المذكر القرآن لكن لصالح النفس للثمود النفس :

وما ينفع الأصل من هاشم * إذا كانت النفس من باهلة

وهي قبيلة تعرف بالدناءة و حقيقة النفس واحدة غير متعددة لكن بحسب توارد الصفات المختلفة عليها تسمى بالأسماء المختلفة فإذا توجهت إلى الحق توجهت تسمى بالمطمئنة وإذا توجهت إلى الطبيعة البشرية توجهت كلياً تسمى بالأمتارة وإذا توجهت إلى الحق تارة وإلى الطبيعة أخرى تسمى اللوامة .

كذبت قوم لوط بالنذر (٣٣) أنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر (٣٥) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر (٣٨) فذوقوا عذابي ونذر (٣٩) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٤٠) ولقد جاء آل فرعون النذر (٤١) كذبوا بآياتنا كلها فاخذناهم أخذ عزيز مقتدر (٤٢) .

[كذبت قوم لوط] بالإيذار أو بالمنذرين ولهم الرسل ومن كذب نبياً فقد كذب بالأنبيا [إنا أرسلنا عليهم حاصباً] ريحاً حصبتهم ورمتهم بالحجارة و الحصباء ، يريد ما حصبوا من الحجارة في الريح قال الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضر بنا * بحاصب كنديف القطن منشوراً

ثم استثنى آل لوط ، خلصناهم بسحر من ذلك العذاب من الأسحار وهو السدس الأخير من الليل أو السحر وقت اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار والاستثناء منقطع لأنه مستثنى من الضمير في عليهم ولا يدخل فيهم آل لوط [نعمة من عندنا] أنعمنا إنعاماً منا [كذلك] مثل ذلك الجزاء [نجزي من شكر] نعمتنا بالإيمان والطاعة من المؤمنين .

[ولقد أنذرهم بطشتنا] أنذر لوط عليه السلام أخذتنا الشديدة بالعذاب [فتماروا] فكذبوا [بالنذر] متشاكين وأصله تماربوا على وزن تفاعلوا .

[ولقد راودوه عن ضيفه] والمرادة أن تنازع غيرك في الإرادة فتروء غير ما يروده لأنهم أرادوا من لوط تمكينهم من أضيفه وهم الملائكة في صورة الشبان ومعهم جبرئيل وقصدوا الفجور بهم ظناً منهم أنهم بشر .

[فطمسنا أعينهم] والطمس المحو واستيصال أثر الشيء أي مسحناها وسويناها كسائر الوجه بحيث لم ير لها شق روي أنهم لما دخلوا دار لوط عنوة صفقهم جبرئيل بجناحه فتركتهم يترددون لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط والصفق الضرب الذي ليس له صوت .

[فذوقوا] قلنا لهم على السنة الملائكة : ذوقوا [عذابي ونذر] والطمس من جملة ما أنذروه [ولقد صببهم بكرة] أي جاءهم وقت الصبح [عذاب] الخسف والحجارة [مستقر] يستقر بهم ويثبت لا يفارقهم حتى يفضي بهم إلى النار عذاب دائم متصل بعذاب القيامة لأنهم ينتقلون إلى البرزخ الموصول بالقيامة كما أشار إلى هذا المعنى قوله ﷺ : من مات قامت قيامته .

[ولقد يسرنا القرآن للذکر فهل من مدکر] مر ما فيه من التفسير .
[ولقد جاء آل فرعون النذر] أي و بالله لقد جاءهم الإنذار من جهة موسى و هارون [كذبوا بآياتنا كلها] يعني الآيات التسع وهي اليد والعصا والظوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وحل عقد من لسانه وانفلاق البحر .

[فأخذناهم] بالعذاب عند التكذيب [أخذ عزيز] لا يغالب [مقتدر] ولا يعجزه شيء والعذاب هو الإغراق في بحر القلزم أو النيل ولعل سر العذاب بالفرق أن فرعون كفر نعمة وجود موسى حيث وصل فرعون إلى تلك النعمة بسبب الماء الذي ساقه إليه في تابوته فلم يشكر لنعمة الماء ولانعمة موسى فانقلب النعمة نقمة فأهلكه بالماء .

قوله : أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براعة في الزبر (٤٣) أم يقولون نحن جميع منتصر (٤٤) سيهزم الجمع ويولون الدبر (٤٥) بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر (٤٦) ان المجرمين في ضلال وسعر (٤٧) يوم يسحبون في النار على وجوههم مس سقر (٤٨) انا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩) وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر (٥٠) واقدم اهلكنا أشياءكم فهل من مدكر (٥١) وكل شيء فعلوه في الزبر (٥٢) وكل صغير وكبير مستطر (٥٣) ان المتقين في جنات ونهر (٥٤) في مقعد صدق عند مليك مقتدر (٥٥) .

[أَكْفَارَكُمْ] يامعشر العرب [خير] عند الله قوة وشدة [من أولئك] المعدودين من قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون وأصابهم ما أصابهم مع كونهم أقوى منكم عدة وعدداً فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك [أم لكم براءة في الزبر] إضراب أي بل ألكم براءة وأمن من عذاب الله بمقابلة كفركم نازلة لكم في الكتب السماوية فلذلك تصرّون على كفركم وتأمنون بتلك البراءة .

[أم يقولون] جهلاً منهم : [نحن جميع منتصر] والالتفات للإبذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب أي بل يقولون واثقين بشوكتهم نحن أولو حزم وأمرنا مجتمع لأنرام ولا نضام ومتناصرين ينصر بعضنا بعضاً على أن يكون افتعل بمعنى تفعل مثل اختصم والإفراد في منتصر باعتبار لفظ جميع قال أبو جهل - وقد ركب فرساً كميئاً وقد حاف أنه يقتل محمداً ﷺ :- وننتصر اليوم من محمداً وأصحابه . وجرّ رأسه إلى رسول الله ابن مسعود .

[سيهزم الجمع ويولون الدبر] رد وإبطال لقولهم أي سيهزم جمع قريش البتة و يولون الأدبار والإفراد في الدبر إرادة الجنس أي ينصرفون عن الحرب منهزمين وينصر الله رسوله والمؤمنين وقد كان ذلك يوم بدر قال ابن عباس : بين نزول هذه الآية وبدر سبع سنين فالآية على هذا مكشّبة .

[بل الساعة موعدهم] أي ليس هذا تمام عقوبتهم بل القيامة موعدهم أصل عذابهم وهذا العذاب القليل من طلائعه [والساعة أدهى] والقيامة أعظم داهية وأقصى غاية من الفظاعة والداهية الأمر الذي لا يهتدي إلى الخلاص منه [وأمر] وأشدّ مرارة كما أن نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نارها .

[إنّ المجرمين] أي المشركين والكافرين من الأولين والآخرين [في ضلال وسع] أي في هلاك ونيران مسعرة ملتبهة أي في هلاك و ضلال عن الحق في الدنيا ونيران في الآخرة .

[يوم يسحبون] أي يوم القيامة يجرون في نار جهنم على وجوههم يقال لهم :

[ذوقوا مس سقر] على لحنهم ولذلك لم يصرف أو اسم لطبققتها الخامسة من سقرته النار إذا غيرته والمس كاللمس وهو إدراك ظاهر البشرة أي قاسوا حرها و ألمها فإن مسها سبب للتألم بها .

[إنا كل شيء خلقناه بقدر] من الأشياء وهو منصوب بفعل يفسر ما بعده ، خلقناه بقدر متعين اقتضته الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين فقدر بمعنى التقدير وهو تسوية صورته وشكله وصفاته أو المعنى خلقناه مقدراً مكتوباً في اللوح قبل وقوعه فحينئذ المراد تقديره في علمه الأزلي قضاء فالقضاء وجود جميع المخلوقات في اللوح والقدر وجودها في الأعيان بعد حصول شرائطها والتعبير عن الخلق متعلق بالوجود الظاهري في الوقت المعين وفي الحديث كتب الله مقادير الخلق كله قبل أن يخلق السماوات والأرض خمسين ألف سنة وعرشه على الماء .

[وما أمرنا] لشيء نريد تكوينه [إلا واحدة] لا تثني سريعة التكوين يعبر بالكلمة أي كن لأنه تعالى تكلم بكن والمراد إرادة من كن الإرادة المحضة [كلمح بالبصر] اللمح لمعان البرق وسرعة النظر وحاصل المعنى أن قضاءه في الخلق أسرع من لمح البصر .

[ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر] أي أشباهكم في الكفر من الأمم جمع شيعة وهو من يتقوى به من الإنسان وأنصاره وأتباعه ويقع على الواحد والاثني والجمع والمذكر والمؤنث [فهل من مدكر] متعظ يتعظ بذلك فيخاف .

[وكل شيء فعلوه في الزبر] من الكفر والمعاصي مكتوب على الفصيل في ديوان الحفظلة جمع زبور بمعنى الكتاب فهو بمعنى مذبور كالكتاب بمعنى المكتوب [وكل صغير وكبير] من الأعمال [مستطير] ومستطير في الكتاب بتفصيله يقال : استطره أي كتبه ، روي أن النبي ﷺ ضرب لصغائر الذنوب مثلاً فقال : إنما محضرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض وحضر جميع القوم فانطلق كل واحد منهم بحطب فجعل الرجل يجيء بالعود والآخى بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً فشيروا خبزهم ولحمهم وإن

الذنب الصغير يجتمع على صاحبه فيهلكه إلا أن يغفر الله له . اتقوا صفائر الذنوب ومحقراتها فإن لها من الله طالباً ولقد أحسن من قال :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى

و اصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

[إن المتقين] من المعاصي [في جنات] أي بساتين عظيمة الشأن [و نهر] أي أنهار الماء والخمر والعسل واللبن والأفراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل [في مقعد صدق] خبر بعد خبر والصدق بمعنى الجودة أي في مكان مرضي ومجلس حق و سالم من الكدورات [عند ملك مقتدر] المراد من العندية قرب المكانة لأقرب المكان والمسافة و الملك أبلغ من المالك والتنكير للتعظيم قال الصادق عليه السلام : مدح الله المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق وهو المكان الذي يصدق الله فيه وعده لأوليائه .

روى وهذه الرواية من طرق العامة ، روى صالح بن حيّان عن عبد الله بن بريدة أنه عليه السلام قال في هذه الآية : إن أهل الجنة يدخلون كل يوم مرتين على الجبارتعالى فيقرءون عليه القرآن وقد جلس كل امرئ مجلسه الذي له ومجلسي على منابر الدر والياقوت والزمرد والذهب والفضة بأعمالهم فلم تقرأ أعينهم بشيء قط كما تقرأ أعينهم بذلك ثم ينصرفون إلى رحالهم ناعمين قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد .

أقول : ومن المعلوم أن المراد بالدخول عليه تعالى دخول القرب والمكانة والشرف في موضع مخصوص في الجنة وليس المراد أنه تعالى متحيز في مكان من الجنة وهؤلاء يدخلون عليه تعالى شأنه أن يكون متحيزاً في مجلس ومكان وهذا معنى قوله عليه السلام : الفقراء جلساء الله و معلوم أن مقصد الصدق لا يقعد فيه إلا الصادقين ولا بد أن يكون صادقاً في قوله في الدنيا وفعله فيصون اللسان عن الكذب الذي هو أقبح الذنوب .

قال عليه السلام : التجارهم الفجار فقل : أليس الله قد أحل البيع ؟ قال : نعم

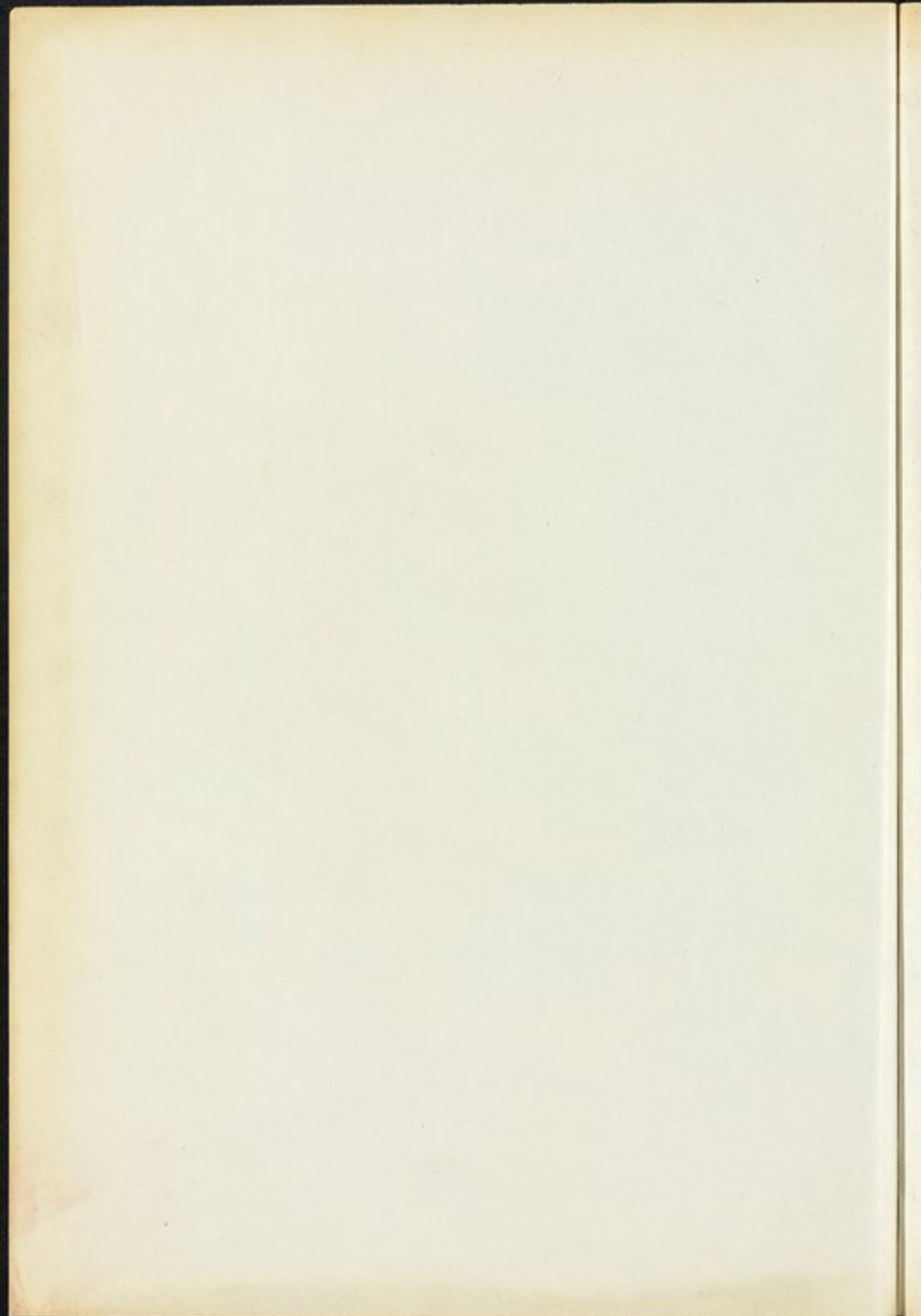
ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدّثون فيكذبون قال عليه السلام : الكذب

ينقص الرزق . في الحديث : أربع من كن فيه فهو منافق وإن

صام وصلّى وزعم أنّه مسلم : إذا حدث كذب وإذا وعد
أخلف وإذا اتّمن خان وإذا خاصم فجر، وأما الصدق
في فعله بأن يصون حاله عمّا ينقصه ويفسد عمله
غير خالص لله ولا بدّ أن يكون عزيمته مستمرة
على دوام الطاعة . نسأل الله أن يرزقنا
الصدق والكرامة إنّه حميد مجيد .
تمت السورة



نبجز الجزء العاشر من الكتاب وقد فسر فيه
ثلاث عشرة سورة وهي: الشورى، الزخرف،
الدخان، الجاثية، الأحقاف، نوح،
الفتح، الحجرات، ق، الذاريات،
الطور، النجم، القمر.
و لله الحمد



Library of



Princeton University.

Princeton University Library



32101 072714049

